الجزء الثاني

مقدمة ابن خلدون

تأليف العلامة

عبد الرحمن بن محمد بن خلدون

دراسة وتحقيق وتعليق

الدكتور علي عبد الواحد وافي

مقدمة ابن خلدون

الجـــزء الثانـــى

تأليـف العلامــة

عبـد الرحمـن بـن محمـد بـن خلـدون

مهّد لها، ونشر الفصول والفقرات الناقصة من طبعاتها
وحققها، وضبط كلماتها، وشرحها، وعلق عليها، وعمل فهارسها

الدكتور / عَلى عَبد الواحد وافى

دكتـوراه فـى الآداب مـن جامعــة باريـــس

عضــو «المجمــع الدولــى لعلم الاجتمــاع»

عميــد كليــة الآداب بجامعـــة أم درمـــان

عميــد كليــة التربيـــة بجامعـــة الأزهـــر

ووكيل كلية الآداب ورئيس قسم الاجتماع بجامعة القاهرة سابقًا

طبعة جديدة مزيدة ومنقحة

دار نهضة مصر للنشـــر

العنوان:

مقدمة ابن خلدون «الجزء الثانى»

تأليف:

عبد الرحمن بن محمد بن خلدون

تحقيق:

د. على عبد الواحد وافى

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

الترقيم الدولى: 978-977-14-2879-9
رقم الإيداع: 20506 / 2003
الطبعة السابعة: مارس 2014

تليفون: 33466434 - 33472864 02
فاكس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

دار نهضة مصر للنشر
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938
21 شارع أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثانى
فى العمران البدوى
والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض فى ذلك
من الأحوال وفيه فصول وتمهيدات(٣٥٠)

١ - فصل فى أن أجيال البدو والحضر طبيعية

اعلم أن اختلاف الأجيال فى أحوالهم إنما هو باختلاف نِحْلَتهم من المعاش فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضرورى منه وبسيط(٣٥١) قبل الحاجىّ والكمالى. فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة، ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لِنتَاجها(٣٥٢) واستخراج فضلاتها. وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة، ولابد، إلى البَدْو(٣٥٣)؛ لأنه متسعٌ لما لا

(٣٥٠) عرض ابن خلدون فى هذا الباب للمسائل التى يدرسها المحدَثون من علماء الاجتماع فيما يسمونه: «أصول المدنية الإنسانية» Origine da la civilisation – انظر السطرين العشرين والحادى والعشرين من ص ١٨٢ من الجزء الأول.

(٣٥١) حرفت هذه الكلمة فى جميع طبعات المقدمة حتى فى أحدث طبعة منها وهى طبعة «دار الكتاب اللبنانى» إلى كلمة و«نشيط» بنون فشين.

(٣٥٢) نُتِجَتْ الناقة (بالبناء للمفعول) نَتاجا بفتح النون والاسم بكسرها (من القاموس وهوامشه)، «ونتجها أهلها نَتْجا من باب ضرب: تلقوا الولد وأصلحوا من شأنها، والنِّتاج بالكسر اسم يشمل وضع البهائم من الغنم وغيرها» (المصباح). فكلمة النتاج فى عبارة ابن خلدون يصح أن تكون بفتح النون وبكسرها.

(٣٥٣) البدو والبادية والبداوة خلاف الحضر (من القاموس). وبدا إلى البادية بِدَاوة بالفتح والكسر خرج إليها، وتبدى أقام بها، والبَدْو مثال فَلْس خلاف الحضر، والنسبة إلى البادية بدوى (من القاموس والمصباح) ومنه قول أبى فراس الحمدانى:

بدوت وأهلى حاضرون لأننى ... أرى أن دارًا لستِ من أهلها قَفْرُ

يتَّسِعُ له الحواضر من المزارع والفُدُن[(٣٥٤)] والمسارح للحيوان وغير ذلك. فكان اختصاص هؤلاء بالبدو أمراً ضرورياً لهم، وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم فى حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكِنِّ والدَّفاءَة إنما هو بالمقدار الذى يحفظ الحياة، ويُحَصِّلُ بُلْغَة[(٣٥٥)] العيش من غير مزيد عليه، للعجز عما وراء ذلك.

ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرَّفْه، دعاهم ذلك إلى السكون والدَّعَة، وتعاونوا فى الزائد على الضرورة، واستكثروا من الأقوات والملابس، والتأنق فيها وتوسعة البيوت واختطاط[(٣٥٦)] الأمصار للتحضر. ثم تزيد أحوال الرَّفْه والدَّعَة فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها فى التأنق فى علاج القوت واستجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة فى أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك، ومعالاة البيوت والصروح وإحكام وضعها فى تنجيدها[(٣٥٧)]، والانتهاء فى الصنائع فى الخروج من القوة إلى الفعل إلى غاياتها، فيتخذون القصور والمنازل، ويُجْرون فيها المياه، ويعالون فى صَرْحِها، ويبالغون فى تنجيدها[٣٥٧]، ويختلقون[(٣٥٨)] فى استجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو آنية أو ماعون. وهؤلاء هم الحضر، ومعناه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان. ومن هؤلاء من ينتحل فى معاشه الصنائع[١٣٦] ومنهم من ينتحل التجارة. وتكون مكاسبهم أنمى وأرفه من أهل البدو؛ لأن أحوالهم زائدة على الضرورى ومعاشهم على نسبة وُجْدهم[٣٦٠].

فقد تبين أن أجيال البدو والحضر طبيعية لابد منهما كما قلناه.

---

(٣٥٤) «الفدان بالتثقيل آلة الحرث، ويطلق (كذلك) على الثورين يحرث عليهما فى قِرَان، وجمعه فدادين، وقد يخفَّف (فَدَان) فيجمع على أفدنة وفُدُن» (المصباح).

(٣٥٥) البُلْغَة بالضم ما يُتَبَلَّغ به من العيش ولا يفضل، يقال تَبَلَّغ به إذا اكتفى به (من القاموس والمصباح).

(٣٥٦) الخطَّة المكان المختط لعمارة والجمع خطط مثل سدرة وسدر، والأرض يختطها الرجل لم تكن لأحد قَبله، واختط الخطَّة اتخذها لنفسه وأعلم عليها (من القاموس والمصباح). والخُطَّة بالضم الخصلة والحالة والأمر، يقال توالى خُطَّة القضاء. أى أمر القضاء (من القاموس والمصباح).

(٣٥٧) لكلمة «التنجيد» عدة معان منها التزيين، وهو المقصود هنا (انظر القاموس).

(٣٥٨) فى جميع النسخ «ويختلفون..» بالفاء، وهو تحريف، وصوابه «يختلقون» بالقاف أى يبتدعون على غير مثال سابق.

٢ ـ فصل فى أن جيل العرب(٣٥٩) فى الخلقة طبيعى

قد قدمنا فى الفصل قبله أن أهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعى من الفلح والقيام على الأنعام، وأنهم مقتصرون على الضرورى من الأقوات

---

(٣٥٩) يستخدم ابن خلدون فى معظم فصول المقدمة كلمة «العرب» بمعنى الأعراب أو سكان البادية الذين يعيشون خارج المدن ويشتغلون بمهنة الرعى، وخاصة رعى الإبل، ويتخذون الخيام مساكن لهم، ويظعنون من مكان إلى آخر حسب مقتضيات حياتهم وحاجات أنعامهم التى يتوقف معاشهم عليها؛ وهم المقابلون لأهل الحضر وسكان الأمصار. كما تدل على ذلك الحقائق نفسها التى عرضها ابن خلدون فى الفصول التى وردت فيها هذه الكلمة:

فهو يقول فى هذا الفصل: «وأما من كان معاشهم فى الإبل فهم أكثر ظعنا وأبعد فى القفر مجالا... فكانوا لذلك أشد الناس توحشاً، وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوان العجم؛ وهؤلاء العرب. وفى معناهم ظعون البربر وزناتة بالمغرب والأكراد والتركمان بالمشرق. إلا أن العرب أبعد نُجْعَةً وأشد بداوة لأنهم مختصون بالقيام على الإبل فقط».

ويقول فى الفصل التاسع من هذا الباب، وهو الذى عنونه بقوله: «فصل فى أن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين فى القفر من العرب ومن فى معناهم»: وذلك لما اخْتَصُّوا به من نكد العيش، وشظف الأحوال، وسوء المواطن؛ حملتهم عليها الضرورة التى عينت لهم تلك القسمة. وهم لما كان معاشهم من القيام على الإبل ونتاجها ورعايتها، والإبل تدعوهم إلى التوحش فى القفر لرعيها من شجرة ونتاجها فى رماله».

ويقول فى الفصل الخامس والعشرين من هذا الباب نفسه، وهو الذى عنونه بقوله: «فصل فى أن العرب لا يتَغلبون إلا على البسائط»: «وذلك أنهم بطبيعة التوحش الذى فيهم أهل انتهاب وعيث، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر، ويفرون إلى منتجعهم بالقفر...».

ويقول فى الفصل السادس والعشرين من هذا الباب، وهو الفصل الذى عنونه بقوله: «فصل فى أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب»: «والسبب فى ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم... وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له. فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتقلب، وذلك مناقض للسكون الذى به العمران ومناف له. فالحجر مثلا إنما حاجتهم إليه لنصبه أثافىَّ للقدر، فينقلونه من المبانى ويُخَرِّبونها عليه، ويُعدُّونه لذلك. والخشب أيضاً إنما حاجتهم إليه ليعمدوا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيُخرِّبون السقف عليه لذلك. فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذى هو أصل العمران».

ويقول فى الفصل السابع والعشرين من هذا الباب، وهو الفصل الذى عنونه بقوله: «فصل فى أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية...»: «والسبب فى ذلك أنهم ـ لخلق التوحش الذى فيهم ـ أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض... فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم، وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم، فسهل انقيادهم واجتماعهم». ـ والتوحش الذى يعنيه ابن خلدون هو البعد عن الحضر وسكنى القفار وعدم الاستقرار وإيلاف النجعة والظعن من مكان إلى آخر. =

والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد ومقصرون عما فوق ذلك من حاجى أو كمالى؛ يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة

= ويقول فى الفصل الثامن والعشرين من هذا الباب وهو الفصل الذى عنونه بقوله: «فصل فى أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك» : «والسبب فى ذلك أنهم أكثر بداوة من سائر الأمم ، وأبعد مجالا فى القفر ، وأغنى عن حاجات التلول وحبوبها لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش ، فاستغنوا عن غيرهم ، فصعب انقياد بعضهم لبعض».

ويقول فى الفصل التاسع من الباب الرابع، وهو الفصل الذى عنونه بقوله: «فصل فى أن المبانى التى كانت تختطها العرب يسرع إليها الخراب إلا فى الأقل» : «والسبب فى ذلك شأن البداوة والبعد عن الصنائع... وله والله أعلم وجه آخر... وذلك قلة مراعاتهم لحسن الاختيار فى اختطاط المدن... وإنما يراعون مراعى إبلهم خاصة، لا يبالون بالماء طاب أو خبث ولا قلّ أو كثر، ولا يسألون عن زكاء المزارع والمنابت والأهوية لانتقالهم فى الأرض ونقلهم الحبوب من البلد البعيد . وأما الرياح فالقفر مختلف للمهاب كلها ، والظعن كفيل لهم بطيبها ، لأن الرياح إنما تخبث مع القرار والسكنى».

ويقول فى الفصل الحادى والعشرين من الباب الخامس، وهو الفصل الذى عنونه بقوله: «فصل فى أن العرب أبعد الناس عن الصنائع» : «والسبب فى ذلك أنهم أعرق فى البدو وأبعد عن العمران الحضرى وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها. والعجم من أهل المشرق. وأمم النصرانية عُدْوَةَ البحر الرومى أقوم الناس عليها؛ لأنهم أعرق فى العمران الحضرى وأبعد عن البدو وعمرانه، حتى إن الإبل التى أعانت العرب على التوحش فى القفر والإعراق فى البدو مفقودة لديهم بالجملة ومفقودة رعايتها».

* * *

هذا، وقد أساء كثير من الباحثين فهم مدلول كلمة العرب فى عناوين فصول المقدمة ولم يمعن النظر فيما يذكره ابن خلدون تحت هذه العناوين من الأمور القاطعة بأنه يقصد من هذه الكلمة سكان البادية الذين يشتغلون بمهنة الرعى ويعيشون عيشة تنقل ونجعة، فظن أنه يقصد منها شعب العرب المقابل لشعب العجم. وممن وقع فى هذا الخطأ الدكتور طه حسين فى كتابه عن «فلسفة ابن خلدون الاجتماعية» والأستاذ محمد عبد الله عنان فى كتابه عن «ابن خلدون، حياته وتراثه الفكرى».

وقد رتّب بعض هؤلاء على فهمهم لمدلول كلمة «العرب» فى عبارات ابن خلدون نتائج غريبة. فمن ذلك ما ذهب إليه بعضهم من أن ابن خلدون يدين بالمذهب الشُّعُوبى المعادى للعرب وأنه من الكافرين بالعروبة. ومن ذلك أيضاً ما زعمه بعضهم من أن فى تحامل ابن خلدون على العرب دليلا على أنه من أصل غير عربى، وأنه على الرغم من ادعائه العروبة فإن طبيعة دمه تغلب عليه فى تفكيره ومفاضلته بين الشعوب!

* * *

ومن الغريب أن يقع فى هذا الخطأ باحثون من العرب، بينما يسلم منه كثير من الفرنجة المستشرقين حتى القدامى منهم. وإليك مثلا البارون دوسلان، الذى ظهرت ترجمته الفرنسية لمقدمة ابن خلدون منذ حوالى مائة سنة (انظر ص٢٣٤)؛ فإنه يقول فى تعليقه على عنوان الفصل الذى نحن بصدده ما ترجمته: «استخدم ابن خلدون فى هذا الفصل وفى الفصول التالية له كلمة العرب بمعنى البدو». ويقول فى شرحه لكلمة العرب فى معجم الألفاظ الملحق بترجمته للمقدمة ما ترجمته «إن العرب عند ابن خلدون هم البدو الرُّحَّلُ».

Les Arabes d'Ibn khaldoun sont les arabes nomades (vol . 3p . 488)

انظر تكملة لهذا البحث فى صفحات ٢٣٦ ـ ٢٣٧ من الجزء الأول.

انظر فى هذا الموضوع بحثاً قيما للأستاذ ساطع الحصرى فى كتابه: «دراسات عن مقدمة ابن خلدون»، صفحات ١٥١ ـ ١٦٨.

غير مُنَجَّدة[٣٥٧]، إنما هو قصد الاستظلال والكنّ لا ما وراءه؛ وقد يأوون إلى الغيران والكهوف. وأما أقواتهم فيتناولون بها يسيراً بعلاج أو بغير علاج ألبتَّةَ إلا ما مسته النار. فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلح كان المقام به أولى من الظعن؛ وهؤلاء سكان المدن والقرى والجبال، وهم عامة البربر والأعاجم. ومن كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظُعَّن في الأغلب لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم؛ فالتقلب في الأرض أصلح بهم؛ ويسمون شَاوِيَّة[٣٦٠]، ومعناه القائمون على الشَّاء[٣٦١] والبقر؛ ولا يبعدون في القفر لفقدان المَسارح الطيبة؛ وهؤلاء مثل البربر والترك وإخوانهم من التركمان والصقالبة. وأما من كان معاشهم في الإبل فهم أكثر ظعنا وأبعد في القفر مجالا؛ لأن مسارح التلول ونباتها وشجرها لا يستغنى بها الإبل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر وورود مياهه المَـلِحَة والتقلب فصلَ الشتاء في نواحيه فراراً من أذى البَرد إلى دَفَاءَة هوائه وطلبـا لماخض[٣٦٢] النِّتَاجِ[٣٥٢] في رماله؛ إذ الإبل أصعب الحيوان فصالا[٣٦٣] ومخاضاً[٣٦٢] وأحوجها في ذلك إلى الدفاءة؛ فاضطروا إلى إبعاد النُّجْعة[٣٦٤]. وربما زادتهم الحامية عن التلول أيضاً، فأوغلوا في القفار نفرة[٣٦٥] عن الضَعة منهم. فكانوا لذلك أشد الناس توحشا. وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوان العُجْم. وهؤلاء هم العرب؛ وفي معناهم ظعون البربر وزناتة بالمغرب والأكراد والتركمان والترك بالمشرق، إلا أن العرب أبعد نُجْعة[٣٦٤] وأشد بدواة لأنهم مختصون بالقيام على الإبل فقط، وهؤلاء يقومون عليها وعلى الشياه والبقر معها.

فقد تبين لك أن جيل العرب طبيعي لابد منه في العمران. والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(٣٦٠) «رجل شاويٌّ وشاهي: صاحب شاء» (القاموس).

(٣٦١) «الشاة: الواحدة من الغنم... جمعها شاء» (القاموس).

(٣٦٢) «مَخِضت المرأة وكل حامل من باب تعب: دنا ولادها وأخذها الطلق، والمخاض وجع الولادة» (المصباح) - وفي عبارة ابن خلدون قلب؛ وأصل الوضع: «وطلب لنتاج الماخض».

(٣٦٣) «فصلت المرأة رضيعها فطمته، والاسم الفصال بالكسر» (المصباح). قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (سورة لقمان، آية ١٤).

(٣٦٤) «انتجع القوم إذا ذهبوا لطلب الكلأ في موضعه، ونجعوا نجعا - من باب نفع - ونجوعا كذلك، والاسم النُّجْعة مثل غرفة» (المصباح)، ثم أطلقت النجعة على كل رحلة وانتقال من بلد إلى بلد.

(٣٦٥) نفر الوحش وغيره من باب ضرب وقعد نفرا، والاسم النِّفَار (من المصباح). فالنَّفْرة في عبارة ابن خلدون مصدر دال على المرة كما يقال جَلْسة وسجدة. وكان الأوضح أن يقول: نفورا من الضعة.

٣ـ فصل فى أن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه وأن البادية أصل العمران، والأمصارُ مددٌ لها

قد ذكرنا أن البدو هم المقتصرون على الضرورى فى أحوالهم، العاجزون عما فوقه، وأن الحضر المعتنون بحاجات الترف والكمال فى أحوالهم وعوائدهم. ولا شك أن الضرورى أقدم من الحاجى والكمالى وسابق عليه؛ لأن الضرورى أصل والكمالى فرع ناشئ عنه. فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما؛ لأن أول مطالب الإنسان الضرورى، ولا ينتهى إلى الكمال والترف إلا إذا كان الضرورى حاصلا. فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة. ولهذا نجد التمدن غاية للبدوى يجرى إليها، وينتهى بسعيه إلى مقترحه منها. ومتى حصل على الرِّيَاشِ الذى يحصل له به أحوال الترف وعوائده عاج [١٢٧، ٢٩٥] إلى الدعة، وأمكن نفسَهُ إلى قياد المدينة. وهكذا شأن القبائل المتبدية كلهم. والحضرى لا يتشوف إلى أحوال البادية إلا لضرورة تدعوه إليها أو لتقصير عن أحوال أهل مدينته.

ومما يشهد لنا أن البدو أصل للحضر ومتقدم عليه، وأنا إذا فتشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أوَّلِيَّةَ أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصر وفى قراه، وأنهم أيسروا فسكنوا المصر وعدلوا إلى الدعة والترف الذى فى الحضر. وذلك يدل على أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها، فتفهمه. ثم إن كل واحد من البدو والحضر متفاوت الأحوال من جنسه: فرب حى أعظم من حى، وقبيلة أعظم من قبيلة؛ ومصر أوسع من مصر؛ ومدينة أكثر عمراناً من مدينة.

فقد تبين أن وجود البدو متقدم على وجود المدن والأمصار وأصل لها؛ بما أن وجود المدن والأمصار من عوائد الترف والدعة التى هى متأخرة عن عوائد الضرورة المعاشية. والله أعلم.

٤ ـ فصل فى أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر

وسببه أن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر؛ قال ﷺ: « **كل مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يُهَوِّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه** ». وبقدر ما سبق إليها من أحد الخُلُقين تبعد عن الآخر ويصعب عليها اكتسابه: فصاحب الخير إذا سبقت إلى نفسه عوائد الخير وحصلت لها مَلَكَتُهُ، بعد عن الشر وصعب عليه طريقه؛ وكذا صاحب الشر إذا سبقت إليه أيضاً عوائده. وأهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها، قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك. حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة فى أحوالهم؛ فتجد الكثير منهم يُقْذِعون فى أقوال الفحشاء فى مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم، لا يصدهم عنه وازع الحشمة، لما أخذتهم به عوائد السوء فى التظاهر بالفواحش قولا وعملاً. وأهل البدو إن[١١] كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم إلا أنه فى المقدار الضرورى لا فى الترف ولا فى شىء من أسباب الشهوات واللذات ودواعيها. فعوائدهم فى معاملاتهم على نسبتها، وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة إلى أهل الحضر أقل بكثير. فهم أقرب إلى الفطرة الأولى وأبعد عما ينطبع فى النفس من سوء المَلَكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها؛ فيسهل علاجهم عن علاج الحضر؛ وهو ظاهر. وقد يتوضح فيما بعد أن الحضارة هى نهاية العمران وخروجه إلى الفساد، ونهاية الشر والبعد عن الخير. فقد تبين أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر. والله يحب المتقين.

ولا يعترض على ذلك بما ورد فى صحيح البخارى من قول الحجاج لسَلَمة ابن الأكوع وقد بلغه أنه خرج إلى سكنى البادية، فقال له: «ارتددت على عقبيك؟ تعربت؟»، فقال: «لا، ولكن رسول الله ﷺ أذن لى فى البدو». فاعلم أن

الهجرة افترضت أول الإسلام على أهل مكة ليكونوا مع النبى ﷺ حيث حل من المواطن ينصرونه ويظاهرونه على أمره ويحرسونه، ولم تكن واجبة على الأعراب أهل البادية؛ لأن أهل مكة يمسهم من عصبية النبى ﷺ فى المظاهرة والحراسة ما لا يمس غيرهم من بادية الأعراب. وقد كان المهاجرون يستعيذون بالله من التعرب؛ وهو سكنى البادية حيث لا تجب الهجرة. وقال ﷺ فى حديث سعد بن أبى وقاص عند مرضه بمكة: «**اللهم أمْض لأصحابى هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم**»؛ ومعناه أن يوفقهم لملازمة المدينة وعدم التحول عنها، فلا يرجعوا عن هجرتهم التى ابتدءوا بها، وهو من باب الرجوع على العقب فى السعى إلى وجه من الوجوه. وقيل إن ذلك كان خاصّا بما قبل الفتح حين كانت الحاجة داعية إلى الهجرة لقلة المسلمين؛ وأما بعد الفتح وحين كثر المسلمون واعتزوا وتكفل الله لنبيه بالعصمة من الناس فإن الهجرة ساقطة حينئذ، لقوله ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح**». وقيل سقط إنشاؤها عمن يسلم بعد الفتح. وقيل سقط وجوبها عمن أسلم وهاجر قبل الفتح. والكل مجمعون على أنها بعد الوفاة ساقطة؛ لأن الصحابة افترقوا من يومئذ فى الآفاق وانتشروا ولم يبق إلا فضل السكنى بالمدينة وهو هجرة. فقول الحجاج لسلمة حين سكن البادية: ارتددت على عقبيك؟ تعربت؟ نعى عليه فى ترك السكنى بالمدينة بالإشارة إلى الدعاء المأثور الذى قدمناه، وهو قوله «**ولا تردهم على أعقابهم**». وقوله: تعربت؟ إشارة إلى أنه صار من الأعراب الذين لا يهاجرون. وأجاب سلمة بإنكار ما ألزمه من الأمرين، وأن النبى ﷺ أذن له فى البدو. ويكون ذلك خاصّا به كشهادة خُزَيْمَةَ وعَنَاق أبى بُرْدَة[٣٦٦]. ويكون الحجاج إنما نعى عليه ترك السكنى بالمدينة فقط،

---

(٣٦٦) خُزَيْمة بن ثابت الأنصارى صحابى؛ وقد جعل الرسول عليه السلام شهادته بشهادة رجلين. والعَنَاق الأنثى من ولد المعز قبل استكمالها الحول؛ وقد أجاز النبى ﷺ لأبى بردة بن نِيَار خاصة أن يضحى بها، مع أنه لا تجزئ الضحية من المعز إلا إذا كانت ثنيّا فصاعداً؛ والثَّنِىَ من المعز ما بلغت حولا كاملا. (انظر: الميدانى على القدورى، كتاب الأضحية، ص٣١٩).

ويقصد ابن خلدون أن جواز الخروج من المدينة والإقامة بالبادية أمر خاص بسلَمَة، كما أن الاكتفاء بشهادة الواحد أمر خاص بخُزَيْمَة وجواز التضحية بعَنَاق أمر خاص بأبى بُردة، وأن هذه الخصوصيات مستثناة من عموم الأحكام لما ورد بشأنها فى أحاديث الرسول ﷺ. =

* * *

لعلمه بسقوط الهجرة بعد الوفاة، وأجابه سَلَمَةُ بأن اغتنامه لإذن النبى ﷺ أولى وأفضل؛ فما آثره به واختصه إلا لمعنى علمه فيه. وعلى كل تقدير فليس

= هذا، والأصل فى شهادة خُزَيْمَة ما رواه أبو داود فى سننه فى باب عنوانه: «إذا علم الحاكم صدق الشاهد الواحد يجوز له أن يحكم به» إذ يقول: «عن عمارة بن خزيمة أن عمه (وهو من أصحاب النبى عليه السلام) حدثه أن النبى ﷺ ابتاع فرسًا من أعرابى. فاستتبعه النبى ﷺ (أى طلب من الأعرابى أن يتبعه) ليقضيه ثمن فرسه. فأسرع النبى المشى وأبطأ الأعرابى. فطفق رجال يعترضون الأعرابى فيساومونه الفرس ولا يشعرون أن النبى ابتاعه. فنادى الأعرابى رسول الله ﷺ فقال: إن كنت مبتاعًا هذا الفرس وإلا بعْتُه. فقام النبى حين سمع نداء الأعرابى فقال: أو ليس قد ابتعته منك. فقال الأعرابى: لا والله ما بعتك. فقال النبى: بل قد ابتعته منك. فطفق الأعرابى يقول: «هلم شهيداً (أى هات شاهداً على ذلك). فقال خُزَيْمة بن ثابت الأنصارى: أنا أشهد أنك قد بايعتَه. فأقبل النبى على خزيمة فقال: بم تشهد ؟ (يتعجب الرسول أنه شهد على شىء لم يره). فقال: بتصديقك يا رسول الله. فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين» – وقد أخرج هذا الحديث كذلك النسائى – واسم الأعرابى سواء بن حارث، وقيل: سواء بن قيس المحارثى – وقيل: إنه جحد البيع بأمر بعض المنافقين.

ويرى معظم الفقهاء أن هذا الحكم خاص بخزيمة. ولكن بعضهم يميل إلى تعميمه، فيذهب إلى أن الحاكم إذا علم صدق الشاهد الواحد يجوز له أن يكتفى بشهادته. ويعلل ابن قيم الجوزية هذا الحكم تعليلا آخر أدنى إلى المعقول، إذ يقول فى تعليقه على هذا الحديث: «وإنما أمضى النبى صلى الله عليه وسلم البيع بشهادة خزيمة وجعلها بمنزلة شاهدين؛ لأن شهادة خزيمة على البيع ولم يره استندت إلى أمر هو أقوى من الرؤية، وهو تصديق رسول الله ﷺ بالبراهين الدالة على صدقه، وأن كل ما يخبر به حق وصدق قطعا. فلما كان من المستقر عنده أنه الصادق فى خبره، البارّ فى كلامه، وأنه يستحيل عليه غير ذلك ألبتة، كان هذا من أقوى التحملات، فجزم بأنه بايعه، كما يجزم لو رآه وسمعه. بل هذه الشهادة مستندة إلى محض الإيمان؛ وهى من لوازمه ومقتضاه؛ ويجب على كل مسلم أن يشهد بما شهد به خزيمة، فلما تميزت عن شهادة الرؤية والحس التى يشترك فيها العدل وغيره أقامها النبى ﷺ مقام شهادة رجلين».

* * *

والأصل فى عناق أبى بردة ما رواه أبو داود فى سننه فى باب عنوانه: «ما يجوز من السن فى الضحايا»، إذ يقول: «حدثنا البراء بن عازب، قال: خطبنا رسول الله ﷺ يوم النحر بعد الصلاة، فقال: من صلّى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النسك (يطلق النُّسُك أحيانًا على الضحية نفسها، فيقال: من فعل كذا فعليه نُسك، أى دم يريقه منه قوله تعالى: ﴿ ... فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ آية ١٩٦ من سورة البقرة – وهذا المعنى هو المقصود فى الحديث)، ومن نسك قبل الصلاة فتلك شاة لحم (أى من ذبح قبل صلاة العيد اعتبرت ذبيحته ذبيحة لحم للأكل لا ضحية شرعية). فقام أبو بُرْدة بن نيار (على وزن كتاب – القاموس) فقال: يا رسول الله لقد نسكت قبل أن أخرج إلى الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم أكل وشرب فتعجلت فأكلت وأطعمت أهلى وجيرانى. فقال رسول الله ﷺ: تلك شاة لحم. فقال: «إن عندى عَنَاقاً جَذَعاً (العناق الأنثى من ولد المعز قبل استكمالها الحول؛ ومعنى الجَذَع فى عبارته: السمينة المهيأة للخصب. قال ابن الأعرابى: الإجْذاع وقت وليس بسن. فالعَنَاق تُجْذِع لسنة، وربما أجذعت قبل تمامها للخصب فتسمن فيُسرع إجْذاعها فهى جَذَعة؛ ومن الضأن إذا كان من شابين يُجْذِع لستة أشهر إلى سبعة، وإذا كان من هرمين أجذع من ثمانية إلى عشرة - من المصباح) وهى خير من شاتى لحم، فهل تُجْزِئ عنى؟ فقال: نعم، ولن تُجْزِئ عن أحد بعدك» – وقد أخرج هذا الحديث كذلك البخارى ومسلم والترمذى والنسائى.

دليلا على مذمة البدو للذى عبر عنه بالتعرب؛ لأن مشروعية الهجرة إنما كانت كما علمت لمظاهرة النبى ﷺ وحراسته، لا لمذمة البدو. فليس فى النعى عليه تَرْك هذا الواجب بالتعرب دليل على مذمة التعرب. والله سبحانه أعلم وبه التوفيق.

٥ ـ فصل فى أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر

والسبب فى ذلك أن أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة، وانغمسوا فى النعيم والترف، ووكلوا أمرهم فى المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذى يسوسهم والحامية التى تولت حراستهم، واستناموا إلى الأسوار التى تحوطهم والحرز الذى يحول دونهم، فلا تَهيجُهم هَيْعَة ولا يُنَفَّرُ لهم صيدٌ[٣٦٧]؛ فهم غارُّون[٣٦٨] آمنون، قد ألقوا السلاح، وتوالت على ذلك منهم الأجيال، وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على أبى مثواهم؛ حتى صار ذلك خلقًا يتنزل منزلة الطبيعة.

وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع، وتوحشهم فى الضواحى، وبعدهم عن الحامية، وانتباذهم عن الأسوار والأبواب، قائمون بالمدافعة عن أنفسهم، لا يكلونها إلى سواهم، ولا يثقون فيها بغيرهم. فهم دائمًا يحملون السلاح، ويتلفتون عن كل جانب فى الطرق، ويتجافون عن الهجوع إلا غرارًا فى المجالس وعلى الرحال وفوق الأقتاب، ويتوجسون للنبآت[٣٦٩] والهَيعات[٣٦٧]، ويتفردون فى القفر والبيداء، مُدِلِّين[٣٧٠] ببأسهم؛ قد صار لهم البأس خلقًا والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استنفرهم صارخ. وأهل الحضر مهما خالطوهم فى البادية أو صاحبوهم فى السفر عيال عليهم لا يملكون معهم شيئًا

---

(٣٦٧) الهَيْعة الصوت المفزع. وفى الحديث: «خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله، كلما سمع هَيْعَةً طار إليها» ـ ونفر الصيد انزعج وتفرق وبَعُد، ونفَّره تسبَّب فى نِفَاره. وقوله: «ولا يُنَفَّر لهم صيد» كناية عن اطمئنانهم؛ لأن العربى إذا تعقب صيداً ونفَّره منه آخر كانَ غير مطمئن.

(٣٦٨) غارُّون: جمع غار وهو الغافل المطمئن.

(٣٦٩) توجَّس: تسمع، والنبآت: جمع نبأة وهى الصوت الخفى.

(٣٧٠) فلان يُدِلّ بفلان أو بشىء: أى يثق به ويعتز (من الصحاح). والمعنى يثقون ويعتزون بقوة بأسهم.

من أمر أنفسهم. وذلك مشاهد بالعيان حتى في معرفة النواحي والجهات وموارد المياه ومشارع السبل. وسبب ذلك ما شرحناه. وأصله أن الإنسان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه. فالذي ألفه في الأحوال حتى صار خلقًا ومَلَكَة وعادة تُنزَّل منزلة الطبيعة والجِبِلَّة[٢٦٧] . واعتبر ذلك في الآدميين تجده كثيراً صحيحاً. والله يخلق ما يشاء.

٦ ـ فصل في أن معاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنعة منهم

وذلك أنه ليس كل أحد مالك أمر نفسه؛ إذ الرؤساء والأمراء المالكون لأمر الناس قليل بالنسبة إلى غيرهم؛ فمن الغالب أن يكون الإنسان في مَلَكَة[٧٠] غيره، ولابد.

فإن كانت المَلَكَةُ رفيقة وعادلة لا يُعَانَى منها حكم ولا منع وصد كان من تحت يدها مدلِّين[٢٧٠] بما في أنفسهم من شجاعة أو جبن، واثقين بعدم الوازع، حتى صار لهم الإدلال جِبلَّةً [٢٦٧] لا يعرفون سواها.

وأما إذا كانت المَلَكَة [٧٠] وأحكامها بالقهر والسطوة والإخافة فتكسر حينئذ من سَوْرة[٢٥٥] بأسهم وتُذهب المَنَعةَ عنهم، لما يكون من التكاسل في النفوس المضطهدة كما نبينه. وقد نهى عمر سعداً[(٢٧٠ب)] رضي الله عنهما عن مثلها، لما أخذ زَهْرَةُ بن جَوِيَّة[(٢٧١)] سَلَبَ[(٢٧١ب)] الجالنوس، وكانت قيمته خمسة وسبعين ألفاً

(٢٧٠ب) يعني سعد بن أبي وقاص قائد جيوش المسلمين في معركة القادسية ضد جيوش فارس.

(٢٧١) في جميع النسخ «حَوْبة» وهو تحريف وصوابه «جوية».

في القاموس: «وَزَهْرَةُ بن جُوَيْرِية صحابي». وفي التعليق على هذه العبارة بهامشه: «قوله: جويرية، في بعض النسخ جَوِيَّة وهو الصواب، ويقال فيه زَهْرَهُ بن حَوِيَّة، وقيل: إنه تابعي كما حققه الحافظ، وقيل صحابي. أفاده الشارح».

(٢٧١ب) السَّلَب بفتحتين ما يكون على القتيل من لباس وسلاح وزينة، وكذلك مطيته نفسها وما يكون عليها من سرج وآلة، وما يكون معه عليها من مال في حقيبته أو على وسطه. هذا ويجوز لقائد الجيش أن يحرض المسلمين على القتال فيقول مثلا: مَن قتل قتيلا فله سَلَبُه. وإذا لم يجعل الإمام السَّلَب للقاتل فهو من جملة الغنيمة (انظر: الميداني على القدوري، باب السِّيَر ص٢٧٣).

من الذهب، وكان اتَّبَع الجالنوس يوم القادسية فقتله وأخذ سَلَبَه، فانتزعه منه سعد وقال له: «هلا انتظرت في اتِّباعه إذني؟». وكتب إلى عمر يستأذنه؛ فكتب إليه عمر: «تَعْمِدُ إلى مثل زَهْرَة وقد صَلِيَ بما صَلِيَ به[٢٧٢]، وبقي عليك ما بقي من حربك، وتكسر فُوقَه[٢٧٣] وتفسد قلبه». وأمضى له عمرُ سَلَبَه.

وأما إذا كانت الأحكام بالعقاب فَمُذْهِبَةٌ للبأس بالكلية؛ لأن وقوع العقاب به ولم يدافع عن نفسه يكسبه المذلة التى تكسر من سَوْرة[٢٥٥] بأسه بلا شك.

وأما إذا كانت الأحكام تأديبية وتعليمية وأخذت من عهد الصبا أثرت فى ذلك بعض الشيء لمرباه على المخافة والانقياد، فلا يكون مدلاً[٢٧٠] ببأسه.

ولهذا نجد المتوحشين من العرب[٢٥٩] أهل البدو أشد بأساً ممن تأخذه الأحكام. ونجد أيضاً الذين يعانون الأحكام ومَلَكَتَها[٧٠] من لدن مرباهم فى التأديب والتعليم فى الصنائع والعلوم والديانات يُنقِص ذلك من بأسهم كثيراً، ولا يكادون يدفعون عن أنفسهم عادية بوجه من الوجوه. وهذا شأن طلبة العلم المنتحلين للقراءة والأخذ عن المشايخ والأئمة الممارسين للتعليم والتأديب فى مجالس الوقار والهيبة؛ فيهم هذه الأحوال وذهابُها بالمنعة والبأس.

ولا تستنكر ذلك بما وقع فى الصحابة من أخذهم بأحكام الدين والشريعة، ولم ينقص ذلك من بأسهم، بل كانوا أشد الناس بأسًا؛ لأن الشارع صلوات اللّه عليه لما أخذ المسلمون عنه دينهم كان وازعهم فيه من أنفسهم، لما تلى عليهم من الترغيب والترهيب، ولم يكن بتعليم صناعى ولا تأديب تعليمى؛ إنما هى أحكام الدين وآدابه المتلقاة نقلا يأخذون أنفسهم بها بما رسخ فيهم من عقائد الإيمان والتصديق. فلم تزل سورة[٢٥٥] بأسهم مستحكمة، كما كانت ولم تخدشها أظفار التأديب والحكم. قال عمر رضى اللّه عنه: «من لم يؤدبه الشرع لا أدبه اللّه»، حرصًا على أن يكون الوازع لكل أحد من نفسه ويقينًا بأن الشارع أعلم بمصالح العباد.

---

(٢٧٢) صَلِي فلان بالحرب والنار وصَلِيها صَلًى من باب تعب: قاسى شدائدها ووجد حَرَّها. ومنه قوله تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ (آية ٤ من سورة الغاشية) و﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ (آية ٣ من سورة المسد) وقول أبى الغول الطُّهوى (من الحماسيين) فى وصف جماعة من الفوارس:

ولا تَبْلى بسالتُهم وإن هم ... صلُوا بالحرب حيناً بعد حين

(٢٧٣) فُوق السهم على وزن قُفْل موضع الوتر والجمع أفواق مثل أقفال؛ وفَوِق السهمُ فوقاً من باب تعب انكسر فُوقُه، فهو أفوق، وفُقْتُ السهم فَوْقا من باب قال فانفاق كسرتُ فُوقه فانكسر ـ وكَسْر الفُوقِ فى حديث عمر بن الخطاب كناية عن تثبيط الهِمَّة.

ولما تناقص الدين فى الناس وأخذوا بالأحكام الوازعة ثم صار الشرع علمًا وصناعة يؤخذ بالتعليم والتأديب ورجع الناس إلى الحضارة وخُلُق الانقياد إلى الأحكام نقصت بذلك سَوْرة [255] البأس فيهم.

فقد تبين أن الأحكام السلطانية والتعليمية مفسدة للبأس؛ لأن الوازع فيها أجنبى. وأما الشرعية فغير مفسدة؛ لأن الوازع فيها ذاتى. ولهذا كانت هذه الأحكام السلطانية والتعليمية مما تؤثر فى أهل الحواضر فى ضعف نفوسهم وخضد الشوكة منهم بمعاناتهم فى وليدهم وكهولهم؛ والبدو بمعزل عن هذه المنزلة لبعدهم عن أحكام السلطان والتعليم والآداب. ولهذا قال محمد بن أبى زيد فى كتابه فى أحكام المعلمين والمتعلمين: «إنه لا ينبغى للمؤدب أن يضرب أحداً من الصبيان فى التعليم فوق ثلاثة أسواط»؛ نقله عن شريح القاضى. واحتج له ببعضهم بما وقع فى حديث بدء الوحى من شأن الغط وأنه كان ثلاث مرات؛ وهو ضعيف، ولا يصلح شأن الغط أن يكون دليلا على ذلك لبعده عن التعليم المتعارف. والله الحكيم الخبير.

٧ـ فصل فى أن سكنى البدو لا يكون إلا للقبائل أهل العصبية

اعلم أن الله سبحانه ركب فى طبائع البشر الخير والشر، كما قال تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾(٢٧٤)، وقال: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾(٢٧٥). والشر أقرب الخلال إليه إذا أهمل فى مرعى عوائده ولم يهذبه الاقتداء بالدين. وعلى ذلك

(٢٧٤) آية ١٠ من سورة البلد (سورة ٩٠). وأصل معنى النجد: ما ارتفع من الأرض وظهر. وبذلك سميت بلاد نجد. وضمير المفعول فى «هديناه» يعود على الإنسان المتقدم ذكره فى قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾. ومعنى النجدين فى الآية: طريقا الخير والشر. أى إن الله تعالى قد مكن الإنسان من طريقى الخير والشر ليسلك باختياره أيهما يشاء.

(٢٧٥) آية ٨ من سورة الشمس (سورة ٩١). وضمير المفعول فى الآية يعود على النفس المذكورة فى الآية السابقة: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾. ومعنى الآية أن الله تعالى قد خلق فى النفس القدرة على الإتيان بالفجور وبالتقوى.

الجم الغفير، إلا من وفقه الله. ومن أخلاق البشر فيهم الظلم والعدوان بعض على بعض. فمن امتدت عينه إلى متاع أخيه امتدت يده إلى أخذه، إلا أن يصده وازع، كما قال:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ... ذا عفـــة فلعلــه لا يظلـــم

فأما المدن والأمصار فعدوان بعضهم على بعض تدفعه الحكام والدولة بما قبضوا على أيدى مَن تحتهم من الكافة أن يمتد بعضهم على بعض، أو يعدو عليه. فإنهم مكبوحون بحَكَمَة[٣٧٦] القهر والسلطان عن التظالم، إلا إذا كان من الحاكم بنفسه. وأما العدوان من الذى خارج المدينة فيدفعه سياج الأسوار عند الغفلة أو الغرة ليلا أو العجز عن المقاومة نهاراً، أو يدفعه ذياد الحامية من أعوان الدولة عند الاستعداد والمقاومة.

وأما أحياء البدو فيزع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبراؤهم بما وقر فى نفوس الكافة لهم من الوقار والتّجِلَّة. وأمّا حِلَلُهم[٣٧٧] فإنما يذود عنها من خارج حامية الحى من أنجادهم[٣٧٨] وفتيانهم المعروفين بالشجاعة فيهم. ولا يصدق دفاعهم وذيادهم إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد؛ لأنهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم؛ إذ نُعرةُ[٣٧٩] كل أحد على نسبه وعصبيته أهم؛ وما جعل الله فى قلوب عباده من الشفقة والنعرة[٣٧٩] على ذوى أرحامهم وقربائهم موجودة فى الطبائع البشرية، وبها يكون التعاضد والتناصر، وتعظم رهبة العدو لهم. واعتبر ذلك فيما حكاه القرآن عن إخوة يوسف عليه السلام، حين قالوا لأبيه: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾[٣٨٠]؛ والمعنى أنه لا يتوهم العدوان على أحد مع وجود العصبة له.

---

(٣٧٦) الحَكَمَة على وزن قصبة: ما أحاط بحنكى الفرس من لجامه، من الحكم؛ وسميت بذلك؛ لأنها تذللها لراكبها حتى تمنعها الجماح ونحوه (القاموس والمصباح). والكلام فى عبارة ابن خلدون مجازى كما لا يخفى.

(٣٧٧) تجمع الحلّة (انظر تعليق ٢٥) على حِلل وحلال.

(٣٧٨) نَجُد الرجل نجادة ونجدة إذا كان ذا نجدة وهى البأس والشدة، فهو نجد ونجيد أى شجاع، ماض فيما يُعْجِز غيره، وجمعه أنجاد (من القاموس والمصباح).

(٣٧٩) النُّعْرة والنعير الصياح فى حرب أو شر، والمقصود بها هنا معنى مجازى وهو التعصب لذوى الأرحام ونجدتهم والحَدَب عليهم.

(٣٨٠) آية ١٤ من سورة يوسف (سورة ١٢).

وأما المتفردون فى أنسابهم فقل أن تصيب أحداً منهم نعرة[٣٧٩] على صاحبه. فإذا أظلم الجو بالشر يوم الحرب تسلل كل واحد منهم يبغى النجاة لنفسه خيفة واستيحاشاً من التخاذل. فلا يقدرون من أجل ذلك على سكنى القفر كما أنهم حينئذ طعمة لمن يلتهمهم من الأمم سواهم.

وإذا تبين ذلك فى السكنى التى تحتاج للمدافعة والحماية فبمثله يتبين لك فى كل أمر يحمل الناس عليه من نبوة أو إقامة ملك أو دعوة؛ إذ بلوغ الغرض من ذلك كله إنما يتم بالقتال عليه، لما فى طبائع البشر من الاستعصاء، ولابد فى القتال من العصبية كما ذكرناه آنفاً. فاتخذه إماماً تقتدى به فيما نورده عليك بعد. والله الموفق للصواب.

٨ ـ فصل فى أن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما فى معناه

وذلك أن صلة الرحم طبيعى فى البشر إلا فى الأقل. ومن صلتها النُّعْرةُ[٣٧٩] على ذوى القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة[١٢٩]. فإن القريب يجد فى نفسه غضاضة من ظلم قريبه أو العداء[(٣٨١)] عليه، ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك: نزعة طبيعية فى البشر مذ كانوا. فإذا كان النسب المتواصل بين المتناصرين قريباً جداً بحيث حصل به الاتحاد والالتحام كانت الوصلة ظاهرة؛ فاستدعت ذلك بمجردها ووضوحها. وإذا بعد النسب بعض الشىء فربما تنوسى بعضها ويبقى منها شهرة فتحمل على النصرة لذوى نسبه بالأمر المشهور منه، فراراً من الغضاضة التى يتوهمها فى نفسه من ظلم من هو منسوب إليه بوجه. ومن هذا الباب الولاء والحلف إذ نعرة كل واحد على أهل ولائه وحلفه للأنفة[(٣٨٢)] التى تلحق النفس من اهتضام جارها أو قريبها أو نسيبها بوجه من وجوه النسب؛ وذلك لأجل اللحمة الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب أو قريباً منها. ومن هذا تفهم معنى قوله ﷺ

---

(٣٨١) عدا عليه يَعْدو عَدْواً وعُدُوّاً وعُدْوانا وعَدَاءً ظلم واعتدى وتجاوز الحد (من المصباح).

(٣٨٢) فى جميع النسخ الألفة، وهو تحريف كما لا يخفى، وصوابه الأنفة التى تلحق النفس... إلخ.

«تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم». بمعنى أن النسب إنما فائدته هذا الالتحام الذى يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة والنُّعْرَةُ [٢٧٩]، وما فوق ذلك مستغنى عنه؛ إذ النسب أمر وهمى لا حقيقة له؛ ونفعه إنما هو فى هذه الوُصْلَة والالتحام. فإذا كان ظاهراً واضحاً حمل النفوس على طبيعتها من النُّعْرَة [٢٧٩] كما قلناه. وإذا كان إنما يستفاد من الخبر البعيد ضعف فيه الوهم وذهبت فائدته وصار الشغل به مَجَانًا(٣٨٣) ومن أعمال اللّهو المنهى عنه. ومن هذا الاعتبار معنى قولهم: النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر. بمعنى أن النسب إذا خرج عن الوضوح وصار من قبيل العلوم ذهبت فائدة الوهم فيه عن النفس، وانتفت النُّعْرةُ [٢٧٩] التى تحمل عليها العصبية فلا منفعة فيه حينئذ. واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

٩ـ فصل فى أن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين فى القفر من العرب[٣٥٩] ومن فى معناهم

وذلك لما اختصُّوا به من نكد العيش وشظف الأحوال وسوء المواطن، حملتهم عليها الضرورة التى عينت لهم تلك القسمة؛ وهى لما كان معاشهم من القيام على الإبل ونتاجها[٣٥٢] ورعايتها، والإبل تدعوهم إلى التوحش فى القفر لرعيها من شجره ونتاجها[٣٥٢] فى رماله كما تقدم، والقفر مكان الشظف والسَّغب(٣٨٤) فصار لهم إلفًا وعادة وربيت فيه أجيالهم، حتى تمكنت خلقًا وجِبِلَّةً [٢٦٧]. فلا ينزع إليهم أحد من الأمم أن يساهمهم فى حالهم، ولا يأنس بهم أحد من الأجيال. بل لو وجد واحد منهم السبيل إلى الفرار من حاله وأمكنه ذلك لما

---

(٣٨٣) مَجَن مُجُونا ومجَانَة ومُجْنًا فهو ماجن (من القاموس). فلم يذكر من مصادر هذا الفعل «مجَانًا» كما ورد فى عبارة ابن خلدون، فالصواب أن يقول: «مَجَانَةً» أو مُجُونًا».

(٣٨٤) سَغِب سغَبًا من باب تعب وسغُوبًا جاع فهو ساغب وسغبان، والمسغبة المجاعة؛ وقيل لا يكون السَّغب إلا الجوع مع التعب (المصباح). قال تعالى: ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ (سورة البلد، آيات ١٤ – ١٦)

تركه. فيؤمن عليهم لأجل ذلك من اختلاط أنسابهم وفساده، ولاتزال بينهم محفوظة. واعتبر ذلك في مُضَرَ من قريش وكنانة وثقيف وبني أسد وهُذَيل ومن جاورهم من خُزاعة؛ لما كانوا أهل شظف ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع، وبعدوا من أرياف الشام والعراق ومعادن الأدْم[٢٤٧] والحبوب، كيف كانت أنسابهم صريحة محفوظة لم يدخلها اختلاط ولا عرف فيهم شَوْب[٣٨٥]. وأما العرب الذين كانوا بالتلول وفي معادن الخصب للمراعي والعيش من حمْيَر وكهلان مثل لَخْم وجُذام وغسَّان وطيِّئ وقضاعة وإيادَ فاختلطت أنسابهم وتداخلت شعوبهم. ففي كل واحد من بيوتهم من الخلاف عند الناس ما تعْرف. وإنما جاءهم ذلك من قِبَل العجم ومخالطتهم. وهم لا يعتبرون المحافظة على النسب في بيوتهم وشعوبهم؛ وإنما هذا للعرب فقط. قال عمر رضي الله تعالى عنه: «تعلموا النسب ولا تكونوا كنَبَطِ السواد، إذا سئل أحدهم عن أصله قال من قرية كذا». هذا إلى ما لحق هؤلاء العرب أهل الأرياف من الازدحام مع الناس على البلد الطيب والمراعي الخصيبة؛ فكثر الاختلاط وتداخلت الأنساب. وقد كان وقع في صدر الإسلام الانتماء إلى المواطن، فيقال: جند قنَّسْرين[٣٨٦]، جند دمشق، جند العواصم، وانتقل ذلك إلى الأندلس؛ ولم يكن لاطِّراح العرب أمر النسب، وإنما كان لاختصاصهم بالمواطن بعد الفتح حتى عرفوا بها، وصارت لهم علامة زائدة على النسب يتميزون بها عند أمرائهم. ثم وقع الاختلاط في الحواضر مع العجم وغيرهم، وفسدت الأنساب بالجملة وفقدت ثمرتها من العصبية فاطُّرِحت ثم تلاشت القبائل ودَثرت فدَثرت العصبية بدثورها[٣٨٧]، وبقي ذلك في البدو كما كان. والله وارث الأرض ومن عليها.

---

(٣٨٥) شابه شَوْبا من باب قال: خلطه فهو مشوب (المصباح).

(٣٨٦) أي ولاية قِنَّسْرين. والجند في الأصل الجيش والأعوان. وكان لكل ولاية جيش خاص بها يقيم ثكناته فيها وينسب إليها. وفي العصر العباسي استعمل لفظ «الجند» في معنى الولاية. فكان إذا سئل أحدهم أن ينتمي، قال: أنا من جُنْد قِنَّسْرين مثلا.

(٣٨٧) دثر الرسم دثوراً من باب قعد: درس وانمحى فهو داثر (من المصباح).

١٠ ـ فصل فى اختلاط الأنساب كيف يقع

اعلم أنه من البَيِّن أن بعضًا من أهل الأنساب يسقط إلى أهل نسب آخر بقرابة إليهم أو حلف أو ولاء أو لفرار من قومه بجناية أصابها، فيدعى بنسب هؤلاء ويعد منهم فى ثمراته من النعرة[٣٧٩] والقَوَد[(٣٨٨)] وحمل الديات وسائر الأحوال. وإذا وجدت ثمرات النسب فكأنه وجد؛ لأنه لا معنى لكونه من هؤلاء ومن هؤلاء إلا جريان أحكامها وأحوالهم عليه، وكأنه التحم بهم، ثم إنه قد يتناسى النسب الأول بطول الزمان ويذهب أهل العلم به فيخفى على الأكثر. ومازالت الأنساب تسقط من شعب إلى شعب؛ ويلتحم قوم بآخرين فى الجاهلية والإسلام والعرب والعجم. وانظر خلاف الناس فى نسب آل المنذر وغيرهم يتبين لك شيء من ذلك. ومنه شأن بَجِيلة فى عرفجة بن هرثمة لما ولاه عمر عليهم فسألوه الإعفاء منه، وقالوا هو فينا لزيق، أى دخيل ولصيق، وطلبوا أن يولى عليهم جريراً. فسأله عمر عن ذلك فقال عرفجة: «صدقوا يا أمير المؤمنين، أنا رجل من الأزد أصبت دمًا فى قومى ولحقت بهم». وانظر منه كيف اختلط عرفجة ببجيلة ولبس جلدتهم ودُعى بنسبهم حتى ترشح للرياسة عليهم، لولا علم بعضهم بوشائجه[١٣٩]؛ ولو غفلوا عن ذلك وامتد الزمن لتنوسى بالجملة، وعد منهم بكل وجه ومذهب. فافهمه واعتبر سر الله فى خليقته. ومثل هذا كثير لهذا العهد ولما قبله من العهود. والله الموفق للصواب بمنه وفضله وكرمه.

---

(٣٨٨) القَوَد: القصاص فى القتلى.

١١ ـ فصل[٣٨٩] فى أن الرياسة لاتزال فى نصابها المخصوص من أهل العصبية[٣٨٩ب]

اعلم أن كل حى أو بطن من القبائل وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام ففيهم أيضاً عصبيات أخرى لأنساب خاصة هى أشد التحامًا من النسب العام لهم، مثل عشير واحد أو أهل بيت واحد أو إخوة بنى أب واحد لا مثل بنى العم الأقربين أو الأبعدين. فهؤلاء أقعد بنسبهم المخصوص ويشاركون من سواهم من العصائب فى النسب العام. والنُّعْرَة[٢٧٩] تقع عن أهل نسبهم المخصوص وعن أهل النسب العام؛ إلا أنها فى النسب الخاص أشد لقرب اللحمة. والرياسة فيهم إنما تكون فى نصاب واحد منهم ولا تكون فى الكل. ولما كانت الرياسة إنما تكون بالغلب وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب ليقع الغلب بها وتتم الرياسة لأهلها. فإذا وجب ذلك تعين أن الرياسة عليهم لاتزال فى ذلك النصاب المخصوص بأهل الغلب عليهم؛ إذ لو خرجت عنهم

---

(٣٨٩) كتب الهورينى فى هامش طبعته تعليقاً على عنوان هذا الفصل ما يأتى: «هذا الفصل ساقط من النسخ الفاسية (صوابه الفارسية، انظر ص٢٠ وآخر ٢٤٦ وأول ٢٤٧). وإثباته أولى ليطابق كلامه أول الفصل ١٢» ـ (انظر تفصيل ذلك فى آخر ص ٢٤٦ وأول ص ٢٤٧ من تمهيدنا للمقدمة) ـ وهذا الفصل ساقط من طبعة باريس، كما سبقت الإشارة إلى ذلك (انظر آخر ص ٢٤٨) وهو كذلك ساقط من «التيمورية» ومن «الفارسية المصرية ب». ولكننا وجدناه مثبتًا فى «الفارسية المصرية». وقد علق عليه فى هذه النسخة الشيخ نصر الهورينى نفسه بخطه بما يلى: «هذا الفصل ساقط من النسخ المتداولة. وقد وجدته فى نسخة مضبوطة منقولة من نسخة المؤلف الأولى قبل الزيادة عليها والحذف منها ـ كتبه الفقير نصر الهورينى فى جمادى سنة ١٢٧٣ هـ فى قصر عبد الحميد بك نافع، نفع الله به أحبابه بعزه وسعة نعمته، آمين».

(٣٨٩ب) جميع ما ذكره ابن خلدون فى هذا الفصل وغيره عن العصبية والبداوة والوحشية والدين وصلة هذه الأمور بالرياسة، وعن نطاق الدولة وأطوارها وأعمارها وحاميتها واتخاذها الموالى والمصطنعين، وعن الحجر على السلطان والاستبداد عليه... كل ذلك لا يصدق إلا على الشعوب التى عاصرها وشهد أحوالها، وخاصة العرب والبربر ـ وقد وقع ابن خلدون هنا فى خطأ منهجى كبير. فهو لم يستقرئ هذه الظواهر إلا عند أمم معينة وفى عصور خاصة، وانتهى من هذا الاستقراء الناقص إلى أفكار وقوانين ظن أنها عامة تصدق فى كل زمان ومكان (انظر صفحتى ٢٢٧ ، ٢٢٨ من تمهيدنا للمقدمة).

وصارت فى العصائب الأخرى النازلة عن عصابتهم فى الغلب لما تمت لهم الرياسة. فلاتزال فى ذلك النصاب متناقلة من فرع منهم إلى فرع، ولا تنتقل إلا إلى الأقوى من فروعه، لما قلناه من سر الغلب؛ لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج فى المتكون؛ والمزاج فى المتكون لا يصلح إذا تكافأت العناصر؛ فلابد من غلبة أحدها، وإلا لم يتم التكوين. فهذا هو سر اشتراط الغلب فى العصبية. ومنه تعين استمرار الرياسة فى النصاب المخصوص بها كما قررناه.

١٢ ـ فصل فى أن الرياسة على أهل العصبية لا تكون فى غير نسبهم [٣٨٩ب]

وذلك أن الرياسة لا تكون إلا بالغلب، والغَلَب إنما يكون بالعصبية كما قدمناه. فلابد فى الرياسة على القوم أن تكون من عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة، لأن كل عصبية منهم إذا أحست بغلب عصبية الرئيس لهم أقروا بالإذعان والاتباع. والساقط فى نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسب إنما هو ملصق لزيق؛ وغاية التعصب له بالولاء والحلف؛ وذلك لا يوجب له غلبا عليهم ألبتة. وإذا فرضنا أنه قد التحم بهم واختلط وتنوسى عهده الأول من الالتصاق، ولبس جلْدَتهم ودعِى بنسبهم، فكيف له الرياسة قبل هذا الالتحام أو لأحد من سلفه. والرياسة على القوم إنما تكون متناقلة فى منبت واحد تعيَّن له الغلب بالعصبية. فالأولية التى كانت لهذا الملصق قد عرف فيها التصاقه من غير شك ومنعه ذلك الالتصاق من الرياسة حينئذ؛ فكيف تنوقلت عنه، وهو على حال الإلصاق؛ والرياسة لابد وأن[٥٧] تكون موروثة عن مستحقها لما قلناه من التغلب بالعصبية. وقد يتشرف كثير من الرؤساء على القبائل والعصائب إلى أنساب يلهجون بها، إما لخصوصيَّةٍ فضيلةٍ كانت فى أهل ذلك النسب من شجاعة أو كرم، أو ذكْرٍ كيف اتفقَ؛ فينزعونَ إلى ذلك النسب، ويتورطون بالدعوى فى شعوبه؛ ولاَ يعلمون ما يوقعون فيه أنفسهم من القدح فى رياستهم والطعن فى شرفهم. وهذا كثير فى الناس لهذا العهد. فمن ذلك ما يدعيه زناتة جملة أنهم من العرب.

ومنه ادعاء أولاد رباب المعروفين بالحجازيين من بنى عامر أحد شعوب زغبة أنهم من بنى سُلَيم ثم من الشريد[٣٩٠] منهم، لحق جدُّهم ببنى عامر نجَّاراً يصنع الحِرجان[٣٩١] واختلط بهم والتحم بنسبهم حتى رأس عليهم، ويسمونه الحجازى.

ومن ذلك ادعاء بنى عبد القوى بن العباس بن توجين أنهم من وُلْدِ العباس ابن عبد المطلب رغبة فى هذا النسب الشريف وغلطا باسم العباس بَن عطية، أبى عبد القوى. ولم يعلم دخول أحد من العباسيين إلى المغرب، لأنه كان منذ أول دولتهم على دعوة العلويين أعدائهم من الأدارسة والعبيديِّين؛ فكيف يكون من سبط العباس أحد من شيعة العلويين؟

وكذلك ما يدعيه أبناء زيان ملوك تلمسان[٣٩٢] من بنى عبد الواحد أنهم من وُلْد القاسم بن إدريس، ذهابا إلى ما اَشتهر فى نسبهم أنهم من ولد القاسم، فيقولون بلسانهم الزناتى: أنت القاسم أى بنو القاسم، ثم يدعون أن القاسم هذا هو القاسم بن إدريس أو القاسم بن محمد بن إدريس. ولو كان ذلك صحيحاً فغاية القاسم هذا أنه فر من مكان سلطانه مستجيراً بهم، فكيف تتم له الرياسة عليهم فى باديتهم؟ وإنما هو غلط من قِبل اسم القاسم؛ فإنه كثير الوجود فى الأدارسة؛ فتوهموا أن قاسمهم من ذلك النسب؛ وهم غير محتاجين لذلك، فإن منالهم للملك والعزة إنما كان بعصبيتهم، ولم يكن بادعاء علوية ولا عباسية ولا شىء من الأنساب. وإنما يحمل على هذا المتقربون إلى الملوك بمنازعهم ومذاهبهم ويشتهر حتى يبعد عن الرد. ولقد بلغنى عن يغمراسن بن زيان مؤثل سلطانهم، أنه لما قيل له ذلك أنكره، وقال بلغته الزناتية ما معناه: أما الدنيا والملك فنلناهما بسيوفنا لا بهذا النسب، وأما نفعه فى الآخرة فمردود إلى الله وأعرض عن التقرب إليه بذلك.

ومن هذا الباب ما يدعيه بنوسعد شيوخ بنى يزيد من زغبة أنهم من وُلْد أبى بكر الصديق رضى الله عنه، وبنو سلامة شيوخ بنى يدللتن من توجين[٣٩٣] أنهم

---

(٣٩٠) بنو الشريد: بطن من بنى سُلَيم (انظر القاموس).

(٣٩١) الحرجان بكسر الحاء جمع حَرَج بفتحتين: خشب يحمل فيه الموتى (من القاموس).

(٣٩٢) انظر تعليق ٣ بصفحة ٥٧ من تمهيدنا لمقدمة ابن خلدون.

(٣٩٣) انظر تعليق ١ من ص ٧٢ وتعليق ٥ من ص ٧٣ من تمهيدنا للمقدمة.

من سُلَيمٍ، والزواودة(٢٩٤) شيوخ رياح أنهم من أعقاب البرامكة؛ وكذا بنو مهنى أمراء طيئ بالمشرق يدعون فيما بلغنا أنهم من أعقابهم، وأمثال ذلك كثير؛ ورياستهم في قومهم مانعة من ادعاء هذه الأنساب كما ذكرناه؛ بل تعين أن يكونوا من صريح ذلك النسب وأقوى عصبياته. فاعتبره واجتنب المغالط فيه. ولا تجعل من هذا الباب إلحاق مهدى الموحدين بنسب العلوية؛ فإن المهدى لم يكن من منبت الرياسة في هرثمة قومه، وإنما رأس عليهم بعد اشتهاره بالعلم والدين، ودخول قبائل المصامدة في دعوته، وكان مع ذلك من أهل المنابت المتوسطة فيهم. والله عالم الغيب والشهادة.

١٣ ـ فصل في أن البيت والشرف بالأصالة والحقيقة لأهل العصبية ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه[٢١٩ب]

وذلك أن الشرف والحسب إنما هو بالخلال؛ ومعنى البيت أن يَعُدَّ الرجل في آبائه أشرافا مذكورين، تكون له بولادتهم إياه والانتساب إليهم تجلة في أهل جلدته، لما وقر في نفوسهم من تجلة سلفه وشرفهم بخلالهم. والناس في نشأتهم وتناسلهم معادن؛ قال صلى الله عليه وسلم : «الناس معادن : خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام ، إذا فَقِهوا». فمعنى الحسب راجع إلى الأنساب. وقد بينا أن ثمرة الأنساب وفائدتها إنما هي العصبية للنُّعْرَة[٢٧٩] والتناصر، فحيث تكون العصبية مرهوبة ومخشية والمنبت فيها زكي محمي تكون فائدة النسب أوضح وثمرتها أقوى. وتعديد الأشراف من الآباء زائد في فائدتها. فيكون الحسب والشرف أصليين في أهل العصبية لوجود ثمرة النسب. وتفاوت البيوت في أهل الشرف بتفاوت العصبية؛ لأنه سرها. ولا يكون للمنفردين من أهل الأمصار بيت إلا بالمجاز؛ وإن توهموه فزخرف من الدعاوى. وإذا اعتبرت الحسب في أهل الأمصار، وجدت معناه أن الرجل منهم يعد سلفا

(٢٩٤) هكذا في جميع النسخ، والمعروف أن اسمهم «الدواودة» بدالين مهملتين، انظر تعليق ١ من صفحة٧٢ من تمهيدنا لمقدمة ابن خلدون.

فى خلال الخير ومخالطة أهله مع الركون إلى العافية ما استطاع، وهذا مغاير لسر العصبية التى هى ثمرة النسب وتعديد الآباء، ولكنه يطلق عليه حسب وبيت بالمجاز، لعلاقة ما فيه من تعديد الآباء المتعاقبين على طريقة واحدة من الخير ومسالكه؛ وليس حسبًا بالحقيقة وعلى الإطلاق؛ وإن ثبت أنه حقيقة فيهما بالوضع اللغوى فيكون من المشكك[٢٩٥] الذى هو فى بعض مواضعه أولى.

وقد يكون للبيت شرف أول بالعصبية والخلال ثم ينسلخون منه لذهابها بالحضارة كما تقدم، ويختلطون بالغُمَار ويبقى فى نفوسهم وَسْواس ذلك الحسب يعدون به أنفسهم من أشراف البيوتات أهل العصائب وليسوا منها فى شيء، لذهاب العصبية جملة. وكثير من أهل الأمصار الناشئين فى بيوت العرب أو العجم لأول عهدهم مُوَسْوَسون بذلك. وأكثر ما رسخ الوَسْوَاس فى ذلك لبنى إسرائيل. فإنه كان لهم بيت من أعظم بيوت العالم بالمنبت: أولا لما تعدد فى سلفهم من الأنبياء والرسل من لدن إبراهيم عليه السلام إلى موسى صاحب ملتهم وشريعتهم؛ ثم بالعصبية ثانيًا وما آتاهم الله بها من الملك الذى وعدهم به. ثم انسلخوا من ذلك أجمع، وضربت عليهم الذلة والمسكنة، وكتب عليهم الجلاء فى الأرض، وانفردوا بالاستعباد للكفر آلافًا من السنين. ومازال هذا الوسواس مصاحبًا لهم فتجدهم يقولون: هذا هاروني؛ هذا من نسل يوشع؛ هذا من عقب كالب؛ هذا من سبط يهوذا، مع ذهاب العصبية ورسوخ الذل فيهم منذ أحقاب متطاولة. وكثير من أهل الأمصار وغيرهم المنقطعين فى أنسابهم عن العصبية يذهب إلى هذا الهذيان.

وقد غلط أبو الوليد بن رشد فى هذا لما ذكر الحسب فى كتاب الخطابة من تلخيص كتاب المعلم الأول[٢٩٦]: «والحسب هو أن يكون من قوم قديم نُزُلُهُم بالمدينة[٢٩٧]»، ولم يتعرض لما ذكرناه. وليت شعرى ما الذى ينفعه قِدَمُ نُزُلِهم بالمدينة إن لم تكن له عصابة يُرْهَبُ بها جانبه وتحمل غيرهم على القَبول منه؟ فكأنه أطلق الحسب على تعديد الآباء فقط. مع أن الخطابة إنما هى استمالة من تؤثر استمالته وهم أهل الحل والعقد. وأما من لا قدرة له ألبتة فلا يلتفت إليه

(٢٩٥) المشكك أو المقول بالتشكيك فى عرف الأصوليين هو اللفظ يطلق حقيقة على أكثر من مدلول واحد.
(٢٩٦) كان الباحثون من العرب يطلقون على أرسطو اسم المعلم الأول وعلى الفارابى اسم المعلم الثانى.
(٢٩٧) الموضوع بين علامتى تنصيص هو كلام ابن رشد.

دولة بنى العباس وإلى بنى برمك من قبلهم وبنى نُوبَخْتَ كيف أدركوا البيت والشرف وبنوا المجد والأصالة بالرسوخ فى ولاء الدولة. فكان جعفر بن يحيى ابن خالد من أعظم الناس بيتًا وشرفًا بالانتساب إلى ولاء الرشيد وقومه لا بالانتساب فى الفرس. وكذا موالى كل دولة وخدمها إنما يكون لهم البيت والحسب بالرسوخ فى ولائها والأصالة فى اصطناعها. ويضمحل نسبة الأقدم من غير نسبها ويبقى ملغى لا عبرة به فى أصالته ومجده. وإنما المعتبر نسبة ولائه واصطناعه، إذ فيه سر العصبية التى بها البيت والشرف؛ فكان شرفه مشتقاً من شرف مواليه وبناؤه من بنائهم فلم ينفعه نسب ولادته، وإنما بنى مجدَه نسب الولاء فى الدولة ولحمة الاصطناع فيها والتربية. وقد يكون نسبه الأول فى لحمة عصبيته ودولته، فإذا ذهبت وصار ولاؤه واصطناعه فى أخرى لم تنفعه الأولى لذهاب عصبيتها، وانتفع بالثانية لوجودها. وهذا حال بنى برمك؛ إذ المنقول أنهم كانوا أهل بيت فى الفرس من سَدَنَة بيوت النار عندهم، ولما صاروا إلى ولاء بنى العباس لم يكن بالأول اعتبار، وإنما كان شرفهم من حيث ولايتهم فى الدولة واصطناعهم. وما سوى هذا فوهم توسوس به النفوس الجامحة ولا حقيقة له. والوجود شاهد بما قلناه. و ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(٣٩٨ب) والله ورسوله أعلم.

١٥ ـ فصل فى أن نهاية الحسب فى العقب الواحد أربعة آباء(٣٨٩ب)

اعلم أن العالم العنصرى بما فيه كائن فاسد، لا من ذواته ولا من أحواله. فالمكونات من المعدن والنبات وجميع الحيوانات، الإنسان وغيره، كائنة فاسدة بالمعاينة، وكذلك ما يعرض لها من الأحوال، وخصوصاً الإنسانية. فالعلوم تنشأ ثم تدرس، وكذا الصنائع وأمثالها. والحسب من العوارض التى تعرض للآدميين؛ فهو كائن فاسد لا محالة. وليس يوجد لأحد من أهل الخليقة شرف

(٣٩٨ب) جملة من آية ١٣ من سورة الحجرات (سورة ٤٩).

متصل فى آبائه من لدن آدم إليه، إلا ما كان من ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم كرامة به وحياطة على السر فيه، وأول كل شرف خارجية كما قيل، وهى الخروج عن الرياسة والشرف إلى الضعة والابتذال وعدم الحسب، ومعناه أن كل شرف وحسب فعدمه سابق عليه، شأن كل مُحْدَث.

ثم إن نهايته فى أربعة آباء. وذلك أن بانى المجد عالم بما عاناه فى بنائه ومحافظ على الخلال التى هى أسباب كونه وبقائه. وابنه من بعده مباشر لأبيه، قد سمع منه ذلك وأخذه عنه، إلا أنه مقصر فى ذلك تقصير السامع بالشىء عن المعاين له. ثم إذا جاء الثالث كان حظه الاقتفاء والتقليد خاصة، فقصر عن الثانى تقصير المقلد عن المجتهد. ثم إذا جاء الرابع قصر عن طريقتهم جملة وأضاع الخلال الحافظة لبناء مجدهم واحتقرها، وتوهم أن ذلك البنيان لم يكن بمعاناة ولا تكلف وإنما هو أمر وجب لهم منذ أول النشأة بمجرد انتسابهم وليس بعصابة ولا بخلال، لما يرى من التجلة بين الناس، ولا يعلم كيف كان حدوثها ولا سببها، ويتوهم أنه النسب فقط، فيربأ بنفسه عن أهل عصبيته، ويرى الفضل له عليهم وثوقًا بما فيه من استتباعهم، وجهلا بما أوجب ذلك الاستتباع من الخلال التى منها التواضع لهم، والأخذ بمجامع قلوبهم. فيحتقرهم بذلك؛ فينغصون عليه، ويحتقرونه ويديلون منه سواه(٣٩٩) من أهل ذلك المنبت، ومن فروعه فى غير ذلك العقب للإذعان لعصبيتهم كما قلناه، بعد الوثوق بما يرضونه من خلاله. فتنمو فروع هذا، وتذوى فروع الأول، وينهدم بناء بيته. هذا فى الملوك. وهكذا فى بيوت القبائل والأمراء وأهل العصبية أجمع؛ ثم فى بيوت أهل الأمصار. إذا انحطت بيوت نشأت بيوت أخرى من ذلك النسب: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾(٤٠٠).

واشتراط الأربعة فى الحساب إنما هو فى الغالب. وإلا فقد يَدْثُر[٢٨٧] البيت من دون الأربعة ويتلاشى وينهدم. وقد يتصل أمرها إلى الخامس والسادس، إلا أنه فى انحطاط وذهاب. واعتبار الأربعة من قِبَل الأجيال الأربعة: بان؛ ومباشر له؛ ومقلد؛ وهادم. وهو أقل ما يمكن. وقد اعتُبرت الأربعة فى نهاية الحسب فى باب المدح والثناء. قال ﷺ: «إنما الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن

---

(٣٩٩) «أدالنا الله من عدونا من الدولة، والإدالة الغَلَبَةُ» (القاموس).

(٤٠٠) آيتى ١٦ ، ١٧ من سورة فاطر (سورة ٣٥)، والمعنى ينتصرون لغيره ويُغَلِّبونه عليه.

الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم»، إشارة إلى أنه بلغ الغاية من المجد. وفى التوراة ما معناه أنا اللّه ربك طائق[٤٠١] غيور مطالب بذنوب الآباء للبنين على الثوالث وعلى الروابع. وهذا يدل على أن الأربعة الأعقاب غاية فى الأنساب والحسب. ومن كتاب الأغانى فى أخبار عويف القوافى أن كسرى قال للنعمان هل فى العرب قبيلة تشرف على قبيلة: قال نعم؛ قال بأى شىء؟ قال من كان له ثلاثة آباء متوالية رؤساء، ثم اتصل ذلك بكمال الرابع، فالبيت من قبيلته؛ وطلب ذلك فلم يجده إلا فى آل حذيفة بن بدر الفزارى، وهم بيت قيس، وآل ذى الجدين بيت شيبان، وآل الأشعث بن قيس من كندة، وآل حاجب ابن زُرارة، وآل قيس بن عاصم المنقرى من بنى تميم. فجمع هؤلاء الرهط ومن تبعهم من عشائرهم وأقعد لهم الحكام والعدول. فقام حذيفة بن بدر، ثم الأشعث بن قيس لقرابته من النعمان، ثم بسطام بن قيس بن شيبان، ثم حاجب بن زُرارة، ثم قيس بن عاصم، وخطبوا ونثروا فقال كسرى كلهم سيد يصلح لموضعه. وكانت هذه البيوتات هى المذكورة فى العرب بعد بنى هاشم، ومعهم بيت بنى الذبيان من بنى الحرث بن كعب اليمنى. وهذا كله يدل على أن الأربعة الآباء نهاية فى الحسب.. واللّه أعلم.

---

(٤٠١) الإطاقة القدرة على الشىء، وقد طاقه طوقا وأطاقه، فالطائق اسم فاعل من طاق الشىء إذا قدر عليه، فمعناه إذن القادر.

١٦ـ فصل فى أن الأمم الوحشية أقدر على التغلب ممن سواها ٣٨٩ب

اعلم أنه لما كانت البداوة سببًا فى الشجاعة كما قلناه فى المقدمة الثالثة(٤٠٢)، لا جرم كان هذا الجيل الوحشى أشد شجاعة من الجيل الآخر، فهم أقدر على التغلب وانتزاع ما فى أيدى سواهم من الأمم. بل الجيل الواحد تختلف أحواله فى ذلك باختلاف الأعصار. فكلما نزلوا الأرياف وتفنقوا(٤٠٣) النعيم وألفوا عوائد الخصب فى المعاش والنعيم، نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وبداوتهم. واعتبر ذلك فى الحيوانات العجم بدواجن الظباء والبقر الوحشية والحُمُرِ إذا زال توحشها بمخالطة الآدميين وأخصب عيشها، كيف يختلف حالها فى الانتهاض والشدة حتى مشْيتها وحسن أديمها(٤٠٤). وكذلك الآدمى المتوحش إذا أنس وألف. وسببه أن تَكَوّن السجايا والطبائع إنما هو عن المألوفات والعوائد؛ وإذا كان الغلب للأمم إنما يكون بالإقدام والبسالة، فمن كان من هذه الأجيال أعرق فى البداوة وأكثر توحشا كان أقرب إلى التغلب على سواه إذا تقاربا فى العدد وتكافآ فى القوة والعصبية. وانظر فى ذلك شأن مُضَر مع من قبلهم من حمْيَرَ وكهلان السابقين إلى الملك والنعيم، ومع ربيعة المتوطنين أرياف العِراق

---

(٤٠٢) صوابه فى الفصل الخامس من هذا الباب، أو فى المقدمة الخامسة من هذا الباب (يسمى ابن خلدون أحيانًا الفصول الفرعية مقدمات. وهذا هو ما سار عليه فى الباب الأول) والفصل الخامس هو الذى عنونه بقوله «فصل فى أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر» (انظر صفحة ٤٧٦). ولعل هذا الفصل كان الفصل الثالث من هذا الباب ثم أصبح الخامس بعد أن زاد ابن خلدون فصلين من قبله فى أثناء مراجعته للنسخة الأولى من مقدمته، وقد كتب العبارة التى نحن بصددها والمقدمة على وضعها الأول، وفاته أن يغير الرقم بعد أن أضاف هذين الفصلين. ومثل هذا قد وقع كثيراً فى المقدمة (انظر صفحتى ٢٤٣، ٢٤٤ من تمهيدنا للمقدمة).

(٤٠٣) «أفنق: تنعم بعد بؤس والتفنيق التنعيم وتَفَنّق تنعم» (القاموس) وقد ضمن ابن خلدون هذا الفعل اللازم معنى فعل متعد، فذكر بعده مفعولا به. وفى بعض النسخ «وتفنّكوا النعيم»، وهو تحريف كما لا يخفى.

(٤٠٤) الأديم: الجلد على الإطلاق أو المدبوغ منه (القاموس والمصباح).

ونعيمه، لما بقى مضر فى بداوتهم وتقدمهم الآخرون إلى خصب العيش وغضارة[٤٠٤ب] النعيم، كيف أرهفت البداوة حدهم فى التغلب، فغلبوهم على ما فى أيديهم وانتزعوه منهم. وهذا حال بنى طيئٍ وبنى عامر بن صعصعة، وبنى سُلَيم بن منصور من بعدهم، لما تأخروا فى باديتهم عن سائر قبائل مضر واليمن ولم يتلبسوا بشىء من دنياهم، كيف أمسكت حال البداوة عليهم قوة عصبيتهم ولم تُخْلِقها[٤٠٥] مذاهبُ الترف، حتى صاروا أغْلَبَ على الأمر منهم. وكذا كل حى من العرب بلى نعيما وعيشاً خصبا دون الحى الآخر. فإن الحى المتبدى[٤٠٦] يكون أغلب له وأقدر عليه إذا تكافآ فى القوة والعدد: سنة الله فى خلقه.

١٧ - فصل فى أن الغاية التى تجرى إليها العصبية هى الملك[٣٨٩ب]

وذلك لأنا قدمنا أن العصبية بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل أمر يُجتمع عليه؛ وقدمنا أن الآدميين بالطبيعة الإنسانية يحتاجون فى كل اجتماع إلى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض؛ فلابد أن يكون متغلبًا عليهم بتلك العصبية، وإلا لم تتم قدرته على ذلك. وهذا التغلب هو الملك، وهو أمر زائد على الرياسة؛ لأن الرياسة إنما هى سؤدد وصاحبها متبوع، وليس له عليهم قهر فى أحكامه؛ وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر. وصاحب العصبية إذا بلغ إلى رتبة طلب ما فوقها؛ فإذا بلغ رتبة السؤدد والاتِّباع ووجد السبيل إلى التغلب والقهر لا يتركه لأنه مطلوب للنفس. ولا يتم اقتدارها عليه إلا بالعصبية التى يكون بها متبوعاً. فالتغلب الملكى غاية للعصبية كما رأيت.

(٤٠٤ب) «الغضارة: النعمة والسعة والخصب» (القاموس).

(٤٠٥) خلق الثوبُ ككرُم ونَصَر وسَمِع خَلَقاً وخُلُوقةً فهو خَلَقٌ بفتحتين، وأخلق الثوبُ بالألف لغة، وأخلقته أبليته، فيكون الرباعى لازما ومتعديا (المصباح والقاموس). فالمعنى: لم تبلها ولم تضعفها مذاهب الترف. هذا، وفى جميع النسخ «ولم تخلفها» بالفاء، وهو تحريف كما لا يخفى؛ وخاصة أن هذه العبارة نفسها قد تكررت أكثر من مرة فى الفصول التالية؛ انظر مثلا أول الفقرة الأخيرة من الفصل الثانى والعشرين من هذا الباب (السطر الثامن عشر من صفحة ٥٠٤) : «والملك يخلقُه الترف ويُذهِبُه».

(٤٠٦) تبدى أقام بالبادية فهو متبد (انظر تعليق ٣٥٣) ـ هذا وفى بعض النسخ «المبتدئ» وهو تحريف كما لا يخفى.

ثم إن القبيل الواحد وإن كانت فيه بيوتات متفرقة وعصبيات متعددة فلابد من عصبية تكون أقوى من جميعها تغلبها وتستتبعها وتلتحم جميع العصبيات فيها، وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى؛ وإلا وقع الافتراق المفضى إلى الاختلاف والتنازع: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾(٤٠٧).

ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها. فإن كافأتها أو مانعتها كانوا أقتالاً ١١٢ وأنظاراً، ولكل واحدة منهما التغلب على حوزتها وقومها، شأن القبائل والأمم المفترقة فى العالم. وإن غلبتها واستتبعتها التحمت بها أيضاً، وزادتها قوة فى التغلب إلى قوتها، وطلبت غاية من التغلب والتحكم أعلى من الغاية الأولى وأبعد. وهكذا دائماً حتى تكافئ بقوتها قوة الدولة. فإن أدركت الدولة فى هَرَمها ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة أهل العصبيات استولت عليها وانتزعت الأمر من يدها، وصار الملك أجمع لها. وإن انتهت إلى قوتها ولم يقارن ذلك هرم الدولة وإنما قارن حاجتها إلى الاستظهار بأهل العصبيات انتظمتها الدولة فى أوليائها تستظهر بها على ما يعن من مقاصدها. وذلك ملك آخر دون الملك المستبد. وهو كما وقع للترك فى دولة بنى العباس، ولصنهاجة وزناتة مع كتامة، ولبنى حمدان مع ملوك الشيعة من العلوية والعباسية.

فقد ظهر أن الملك هو غاية العصبية وأنها إذا بلغت إلى غايتها حصل للقبيلة الملك، إما بالاستبداد أو بالمظاهرة على حسب ما يسعه الوقت المقارن لذلك. وإن عاقها عن بلوغ الغاية عوائق كما نبينه وقفت فى مقامها إلى أن يقضى الله بأمره.

١٨ ـ فصل فى أن من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل فى النعيم ٣٨٩ب

وسبب ذلك أن القبيل إذا غلبت بعصبيتها بعض الغلب استولت على النعمة بمقداره وشاركت أهل النعم والخصب فى نعمتهم وخصبهم، وضربت معهم فى ذلك بسهم وحصة بمقدار غلبها واستظهار الدولة بها. فإن كانت الدولة من

---

(٤٠٧) جملة من آية ٢٥١ من سورة البقرة.

القوة بحيث لا يطمع أحد فى انتزاع أمرها ولا مشاركتها فيه أذعن ذلك القبيل لولايتها، والقنوع بما يسوغون من نعمتها ويَشْركُون[٤٠٨] فيه من جبايتها، ولم تسم آمالهم إلى شىء من منازع الملك ولا أسبابه، إنما همتهم النعيم والكسب وخصب العيش والسكون فى ظل الدولة إلى الدَّعة والراحة والأخذ بمذاهب الملك فى المبانى والملابس، والاستكثار من ذلك والتأنق فيه بمقدار ما حصل من الرياش والترف وما يدعو إليه من توابع ذلك. فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبية والبسالة، ويتنعمون فيما آتاهم اللّه من البسطة. وتنشأ بنوهم وأعقابهم فى مثل ذلك من الترفع عن خدمة أنفسهم وولاية حاجاتهم، ويستنكفون عن سائر الأمور الضروية فى العصبية، حتى يصير ذلك خلقًا لهم وسجية. فتنقص عصبيتهم وبسالتهم فى الأجيال بعدهم بتعاقبهم إلى أن تنقرض العصبية فيأذنون بالانقراض. وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون إشرافُهُم على الفناء فضلا عن الملك؛ فإن عوارض الترف والغرق فى النعيم كاسر من سَوْرة[٢٥٥] العصبية التى بها التغلب. وإذا انقرضت العصبية قصر القبيل عن المدافعة والحماية، فضلا عن المطالبة، والتهمتهم الأمم سواهم.

فقد تبين أن الترف من عوائق الملك. والله يؤتى ملكه من يشاء.

١٩ ـ فصل فى أن من عوائق الملك حصول المذلة للقبيل والانقياد إلى سواهم[٣٨٩ب]

وسبب ذلك أن المذلة والانقياد كاسران لِسَوْرة[٢٥٥] العصبية وشدتها؛ فإن انقيادهم ومذلتهم دليل على فقدانها؛ فما رئموا[١٤٥] للمذلة حتى عجزوا عن المدافعة، ومن عجز عن المدافعة فأولى أن يكون عاجزاً عن المقاومة والمطالبة. واعتبر ذلك فى بنى إسرائيل لما دعاهم موسى عليه السلام إلى ملك الشام، وأخبرهم بأن اللّه قد كتب لهم ملكها، كيف عجزوا عن ذلك، وقالوا ﴿إنَّ فِيهَا

(٤٠٨) شَرِكْتُه فى البيع والميراث والأمر أشْرَكه (مثل علِم يعلم) شَرِكًا (على وزن كَلِم) وشَرِكة (على وزن كَلِمة) وشِرْكة بكسر فسكون، إذا صرت له شريكًا، والاسم الشِّرْك، ورغبنا فى شِرْكِكم: أى فى مشاركتكم فى النسب (من القاموس والمصباح).

قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾(٤٠٩)، أى يخرجهم الله تعالى منها بضَرْبٍ من قدرته غير عصبيتنا وتكون من معجزاتك يا موسى. ولما عزم عليهم لجوا وارتكبوا العصيان وقالوا له: ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا ﴾(٤١٠). وما ذلك إلا لما آنسوا من أنفسهم من العجز عن المقاومة والمطالبة كما تقتضيه الآية، وما يؤثر فى تفسيرها؛ وذلك بما حصل فيهم من خلق الانقياد ومارئموا[١٤٥] من الذل للقبط أحقابًا حتى ذهبت العصبية منهم جملة؛ مع أنهم لم يؤمنوا حق الإيمان بما أخبرهم به موسى من أن الشام لهم، وأن العمالقة الذين كانوا بأريحاء فريستهم بحكم من الله قدَّره لهم. فأقصروا عن ذلك وعجزوا تعويلا على ما علموا من أنفسهم من العجز عن المطالبة، لما حصل لهم من خلق المذلة؛ وطعنوا فيما أخبرهم به نبيهم من ذلك وما أمرهم به. فعاقبهم الله بالتيه، وهو أنهم تاهوا فى قفر من الأرض ما بين الشام ومصر أربعين سنة لم يأووا فيها لعمران، ولا نزلوا مصرًا ولا خالطوا بشرًا، كما قصه القرآن(٤١١)، لغلظة العمالقة بالشام والقبط بمصر عليهم، لعجزهم عن مقاومتهم كما زعموه. ويظهر من مساق الآية ومفهومها أن حكمة ذلك التيه مقصودة، وهى فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة، وتخلقوا به، وأفسدوا من عصبيتهم، حتى نشأ فى ذلك التيه جيل آخر عزيز لا يعرف الأحكام والقهر ولا يسام بالمذلة، فنشأت لهم بذلك عصبية أخرى اقتدروا بها على المطالبة والتغلب. ويظهر لك من ذلك أن الأربعين سنة أقل ما يأتى فيها فناء جيل ونشأة آخر. سبحان الحكيم العليم.

وفى هذا أوضح دليل على العصبية، وأنها هى التى تكون بها المدافعة والمقاومة والحماية والمطالبة، وأن من فقدها عجز عن جميع ذلك كله. ويلحق بهذا الفصل فيما يوجب المذلة للقبيل شأن المغارم والضرائب. فإن القبيل الغارمين ما أعطوا اليد من ذلك حتى رضوا بالمذلة فيه؛ لأن فى المغارم

---

(٤٠٩) انظر هذه القصة فى آيات ٢٠ ــ ٢٦ من سورة المائدة؛ والموضوع هنا بين علامتى تنصيص هو صدر آية ٢٢ من هذه السورة.

(٤١٠) جملة من آية ٢٤ من سورة المائدة.

(٤١١) اختتمت هذه القصة فى القرآن بقوله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (آية ٢٦ ، من سورة المائدة).

والضرائب ضيما ومذلة لا تحتملها النفوس الأبية إلا إذا استهونته عن القتل والتلف، وأن عصبيتها حينئذ ضعيفة عن المدافعة والحماية؛ ومن كانت عصبيته لا تدفع عنه الضيم فكيف له بالمقاومة والمطالبة وقد حصل له الانقياد للذل، والمذلة عائقة كما قدمناه. ومنه قوله ﷺ في شأن الحرث لما رأى سكَّة المحراث في بعض دور الأنصار: «ما دخلت هذه دار قوم إلا دخلهم الذل»، فهو دليل صريح على أن المَغْرَم موجب للمذلة(٤١٢). هذا إلى ما يصحب ذل المغارم من خلق المكر والخديعة بسبب مَلَكَة[٧٠] القهر. فإذا رأيت القبيل بالمغارم في ربقة من الذل فلا تطمعن لها بمُلْكٍ آخِر الدهر.

وهنا يتبين لك غلط من يزعم أن زناتة بالمغرب كانوا شاوية[٣٦٠] يؤدون المغارم لمن كان على عهدهم من الملوك. وهو غلط فاحش كما رأيت؛ إذ لو وقع ذلك لما استتب لهم ملك ولا تمت لهم دولة. وانظر فيما قاله شَهرَ برازُ ملك الباب لعبد الرحمن بن ربيعة لما أطل عليه، وسأل شَهرَ برازُ أمَانة على أن يكون له، فقال: أنا اليوم منكم، يدى فى أيديكم، وصَعَرى(٤١٣) معكم، فمرحبًا بكم، وبارك الله لنا ولكم، وجزيتنا إليكم النصر لكم والقيام بما تحبون، ولا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم(٤١٤). فاعتبر هذا فيما قلناه فإنه كاف.

٢٠ ـ فصل فى أن من علامات الملك التنافس فى الخلال الحميدة وبالعكس[٣٨٩ب]

لما كان الملك طبيعيا للإنسان لما فيه من طبيعة الاجتماع كما قلناه، وكان الإنسان أقرب إلى خلال الخير من خلال الشر بأصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة، لأن الشر إنما جاءه من قبل القوى الحيوانية التى فيه، وأما من حيث هو إنسان فهو إلى

---

(٤١٢) لأن المشتغلين بالزراعة كانوا يدفعون غالبا الخراج للدولة.

(٤١٣) الصَّعَرَ: ميل فى الوجه أو فى أحد الشقين، ويقصد: أن اتجاهه معهم ـ وصعَّر خده أماله، وهو كناية عن الكِبْر؛ قال تعالى فى حكايته لنصائح لقمان لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (آية ١٨ من سورة لقمان، وهى سورة ٣١).

(٤١٤) أى إن الجزية التى نقدمها لكم تتمثل فى انتصارنا لكم وقيامنا بما تحبون، وحسبكم هذا، فلا تذلونا بدفع الجزية الحقيقية من أموالنا فتوهنونا لعدوكم.

الخير وخلاله أقرب، والملك والسياسة إنما كانا له من حيث هو إنسان، لأنها خاصة للإنسان لا للحيوان؛ فإذن خلال الخير فيه هى التى تناسب السياسة والملك، إذ الخير هو المناسب للسياسة. وقد ذكرنا أن المجد له أصل ينبنى عليه، وتتحقق به حقيقته وهو العصبية والعشير، وفرع يتم وجوده ويكمله وهو الخلال. وإذا كان الملك غاية للعصبية فهو غاية لفروعها ومتمماتها، وهى الخلال؛ لأن وجوده دون متمماته كوجود شخص مقطوع الأعضاء أو ظهوره عُرْيانًا بين الناس. وإذا كان وجود العصبية فقط من غير انتحال الخلال الحميدة نقصًا فى أهل البيوت والأحساب، فما ظنك بأهل الملك الذى هو غاية لكل مجد ونهاية لكل حسب.

وأيضًا فالسياسة والملك هى كَفَالَةٌ للخلق وَخِلاَفَة لله فى العباد لتنفيذ أحكامه فيهم؛ وأحكام الله فى خلقه وعباده إنما هى بالخير ومراعاة المصالح كما تشهد به الشرائع؛ وأحكام البشر إنما هى من الجهل والشيطان بخلاف قدرة الله سبحانه وَقَدره، فإنه فاعل للخير والشر معا ومقدرهما إذ لا فاعل سواه. فمن حصلت له العصبية الكفيلة بالقُدْرة وأُونِسَت منه خِلالُ الخير المناسبة لتنفيذ أحكام الله فى خلقه فقد تهيأ للخلافة فى العباد وكفالة الخلق، ووجدت فيه الصلاحية لذلك. وهذا البرهان أوثق من الأول وأصح مبنى.

فقد تبين أن خلال الخير شاهدة بوجود الملك لمن وجدت له العصبية.

فإذا نظرنا فى أهل العصبية ومن حصل لهم الغَلَبُ على كثير من النواحى والأمم، فوجدناهم يتنافسون فى الخير وخلاله من الكرم والعفو عن الزلات، والاحتمال من غير القادر، والقِرى للضيوف، وحمل الكَلِّ[٤١٤ب]، وكسب المُعْدِم، والصبر على المكاره، والوفاء بالعهد، وبذل الأموال فى صون الأعراض، وتعظيم الشريعة، وإجلال العلماء الحاملين لها، والوقوف عندما يحددونه لهم من فعل أو ترك، وحسن الظن بهم، واعتقاد أهل الدين والتبرك بهم، ورغبة الدعاء منهم، والحياء من الأكابر والمشايخ وتوقيرهم وإجلالهم، والانقياد إلى الحق مع الداعى إليه، وإنصاف المستضعفين من أنفسهم، والتبذل[٤١٥] فى أحوالهم، والانقياد

(٤١٤ب) الكَلّ بالفتح: اليتيم ومن لا يقدر على القيام بشئون نفسه والعَيِّل على غيره. قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ﴾ (آية ٧٦ من سورة النحل).

(٤١٥) من معانى المتبذل: من يعمل عمله بنفسه ولا يستنكف من ذلك (انظر القاموس). وهذا المعنى هو المقصود فى عبارة ابن خلدون.

للحق، والتواضع للمسكين، واستماع شكوى المستغيثين، والتدين بالشرائع والعبادات، والقيام عليها وعلى أسبابها، والتجافى عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد وأمثال ذلك، علمنا أن هذه خلق السياسة قد حصلت لديهم، واستحقوا بها أن يكونوا ساسة لمن تحت أيديهم، أو على العموم، وأنه خير ساقه الله تعالى إليهم مناسب لعصبيتهم وغَلبهم، وليس ذلك سدى فيهم، ولا وجد عبثاً منهم؛ والملك أنسب المراتب والخيرات لعصبيتهم، فعلمنا بذلك أن الله تأذن لهم بالملك وساقه إليهم. وبالعكس من ذلك إذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات، وانتحال الرذائل، وسلوك طرقها، فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة، ولاتزال فى انتقاص إلى أن يخرج الملك من أيديهم، ويتبدل به سواهم ليكون نعياً عليهم فى سلب ما كان الله قد آتاهم من الملك، وجعل فى أيديهم من الخير: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾[٤١٦]. واستقرئ ذلك وتتبعه فى الأمم السابقة تجد كثيراً مما قلناه ورسمناه. والله يخلق ما يشاء ويختار.

واعلم أن من خلال الكمال التى يتنافس فيها القبائل أولو العصبية وتكون شاهدة لهم بالملك، إكرامَ العلماء والصالحين والأشراف وأهل الأحساب وأصناف التجار والغرباء وإنزال الناس منازلهم. وذلك أن إكرام القبائل وأهل العصبيات والعشائر لمن يناهضهم فى الشرف ويجاذبهم حبل العشير والعصبية ويشاركهم فى اتساع الجاه أمر طبيعى يحمل عليه فى الأكثر الرغبة فى الجاه أو المخافة من قوم المُكْرَمِ أو التماس مثلها منه. وأما أمثال هؤلاء[٤١٧] ممن ليس لهم عصبية تتقى ولا جاه يرتجى فيندفع الشك فى شأن كرامتهم ويتمحَّض القصد فيهم أنه للمجد، وانتحال الكمال فى الخلال والإقبال على السياسة بالكلية. لأن إكرام أقتاله[١١٢] وأمثاله ضرورى فى السياسة الخاصة بين قبيله ونظرائه، وإكرام الطارئين من أهل الفضائل والخصوصيات كمال فى السياسة العامة. فالصالحون للدين؛ والعلماء للَّجْءِ إليهم فى إقامة مراسم الشريعة؛ والتجار للترغيب حتى تعم المنفعة بما فى أيديهم؛ والغرباء من مكارم الأخلاق؛ وإنزال الناس منازلهم من الإنصاف وهو من العدل. فيعلم بوجود ذلك

(٤١٦) آية ١٦ من سورة الإسراء (سورة ١٧).

(٤١٧) يقصد العلماء والصالحين وأصناف التجار والغرباء.... ومن إليهم ممن تقدم ذكرهم.

من عصبيته انتماؤهم للسياسة العامة وهى الملك، وأن الله قد تأذن بوجودها فيهم لوجود علاماتها. ولهذا كان أول ما يذهب من القبيل أهل الملك إذا تأذن الله تعالى بسلب ملكهم وسلطانهم إكرامَ هذا الصنف من الخلق. فإذا رأيته قد ذهب من أمة من الأمم فاعلم أن الفضائل قد أخذت فى الذهاب عنهم، وارتقب زوال الملك منهم: ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ ﴾(٤١٨). والله تعالى أعلم.

٢١ ـ فصل فى أنه إذا كانت الأمة وحشية كان ملكها أوسع[٣٨٩ب]

وذلك لأنهم أقدر على التغلب والاستبداد كما قلناه، واستعباد الطوائف، لقدرتهم على محاربة الأمم سواهم، ولأنهم يتنزلون من الأهلين منزلة المفترس من الحيوانات العُجْم، وهؤلاء مثل العرب وزناتة ومن فى معناهم من الأكراد والتركمان وأهل اللثام[٢٠٨ب] من صنهاجة [٥٠]. وأيضاً فهؤلاء المتوحشون ليس لهم وطن يرتافون(٤١٩) منه، ولا بلد يجنحون إليه؛ فنسبة الأقطار والمواطن إليهم على السواء. فلهذا لا يقتصرون على مَلَكَة[٧٠] قطرهم وما جاورهم من البلاد، ولا يقفون عند حدود أفقهم، بل يَطْفِرونَ إلَى الأقاليم البعيدة ويتغلبون على الأمم النائية. وانظر ما يحكى فى ذلك عن عمر رضى الله عنه لما بويع وقام يحرض الناس على العراق فقال: «إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النُّجْعة[٣٦٤] ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك، أين القراء المهاجرون عن موعد الله، سيروا فى الأرض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها فقال: ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾(٤١٩ب)». واعتبر ذلك أيضاً بحال العرب السالفة من قبل مثل التبابعة وحمْير، كيف كانوا يخطون من اليمن إلى المغرب مرة وإلى العراق والهند أخرىَ(٤١٩جـ) ولم يكن ذلك لغير العرب من الأمم. وكذلك حال

---

(٤١٨) جملة من آية ١١ من سورة الرعد (سورة ١٣).

(٤١٩) «الريف أرض فيها زرع وخصب... وراف البدوى يريف أتاه كأريف وتريف» (القاموس) ولم يذكر ارتاف، والمعنى يعيشون منه ويقتاتون.

(٤١٩ب) ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (آية ٩ من سورة الصف، وهى سورة ٦١).

(٤١٩جـ) قطع ابن خلدون فى أول المقدمة بعدم صحة ما يذهب إليه بعض المؤرخين من أن التبابعة وحمير قد غزوا بلاد المغرب والعراق والهند. وأيد رأيه بأدلة قوية ذكرها هناك (انظر الفقرة الأخيرة من صفحة ٢٢٥ وصفحات ٢٢٦-٢٢٩).

الملثمين[٢٠٨ب] من الغرب لما نزعوا إلى الملك طَفَروا من الإقليم الأول، ومجالاتهم منه فى جوار السودان إلى الإقليم الرابع والخامس فى ممالك الأندلس من غير واسطة.

وهذا شأن هذه الأمم الوحشية. فلذلك تكون دولتهم أوسع نطاقا، وأبعد من مراكزها نهاية. ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾(٤٢٠) وهو الواحد القهار لا شريك له.

٢٢ ـ فصل فى أن الملك إذا ذهب عن بعض الشعوب من أمة فلابد من عودته إلى شعب آخر منها مادامت لهم العصبية [٣٨٩ب]

والسبب فى ذلك أن الملك إنما حصل لهم بعد سَوْرة[٢٥٥] الغلب والإذعان لهم من سائر الأمم سواهم، فيتعين منهم المباشرون للأمر الحاملون لسرير الملك. ولا يكون ذلك لجميعهم لما هم عليه من الكثرة التى يضيق عنها نطاق المزاحمة والغيرة التى تجدع أنوف كثير من المتطاولين للرتبة. فإذا تعين أولئك القائمون بالدولة انغمسوا فى النعيم، وغرقوا فى بحر الترف والخصب، واستعبدو ا إخوانهم من ذلك الجيل، وأنفقوهم فى وجوه الدولة ومذاهبها. وبقى الذين بَعُدُوا عن الأمر وكُبِحُوا عن المشاركة فى ظلٍّ من عز الدولة التى شاركوها بنسبهم، وبمنجاة من الهَرم لبعدهم عن الترف وأسبابه. فإذا استولت على الأولين الأيام، وأباد خضراءهم الهَرَمُ، فطبختهم الدولة، وأكل الدهر عليهم وشرب، بما أرهف النعيم من حدهم(٤٢٠ب)، واشتفت غريزة الترف من مائهم، وبلغوا غايتهم من طبيعة التمدن الإنسانى والتغلب السياسى، (شعر:

كدود القز ينسج ثم يفنى ... بمركز نسجه فى الإنعكاس)

---

(٤٢٠) جملة من آية ٢٠ من سورة المزمل (سورة ٧٣).

(٤٢٠ب) الباء للسببية وما مصدرية، ويكثر فى عبارات ابن خلدون استخدام «الباء» للسببية و«ما» الواقعة بعدها مصدرية، على غرار قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (آية ٦١ من سورة البقرة).

كانت حينئذ عصبية الآخرين موفورة، وسَوْرة [٢٥٥] غلبهم من الكاسر محفوظة، وشارتهم فى الغلب معلومة؛ فتسمو آمالهم إلى الملك الذى كانوا ممنوعين منه بالقوة الغالبة من جنس عصبيتهم، وترتفع المنازعة لما عرف من غلبهم، فيستولون على الأمر ويصير إليهم. وكذا يتفق فيهم مع من بقى أيضاً منتبذاً عنه من عشائر أمتهم. فلايزال الملك ملجأ فى الأمة إلى أن تنكسر سَوْرَة[٢٥٥] العصبية منها أو يفنى سائر عشائرها. سنة الله فى الحياة الدنيا، ﴿وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٤٢١).

واعتبر هذا بما وقع فى العرب لما انقرض ملك عاد قام به من بعدهم إخوانهم من ثمود، ومن بعدهم إخوانهم العمالقة، ومن بعدهم إخوانهم من حِمْيَر، ومن بعدهم إخوانهم التبابعة من حِمْيَر أيضاً، ومن بعدهم الأذواء كذَلك، ثم جاءت الدولة لمضر. وكذا الفرس لَما انقرض أمر الكينية ملك من بعدهم الساسانية، حتى تأذن الله بانقراضهم أجمع بالإسلام. وكذا اليونانيون انقرض أمرهم وانتقل إلى إخوانهم من الروم. وكذا البربر بالمغرب لما انقرض أمر مغراوة وكتامة[٥٠] الملوك الأول منهم رجع إلى صنهاجة[٥٠] ثم الملثمين[٢٠٨ب] من بعدهم، ثم المصامدة، ثم من بقى من شعوب زناتة وهكذا. سنة الله فى عباده وخلقه.

وأصل هذا كله إنما يكون بالعصبية؛ وهى متفاوتة فى الأجيال، والمُلْكُ يُخْلِقُهُ[٤٠٥] التَّرَفُ ويُذْهِبُه، كما سنذكره(٤٢٢) بعد. فإذا انقرضت دولة فإنما يتناوَل الأمر منهم من له عصبية مشاركة لعصبيتهم التى عرف لها التسليم والانقياد، وأونس منها الغلب لجميع العصبيات. وذلك إنما يوجد فى النسب القريب منهم؛ لأن تفاوت العصبية بحسب ما قرب من ذلك النسب التى هى فيه أو بعد. حتى إذا وقع فى العالم تبديل كبير من تحويل ملة أو ذهاب عمران أو ما شاء الله من قدرته، فحينئذ يخرج عن ذلك الجيل إلى الجيل الذى يأذن الله بقيامه بذلك التبديل. كما وقع لمضر حين غلبوا على الأمم والدول وأخذوا الأمر من أيدى أهل العالم، بعد أن كانوا مكبوحين عنه أحقاباً.

---

(٤٢١) آخر آية ٣٥ من سورة الزخرف (سورة ٤٣).

(٤٢٢) قد ذكر هذا فى فصلين سابقين وهما الفصلان السادس عشر والثامن عشر من هذا الباب (انظر صفحات ٤٩٤ ـ ٤٩٦ و ٤٩٨). ولعلّ هذين الفصلين كانا لاحقين لهذا الفصل فى أول وضع للمقدمة، ثم غيّر ابن خلدون ترتيب الفصول بدون أن يغيّر هذه الجملة (انظر تعليق ٤٠٢).

٢٣ - فصل فى أن المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيِّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده

والسبب فى ذلك أن النفس أبدًا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه: إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه؛ أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعى إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقاداً، فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به، وذلك هو الاقتداء، أو لما تراه، والله أعلم، من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس، وإنما هو بما انتحله من العوائد والمذاهب، تغالط أيضًا بذلك عن الغلب، وهذا راجع للأول. ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبدًا بالغالب فى ملبسه ومَرْكَبه وسلاحه فى اتخاذها وأشكالها، بل[٢٤٤] وفى سائر أحواله. وانظر ذلك فى الأَبنَاء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائماً، وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم. وانظر إلى كل قطر من الأقطار كيف يغلب على أهله زى الحامية وجند السلطان فى الأكثر لأنهم الغالبون لهم؛ حتى إنه إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسرى إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير؛ كما هو فى الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة، فإنك تجدهم يتشبهون بهم فى ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم، حتى فى رسم التماثيل فى الجدران والمصانع والبيوت، حتى لقد يستشعر عن ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء؛ والأمر لله. وتأمل فى هذا سر قولهم: «العامة على دين المَلك»، فإنه من بابه، إذ الملك غالب لمن تحت يده، والرعية مقتدون به لاعتقاد الكَمَال فيه اعتقاد الأبناء بآبائهم والمتعلمين بمعلميهم. والله العليم الحكيم، وبه سبحانه وتعالى التوفيق.

٢٤ـ فصل فى أن الأمة إذا غلبت وصارت فى ملك غيرها أسرع إليها الفناء[٤٢٣]

والسبب فى ذلك والله أعلم ما يحصل فى النفوس من التكاسل إذا مُلِكَ أمرُها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم، فيقصر الأمَل ويضعف التناسل، والاعتمار إنما هو عن جِدَّة الأمل وما يحدث عنه من النشاط فى القوى الحيوانية. فإذا ذهب الأمل بالتكاسل وذهب ما يدعو إليه من الأحوال وكانت العصبية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم، تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم، وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم، بماخضد ٤٣٠ب الغلب من شوكتهم، فأصبحوا مُغلَّبين لكل مُتَغَلِّب وطعمة لكل آكل، وسواء كانوا حصلوا على غايتهم من الملك أو لم يحصلوا.

وفيه والله أعلم سر آخر وهو أن الإنسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذى خلق له[٤٢٤]؛ والرئيس إذا غلب على رياسته وكبح عن غاية عزه تكاسل حتى عن شبع بطنه ورى كبده؛ وهذا موجود فى أخلاق الأناسى. ولقد يقال مثله فى الحيوانات المفترسة، وإنها لا تسافد إذا كانت فى ملَكَة ٧٠ الآدميين[٤٢٥] فلا يزال هذا القبيل المملوك عليه أمره فى تناقص واضمحلال إلى أن يأخذهم الفناء. والبقاء لله وحده.

واعتبر ذلك فى أمة الفرس كيف كانت قد ملأت العالم كثرة، ولما فنيت حاميتهم فى أيام العرب، بقى منهم كثير وأكثر من الكثير. يقال إن سعداً أحصى ما وراء المدائن فكانوا مائة ألف وسبعة وثلاثين ألفاً، منهم سبعة وثلاثون ألفاً رب بيت. ولما تحصلوا فى مَلَكَة ٧٠ العرب وقبضة القهر لم يكن

---

(٤٢٣) اتخذنا فى التمهيد من هذا الفصل مثالاً لمنهج ابن خلدون فى البحث وطريقته فى عرض الحقائق (انظر صفحات ١٩٩ - ٢٠٢).

(٤٢٤) يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وهو آدم وبنوه (آية ٣٠ من سورة البقرة).

(٤٢٥) فى بعض النسخ «لا تسافد إلا إذا كانت فى ملكة الآدميين». وهو خطأ فاحش يغير المعنى المقصود إلى نقيضه (انظر ص ١٢ من تمهيدنا للمقدمة).

بقاؤهم إلا قليلا، ودَثروا[٣٨٧] كأن لم يكونوا. ولا تحسبن أن ذلك لظلم نزل بهم أو عدوان شملهم؛ فَمَلَكَةُ[٧٠] الإسلام في العدل ما علمت، وإنما هى طبيعة فى الإنسان إذا غُلب على أمره، وصار آلة لغيره.

ولهذا إنما تذعن للرق فى الغالب أمم السودان لنقص الإنسانية فيهم، وقربهم من عرض الحيوانات العجم كما قلناه(٤٢٦)؛ أو من يرجو بانتظامه فى ربقة الرق حصول رتبة أو إفادة مال أو عن كما يقع لممالك الترك بالمشرق والعلوج(٤٢٧) من الجلالقة والإفرنجة بالأندلس؛ فإن العادة جارية باستخلاص الدولة لهم، فلا يأنفون من الرق لما يأملونه من الجاه والرتبة باصطفاء الدولة. والله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق.

٢٥ـ فصل فى أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط[٣٥٩]

وذلك أنهم بطبيعة التوحش الذى فيهم أهل انتهاب وعيث ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ويفرون إلى منتجعهم بالقفر، ولا يذهبون إلى المزاحفة والمحاربة إلا إذا دفعوا بذلك عن أنفسهم. فكل معقل أو مستصعب عليهم فهم تاركوه إلى ما يسهل عنه، ولا يعرضون له. والقبائل الممتنعة عليهم بأوعار الجبال بمنجاة من عيثهم وفسادهم؛ لأنهم لا يتسنمون إليهم الهضاب، ولا يركبون الصعاب، ولا يحاولون الخطر. وأما البسائط متى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة فهى نهب لهم وطعمة لأكلهم، يرددون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم، إلى أن يصبح أهلها مُغَلَّبين لهم، ثم يتعاورونهم باختلاف الأيدى وانحراف السياسة، إلى أن ينقرض عمرانهم. والله قادر على خلقه، وهو الواحد القهار لا رب غيره.

---

(٤٢٦) يحيل بذلك على ما ذكره فى المقدمتين الثالثة والرابعة من الباب الأول (انظر صفحات ٢٩٣، ٢٩٧، ٢٩٨).

(٤٢٧) من معانى العِلْج الرجل من كفار العجم وجمعه علوج (انظر القاموس) وهذا المعنى هو المقصود هنا.

٢٦ ـ فصل فى أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب[٣٥٩]

والسبب فى ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم، فصار لهم خلقا وجبلة، وكان عندهم ملذوذا لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم، وعدم الانقياد للسياسة. وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له. فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتقلب[٤٢٧ب]؛ وذلك مناقض للسكن الذى به العمران ومناف له: فالحجر مثلا إنما حاجتهم إليه لنصبه أثَافِيَّ للقدر، فينقلونه من المبانى ويخربونها عليه، ويُعدُّونهُ لذلك. والخشب أيضا إنما حاجتهم إليه لِيَعْمِدُوا[٤٢٨] به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم، فيخربون السقف عليه لذلك. فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذى هو أصل العمران. هذا فى حالهم على العموم.

وأيضا فطبيعتهم انتهاب ما فى أيدى الناس، وأن رزقهم فى ظلال رماحهم، وليس عندهم فى أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه، بل كلما امتدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون انتهبوه. فإذا تم اقتدارهم على ذلك بالتغلب والملك بطلت السياسة فى حفظ أموال الناس وخَرِبَ العمران.

وأيضاً فلأنهم يتلفون على أهل الأعمال من الصنائع والحرف أعمالهم، لا يرون لها قيمة ولا قسطا من الأجر والثمن؛ والأعمال كما سنذكره هى أصل المكاسب وحقيقتها[٤٢٨ب]؛ وإذا فسدت الأعمال وصارت مَجَّانًا، ضعفت الآمال فى المكاسب، وانقبضت الأيدى عن العمل، وابذَعَرَّ[٤٢٩] الساكن، وفسد العمران.

وأيضاً فإنهم ليست لهم عناية بالأحكام وزجر الناس عن المفاسد ودفاع

(٤٢٧ب) من معانى التقلب الانتقال والرحلة، قال تعالى: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ﴾ (آية ١٩٦ من سورة آل عمران، وهى السورة الثالثة).

هذا، وفى جميع النسخ «والتغلب»، وهو تحريف كما لا يخفى.

(٤٢٨) عَمَد الخيمة أقامها بعماد (القاموس). هذا، وفى جميع النسخ: «ليعمروا به خيامهم»؛ وهو تحريف كما لا يخفى.

(٤٢٨ب) يحيل بذلك على ما سيذكره فى الفصل الأول من الباب الخامس، وعنوانه: «فصل فى حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وأن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية».

(٤٢٩) «ابذعروا تفرقوا وفروا ، والخيل ركضت تبادر شيئًا نطلبه» (القاموس).

بعضهم عن بعض؛ إنما همهم ما يأخذونه من أموال الناس نهباً أو مَغْرماً؛ فإذا توصلوا إلى ذلك وحصلوا عليه أعرضوا عما بعده من تسديد أحوالهم والنظر فى مصالحهم وقهر بعضهم عن أغراض المفاسد. وربما فرضوا العقوبات فى الأموال حرصا على تحصيل الفائدة والجباية والاستكثار منها كما هو شأنهم؛ وذلك ليس بمغن فى دفع المفاسد وزجر المتعرض لها؛ بل يكون ذلك زائداً فيها لاستسهال الغرم فى جانب حصول الغرض؛ فتبقى الرعايا فى مَلَكتهم[٧٠] كأنها فوضى دون حكم. والفوضى مَهْلَكَةٌ[٤٣٠] للبشر مَفْسَدة للعمران، بما ذكرناه من أن وجود الملك خاصة طبيعية للإنسان لا يستقيم وجودهم واجتماعهم إلا بها؛ وتقدم ذلك أول الفصل[٤٣١]

وأيضاً فهم متنافسون فى الرياسة، وقل أن يُسلِّم أحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته، إلا فى الأقل وعلى كره من أجل الحياء؛ فيتعدد الحكام منهم والأمراء، وتختلف الأيدى على الرعية فى الجباية والأحكام؛ فيفسد العمران وينتقض. قال الأعرابى الوافد على عبد الملك لما سأله عن الحجاج وأراد الثناء عليه عنده بحسن السياسة والعمران، فقال: «تركته يظلم وحده».

وانظر إلى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الأوطان[٣٩٥] من لدن الخليقة كيف تقوض عمرانه، وأقفر ساكنه، وبدلت الأرض فيه غير الأرض: فاليمن قرارهم خراب إلا قليلاً من الأمصار؛ وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذى كان للفرس أجمع؛ والشام لهذا العهد كذلك؛ وإفريقية والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو سُلَيْم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خراباً كلها، بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومى كله عمراناً، تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمدر[٤٣٢] والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين».

---

(٤٣٠) هلك... مَهْلَكَة بفتح اللام وكسرها (القاموس).

(٤٣١) يقصد المقدمة الأولى من الباب الأول (انظر ص ٣٤٠).

(٤٣٢) المدر جمع مدرة مثل قصب وقصبة وهو قطع الطين. والعرب تسمى القرية مدرة لأن بنيانها من المدر فى الغالب (المصباح).

٢٧ ـ فصل فى أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة ٣٥٩

والسبب فى ذلك أنهم لخلق التوحش الذى فيهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة فى الرياسة؛ فقلما تجتمع أهواؤهم. فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم، وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم، فسهل انقيادهم واجتماعهم. وذلك بما يشملهم من الدين المُذْهِبِ للغلظة والأنفة الوازع عن التحاسد والتنافس. فإذا كان فيهم النبى أو الولِىَ الذى يبعثهم على القيام بأمر اللّه، ويذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها، ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق، تم اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك. وهم مع ذلك أسرع الناس قبولاً للحق والهدى؛ لسلامة طباعهم عن عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق؛ إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة المتهيئ لقبول الخير، ببقائه على الفطرة الأولى وبعده عما ينطبع فى النفوس من قبيح العوائد وسوء الملكات؛ فإن «كل مولود يولد على الفطرة» كما ورد فى الحديث وقد تقدم(٤٣٣).

---

(٤٣٣) يحيل بذلك على ما ذكره فى أول الفصل الرابع من هذا الباب (انظر ص٤٧٣).

٢٨ـ فصل فى أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك[٢٥٩]

والسبب فى ذلك أنهم أكثر بداوة من سائر الأمم، وأبعد مجالا فى القفر، وأغنى عن حاجات التلول وحبوبها لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش، فاستغنوا عن غيرهم؛ فصعب انقياد بعضهم لبعض لإيلافهم ذلك وللتوحش؛ ورئيسهم محتاج إليهم غالبًا للعصبية التى بها المدافعة، فكان مضطرًا إلى إحسان مَلَكَتهم[٧٠] وترك مراغمتهم(٤٣٣ب)، لئلا يختل عليه شأن عصبيته، فيكون فيها هلاكه وهلاكهم. وسياسة الملك والسلطان تقتضى أن يكون السائس وازعًا بالقهر، وإلا لم تستقم سياسته.

وأيضًا فإن من طبيعتهم كما قدمناه أخذ ما فى أيدى الناس خاصة(٤٣٤) والتجافى عما سوى ذلك من الأحكام بينهم ودفاع بعضم عن بعض. فإذا ملكوا أمة من الأمم جعلوا غاية ملكهم الانتفاع بأخذ ما فى أيديهم وتركوا ما سوى ذلك من الأحكام بينهم. وربما جعلوا العقوبات على المفاسد فى الأموال حرصًا على تكثير الجبايات وتحصيل الفوائد. فلا يكون ذلك وازعًا؛ وربما يكون باعثًا بحسب الأغراض الباعثة على المفاسد، واستهانة ما يعطى من ماله فى جانب غرضه. فتنمو المفاسد بذلك ويقع تخريب العمران. فتبقى تلك الأمة كأنها فوضى مستطيلة أيدى بعضها على بعض. فلا يستقيم لها عمران، وتخرب سريعًا، شأن الفوضى، كما قدمناه(٤٣٥).

فبعدت طباع العرب لذلك كله عن سياسة الملك. وإنما يصيرون إليها بعد انقلاب طباعهم، وتبدلها بصبغة دينية تمحو ذلك منهم، وتجعل الوازع لهم من أنفسهم، وتحملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض كما ذكرناه(٤٣٦). واعتبر

(٤٣٣ب) المراغمة العداء والمغاضبة والتباعد والهجران، وراغمهم نابذهم وعاداهم وهجرهم (من القاموس).

(٤٣٤) يحيل بذلك على ما ذكره فى الفصل الخامس والعشرين من هذا الباب (انظر ص ٥٠٧).

(٤٣٥) يحيل بذلك على ما ذكره فى الفصل السادس والعشرين من هذا الباب (انظر الفقرة الأخيرة من ص ٥٠٨ والسطور الستة الأولى من ص٥٠٩).

(٤٣٦) يحيل بذلك على ما ذكره فى الفصل السابع والعشرين من هذا الباب (انظر ص ٥١٠).

ذلك بدولتهم فى الملة، لما شيد لهم الدين السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهراً وباطناً، وتتابع فيها الخلفاء، عظم حينئذ ملكهم وقوى سلطانهم. كان رُسْتُم[٤٣٧] إذا رأى المسلمين يجتمعون للصلاة يقول أكل عمر كبدى، يعلم الكلاب الآداب.

ثم إنهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدولة أجيال نبذوا الدين، فنسوا السياسة، ورجعوا إلى قفرهم، وجهلوا شأن عصبيتهم مع أهل الدولة ببعدهم عن الانقياد وإعطاء النَّصَفَة[٤٣٧ب]، فتوحشوا كما كانوا، ولم يبق لهم من اسم الملك إلا أنهم من جنس الخلفاء ومن جيلهم. ولما ذهب أمر الخلافة وانمحى رسمها انقطع الأمر جملة من أيديهم، وغلب عليهم العجم دونهم، وأقاموا فى بادية قفارهم. لا يعرفون الملك ولا سياسته. بل قد يجهل الكثير منهم أنهم قد كان لهم ملك فى القديم، وما كان فى القديم لأحد من الأمم فى الخليقة ما كان لأجيالهم من الملك؛ ودول عاد وثمود والعمالقة وحمير والتبابعة شاهدة بذلك، ثم دولة مضر فى الإسلام بنى أمية وبنى العباس. لكن بَعُدَ عهدُهم بالسياسة لما نسوا الدين فرجعوا إلى أصلهم من البداوة. وقد يحصل لهم فى بعض الأحيان غَلَبٌ على الدول المستضعفة كما فى المغرب لهذا العهد، فلا يكون مآله وغايته إلا تخريبه ما يستولون عليه من العمران كما قدمناه[٤٣٨]. ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾[٤٣٨ب].

---

(٤٣٧) قائد جيوش الفرس فى موقعة القادسية التى نشبت بينهم وبين المسلمين فى عهد عمر.

(٤٣٧ب) أنصفت الرجل عاملته بالعدل والقسط، والاسم النَّصَفَة بفتحتين (المصباح).

(٤٣٨) يحيل بذلك على ما ذكره فى آخر الفصل السادس والعشرين من هذا الباب (انظر صفحة ٥٠٩).

(٤٣٨ب) جملة من آية ٢٤٧ من سورة البقرة.

٢٩ ـ فصل فى أن البوادى من القبائل والعصائب مغلوبون لأهل الأمصار[٣٨٩ب]

قد تقدم لنا(٤٣٩) أن عمران البادية ناقص عن الحواضر والأمصار؛ لأن الأمور الضرورية فى العمران ليس كلها موجودة لأهل البدو؛ وإنما توجد لديهم فى مواطنهم أمور الفلح، وموادها معدومة ومعظمها الصنائع، فلا توجد لديهم بالكلية، من نجار وخياط وحداد وأمثال ذلك مما يقيم لهم ضروريات معاشهم فى المفلح وغيره. وكذا الدنانير والدراهم مفقودة لديهم؛ وإنما بأيديهم أعواضها من مُغلّ الزراعة وأعيان الحيوان أو فضلاته ألبانًا وأوبارًا وأشعارًا وإهابًا مما يحتاج إليَه أهل الأمصار، فيعوضونهم عنه بالدنانير والدراهم. إلا أن حاجتهم إلى الأمصار فى الضرورى وحاجة أهل الأمصار إليهم فى الحاجى(٤٣٩ب) الكمالى. فهم محتاجون إلى الأمصار بطبيعة وجودهم. فما داموا فى البادية ولم يحصل لهم ملك ولا استيلاء على الأمصار فهم محتاجون إلى أهلها ويتصرفون فى مصالحهم وطاعتهم متى دعوهم إلى ذلك، وطالبوهم به. وإن كان فى المصر ملك كان خضوعهم وطاعتهم لغلب الملك. وإن لم يكن فى المصر ملك فلابد فيه من رياسة ونوع استبداد من بعض أهله على الباقين وإلا انتقض عمرانه. وذلك الرئيس يحملهم على طاعته والسعى فى مصالحه: إما طوعاً ببذل المال لهم، ثم يبذل(٤٤٠) لهم ما يحتاجون إليه من الضروريات فى مصره فيستقيم عمرانهم؛ وإما كَرْهًا إن تمت قدرته على ذلك ولو بالتفريق(٤٤١) بينهم، حتى يحصل له جانب منهم يغالب به الباقين، فيُضْطَرَّ الباقون إلى طاعته بما يتوقعون لذلك من فساد عمرانهم. وربما لا يسعهم مفارقة تلك النواحى إلى جهات أخرى، لأن كل الجهات معمور بالبدو الذين غلبوا عليها ومنعوها من غيرهم، فلا يجد هؤلاء ملجأ إلى طاعة المصر.

فهم بالضرورة مغلوبون لأهل الأمصار. والله قاهر فوق عباده، وهو الواحد الأحد القهار.

---

(٤٣٩) يحيل بذلك على ما ذكره فى الفصول الثلاثة الأولى من هذا الباب (انظر صفحات ٤٦٧ ـ ٤٧٢).

(٤٣٩ب) يطلق ابن خلدون فى هذا الفصل وغيره كلمة «الحاجى» على ما يقابل الضرورى؛ وهو اصطلاح له.

(٤٤٠) فى بعض النسخ «يبدى»؛ وفى بعض «يبيح».

(٤٤١) فى بعض النسخ «بالتغريب».

الباب الثالث[165]

فى الدول العامة

والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض فى ذلك كله من الأحوال وفيه قواعد ومتممات(٤٤١ب)

١ ـ فصل فى أن الملك والدولة العامة إنما يحصلان بالقبيل والعصبية[389ب]

وذلك أنا قررنا فى الفصل الأول(٤٤٢) أن المغالبة والممانعة إنما تكون بالعصبية لما فيها من النُّعْرَة[379] والتذامر(٤٤٣) واستماتة(٤٤٤) كل واحد منهم دون صاحبه. ثم إن الملك منصب شريف ملذوذ يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسانية فيقع فيه التنافس غالباً، وقل أن يسلمه أحد لصاحبه إلا إذا غُلِبَ عليه؛ فتقع المنازعة وتفضى إلى الحرب والقتال والمغالبة؛ وشىء منها لا يقع إلا بالعصبية كما ذكرناه آنفا[442]. وهذا الأمر بعيد عن أفهام الجمهور بالجملة ومتناسون له، لأنهم نسوا عهد تمهيد الدولة منذ أولها، وطال

(٤٤١ب) عرض ابن خلدون فى هذا الباب لما يسميه المحدثون «علم الاجتماع السياسى» (انظر السطور الأخيرة من ص ١٨٢).

(٤٤٢) يقصد بذلك الفصل السابق، وهو الفصل الثانى لا الأول، أو الباب الثانى بحسب اصطلاحنا نحن (يسمى ابن خلدون البحوث الرئيسية «فصولا»؛ وقد سميناها نحن «أبوابا» للتمييز بينها وبين الفصول الفرعية، انظر تعليق ١٦٥). ولعل الفصل الثانى (الباب الثانى بحسب اصطلاحنا) كان أول فصل فى المقدمة فى وضعها الأول (انظر تعليق ٤٠٢). والحقائق التى يحيل عليها مذكورة فى الفصول السابع والثامن والحادى عشر والثانى عشر والسابع عشر من الباب السابق وهو الباب الثانى (أو الفصل الثانى الرئيسى بحسب اصطلاح ابن خلدون).

(٤٤٣) «التذامر التحاضّ على القتال» (القاموس).

(٤٤٤) فى بعض النسخ «استمالة»، وهو تحريف كما لا يخفى.

أمد مَرْباهُم فى الحضارة وتعاقبهم فيها جيلا بعد جيل؛ فلا يعرفون ما فعل الله أولَ الدولة؛ إنما يدركون أصحاب الدولة وقد استحكمت صبغتهم، ووقع التسليم لهم، والاستغناء عن العصبية فى تمهيد أمرهم، ولا يعرفون كيف كان الأمر من أوله، وما لقى أولهم من المتاعب دونه؛ وخصوصاً أهل الأندلس فى نسيان هذه العصبية وأثرها لطول الأمد واستغنائهم فى الغالب عن قوة العصبية بما تلاشى وطنُهم(٤٤٥) وخلا من العصائب. والله قادر على ما يشاء، وهو بكل شيء عليم، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

٢ ـ فصل فى أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغنى عن العصبية ٣٨٩ب

والسبب فى ذلك أن الدول العامة فى أولها يصعب على النفوس الانقياد لها إلا بقوة قوية من الغلب، للغرابة وأن الناس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه فإذا استقرت الرياسة فى أهل النصاب المخصوص بالملك فى الدولة وتوارثوه واحداً بعد آخر فى أعقاب كثيرين ودول متعاقبة نسيت النفوس شأن الأولية، واستحكمت لأهل ذلك النصاب صبغة الرياسة، ورسخ فى العقائد دين الانقياد لهم والتسليم، وقاتل الناس معهم على أمرهم قتالَهم على العقائد الإيمانية. فلم يحتاجوا حينئذ فى أمرهم إلى كبير عصابة؛ بل كأنَّ طاعتها كتاب من الله لا يبدل ولا يعلم خلافه. ولأمر ما يوضع الكلام فى الإمامة آخر الكلام على العقائد الإيمانية، كأنه من جملة عقودها. ويكون استظهارهم حينئذ على سلطانهم ودولتهم المخصوصة إما بالموالى والمصطنعين الذين نشئوا فى ظل العصبية وغيرها وإما بالعصائب الخارجين عن نسبها الداخلين فى ولايتها.

ومثل هذا وقع لبنى العباس. فإن عصبية العرب كانت فسدت لعهد دولة المعتصم وابنه الواثق، واستظهارهم بعد ذلك إنما كان بالموالى من العجم والترك

---

(٤٤٥) «ما» فى قوله بما تلاشى وطنهم مصدرية، والباء للسببية، والمعنى لتلاشى وطنهم. وذلك على غرار قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (آية ٦١ من سورة البقرة). ويكثر فى عبارات ابن خلدون استخدام «الباء» للسببية و«ما» الواقعة بعدها مصدرية (انظر تعليق ٤٢٠ب).

والديلم والسلجوقية وغيرهم. ثم تغلب العجم الأولياء على النواحى وتقلص ظل الدولة فلم تكن تعدو أعمال بغداد، حتى زحف إليها الديلم وملكوها، وصار الخلائق فى حكمهم. ثم انقرض أمرهم وملك السلجوقية من بعدهم فصاروا فى حكمهم. ثم انقرض أمرهم وزحف آخر التتار فقتلوا الخليفة ومحوا رسم الدولة.

وكذا صنهاجة[٥٠] بالمغرب فسدت عصبيتهم منذ المائة الخامسة أو ما قبلها، واستمرت لهم الدولة مقلصة الظل بالمهدية وبجاية[٢١٥ج] والقلعة وسائر ثغور إفريقية[٤٩ب]. وربما انتزى[(٤٤٦)] بتلك الثغور من نازعهم الملك واعتصم فيها؛ والسلطان والملك مع ذلك مسلم لهم؛ حتى تأذن الله بانقراض الدولة، وجاء الموحدون بقوة قوية من العصبية فى المصامدة، فمحوا آثارهم.

وكذا دولة بنى أمية بالأندلس لما فسدت عصبيتها من العرب استولى ملوك الطوائف على أمرها، واقتسموا خُطَّتَها[٧٣، ٣٥٦]، وتنافسوا بينهم، وتوزعوا ممالك الدولة، وانتزى[٤٤٦] كل واحد منهم على ما كان فى ولايته، وشمخ بأنفه وبلغهم شأن العجم مع الدولة العباسية، فتلقبوا بألقاب الملك، ولبسوا شارته، وأمنوا ممن ينقُضُ ذلك عليهم أو يغيِّره؛ لأن الأندلس ليس بدار عصائب ولا قبائل كما سنذكره واستمر لهم ذلك، كما قال ابن شرف:

مما يُزهِّدُنى فى أرض أندلُس — أَسماء مُعْتَصِمٍ فيها ومعتَضِدِ
ألقابُ مملَكَةٍ فى غير موضِعها — كالهرِّ يحكى انتفاخاً صورةَ الأسَدِ

فاستظهروا على أمرهم بالموالى والمُصْطَنَعين والطُّرَّاء[(٤٤٧)] على الأندلس من أهل العُدْوَة من قبائل البربر وزناتة وغيرهم، اقتداء بالدولة فى آخر أمرها فى الاستظهار بهم حين ضعفت عصبية العرب واستبد ابن أبى عامر[١٤٠] على الدولة. فكان لهم دول عظيمة استبدت كل واحدة منها بجانب من الأندلس وحظ كبير من الملك على نسبة الدولة التى اقتسموها، ولم يزالوا فى سلطانهم ذاك حتى جاز إليهم البحر المرابطون[٢٠٨ب] أهل العصبية القوية من لمتونة فاستُبْدِلوا بهم وأزالوهم عن مراكزهم ومحوا آثارهم، ولم يقدروا على مدافعتهم لفقدان العصبية لديهم.

---

(٤٤٦) «نزا وثب ، تَنَزَّى تَوَثَّبَ» (القاموس).

(٤٤٧). «طرأ عليهم أتاهم من مكان... فهو طارئ وهم الطُّرَّاء والطُّرَاء» (القاموس).

فبهذه العصبيَّة يكونُ تمهيد الدولة وحمايتُها من أولها. وقد ظن الطرطوشى أن حامية الدول بإطلاق هم الجند أهل العطاء المفروض مع الأهلَّة، ذكر ذلك فى كتابه الذى سماه «سراج الملوك». وكلامه لا يتناول تأسيس الدَوَل العامة فى أولها، وإنما مخصوص بالدول الأخيرة بعد التمهيد واستقرار الملك فى النصاب واستحكام الصبغة لأهله. فالرجل إنما أدرك الدولة عند هَرَمها وخَلَقِ[٤٠٥] جِدَّتِها ورجوعها إلى الاستظهار بالموالى والصنائع، ثم إلى المستخدمين من ورائهم بالأجر على المدافعة. فإنه إنما أدرك دول الطوائف، وذلك عند اختلال دولة بنى أمية، وانقراض عصبيتها من العرب واستبداد كل أمير بقُطْرِه. وكان فى إيالة المستعين بن هود وابنه المظفر أهل سرقسطة، ولم يكن بقى لهم من أمر العصبية شىء لاستيلاء الترف على العرب منذ ثلثمائة من السنين وهلاكهم، ولم ير إلا سلطاناً مستبداً بالملك عن عشائره، قد استحكمت له صبغة الاستبداد منذ عهد الدولة وبقية العصبية؛ فهو لذلك لا ينازع فيه، ويستعين على أمره بالأجراء من المرتزقة. فأطلق الطرطوشى القول فى ذلك، ولم يتفطن لكيفية الأمر منذ أول الدولة وأنه لا يتم إلا لأهل العصبية. فتفطن أنت له وافهم سر الله فيه. «والله يؤتى ملكه من يشاء»[٤٣٨ب].

٢ - فصل فى أنه يحدث لبعض أهل النصاب الملكى دولة تستغنى عن العصبية[٣٨٩ب]

وذلك أنه إذا كان لعصبيَّته غَلَبٌ كبير على الأمم والأجيال وفى نفوس القائمين بأمره من أهل القاصِيَة إذعان لهم وانقياد، فإذا نزع إليهم هذا الخارج وانتبذ عن مقر ملكه ومنبت عزه، اشتملوا عليه وقاموا بأمره وظاهروه على شأنه وعُنُوا بتمهيد دولته، يرجون استقراره فى نصابه، وتناوله الأمر من يد أعْيَاصه[(٤٤٨)]، وجزاء لهم على مظاهرته باصطفائهم لرتب الملك وخُططه[٣٥٦] من وزارة أو قيادة أو ولاية ثغر، ولا يطمعون فى مشاركته فى شىء من

(٤٤٨) العِيص بكسر العين الأصل وجمعه عيصان وأعياص (من القاموس) والمعنى يرجون انتقال الملك إليه من أصوله أى: من آبائه وأجداده.

سلطانه، تسليماً لعصبيته، وانقياداً لما استحكم له ولقومه من صبغة الغلب في العالم، وعقيدة إيمانية استقرت في الإذعان لهم، فلو راموها معه أو دونه لزلزلت الأرض زلزالها.

وهذا كما وقع للأدارسة بالمغرب الأقصى والعُبَيْديين بإفريقية[٤٩ب] ومصر، لما انتبذ الطالبيون من المشرق إلى القاصية، وابتعدوا عن مقر الخلافة، وسَمَوا إلى طلبها من أيدي بني العباس، بعد أن استحكمت الصبغة لبني عبد مناف، لبني أمية أولا ثم لبني هاشم من بعدهم، فخرجوا بقاصية من المغرب ودَعَوا لأنفسهم، وقام بأمرهم البرابرة مرة بعد أخرى، فأوربة ومغيلة للأدارسة وكتامة وصنهاجة [٥٠] وهوَّارة للعُبَيْديين، فشيدوا دولتهم ومهدوا بعصائبهم أمرهم، واقتطعوا من ممالك العباسيين المغرب كله ثم إفْرِيقِيَة[٤٩ب]، ولم يزل ظلُّ الدولة يتقلص وظلُّ العُبَيْديين يمتد إلى أن ملكوا مصر والشام والحجاز، وقاسموهم في الممالك الإسلامية شق الأُبُلُمَة(٤٤٩). وهؤلاء البرابرة القائمون بالدولة مع ذلك كلهم مُسَلِّمون للعُبَيديين أمرهم مذعنون لملكهم. وإنما كانوا يتنافسون في الرتبة عندهم خاصة، تسليما لما حصل من صبغة الملك لبني هاشم ولما استحكم من الغلب لقريش ومضر على سائر الأمم. فلم يزل الملك في أعقابهم إلى أن انقرضت دولة العرب بأسرها. ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه﴾(٤٥٠).

---

(٤٤٩) «الأبلمة مثلثة الهمزة واللام خوص المقل يشق شقين، ويقال: قسمنا المال بيننا شق الأبلمة أي نصفين» (من القاموس).

(٤٥٠) جملة من آية ٤١ من سورة الرعد (سورة ٣١).

٤ ـ فصل فى أن الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق[٣٨٩ب]

وذلك لأن الملك إنما يحصل بالتغلب، والتغلب إنما يكون بالعصبية واتفاق الأهواء على المطالبة. وجمعُ القلوب وتأليفُها إنما يكون بمعونة من الله فى إقامة دينه. قال تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾[٤٥١]. وسره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف؛ وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتحدت وجهتها، فذهب التنافس، وقل الخلاف، وحسن التعاون والتعاضد، واتسع نطاق الكلمة لذلك، فعظمت الدولة، كما نبين لك بعد إن شاء الله سبحانه وتعالى، وبه التوفيق لا رب سواه.

٥ ـ فصل فى أن الدعوة الدينية تزيد الدولة فى أصلها قوة على قوة العصبية التى كانت لها من عددها[٣٨٩ب]

والسبب فى ذلك كما قدمناه[٤٥٢] أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذى فى أهل العصبية وتُفْرِدُ الوجهة إلى الحق. فإذا حصل لهم الاستبصار فى أمرهم لم يقف لهم شىء، لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساوٍ

---

(٤٥١) جملة من آية ٦٣ من سورة الأنفال (سورة ٨)، والآية بتمامها: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ـ ولو ذكر ابن خلدون الآية كلها لكان أوضح فى الاستدلال على ما يقول.

(٤٥٢) يحيل بذلك على ما ذكره فى الفصل السابع والعشرين من الباب الثانى (انظر ص٥١٠).

عندهم، وهم مستميتون عليه؛ وأهل الدولة التى هم طالبوها وإن كانوا أضعافهم فأغراضهم متباينة بالباطل، وتخاذلهم لتَقِيَّةِ الموت حاصل؛ فلا يقاومونهم وإن كانوا أكثر منهم، بل يغلبون عليهم ويعاجلهمَ الفناء بما فيهم من الترف والذل كما قدمناه[٤٥٣].

وهذا كما وقع للعرب صدر الإسلام فى الفتوحات. فكانت جيوش المسلمين بالقادسية واليرموك بضعًا وثلاثين ألفًا فى كل معسكر؛ وجموع فارس مائة وعشرين ألفًا بالقادسية، وجموع هرقل على ما قاله الواقدى أربعمائة ألف؛ فلم يقف للعرب أحد من الجانبين، وهزموهم وغلبوهم على ما بأيديهم.

واعتبر ذلك أيضًا فى دولة لمتونة ودولة الموحدين. فقد كان بالمغرب من القبائل كثير ممن يقاومهم فى العدد والعصبية أو يَشِفُّ[٤٥٤] عليهم، إلا أن الاجتماع الدينى ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار والاستماتة كما قلناه، فلم يقف لهم شىء.

واعتبر ذلك إذا حالت صبغةُ الدين وفسدت، كيف ينتقضُ الأمر ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة الدين؛ فيغلبُ الدولةَ من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها ولو كانوا أكثر عصبية منها وأشد بداوة. واعتبر هذا فى الموحدين مع زناتة؛ لما كانت زناتة أبدى[٤٥٥] من المصامدة وأشد توحشًا، وكان للمصامدة الدعوة الدينية باتباع المهدى، فلبسوا صبغتها وتضاعفت قوة عصبيتهم بها، فغلبوا على زناتة أولا واستتبعوهم، وإن كانوا من حيث العصبية والبداوة أشد منهم؛ فلما خلوا عن تلك الصبغة الدينية انتقضت عليهم زناتة من كل جانب وغلبوهم على الأمر وانتزعوه منهم. والله غالب على أمره.

---

(٤٥٣) يحيل بذلك على ما ذكره فى الفصلين الثامن عشر والرابع والعشرين من الباب الثانى: وعنوان الأول: «فصل فى أن من عوائق الملك حصول الترف...» (انظر ص ٤٩٦)؛ وعنوان الآخر: «فصل فى أن الأمة إذا غلبت وصارت فى مَلَكَة غيرها أسرع إليها الفناء» (انظر صفحات ٥٠٦ ـ ٥٠٧).

(٤٥٤) «شفَّ يشِفُّ شفاً زاد» (القاموس) ويستعمل كذلك بمعنى نقص وتحرك ونَحَل.

(٤٥٥) أى أشد بداوة، أفعل تفضيل من فعل بدا يبدو بمعنى خرج إلى البادية وأقام بها (انظر تعليق ٣٥٣).

٦ - فصل فى أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم ٣٨٩ب

وهذا لما قدمناه من أن كل أمر تحمل عليه الكافة فلابد له من العصبية. وفى الحديث الصحيح كما مر(٤٥٦). «ما بعث الله نبيا إلا فى منعة من قومه٢٨١». وإذا كان هذا فى الأنبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد، فما ظنك بغيرهم ألا تخرق له العادة فى الغلب بغير عصبية.

وقد وقع هذا لابن قَسِيٍّ شيخ الصوفية وصاحب كتاب «خلع النعلين» فى التصوف؛ ثار بالأندلس داعياً إلى الحق وسمى أصحابه بالمرابطين قبيل دعوة المهدى فاستتب له الأمر قليلا لشُغْل لمتونة بما دهمهم من أمر الموحدين، ولم تكن هناك عصائب ولا قبائل يدفعونه عن شأنه، فلم يلبث حين استولى الموحدون على المغرب أن أذعن لهم ودخل فى دعوتهم، وتابعهم من معقله بحصن أركش(٤٥٧)، وأمكنهم من ثغره، وكان أول داعية لهم بالأندلس، وكانت ثورته تسمى ثورة المرابطين.

ومن هذا الباب أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء. فإن كثيراً من المنتحلين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون إلى القيام على أهل الجوْرِ من الأمراء داعين إلى تغيير المنكر والنهى عنه، والأمر بالمعروف، رجاءً فى الثواب عليه من الله؛ فيكثر أتباعهم والمتشبثون بهم من الغوغاء(٤٥٨) والدهماء، ويعرضون أنفسهم فى ذلك للمهالك، وأكثرهم يهلِكون فى تلك السبيل مأزورين غير مأجورين، لأن الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم، وإنما أمر به حيث تكون القدرة عليه؛ قال ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه». وأحوال الملوك والدول راسخة قوية لا يزحزحها ويهدم بناءها إلا المطالبة القوية التى من ورائها عصبية القبائل والعشائر كما قدمناه.

(٤٥٦) انظر صفحة ٤٠٧ وتعليق ٢٨١.

(٤٥٧) لعله حصن «أركون» وهو حصن منيع مشهور بالأندلس.

(٤٥٨) أصل الغوغاء الجراد الصغير المنتشر أو نوع من البعوض، ويطلق على الدهماء من الناس.

وهكذا كان حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى دعوتهم إلى الله بالعشائر والعصائب، وهم المؤيدون من الله بالكون كله لو شاء؛ لكنه إنما أجرى الأمور على مستقر العادة؛ والله حكيم عليم.

فإذا ذهب أحد من الناس هذا المذهب وكان فيه محقاً قصر به الانفراد عن العصبية، فطاح فى هوة الهلاك. وأما إن كان من المُلَبِّسين(٤٥٩) بذلك فى طلب الرياسة، فأجدر أن تعوقه العوائق وتنقطع به المهالك؛ لأنه أمر الله لا يتم إلا برضاه وإعانته والإخلاص له والنصيحة للمسلمين؛ ولا يشك فى ذلك مسلم، ولا يرتاب فيه ذو بصيرة.

وأول ابتداء هذه النزعة فى الملة ببغداد حين وقعت فتنة طاهر وقُتِلَ الأمين وأبطأ المأمون بخراسان عن مقدم العراق، ثم عهد لعلى بن موسى الرِضا من آل الحسين، فكشف بنو العباس عن وجه النكير عليه وتداعَوْا للقيام وخلع طاعة المأمون والاستبدال منه، وبويع إبراهيم بن المهدى، فوقع الهرج(٤٥٩ب) ببغداد وانطلقت أيدى الزَّعَرة(٤٦٠) بها من الشُّطَّار(٤٦١) والحربية على أهل العافية والصون، وقطعوا السبيل، وامتلأت أيديهم من نهاب الناس وباعوها علانية فى الأسواق، واستعدى أهلُها الحكامَ فلم يُعْدُوهم(٤٦٢). فتوافر أهل الدين والصلاح على منع الفساق وكف عاديتهم. وقام ببغداد رجل يعرف بخالد الدريوس، ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ فأجابه خلق وقاتل أهل الزَّعارة٤٦٠ فغلبهم؛ وأطلق فيهم بالضرب والتنكيل. ثم قام من بعده رجل آخر من سواد أهل بغداد يعرف بسهل بن سلامة الأنصارى، ويكنى أبا حاتم، وعلق مصحفاً فى عنقه ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والعمل بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فاتبعه الناس كافة من بين شريف ووضيع من بنى هاشم فمن

---

(٤٥٩) لَبَس عليه الأمر ولَبَّسَهُ بالتشديد خلط ودلس، والتلبيس التخليط والتدايس؛ فالمدلس مُلَبِّس ـ هذا وفى جميع النسخ «المتلبسين» وهو تحريف كما لا يخفى.

(٤٥٩ب) «هَرَج الناس يهرجون هَرْجا وقعوا فى فتنة واختلاط وقتل» (القاموس).

(٤٦٠) جمع زَعِر وهو شرس الخلق، ويقال فيه زعارة أو شراسة (من المصباح).

(٤٦١) جمع شاطر وهو من أعيى أهلَه خبثاً، وقد شطر ككرم ونصر شطارة فيهما (القاموس). وكانت كلمة الشُّطَّار تطلق على طوائف اللصوص والمجرمين ومن إليهم.

(٤٦٢) «يقال استعديت الأمير على الظالم أى طلبت منه النصرة؛ فأعدانى عليه، أى أعاننى ونصرنى؛ فالاستعداء طلب التقوية والنصرة» (المصباح).

دونهم، ونزل قصر طاهر، واتخذ الديوان وطاف ببغداد، ومنع كل من أخاف المارة، ومنع الخِفارة(٤٦٣) لأولئك الشُّطَّار٤٦١. وقال له خالد الدريوس: أنا لا أعيب على السلطان؛ فقال له سهل: لكنى أقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائناً من كان. وذلك سنة إحدى ومائتين: وجهز له إبراهيم بن المهدى العساكر فغلبه وأسره وانحلَّ أمرُه سريعاً وذهب ونجا بنفسه.

ثم اقتدى بهذا العمل بعدُ كثير من الموسوسين يأخذون أنفسهم بإقامة الحق ولا يعرفون ما يحتاجون إليه فى إقامته من العصبية، ولا يشعرون بمَغَبَّة أمرهم ومآلِ أحوالهم. والذى يُحتاجُ إليه فى أمر هؤلاء: إما المداواة إن كانوا مَن أهل الجنون؛ وإما التنكيل بالقتل أو الضرب إن أحدثوا هرْجًا٤٥٩ب؛ وإما إذاعة السخرية منهم وعدهم من جملة الصَّفَاعين(٤٦٤).

وقد ينتسب بعضهم إلى الفاطمى المنتظر إما بأنه هو أو بأنه داع له، وليس مع ذلك على علم من أمر الفاطمى، ولا ما هو. وأكثر المنتحلين لمثل هذا تجدهم موسوسين أو مجانين أو مُلَبِّسين٤٥٩ يطلبون بمثل هذه الدعوة رياسة امتلأت بها جوانحهم وعجزوا عن التوصل إليها بشىء من أسبابها العادية، فيحسبون أن هذا من الأسباب البالغة بهم إلى ما يؤملونه من ذلك، ولا يحسبون ما ينالهم فيه من الهلكة، فيسرع إليهم القتل بما يحدثونه من الفتنة، وتسوء عاقبة مكرهم.

وقد كان لأول هذه المائة خرج بالسوس رجل من المتصوفة يدعى التويذرى عمد إلى مسجد ماسة بساحل البحر هنالك، وزعم أنه الفاطمى المنتظر، تلبيساً٤٥٩ على العامة هنالك، بما ملأ قلوبهم فى الحدْثان٢٤١ بانتظاره هنالك، وأن من ذلك المسجد يكون أصل دعوته. فتهافتت عليه طوائف من عامة البربر تهافُت الفراش. ثم خشى رؤساؤهم اتساع نطاق الفتنة؛ فدس إليه كبير المصامدة يومئذ عمر السكسيوى من قتله فى فراشه.

وكذلك خرج فى غمارة أيضا لأول هذه المائة رجل يعرف بالعباس، وادعى

---

(٤٦٣) خَفَرتُ الرجل حميتُه وأجرته من طالبه، فأنا خفير والاسم الخِفَارة بضم الخاء وكسرها (المصباح)؛ والمعنى منع الحماية عنهم.

(٤٦٤) الصَّفَاعين بالفاء كشياطين جمع صَفْعَان كشيطان، وهو من يصفعه الناس ويضربونه على قفاه بأكفِّهم سخْرِيّاً به.

مثل هذه الدعوة واتبع نعيقه الأرذلون من سفهاء تلك القبائل وأغمارهم[٤٦٥]، وزحف إلى بادس من أمصارهم ودخلها عنْوَةً، ثم قتل لأربعين يوما من ظهور دعوته، ومضى فى الهالكين الأولين.

وأمثال ذلك كثير، والغلط فيه من الغفلة عن اعتبار العصبية فى مثلها وأما إن كان التلبيس فأحرى ألا يتم له أمر، وأن يبوء بإثمه؛ وذلك جزاء الظالمين. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب غيره ولا معبود سواه.

٧ـ فصل فى أن كل دولة لها حصة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها[٣٨٩ب]

والسبب فى ذلك أن عصابة الدولة وقومها القائمين بها الممهدين لها لابد من توزيعهم حصصاً على الممالك والثغور التى تصير إليهم، ويستولون عليها لحمايتها من العدو، وإمضاء أحكام الدولة فيها من جباية وردع وغير ذلك، فإذا توزعت العصائب كلها على الثغور والممالك فلابد من نفاد عددها، وقد بلغت الممالك حينئذ إلى حد يكون ثغراً[٤٦٦] للدولة؛ وتَخْمًا[٤٦٧] لوطنها؛ ونطاقًا لمركز ملكها. فإن تكلفت الدولة بعد ذلك زيادة على ما بيدها بقى دون حامية وكان موضعاً لانتهاز الفرصة من العدو والمجاور؛ ويعود وبال ذلك على الدولة، بما يكون فيه من التجاسر وخرق سياج الهيبة.

وما[٤٦٧ب] كانت العصابة موفورة ولم ينفد عددها فى توزيع الحصص على الثغور والنواحى، بقى فى الدولة قوة على تناول ما وراء الغاية، حتى ينفسح نطاقها إلى غايته. والعلة الطبيعية فى ذلك هى قوة العصبية من سائر القوى الطبيعية، وكل قوة يصدر عنها فعل من الأفعال فشأنها ذلك فى فعلها. والدولة

(٤٦٥) «رجل غُمْر» لم يجرب الأمور «وقوم أغمار» (المصباح).

(٤٦٦) الثَّغْر من البلاد الموضع الذى يخاف منه هجوم العدو، والجمع ثغور، مثل فلس وفلوس (من المصباح).

(٤٦٧) «التَّخْم حد الأرض والجمع تخوم مثل فَلْس وفلوس» (المصباح).

(٤٦٧ب) «ما» مصدرية ظرفية بمعنى مدة دوام أو مدة بقاء.

فى مركزها أشد مما يكون فى الطرف والنطاق. وإذا انتهت إلى النطاق الذى هو الغاية عجزت وأقصرت عما وراءه؛ شأن الأشعة والأنوار إذا انبعثت من المراكز؛ والدوائر المنفسحة على سطح الماء من النَّقْر[٤٦٨] عليه. ثم إذا أدركها الهَرَم والضعف فإنما تأخذ فى التناقص من جهة الأطراف ولايزال المركز محفوظاً إلى أن يتأذن الله بانقراض الأمر جملةً، فحينئذ يكون انقراض المركز. وإذا غُلِب على الدولة مركزُها فلا ينفعها بقاء الأطراف والنطاق بل تضمحل لوقتها؛ فإن المركز كالقلب الذى تنبعث منه الروح. فإذا غُلِب القلب ومُلك انهزم جميع الأطراف.

وانظر هذا فى الدولة الفارسية: كان مركزها المدائن؛ فلما غلب المسلمون على المدائن انقرض أمر فارس أجمع، ولم ينفع يزدجر ما بقى بيده من أطراف ممالكه.

وبالعكس من ذلك الدولة الرومية بالشام، لما كان مركزها القسطنطينية وغلبهم المسلمون بالشام تحيزوا إلى مركزهم بالقسطنطينية ولم يضرهم انتزاع الشام من أيديهم، فلم يزل ملكهم متصلا بها إلى أن تأذن الله بانقراضه.

وانظر أيضًا شأن العرب أول الإسلام لما كانت عصائبهم موفورة، كيف غلبوا على ما جاورهم من الشام والعراق ومصر لأسرع وقت، ثم تجاوزوا ذلك إلى ما وراءه من السند والحبشة وإفْريقيَّة[٤٤٩ب] والمغرب؛ ثم إلى الأندلس. فلما تفرقوا حصصًا على الممالك والثغور[٤٦٦]، ونزلوها حامية، ونفد عددهم فى تلك التوزيعات، أقصروا عن الفتوحات بعد، وانتهى أمر الإسلام، ولم يتجاوز تلك الحدود؛ ومنها تراجعت الدولة، حتى تأذن الله بانقراضها.

وكذا كان حال الدول من بعد ذلك؛ كل دولة على نسبة القائمين بها فى القلة والكثرة؛ وعند نفاد عددهم بالتوزيع ينقطع لهم الفتح والاستيلاء سنة الله فى خلقه.

---

(٤٦٨) أى على أثر النقر عليه بحصاة مثلا، فإن الدوائر تنفسح إلى أن يصل قطرها إلى غايته.

٨ـ فصل فى أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها على نسبة القائمين بها فى القلة والكثرة[٣٨٩ب]

والسبب فى ذلك أن الملك إنما يكون بالعصبية، وأهل العصبية هم الحامية الذين ينزلون بممالك الدولة وأقطارها، وينقسمون عليها؛ فما كان من الدولة العامة قبيلُها وأهلُ عصابتها أكثر، كانت أقوى وأكثر ممالك وأوطاناً، وكان ملكها أوسع لذلك.

واعتبر ذلك بالدولة الإسلامية لما ألف الله كلمة العرب على الإسلام وكان عدد المسلمين فى غزوة تبوك، آخر غزوات النبى ﷺ، مائة ألف وعشرة آلاف من مضر وقحطان، ما بين فارس وراجل، إلى من أسلم منهم بعد ذلك إلى الوفاة. فلما توجهوا لطلب ما فى أيدى الأمم من الملك لم يكن دونه حِمًى ولا وَزَر[٤٦٩]، فاستبيح حمى فارس والروم أهل الدولتين العظيمتين فى العالم لعهدهم، والترك بالمشرق، والإفرنجة والبربر بالمغرب، والقوط بالأندلس، وخطوا من الحجاز إلى السوس الأقصى، ومن اليمن إلى الترك بأقصى الشمال، واستولوا على الأقاليم السبعة.

ثم انظر بعد ذلك دولة صِنْهاجة[٥٠] والموحدين مع العُبَيْديين[٦١٧] قبلهم؛ لما كان قبيل كتامة القائمون بدولة العبيديين أكثر من صنهاجة ومن المصامدة كانت دولتهم أعظم فملكوا إفريقِيَّة[٤٩ب] والمغرب والشام ومصر والحجاز. ثم انظر بعد ذلك دولة زناتة لما كان عددهم أقل من المصامدة قصر ملكهم عن ملك الموحدين لقصور عددهم عن عدد المصامدة منذ أول أمرهم. ثم اعتبر بعد ذلك حال الدولتين لهذا العهد لزناتة بنى مَرين[٧٨٠] وبنى عبد الواد[٤٧٠]؛ لما كان عدد بنى مرين لأول ملكهم أكثر من بنى عبد الواد كانت دولتهم أقوى منها وأوسع نطاقًا

---

(٤٦٩) الوَزَر محركة: المعقل والملجأ والمعتصم (من القاموس).

(٤٧٠) انظر صفحتى ٤٨ ، ٤٩ من تمهيدنا للمقدمة.

وكان لهم عليهم الغلب مرة بعد أخرى. يقال إن عدد بنى مرين لأول ملكهم كان ثلاثة آلاف، وإن بنى عبد الواد كانوا ألفاً، إلا أن الدولة وكثرة التابع كثّرت من أعدادهم.

وعلى هذه النسبة فى أعداد المتغلبين لأول الملك يكون اتساع الدولة وقوتها.

وأما طول أمدها أيضاً فعلى تلك النسبة؛ لأن عمر الحادث من قوة مزاجه؛ ومزاج الدول إنما هو بالعصبية؛ فإذا كانت العصبية قوية كان المزاج تابعًا لها وكان أمد العمر طويلا؛ والعصبية إنما هى بكثرة العدد ووفوره كما قلناه. والسبب الصحيح فى ذلك أن النقص إنما يبدو فى الدولة من الأطراف؛ فإذا كانت ممالكها كثيرة كانت أطرافها بعيدة عن مركزها وكثيرة؛ وكل نقص يقع فلابد له من زمن؛ فتكثر أزمان النقص لكثرة الممالك واختصاص كل واحد منها بنقص وزمان فيكون أمدها طويلا.

وانظر ذلك فى دولة العرب الإسلامية كيف كان أمدها أطول الدول، لا بنو العباس أهل المركز ولا بنو أمية المستبدون بالأندلس(٤٧١). ولم ينقص أمر جميعهم إلا بعد الأربعمائة من الهجرة ودولة العُبَيْديين[٦١٧] كان أمدها قريباً من مائتين وثمانين سنة. ودولة صنهاجة دونهم من لدن تقليد معز الدولة أمر إفريقية[٤٩ب] لبلكين بن زيرى فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة، إلى حين استيلاء الموحدين على القلعة وبجاية[٢١٥ج] سنة سبع وخمسين وخمسمائة. ودولة الموحدين لهذا العهد تناهز مائتين وسبعين سنة.

وهكذا نسب الدول فى أعمارها على نسبة القائمين بها: سنة الله التى قد خلت فى عباده.

---

(٤٧١) هكذا فى جميع النسخ، وهذا التركيب غير صحيح من الناحية العربية، وصوابه: لا فرق فى ذلك بين بنى العباس أهل المركز وبنى أمية المستبدين بالأندلس.

٩ـ فصل فى أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها دولة [٣٨٩ب]

والسبب فى ذلك اختلاف الآراء والأهواء، وأن وراء كل رأى منها وهوًى عصبية تمانع دونها، فيكثر الانتقاض على الدولة والخروج عليها فى كل وقت، وإن كانت ذات عصبية؛ لأن كل عصبية ممن تحت يدها تظن فى نفسها منعة[٣٨١] وقوة.

وانظر ما وقع من ذلك بإفريقيَّة[٤٩ب] والغرب منذ أول الإسلام ولهذا العهد. فإن ساكن هذه الأوطان من البربر أهلُ قبائل وعصبيات. فلم يغن فيهم الغلب الأول الذى كان لابن أبى سَرْح عليهم وعلى الإفرنجة شيئاً. وعاودوا بعد ذلك الثورة والردة مرة بعد أخرى، وعظم الإثخان(٤٧٢) من المسلمين فيهم. ولما استقر الدين عندهم عادوا إلى الثورة والخروج والأخذ بدين الخوارج مرات عديدة. قال ابن أبى زيد: ارتدت البرابرة بالمغرب اثنتى عشرة مرة. ولم تستقر كلمة الإسلام فيهم إلا لعهد ولاية موسى بن نصير فما بعده. وهذا معنى ما ينقل عن عمر أن إفريقية مُفَرِّقَةٌ لقلوب أهلها. إشارة إلى ما فيها من كثرة العصائب والقبائل الحاملة لهم على عدم الإذعان والانقياد. ولم يكن العراق لذلك العهد بتلك الصفة ولا الشام، إنما كانت حاميتها من فارس والروم؛ والكافة دهماء أهل مدن وأمصار. فلما غلبهم المسلمون على الأمر وانتزعوه من أيديهم لم يبق فيها ممانع ولا مُشَاقٌّ(٤٧٣). والبربر قبائلهم بالمغرب أكثر من أن تحصى، وكلهم بادية وأهل عصائب وعشائر. وكلما هلكت قبيلة عادت الأخرى مكانها وإلى دينها من الخلاف والردة، فطال أمر العرب فى تمهيد الدولة بوطن إفريقية والمغرب. وكذلك كان الأمر بالشام لعهد بنى إسرائيل: كان فيه من قبائل فلسطين وكنعان

---

(٤٧٢) أثخن فى العدو وفى الأرض إثخانا سار إلى العدو وأوسعهم قتلا (المصباح). قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ (آية ٦٧ من سورة الأنفال، وهى سورة ٨).

(٤٧٣) شاقه مشاقة وشقاقاً خالفه، فهو مشاق (المصباح). قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (آية ٤ من سورة الحشر، وهى سورة ٥٩).

وبنى عيصو وبنى مدين وبنى لوط والروم واليونان والعمالقة وأكريكش والنبط من جانب الجزيرة والموصل مالا يحصى كثرة وتنوعاً فى العصبية. فصعب على بنى إسرائيل تمهيد دولتهم ورسوخ أمرهم، واضطرب عليهم الملك مرة بعد أخرى. وسرى ذلك الخلاف إليهم فاختلفوا على سلطانهم وخرجوا عليه، ولم يكن لهم ملك موطد سائر أيامهم إلى أن غلبهم الفرس ثم يونان ثم الروم آخر أمرهم عند الجلاء. والله غالب على أمره.

وبعكس هذا أيضًا الأوطان الخالية من العصبيات يسهل تمهيد الدولة فيها، ويكون سلطانها وازعًا لقلة الهرج[٤٥٩ب] والانتقاض، ولا تحتاج الدولة فيها إلى كثير من العصبية، كما هو الشأن فى مصر والشام لهذا العهد، إذ هى خلو من القبائل والعصبيات كأن لم يكن الشام معدناً لهم كما قلناه. فملك مصر فى غاية الدعة والرسوخ لقلة الخوارج وأهل العصائب، إنما هو سلطان ورعية، ودولتها قائمة بملوك الترك وعصائبهم يغلبون على الأمر واحدًا بعد واحد، وينتقل الأمر فيهم من منبت إلى منبت، والخلافة مسماة للعباسى من أعقاب الخلفاء ببغداد. وكذا شأن الأندلس لهذا العهد. فإن عصبية ابن الأحمر سلطانهَا لم تكن لأول دولتهم بقوية ولا كانت كرَّات[٤٧٤]، إنما تكون أهل بيت من بيوت العرب أهل الدولة الأموية بقوا من ذلك القلّة. وذلك أن أهل الأندلس لما انقرضت الدولة العربية منه وملكهم البربر من لمتونة والموحدين سئموا مَلَكَتَهم[٧٠]، وثقلت وطأتهم عليهم، فأشربت القلوب بغضاءهم، وأمكن الموحدون والسادة فى آخر الدولة كثيراً من الحصون للطاغية[٤٧٥] فى سبيل الاستظهار به على شأنهم، من تملك الحضرة مراكش. فاجتمع من كان بقى بها من أهل العصبية القديمة معادن من بيوت العرب، تجافى بهم المنبت عن الحاضرة والأمصار بعض الشيء، ورسخوا فى العصبية مثل ابن هود وابن الأحمر وابن مردنيش وأمثالهم. فقام ابن هود بالأمر، ودعا بدعوة الخلافة العباسية

---

(٤٧٤) الكَرَّة المرة والحملة والعودة والجمع كرَّات (القاموس والمصباح)؛ والمعنى أن دولتهم لم تكن متتابعة، بل ابتدأت بالملك طفرة.

(٤٧٥) كان العرب فى الأندلس يطلقون لقب الطاغية على ملوك الفرنجة فى البرتغال وقشتالة الذين اشتبكوا معهم فى حروب؛ وكان كل ملك من هؤلاء الملوك يسمى «ألفونس Alphonse». ومعنى العبارة، على ما يظهر، أن الموحدين لشعورهم بكراهية الشعب لهم لجئوا إلى ملوك الفرنجة يستعينون بهم فى تملك مراكش فى نظير تنازلهم لهم عن كثير من الحصون بالأندلس.

بالمشرق. وحمل الناس على الخروج على الموحدين فنبذوا إليهم العهد وأخرجوهم. واستقل ابن هود بالأمر بالأندلس. ثم سما ابن الأحمر للأمر، وخالف ابن هود فى دعوته، فدعا هؤلاء لابن أبى حفص صاحب إفريقية من الموحدين وقام بالأمر، وتناوله بعصابة قليلة من قرابته كانوا يسمون الرؤساء ولم يحتج لأكثر منهم لقلة العصائب بالأندلس، وأنها سلطان ورعية. ثم استظهر بعد ذلك على الطاغية[٤٧٥] بمن يجيز إليه البحر من أعياص[٤٤٨] زناتة، فصاروا معه عصبة على المثاغرة والرباط. ثم سما لصاحب المغرب من ملوك زناتة أمل فى الاستيلاء على الأندلس، فصار أولئك الأعياصُ عصابةُ ابن الأحمر على الامتناع منه إلى أن تأثل[(٤٧٥ب)] أمرُه[(٤٧٦)] ورسخ، وألفته النفوس وعجز الناس عن مطالبته، وورثه أعقابه لهذا العهد. فلا تظن أنه بغير عصابة فليس كذلك؛ وقد كان مبدؤه بعصابة إلا أنها قليلة وعلى قدر الحاجة: فإن قطر الأندلس لقلة العصائب والقبائل فيه يغنى عن كثرة العصبية فى التغلب عليهم. والله غنى عن العالمين.

١٠ ـ فصل فى أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد[٣٨٩ب]

وذلك أن الملك كما قدمناه إنما هو بالعصبية، والعصبية متألفة من عصبات كثيرةٍ تكون واحدة منها أقوى من الأخرى كلها فتغلبها وتستولى عليها، حتى تُصيرِّها جميعاً فى ضمنها، وبذلك يكون الاجتماع والغلب على الناس والدول. وسره أن العصبية العامة للقبيل هيِ مثل المزاج للمتكون؛ والمزاج إنما يكون عن العنصر؛ وقد تبين فى موضعه أن العناصر إذا اجتمعت متكافئة فلا يقع منها مزاج أصلا، بل لابد أن تكون واحدة منها هى الغالبة على الكل حتى تجمعها وتؤلفها وتصيرها عصبية، واحدة شاملة لجميع العصائب، وهى موجودة فى ضمنها. وتلك العصبية الكبرى إنما تكون لقوم أهل بيت ورياسة فيهم؛ ولابد أن

(٤٧٥ب) «أَثَل يَأْثِل أُثُولاً وتأثَّل، تأصَّل» (القاموس).
(٤٧٦) أمر ابن الأحمر . (انظر قصة ابن خلدون مع ثالث ملوك بنى الأحمر فى تمهيدنا للمقدمة صفحات ٥٠ ـ ٥٨ ـ ٧٠ ـ ٧١).

يكون واحد منهم رئيساً لهم غالباً عليهم؛ فيتعين رئيساً للعصبيات كلها لغلب منبته لجميعها. وإذا تعين له ذلك فمن الطبيعة الحيوانية خُلُقُ الكِبْرِ والأنفة؛ فيأنف حينئذ من المساهمة والمشاركة فى استتباعهم والتحكم فيهم؛ ويجىء خلق التألُّهِ الذى فى طباع البشر مع ما تقتضيه السياسة من انفراد الحاكم، لفساد الكل باختلاف الحكام: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[477]. فتُجْدَعُ حينئذ أنوف العصبيات وتُفْلَجُ شكائمهم عن أن يسموا إلى مشاركته فى التحكم وتُقرَعُ عصبيتهم عن ذلك، وينفرد به ما استطاع، حتى لا يترك لأحد منهم فى الأمر لا ناقة ولا جملا، فينفرد بذلك المجد بكليته؛ ويدفعهم عن مساهمته؛ وقد يتم ذلك للأول من ملوك الدولة، وقد لا يتم إلا للثانى والثالث على قدر ممانعة العصبيات وقوتها. إلا أنه أمر لابد منه فى الدول: سنة الله التى قد خلت فى عباده؛ والله تعالى أعلم.

١١ - فصل فى أن من طبيعة الملك الترف

وذلك أن الأمة إذا تغلبت وملكت ما بأيدى أهل الملك قبلها كثر رياشها ونعمتها فتكثر عوائدهم؛ ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته إلى نوافله ورقته وزينته. ويذهبون إلى اتباع من قبلهم فى عوائدهم وأحوالهم. وتصير لتلك النوافل عوائد ضرورية فى تحصيلها، وينزعون مع ذلك إلى رقة الأحوال فى المطاعم والملابس والفرش والآنية. ويتفاخرون فى ذلك ويفاخرون فيه غيرهم من الأمم، فى أكل الطيب ولبس الأنيق وركوب الفاره[478]، ويناغى[246] خلفهم فى ذلك سلفهم إلى آخر الدولة. وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك، وترفهم فيه، إلى أن يبلغوا من ذلك الغاية التى للدولة أن تبلغها بحسب قوتها وعوائد مَنْ قبلها: سنة الله فى خلقه. والله تعالى أعلم.

(٤٧٧) آية ٢٢ من سورة الأنبياء (سورة ٢١).

(٤٧٨) الفاره فى البرذون والحمار والفرس: الجيد السير.

١٢ ـ فصل فى أن من طبيعة الملك الدعة والسكون

وذلك أن الأمة لا يحصل لها الملك إلا بالمطالبة. والمطالبة غايتها الغلب والملك، وإذا حصلت الغاية انقضى السعى إليها. قال الشاعر:

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر (٤٧٨ب)

فإذا حصل الملك أقصروا عن المتاعب التى كانوا يتكلفونها فى طلبه، وآثروا الراحة والسكون والدعة، ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المبانى والمساكن والملابس، فيبنون القصور، ويجرون المياه. ويغرسون الرياض، ويستمتعون بأحوال الدنيا، ويؤثرون الراحة على المتاعب، ويتأنقون فى أحوال الملابس والمطاعم والآنية والفُرُش ما استطاعوا، ويألفون ذلك ويُوَرِّثونه من بعدهم منْ أجيالهم. ولايزال ذلك يتزايد فيهم إلى أن يتأذن الله بأمره، وهو خير الحاكمين. والله تعالى أعلم.

(٤٧٨ب) من قصيدة لأبى صخر، مطلعها:

لليلى بذات الجيش دار عرفتها وأخرى بذات البين آياتها سطر

(انظر الجزء الأول من كتاب الأمالى، صفحات ١٤٨ ـ ١٥٠).

١٣ـ فصل فى أنه إذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة أقبلت الدولة على الهَرَم[٢٨٩ب]

وبيانه من وجوه:

الأول أنها تقتضى الانفراد بالمجد كما قلناه[(٤٧٩)]. وما[(٤٧٩ب)] كان المجد مشتركا بين العصابة، وكان سعيهم له واحدا، كانت هممهم فى التغلب على الغير والذَّبِّ عن الحَوْزَةِ أسوة فى طموحها وقوة شكائمها، ومرماهم إلى العز جميعاً، وهم يستطيبون الموت فى بناء مجدهم ويؤثرون الهَلَكَة[١٢٩ب] على فساده. وإذا انفرد الواحد منهم بالمجد قرع عصبيتهم، وكبح من أعنَّتهم واستأثر بالأموال دونهم، فتكاسلوا عن الغزو، وفشل ريحهم[(٤٧٩جـ)]، ورئموا[١٤٥أ] المذلة والاستعباد. ثم ربِىَ الجيل الثانى منهم على ذلك، يحسبون ما ينالهم من العطاء أجرًا من السلطان لهم على الحماية والمعونة، لا يجرى فى عقولهم سواه. وقل أن يستأجر أحد نفسه على الموت. فيصير ذلك وهنًا فى الدولة، وخَضَدًا من الشوكة، وتقبل به على مناحى الضعف والهرم لفساد العصبية بذهاب البأس من أهلها.

والوجه الثانى أن طبيعة الملك تقتضى الترف كما قدمناه، فتكثر عوائدهم وتزيد نفقاتهم على أعْطِياتهم[(٤٨٠)]، ولا يفى دخلهم بخرجهم؛ فالفقير منهم يَهْلِكُ، والمترف يستغرقُ عَطاءَه بتَرفِه، ثم يزداد ذلك فى أجيالهم المتأخرة إلى أن يقصُرَ العطاءُ كله عن الترف وعوائده، وتمسهم الحاجة وتطالبهم ملوكهم بحصر

---

(٤٧٩) يحيل بذلك على ما قاله فى الفصل العاشر من هذا الباب وعنوانه: «فصل فى أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد» (انظر صفحتى ٥٣٠ ، ٥٣١).

(٤٧٩ب) «ما» هنا مصدرية ظرفية (انظر تعليق ٤٦٧ب). هذا، وفى جميع النسخ: «ومهما كان المجد»، وهو تحريف، كما لا يخفى.

(٤٧٩جـ) من معانى الريح القوة والنصر والدولة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (آية ٤٦ من سورة الأنفال وهى سورة ٨). وهذا المعنى هو المقصود فى عبارة ابن خلدون.

(٤٨٠) جمع العطاء أَعْطِية وجمع الجمع أعطيات.

نفقاتهم فى الغزو والحرب، فلا يجدون وليجة(٤٨١) عنها، فيوقعون بهم العقوبات، وينتزعون ما فى أيدى الكثير منهم يستأثرون به عليهم، أو يؤثرون به أبناءهم وصنائع دولتهم، فيضعفونهم لذلك عن إقامة أحوالهم، ويضعف صاحب الدولة بضعفهم. وأيضاً إذا كثر الترف فى الدولة وصار عطاؤهم مقصراً عن حاجاتهم ونفقاتهم، احتاج صاحب الدولة الذى هو السلطان إلى الزيادة فى أعْطِياتهم^{٤٨٠} حتى يسد خللهم(٤٨٢)، ويُزيحَ عللهم. والجباية مقدارها معلوم، ولا تزيد ولا تنقص، وإن زادت بما يستحدث من المكوس فيصير مقدارها بعد الزيادة محدوداً. فإذا وزعت الجباية على الأعْطِيات^{٤٨٠} وقد حدثت فيها الزيادة لكل واحد بما حدث من ترفهم وكثرة نفقاتهم، نقص عدد الحامية حينئذ عما كان قبل زيادة الأعْطِيات. ثم يعظم الترف وتكثر مقادير الأعطيات لذلك، فينقص عدد الحامية، وثالثًا ورابعًا إلى أن يعود العسكر إلى أقل الأعداد؛ فتضعف الحماية لذلك، وتسقط قوة الدولة ويتجاسر عليها من يجاورها من الدول أو من هو تحت يديها من القبائل والعصائب، ويأذن الله فيها بالفناء الذى كتبه على خليقته. وأيضاً فالترف مفسد للخُلق بما يحصل فى النفس من ألوان الشر والسفسفة وعوائدها كما يأتى فى فصل الحضارة(٤٨٣)، فتذهب منهم خلال الخير التى كانت علامة على الملك ودليلاً عليه، ويتصفون بما يناقضها من خلال الشر، فتكون علامة على الإدبار، والانقراض بما جعل الله من ذلك فى خليقته، وتأخذ الدولة مبادىء العطب، وتتضعضع أحوالها وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم إلى أن يقضى عليها.

---

(٤٨١) الوليجة البطانة والخاصة ومن يتخذه الإنسان معتمداً عليه من غير أهله (القاموس والمصباح). وقد جرت عادة ابن خلدون أن يستعملها بمعنى المنتدح، وهو استعمال غير سليم، وليس ثمة علاقة واضحة بين معناها الأصلى وهذا المعنى.

(٤٨٢) الخلل الوهن فى الأمر والرِّقَّة فى الناس (القاموس). ولعل هذه الكلمة محرفة عن «خلَّتهم»، والخَلَّة الحاجة والفقر والخصاصة (القاموس وتعليق ٢٦١).

(٤٨٣) يقصد الفصل الذى درس فيه العمران البدوى والحضرى، وهو الفصل الثانى (الباب الثانى بحسب اصطلاحنا) وهو سابق على الباب الذى نحن فيه. والموضوع الذى يحيل عليه قد سبق الكلام فيه فى الفصول الرابع والخامس والثامن عشر من الباب السابق. ولعل الباب الثانى كان لاحقاً لهذا الباب فى الوضع الأول للمقدمة (انظر تعليق ٤٢٢).

الوجه الثالث أن طبيعة الملك تقتضى الدعة كما ذكرناه[٤٨٤]، وإذا اتخذوا الدعة والراحة مألفاً وخُلُقاً صار لهم ذلك طبيعة وجبلة شأن العوائد كلها وإيلافها، فتربى أجيالهم الحادثة فى غضارة[٤٠٤ب] العيش ومهاد الترف والدعة، وينقلب خلق التوحش، وينسون عوائد البداوة التى كان بها الملك، من شدة البأس، وتعود الافتراس، وركوب البيداء، وهداية القفر، فلا يفرَّقُ بينهم وبين السُّوْقة من الحضر إلا فى الثقافة والشارة، فتضعف حمايتهم، ويذهب بأسهم، وتنخضد شوكتهم، ويعود وبال ذلك على الدولة بما تلبس به من ثياب الهرم. ثم لايزالون يتلونون بعوائد الترف والحضارة والسكون والدعة ورقة الحاشية فى جميع أحوالهم، وينغمسون فيها، وهم فى ذلك يبعدون عن البداوة والخشونة، وينسلخون عنها شيئاً فشيئاً، وينسون خلق البسالة التى كانت بها الحماية والمدافعة، حتى يعودوا عيالا على حامية أخرى إن كانت لهم.

واعتبر ذلك فى الدول التى أخبارها فى الصحف لديك تجد ما قلته لك من ذلك صحيحاً من غير ريبة.

وربما يحدث فى الدولة إذا طرقها هذا الهَرَم بالترف والراحة أن يتخير صاحب الدولة أنصاراً وشيعة من غير جلدتهم ممن تعود الخشونة فيتخذهم جنداً يكون أصبر على الحرب وأقدر على معاناة الشدائد من الجوع والشَّظَف، ويكون ذلك دواء للدولة من الهَرَم الذى عساه أن يطرقها حتى يأذن الله فيها بأمره. وهذا كما وقع فى دولة الترك بالمشرق، فإن غالب جندها الموالى من الترك. فتتخير ملوكهم من أولئك المماليك المجلوبين إليهم فرساناً وجنداً، فيكونون أجْرَأ على الحرب وأصبر على الشَّظَف من أبناء الملوك الذين كانوا قبلهم وربوا فى ماء النعيم والسلطان وظله. وكذلك فى دولة الموحدين بإفريقية[٤٩ب]، فإن صاحبها كثيراً ما يتخذ أجناده من زناتة والعرب ويستكثر منهم، ويترك أهل الدولة المتعودين للترف، فتستجد الدولة بذلك عمراً آخر سالما من الهرم. والله وارث الأرض ومن عليها.

(٤٨٤) فى الفصل السابق لهذا الفصل مباشرة (الفصل الثانى عشر من هذا الباب، ص٥٣٢).

١٤ ـ فصل فى أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص[٣٨٩ب]

اعلم أن العمر الطبيعي للأشخاص على مازعم الأطباء والمنجمون مائة وعشرون سنة، وهى سنو القمر الكبرى عند المنجمين. ويختلف العمر فى كل جيل بحسب القرانات. فيزيد على هذا وينقص منه. فتكون أعمار بعض أهل القرانات مائة تامة وبعضهم خمسين أو ثمانين أو سبعين على ما تقتضيه أدلة القرانات عند الناظرين فيها. وأعمار هذه الملة ما بين الستين إلى السبعين كما فى الحديث. ولا يزيد على العمر الطبيعى الذى هو مائة وعشرون إلا فى الصور النادرة وعلى الأوضاع الغريبة من الفلك كما وقع فى شأن نوح عليه السلام وقليل من قوم عاد وثمود. وأما أعمار الدول أيضاً وإن كانت[١١] تختلف بحسب القرانات، إلا أن الدولة فى الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال. والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط، فيكون أربعين الذى هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾[٤٨٥]. ولهذا قلنا إن عمر الشخص الواحد هو عمر الجيل. ويؤيده ما ذكرناه[٤٨٦] فى حكمة التيه الذى وقع فى بنى إسرائيل، وأن المقصود بالأربعين فيه فناء الجيل الأحياء ونشأة جيل آخر لم يعهدوا الذل ولا عرفوه؛ فدل على اعتبار الأربعين فى عمر الجيل الذى هو عمر الشخص الواحد.

وإنما قلنا إن عُمْر الدولة لا يعدو فى الغالب ثلاثة أجيال: لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شَظَف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك فى المجد، فلاتزال بذلك سَوْرَة[٢٥٥] العصبية محفوظة فيهم فحدهم مُرْهَفٌ، وجانبهم مرهوب، والناس لهم مغلوبون. والجيل الثانى تحول حالهم بالملك والترفه من البداوة إلى الحضارة ومن الشَّظَف إلى الترف

---

(٤٨٥) جملة من آية ١٥ من سورة الأحقاف (سورة ٤٦).

(٤٨٦) يحيل بذلك على ما ذكره فى الفصل التاسع عشر من الباب الثانى (انظر صفحتى ٤٩٧-٤٩٩).

والخصب ومن الاشتراك فى المجد إلى انفراد الواحد به وكسل الباقين عن السعى فيه، ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة، فتنكسر سورة[٢٥٥] العصبية بعض الشىء، وتُؤْنَسُ منهم المهانة والخضوع. ويبقى لهم الكثير من ذلك، بما أدركوا الجيل الأول وباشروا أحوالهم وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم إلى المجد ومراميهم فى المدافعة والحماية، فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية، وإن ذهب منه ماذهب، ويكونون على رجاء من مراجعة الأحوال التى كانت للجيل الأول، أو على ظن من وجودها فيهم. وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن، ويفقدون حلاوة(٤٨٦ب) العز والعصبية بما هم فيه من مَلَكَة[٧٠] القهر، ويبلغ فيهم الترف غايته بما تفنَّقوه(٤٨٧) من النعيم وغضارة[٤٠٤ب] العيش، فيصيرون عيالا على الدولة، ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم، وتسقط العصبية بالجملة، وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة، ويُلَبِّسون[٤٥٩] على الناس فى الشارة والزى وركوب الخيل وحسن الثقافة يموهون بها، وهم فى الأكثر أجبن من النِّسوان على ظهورها. فإذا جاء المُطَالِبُ لهم لم يقاوموا مدافعته. فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة، ويستكثر بالموالى، ويصطنع من يغنى عن الدولة بعض الغناء[١٤٣]، حتى يتأذن الله بانقراضها، فتذهب الدولة بما حملت.

فهذه كما تراه ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة وتخلفها.

ولهذا كان انقراض الحسب فى الجيل الرابع كما مرَّ(٤٨٨) فى أن المجد والحسب إنما هو فى أربعة آباء. وقد أتيناك فيه ببرهان طبيعى كاف ظاهر مبنى على ما مهدناه قبل من المقدمات. فتأمله فلن تعدو وجه الحق إن كنت من أهل الإنصاف.

وهذه الأجيال الثلاثة عمرها مائة وعشرون سنة على ما مر. ولا تعدو الدول فى الغالب هذا العمر بتقريب قبله أو بعده، إلا إن عرض لها عارض آخر من فقدان المُطَالِب فيكون الهرم حاصلا مستوليًا والطالب لم يحضرها، ولو قد جاء

(٤٨٦ب) هكذا فى جميع النسخ، ويظهر أن كلمة «حلاوة» محرفة عن كلمة «خلال».

(٤٨٧) تفنق تنعم (انظر تعليق ٤٠٣ على عبارة «تفنَّقوا النعيم») ـ هذا، وقد حرفت هذه الكلمة هنا فى جميع النسخ: ففى بعضها «بما تبنكوه» (ن)؛ وفى بعضها «بما تبنقوه» (ل ، م ، ودار الكتاب اللبنانى).

(٤٨٨) يحيل بذلك على الفصل الخامس عشر من الباب الثانى (انظر صفحات ٤٩١ ـ ٤٩٣).

الطالب لما وجد مدافعا. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[٤٨٩].

فهذا العمر للدولة بمثابة عمر الشخص من التزيد إلى سن الوقوف ثم إلى سن الرجوع. ولهذا يجرى على ألسنة الناس فى المشهور أن عمر الدولة مائة سنة، وهذا معناه. فاعتبره واتخذ منه قانوناً يصحح لك عدد الآباء فى عمود النسب الذى تريده من قِبَل معرفة السنين الماضية إذا كنت قد استربت فى عددهم، وكانت السنون الماضية منذ أولهم مُحَصَّلة لديك، فعد لكل مائة من السنين ثلاثة من الآباء؛ فإن نفدت على هذا القياس مع نفود[٤٩٠] عددهم فهو صحيح، وإن نقصت عنه بجيل فقد غلط عددهم بزيادة واحد فى عمود النسب، وإن زادت بمثله فقد سقط واحد[٤٩١]. وكذلك تأخذ عدد السنين من عددهم إذا كان محصلا لديك. فتأمله تجده فى الغالب صحيحاً. ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ ٤٢٠.

١٥ ـ فصل فى انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة ٣٨٩ب

اعلم أن هذه الأطوار طبيعية للدول. فإن الغلب الذى يكون به الملك إنما هو بالعصبية وبما يتبعها من شدة البأس وتعود الافتراس؛ ولا يكون ذلك غالباً إلا مع البداوة؛ فطور الدولة من أولها بداوة. ثم إذا حصل الملك تبعه الرفْه واتساع الأحوال، والحضارة إنما هى تفنن فى الترف وإحكام الصنائع المستعملة فى وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمبانى والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله؛ فلكل واحد منها

---

(٤٨٩) آخر جملة من آية ٦١ من سورة النحل (سورة ١٦).

(٤٩٠) هكذا فى جميع النسخ، والمسموع فى مصدر نَفَد هو نَفَادٌ ونَفَدٌ (انظر القاموس). فكان الصحيح أن يقول: مع نفاد عددهم.

(٤٩١) طبق ابن خلدون هذا القانون فى عمود نسبه من والده إلى جده خلدون حسب ما يرويه الرواة. فرأى أن عشرة الآباء التى تذكرها هذه الروايات من والده إلى جده خلدون أقل من أن تقطع المدة التى تفصلهما، وأنه لابد أن يكون قد سقط من هذا القسم بعض الأسماء (انظر صفحة ٣٧ من تمهيدنا للمقدمة).

صنائع فى استجادته والتأنق فيه تختص به ويتلو بعضها بعضاً؛ وتتكثر باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعم بأحوال الترف؛ وما تتلون به من العوائد فصار طور الحضارة فى الملك يتبع طور البداوة ضرورة؛ لضرورة تبعية الرفْه للمُلك.

وأهل الدول أبداً يقلدون فى طور الحضارة وأحوالها للدولة السابقة قبلهم فأحوالهم يشاهدون؛ ومنهم فى الغالب يأخذون. ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح وملكوا فارس والروم واستخدموا بنايهم وأبناءهم، ولم يكونوا لذلك العهد فى شىء من الحضارة. فقد حكى أنه قدم لهم المرقق(٤٩٢) فكانوا يحسبونه رقاعًا، وعثروا على الكافور فى خزائن كسرى فاستعملوه فى عجينهم ملحًا. وأمثال ذلك، فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم واستعملوهم فى مهنهم وحاجات منازلهم واختاروا منهم المهرة فى أمثال ذلك والقَوَمَة عليهم أفادوهم علاج ذلك، والقيام على عمله، والتفنن فيه، مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن فى أحواله. فبلغوا الغاية فى ذلك. وتطوروا بطور الحضارة والترف فى الأحوال، واستجادة المطاعم والمشارب والملابس والمبانى والأسلحة والفُرُش والآنية وسائر الماعون والخرثى[١٥٥]؛ وكذلك أحوالهم فى أيام المباهاة والولائم وليالى الإعراس(٤٩٣)؛ فأتوا من ذلك وراء الغاية، وانظر ما نقله المسعودى والطبرى وغيرهما فى إعْراسِ المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل. وما بذل أبوها لحاشية المأمون حين وافاه فى خطْبتها إلى داره بفم الصلح. وركب إليها فى السفين. وما أنفق فى إمْلاكها(٤٩٤) وما نحلها[٣٢٥] المأمون وأنفق فى عرسها، تقف من ذلك على العجب. فمنه أن الحسن بن سهل نثر يوم الإملاك فى الصنيع الذى حضره حاشية المأمون: فنثر على الطبقة الأولى منهم بنادق المسك ملتوتة(٤٩٥) على الرقاع بالضياع والعقار مُسَوَّغَةً لمن حصلت فى يده. يقع لكل

---

(٤٩٢) المرقق نسيج خاص.

(٤٩٣) أعرس بامرأته إعراسًا دخل بها، والعروس وصف يستوى فيه المذكر والمؤنث ما داما فى إعراسهما (المصباح).

(٤٩٤) الإملاك بكسر الهمزة النكاح والتزويج، يقال شهدنا إمْلاَكه أى حفل زواجه. وأصل الفعل أملكه امرأة أى زوَّجه إياها (من القاموس والمصباح).

(٤٩٥) اللتُّ الشدّ والإيثاق. والمعنى أن بنادق المسك مشدودة على الرقاع ومثبتة عليها، فى صورة يتكون منها فى كل رقعة جملة تهب من وقعت فى يده ضيعة أو عقاراً من أملاك الحسن بن سهل.

هذا، وفى جميع النسخ «ملثوثة» بثاء ين: «واللث والإلثاث الإلحاح والإقامة، وألثَّ بالمكان أقام به» (من القاموس والمصباح)؛ وهذا المعنى لا يوائم الجملة؛ ولذلك رجحنا أن الكلمة محرفة عن ملتوتة بتاء ين.

واحد منهم ما أداه إليه الاتفاق والبخت؛ وفرق على الطبقة الثانية بِدَر(٤٩٦) الدنانير فى كل بَدْرَة عشرة آلاف؛ وفرَّق على الطبقة الثالثة بِدَرَ الدراهم كذلك؛ بعد أن أنفق فى مُقَامَة(٤٩٧) المأمون بداره أضعاف ذلك. ومنه أن المأمون أعطاها فى مهرها ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت، وأوقد شموع العنبر فى كل واحدة مائة مَنٍ وهو رطل وثلثان(٤٩٨) وبسط لها فرشاً كان الحصير منها منسوجاً بالذهب مكللا بالدر والياقوت. وقال المأمون حين رآه: «قاتل الله أبانواس؛ كأنه أبصر هذا حيث يقول فى صفة الخمر.

كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء در على أرض من الذهب»

وأعد بدار الطبخ من الحطب لليلة الوليمة نَقْلَ مائة وأربعين بغلاً مدة عام كامل ثلاث مرات فى كل يوم. وفنى الحطب لليلتين؛ وأوقدوا الجريد يصبون عليه الزيت. وأوعز إلى النُّواتِيَّة[٢٠٧] بإحضار السفن لإجازة الخواص من الناس بدجلة من بغداد إلى قصور الملك بمدينة المأمون لحضور الوليمة؛ فكانت الحَرَّقَاتُ(٤٩٩) المعدة لذلك ثلاثين ألفاً؛ أجازوا الناس فيها أخريات نهارهم. وكثير من هذا وأمثاله. وكذلك عرس المأمون بن ذى النون بطليطلة؛ نقله ابن بسام فى كتاب الذخيرة وابن حيَّان. بعد أن كانوا كلهم فى الطور الأول من البداوة عاجزين عن ذلك جملة؛ لفقدان أسبابه والقائمين على صنائعه فى غضاضتهم(٤٩٩ب) وسذاجتهم.

يذكر أن الحجاج أولم فى اختتان بعض ولْده فاستحضر بعض

---

(٤٩٦) البَدْرَة عشرة آلاف درهم وجمعه بِدَرٌ وبُدُورٌ (من الصحاح والقاموس).

(٤٩٧) المُقَامَةُ بالضم الإقامة؛ قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (آية ٣٥ من سورة فاطر، وهى سورة ٣٥)؛ أو اسم زمان من أقام، والمعنى أنفق فى مدة إقامة المأمون بداره أضعاف ذلك.

(٤٩٨) علق الهورينى على كلمة «وثلثان» بقوله: «قوله ثلثان، الذى فى كتب اللغة أن المنَّ رطل وقيل رطلان. ولم يوجد فى النسخة التونسية (انظر ص٢٤٣ وتوابعها من تمهيدنا للمقدمة) الثلثان». وفى القاموس: «المن كيل معروف أو ميزان أو رطلان».

(٤٩٩) «الحرَّقة ضرب من السفن فيها مرامى نيران يرمى بها العدو فى البحر» (مختار الصحاح). ويظهر أن من الحراقات نوعاً كان يستعمل للنزهة فى الأنهار والبحار؛ وهذا النوع هو المقصود هنا على ما يظهر. (انظر كذلك ص٥٩ وتعليق ٢ من تمهيدنا للمقدمة).

(٤٩٩ب) من معانى الغضاضة النضارة. وهذا المعنى هو المقصود فى عبارة ابن خلدون.

الدهاقين(٥٠٠) يسأله عن ولائم الفرس، وقال أخبرني بأعظم صنيع شهدته، فقال له: نعم أيها الأمير، شهدت بعض مَرَازِبَة(٥٠١) كسرى، وقد صنع لأهل فارس صنيعاً أحضر فيه صحاف الذهب علىَ أَخْونَة(٥٠٢) الفضة، أربعًا على كل واحد(٥٠٣)، وتحمله أربع وصائف، ويجلس عليه أربعة من الناس، فإذا طَعِمُوا أُتْبِعُوا أربعتهم المائدة بصحافها ووصائفها(٥٠٤). فقال الحجاج: يا غلام انحر الجُزُرَ(٥٠٥) وأطعم الناس. وعلم أنه لا يستقل بهذه الأبهة(٥٠٦). وكذلك كان.

ومن هذا الباب أعْطِيَة[٤٨٠] بنى أمية وجوائزهم. فإنما كان أكثرها الإبل أخذاً بمذاهب العرب وبداوتهم. ثم كانت الجوائز في دولة بني العباس والعُبَيْديين[٦١٧] من بعدهم ما علمت من أحمال المال وتخوت(٥٠٦ب) الثياب وإعداد الخيل بمراكبها.

وهكذا كان شأن كتامة مع الأغالبة بإفريقية، وكذا بنى طغج بمصر، وشأن لمتونة مع ملوك الطوائف بالأندلس والموحدين كذلك، وشأن زناتة مع الموحدين وهلم جرا؛ تنتقل الحضارة من الدول السَّالفَة إلى الدول الخَالفَة: فانتقلت حضارة الفرس للعرب بنى أمية وبنى العباس وانتقلت حضارة بنى أمية بالأندلس إلى ملوك المغرب من الموحدين وزناتة لهذا العهد؛ وانتقلت حضارة بني العباس إلى الديلم ثم إلى الترك ثم إلى السلجوقية ثم الترك المماليك بمصر والتتر بالعراقين. وعلى قدر عظم الدولة يكون شأنها في الحضارة؛ إذ أمور الحضارة من توابع الترف، والترف من توابع الثروة والنعمة، والثروة والنعمة من توابع المُلْك ومقدار ما يستولى عليه أهل الدولة. فعلى نسبة الملك يكون ذلك كله. فاعتبره وتفهمه وتأمله تجده صحيحاً في العمران. والله وارث الأرض ومن عليها. وهو خير الوارثين.

---

(٥٠٠) الدُّهقان بضم الدال وكسرها معرب يطلق على رئيس القرية وعلى التاجر وعلى من له مال وعقار، والجمع دهاقين (المصباح).

(٥٠١) المرازبة جمع مَرْزُبَان وهو رئيس الفرس، والمرزبة كمرحلة رياسة الفرس، فهو مرزبانهم (من القاموس).

(٥٠٢) أَخْوِنَةٌ جمع خِوَان وهو ما يؤكل عليه؛ معرب (من المصباح).

(٥٠٣) أى أربع صحاف من الذهب على كل خوان من الفضة.

(٥٠٤) أى منحوا المائدة بصحافها ووصائفها يقسمون ذلك بينهم.

(٥٠٥) «الجَزُور من الإبل خاصة يقع على الذكر والأنثى والجمع جُزُر مثل رسول ورسل» (المصباح).

(٥٠٦) أى لا يمكنه أن يقوم بمثل هذه الأبهة الفارسية، فاكتفى بإقامة مأدبة على الطراز العربي، فنحر الجُزُرَ وأطعم الناس.

(٥٠٦ب) «التَّخْتُ وعاء يصان فيه الثياب» (القاموس).

١٦ ـ فصل فى أن الترف يزيد الدولة فى أولها قوة إلى قوتها[٣٨٩ب]

والسبب فى ذلك أن القبيل إذا حصل لهم الملك والترف كثر التناسل والولد والعمومية، فكثرت العصابة؛ واستكثروا أيضاً من الموالى والصنائع ورَبِيَتْ أجيالهم فى جو ذلك النعيم والرَّفْه(٥٠٧) فازدادوا بهم عدداً إلى عددهم وقوة إلى قوتهم بسبب كثرة العصائب حينئذ بكثرة العدد. فإذا ذهب الجيل الأولى والثانى وأخذت الدولة فى الهرم لم تستقل أولئك الصنائع والموالى بأنفسهم فى تأسيس الدولة وتمهيد ملكها، لأنهم ليس لهم من الأمر شىء، إنما كانوا عيالا على أهلها ومعونة لها؛ فإذا ذهب الأصل لم يستقل الفرع بالرسوخ فيذهب ويتلاشى؛ ولا تبقى الدولة على حالها من القوة.

واعتبر هذا بما وقع فى الدولة العربية فى الإسلام. كان عدد العرب كما قلناه لعهد النبوة والخلافة مائة وخمسين ألفًا أو ما يقاربها من مضر وقحطان(٥٠٨)؛ ولما بلغ الترف مبالغه فى الدولة وتوفر نموهم بتوفر النعمة واستكثر الخلفاء من الموالى والصنائع، بلغ ذلك العدد إلى أضعافه. يقال إن المعتصم نازل عَمُّورِيَّة[٢٣٤] لما افتتحها فى تسعمائة ألف. ولا يبعد مثل هذا العدد أن يكون صحيحاً إذا اعتبرت حاميتهم فى الثغور الدانية والقاصية شرقاً وغرباً إلى الجند الحاملين سرير الملك والموالى والمصطنعين. وقال المسعودى: أُحْصِىَ بنو العباس بن عبد المطلب خاصة أيام المأمون للإنفاق عليهم فكانوا ثلاثين ألفًا بين ذكران وإناث؛ فانظر مبالغ هذا العدد لأقل من مائتى سنة؛ واعلم أن سببه الرَّفْهُ والنعيم الذى حصل للدولة وربى فيه أجيالهم؛ وإلا فعدد العرب لأول الفتح لم يبلغ هذا ولا قريباً منه. والله الخلاق العليم.

---

(٥٠٧) «رَفَه الرجل كمنع رَفْهًا ويكسر ورُفُوهًا لان عيشه» (القاموس).

(٥٠٨) يحيل بذلك على ما قاله فى الفصل الثامن من هذا الباب (انظر آخر ص٥٢٦: «وكان عدد المسلمين فى غزوة تبوك آخر غزوات النبى صلى الله عليه وسلم مائة ألف وعشرة آلاف من مضر وقحطان ما بين فارس وراجل، إلى من أسلم منهم بعد ذلك إلى الوفاة»).

١٧ - فصل فى أطوار الدولة واختلاف أحوالها وخلق أهلها باختلاف الأطوار[٣٨٩ب]

اعلم أن الدولة تنتقل فى أطوار مختلفة وحالات متجددة، ويكتسب القائمون بها فى كل طور خلقاً من أحوال ذلك الطور لا يكون مثله فى الطور الآخر، لأن الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذى هو فيه. وحالات الدولة وأطوارها لا تعدو فى الغالب خمسة أطوار:

الطور الأول: طور الظفر بالبغية وغلب المدافع والممانع، والاستيلاء على الملك وانتزاعه من أيدى الدولة السالفة قبلها. فيكون صاحب الدولة فى هذا الطور أُسْوَةَ قومه فى اكتساب المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة والحماية، لا ينفرد دونهم بشىء؛ لأن ذلك هو مقتضى العصبية التى وقع بها الغَلَبُ وهى لم تزل بعد بحالها.

الطور الثانى: طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة. ويكون صاحب الدولة فى هذا الطور معنيا باصطناع الرجال واتخاذ الموالى والصنائع، والاستكثار من ذلك، لجدع أنوف أهل عصبيته وعشيرته المقاسمين له فى نسبه، الضاربين فى الملك بمثل سهمه. فهو يدافعهم عن الأمر، ويصدهم عن موارده، ويردهم على أعقابهم أن يَخْلُصُوا[٥٠٩] إليه، حتى يَقِرَّ الأمر فى نصابه، ويُفْرِدَ أهل بيته بما يبنى من مجده. فيعانى من مدافعتهم ومغالبتهم مثل ما عاناه الأولون فى طلب الأمر أو أشد؛ لأن الأولين دافعتهم الأجانب فكان ظهراؤهم على مدافعتهم أهل العصبية بأجمعهم؛ وهذا يدافع الأقارب لا يظاهره على مدافعتهم إلا الأقل من الأباعد، فيركب صعباً من الأمر.

الطور الثالث: طور الفراغ والدَّعَة لتحصيل ثمرات الملك بما تنزع طباع البشر إليه من تحصيل المال وتخليد الآثار وبعد الصيت فيستفرغ وسعه فى الجباية وضبط الدَّخْلِ والخَرْجِ وإحصاء النفقات

---

(٥٠٩) خَلَص إلى الأمر خلوصاً من باب دخل وصل إليه، والمعنى يدافعهم عن الأمر (الحكم) ويصدهم عن موارده، وكلما تقدموا إليه خطوة ردهم على أعقابهم ومنعهم من أن يصلوا إليه. وحذف حرف الجر قبل المصدر المنسبك من أن وما بعدها قياسى.

والقَصْد[٢٩٣] فيها، وتشييد المبانى الحافلة والمصانع العظيمة والأمصار المتسعة والهياكل المرتفعة، وإجازة[٥١٠] الوفود من أشراف الأمم ووجوه القبائل، وبث المعروف فى أهله، هذا مع التوسعة على صنائعه وحاشيته فى أحوالهم بالمال والجاه؛ واعتراض[٥١١] جنوده وإدرار أرزاقهم وإنصافهم فى أعطياتهم[٤٨٠] لكل هلال حتى يظهر أثر ذلك عليهم في ملابسهم وشكَّتهم[٥١٢] وشاراتهم يوم الزينة، فيباهى بهم الدولة المسالمة، ويُرْهِبُ الدول المحاربة. وهذا آخر أطوار الاستبداد من أصحاب الدولة. لأنهم فى هذه الأطوار كلها مستقلون بآرائهم، بانون لعزهم، موضحون الطرق لمن بعدهم.

الطور الرابع: طور القنوع والمسالمة. ويكون صاحب الدولة فى هذا قانعًا بما بنى أولوه، سلمًا لأنظاره من الملوك وأقتاله[١١٢]، مقلداً للماضين من سلفه، فيتبع آثارهم حذو النعل بالنعل، ويقتفى طرقهم بأحسن مناهج الاقتداء، ويرى أن فى الخروج عن تقليدهم فساد أمره وأنهم أبصر بما بنوا من مجده.

الطور الخامس: طور الإسراف والتبذير. ويكون صاحب الدولة فى هذا الطور متلفًا لما جمع أولوه فى سبيل الشهوات والملاذ والكرم على بطانته وفى مجالسه، واصطناع أخدان السوء وخضراء الدِّمن[٥١٣]، وتقليدهم عظيمات الأمور التى لا يستقلون بحملها، ولا يعرفون ما يأتون ويذرون منها، مستفسداً لكبار الأولياء من قومه وصنائع سلفه، حتى يضطغنوا[٥١٤] عليه، ويتخاذلوا عن نصرته، مضيعاً من جنده بما أنفق أعْطياتهم[٤٠٨] فى شهواته، وحجب عنهم وجه مباشرته وتفقده. فيكون مُخَرِّبًا لما كان سلفه يؤسسون، وهادمًا لما كانوا يبنون. وفى هذا الطور تحصل فى الدولة طبيعة الهَرَم، ويستولى عليها المرض المزمن الذى لا تكاد تخلص منه، ولا يكون لها معهُ برءٌ، إلى أن تنقرض، كما نبينه فى الأحوال التى نسردها. والله خير الوارثين.

---

(٥١٠) أجازه أى منحه جائزة، والمعنى منح الجوائز والهدايا للوفود... إلخ.

(٥١١) «عرضِ الجند أمرَّهم عليه ونظر حالهم» (القاموس). ولم يذكر اعترض الجند. فكان الأصح أن يقول: «وعَرْض جنوده».

(٥١٢) «الشِّكَّة بالكسر السلاح» (القاموس) ـ هذا وقد حرفت هذه الكلمة فى معظم الطبعات إلى «وشُكْبِهم». والشَّكْبُ العطاء والجزاء، كما فى القاموس؛ وهذا المعنى لا يتلاءم مع سياق الكلام.

(٥١٣) الدِّمْن الزِّبْل المتلبد والبَعَر، وجمعه دِمَن، و«خضراء الدمن» هو النبات الأخضر الجميل يظهر فى أكوام الزِّبْل؛ والغرض منه من يكون جميلا فى مظهره وهو خارج من أصل سيئ وضيع. وقد اقتبس هذا من قوله عليه الصلاة والسلام: «إياكم وخَضْرَاءَ الدِّمَنِ!»؛ قالوا وما خضراء الدمن يا رسول الله؟ قال: «المرأة الحسناء فى المنبت السوء».

(٥١٤) يضطغنون عليه أى يحملون الضِّغْنَ عليه.

١٨ ـ فصل فى أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها فى أصلها

والسبب فى ذلك أن الآثار إنما تحدث عن القوة التى بها كانت أولا، وعلى قدرها يكون الأثر. فمن ذلك مبانى الدولة وهياكلها العظيمة: فإنما تكون على نسبة قوة الدولة فى أصلها؛ لأنها لا تتم إلا بكثرة الفَعَلَة واجتماع الأيدى على العمل والتعاون فيه: فإذا كانت الدولة عظيمة فسيحة الجوانب كثيرة الممالك والرعايا، كان الفعلة كثيرين جداً وحُشِروا من آفاق الدولة وأقطارها، فتم العمل على أعظم هياكله.

ألا ترى إلى مصانع قوم عاد وثمود وما قصه القرآن عنهما. وانظر بالمشاهدة إيوان كسرى وما اقتدر فيه الفرس حتى إنه عزم الرشيد على هدمه وتخريبه فتكاءد[٥١٥] عنه وشرع فيه ثم أدركه العجز، وقصةُّ استشارته ليحيى ابن خالد فى شأنه معروفة. فانظر كيف تقتدر دولة على بناء لا تستطيع أخرى على هدمه مع بَوْن ما بين الهدم والبناء فى السهولة تعرفْ من ذلك بَوْن ما بين الدولتين، وانظر إلى بلاط الوليد بدمشق وجامع بنى أمية بقرطبة والقنطرة التى على واديها وكذلك بناء الحنايا لجلب الماء إلى قرطاجنة فى القناة الراكبة عليها، وآثار شرشال بالمغرب، والأهرام بمصر، وكثير من هذه الآثار الماثلة للعيان، تعلم منه اختلاف الدول فى القوة والضعف.

واعلم أن تلك الأفعال للأقدمين إنما كانت بالهِنْدام[٥١٦] واجتماع الفَعَلَة وكثرة الأيدى عليها؛ فبذلك شيدت تلك الهياكل والمصانع. ولا تتوهم ما تتوهمه العامة أن ذلك لعظم أجسام الأقدمين عن أجسامنا فى أطرافها وأقطارها؛ فليس بين البشر فى ذلك كبير بَوْن، كما تجد بين الهياكل والآثار. ولقد ولع القصاص

---

(٥١٥) «تكأدنى الأمر شقّ علىّ كتَكَاء دنى» (القاموس). فكان الأصح أن يقول: «فتكاء ده». ولا يصح التركيب على وضعه هذا إلا إذا ضمن الفعل معنى فعل آخر. والعبارة فى جملتها ركيكة كما لا يخفى. وكان ينبغى أن يقول: «حتى انه لما عزم الرشيد على هدمه وتخريبه تكاء ده...».

(٥١٦) يقصد حسن التنظيم والإدارة والإصلاح. يقال «شىء مهندم أى مُصلَح على مقدار» (القاموس).

بذلك وتغالوا فيه، وسطروا عن عاد وثمود والعمالقة فى ذلك أخباراً عريقة فى الكذب، ومن أغربها ما يحكون عن عُوج بن عناق[517] رَجُلٍ من العمالقة الذى قاتلهم بنو إسرائيل فى الشام؛ زعموا أنه كان لطوله يتناول السمك من البحر ويشويه إلى الشمس. ويزيدون إلى جهلهم بأحوال البشر الجهل بأحوال الكواكب لما اعتقدوا أن للشمس حرارة وأنها شديدة فيما قرب منها؛ ولا يعلمون أن الحر هو الضوء؛ وأن الضوء فيما قرب من الأرض أكثر لانعكاس الأشعة من سطح الأرض بمقابلة الأضواء، فتتضاعف الحرارة هنا لأجل ذلك، وإذا تجاوزت مطارح الأشعة المنعكسة فلا حر هنالك، بل يكون فيه البرد حيث مجارى السحاب؛ وأن الشمس فى نفسها لا حارة ولا باردة وإنما هى جسم بسيط مضىء لا مزاج له[518]. وكذلك عوج بن عناق[517] هو فيما ذكروه من العمالقة أو من الكنعانيين الذى كانوا فريسة بنى إسرائيل عند فتحهم الشام، وأطوال بنى إسرائيل وجسمانهم لذلك العهد قريبة من هياكلنا. يشهد لذلك أبواب بيت المقدس؛ فإنها وإن خرجت وجددت لم تزل محافظة على أشكالها ومقادير أبوابها. وكيف يكون التفاوت بين عوج[517] وبين أهل عصره بهذا المقدار. وإنما مثار غلطهم فى هذا أنهم استعظموا آثار الأمم ولم يفهموا حال الدول فى الاجتماع والتعاون، وما يحصل بذلك وبالهِنْدام[516] من الآثار العظيمة فصرفوه إلى قوة الأجسام وشدتها بعظم هياكلها، وليس الأمر كذلك.

وقد زعم المسعودى ونقله عن الفلاسفة مَزْعَماً لا مستند له إلا التحكم، وهو

---

(٥١٧) «وعُوج بن عُوق رجل ولد فى منزل آدم فعاش إلى زمن موسى. وذُكِر من عِظَم خَلْقِهِ شناعةٌ». (القاموس). والمشهور على ألسنة الناس: عُوْج بن عُنُق.

(٥١٨) الذى يقرره العلم الحديث أن الشمس هى البقية الباقية من الجسم الملتهب الأول الذى انفصلت منه كواكب المجموعة الشمسية، وأنها محتفظة بحرارتها والتهابها وإن كانت تفقدهما بالتدريج ـ وأما ما ذهب إليه بصدد الفرق بين الأشعة الملامسة للأرض والأشعة التى فى العلو وأن الأولى أشد حرارة من الأخيرة فمذهب صحيح إلى حد ما. وذلك أننا كلما ابتعدنا عن سطح الأرض انخفضت درجة الحرارة حتى تصل إلى أدنى درجة على ارتفاع ٨٠ كيلو متراً. وهناك تبدأ الحرارة فى الارتفاع بسبب تفاعل الأشعة فوق البنفسجية القادمة من الشمس. وتصل هذه الحرارة إلى أقصى حد لها على ارتفاع ٤٠٠ كيلو متر تقريباً حيث تصل إلى نحو ٢٠٠٠ درجة، وهى حرارة تكفى لصهر أى معدن من المعادن المعروفة.

أن الطبيعة التى هى جِبِلَّةٌ للأجسام، لما برأ الله الخلق كانت فى تمام المِرَّة(٥١٩) ونهاية القوة والكمال، وكانت الأعمار أطول والأجسام أقوى لكمال تلك الطبيعة؛ فإن طروء الموت إنما هو بانحلال القوى الطبيعية؛ فإذا كانت قوية كانت الأعمار أزيد. فكان العالم فى أولية نشأته تام الأعمار كامل الأجسام، ثم لم يزل يتناقص لنقصان المادة إلى أن بلغ إلى هذه الحال التى هو عليها؛ ثم لايزال يتناقص إلى وقت الانحلال وانقراض العالم ـ وهذا رأى لا وجه له إلا التحكم كما تراه؛ وليس له علة طبيعية ولا سبب برهاني. ونحن نشاهد مساكن الأولين وأبوابهم وطرقهم فيما أحدثوه من البنيان والهياكل والديار والمساكن، كديار ثمود المنحوتة فى الصلد من الصخر. بيوتاً صغاراً وأبوابها ضيقة. وقد أشار ﷺ أنها ديارهم، ونهى عن استعمال مياههم وطرح ما عجن به وأهْرَقه(٥٢٠) وقال: «**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم**». وكذلك أرض عاد ومصر والشام وسائر بقاع الأرض شرقًا وغربًا. والحق ما قررناه.

ومن آثار الدول أيضًا حالها فى الإعراس٤٩٣ والولائم كما ذكرناه فى وليمة وران وصنيع الحجاج وابن ذى النون، وقد مر ذلك كله(٥٢١).

ومن آثارها أيضاً عطايا الدول وأنها تكون على نسبتها. ويظهر ذلك فيها ولو أشرفت على الهَرَم؛ فإن الهمم التى لأهل الدولة تتكون على نسبة قوة ملكهم وغلبهم للناس، والهمم لاتزال مصاحبة لهم إلى انقراض الدولة. واعتبر ذلك بجوائز ابن ذى يزن لوفد قريش، كيف أعطاهم من أرطال الذهب والفضة والأعْبُد والوصائف عشراً عشراً، ومن كَرِش(٥٢٢) العنبر واحدة، وأضعف ذلك بعشرة أمثاله لعبد المطلب؛ وإنما مُلكه يومئذ قراره اليمن خاصة تحت استبداد فارس؛ وإنما حمله على ذلك همة نفسه بما كان لقومه التبابعة من الملك فى

---

(٥١٩) المِرَّة بكسر الميم وتشديد الراء المفتوحة القوة. قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾ (الآيتان ٥ ، ٦ من سورة النجم، وهى سورة ٥٣).

(هذا وفى جميع النسخ فى تمام الكرة، وهو تحريف كما لا يخفى، إذ ليس لكلمة الكرة معنى يتلاءم مع مدلول العبارة .

(٥٢٠) أهْرَق الماء وأهْرَاقه صَبَّه. وأصله أراقه (القاموس).

(٥٢١) يحيل بذلك على ما ذكره فى الفصل الخامس عشر من هذا الباب (انظر صفحات ٥٣٩ ـ ٥٤١).

(٥٢٢) كَرِش العنبر وعاؤه، وكان وعاؤه قربة تتخذ من كَرِش الحيوان؛ فسمى كرشًا لذلك.

الأرض والغَلَب على الأمم في العراقين والهند والمغرب[٥٢٣] وكان الصنهاجيون بإفريقية[٤٩ب] أيضاً إذا أجازوا[٥١٠] الوفد من أمراء زناتة الوافدين عليهم، فإنما يعطونهم المال أَحْمَالاً، والكساء تُخُوتاً[٥٠٦ب] مملوءة، والحُمْلان[٥٢٤] نجائب[٥٢٥] عديدة. وفي تاريخ ابن الرقيق من ذلك أخبار كثيرة. وكذلك كان عطاء البرامكة وجوائزهم ونفقاتهم، وكانوا إذا كَسَبوا[٧٤] مُعْدِماً[٧٩] فإنما هو الولاية والنعمة آخر الدهر لا العطاء الذي يستنفده يومٌ أو بعضُ يومٍ. وأخبارهم في ذلك كثيرة مسطورة وهي كلها على نسبة الدول جارية. هذا جوهر الصقِلِّي الكاتب قائد جيش العُبَيْديين لما ارتحل إلى فتح مصر استعد من القيروان بألف حملٍ من المال. ولا تنتهي اليوم دولة إلى مثل هذا.

وكذلك وجد بخط أحمد بن محمد بن عبد الحميد عمل بما يُحمَل إلى بيت المال ببغداد أيام المأمون من جميع النواحي، نَقَلْتُهُ من جراب الدولة:

(غَلاَّتُ السواد[٥٢٦]) سبع وعشرون ألف ألف درهم مرتين، وثمانمائة ألف درهم، ومن الحُلَل[٥٢٧] النجرانية[٥٢٨] مائتا حُلَّة، ومن طين الخَتْم[٥٢٩] مائتان وأربعون رطلا.

(كِنْكِر)[٥٣٠] أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وستمائة ألف درهم.

(كور دِجلة) عشرون ألف درهم وثمانمائة درهم.

---

(٥٢٣) جرى ابن خلدون في هذا على المشهور عند قدامى المؤرخين، وإن كان هو نفسه قد رأى استحالة أن يحكم التبابعة المغرب والهند، وعد هذا من الأخطاء التي وقع فيها بعض المؤرخين لجهلهم بطبائع العمران وقوانينه (انظر آخر ص ٢٩٥ وتوابعها).

(٥٢٤) «الحُمْلان ما يحمل عليه من الدواب في الهبة خاصة» (القاموس). هذا، وفي معظم النسخ «والحملات»؛ وهو تحريف.

(٥٢٥) «ناقة نجيب ونجيبة جمعها نجائب» ـ هذا، وفي جميع النسخ «جنائب»؛ وهو تحريف كما لا يخفى.

(٥٢٦) «كان العرب تسمي الأخضر أسود؛ لأنه يُرى كذلك على بعد؛ ومنه سواد العراق لخضرة أشجاره وزروعه» (المصباح).

(٥٢٧) «الحُلَّة ثوبان من جنس واحد، وجمعها حُلَل مثل غرفة وغرف» (المصباح).

(٥٢٨) نسبة إلى نَجْران، وهي بلد بالعراق بين الكوفة وواسط اشتهرت بنسيج خاص نسب إليها. (وثمة بلاد أخرى بهذا الاسم منها بلد باليمن وبلد بالبحرين وبلد بحَوْران قرب دمشق ـ انظر القاموس).

(٥٢٩) «طان الكتاب ختمه بالطين» (القاموس) وهو مادة كانت تتخذ لختم الرسائل الحكومية.

(٥٣٠) هكذا في جميع النسخ والذي في القاموس: «كِنْكِوَر بكسر الكافين وقد تفتح الثانية بلد بين قرمِسين وهمَدان، وتسمى قصر اللصوص؛ وقلعة حصينة عامرة قرب جزيرة ابن عمر».

(حلْوان[٥٣١]) أربعة آلاف ألف درهم مرتين وثمانمائة ألف درهم.

(الأهواز) خمسة وعشرون ألف درهم مرة، ومن السكر ثلاثون ألف رطل.

(فارس) سبعة وعشرون ألف ألف درهم، ومن ماء الورد ثلاثون ألف قارورة، ومن الزيت الأسود عشرون ألف رطل.

(كَرْمان[١٩٣]) أربعة آلاف ألف درهم مرتين ومائتان ألف درهم، ومن المتاع اليمانى خمسمائة ثوب، ومن التمر عشرون ألف رطل.

(مَكْران[١٩٢]) أربعمائة ألف درهم مرة.

(السِّند وما يليه) أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وخمسمائة ألف درهم، ومن العود الهندى مائة وخمسون رطلا.

(سجِسْتان[٥٣٢]) أربعة آلاف ألف درهم مرتين، ومن الثياب المعينة[٥٣٣] ثلاثمائة ثَوب، ومن الفانيذ[٥٣٤] عشرون رطلا.

(خراسان) ثمانية وعشرون ألف ألف درهم مرتين ومن نُقَر الفضة ألفا نُقرة[٥٣٥]، ومن البراذين أربعة آلاف، ومن الرقيق ألف رأس، ومن المتاع عشرون ألف ثوب ومن الإهلِيلَج[٥٣٦] ثلاثون ألف رطل.

(جرجان[٥١٣]) اثنا عشر ألف ألف درهم مرتين، ومن الإبرِيسَم[٥٣٧] ألف شِقَّة[٥٣٨].

---

(٥٣١) «حلْوان بلد مشهور من سواد العراق وهى آخر مدن العراق، وبينها وبين بغداد خمس مراحل، وهى من طرف العراق من الشرق والقادسية من طرفه من الغرب، قيل سميت باسم بانيها وهو حلوان بن عمران بن إلحاف بن قضاعة» (المصباح). وهى غير حلوان مصر (حلوان الحمامات، ومن ضواحى القاهرة).

(٥٣٢) «سِجِسْتان إقليم عظيم بين خُراسان وبين مَكْران (تعليق ١٩٢) والسند، وهى بكسر السين والجيم» (المصباح).

(٥٣٣) هكذا فى جميع النسخ، ولعلها «المعينية» نسبة إلى «مَعين» وهى بلد أو قبيلة باليمن.

(٥٣٤) «الفانيذ ضرب من الحلوى معروف، وهو معرَّب بانيد» (القاموس). وقد جاءت هذه الكلمة محرفة فى معظم النسخ.

(٥٣٥) «النُّقْرة القطعة المذابة من الذهب والفضة وجمعه نقار» (القاموس).

وأما النُّقَر فقد ذكرها القاموس من جموع النُّقْرة بمعنى الوهدة المستديرة من الأرض. ــ فكان الصحيح أن يقول: ومن نِقَار الفضة ألفا نُقْرة.

(٥٣٦) «الإهليلَج، وقد تكسر اللام الثانية، والواحدة إهليلجة وهو ثمر معروف» (القاموس).

(٥٣٧) «الإبْريسَم بفتح السين وضمها الحرير» (القاموس).

(٥٣٨) الشِّقَّة بالكسر من الثوب وغيره ما شق مستطيلا (القاموس).

(قُومَس[٥٣٩]) ألف ألف درهم مرتين وخمسمائة ألف من نُقَر[٥٣٥] الفضة.

(طَبَرَسْتان[١٥٩] والربان ونهاوند) ستة آلاف ألف درهم مرتين وثلثمائة ألف، ومن الفرش الطبرى ستمائة قطعة، ومن الأكسية مائتان، ومن الثياب خمسمائة ثوب، ومن المناديل ثلثمائة، ومن الجامات[٥٤٠] ثلثمائة.

(الرَّى) اثنا عشر ألف درهم مرتين، ومن العسل عشرون ألف رطل.

(هَمَدان) أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وثلثمائة ألف، ومن رُبِّ[٥٤١] الرمان ألف رطل. ومن العسل اثنا عشر ألف رطل.

(ما بين البصرة والكوفة) عشرة آلاف ألف درهم مرتين وسبعمائة ألف درهم.

(ما سبذان والدينار[٥٤٢]) أربعة آلاف ألف درهم مرتين.

(شهرزور) ستة آلاف ألف درهم مرتين وسبعمائة ألف درهم.

(الموصل وما إليها) أربعة وعشرون ألف ألف درهم مرتين، ومن العسل الأبيض عشرون ألف ألف رطل.

(أذربيجان) أربعة آلاف ألف درهم مرتين.

(الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات) أربعة وثلاثون ألف ألف درهم مرتين، ومن الرقيق ألف رأس، ومن العسل اثنا عشر ألف زِقّ[٥٤٣]، ومن البزاة[٥٤٤] عشرة، ومن الأكسية عشرون.

(أرمينية) ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين من القُسط[٥٤٥] المحفور

---

(٥٣٩) «قُومَس بضم القاف وفتح الميم صُقع كبير بين خراسان وبلاد الجبل، وإقليم بالأندلس» (القاموس). والمقصود هنا الموضع الأول.

(٥٤٠) الجام إناء من فضة جمعه أَجْؤُم وأجوام وجامات (القاموس).

(٥٤١) «الرُّبّ بالضم سلافة كل ثمرة بعد اعتصارها» (القاموس).

(٥٤٢) علق الهوريني على هذه الكلمة بما يأتي: «قوله والدينار، الظاهر أنها الدينور. وفي الترجمة التركية ما سندان وربان». والدِّيْنَوَر بلد معروف ينسب إليها الدِّيْنَوَرى.

(٥٤٣) الزِّق بالكسر السِّقاء (القِرْبة).

(٥٤٤) علق الهوريني على هذه الكلمة بما يأتي: «قوله ومن البزاة إلخ في الترجمة التركية: ومن السكر عشرة صناديق» ـ والترجمة التركية قد اعتمدت على عدة نسخ خطية، فأكملت نقص كل منها وأصلحت أخطاءها على ضوء ما ترشد إليه النسخ الأخرى (انظر صفحتي ٢٤٧، ٢٤٨ من تمهيدنا للمقدمة).

(٥٤٥) القُسط بالضم عود هندى وعربى يتداوى به (انظر القاموس). وفى نسخة أخرى «البسط» بالباء جمع بساط.

عشرون، ومن الزَّقم(؟) خمسمائة وثلاثون رطلا، ومن المسايج السورماهى(؟) عشرة آلاف رطل؛ ومن الصونج(؟) عشرة آلاف رطل، ومن البغال مائتان، ومن المهرة ثلاثون.

(قِنَّسْرين) أربعمائة ألف دينار، ومن الزيت ألف حِمْل.

(دمشق) أربعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار.

(الأردن) سبعة وتسعون ألف دينار.

(فلسطين) ثلثمائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار، ومن الزيت ثلثمائة ألف رطل.

(مصر) ألف ألف دينار وتسعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار.

(برقة) ألف ألف درهم مرتين.

(إفريقية) ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين، ومن البُسُط مائة وعشرون.

(اليمن) ثلثمائة ألف دينار وسبعون ألف دينار. سوى المتاع.

(الحجاز) ثلثمائة ألف دينار ـ انتهى.

وأما الأندلس فالذى ذكره الثقات من مؤرخيها أن عبد الرحمن الناصر خلف فى بيوت أمواله خمسة آلاف ألف ألف دينار مكررة ثلاث مرات، يكون جملتها بالقناطير خمسمائة ألف قنطار.

ورأيت فى بعض تواريخ الرشيد أن المحمول إلى بيت المال فى أيامه سبعة آلاف قنطار وخمسمائة قنطار فى كل سنة.

فاعتبر ذلك فى نسب الدول بعضها من بعض، ولا تنكرن ما ليس بمعهود عندك ولا فى عصرك شىء من أمثاله، فتضيق حَوْصَلَتُكَ عند مُلْتَقَط المكنات. فكثير من الخواص إذا سمعوا أمثال هذه الأخبار عن الدول السالفة بادر بالإنكار؛ وليس ذلك من الصواب؛ فإن أحوال الوجود والعمران متفاوتة، ومن أدرك منها رتبة سفلى أو وسطى فلا يحصُر المدَارِكَ كلها فيها. ونحن إذا اعتبرنا ما ينقل لنا عن دولة بنى العباس وبنى أمية والعُبيْديين، وناسبنا الصحيح من ذلك والذى لا شك فيه بالذى نشاهده من هذه الدول التى هى أقل بالنسبة إليها وجدنا بينها بوناً؛ وهو لما بينها من التفاوت فى أصل قوتها وعمران ممالكها: فالآثار كلها جارية على نسبة الأصل فى القوة كما قدمناه؛

ولا يسعنا إنكار ذلك عنها؛ إذ كثير من هذه الأحوال في غاية الشهرة والوضوح، بل فيها ما يلحق بالمستفيض والمتواتر، وفيها المعاين والمشاهد من آثار البناء وغيره. فخذ من الأحوال المنقولة مراتب الدول في قوتها أو ضعفها وضخامتها أو صغرها. واعتبر ذلك بما نقصه عليك من هذه الحكاية المستظرفة: وذلك أنه ورد بالمغرب لعهد السلطان أبي عنان[٥٤٦] من ملوك بني مَرِين رجل من مَشْيَخَة طنجة يعرف بابن بَطوطة[٥٤٧]، كان رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند، ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند، وهو السلطان محمد شاه، واتصل بملكها لذلك العهد وهو فيروزجوه، وكان له منه مكان، واستعمله في خُطَّة[٣٥٦] القضاء بمذهب المالكية في عمله، ثم انقلب إلى المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان، وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الأرض. وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند، ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون، مثل أن ملك الهند إذا خرج إلى السفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان، وفرض لهم رزق ستة أشهر تدفع لهم من عطائه، وأنه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة إلى صحراء البلد ويطوفون به، ويُنْصَب أمامه في ذلك الحفل منجنيقات على الظهر ترمي بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس، إلى أن يدخل إيوانه؛ وأمثال هذه الحكايات. فتناجى الناس بتكذيبه. ولقيت أيامئذ وزير السلطان فارس بن وردان البعيد الصيت. ففاوضته في هذا الشأن وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض في الناس من تكذيبه. فقال لي الوزير فارس إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره، فتكون كابن الوزير الناشئ في السجن: وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانه ومكث في السجن سنين رَبِيَ فيها ابنه في ذلك المحبس، فلما أدرك وعقل سأل عن اللحم الذي كان يتغذى به، فقال أبوه هذا لحم الغنم، فقال وما الغنم؟ فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها؛ فيقول يا أبت تراها مثل الفأر، فينكر عليه ويقول أين الغنم من الفأر، وكذا في لحم الإبل والبقر، إذ لم يعاين في محبسه من

(٥٤٦) انظر طرفا من تاريخ أبي عنان وقصة ابن خلدون معه في صفحات ٥١-٥٣ من تمهيدنا للمقدمة.

(٥٤٧) علق الهوريني على ذلك بقوله: «وكان ابتداء رحلة ابن بطوطة سنة ٧٢٥ وانتهاؤها سنة ٧٥٤، وهي عجيبة ومختصرها نحو ٧ كراريس» - وقد طبعت رحلة ابن بطوطة أكثر من مرة بمصر.

الحيوانات إلا الفأر، فيحسبها كلها أبناء جنس الفأر. وهذا كثيراً ما يعترى الناس فى الأخبار كما يعتريهم الوسواس فى الزيادة عن قصد الإغراب كما قدمناه أول الكتاب[٥٤٨]. فليرجع الإنسان إلى أصوله، وليكن مهيمناً على نفسه، ومميزاً بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته. فما دخل فى نطاق الإمكان قبله، وما خرج عنه رفضه. وليس مرادنا الإمكان العقلى المطلق، فإن نطاقه أوسع شىء، فلا يفرض حداً بين الواقعات؛ وإنما مرادنا الإمكان بحسب المادة التى للشىء. فإذا نظرنا أصل الشىء وجنسه وصنفه ومقدار عظمه وقوته أجرينا الحكم من نسبة ذلك على أحواله وحكمنا بالامتناع على ما خرج من نطاقه[٥٤٩]. ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[٥٥٠]، وأنت أرحم الراحمين.. والله سبحانه وتعالى أعلم.

١٩ ـ فصل فى استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبيته بالموالى والمصطنعين ٣٨٩ب

اعلم أن صاحب الدولة إنما يتم أمره كما قلناه بقومه، فهم عصابته وظهراؤه على شأنه، وبهم يقارع الخوارج على دولته، ومنهم من يقلد أعمال مملكته ووزارة دولته وجباية أمواله لأنهم أعوانه على الغلب، وشركاؤه فى الأمر، ومساهموه فى سائر مهماته. هذا مادام الطور الأول للدولة كما قلناه[٥٥١]. فإذا جاء الطور الثانى وظهر الاستبداد عنهم، والانفراد بالمجد، ودافعهم عنه بالراح، صاروا فى حقيقة الأمر من بعض أعدائه، واحتاج فى مدافعتهم عن الأمر وصدهم عن المشاركة إلى أولياء آخرين من غير جلدتهم يستظهر بهم عليهم،

---

(٥٤٨) يقصد ما ذكره فى التمهيد وخاصة ما ذكره بصفحات ٢٩١ ـ ٣٠٠ من طبعتنا هذه.

(٥٤٩) انظر تفصيل هذه النظرية المهمة التى قام على أساسها علم الاجتماع فيما كتبناه فى صفحات ١٨٧ ـ ١٩٩ وما كتبه ابن خلدون نفسه فى صفحات ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٣١٩، ٣٢٠ ، ٣٢٦ - ٣٣٣ من طبعتنا هذه.

(٥٥٠) آخر آية ١١٤ من سورة طه (سورة ٢٠).

(٥٥١) يحيل بذلك على ما ذكره فى الفصل السابع عشر من هذا الباب وعنوانه «فصل فى أطوار الدولة... إلخ» (انظر صفحات ٥٤٣-٥٤٤).

ويتولاهم دونهم، فيكونون أقرب إليه من سائرهم، وأخص به قربًا واصطناعًا، وأولى إيثارًا وجاهًا، لما أنهم يستميتون دونه فى مدافعة قومه عن الأمر الذى كان لهم والرُّتبة التى ألفوها فى مشاركتهم؛ فيستخلصهم صاحب الدولة حينئذ، ويخصهم بمزيد التكرمة والإيثار، ويقسم لهم مثل ما للكثير من قومه ويُقَلِّدُهم جليل الأعمال والولايات من الوزارة والقيادة والجباية وما يختص به لنفسه وتكون خاصة له دون قومه من ألقاب المملكة؛ لأنهم حينئذ أولياؤه الأقربون ونصحاؤه المخلصون. وذلك حينئذ مؤذن باهتضام الدولة وعلامة على المرض المزمن فيها؛ لفساد العصبية التى كان بناء الغلب عليها، ومرض قلوب أهل الدولة حينئذ من الامتهان وعداوة السلطان، فيضطغنون[٥١٤] عليه، ويتربصون به الدوائر، ويعود وبال ذلك على الدولة ولا يُطمع فى برئها من هذا الداء، لأن ما مضى يتأكد فى الأعقاب إلى أن يذهب رسمها.

واعتبر ذلك فى دولة بنى أمية كيف كانوا إنما يستظهرون فى حروبهم وولاية أعمالهم برجال العرب مثل عمر بن سعد بن أبى وقاص، وعبيد الله بن زياد بن أبى سفيان، والحجاج بن يوسف، والمهلب بن أبى صفرة، وخالد بن عبد الله القسرى، وابن هبيرة، وموسى بن نصير، وبلال بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى، ونصر بن سيار، وأمثالهم من رجالات العرب. وكذا صدر من دولة بنى العباس كان الاستظهار فيها أيضا برجالات العرب. فلما صارت الدولة للانفراد بالمجد وكُبِحَ العرب عن التطاول للولايات، وصارت الوزارة للعجم والصنائع من البرامكة وبنى سهل بن نوبخت وبنى طاهر، ثم بنى بويه وموالى الترك مثل بُغَا وَوَصيف[١٢٠] وأنامش وباكناك وابن طولون وأبنائهم، وغير هؤلاء من موالى العجم، فتكون الدولة لغير من مهَّدَها والعز لغير من اجتلبه: سنة الله فى عباده، والله تعالى أعلم.

٢٠ - فى أحوال الموالى والمصطنعين فى الدول[٣٨٩ب]

اعلم أن المصطنعين فى الدول يتفاوتون فى الالتحام بصاحب الدولة بتفاوت قديمهم وحديثهم فى الالتحام بصاحبها. والسبب فى ذلك أن المقصود فى العصبية من المدافعة والمغالبة إنما يتم بالنسب، لأجل التناصر فى ذوى الأرحام والقربى، والتخاذل فى الأجانب والبعداء كما قدمناه. والولاية والمخالطة بالرق أو بالحلف تتنزل منزلة ذلك؛ لأن أمر النسب وإن كان طبيعيا فإنما هو وهمى، والمعنى الذى كان به الالتحام إنما هو العشرة والمدافعة وطول الممارسة والصحبة بالمربى والرضاع وسائر أحوال الموت والحياة. وإذا حصل الالتحام بذلك جاءت النعرة[٣٧٩] والتناصر. وهذا مشاهد بين الناس. واعتبر مثله فى الاصطناع؛ فإنه يُحْدِثُ بين المصطنِع ومن اصطنعه نسبة خاصة من الوصلة تتنزل هذه المنزلة وتؤكد اللحمة؛ وإن لم يكن نسب فثمرات النسب موجودة.

فإذا كانت هذه الولاية بين القبيل وبين أوليائهم قبل حصول الملك لهم، كانت عروقها أوشج، وعقائدها أصح، ونسبها أصرح، لوجهين: أحدهما أنهم قبل الملك أسوة فى حالهم، فلا يتميز النسب عن الولاية إلا عند الأقل منهم، فيتنزلون منهم منزلة ذوى قرابتهم وأهل أرحامهم. وإذا اصطنعوهم بعد الملك كانت مرتبة الملك مميزة للسيد عن المولى، ولأهل القرابة عن أهل الولاية والاصطناع، لما تقتضيه أحوال الرياسة والملك من تميز الرتب وتفاوتها، فتتميز حالتهم ويتنزلون منزلة الأجانب، ويكون الالتحام بينهم أضعف والتناصر لذلك أبعد، وذلك أنقص من الاصطناع قبل الملك. الوجه الثانى أن الاصطناع قبل الملك يبعد عهده عن أهل الدولة بطول الزمان، ويخفى شأن تلك اللحمة، ويُظَنُّ بها فى الأكثر النَّسَبُ فيقوى حال العصبية. وأما بعد الملك فيقرب العهد ويستوى فى معرفته الأكثر، فتتبين اللحمة وتتميز عن النسب فتضعف العصبية بالنسبة إلى الولاية التى كانت قبل الدولة.

واعتبر ذلك فى الدول والرياسات تجده. فكل من كان اصطناعه قبل حصول الرياسة والملك لمصطنعه تجده أشد التحاما به، وأقرب قرابة إليه، ويتنزل منه منزلة أبنائه وإخوانه وذوى رحمه، ومن كان اصطناعه بعد حصول الملك والرياسة لمصطنعه لا يكون له من القرابة واللحمة ما للأولين. وهذا مشاهد بالعِيان؛ حتى إن الدولة فى آخر عمرها ترجع إلى استعمال الأجانب واصطناعهم، ولا يُبنى لهم مجد كما بناه المصطنعون قبل الدولة، لقرب العهد حينئذ بأوليتهم ومشارفة الدولة على الانقراض، فيكونون منحطين فى مهاوى الضعة. وإنما يحمل صاحب الدولة على اصطناعهم والعدول إليهم عن أوليائها الأقدمين وصنائعها الأولين ما يعتريهم فى أنفسهم من العزة على صاحب الدولة، وقلة الخضوع له، ونظره بما ينظره به قبيله وأهل نسبه، لتأكد اللحمة منذ العصور المتطاولة بالمربى والاتصال بآبائه وسلف قومه، والانتظام مع كبراء أهل بيته؛ فيحصل لهم بذلك دالة عليه واعتزاز؛ فينافرهم بسببها صاحب الدولة، ويعدل عنهم إلى استعمال سواهم؛ ويكون عهد استخلاصهم واصطناعهم قريبًا، فلا يبلغون رتب المجد، ويبقون على حالهم من الخارجية.

وهكذا شأن الدول فى أواخرها. وأكثر ما يطلق اسم الصنائع والأولياء على الأولين. وأما هؤلاء المحدثون فخدم وأعوان. والله ولى المؤمنين، وهو على كل شىء وكيل.

٢١ ـ فصل فيما يعرض فى الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه[٣٨٩ب]

إذا استقر الملك فى نصاب معين ومنبت واحد من القبيل القائمين بالدولة، وانفردوا به ودفعوا سائر القبيل عنه، وتداوله بنوهم واحداً بعد واحد بحسب الترشيح، فربما حدث التغلب على المنصب من وزرائهم وحاشيتهم. وسببه فى الأكثر ولاية صبى صغير أو مُضَعَّف من أهل المنبت، يترشح للولاية بعهد أبيه أو بترشيح ذويه وخوله، ويؤنَسُ منه العجز عن القيام بالملك، فيقوم به كافله من وزراء أبيه وحاشيته ومواليه أو قبيله، ويُورِّى(٥٥٢) عنه بحفظ أمره عليه؛ حتى يؤنس منه الاستبداد، ويجعل ذلك ذريعة للملك. فيحجب الصبى عن الناس، ويعوده اللذات التى يدعوه إليها ترف أحواله، ويُسيمُهُ[٤٩] فى مراعيها متى أمكنه، وينسيه النظر فى الأمور السلطانية، حتى يستبد عليه. وهو بما عوده يعتقد أن حظ السلطان من الملك إنما هو جلوس السرير وإعطاء الصفقة[١١١]، وخطاب التهويل، والقعود مع النساء خلف الحجاب، وأن الحل والربط والأمر والنهى ومباشرة الأحوال الملوكية وتفقدها من النظر فى الجيش والمال والثغور إنما هو للوزير؛ ويُسلِّم له فى ذلك، إلى أن تستحكم له صبغة الرياسة والاستبداد، ويتحول الملك إليه ويؤثر به عشيرته وأبناءه من بعده. كما وقع لبنى بويه والترك وكافور الأخشيدى وغيرهم بالمشرق، وللمنصور بن أبى عامر[١٤٠] بالأندلس. وقد يتفطن ذلك المحجور المغلّب لشأنه فيحاول على الخروج من ربقة الحجر والاستبداد، ويُرْجِعُ الملك إلى نصابه، ويضرب على أيدى المتغلبين عليه، إما بقتل أو برفع عن الرتبة فقط؛ إلا أن ذلك فى النادر الأقل، لأن الدولة إذا أخذت فى تغلب الوزراء والأولياء استمر لها ذلك، وقل أن تخرج عنه؛ لأن ذلك إنما يوجد فى الأكثر عن أحوال الترف ونشأة أبناء الملك منغمسين فى نعيمه، قد

---

(٥٥٢) «وَرَّى الشىء تَوْرِيةً أخفاه، كواراه، ووَرَّى عن الشىء أراده وأظهر غيره» (القاموس). ـ هذا وفى بعض النسخ: «ويُوَرِّى بحفظ أمره عليه». والمعنى على كلتا النسختين: يخفى مقصده الاستبدادى متظاهراً بحفظ أمر الصبى ورعاية ملكه حتى يرشد.

نسوا عهد الرجولة وألفوا أخلاق الدايات والأظْآر[٥٥٣]، وربوا عليها، فلا ينزعون إلى رياسة، ولا يعرفون استبداداً من تغلب، إنما همهم فى القَنوع بالأُبهة والتفتن فى اللذات وأنواع الترف. وهذا التغلب يكون للموالى والمصطنعين عند استبداد عشير الملك على قومهم وانفرادهم به دونهم. وهو عارض للدولة ضرورى كما قدمناه. وهذان مرضان لا برء للدولة منهما إلا فى الأقل النادر. ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ﴾[٤٣٨ب]، وهو على كل شىء قدير».

٢٢ ـ فصل فى أن المتغلبين على السلطان لا يشاركونه فى اللقب الخاص بالملك[٢٨٩ب]

وذلك أن الملك والسلطان حصل لأوَّليه مذ أول الدولة بعصبية قومه، وعصبيته التى استَتْبَعتْهُم حتى استحكمت له ولقومه صبغة الملك والغَلَب؛ وهى لم تزل باقية وبها انحفظ رسم الدولة وبقاؤها. وهذا المتغلب وإن كان صاحب عصبية من قبيل الملك أو الموالى والصنائع فعصبيته مندرجة فى عصبية أهل الملك وتابعة لها، وليس له صبغة فى الملك. وهو لا يحاول فى استبداده انتزاع الملك ظاهراً وإنما يحاول انتزاع ثمراته من الأمر والنهى والحل والعقد والإبرام والنقض، يوهم فيها أهل الدولة أنه متصرف عن سلطانه، منفذ فى ذلك من وراء الحجاب لأحكامه. فهو يتجافى عن سمات الملك وشاراته وألقابه جهده ويبعد نفسه عن التهمة بذلك وإن حصل له الاستبداد لأنه مستتر فى استبداده ذلك بالحجاب الذى ضربه السلطان وأوَّلوه[٥٥٤] على أنفسهم عن القبيل منذ أول الدولة، ومغالط عنه بالنيابة. ولو تعرض لشىء من ذلك لَنَفِسَه[٥٥٥] عليه أهلُ العصبية وقبيلُ الملك، وحاولوا الاستئثار به دونه؛ لأنه لم تَسْتَحكِم له فى ذلك

(٥٥٣) الأظآر جمع ظئر وهى المرضعة.

(٥٥٤) أى وضربه كذلك الآباء الأولون للسلطان الحالى. فأولون فى هذه العبارة جمع أوَّل والهاء مضاف إليه يعود على السلطان. ومعنى ضربوه عن القبيل، حجبوا أنفسهم به وبعدوا به عن قبيلهم وعصبيتهم.

(٥٥٥) نَفِس بالشىء كفرح ضنّ، ونَفِس عليه بخير حسده، ونفس عليه الشىء نفاسة لم يره أهلاً له (القاموس)؛ والمعنى الأخير هو المقصود فى عبارة ابن خلدون.

صبغة تحملهم على التسليم له والانقياد؛ فيهلك لأول وهلة. وقد وقع مثل هذا لعبد الرحمن بن الناصر بن المنصور بن أبى عامر[140] حين سما إلى مشاركة هشام وأهل بيته فى لقب الخلافة، ولم يقنع بما قنع به أبوه وأخوه من الاستبداد بالحل والعقد والمراسم المتتابعة. فطلب من هشام خليفته أن يعهد له بالخلافة؛ فَنفِس[555] ذلك عليه بنو مروان وسائر قريش، وبايعوا لابن عم الخليفة هشام محمد بن عبد الجبار بن الناصر، وخرجوا عليه. وكان فى ذلك خراب دولة العامريين وهلاك المؤيد خليفتهم، واستبدل منه سواه من أعياص[448] الدولة إلى آخرها، واختلت مراسم ملكهم والله خير الوارثين.

٢٣ - فصل فى حقيقة الملك وأصنافه[389ب]

الملك مَنْصِب طبيعى للإنسان؛ لأنا قد بيَّنَّا(٥٥٦) أن البشر لا يمكن حياتهم ووجودهم إلا باجتماعهم وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضرورياتهم. وإذا اجتمعوا دعت الضرورة إلى المعاملة واقتضاء الحاجات، ومدَّ كلٌّ واحد منهم يده إلى حاجته يأخذها من صاحبه، لما فى الطبيعة الحيوانية من الظلم والعدوان بعضهم على بعض، ويمانعه الآخر عنها بمقتضى الغضب والأنفة ومقتضى القوة البشرية فى ذلك، فيقع التنازع المفضى إلى المقاتلة، وهى تؤدى إلى الهَرْجِ[459ب] وسفك الدماء وإذهاب النفوس، المفضى ذلك إلى انقطاع النوع، وهو مما خصه البارى سبحانه بالمحافظة، واستحال بقاؤهم فوضى دون حاكم يزَعُ بعضهم عن بعض؛ واحتاجوا من أجل ذلك إلى الوازع وهو الحاكم عليهم، وهو بمقتضى الطبيعة البشرية الملكُ القاهر المتحكم. ولابد فى ذلك من العصبية لما قدمناه من أن المطالبات كلها، والمدافعات لا تتم إلا بالعصبية. وهذا المُلْكُ كما تراه مَنْصِبٌ شريف تتوجه نحوه المطالبات ويحتاج إلى المدافعات؛ ولا يتم شىء من ذلك إلا بالعصبيات كما مر والعصبيات متفاوتة، وكل عصبية فلها تحكُّمٌ وتغلب على من يليها من قومها وعشيرها. وليس المُلْكُ لكل عصبية، وإنما المُلْك

---

(٥٥٦) فى المقدمة الأولى من الباب الأول، وعنوانها: «المقدمة الأولى فى أن الاجتماع الإنسانى ضرورى». (انظر صفحة ٣٤٠ وتوابعها).

على الحقيقة لمن يستعبد الرعية ويجبى الأموال ويبعث البعوث ويحمى الثغور[٤٦٦]، ولا تكون فوق يده يد قاهرة. وهذا معنى الملك وحقيقته فى المشهور. فمن قصرت[(٥٥٧)] به عصبيته عن بعضها مثل حماية الثغور[٤٦٦] أو جباية الأموال أو بعث البعوث فهو ملك ناقص لم تتم حقيقته؛ كما وقع لكثير من ملوك البربر فى دولة الأغالبة بالقيروان ولملوك العجم صدرَ الدولة العباسية. ومن قَصَرت[٥٥٧] به عصبيته أيضاً عن الاستعلاء على جميع العصبيات. والضرب على سائر الأيدى، وكان فوقه حكم غيره، فهو أيضاً ملك ناقص لم تتم حقيقته؛ وهؤلاء مثل أمراء النواحى ورؤساء الجهات الذين تجمعهم دولة واحدة. وكثيراً ما يوجد هذا فى الدولة المتسعة النطاق، أعنى توجد ملوك على قومهم فى النواحى القاصية يدينون بطاعة الدولة التى جمعتهم: مثل صنهاجة مع العُبَيْدِيِين؛ وزناتة مع الأمويين تارة والعُبَيْدِيِّين تارة أخرى؛ ومثل ملوك العجم فى دولة بنى العباس؛ ومثل أمراء البربر وملوكهم مع الفرنجة قبل الإسلام؛ ومثل ملوك الطوائف من الفرس مع الإسكندر وقومه اليونانيين؛ وكثير من هؤلاء. فاعتبره تجده. والله القاهر فوق عباده.

٢٤ ـ فصل فى أن إرهاف الحد مضر بالملك ومفسد له فى الأكثر

أعلم أن مصلحة الرعية فى السلطان ليست فى ذاته وجسمه من حسن شكله أو ملاحة وجهه أو عظم جثمانه أو اتساع عمله أو جودة خطه أو ثقوب ذهنه، وإنما مصلحتهم فيه من حيث إضافته إليهم؛ فإن الملك والسلطان من الأمور الإضافية، وهى نسبة بين منتسبين. فحقيقة السلطان أنه المالك للرعية القائم فى أمورهم عليهم: فالسلطان من له رعية؛ والرعية من لها سلطان؛ والصفة التى له من حيث إضافته لهم هى التى تسمى المَلَكَةُ[٧٠] وهى كونه يملكهم. فإذا كانت هذه المَلَكَة[٧٠] وتوابعها من الجودة بمكان حصل المقصود من

---

(٥٥٧) «قصَر عن الشىء قصوراً من باب قعد عجز عنه» (المصباح).

السلطان على أتم الوجوه؛ فإنها إن كانت جميلة صالحة كان ذلك مصلحة لهم؛ وإن كانت سيئة متعسفة كان ذلك ضررًا عليهم وإهلاكًا لهم.

ويعود حسن المَلَكَة[٧٠] إلى الرفق. فإن الملك إذا كان قاهرًا، باطشًا بالعقوبات، مُنَقِّباً عن عورات الناس وتعديد ذنوبهم، شَمِلَهم الخوفُ والذل؛ ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة فتخلقوا بها، وفسدت بصائرهم وأخلاقهم؛ وربما خذلوهْ فى مواطن الحروب والمدافعات، ففسدت الحماية بفساد النيات؛ وربما أجمعوا على قتله لذلك فتفسد الدولة ويخرَّب السِّياجُ؛ وإن دام أمره عليهم وقهره فسدت العصبية لما قلناه أوَّلا[٥٥٨]، وفسد السِّياجُ من أصله بالعجز عن الحماية. وإذا كان رفيقاً بهم متجاوزًا عن سيئاتهم استناموا إليه ولاذوا به وأُشْرِبوا محبته واستماتوا دونه فى محاربة أعدائه، فاستقام الأمر من كل جانب.

وأما توابع حسن المَلَكَة[٧٠] فهى النعمة عليهم والمدافعة عنهم: فالمدافعة بها تتم حقيقة الملك؛ وأما النعمة عليهم والإحسان لهم فمن جملة الرفق بهم، والنظر لهم فى معاشهم، وهى أصل كبير فى التحبب إلى الرعية.

واعلم أنه قلما تكون ملكة الرفق فيمن يكون يقظًا شديد الذكاء من الناس؛ وأكثر ما يوجد الرفق فى الغُفْل[٦] والمتَغَفِّل. وأقل ما يكون فى اليقظ أنه يكلف الرعية فوق طاقتهم لنفوذ نظره فيما وراء مداركهم واطلاعه على عواقب الأمور فى مباديها بألْمَعِيَّته فيهلكون. لذلك قال صلى الله عليه وسلم: «سيروا على سير أضعفكم». ومن هذا الباب اشترط الشارع فى الحاكم قلة الإفراط فى الذكاء؛ ومأخذه من قصة زياد بن أبى سفيان لما عزله عمر عن العراق، وقال: «لم عزلتنى يا أمير المؤمنين؟ ألعجز أم لخيانة؟»؛ فقال عمر: «لم أعزلك لواحدة منهما؛ ولكنى كرهت أن أحمل فَضْلَ عقلك على الناس». فأخذ من هذا أن الحاكم لا يكون مفرط الذكاء والكَيْس مثل زياد بن أبى سفيان وعمرو بن العاص، لما يتبع ذلك من التعسف وسوء المَلَكَة[٧٠]، وحَمْل الوجود على ما ليس فى طبعه، كما يأتى فى آخر هذا الكتاب[٥٥٩]. والله خير المالكين.

---

(٥٥٨) فى الفصل الثالث عشر من هذا الباب، وعنوانه: «فصل فى أنه إذا استحكمت طبيعة الملك...إلخ». (انظر صفحات ٥٢٣ _ ٥٢٥).

(٥٥٩) يقصد بعض الفصول الأخيرة من هذا الباب، وعلى الأخص الفصل الثالث والأربعين، وعنوانه: «فصل فى أن الظلم مؤذن بخراب العمران».

وتقرر من هذا أن الكَيْسَ والذكاء عيب فى صاحب السياسة، لأنه إفراط فى الفكر، كما أن البلادة إفراط فى الجمود. والطرفان مذمومان من كل صفة إنسانية، والمحمود هو التوسط: كما فى الكرم مع التبذير والبخل؛ وكما فى الشجاعة مع الهوَج[٥٦٠] والجبن؛ وغير ذلك من الصفات الإنسانية. ولهذا يوصف الشديد الكَيْس بصفات الشيطان، فيقال شيطان ومتشيطن وأمثال ذلك، والله يخلق ما يشاء، وهو العليم القدير.

٢٥ ـ فصل فى معنى الخلافة والإمامة

لما كانت حقيقة الملك أنه الاجتماع الضرورى للبشر، ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من آثار الغضب والحيوانية، كانت أحكام صاحبه فى الغالب جائرة عن الحق، مجحفة بمن تحت يده من الخلق فى أحوال دنياهم، لحمله إياهم فى الغالب على ما ليس فى طوقهم من أغراضه وشهواته، ويختلف ذلك باختلاف المقاصد من الخلف والسلف منهم، فتعسر طاعته لذلك، وتجىء العصبية المفضية إلى الهَرْج[٤٥٩ب] والقتل. فوجب أن يُرْجَعَ فى ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة يُسلّمُها الكافة وينقادون إلى أحكامها كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الأمم. وإذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب أمرها، ولا يتم استيلاؤها: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾[٥٦١]. فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت سياسة عقلية؛ وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها كانت سياسة دينية نافعة فى الحياة الدنيا وفى الآخرة. وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط، فإنها كلها عبث وباطل إذ غايتها الموت والفناء؛ والله يقول ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾[٥٦٢]؟!

---

(٥٦٠) «الهوَج محركة طول فى حمق وطيش وتسرع» (القاموس).

(٥٦١) جملة من آية ٣٨ من سورة الأحزاب (سورة ٣٣): ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.

(٥٦٢) آية ١١٥ من سورة المؤمنين (سورة ٢٣).

فالمقصود بهم إنما هو دينهم المفضي بهم إلى السعادة في آخرتهم: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾[٥٦٣]. فجاءت الشرائع بحملهم على ذلك في جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة؛ حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الإنساني، فَأَجْرَتْه على منهاج الدين ليكون الكل محوطًا بنظر الشارع.

فما كان منه بمقتضى القهر والتغلب وإهمال القوة العصبية في مرعاها فَجَوْر وعدوان ومذموم عنده كما هو مقتضى الحكمة السياسية. وما كان منه بمقتضى السياسة وأحكامها فمذموم أيضًا، لأنه بغير نور الله ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾[٥٦٤] [٥٦٤ب] لأن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من أمور آخرتهم؛ وأعمال البشر كلها عائدة عليهم في معادهم، من ملك أو غيره؛ قال صلى الله عليه وسلم: «إنما هي أعمالكم ترد عليكم»؛ وأحكام السياسة إنما تطلع على مصالح الدنيا فقط: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٥٦٥]؛ ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم. فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم. وكان هذا الحكم لأهل الشريعة وهم الأنبياء ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء.

فقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة: وأن الملك الطبيعيَّ هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة؛ والسياسيَّ هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار؛ والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة. فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به. فافهم ذلك واعتبره فيما نورده عليك من بعد. والله الحكيم العليم.

---

(٥٦٣) الجملة الأولى من الآية الأخيرة (آية ٥٣) من سورة الشورى (سورة ٤٢). و«صراط» في الآية مجرور لأنه بدل من «صراطٍ» في آخر الآية السابقة لها: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

(٥٦٤) خاتمة آية ٤٠ من سورة النور (سورة ٢٤).

(٥٦٤ب) يظهر أن هنا جملة ساقطة، وتقديرها: «وما كان منه بمقتضى الشرع فهو النافع المحمود، لأن الشارع... إلخ».

(٥٦٥) أول آية ٧ من سورة الروم (سورة ٣٠).

٢٦ ـ فصل فى اختلاف الأمة
فى حكم هذا المنصب وشروطه(٥٦٥ب)

وإذ قد بينا حقيقة هذا المنصب، وأنه نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به، سمى(٥٦٦) خلافةً وإمامة والقائم به خليفة وإماماً.

[وسماه المتأخرون سلطانا حين فشا التعدد فيه واضطروا بالتباعد وفقدان شروط المنصب إلى عقد البيعة لكل متغلب](٥٦٦ب) فأما تسميته إماماً فتشبيهاً بإمام الصلاة فى اتباعه والاقتداء به؛ ولهذا يقال الإمامة الكبرى. وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبى فى أمته، فيقال خليفة بإطلاق، وخليفة رسول الله. واختُلِفَ فى تسميته خليفة الله. فأجازه بعضهم اقتباساً من الخلافة العامة التى للآدميين فى قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(٥٦٧) وقوله: ﴿جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ...﴾(٥٦٨)». ومَنَعَ الجمهورُ منه؛ لأن معنى الآية ليس عليه؛ وقد نهى أبو بكر عنه لما دُعى به، وقال: «لست خليفة الله، ولكنى خليفة رسول الله ﷺ»؛ ولأن الاستخلاف إنما هو فى حق الغائب وأما الحاضر فلا.

(٥٦٥ب) عرض ابن خلدون فى هذا الفصل وفى الفصول التالية له حتى نهاية الفصل السادس والثلاثين وفى الفصلين الأخيرين من هذا الباب إلى أمور استطرادية يتعلق بعضها بآراء فقهاء الإسلام فى الخلافة وما إليها؛ وبعضها بنواح من النِّحَل والمذاهب السياسية فى الإسلام؛ وبعضها بتاريخ الخلافة الإسلامية وانقلابها فيما بعد إلى الملك ونشأة ولاية العهد وما إلى ذلك؛ وبعضها بالتنظيم الإدارى ووظائف الدولة وألقابها والوظائف الدينية وشارات الملك فى عهد الخلافة وفى الأمم الإسلامية وبعض أمم أخرى؛ وبعضها بالملاحم والجفر... ـ فليست هذه البحوث إذن من البحوث الأصيلة فى المقدمة، وإنما هى فى جملتها بحوث فقهية أو تاريخية أو فنية تتعلق بأمور خاصة. (انظر الفرق بين بحوث المقدمة الأصيلة العامة فى علم الاجتماع وبحوثها الاستطرادية الخاصة فى آخر صفحة ٢٥٨ وأول ص ٢٥٩).

(٥٦٦) هكذا فى «التيمورية»، وفى غيرها «تَسَمَّى».

(٥٦٦ب) العبارة المحصورة بين هذين القوسين [ ] مثبتة فى «التيمورية» وساقطة من جميع النسخ الخطية الأخرى التى أشرنا إليها فى مقدمتنا، وساقطة كذلك من جميع الطبعات المتداولة.

(٥٦٧) آية ٣٠ من سورة البقرة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾.

(٥٦٨) آية ١٦٥ (آخر آية) من سورة الأنعام (سورة ٦): ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ...﴾.

ثم إن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه فى الشرع بإجماع الصحابة والتابعين؛ لأن أصحاب رسول الله ﷺ عند وفاته بادروا إلى بيعة أبى بكر رضى الله عنه وتسليم النظر إليه فى أمورهم. وكذا فى كل عصر من بعد ذلك. ولم تترك الناس فوضى فى عصر من الأعصار. واستقر ذلك إجماعاً دالا على وجوب نصب الإمام.

وقد ذهب بعض الناس إلى أن مُدْرِك(٥٦٨ب) وجوبِه العقلُ، وأن الإجماع الذى وقع إنما هو قضاء بحكم العقل فيه. قالوا وإنما وجب بالعقل لضرورة الاجتماع للبشر واستحالة حياتهم ووجودهم منفردين، ومن ضرورة الاجتماع التنازع لازدحام الأغراض. فما لم يكن الحاكم الوازع(٥٦٩) أفضى ذلك إلى الهَرْج(٥٦٩ب) المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم؛ مع أن حفظ النوع من مقاصد الشرع الضرورية. وهذا المعنى بعينه هو الذى لحظه الحكماء فى وجوب النبوات فى البشر، وقد نبهنا على فساده(٥٧٠)، وأن إحدى مقدماته أن الوازع إنما يكون بشرع من الله تسلم له الكافة تسليم إيمان واعتقاد وهو غير مسلم؛ لأن الوازع قد يكون بسطوة الملك وقهر أهل الشوكة ولو لم يكن شرع كما فى أمم المجوس وغيرهم ممن ليس له كتاب أو لم تبلغه الدعوة؛ أو نقول يكفى فى رفع التنازع معرفة كل واحد بتحريم الظلم عليه بحكم العقل. فادعاؤهم أن ارتفاع التنازع إنما يكون بوجود الشرع هناك ونصب الإمام هنا غير صحيح؛ بل كما يكون بنصب الإمام يكون بوجود الرؤساء أهل الشوكة أو بامتناع الناس عن التنازع والتظالم؛ فلا ينهض دليلهم العقلى المبنى على هذه المقدمة. فدل على أن مُدْرَكَ(٥٧١) وجوبه إنما هو بالشرع وهو الإجماع الذى قدمناه.

وقد شذ بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا النَّصْب(٥٧١ب) رأساً لا بالعقل ولا بالشرع؛ منهم الأصَمُّ من المعتزلة وبعض الخوارج وغيرهم؛ والواجب عند هؤلاء إنما هو إمضاء أحكام الشرع؛ فإذا تواطأت الأمة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى لم يُحتَجْ إلى إمام ولا يجب نصبه. وهؤلاء محجوجون بالإجماع.

(٥٦٨ب) بكسر الراء على أنه اسم فاعل؛ أو بفتحها على أنه اسم مكان، أى محل إدراكه العقل.

(٥٦٩) «يكون» هنا تامة بمعنى يوجد، أى: فإذا لم يوجد الحاكم الوازع.

(٥٧٠) فى المقدمة الأولى من الباب الأول (انظر ص ٣٤٢).

(٥٧١) مصدر ميمى من أدرك.

(٥٧١ب) أى نَصْب الإمام.

والذى حملهم على هذا المذهب إنما هو الفرار عن الملك ومذاهبه من الاستطالة والتغلب والاستمتاع بالدنيا، لما رأوا الشريعة ممتلئة بذم ذلك، والنعي على أهله، ومُرَغِّبَةً في رفضه. ـ واعلم أن الشرع لم يذم الملك لذاته ولا حظر القيام به، وإنما ذم المفاسد الناشئة عنه من القهر والظلم والتمتع باللذات؛ ولا شك أن في هذه مفاسد محظورة وهي من توابعه؛ كما أثنى على العدل والنَّصفَة(٥٧٢) وإقامة مراسم الدين والذب عنه، وأوجب بإزائها الثواب وهي كلها من توابع الملك. فإذاً إنما وقع الذم للملك على صفة وحال دون حال أخرى، ولم يذمه لذاته، ولا طلب تركه؛ كما ذم الشهوة والغضب من المكلفين، وليس مراده تركهما بالكلية لدعاية الضرورة إليهما، وإنما المراد تصريفهما على مقتضى الحق. وقد كان لداود وسليمان صلوات الله وسلامه عليهما الملك الذى لم يكن لغيرهما(٥٧٣)، وهما من أنبياء الله تعالى وأكرم الخلق عنده. ثم نقول لهم(٥٧٤) إن هذا الفرار(٥٧٥) عن الملك بعدم وجوب هذا النصب(٥٧١ب) لا يغنيكم شيئاً، لأنكم موافقون على وجوب إقامة أحكام الشريعة، وذلك لا يحصل إلا بالعصبية والشوكة، والعصبية مقتضية بطبعها للملك(٥٧٦)، فيحصل الملك وإن لم يُنَصَّبْ إمام، وهو عين ما فررتم عنه.

وإذا تقرر أن هذا النصب(٥٧١ب) واجب بإجماع، فهو من فروض الكفاية وراجع إلى اختيار أهل العقد والحل، فيتعين عليهم نصبه، ويجب على الخلق جميعاً طاعته، لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ...﴾(٥٧٧).

---

(٥٧٢) أنصفت الرجل عاملته بالعدل والقسط والاسم النَّصَفَة بفتحتين (المصباح).

(٥٧٣) يشير بذلك إلى قوله تعالى على لسان سليمان: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ (آية ٣٥ من سورة ص وهي سورة ٣٨)؛ والآيات التالية لهذه الآية: «فسخرنا له الريح...الخ» تدل على أن الله قد استجاب له دعاءه؛ ويشير كذلك إلى قوله تعالى في شأن داود: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ...إلخ﴾ (آيات ١٨ ـ ٢٠ من سورة ص).

(٥٧٤) أى نقول لهؤلاء الذين يذهبون إلى عدم وجوب الخلافة لا بالعقل ولا بالشرع.

(٥٧٥) الفرار الذى ذكره فيما سبق قوله: «وإنما حملهم على هذا المذهب الفرار عن الملك ومذاهبه من الاستطالة والتغلب والاستمتاع بالدنيا... إلخ».

(٥٧٦) كما قرر ذلك في الفصل السابع عشر من الباب الثاني، وعنوانه: «فصل في أن الغاية التى تجرى إليها العصبية هى الملك» (انظر صفحتى ٤٩٥، ٤٩٦).

(٥٧٧) آية ٥٩ من سورة النساء (سورة ٤): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ...﴾.

وأما شروط هذا المنصب فهى أربعة: العلم؛ والعدالة؛ والكفاية؛ وسلامة الحواس والأعضاء مما يؤثِّر فى الرأى والعمل. واختُلِف فى شرط خامس وهو النسب القرشى.

فأما اشتراط العلم فظاهر؛ لأنه إنما يكون منفذاً لأحكام الله تعالى إذا كان عالماً بها، ومالم يعلمها لا يصح تقديمه لها. ولا يكفى من العلم إلا أن يكون مجتهداً، لأن التقليد نقص؛ والإمامة تستدعى الكمال فى الأوصاف والأحوال.

وأما العدالة فلأنه منصب دينى ينظر فى سائر المناصب التى هى شرط فيها، فكان أولى باشتراطها فيه. ولا خلاف فى انتفاء العدالة فيه بفسق الجوارح من ارتكاب المحظورات وأمثالها. وفى انتفائها بالبدع الاعتقادية خلاف(٥٧٨).

وأما الكفاية فهو أن يكون جريئًا على إقامة الحدود واقتحام الحروب بصيراً بها، كفيلا بحمل الناس عليها، عارفًا بالعصبية وأحوال الدهاء، قويا على معاناة السياسة؛ ليصح له بذلك ما جعل إليه من حماية الدين، وجهاد العدو، وإقامة الأحكام، وتدبير المصالح.

وأما سلامة الحواس والأعضاء من النقص والعطلة كالجنون والعمى والصمم والخرس، وما يؤثِّر فقده من الأعضاء فى العمل كفقد اليدين والرجلين والأنْثَيَيْن(٥٧٩)، فتشترط السلامة منها كلها لتأثير ذلك فى تمام عمله وقيامه بما جعل إليه. وإن كان إنما يشين فى المنظر فقط، كفقد إحدى هذه الأعضاء، فشرط السلامة منه شرط كمال. ويُلْحَقُ بفقدان الأعضاء المنع من التصرف. وهو ضربان: ضرب يُلْحَقُ بهذه فى اشتراط السلامة منه شرط وجوب وهو القهر والعجز عن التصرف جملة بالأسر وشبهه؛ وضرب لا يلحق بهذه وهو الحجر باستيلاء بعض أعوانه عليه من غير عصيان ولا مُشَاقَّة٤٧٢، فينتقل النظر فى حال هذا المستولِى، فإن جرى على حكم الدين والعدل وحميد السياسة جاز قراره، وإلا استنصر المسلمون بمن يقبض يده عن ذلك ويدفع علته، حتى ينفذَ فعل الخليفة.

---

(٥٧٨) أى وأما انتفاء العدالة بالبدع الاعتقادية ففى ذلك خلاف: فبعضهم يرى أن العدالة تنتفى بذلك؛ وبعضهم يرى أنها لا تنتفى به.

(٥٧٩) الأُنْثَيَان الخصيتان.

وأما النسب القرشي فلإجماع الصحابة يوم السقيفة[٥٨٠] على ذلك، واحتجت قريش على الأنصار لما هموا يومئذ ببيعة سعد بن عبادة وقالوا: «منا أمير ومنكم أمير» بقوله صلى الله عليه وسلم: «الأئمة من قريش»، وبأن النبى صلى الله عليه وسلم أوصانا بأن نحسن إلى محسنكم ونتجاوز عن مسيئكم، ولو كانت الإمارة فيكم لم تكن الوصية بكم؛ فحجُّوا الأنصار، ورجعوا عن قولهم منا أمير ومنكم أمير، وعدلوا عما كانوا هموا به من بيعة سعد لذلك. وثبت أيضاً فى الصحيح: «لا يزال هذا الأمر فى هذا الحى من قريش» وأمثال هذه الأدلة كثيرة.

إلا أنه لما ضعف أمر قريش وتلاشت عصبيتهم بما نالهم من الترف والنعيم، وبما أنفقَتْهم[٥٨١] الدولةُ فى سائر أقطار الأرض عجزوا بذلك عن حمل الخلافة، وتغلبت عليهم الأعاجم وصار الحل والعقد لهم، فاشتبه ذلك على كثير من المحققين حتى ذهبوا إلى نفى اشتراط القرشية، وعولوا على ظواهر فى ذلك، مثل قوله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا وإن ولى عليكم عبد حبشى ذو زبيبة»، وهذا لا تقوم به حجة فى ذلك، فإنه خرج مخرج التمثيل والفرض للمبالغة فى إيجاب السمع والطاعة؛ ومثل قول عمر «لو كان سالم مولى حُذَيْفَةَ حياً لوليته[٥٨١ب]» أو «لما دخلتنى فيه الظِّنَّةُ»، وهو أيضًا لا يفيد فى ذلك لما علمت أن مذهب

---

(٥٨٠) يوم السقيفة هو الذى بويع فيه أبو بكر الصديق رضى الله عنه بالخلافة، وكان ذلك الاجتماع فى سقيفة بنى ساعدة، ولذلك سمى يوم السقيفة.

(٥٨١) يأتى نَفق (كفرح ونصر) بمعنى فنى أو قلّ، وأنفقه أفناه أو قلله، وهذا هو المعنى المقصود فى عبارة ابن خلدون؛ و«ما» فى عبارته مصدرية. والمعنى «بإنفاق الدولة» أى بإفنائها لهم أو بتقليلها من عددهم فى سائر أقطار الأرض.

(٥٨١ب) صوابه «مولى أبى حذيفة». وهو أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس (وعبد شمس إحدى بطون قريش). وكان قد تبنى سالما فى الجاهلية وأنكحه بنت أخيه الوليد بن عتبة بن ربيعة. وأما سالم فيقال إن أصله فارسى، وإنه سالم بن معقل من أهل فارس (انظر تجريد الزبيدى لأحاديث البخارى المسمى «التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح» للزبيدى، الجزء الثانى صفحة ١١٥: «عن عائشة رضى الله عنها أن أبا حذيفة ابن عتبة بن عبد شمس، وكان ممن شهدوا بدراً مع النبى ﷺ تبنى سالما وأنكحه بنت أخيه هند بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة، وهو مولى لامرأة من الأنصار، كما تبنى النبى ﷺ زيداً (تعنى زيد بن حارثة). وكان من تبنى رجلا فى الجاهلية دعاه الناس إليه وورث من ميراثه، حتى أنزل الله عز وجل ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾، فردوا إلى آبائهم، فمن لم يعلم له أب كان مولى وأخا فى الدين...»).

الصحابى ليس بحجة، وأيضاً فمولى القوم منهم، وعصبية الولاء حاصلة لسالم فى قريش، وهى الفائدة فى اشتراط النسب؛ ولما استعظم عمر أمر الخلافة ورأى شروطها كأنها مفقودة فى ظنه، عدل إلى سالم لتوفر[٦٠] شروط الخلافة عنده فيه، حتى من النسب المفيد للعصبية كما نذكر، ولم يبق إلا صراحة النسب فرآه غير محتاج إليه، إذ الفائدة فى النسب إنما هى العصبية وهى حاصلة من الولاء. فكان ذلك حرصا من عمر رضى الله عنه على النظر للمسلمين وتقليد أمرهم لمن لا تلحقه فيه لائمة ولا عليه فيه عهدة.

ومن القائلين بنفى اشتراط القرشية القاضى أبو بكر الباقلانى، لما أدرك ما عليه عصبية قريش من التلاشى والاضمحلال واستبداد ملوك العجم على الخلفاء، فأسقط شرط القرشية، وإن كان موافقاً لرأى الخوارج، لما رأى عليه حال الخلفاء لعهده.

وبقى الجمهور على القول باشتراطها وصحة الإمامة للقرشى، ولو كان عاجزاً عن القيام بأمور المسلمين. ورُدَّ عليهم سقوطُ[٥٨٢] شرط الكفاية التى يقوى بها على أمره؛ لأنه إذا ذهبت الشوكة بذهاب العصبية فقد ذهبت الكفاية؛ وإذا وقع الإخلال بشرط الكفاية تطرق ذلك أيضاً إلى العلم والدين، وسقط اعتبار شروط هذا المنصب وهو خلاف الإجماع.

ولنتكلم الآن فى حكمة اشتراط النسب ليتحقق به الصواب فى هذه المذاهب فنقول: إن الأحكام الشرعية كلها لابد لها من مقاصد وحِكَم تشتمل عليها، وتشرع لأجلها. ونحن إذا بحثنا عن الحكمة فى اشتراط النسب القرشى ومقصد الشارع منه، لم يُقْتَصَرْ فيه على التبرك بوصْلة النبى ﷺ كما هو فى المشهور، وإن كانت تلك الوُصلةُ موجودة والتبرك بها حاصلا، لكن التبرك ليس من المقاصد الشرعية كما علمت، فلابد إذن من المصلحة فى اشتراط النسب وهى المقصودة من مشروعيتها. وإذا سبرنا وقَسَمْنا[٥٨٣] لم نجدها إلا اعتبار

---

(٥٨٢) أى رُدَّ عليهم بأنه فى هذه الحالة لا تتوافر فيه «الكفاية» التى تشترط فيمن يتولى هذا المنصب. وتركيب الجملة على هذا الوجه غير فصيح، وإن كان جاريا على أسلوب الفقهاء فى المناقشة.

(٥٨٣) من معانى القَسْم الرأى، وأن يقع فى قلبك الشىء فتظنه ثم يقوى ذلك الظن فيصير حقيقة، وقسَم أمره قره (القاموس)، وهذه المعانى هى المقصودة فى عبارة ابن خلدون، أى إذا نظرنا وبحثنا وقدرنا الأمور.

العصبية التى تكون بها الحماية والمطالبة، ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب، فتسكُنُ إليه الملة وأهلها، وينتظم حبل الأُلْفَة فيها. وذلك أن قريشاً كانوا عصبة مضر وأصلهم وأهل الغَلَب منهم وكان لهم على سائر مضر العِزَّةُ بالكثرة والعصبية والشرف. فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ويستكينون لغَلَبهم. فلو جُعِل الأمر فى سواهم لتُوقِّعَ افتراقُ الكلمة بمخالفتهم، وعدم انقيادهم؛ ولا يقدر غيرهم من قبائل مضر أن يردهم عن الخلاف، ولا يحملهم على الكَرَّة[٥٨٤]؛ فتفترق الجماعة وتختلف الكلمة. والشارع محذِّرٌ من ذلك حريص على اتفاقهم، ورفع التنازع والشتات بينهم، لتحصل اللُّحْمَة والعصبية وتحسن الحماية. بخلاف ما إذا كان الأمر فى قريش، لأنهم قادرون على سوق الناس بعصا الغَلَبِ إلى ما يُرادُ منهم، فلا يخشى من أحد خلاف عليهم ولا فرقة؛ لأنهم كفيلون حينئذ بدفعها ومنع الناس منها. فاشترط نسبهم القرشى فى هذا المنصب، وهم أهل العصبية القوية، ليكون أبلغ فى انتظام الملة واتفاق الكلمة؛ وإذا انتظمت كلمتهم انتظمت بانتظامها كلمة مضر أجمع، فأذعن لهم سائر العرب، وانقادت الأمم سواهم إلى أحكام الملة ووطئت جنودهم قاصية البلاد كما وقع فى أيام الفتوحات، واستمر بعدها فى الدولتين[١٢] إلى أن اضمحل أمر الخلافة، وتلاشت عصبية العرب ويعلم ما كان لقريش من الكثرة والتغلب على بطون مضر من مارس أخبار العرب وسيرهم وتفطن لذلك فى أحوالهم. وقد ذكر ذلك ابن إسحق فى كتاب السير وغيره. ـ فإذا ثبت أن اشتراط القرشية إنما هو لدفع التنازع بما كان لهم من العصبية والغَلَب، وعلمنا أن الشارع لا يخص الأحكام بجيل ولا عصر ولا أمة، علمنا أن ذلك إنما هو من الكفاية[٥٨٥] فرددناه إليها وطَرَدْنا[٥٨٦] العلة المشتملة على المقصود من

---

(٥٨٤) من معانى الكَرَّة الرجوع، وهو المقصود هنا، أى الرجوع عما هم فيه من خلاف؛ قال تعالى على لسان الكفار يوم القيامة: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آية ١٠٢ من سورة الشعراء وهى سورة ٢٦)؛ أى لو أن لنا رجعة إلى الحياة الدنيا فنكون من المؤمنين.

(٥٨٥) أى راجع إلى صفة الكفاية التى تشترط فى الخليفة.

(٥٨٦) أى جعلنا العلة مطردة وعممناها وأخذنا بالمقصود من القرشية فجعلنا الشرط هو وجود العصبية لا القرشية بالذات. واستخدام هذا الفعل (طردنا العلة) بهذا المعنى من تعبيرات علماء الفقه والأصول. وفى المصباح «طردت الخلاف فى المسألة طرداً أجريته، كأنه مأخوذ من المطاردة وهى الإجراء للسباق».

القرشية وهى وجود العصبية، فاشترطنا فى القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولى عصبية قوية على من معها لعصرها، ليستتبعوا من سواهم، وتجتمع الكلمة على حسن الحماية. ولا يُعلم ذلك فى الأقطار والآفاق كما كان فى القرشية؛ إذ الدعوة الإسلامية التى كانت لهم كانت عامة، وعصبية العرب كانت وافية بها فغلبوا سائر الأمم. وإنما يُخَصُّ لهذا العهد كل قطر بمن تكون له فيه العصبية الغالبة، وإذا نظرت سر الله فى الخلافة لم تَعْدُ هذا؛ لأنه سبحانه إنما جعل الخليفة نائباً عنه فى القيام بأمور عباده ليحملهم على مصالحهم ويردهم عن مضارهم وهو مخاطب بذلك، ولا يخاطب بالأمر إلا من له قدرة عليه. ألا ترى ما ذكره الإمام ابن الخطيب[٥٨٧] فى شأن النساء وأنهن فى كثير من الأحكام الشرعية جُعِلْنَ تبعًا للرجال ولم يدخلن فى الخطاب بالوضع وإنما دخلن عنده بالقياس، وذلك لما لم يكن لهن من الأمر شىء وكان الرجال قوامين عليهن، اللهم إلا العبادات التى كل أحد فيها قائم على نفسه فخطابهن فيها بالوضع لا بالقياس. ثم إن الوجود شاهد بذلك؛ فإنه لا يقوم بأمر أمة أو جيل إلا من غلب عليهم. وقل أن يكون الأمر الشرعى مخالفًا للأمر الوجودى. والله تعالى أعلم.

٢٧ ـ فصل فى مذاهب الشيعة فى حكم الإمامة[٦٥ب]

اعلم أن الشيعة لغة هم الصحب والأتباع، ويطلق فى عرف الفقهاء والمتكلمين[٥٨٨] من الخلف والسلف على أَتْبَاع على وبنيه رضى الله عنهم. ومذهبهم جميعًا متفقين[٥٨٩] عليه أن الإمامة ليست من المصالح العامة التى

---

(٥٨٧) علق الهورينى على ذلك بقوله: «ابن الخطيب هو الفخر الرازى».

(٥٨٨) المتكلمون هم علماء التوحيد المسمى بعلم الكلام.

(٥٨٩) حال ثانية من المضاف إليه فى «ومذهبهم» وقد أخطأت «دار الكتاب اللبنانى» إذ علقت على ذلك بأن الصواب «متفقون» ظنّاً منها أنها الخبر مع أن الخبر هو المصدر المنسبك من أنَّ وما بعدها فى قوله «أنَّ الإمامة ليست من المصالح العامة...».

تفوض إلى نظر الأمة، ويتعين القائم بها بتعيينهم، بل هى ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبى إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصومًا من الكبائر والصغائر، وأن علياً رضى الله عنه هو الذى عينه. صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم، لا يعرفها جهابذة السنة ولا نَقَلَة الشريعة، بل أكثرها موضوع أو مطعون فى طريقه، أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة. وتنقسم هذه النصوص عندهم إلى جلى وخفى.

فالجلى مثل قوله: «من كنت مولاه فعلى مولاه». قالوا: ولم تطرد هذه الولاية إلا فى على؛ ولهذا قال له عمر: «أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة».

ومنها قوله: «**أقضاكم على**»؛ ولا معنى للإمامة إلا القضاء بأحكام الله، وهو المراد بأولى الأمر الواجبة طاعتهم بقوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ...﴾[٥٧٧]، والمراد الحكم والقضاء، ولهذا كان حكَمًا فى قضية الإمامة يوم السقيفة[٥٨٠] دون غيره. ومنها قوله: «**من يبايعنى على روحه وهو وصى وولى هذا الأمر من بعدى**»، **فلم يبايعه إلا على**.

ومن الخفى عندهم بعث النبى ﷺ علياً لقراءة سورة براءة فى الموسم حين أنزلت؛ فإنه بعث بها أولا أبا بكر ثم أُوحِيَ إليه ليبلِّغْهُ رجل منك أو من قومك، فبعث علياً ليكون القارئ المبلِّغَ. قالوا وهذا يدل على تقديم على. وأيضاً فلم يعرف أنه قدم أحداً على علىٍّ. وأما أبو بكر وعمر فقدم عليهما فى غزاتين[٥٩٠] أسامةَ بن زيد مرة وعمرو بن العاص أخرى.

وهذه كلها أدلة شاهدة بتعيُّنِ علىٍّ للخلافة دون غيره. فمنها ما هو غير معروف ومنها ما هو بعيد عن تأويلهم.

ثم منهم من يرى أن هذه النصوص تدل على تعيين على وتشخيصه، وكذلك تنتقل منه إلى من بعده وهؤلاء هم الإمامِيَّةُ، ويتبرءون من الشيخين[٥٩١] حيث لم

---

(٥٩٠) هكذا فى جميع النسخ وصوابه «غزوتين» مثنى غزوة، أو «مغزاتين» مثنى مغزاة، ومثنى الغزوة كذلك (انظر المصباح).

(٥٩١) المقصود بالشيخين هنا أبو بكر وعمر. ـ ويطلقان أحياناً على البخارى ومسلم.

يقدموا عليًا ويبايعوه بمقتضى هذه النصوص، يَغْمصون(٥٩٢) فى إمامتهما. ولا يُلتفتُ إلى نقل القدح فيهما من غلاتهم فهو مردود عندنا وعندهم.

ومنهم من يقول إن هذه الأدلة إنما اقتضت تعيين على بالوصف لا بالشخص، والناس مقصرون حيث لم يضعوا الوصف موضعه، وهؤلاء هم الزيدية، ولا يتبرءون من الشيخين ولا يغمصون٥٩٢ فى إمامتهما مع قولهم بأن عليًا أفضل منهما، لكنهم يُجوِّزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل.

ثم اختلفت نقول هؤلاء الشيعة فى مساق الخلافة بعد على.

فمنهم من ساقها فى وُلْد فاطمة بالنص عليهم واحدًا بعد واحد على ما يذكر بعد؛ وهؤلاء يُسَمَّوْن الإماميَّةَ نسبة إلى مقالتهم باشتراط معرفة الإمام وتعيينه فى الإيمان، وهى أصل عندهم.

ومنهم من ساقها في وُلْد فاطمة لكن باختيار من الشيوخ؛ ويشترط أن يكون الإمام منهم عالمًا زاهدًا جوادًا شجاعًا داعيًا إلى إمامته؛ وهؤلاء هم الزيدية نسبة إلى صاحب المذهب، وهو زيد بن على بن الحسين السِّبْط(٥٩٢ب)، وقد كان يناظر أخاه محمدًا الباقر على اشتراط الخروج فى الإمام، فَيُلزِمُه الباقر أن لا يكون أبوهما زين العابدين إمامًا لأنه لم يخرج ولا تعرض للخروج(٥٩٣). وكان مع ذلك ينعي عليه مذاهب المعتزلة وأخذَه إياها عن واصل بن عطاء. ولما ناظر الإمامية زيدًا فى إمامة الشيخين٥٩١ ورأوه يقول بإمامتهما ولا يتبرأ منهما رفضوه ولم يجعلوه من الأئمة، وبذلك سموا رافضة.

ومنهم من ساقها بعد على وابنيه السِّبْطَين٥٩٢ب على اختلافهم فى ذلك إلى أخيهما محمد بن الحنفية ثم إلى وُلْده، وهم الكيسانية نسبة إلى كيسان مولاه.

وبين هذه الطوائف اختلافات كثيرة تركناها اختصارا.

---

(٥٩٢) «غمصه، كضرب وسمع وفرح، احتقره وعابه» (القاموس)، ومنه قوله عليه السلام: «الكِبْر بَطَر الحق وغَمْص الناس». ـ والمعنى لا يعترفون بإمامتهما. وكان الأولى حذف «فى» لأن الفعل يتعدى بنفسه.

(٥٩٢ب) السِّبْط ولد البنت. ولذلك يطلق اسم السِّبْطين على الحسن والحسين ابنى على بن أبى طالب من فاطمة الزهراء بنت الرسول عليه السلام؛ لأن كليهما سبط للرسول عليه السلام، ابن لبنته فاطمة.

(٥٩٣) أى يعترض عليه الباقر ويلزمه الحجة بأنه لو كان الخروج شرطاً لصحة الإمامة لا يكون زين العابدين أبوهما (هو على زين العابدين بن الحسين السِّبْط، وهو أبو زيد ومحمد الباقر) إمامًا: لأنه لم يخرج...إلخ.

ومنهم طوائف يسمون الغلاة تجاوزوا حد العقل والإيمان فى القول بألوهية هؤلاء الأئمة: إما على أنهم بشر اتصفوا بصفات الألوهية؛ أو أن الإله حل فى ذاتهم البشرية، وهو قول بالحلول يوافق مذهب النصارى فى عيسى صلوات الله عليه. ولقد حرق على رضى الله عنه بالنار من ذهب فيه إلى ذلك منهم؛ وسَخِطَ[٥٩٤] محمد ابن الحنفية المختارَ بن أبى عبيد لما بلغه مثل ذلك عنه، فصرحَ بلعنته والبراءة منه وكذلك فعل جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه بمن بلغه مثل هذا عنه.

ومنهم من يقول إن كمال الإمام لا يكون لغيره، فإذا مات انتقلت روحه إلى إمام آخر ليكون فيه ذلك الكمال؛ وهو قول بالتناسخ.

ومن هؤلاء الغلاة من يقف عند واحد من الأئمة لا يتجاوزه إلى غيره بحسب من يعين لذلك عندهم، وهؤلاء هم الواقفية:

فبعضهم يقول هو حى لم يمت إلا أنه غائب عن أعين الناس، ويستشهدون لذلك بقصة الخَضِر[٥٩٥]. قيل مثل ذلك فى على رضى الله عنه وإنه فى السحاب، والرعدَ صوته، والبرق فى سوطه. وقالوا مثله فى محمد ابن الحنفية وإنه فى جبل رضوى من أرض الحجاز، وقال شاعرهم:

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء
علىٌّ والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فَسِبْطٌ سبط إيمان وبر[٥٩٦] ... وسِبطٌ غيّبتْهُ كربلاء[٥٩٧]

---

(٥٩٤) يتعدى فعل سَخِط بنفسه وبالحرف فيقال سخطته وسخطت عليه (المصباح). والفعل هنا متعد بنفسه.

(٥٩٥) هى القصة التى ورد ذكرها فى القرآن فى آيات ٦٥ ـ ٨٢ من سورة الكهف؛ وأولها: «فوجدا (أى موسى وغلامه) عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا ...»؛ والجمهور على أنه الخَضر، وأنه حى لم يمت، ولكنه غائب عن أعين الناس، لا يراه إلا من يشاء الله له رؤيته. وقد أطلع الله موسى عليه ليعلمه بعض أمور تتعلق بعالم الغيب والفرق بينه وبين عالم الشهادة.

(٥٩٦) هو الحسن بن على رضى الله عنهما.

(٥٩٧) هو الحسين بن على رضى الله عنهما؛ وقد استشهد فى كربلاء.

وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الجيش يقدمه اللواء[598]
تغيب لا يرى فيهم زماناً برضوى عنده عسل وماء

وقال مثله غلاة الإمامية، خصوصاً الاثنا عشرية منهم يزعمون أن الثانى عشر من أئمتهم، وهو محمد بن الحسن العسكرى، ويلقبونه المهدى، دخل فى سرداب بدارهم بالحِلَّة[599] وتغيب حين اعتقل مع أمه وغاب هنالك، وهو يخرج آخر الزمان فيملأ الأرض عدلاً؛ يشيرون بذلك إلى الحديث الواقع فى كتاب الترمذى فى المهدى؛ وهم إلى الآن ينتظرونه ويسمونه المنتظر لذلك، ويقفون فى كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب، وقد قدموا مَرْكَباً[600] فيهتفون باسمه ويدعونه للخروج، حتى تشتبك النجوم، ثم ينفضون ويرجئون الأمر إلى الليلة الآتية، وهم على ذلك لهذا العهد.

وبعض هؤلاء الواقفية يقول إن الإمام الذى مات يرجع إلى حياته الدنيا. ويستشهدون لذلك بما وقع فى القرآن الكريم من قصة أهل الكهف[601]، والذى مر على قرية[602]، وقتيل بنى إسرائيل حين ضرب بعظام البقرة التى أمروا بذبحها[603]،

---

(٥٩٨) هو محمد ابن الحنفية بن على رضى الله عنهما. وفى تسميته «سِبْطا» تجوز، لأنه ليس سبطاً للرسول عليه السلام، أى ليس من أولاد فاطمة الزهراء، وإنما هو ابن على بن أبى طالب من زوجة أخرى هى خَوْلةُ بنت جَعفر الحَنَفيَّة (نسبة إلى حنيفة، وهو حى من العرب سمى بلقب جده أثال بن لجيم الذى كان يلقب «حنيفة»)، ولذلك يسمى «محمد ابن الحنفية» (انظر القاموس).

(٥٩٩) «الحِلَّة بلدة بناحية دُجَيْل من بغداد» (القاموس). والمعروف عند الشيعة الاثنى عشرية أن المهدى قد اختفى فى سرداب فى بلدة سامراء (سُرَّ مَنْ رأى). ومكان هذا السرداب معروف لديهم إلى الآن.

(٦٠٠) أى مطية يركبها.

(٦٠١) القصة مشهورة، وقد وردت فى القرآن فى الآيات ٩ ـ ٢٦ من سورة الكهف (سورة ١٨).

(٦٠٢) أشار القرآن الكريم إلى هذه القصة فى الآية ٢٥٩ من سورة البقرة (السورة الثانية فى القرآن): ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ...﴾ (الآية).

(٦٠٣) أشار القرآن الكريم إلى هذه القصة فى الآيات ٦٧ ـ ٧٣ من سورة البقرة (السورة الثانية فى القرآن): ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً...﴾. وختمت هذه الآيات بقوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وما ذهب إليه ابن خلدون يتفق مع ما رآه معظم المفسرين فى تفسير هذه الآيات، وهو أنه قد عثر على قتيل فى بنى إسرائيل لم يعلم قاتله، وألقى بعضهم التهمة فى صدده على بعض، فرفعوا الأمر إلى موسى، فأمرهم أن يذبحوا بقرة تتوافر فيها صفات ذكرها القرآن، وأن يضربوا جثة القتيل بعظامها فيحييه الله تعالى ويخبرهم بقاتله. ففعلوا ذلك، فأحياه الله وأخبر عن قاتله. ولبعض المفسرين فى تفسير هذه الآيات آراء أخرى يرجع إليها فى كتب التفسير.

انظر فى هذا الموضوع كتابنا: «الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام»، صفحات ٣٤ ـ ٣٨.

ومثل ذلك من الخوارق التى وقعت على طريق المعجزة، ولا يصح الاستشهاد بها فى غير مواضعها[٦٠٤]. وكان من هؤلاء السيد الحميرى، ومن شعره فى ذلك:

إذا ما المرء شاب له قَذَال[٦٠٥] ... وعلّلَهُ المواشِط[٦٠٦] بالخِضاب[٦٠٧]

فقد ذهبت بشاشته وأودى ... فقم يا صاح نبك على الشباب

إلى يوم تثوب الناس فيه ... إلى دنياهمو قبل الحساب

فليس بعائد ما فات منه ... إلى أحد إلى يوم الإياب

أدين بأن ذلك دين حق ... وما أنا فى النشور بذى ارتياب

كذاك الله أخبر عن أناس ... حيوا من بعد دَرْس[١٤٧] فى التراب

وقد كفانا مؤونة هؤلاء الغلاةِ أئمةُ الشيعة. فإنهم لا يقولون بها ويبطلون احتجاجاتهم عليها.

وأما الكيسانية[٦٠٨] فساقوا الإمامة من بعد محمد ابن الحنفية إلى ابنه أبى هاشم، وهؤلاء هم الهاشمية. ثم افترقوا فمنهم من ساقها بعده إلى أخيه على ثم إلى ابنه الحسن بن على. وآخرون يزعمون أن هاشم لمَّا مات بأرض السَّراة منصرفاً من الشام أوصى إلى محمد بن على بن عبد الله بن عباس، وأوصى محمد إلى ابنه إبراهيم المعروف بالإمام، وأوصى إبراهيم إلى أخيه عبد الله ابن الحارثية الملقب بالسفاح، وأوصى هو إلى أخيه عبد الله أبى جعفر الملقب بالمنصور، وانتقلت فى وُلْده بالنص والعهد واحداً بعد واحد إلى آخرهم. وهذا مذهب الهاشمية القائمين بدولة بنى العباس. وكان منهم أبو مسلم[٦٠٩] وسليمان ابن كَثِير وأبو سلمة الخَلَّال وغيرهم من شيعة العباسية. وربما يعضدون ذلك

(٦٠٤) يرد ابن خلدون بذلك على ما يراه هذا الفريق من الواقفية، فيقرر أن هذه الخوارق التى يستشهدون بها قد وقعت على طريق المعجزة وأنه لا يصح الاستشهاد بها فى غير المواضع التى وردت فيها.

(٦٠٥) «قَذال، كحساب، جِمَاع مؤخر الرأس» (القاموس).

(٦٠٦) جمع ما شطة وهى التى تقوم بترجيل الشعر ومشطه وما إلى ذلك.

(٦٠٧) الخضاب، ككتاب، ما يلون به الشعر واليدان والأظافر والرجلان... وما إلى ذلك كالحناء وما شاكلها من الأصباغ.

(٦٠٨) الكيسانية هم الذين يسوقون الخلافة بعد على وابنيه السِّبْطَين إلى أخيهما محمد ابن الحنفية ثم إلى وُلْده. وهم ينسبون إلى كيسان مولى محمد ابن الحنفية، كما تقدم بيان ذلك (انظر أول صفحة ٥٧٣).

(٦٠٩) يعنى أبا مسلم الخراسانى الذى يرجع إليه قسط كبير من الفضل فى الدعوة لبنى العباس وتأسيس دولتهم.

بأن حقهم فى هذا الأمر يصل إليهم من العباس لأنه كان حياً وقت الوفاة، وهو أولى بالوراثة بعصبية العمومة.

وأما الزيدية[٦١٠] فساقوا الإمامة على مذهبهم فيها وأنها باختيار أهل الحل والعقد لا بالنص. فقالوا بإمامة على، ثم ابنه الحسن، ثم أخيه الحسين، ثم ابنه على زين العابدين، ثم ابنه زيد بن على وهو صاحب هذا المذهب. وخرج بالكوفة داعياً إلى الإمامة فقتل وصلب بالكُنَاسة[٦١١]. وقال الزيدية بإمامة ابنه يحيى من بعده، فمضى إلى خراسان وقتل بالجوزجان، بعد أن أوصى إلى محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن السِّبْط[٥٩٢ب]، ويقال له النفس الزكية، فخرج بالحجاز وتلقب بالمهدى وجاءته عساكر المنصور فقتل، وعهد إلى أخيه إبراهيم، فقام بالبصرة ومعه عيسى بن زيد بن على، فوجه إليهم المنصور عساكره فهزم، وقتل إبراهيم وعيسى؛ وكان جعفر الصادق أخبرهم بذلك كله، وهى معدودة فى كراماته.

وذهب آخرون منهم إلى أن الإمام بعد محمد بن عبد الله النفسِ الزكية هو محمد بن القاسم بن على بن عمر، وعمر هو أخو زيد بن على، فخرج محمد بن القاسم بالطالقان، فقبض عليه وسيق إلى المعتصم فحبسه ومات فى حبسه.

وقال آخرون من الزيدية: إن الإمام بعد يحيى بن زيد هو أخوه عيسى الذى حضر مع إبراهيم بن عبد الله فى قتاله مع المنصور، ونقلوا الإمامة فى عقبه، وإليه انتسب دَعِيُّ الزنج كما نذكره فى أخبارهم.

وقال آخرون من الزيدية إن الإمام بعد محمد بن عبد الله أخوه إدريس الذى فر إلى المغرب ومات هنالك، وقام بأمره ابنه إدريس واختط مدينة فاس، وكان من بعده عَقِبُه ملوكا بالمغرب إلى أن انقرضوا كما نذكره فى أخبارهم.

وبقى أمر الزيدية بعد ذلك غير منتظم. وكان منهم الداعى الذى ملك طَبَرَسْتان[١٩٥]، وهو الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن

---

(٦١٠) الزيدية هم الذين يسوقون الخلافة فى وَلَد فاطمة لكن بالاختيار من الشيوخ لا بالنص والتعيين. ويشترطون أن يكون الإمام منهم عالماً زاهداً جواداً شجاعاً وأن يخرج داعياً إلى إمامته. وهم ينسبون إلى صاحب هذا المذهب وهو زيد بن على زين العابدين بن الحسين السِّبط ابن على بن أبى طالب، كما سبق بيان ذلك (انظر ص ٥٧٣ سطر ١١ وتوابعه).

(٦١١) الكُنَاسة بالضم موضع بالكوفة (القاموس).

على بن الحسين السِّبْطِ، وأخوه محمد بن زيد. ثم قام بهذه الدعوة فى الديلم الناصر الأطروش منهم، وأسلموا على يده، وهو الحسن بن على بن الحسن بن على بن عمر، وعمر أخو زيد بن على، فكانت لبنيه بطبرستان دولة، وتوصل الديلم من نسبهم إلى الملك والاستبداد على الخلفاء ببغداد كما نذكر فى أخبارهم.

وأما الإماميَّة(٦١٢) فساقوا الإمامة من على (الرضا) (٦١٣) إلى ابنه الحسن بالوصية، ثم إلى أخيه الحسين، ثم إلى ابنه على زين العابدين، ثم إلى ابنه محمد الباقر، ثم إلى ابنه جعفر الصادق. ومن هنا افترقوا فرقتين؛ فرقة ساقوها إلى وَلَده إسماعيل ويعرفونه بينهم بالإمام وهم الإسماعيلية؛ وفرقة ساقوها إلى ابنه موسى الكاظم وهم الاثنا عشرية لوقوفهم عند الثانى عشر من الأئمة وقولهم بغيبته إلى آخر الزمان كما مرَّ(٦١٤).

فأما الإسماعيلية فقالوا بإمامة إسماعيل الإمام بالنص من أبيه جعفر. وفائدة النص عليه عندهم، وإن كان قد مات قبل أبيه، إنما هو بقاء الإمامة فى عقبه، كقصة هارون مع موسى صلوات الله عليهما(٦١٥). قالوا ثم انتقلت الإمامة

---

(٦١٢) الإمامية هم الذين يسوقون الخلافة فى وُلْد فاطمة بالنص عليهم واحداً بعد واحد، وقد نسبوا إلى مقالتهم باشتراط معرفة الإمام وتعيينه، وهى أصل عندهم كما سبق بيان ذلك (انظر آخر ص٥٧٢ والأسطر الثامن والتاسع والعاشر من ص٥٧٣). ومذهبهم هذا فى النص والتعيين يقابل مذهب الزيدية الذين يسوقون الخلافة فى وُلْد فاطمة كذلك ولكن بالاختيار من الشيوخ لا بالنص والتعيين (انظر تعليق ٦١٠).

(٦١٣) هكذا فى جميع النسخ، وهو خطأ صريح، لأن المقصود هنا هو على بن أبى طالب رضى الله عنه. وأما المسمى «على الرضا» فهو علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين السبط ابن على بن أبى طالب. ـ ولعل كلمة «الرضا» فى عبارة ابن خلدون من زيادة بعض النُّسَّاخ.

(٦١٤) الثانى عشر من أئمتهم هو محمد المهدى بن محمد الحسن العسكرى. ومحمد المهدى هو الذى يزعمون أنه دخل فى سرداب ببلدة «سُرَّ من رأى» وغاب فيه، وأنه سيظهر آخر الزمان كما سبقت الإشارة إلى ذلك فى صفحة ٥٧٥ . وأئمتهم بالترتيب هم: على بن أبى طالب؛ الحسن السِّبط؛ الحسين السِّبط؛ على زين العابدين؛ محمد الباقر؛ جعفر الصادق؛ موسى الكاظم؛ على الرضا؛ محمد التقى؛ على الهادى؛ محمد الحسن العسكرى؛ محمد المهدى المنتظر. ـ وكل إمام منهم ابن للإمام السابق إلى أن يصلوا إلى الإمام الثالث وهو الحسين السِّبْط.

(٦١٥) فإن موسى قد جعل هرون وأبناءه خلفاء له فى تولى الوظائف الدينية فى بنى إسرائيل، وإن كان هرون قد مات قبل موسى (انظر فقرتى ٩ ، ١٠ من سفر العدد، إذ يقول الرب مخاطباً موسى: «ستعهد بالإشراف على شئون الدين les levites إلى هرون وأبنائه... إلخ»).

من إسماعيل إلى ابنه محمد المكتوم وهو أول الأئمة المستورين؛ لأن الإمام عندهم قد لا يكون له شوكة فيستتر وتكون دعاته ظاهرين إقامة للحجة على الخلق، وإذا كانت له شوكة ظهر وأظهر دعوته. وبعد محمد المكتوم ابنه جعفر المصدِّق[٦١٦]؛ وبعده ابنه محمد الحبيب وهو آخر المستورين؛ وبعده ابنه عبدالله[٦١٧] المهدى الذى أظهر دعوتَه أبو عبد الله الشيعى[٦١٨] فى كتامة، وتتابع الناس على دعوته، ثم أخرجه من معتقله بِسِجِلْماسة[٩٧]، وملك القيروان والمغرب وملك بنوه من بعده مصر كما هو معروف فى أخبارهم.

ويسمى هؤلاء الإسماعيلية، نسبة إلى القول بإمامة إسماعيل، ويسمون أيضاً بالباطنية نسبة إلى قولهم بالإمام الباطن أى المستور. ويسمون أيضاً المُلْحِدَة لما فى ضمن مقالتهم من الإلحاد. ولهم مقالات قديمة ومقالات جديدة دعا إليها الحسن بن محمد الصباح فى آخر المائة الخامسة، وملك حصوناً بالشام والعراق، ولم تزل دعوته فيها إلى أن توزعها الهلاك بين ملوك الترك بمصر وملوك التتر بالعراق فانقرضت. ومقالةُ هذا الصباح فى دعوته مذكورة فى كتاب «الملل والنحل» للشهرستانى.

وأما الاثنا عشرية[٦١٩] فربما خُصُّوا باسم الإمامية[٦٢٠] عند المتأخرين منهم، فقالوا بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق لوفاة أخيه الأكبر إسماعيل الإمام فى حياة أبيهما جعفر، فنص على إمامة موسى هذا، ثم ابنه على

---

(٦١٦) هكذا فى «التيمورية»، وفى غيرها «جعفر الصادق» وهو تحريف لأن الذى اشتهر باسم جعفر الصادق هو جعفر بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين السِّبْط.

(٦١٧) هكذا فى جميع النسخ، وهو خطأ، وصوابه: «عُبَيْد الله المهدى» وهو جد الفاطميين الذين كانت لهم دولة واسعة بالمغرب ومصر وغيرهما، ولذلك يسمون «العُبَيْديين» نسبة إلى جدهم هذا.

(٦١٨) هو أبو عبد الله المحتسب (انظر آخر ص٣٠٩، والسطر ٣ من ص٣١٠ من المجلد الأول من طبعتنا هذه).

(٦١٩) هم فرقة من الإمامية يذهبون إلى أن الثانى عشر من أئمتهم وهو محمد المهدى بن محمد الحسن العسكرى قد اختفى فى سرداب فى «سُرَّ من رأى»، وأنه سيظل حيا إلى أن يظهر آخر الزمان فيتولى شئون العالم ويملأ الأرض عدلا. ومن ثم يلقبونه كذلك «المهدى المنتظر». ولذلك يقفون بالخلافة (فهم فرقة من «الواقفية») ـ ولا يقولون بتولى الخلافة أحد من بعده، لأنه حى يرزق، وإن كان مختفياً عن أعين الناس «انظر صفحات ٥٧٤، ٥٧٥، ٥٧٨ وانظر تعليق ٦١٤).

(٦٢٠) أى إن المتأخرين يخصونهم باسم «الإمامية» مع أن الاثنى عشرية فرقة من فرق الإمامية (انظر فى شرح كلمة الإمامية تعليق ٦١٢).

الرضا[٦١٣] الذى عهد إليه المأمون ومات قبله فلم يتم له أمر(٦٢١)، ثم ابنه محمد التقى، ثم ابنه على الهادى، ثم ابنه محمد الحسن العسكرى، ثم ابنه محمد المهدى[٦١٤] المنتظر الذى قدمناه قبل.

وفى كل واحدة من هذه المقالات للشيعة اختلاف كثير؛ إلا أن هذه أشهر مذاهبهم، ومن أراد استيعابها ومطالعتها فعليه بكتاب الملل والنحل لابن حزم(٦٢٢) والشهرستانى وغيرهما، ففيها بيان ذلك. والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم، وهو العلى الكبير.

٢٨ ـ فصل فى انقلاب الخلافة إلى الملك[٥٦٥ب]

أعلم أن الملك غاية طبيعية للعصبية، ليس وقوعه عنها باختيار، إنما هو بضرورة الوجود وترتيبه كما قلناه من قبل[٥٧٦]، وأن الشرائع والديانات وكل أمر يُحمل عليه الجمهور فلابد فيه من العصبية، إذ المطالبة لا تتم إلا بها كما قدمناه،(٦٢٣) فالعصبية ضرورية للملة وبوجودها يتم أمر الله منها. وفى الصحيح: «ما بعث الله نبيًا إلا فى مَنَعة[٢٨١] من قومه».

ثم وجدنا الشارع قد ذم العصبية وندب إلى اطِّراحها وتركها فقال «إن الله أذهب عنكم عُبِّيَّة(٦٢٤) الجاهلية وفخرها بالآباء، أنتم بنو آدم وآدم من تراب»، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(٦٢٥). ووجدناه أيضًا قد ذم الملك

---

(٦٢١) نسب إلى المأمون أنه عزم أن يعهد، أو عهد بالفعل، إلى «على الرضا» بالخلافة من بعده، ولكن «عليا الرضا» مات قبله، فلم يتم له أمر.
هذا، وقد روى ابن خلدون هذه القصة على وجه آخر فى الفصل السادس من هذا الباب (انظر صفحتى ٥٢٢، ٥٢٣) وفى الفصل الثلاثين من هذا الباب.

(٦٢٢) انظر ترجمة ابن حزم فى التعليق الأول من ص ٣٠ من تمهيدنا للمقدمة. والكتاب الذى يشير إليه ابن خلدون هو كتاب «الفصل، فى الملل والأهواء والنِّحَل» لابن حزم.

(٦٢٣) فى الفصل السادس من هذا الباب وعنوانه: «فصل فى أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم» (انظر صفحات ٥٢١-٥٢٤).

(٦٢٤) العُبِّيَّة بضم العين وكسرها وكسر الباء المشددة وفتح الياء المشددة الكبر والفخر والنخوة. وقد روى الحديث بهذا النص: «إن الله وضع عنكم عُبِّيَّة الجاهلية» (من القاموس وشروحه).

(٦٢٥) آية ١٣ من سورة الحجرات (سورة ١٣).

وأهله ونعى على أهله أحوالهم من الاستمتاع بالخلاق(٦٢٦)، والإسراف في غير القصد ٢٩٣ والتنكب عن صراط الله، وإنما حض على الألفة في الدين وحذّر من الخلاف والفرقة.

واعلم(٦٢٧) أن الدنيا كلها وأحوالها عند الشارع مطية للآخرة، ومن فقد المطية فقد الوصول. وليس مراده فيما ينهى عنه أو يذمه من أفعال البشر أو يندب إلى تركه إهماله بالكلية أو اقتلاعه من أصله، وتعطيل القوى التي ينشأ عليها بالكلية، إنما قصده تصريفها في أغراض الحق جهد الاستطاعة، حتى تصير المقاصد كلها حقا وتتحد الوجهة، كما قال ﷺ : «**من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها**(٦٢٨) **فهجرته إلى ما هاجر إليه**» . فلم يذم الغضب وهو يقصد نزعه من الإنسان، فإنه لو زالت منه قوة الغضب لفقد منه الانتصار للحق وبطل الجهاد وإعلاء كلمة الله؛ وإنما يُذَمُّ الغضب للشيطان وللأغراض الذميمة؛ فإذا كان الغضب لذلك كان مذموما، وإذا كان الغضب في الله ولله كان ممدوحًا؛ وهو من شمائله ﷺ (٦٢٩). وكذا ذم الشهوات أيضًا ليس المراد إبطالها بالكلية؛ فإن من بطلت شهوته كان نقصًا في حقه؛ وإنما المراد تصريفها فيما أُبيحَ له باشتماله على المصالح؛ ليكون الإنسان عبداً متصرفاً طوع الأوامر الإلاهية. وكذا العصبية حيث ذمها الشارع، وقال ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ﴾(٦٣٠)، فإنما مراده حيث تكون العصبية على الباطل وأحواله كما كانت في الجاهلية،

---

(٦٢٦) «الخَلاق كسحاب النصيب الوافر من الخير» (القاموس) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ (آية ١٠٢ من سورة البقرة وهي السورة الثانية في القرآن).

(٦٢٧) يَرُدُّ في هذه الفقرة على ما قد يبدو من تناقض بين ما ذكره في الفقرة الأولى من هذا الفصل من لزوم العصبية للملك والدين وكل أمر يُحمل عليه الجمهور وما ذكره في الفقرة الثانية من ذم الشارع للعصبية والملك؛ فبيّن أن ليس ثمة تناقض بين هذا وذاك؛ لأن الذم منصب على العصبية حيث تكون على الباطل وأحواله كما كانت في الجاهلية. وكذلك كل مظهر ضروري في الحياة إذا ذمه الشارع فإنما يذمه حيث يتجه به الإنسان اتجاهاً غير حميد، ولا يذمه لذاته.

(٦٢٨) في رواية البخاري «أو امرأة ينكحها» وهو أول حديث في البخاري والنكاح معناه الزواج. (انظر التعقيب في آخر الكتاب).

(٦٢٩) ففي الأثر أن الرسول عليه السلام كان يغضب للحق.

(٦٣٠) أول آية ٣ من سورة الممتحنة (سورة ٦٠).

وأن يكون لأحد فخر بها أو حق على أحد، لأن ذلك مَجَان[٣٨٣] من أفعال العقلاء وغير نافع فى الآخرة التى هى دار القرار. فأما إذا كانت العصبية فى الحق وإقامة أمر الله فأمر مطلوب، ولو بطل لبطلت الشرائع إذ لا يتم قوامها إلا بالعصبية كما قلناه من قبل[٦٠٣]. وكذا الملك لما ذمه الشارع لم يذم منه الغَلَبَ بالحق وقهر الكافة على الدين، ومراعاة المصالح؛ وإنما ذمه لما فيه من التغلب بالباطل وتصريف الآدميين طوع الأغراض والشهوات كما قلناه[٦٣١]. فلو كان الملك مخلصاً فى غلبه للناس أنه لله ولحملهم على عبادة الله وجهاد عدوه لم يكن ذلك مذموماً.

وقد قال سليمان صلوات الله عليه: «رب هب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى[٥٧٣]»؛ لما علم من نفسه أنه بمعزل عن الباطل فى النبوة والملك.

ولما لقى معاوية عمر بن الخطاب رضى الله عنهما عند قدومه إلى الشام فى أبهة الملك وزيه من العديد والعدة استنكر ذلك وقال: «أكِسْرَوِيَّةٌ يا معاوية؟!(٦٣٢)»؛ فقال: «يا أمير المؤمنين إنا فى ثَغر[٤٦٦] تجاه العدو وبنا إلى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة»، فسكت ولم يُخَطِّئْه لما احتج عليه بمقصد من مقاصد الحق والدين. فلو كان القصد رفض الملك من أصله لم يقنعه هذا الجواب فى تلك الكسروية وانتحالها، بل كان يحرض على خروجه عنها بالجملة. وإنما أراد عمر بالكسروية ما كان عليه أهل فارس فى ملكهم من ارتكاب الباطل والظلم والبغى وسلوك سبله والغفلة عن الله؛ وأجابه معاوية بأن القصد بذلك ليس كسروية فارس وباطلهم، وإنما قصده بها وجه الله، فسكت.

وهكذا كان شأن الصحابة فى رفض الملك وأحواله ونسيان عوائده حذرًا من التباسها بالباطل.

فلما استُحْضر(٦٣٣) رسول الله ﷺ استخلف أبا بكر على الصلاة، إذ هى أهم أمور الدين، وارتضاه الناس للخلافة وهى حمل الكافة على أحكام الشريعة. ولم يجر للملك ذكر، لما أنه مَظِنة للباطل ونِحْلة يومئذ لأهل الكفر

---

(٦٣١) وضح ذلك فى الفصول العاشر والحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر من هذا الباب: «من طبيعة الملك الانفراد بالمجد؛ ومن طبيعته الترف؛ والدعة والسكون؛ وأنه إذا استحكمت طبيعة الملك... أقبلت الدولة على الهرم» (انظر صفحات ٥٣٠ ـ ٥٣٥).

(٦٣٢) أى أتسلك مسلك كسرى وتتبع طريقته فى مظهره وأبّهته؟! وهو استفهام إنكارى.

(٦٣٣) هكذا فى جميع النسخ وصوابه «احتُضِر» بمعنى حضره الموت.

وأعداء الدين. فقام بذلك أبو بكر ما شاء الله متبعا سنن صاحبه، وقاتل أهل الردة حتى اجتمع العرب على الإسلام.

ثم عهد إلى عمر فاقتفى أثره، وقاتل الأمم فغلبهم، وأذن للعرب فى انتزاع ما بأيديهم من الدنيا والملك فغلبوهم عليه، وانتزعوه منهم. ثم صارت إلى عثمان بن عفان. ثم إلى على رضى الله عنهما؛ والكل متبرئون من الملك مُتَنَكِّبون عن طرقه.

وأكد ذلك لديهم ما كانوا عليه من غضاضة[٤٩٩ب] الإسلام وبداوة[٣٥٣] العرب. فقد كانوا أبعد الأمم عن أحوال الدنيا وترفها، لا من حيث دينُهم الذى يدعوهم إلى الزهد فى النعيم، ولا من حيث بداوتُهُم ومواطنُهُم، وما كانوا عليه من خشونة العيش وشَظَفِه الذى ألفوه[٤٧١].

فلم تكن أمة من الأمم أسغب[٣٨٤] عيشا من مضر لما كانوا بالحجاز فى أرض غير ذات زرع ولا ضرع، وكانوا ممنوعين من الأرياف وحبوبها لبعدها واختصاصها بمن وليها من ربيعة واليمن؛ فلم يكونوا يتطاولون إلى خصبها. ولقد كانوا كثيراً ما يأكلون العقارب والخنافس، ويفخرون بأكل العلهز وهو وبر الإبل يَمْهونه[٦٣٤] بالحجارة فى الدم ويطبخونه. وقريباً من هذا كانت قريش فى مطاعمهم ومساكنهم.

حتى إذا اجتمعت عصبية العرب على الدين بما أكرمهم الله من نبوة محمد ﷺ، زحفوا إلى أمم فارس والروم، وطلبوا ما كتب الله لهم من الأرض بوعد الصدق. فابتزوا ملكهم، واستباحوا دنياهم، فزخرت بحار الرَّفْه[٥٠٧] لديهم، حتى كان الفارس الواحد يقسم له فى بعض الغزوات ثلاثون ألفًا من الذهب أو نحوها. فاستولوا من ذلك على ما لا يأخذه الحصر. وهم مع ذلك على خشونة عيشهم فكان عمر يرقع ثوبه بالجلد. وكان على يقول: «يا صفراء ويا بيضاء غرى غيرى[٦٣٥]». وكان أبو موسى[٦٣٦] يتجافى عن أكل الدجاج لأنه لم يعهدها للعرب لقلتها يومئذ. وكانت المناخل مفقودة عندهم بالجملة؛ وإنما كانوا يأكلون الحنطة بنُخَالها. ومكاسبهم مع هذا أتم ما كانت لأحد من أهل العالم.

---

(٦٣٤) «المَهْو الضرب الشديد» (القاموس). والمعنى يضربونه ضرباً شديداً بالحجارة فى الدم.

(٦٣٥) يقصد بالصفراء القطع الذهبية (وهى الدنانير التى كانت تتخذ من الذهب، ولون الذهب أصفر). ويقصد بالبيضاء القطع الفضية (وهى الدراهم، وكانت تتخذ من الفضة، ولون الفضة أبيض).

(٦٣٦) أبو موسى الأشعرى من الصحابة وكان أحد الحكمين فى الخلاف بين على ومعاوية.

قال المسعودى: «فى أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال، فكان له يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم، وقيمة ضِياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما مائتا ألف دينار(٦٣٧) وخلف إبلا وخيلا كثيرة. وبلَغ الثُّمنُ الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلف ألف فرس وألف أمة. وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم، ومن ناحية السَّرَاة أكثر من ذلك. وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس، وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم، وبلغ الرُّبْعُ من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً. وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفئوس، غير ما خلف من الأموال والضياع بمائة ألف دينار. وبنى الزبير داره بالبصرة وكذلك بنى بمصر والكوفة والإسكندرية. وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبناها بالجِصِّ والآجُرِّ والساج. وبنى سعد بن أبى وقاص داره بالعقيق، ورفع سَمْكَهَا وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات. وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن. وخلف يَعْلَى بن مُنْية(٦٣٨) خمسين ألف دينار وعقاراً وغير ذلك ما قيمته ثلثمائة ألف درهم» أ. هـ كلام المسعودى.

فكانت مكاسب القوم كما تراه ولم يكن ذلك مَنْعِيًا عليهم فى دينهم إذ هى أموال حلال لأنها غنائم وفُيوء، ولم يكن تصرفهم فيها بإسراف، إنما كانوا على قَصْد[٢٩٣] فى أحوالهم كما قلناه؛ فلم يكن ذلك بقادح فيهم. وإن كان الاستكثار من الدنيا مذمومًا فإنما يرجع إلى ما أشرنا إليه من الإسراف والخروج به عن القَصْد[٢٩٣]. وإذا كان حالهم قَصْداً[٢٩٣] ونفقاتهم فى سبل الحق ومذاهبه كان ذلك الاستكثار عونًا لهم على طرق الحق واكتساب الدار الآخرة. فلما تدرجت البداوة والغضاضة[٤٩٩ب] إلى نهايتها، وجاءت طبيعة الملك التى هى مقتضى العصبية كما قلناه، وحصل التغلب والقهر كان حكم ذلك الملك عندهم حكم ذلك الرَّفْه[٥٠٧] والاستكثار من الأموال؛ فلم يصرفوا ذلك التغلب فى باطل ولا خرجوا به عن مَقاصد الديانة ومذاهب الحق.

ولما وقعت الفتنة بين على ومعاوية وهى مقتضى العصبية كان طريقهم فيها

---

(٦٣٧) فى نسخة أخرى: مائة ألف دينار.

(٦٣٨) هكذا فى التيمورية وفى غيرها «يعلى بن منبه» وهى فى الغالب تحريف عن «منية». والذى فى القاموس: «يَعْلى بن أمية صحابى».

الحق والاجتهاد، ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دنيوي أو لإيثار باطل أو لاستشعار حقد كما قد يتوهمه متوهم وينزع إليه ملحد. وإنما اختلف اجتهادهم في الحق وسفه كل واحد نظر صاحبه باجتهاده في الحق فاقتتلوا عليه. وإن كان المصيب علياً فلم يكن معاوية قائماً فيها بقصد الباطل(٦٣٩)، إنما قصد الحق وأخطأ. والكل كانوا في مقصدهم على حق.

ثم اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار الواحد به. ولم يكن لمعاوية أن يدفع ذلك عن نفسه وقومه فهو أمر طبيعي ساقته العصبية بطبيعتها، واستشعرته بنو أمية، ومن لم يكن على طريقة معاوية في اقتفاء الحق من أتباعهم فاعصوصبوا عليه واستماتوا دونه. ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم في الانفراد بالأمر لوقع في افتراق الكلمة التي كان جمعُها وتأليفها أهمَّ عليه من أمر ليس وراءه كبير مخالفة. وقد كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول إذا رأى القاسم بن محمد بن أبي بكر: «لو كان لي من الأمر شيء لوليته الخلافة». ولو أراد أن يعهد إليه لفعل؛ ولكنه كان يخشى من بني أمية أهل الحل والعقد لما ذكرناه؛ فلا يقدر أن يحول الأمرَ عنهم لئلا تقع الفرقة. وهذا كله إنما حمل عليه منازع الملك التي هي مقتضى العصبية. فالملك إذا حصل وفرضنا أن الواحد انفرد به وصرفه في مذاهب الحق ووجوهه لم يكن في ذلك نكير عليه. ولقد انفرد سليمان وأبوه داوود صلوات الله عليهما بملك بني إسرائيل لما اقتضته طبيعة الملك فيهم من الانفراد به، وكانوا ما علمت من النبوة والحق. وكذلك عَهِدَ معاوية إلى يزيد خوفًا من افتراق الكلمة بما كانت٤٤٥ بنو أمية لم يرضوا تسليم الأمر إلى من سواهم. فلو قد عهد إلى غيره اختلفوا عليه؛ مع أن ظنهم كان به صالحًا، ولا يرتاب أحد في ذلك، ولا يُظَنُّ بمعاوية غيرُه؛ فلم يكن ليعهد إليه، وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق، حاشا لله لمعاوية من ذلك.

وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه وإن كانوا ملوكًا فلم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة(٦٤٠) والبغي؛ إنما كانوا متحرين لمقاصد الحق جهدهم إلا

(٦٣٩) في التركيب شيء من الركاكة، وكان الأفضل أن يقول: «ومع أن المصيب كان علياً، فإن معاوية لم يكن قائمًا فيها بقصد الباطل...إلخ».

(٦٤٠) بَطل في حديثه كعلم بَطَالة هزل (من القاموس وشرحه).

فى ضرورة تحملهم على بعضها[٦٤١] مثل خشية افتراق الكلمة الذى هو أهم لديهم من كل مقصد. يشهد لذلك ما كانوا عليه من الاتباع والاقتداء، وما علم من أحوالهم ومقاصدهم. فقد احتج مالك فى «المُوطَّأ»[٦٤٢] بعمل السلف عبد الملك. وأما مروان فكان من الطبقة الأولى من التابعين، وعدالتهم معروفة ثم تدرج الأمر فى ولد عبد الملك، وكانوا من الدين بالمكان الذى كانوا عليه. وتوسطهم عمر بن عبد العزيز فنزع إلى طريقة الخلفاء الأربعة والصحابة جهده، ولم يهمل. ثم جاء خلفهم واستعملوا طبيعة الملك فى أغراضهم الدنيوية ومقاصدهم ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحرى القصد[٢٩٣] فيها واعتماد الحق فى مذاهبها.

فكان ذلك مما دعا الناس إلى أن نَعَوْا عليهم أفعالهم وأدالوا[٢٩٩] بالدعوة العباسية منهم. وولى رجالها الأمر، فكانوا من العدالة بمكان، وصرفوا الملك فى وجوه الحق ومذاهبه ما استطاعوا؛ حتى جاء بنو الرشيد من بعده فكان منهم الصالح والطالح. ثم أفضى الأمر إلى بنيهم فأعطوا الملك والترف حقه وانغمسوا فى الدنيا وباطلها، ونبذوا الدين وراءهم ظِهْرِيّاً، فتأذن الله بحربهم، وانتزاع الأمر من أيدى العرب جملة، وأمكن سواهم منه. والله لا يظلم مثقال ذرة.

ومن تأمل سِيَر هؤلاء الخلفاء والملوك واختلافهم فى تحرى الحق من الباطل علم صحة ما قلناه. وقد حكى المسعودى مثله فى أحوال بنى أمية عن أبى جعفر المنصور، وقد حضر عمومتُه وذكروا بنى أمية فقال: «أما عبد الملك فكان جباراً لا يبالى بما صنع؛ وأما سليمان فكان همُّهُ بطنَه وفرجَه؛ وأما عمرُ فكان أعور بين عُمْيان، وكان رجلَ القوم هشامٌ» قال[٦٤٣]: «ولم يزل بنو أمية ضابطين لما مُهِّد لهم من السلطان يحوطونه ويصونون ما وهب الله لهم منه، مع تسنُّمِهم معالى الأمور، ورفضهم دَنِيَّاتِها، حتى أفضى الأمر إلى أبنائهم المترفين، فكانت همتهم قصد الشهوات، وركوب اللذات من معاصى الله جهلا باستدراجه وأمنًا

(٦٤١) أى إلا فى ضرورة تحملهم على بعض مقاصد الحق دون بعض.

(٦٤٢) كتاب «المُوَطَّأ» للإمام مالك بن أنس رضى الله عنه من أشهر كتب الحديث (انظر لمحة عن سبب تأليفه ومنهجه، فى ص ١٣٥، ٣٠٥ من الجزء الأول من طبعتنا هذه).

(٦٤٣) متابعةً لكلام أبى جعفر المنصور.

لمكره، مع اطِّراحهم صيانة الخلافة، واستخفافهم بحق الرياسة، وضعفهم عن السياسة، فسلبهم الله العز وألبسهم الذل ونفى عنهم النعمة». ثم استحضر[٦٤٤] عبد الله[٦٤٥] بن مروان فقص عليه خبره مع ملك النوبة لما دخل أرضهم فارّا أيام السفاح، قال: «أقمت مليّا ثم أتانى ملِكُهم فقعد على الأرض وقد بسطت لى فُرُشٌ ذات قيمة، فقلت له ما منعك من القعود على ثيابنا[٦٤٦]، فقال: إنى ملك! وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله إذ رفعه الله. ثم قال لى: لم تشربون الخمر وهى محرمة عليكم فى كتابكم[٦٤٧]؟ فقلت: اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم! قال، فلم تطؤون الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم؟ قلت فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم! قال: فلم تلبسون الديباج والذهب والحرير وهو محرم فى كتابكم؟ قلت: ذهب منا الملك وانتصرنا بقوم من العجم دخلوا فى ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا. فأطرق ينكت[٦٤٨] بيده فى الأرض ويقول: عبيدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا فى ديننا!! ثم رفع رأسه إلىَّ وقال: ليس كما ذكرت! بل أنتم[٦٤٩] قوم استحللتم ما حرم الله عليكم، وأتيتم ما عنه نُهيتم، وظلمتم فيما ملكتم، فسلبكم الله العز وألبسكم الذل بذنوبكم. ولله نقمة لم تبلغ غايتها فيكم. وأنا خائف أن يحل بكم العذاب وأنتم ببلدى فينالَنى معكم وإنما الضيافة ثلاث. فتزود ما احتجت إليه وارتحل عن أرضى. فتعجب المنصور وأطرق.

فقد تبين لك كيف انقلبت الخلافة إلى الملك. وأن الأمر كان فى أوله خلافة، ووازع كل أحد فيها من نفسه وهو الدين، وكانوا يؤثرونه على أمور دنياهم وإن أفضت إلى هلاكهم وحدهم دون الكافة. فهذا عثمان لما حُصِرَ فى الدار جاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وابن جعفر وأمثالهم يريدون المدافعة عنه،

---

(٦٤٤) استحضر أبو جعفر المنصور عبدَ اللَّه بن مروان، أى استدعاه فى هذا المجلس الذى كان يتناقش فيه مع عمومته، ليذكر قصته مع ملك النوبة، حتى تأتى هذه القصة مؤيدة لما ذكره المنصور بشأن بنى أمية وأسباب انهيار ملكهم.

(٦٤٥) علّق الهورينى على ذلك بقوله: «قوله عبد الله، كذا فى النسخة التونسية وبعض الفاسية (صوابه الفارسية. ـ انظر ص٢٤٤ من تمهيدنا للمقدمة). وفى بعضها (أى فى بعض النسخ الفارسية) عبد الملك؛ وأظنه تصحيفاً».

(٦٤٦) هكذا فى جميع النسخ، والصواب: «ما منعك من القعود على الفرش مثلنا».

(٦٤٧) المقصود ملوك بنى أمية وسراتهم الذين كان منهم عبد الله بن مروان صاحب هذه القصة.

(٦٤٨) «النَّكْت أن تضرب الأرض بقضيب فتؤثر فيها» (القاموس).

(٦٤٩) يشير إلى ملوك بنى أمية وسراتهم الذين كان منهم عبد الله بن مروان صاحب هذه القصة.

فأبى ومنع من سل السيوف بين المسلمين مخافة الفرقة وحفظاً للألفة التى بها حفظ الكلمة، ولو أدى إلى هلاكه. وهذا علىّ أشار عليه المغيرة لأول ولايته باستبقاء الزبير ومعاوية وطلحة على أعمالهم حتى يجتمع الناس على بيعته، وتتفق الكلمة، وله بعد ذلك ما شاء من أمره وكان ذلك من سياسة الملك، فأبى فراراً من الغش الذى ينافيه الإسلام. وغدا عليه المغيرة من الغداة فقال: لقد أشرت عليك بالأمس بما أشرت ثم عدتُ إلى نظرى فعلمت أنه ليس من الحق والنصيحة، وأن الحق فيما رأيتَه أنت. فقال على: لا والله، بل أعلم أنك نصحتنى بالأمس وغششتنى اليوم. ولكن منعنى مما أشرت به ذائد الحق.

وهكذا كانت أحوالهم فى إصلاح دينهم بفساد دنياهم. ونحن:

نُرَقِّع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نُرقِّع

فقد رأيت كيف صار الأمر إلى الملك وبقيت معانى الخلافة من تحرى الدين ومذاهبه والجرى على منهاج الحق، ولم يظهر التغير إلا فى الوازع الذى كان ديناً ثم انقلب عصبية وسيفًا. وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الأول من خلفاء بنى العباس إلى الرشيد وبعض وُلْده. ثم ذهبت معانى الخلافة ولم يبق إلا اسمها، وصار الأمر ملكا بحتاً، وجرت طبيعة التغلب إلى غايتها، واستعملت فى أغراضها من القهر والتقلب فى الشهوات والملاذ. وهكذا كان الأمر لوُلْد عبد الملك، ولمن جاء بعد الرشيد من بنى العباس، واسم الخلافة باقيًا فيهم لبقاء عصبية العرب. والخلافة والملك فى الطورين ملتبس بعضها ببعض. ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم وتلاشى أحوالهم، وبقى الأمر ملكا بحتًا كما كان الشأن فى ملوك العجم بالمشرق، يدينون بطاعة الخليفة تبركًا، والملك بجميع ألقابه ومناحيه لهم وليس للخليفة منه شىء، وكذلك فعل ملوك زناتة بالمغرب مثل صنهاجة مع العُبَيْديين ومغراوة وبنى يفرن أيضاً مع خلفاء بنى أمية بالأندلس والعُبَيْديين بالقيروان.

فقد تبين أن الخلافة قد وجدت بدون الملك أولا، ثم التبست معانيهما واختلطت، ثم انفرد الملك، حيث افترقت عصبيته من عصبية الخلافة. والله مقدر الليل والنهار، وهو الواحد القهار.

٢٩ ـ فصل فى معنى البيعة[٦٥ب]

أعلم أن البيعة هى العهد على الطاعة؛ كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر فى أمر نفسه وأمور المسلمين، لا ينازعه فى شىء من ذلك، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمَكْرَه[٦٥٠]. وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم فى يده تأكيدا للعهد؛ فأشبه ذلك فعل البائع والمشترى؛ فسمى بيعة، مصدر باع؛ وصارت البيعة مصافحة بالأيدى. هذا مدلولها فى عرف اللغة ومعهود الشرع، وهو المراد فى الحديث فى بيعة النبى صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة[٦٥١] وعند الشجرة[٦٥٢] وحيثما ورد هذا اللفظ، ومنه بيعة الخلفاء. ومنه أَيْمانُ البيعة: كان الخلفاء يستحلفون على العهد ويستوعبون الأيمان كلها لذلك، فسمى هذا الاستيعاب أَيْمَانَ البيعةِ، وكان الإكراه فيها أكثر وأغلب. ولهذا لما أفتى مالك رضى الله عنه بسقوط يمين الإكراه أنكرها الولاة

---

(٦٥٠) ما ينشط له الإنسان ويحبه وما يكرهه ويبغضه.

(٦٥١) بيعة العقبة الأولى كانت فى السنة الثانية عشرة من البعثة. فقد وافى مكة فى تلك السنة اثنا عشر رجلا من يثرب (المدينة) لقوا الرسول عليه السلام بالعقبة (وهى منزل فى طريق مكة على مقربة من منى بعد واقصة وقبل انفاع لمن يريد مكة. وهو ماء لبنى عكرمة من بكر بن وائل. انظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت) وبايعوه فى تلك الليلة على الإسلام وطاعة الرسول ومجانبة الشرك والسرقة والزنى وقتل الأولاد والبهتان. ـ وبيعة العقبة الثانية كانت فى السنة الثالثة عشرة من البعثة حيث خرج من يثرب ثلاثة وسبعون شخصاً من المسلمين الذين أسلموا حديثاً قاصدين مكة.. فاجتمعوا بالرسول عليه السلام بالعقبة ودعوه إلى الهجرة إلى يثرب وبايعوه على أنه نبيهم وزعيمهم وعلى أن يحموه ويقاتلوا دونه ويقاتلوا معه (انظر فى ذلك كتب السيرة والتاريخ الإسلامى).

(٦٥٢) هى البيعة التى ذكرها القرآن الكريم فى آية ١٨ من سورة الفتح (سورة ٤٨): ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ...﴾: قال البيضاوى فى تفسير هذه الآية: «روى أن رسول الله ﷺ لما نزل الحُدَيبية بعث جواس بن أمية الخزاعى إلى أهل مكة فَهَمُّوا به (عزموا على قتله) فمنعه الأحابيش (أى حموه منهم) فرجع. فبعث النبى عليه السلام عثمان بن عفان رضى الله عنه فحبسوه، فأُرْجِف بقتله. فدعا رسول الله ﷺ أصحابه وكانوا ألفا وثلثمائة أو أربعمائة أو خمسمائة وبايعهم على أن يقاتلوا قريشاً ولا يفروا عنهم. وكان جالساً تحت سَمُرة أو سِدْرَة»؛ ومن ثم سميت بيعة الشجرة.

عليه، ورأوها قادحة فى أيْمان البيعة، ووقع ما وقع من محنة الإمام رضى الله عنه[٦٥٣].

وأما البيعة المشهورة لهذا العهد فهى تحية الملوك الكسروية من تقبيل الأرض أو اليد أو الرجل أو الذيل، أطلق عليها اسم البيعة التى هى العهد على الطاعة مجازاً لما كان هذا الخضوع فى التحية والتزام الآداب من لوازم الطاعة وتوابعها، وغلب فيه حتى صارت حقيقة عرفية واستغنى بها عن مصافحة أيدى الناس التى هى الحقيقة فى الأصل لما فى المصافحة لكل أحد من التنزل والابتذال المنافيين للرياسة، وصون المنصب الملوكى إلا فى الأقل ممن يقصد التواضع من الملوك، فيأخذ به نفسه مع خواصه ومشاهير أهل الدين من رعيته.

فافهم معنى البيعة فى العرف؛ فإنه أكيد على الإنسان معرفته لما يلزمه من حق سلطانه وإمامه، ولا تكون أفعاله عبثاً ومَجَانًا [٣٨٣]؛ واعتبر ذلك من أفعالك مع الملوك. والله القوى العزيز.

---

(٦٥٣) نزلت هذه المحنة بالإمام مالك رضى الله عنه فى عهد أبى جعفر المنصور سنة ١٤٦ ، ١٤٧. وقد ضُرب فى هذه المحنة بالسياط، ومدت يده حتى انخلعت كتفاه. ــ وأصح الآراء فى سبب هذه المحنة أن الإمام كان يُحدِّث بحديث: «ليس على مُسْتَكْرَه طلاق» ، وأن مروِّجى الفتن اتخذوا من هذا الحديث حجة لبطلان بيعة أبى جعفر المنصور، وأن هذا ذاع وشاع فى وقت خروج محمد بن عبد الله ابن حسن النفس الزكية بالمدينة، وأن المنصور نهاه عن أن يُحدِّث بهذا الحديث، ثم دسَّ إليه من يسأله عنه، فحدث به على رءوس الناس. ولقد ظن ابن جرير المؤرخ أن مالكا كان بتحديثه يحرِّض على بيعة محمد بن عبد الله. فقد روى أن مالكا أفتى الناس بمبايعته؛ فقيل له: فإن فى أعناقنا بيعة المنصور؛ فقال: إنما كنتم مكرهين، وليس لمكره بيعة. فبايعه (أى محمد بن عبد الله) الناس عند ذلك عن قول مالك، ولزم مالك بيته. ــ والأكثرون من الرواة أن الذى أنزل المحنة بالإمام مالك هو جعفر بن سليمان والى المدينة. والظاهر أنه فعل ذلك من تلقاء نفسه؛ وإن كان هذا لا ينفى أنه فعله بعلم أبى جعفر المنصور ورضاه (انظر تفصيل هذا الموضوع فى كتاب «مالك» الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة، صفحات ٥٦ ــ ٦١).

٣٠ ـ فصل فى ولاية العهد [٥٦٥ب]

اعلم أنا قدمنا الكلام فى الإمامة ومشروعيتها لما فيها من المصلحة، وأن حقيقتها النظر فى مصالح الأمة لدينهم ودنياهم؛ فهو وليهم والأمين عليهم ينظر لهم ذلك فى حياته، ويتبع ذلك أن ينظر لهم بعد مماته، ويقيم لهم من يتولى أمورهم كما كان هو يتولاها، ويثقون بنظره لهم فى ذلك كما وثقوا به فيما قبل. وقد عرف ذلك من الشرع بإجماع الأمة على جوازه وانعقاده، إذ وقع بعهد أبى بكر رضى الله عنه لعمر بمحضر من الصحابة وأجازوه وأوجبوا على أنفسهم به طاعة عمر رضى الله عنه وعنهم. كذلك عهد عمر فى الشورى إلى الستة[٦٥٤]،

---

(٦٥٤) لمّا طُعن عمر رضى اللّه عنه دخل عليه نفر من الصحابة، فقالوا له: يا أمير المؤمنين لو استخلفت! قال: «.... إن أسْتَخْلفْ فقد استخلف من هو خير منى (يعنى أبا بكر إذ أوصى بالخلافة لعمر من بعده)؛ وإن أترك فقد ترك من هو خير منى (يعنى الرسول عليه السلام إذ توفى بدون أن يستخلف أحداً للإشراف على شئون المسلمين)؛ ولن يضيع اللّه دينه». فخرج هذا النفر من عنده بدون أن يقفوا على رأيه. ولكن الصحابة قد خشوا أن يقضى عمر نحبه بدون أن يبدى رأيه، فذهبوا إليه مرة أخرى، وقالوا: يا أمير المؤمنين لو عهدت عهداً! فقال عليكم بهؤلاء الرهط الذين مات رسول اللّه ﷺ وهو عنهم راض وقال فيهم إنهم من أهل الجنة: على بن أبى طالب؛ وعثمان ابن عفان؛ وسعد بن أبى وقاص؛ وعبد الرحمن بن عوف؛ والزبير بن العوام حوارىّ رسول اللّه وابن عمته؛ وطلحة بن عبيد اللّه؛ وعبد اللّه بن عمر؛ على ألا يكون لعبد اللّه بن عمر من الأمر شىء. وأوصى بأن تكون الخلافة للرجل الذى يقع عليه اختيار أغلبية الستة الأول (خمسة أو أربعة منهم). فإن تساوت الأصوات (بأن اختار ثلاثة منهم إماماً وثلاثة إماماً آخر) يُحَكَّم عبد اللّه بن عمر، فأىُّ الفريقين حكم له نفذ اختياره؛ فإن لم يرضوا بحكم عبد اللّه بن عمر تكون الخلافة لمن يقع عليه الاختيار من الفريق الذى فى صفه عبد الرحمن بن عوف (انظر الطبرى، جزء خامس، صفحتى ٣٤ ، ٣٥).

هذا، ويلاحظ أن المبشرين بالجنة عشرة من الصحابة كما سيأتى فى تعليق ٦٥٥، وكان الباقى منهم على قيد الحياة حينئذ سبعة، وقد سمى عمر ستة منهم ولم يسم سابعهم وهو سعيد بن زيد ابن عمر بن نفيل لقرابته منه (هو ابن ابن عم عمر) فلم يشأ أن يدخل فى مجلس الشورى أحداً من أهله، وقال فى ذلك: «لا أرب لى فى أموركم فأرغب فيها لأحد من أهلى». ـ ولما كان عمر قد عزل من قبل سعد بن أبى وقاص وخشى لذلك أن يظن الناس به سوءاً قال فى وصيته: «فإن أصابت الإمرة سعداً فهو ذاك، فإنى لم أعزله من عجز ولا خيانة».

بقية العشرة[٦٥٥]، وجعل لهم أن يختاروا للمسلمين ففوض بعضهم إلى بعض، حتى أفضى ذلك إلى عبد الرحمن بن عوف، فاجتهد وناظر المسلمين فوجدهم متفقين على عثمان وعلى على، فآثر عثمان بالبيعة على ذلك لموافقته إياه على لزوم الاقتداء بالشيخين[٥٩١] فى كل ما يعن دون اجتهاده[٦٥٦]، فانعقد أمر عثمان لذلك وأوجبوا طاعته. والملأ من الصحابة حاضرون للأولى والثانية[٦٥٧]، ولم ينكره أحد منهم. فدل على أنهم متفقون على صحة هذا العهد عارفون بمشروعيته. والإجماع حُجةٌ كما عرف.

ولا يُتَّهمُ الإمامُ فى هذا الأمر وإن عهد إلى أبيه أو ابنه لأنه مأمون على

---

(٦٥٥) هم العشرة المبشرون بالجنة، أى الذين بشرهم الرسول عليه الصلاة والسلام بالجنة؛ وذلك إذ يقول: «أبو بكر فى الجنة ؛ وعمر فى الجنة ؛ وعثمان فى الجنة ؛ وعلى فى الجنة ؛ وطلحة فى الجنة ؛ والزبير فى الجنة ؛ وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة ؛ وسعد بن أبى وقاص فى الجنة ؛ وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل فى الجنة ؛ وأبو عبيدة بن الجراح فى الجنة» (أخرجه أحمد والترمذى والبغوى فى مصابيح السنة وعدّة من الأحاديث الحسان. ـ هذا، وقد عهد عمر إلى الباقين منهم حينئذ على قيد الحياة ما عدا سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل لما تقدم ذكره فى تعليق ٦٥٤.

(٦٥٦) اجتمع النفر السابق ذكرهم فى تعليق ٦٥٤ فى بيت المِسْوَر بن مَخْرمَة «طلحة فإنه كان غائبًا. ولما ظهر بينهم التنافس اقترح عليهم عبد الرحمن بن عوف اقتراحاً يمنع هذا التنافس. فقال لهم: «أيكم يخرج نفسه منها على أن يوليها أفضلكم؟». فلم يجبه أحد. فقال: «فأنا أخلع منها نفسى». فرضى القوم بذلك وفوضوه أن يختار. فقضى ثلاثة أيام (وهى المدة التى حددها عمر قبل وفاته للتشاور، وأوصى ألا يأتِيَنَّ اليوم الرابع إلا وعلى المسلمين خليفة) يستشير الصحابة وأمراء الأجناد وأشراف الناس ويستشير أصحابه الآخرين الذين عينهم عمر. فكان بعضهم يشير بعلى وبعضهم يشير بعثمان. ولما انحصر الأمر بين هذين، دعا علياً وقال له: «عليك عهد اللَه وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده». قال: «أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى» (أى يعمل باجتهاده كذلك بدون تقيد بعمل الخليفتين من قبله). ثم دعا عثمان وأعاد عليه ما قاله لعلى. فقال: «نعم» (بدون زيادة ولا تحفظ). فآثره لذلك، وبايعه فى المسجد بحضرة بقية أصحابه ومن عداهم من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار وأمراء الأجناد (انظر الطبرى، جزء خامس صفحتى ٣٤ ، ٣٥).

(٦٥٧) الأولى هى عهد أبى بكر لعمر والثانية هى عهد عمر فى الشورى إلى الستة وما أفضى إليه هذا العهد من اختيار عثمان. ـ هذا، ويبدو لنا أن رأى ابن خلدون فى هذا الموضوع غير صحيح، وأن الخلافة الصحيحة فى نظر الإسلام هى ما كانت نتيجة بيعة حرة من المسلمين، وأن عمر وعثمان لم يستحقا الخلافة بالوصية كما ذهب ابن خلدون وإنما استحقاها بمبايعة المسلمين لهما. ولو لم يبايعهما المسلمون ما انعقدت لهما خلافة. وقد كان فى استطاعة المسلمين ألا يعملوا بوصية أبى بكر بشأن عمر ولا بما انتهى إليه مجلس الشورى بشأن عثمان. فرأى أبى بكر ورأى مجلس الشورى كانا رأيين استشاريين للمسلمين لا ملزمين لهم.

النظر لهم فى حياته، فأولى ألا يحتمل فيها تبعة بعد مماته، خلافًا لمن قال باتهامه فى الولد والوالد، أو لمن خصص التهمة بالولد دون الوالد، فإنه بعيد عن الظِّنَّة فى ذلك كله، لا سيما[١٦٧ب] إذا كانت هناك داعية تدعو إليه، من إيثار مصلحة أو توقع مفسدة فتنتفى الظنة عند ذلك رأسًا، كما وقع فى عهد معاوية لابنه يزيد، وإن كان فِعْلُ معاوية مع وفاق الناس له حجة فى الباب. والذى دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه إنما هو مراعاة المصلحة فى اجتماع الناس، واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد حينئذ من بنى أمية؛ إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم، وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم: فآثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصًا على الاتفاق واجتماع الأهواء الذى شأنه أهم عند الشارع؛ وإن كان لا يظن بمعاوية غير هذا فعدالته وصحبته مانعة من سوى ذلك. وحضور أكابر الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه؛ فليسوا ممن يأخذهم فى الحق هوادة، وليس معاوية ممن تأخذه العزة فى قبول الحق؛ فإنهم كلهم أجلُّ من ذلك، وعدالتهم مانعة منه. وفرارُ عبد الله بن عمر من ذلك إنما هو محمول على تورعه من الدخول فى شىء من الأمور مباحًا كان أو محظوراً، كما هو معروف عنه ولم يبق فى المخالفة لهذا العهد الذى اتفق عليه الجمهور إلا ابن الزبير؛ وندور المخالف معروف. ثم إنه وقع مثل ذلك من بعد معاوية من الخلفاء الذين كانوا يتحرون الحق ويعملون به مثل عبد الله وسليمان من بنى أمية، والسفاح والمنصور والمهدى والرشيد من بنى العباس، وأمثالهم ممن عُرِفَتْ عدالتهم وحُسْنُ رأيهم للمسلمين، والنظر لهم؛ ولا يعاب عليهم إيثار أبنائهم وإخوانهم، وخروجهم عن سنن الخلفاء الأربعة فى ذلك. فشأنهم غير شأن أولئك الخلفاء. فإنهم كانوا على حين لم تحدث طبيعة الملك، وكان الوازع دينياً، فعند كل أحد وازع من نفسه، فعهدوا إلى من يرتضيه الدين فقط وآثروه على غيره، ووكلوا كل من يسمو إلى ذلك إلى وازعه. وأما من بعدهم من لدن معاوية فكانت العصبية قد أشرفت على غايتها من الملك. والوازع الدينى قد ضعف واحتيج إلى الوازع السلطانى والعصبانى. فلو عهد إلى غير من ترتضيه العصبية لردت ذلك العهد، وانتقض أمره سريعا، وصارت الجماعة إلى الفرقة والاختلاف. سأل رجل عليّا رضى الله عنه: ما بال المسلمين

اختلفوا عليك، ولم يختلفوا على أبى بكر وعمر، فقال: لأن أبا بكر وعمر كانا واليين على مثلى وأنا اليوم وال على مثلك، يشير إلى وازع الدين. أفلا ترى إلى المأمون لما عهد إلى على ابن موسى بن جعفر الصادق وسماه الرضا[٦١٣، ٦٢١] كيف أنكرت العباسية ذلك، ونقضوا بيعته وبايعوا لعمه إبراهيم بن المهدى، وظهر من الهَرْج[٤٥٩ب] والخلاف. وانقطاع السبل وتعدد الثوار والخوارج ما كاد أن يصطلم[(٦٥٨)] الأمر، حتى بادر المأمون من خراسان إلى بغداد ورد أمرهم لمعاهده.[(٦٥٨ب)] فلابد من اعتبار ذلك فى العهد، فالعصور تختلف باختلاف ما يحدث فيها من الأمور والقبائل والعصبيات، وتختلف باختلاف المصالح، ولكل واحد منها حكم يخصه، لطفا من الله بعباده.

وأما أن يكون القصد بالعهد حفظ التراث على الأبناء فليس من المقاصد الدينية؛ إذ هو أمر من الله يخص به من يشاء من عباده، ينبغى أن تحسن فيه النية ما أمكن خوفًا من العبث بالمناصب الدينية. والملك لله يؤتيه من يشاء.

وعرض هنا أمور تدعو الضرورة إلى بيان الحق فيها:

(فالأول) منها ما حدث فى يزيد من الفسق أيام خلافته. فإياك أن تظن بمعاوية رضى الله عنه أنه علم ذلك من يزيد؛ فإنه أعدل من ذلك وأفضل؛ بل كان يعذُله أيام حياته فى سماع الغناء وينهاه عنه، وهو أقل من ذلك، وكانت مذاهبهم فيه مختلفة[(٦٥٩)]. ولما حدث فى يزيد ما حدث من الفسق اختلف الصحابة حينئذ فى شأنه، فمنهم من رأى الخروج عليه ونقض بيعته من أجل ذلك كما فعل الحسين وعبد الله بن الزبير رضى الله عنهما ومن اتبعهما فى ذلك. ومنهم من أباه لما فيه من إثارة الفتنة وكثرة القتل مع العجز عن الوفاء به؛ لأن شوكة يزيد يومئذ هى عصابة بنى أمية وجمهور أهل الحل والعقد من قريش، وتستتبع عصبية مضر أجمع، وهى أعظم من كل شوكة، ولا تطاق مقاومتهم؛ فأقصروا عن يزيد بسبب ذلك، وأقاموا على الدعاء بهدايته والراحة منه؛ وهذا كان شأن جمهور المسلمين. والكل مجتهدون، ولا يُنْكَر على أحد من الفريقين، فمقاصدهم فى البر وتحرى الحق معروفة. وفقنا الله للاقتداء بهم.

(٦٥٨) «اصطلمه استأصله» (القاموس). «الاصطلام الاستئصال» (مختار الصحاح).

(٦٥٨ب) انظر فى هذه القصة صفحات (٥٢٢، ٥٢٣ وتعليق ٦٢١).

(٦٥٩) وكانت مذاهب الفقهاء مختلفة فى جواز سماع الغناء؛ فبعضهم كان يجيزه ولا يرى فيه إثما. ومع ذلك فإن معاوية كان ينهى يزيد عن سماع الغناء ليحمله على الورع ويبعد به عن الشبهات.

(والأمر الثانى) هو شأن العهد من النبى ﷺ وما تدعيه الشيعة من وصيته لعلى رضى الله عنه. وهو أمر لم يصح ولا نقله أحد من أئمة النقل. والذى وقع فى الصحيح من طلب الدواة والقرطاس ليكتب الوصية وأن عمر منع من ذلك فدليل واضح على أنه لم يقع. وكذا قول عمر رضى الله عنه حين طُعن وسئل فى العهد فقال: «**إن أعهد فقد عهد من هو خير منى**» يعنى أبا بكر «**وإن أترك فقد ترك من هو خير منى**» يعنى أن النبى ﷺ لم يعهد[٦٥٤] وكذلك قول على للعباس رضى الله عنهما حين دعاه للدخول إلى النبى ﷺ يسألانه عن شأنهما فى العهد، فأبى على من ذلك، وقال إنه إن منعنا منها فلا نطمع فيها آخر الدهر؛ وهذا دليل على أن عليًا علم أنه لم يوص ولا عهد إلى أحد. وشبهة الإمامية فى ذلك إنما هى كون الإمامة من أركان الدين كما يزعمون، وليس كذلك؛ وإنما هى من المصالح العامة المفوضة إلى نظر الخلق. ولو كانت من أركان الدين لكان شأنها شأن الصلاة، ولكان يستخلف فيها كما استخلف أبا بكر فى الصلاة، ولكان يشتهر كما اشتهر أمر الصلاة. واحتجاج الصحابة على خلافة أبى بكر بقياسها على الصلاة فى قولهم «**ارتضاه رسول الله ﷺ لديننا أفلا نرضاه لدنيانا؟!**»، دليل على أن الوصية لم تقع. ويدل ذلك أيضًا على أن أمر الإمامة والعهد بها لم يكن مُهمّا كما هو اليوم، وشأن العصبية المراعاة فى الاجتماع والافتراق فى مجارى العادة لم يكن يومئذ بذلك الاعتبار؛ لأن أمر الدين والإسلام كان كله بخوارق العادة من تأليف القلوب عليه، واستماتة الناس دونه؛ وذلك من أجل الأحوال التى كانوا يشاهدونها فى حضور الملائكة لنصرهم، وتردد خبر السماء بينهم، وتجدد خطاب الله فى كل حادثة تتلى عليهم، فلم يحتج إلى مراعاة العصبية لما شمل الناس من صبغة الانقياد والإذعان وما يستفزهم من تتابع المعجزات الخارقة والأحوال الإلاهية الواقعة، والملائكة المترددة التى وجموا منها، ودهشوا من تتابعها. فكان أمر الخلافة والملك والعهد والعصبية وسائر هذه الأنواع مندرجًا فى ذلك القبيل، كما وقع. فلما انحسر ذلك المدد بذهاب تلك المعجزات، ثم بفناء القرون الذين شاهدوها، فاستحالت تلك الصبغة قليلا قليلا وذهبت الخوارق وصار الحكم للعادة كما كان. فاعتُبِر أمرُ العصبية ومجارى العوائد فيما ينشأ عنها من المصالح والمفاسد وأصبح الملك والخلافة والعهد بهما مهما من المهمات الأكيدة كما زعموا، ولم يكن ذلك من قبل.

فانظر كيف كانت الخلافة لعهد النبى ﷺ غير مهمة، فلم يعهد فيها. ثم تدرجت الأهمية زمان الخلافة بعض الشىء بما دعت الضرورة إليه فى الحماية والجهاد وشأن الردة والفتوحات، فكانوا بالخيار فى الفعل والترك كما ذكرنا عن عمر رضى الله عنه(٦٦٠). ثم صارت اليوم من أهم الأمور للألفة على الحماية، والقيام بالمصالح؛ فاعتبرت فيها العصبية التى هى سر الوازع عن الفرقة والتخاذل، ومنشأ الاجتماع والتوافق، الكفيل بمقاصد الشريعة وأحكامها.

(والأمر الثالث) شأن الحروب الواقعة فى الإسلام بين الصحابة والتابعين. فاعلم أن اختلافهم إنما يقع فى الأمور الدينية وينشأ عن الاجتهاد فى الأدلة الصحيحة والمدارك المعتبرة. والمجتهدون إذا اختلفوا: فإن قلنا إن الحق فى المسائل الاجتهادية واحد من الطرفين، ومن لم يصادفه مخطئ، فإن جهته لا تتعين بإجماع، فيبقى الكل على احتمال الإصابة، ولا يتعين المخطئ منهم، والتأثيم مدفوع عن الكل إجماعًا؛ وإن قلنا إن الكل على حق وإن كل مجتهد مصيب، فأحرى بنفى الخطأ والتأثيم. وغاية الخلاف الذى بين الصحابة والتابعين أنه خلاف اجتهادى فى مسائل دينية ظنية. وهذا حكمه.

والذى وقع من ذلك فى الإسلام إنما هو واقعة علىٍّ مع معاوية ومع الزبير وعائشة وطلحة، وواقعة الحسين مع يزيد، وواقعة ابن الزبير مع عبد الملك:

فأما واقعة(٦٦٠ب) علىٍّ فإن الناس كانوا عند مقتل عثمان مفترقين فى الأمصار، فلم يشهدوا بيعة على. والذين شهدوا فمنهم من بايع ومنهم من توقف حتى يجتمع الناس ويتفقوا على إمام كسعد، وسعيد، وابن عمر، وأسامة ابن زيد، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن سلام، وقُدامة بن مظعون، وأبى سعيد الخدرى، وكعب بن عُجْرَة، وكعب بن مالك، والنعمان بن بشير، وحسان ابن ثابت، ومسلمة بن مخلد، وفضالة بن عبيد، وأمثالهم من أكابر الصحابة.

---

(٦٦٠) يشير بذلك إلى قول عمر: «إن أعهد فقد عهد من هو خير منى» (يعنى أبا بكر) «وإن أترك فقد ترك من هو خير منى» (يعنى النبى صلى الله عليه وسلم). انظر تعليق ٦٥٤.

(٦٦٠ب) يقصد واقعتيه مع معاوية من جهة ومع عائشة وطلحة والزبير من جهة أخرى.

والذين كانوا في الأمصار عدلوا عن بيعته أيضاً إلى الطلب بدم عثمان وتركوا الأمر فوضى، حتى يكون شورى بين المسلمين لمن يولونه. وظنوا بعلي هوادة في السكوت عن نصر عثمان من قاتليه، لا في الممالأة عليه، فحاش لله من ذلك. ولقد كان معاوية إذا صرح بملامته يوجهها عليه في سكوته فقط. ثم اختلفوا بعد ذلك، فرأى علي أن بيعته قد انعقدت، ولزمت من تأخر عنها باجتماع من اجتمع عليها بالمدينة دار النبي صلى الله عليه وسلم ومواطن الصحابة، وأرجأ الأمر في المطالبة بدم عثمان إلى اجتماع الناس واتفاق الكلمة، فيتمكن حينئذ من ذلك. ورأى الآخرون أن بيعته لم تنعقد لافتراق الصحابة أهل الحل والعقد بالآفاق، ولم يحضر إلا قليل ولا تكون البيعة إلا باتفاق أهل الحل والعقد، ولا تلزم بعقد من تولاها من غيرهم أو من القليل منهم، وأن المسلمين حينئذ فوضى، فيطالبون أولا بدم عثمان ثم يجتمعون على إمام. وذهب إلى هذا معاوية، وعمرو بن العاص، وأم المؤمنين عائشة، والزبير، وابنه عبد الله. وطلحة، وابنه محمد، وسعد، وسعيد، والنعمان بن بشير، ومعاوية بن خديج، ومن كان على رأيهم من الصحابة الذين تخلفوا عن بيعة عليّ بالمدينة كما ذكرنا. إلا أن أهل العصر الثاني من بعدهم اتفقوا على انعقاد بيعة علي ولزومها للمسلمين أجمعين، وتصويب رأيه فيما ذهب إليه وتعيُّن الخطأ من جهة معاوية ومن كان على رأيه، وخصوصاً طلحة والزبير لانتقاضهما على عليّ بعد البيعة له فيما نُقل، مع دفع التأثيم عن كل من الفريقين، كالشأن في المجتهدين. وصار ذلك إجماعًا من أهل العصر الثاني على أحد قولي أهل العصر الأول، كما هو معروف، ولقد سئل علي رضي الله عنه عن قتلى الجمل[٦٦١] وصِفِّين[٢٢٧]، فقال: «والذي نفسي بيده لا يموتن أحد من هؤلاء وقلبه نقي إلا دخل الجَنة» يشير إلى الفريقين؛ نقله الطبري وغيره. فلا يقعن عندك ريب في عدالة أحد منهم ولا قدح في شيء من ذلك، فهم مَنْ علمتَ، وأقوالهم وأفعالهم إنما هي عن المستندات، وعدالتهم مفروغ منها عند أهل السنة إلا قولا للمعتزلة فيمن قاتل عليًا لم يلتفت إليه أحد من أهل الحق ولا عرَّج عليه.

وإذا نظرت بعين الإنصاف عذرت الناس أجمعين في شأن الاختلاف في

(٦٦١) موقعة الجمل موقعة شهيرة نشبت بين عائشة وعلي. وكانت عائشة تقود الجيش في هودجها على جمل، فسميت موقعة الجمل. وكان يناصرها في ذلك طلحة والزبير، وقد قتلا في هذه المعركة.

عثمان، واختلاف الصحابة من بعد، وعلمت أنها كانت فتنة ابتلى الله بها الأمة، بينما المسلمون قد أذهب الله عدوهم وملَّكهم أرضهم وديارهم، ونزلوا الأمصار على حدودهم بالبصرة والكوفة والشام ومصر. وكان أكثر العرب الذين نزلوا هذه الأمصار جفاة لم يستكثروا من صحبة النبى صلى الله عليه وسلم، ولا هذبتهم سيرته وآدابه ولا ارتاضوا بخلقه، مع ما كان فيهم فى الجاهلية من الجفاء والعصبية والتفاخر والبعد عن سكينة الإيمان وإذا بهم عند استفحال الدولة قد أصبحوا فى مَلَكَة المهاجرين والأنصار من قريش وكنانة وثقيف وهذيل وأهل الحجاز ويثرب السابقين الأولين إلى الإيمان، فاستنكفوا من ذلك وغصُّوا[٩٩] به لما يرون لأنفسهم من التقدم بأنسابهم وكثرتهم، ومصادمة فارس والروم، مثل قبائل بكر بن وائل وعبد القيس بن ربيعة وقبائل كِنْدَة والأزْد من اليمن وتميم وقيس من مضر. فصاروا إلى الغض من قريش والأنفة عليهم، والتمريض[٦٦٢] فى طاعتهم، والتعلل فى ذلك بالتظلم منهم والاستعداء[٦٦٢] عليهم، والطعن فيهم بالعجز عن السَّوِيَّة [٦٦٣]، والعدول فى القَسْم عند التسوية [٦٦٤]، وفشت المقالة بذلك، وانتهت إلى المدينة، وهم من علمت. فأعظموه وأبلغوه عثمان، فبعث إلى الأمصار من يكشف له الخبر. بعث ابن عمر ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد وأمثالهم فلم ينكروا على الأمراء شيئاً ولا رأوا عليهم طعناً، وأدوا ذلك كما علموه. فلم ينقطع الطعن من أهل الأمصار. ومازالت الشناعات تنمو. ورمى الوليد بن عقبة وهو على الكوفة بشرب الخمر، وشهد عليه جماعة منهم، وحَدَّه[٦٦٥] عثمان وعزله. ثم جاء إلى المدينة من أهل الأمصار يسألون عزل العمال، وشكوا إلى عائشة وعلى والزبير وطلحة، وعزل لهم عثمان بعض العمال. فلم تنقطع بذلك ألسنتهم؛ بل وفد سعيد بن العاص وهو على الكوفة، فلما رجع اعترضوه بالطريق وردوه معزولا. ثم انتقل الخلاف بين عثمان ومن معه من الصحابة بالمدينة ونقموا عليه امتناعه عن العزل، فأبى إلا أن يكون على جَرْحَةٍ.[٦٦٦] ثم نقلوا النكير إلى غير ذلك من أفعاله

---

(٦٦٢) من معانى التمريض التوهين والإضعاف (القاموس). وهذا المعنى هو المقصود فى عبارة ابن خلدون.

(٦٦٣) السَّوِيَّة الاستواء والاستقامة يقال هم على سوِيَّة أى استواء (القاموس).

(٦٦٤) أى ينحرفون عن التسوية بين الناس حينما يقسمون بينهم.

(٦٦٥) أى أنفذ فيه حدّ الخمر، وهو ثمانون سوطا.

(٦٦٦) الجُرْحة ما تسقط به عدالة الإنسان. يقال: جَرَّح الشاهدَ، أى أسقط عدالته. ومعنى العبارة أن عثمان قد أبى أن يعزل أى عامل أو وال (أو أبَى أن يعزل سعيد بن العاص، إذا كان الكلام منصباً على هذا الوالى بالذات) إلا إذا ثبت لديه أنه اقترف ما تسقط به عدالته.

وهو متمسك بالاجتهاد، وهم أيضًا كذلك. ثم تجمع قوم من الغوغاء وجاءوا إلى المدينة يظهرون طلب النَّصَفَة[٥٧٢] من عثمان وهم يضمرون خلاف ذلك من قتله. وفيهم من البصرة والكوفة ومصر، وقام معهم فى ذلك على وعائشة والزبير وطلحة وغيرهم، يحاولون تسكين الأمور ورجوع عثمان إلى رأيهم. وعزل لهم عامل مصر فانصرفوا قليلا. ثم رجعوا وقد لبَّسوا[٥٠٩] بكتاب مُدَلَّس يزعمون أنهم لقوه فى يد حامله إلى عامل مصر بأن يقتلهم، وحلف عثمان على ذلك؛ فقالوا مَكِّنَّا من مروان فإنه كاتبك، فحلف مروان؛ فقال عثمان ليس فى الحكم أكثر من هذا. فحاصروه بداره ثم بَيَّتوه[٦٦٧] على حين غفلة من الناس وقتلوه. وانفتح باب الفتنة.

فلكل من هؤلاء عذر فيما وقع. وكلهم كانوا مهتمين بأمر الدين ولا يضيعون شيئًا من تعلقاته. ثم نظروا بعد هذا الواقع واجتهدوا. والله مطلع على أحوالهم وعالم بهم. ونحن لا نظن بهم إلا خيرًا لما شهدت به أحوالهم، ومقالات الصادق فيهم.

وأما الحسين فإنه لما ظهر فسق يزيد عند الكافة من أهل عصره بعثت شيعة أهل البيت بالكوفة للحسين أن يأتيهم فيقوموا بأمره. فرأى الحسين أن الخروج على يزيد متعين من أجل فسقه لاسيما[٦٦٧ب] من له القدرة على ذلك، وظنها من نفسه بأهليته وشوكته: فأماالأهلية فكانت كما ظن وزيادة. وأما الشوكة فغلط يرحمه الله فيها؛ لأن عصبية مضر كانت فى قريش، وعصبية قريش فى عبد مناف، وعصبية عبد مناف إنما كانت فى بنى أمية، تعرف ذلك لهم قريش وسائر الناس، ولا ينكرونه[٦٦٧ب]. وإنما نسى ذلك أول الإسلام لما[٤٤٥] شغل الناس من الذهول بالخوارق وأمر الوحى وتردد الملائكة لنصرة المسلمين. فأغفلوا أمور عوائدهم وذهبت عصبية الجاهلية ومنازعها ونسيت، ولم يبق إلا العصبية الطبيعية فى الحماية والدفاع ينتفع بها فى إقامة الدين وجهاد المشركين، والدين فيها مُحَكَّمٌ والعادة معزولة. حتى إذا انقطع أمر النبوة والخوارق المهولة تراجع الحكم بعض الشىء للعوائد؛ فعادت العصبية كما كانت ولمن كانت، وأصبحت مضر أطوع لبنى أمية من سواهم بما كان لهم من ذلك قبل.

---

(٦٦٧) بَيَّت فلانًا أو العدوَّ أوقع به ليلا، وبَيَّت الأمرَ دبَّره ليلاً (القاموس). والمعنى الأول هو المقصود؛ لأن ضمير المفعول يعود على عثمان.

(٦٦٧ب) هذا غير صحيح. فقد كانت رياسة قريش فى بنى هاشم قبل الإسلام. فكان عبد المطلب جد الرسول عليه السلام هو سيد قريش، ومن بعده عمه أبو طالب.

فقد تبين لك غلط الحسين؛ إلا أنه فى أمر دنيوى لا يضره الغلط فيه. وأما الحكم الشرعى فلم يغلط فيه لأنه منوط بظنه؛ وكان ظنه القدرة على ذلك. ولقد عزله ابن العباس وابن الزبير وابن عمر وابن الحنفية [٥٩٨] أخوه وغيره فى مسيره إلى الكوفة، وعلموا غَلَطه فى ذلك ولم يرجع عما هو بسبيله، لما أراده الله.

وأما غير الحسين من الصحابة الذين كانوا بالحجاز ومع يزيد بالشام والعراق ومن التابعين لهم، فرأوا أن الخروج على يزيد وإن كان فاسقًا لا يجوز لما ينشأ عنه من الهرْج [٤٥٩ب] والدماء فأقصروا عن ذلك ولم يتابعوا الحسين، ولا أنكروا عليه ولا أثَّمُوه، لأنه مجتهد وهو أسوة المجتهدين.

ولا يذهب بك الغلط أن تقول بتأثيم هؤلاء بمخالفة الحسين وقعودهم عن نصره. فإنهم أكثر الصحابة وكانوا مع يزيد ولم يروا الخروج عليه، وكان الحسين يستشهد بهم وهو يقاتل بكربلاء على فضله وحقه، ويقول سلوا جابر بن عبد الله وأبا سعيد الخدرى وأنس بن مالك وسهل بن سعيد وزيد ابن أرقم وأمثالهم. ولم ينكر عليهم قعودهم عن نصره ولا تعرض لذلك، لعلمه أنه عن اجتهاد منهم كما كان فعله عن اجتهاد منه. وكذلك لا يذهب بك الغلط أن تقول بتصويب قتله لما كان عن اجتهاد وإن كان هو على اجتهاد، ويكون ذلك كما يَحُدُّ [٦٦٥] الشافعىُّ والمالكىُّ الحنفىَّ على شرب النبيذ (٦٦٨). واعلم أن الأمر ليس كذلك، وقتاله لم يكن عن اجتهاد هؤلاء وإن كان خلافُه (٦٦٩) عن اجتهادهم. وإنما انفرد بقتاله يزيد وأصحابه. ولا تقولن إن يزيد وإن كان فاسقًا ولم يجز هؤلاء الخروج عليه فأفعاله عندهم صحيحة. واعلم أنه إنما ينفذ من أعمال الفاسق ما كان مشروعًا. وقتال البغاة عندهم من شرطه أن يكون مع الإمام العادل، وهو مفقود فى

---

(٦٦٨) يقول الحنفىّ بجواز شرب النبيذ بالقيود والأوصاف والأوضاع التى ذكرناها فى تعليقى ٨٦ و٨٧؛ ولا يقول بذلك الشافعى ولا المالكى. فإذا أنفذ قاض شافعى أو مالكى الحدَّ فى حنفىّ شَرِبَ النبيذ، فإن القاضى والمحكوم عليه كليهما لا يكونان آثمين، أما القاضى فلأن شرب النبيذ حرام فى مذهبه، ويجب فى نظره تنفيذ الحدّ فى شاربه. وأما الشارب فلأنه حلال فى مذهبه. ـ فمعنى عبارة ابن خلدون: لا يصح أن يذهب بك الغلط إلى أن ترى أن قتل الحسين كان عن اجتهاد من يزيد كما أن خروجه على يزيد كان عن اجتهاد منه، فلا يكون أحدهما آثما، ويكون شأنهما شأن الشافعى أو المالكى إذا حدّ الحنفىَّ على شرب النبيذ.

(٦٦٩) أى وإن كان خلافهم معه أى اختلافهم معه وذهابهم إلى تأييد يزيد كان عن اجتهاد منهم.

مسألتنا(٦٧٠) فلا يجوز قتال الحسين مع يزيد ولا ليزيد، بل هى من فعْلاته المؤكِّدة لفسقه؛ والحسين فيها شهيد مثاب، وهو على حق واجتهاد، والصَحابة الذين كانوا مع يزيد على حق أيضًا واجتهاد.

وقد غلط القاضى أبو بكر بن العربى المالكى فى هذا فقال فى كتابه الذى سماه بالعواصم والقواصم ما معناه أن الحسين قتل بشرعِ جده: وهو غلط حملته عليه الغفلة عن اشتراط الإمام العادل(٦٧٠)؛ ومَنْ أعدلُ من الحسين فى زمانه فى إمامته وعدالته فى قتال أهل الآراء؟!.

وأما ابن الزبير فإنه رأى فى قيامه(٦٧١) ما رآه الحسين وظن كما ظن؛ وغلطه فى أمر الشوكة أعظم؛ لأن بنى أسد(٦٧٢) لا يقاومون بنى أمية(٦٧٣) فى جاهلية ولا إسلام. والقول بتعين الخطأ فى جهة مخالفة كما كان فى جهة معاوية مع علىٍ لا سبيل إليه لأن الإجماع هنالك قضى لنا به(٦٧٤) ولم نجده ههنا. وأما يزيد فعيَّن خطأَه فسقُه. وعبد الملك صاحب ابن الزبير أعظم الناس عدالة. وناهيك بعدالته احتجاج مالك بفعله(٦٧٥) وعدول ابن عباس وابن عمر إلى بيعته عن ابن الزبير وهم معه بالحجاز؛ مع أن الكثير(٦٧٦) من الصحابة كانوا يرون أن بيعة ابن الزبير لم تنعقد، لأنه لم يحضرها أهل العقد والحل كبيعة مروان؛ وابنُ الزبير على خلاف ذلك؛ والكل مجتهدون محمولون على الحق فى الظاهر؛ وإن لم يتعين فى جهة منهما. والقتل الذى نزل به(٦٧٧) بعد تقرير ما قررناه يجىء على قواعد الفقه وقوانينه(٦٧٠)؛ مع أنه شهيد مثاب باعتبار قصده وتحريه الحق.

---

(٦٧٠) البغاة هم من يخرجون على الإمام. ولا يجوز قتالهم عند فقهاء المسلمين إلا إذا كان الإمام عادلا. وهذا الشرط مفقود فى يزيد.انظر حكم البغاة فى كتب الفقه. وأصله قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ . . .﴾. (آية ٩ من سورة الحجرات وهى سورة ٤٩).

(٦٧١) ضد خلفاء بنى أمية.

(٦٧٢) وهم رهط عبد الله بن الزبير.

(٦٧٣) وهم رهط معاوية ومن تولى الخلافة بعده فى حياة ابن الزبير.

(٦٧٤) انظر صفحة ٥٩٧: «إلا أن أهل العصر الثانى من بعدهم اتفقوا على انعقاد بيعة على ولزومها للمسلمين أجمعين وتصويب رأيه فيما ذهب إليه، وتَعَيُّن الخطأ من جهة معاوية ومن كان على رأيه ..إلخ».

(٦٧٥) احتج مالك بن أنس بفعل عبد الملك بن مروان فى تقرير حكم فقهى.

(٦٧٦) كان الأوضح أن يقول: هذا إلى أن الكثير... إلخ.

(٦٧٧) الذى نزل بعبد الله بن الزبير، فقد قتله الحجاج بن يوسف بأمر عبد الملك ابن مروان.

هذا هو الذى ينبغى أن تحمل عليه أفعال السلف من الصحابة والتابعين، فهم خيار الأمة، وإذا جعلناهم عُرْضة للقدح فمن الذى يختص بالعدالة، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول: «**خير الناس قرنى ، ثم الذين يلونهم مرتين أو ثلاثا ثم يفشو الكذب**»، فجعل الخيرة وهى العدالة مختصة بالقرن الأول والذى يليه. فإياك أن تعوِّد نفسك أو لسانك التعرُّض لأحد منهم، ولا تُشوِّشْ قلبك بالرَّيْب فى شىء مما وقع منهم؛ والتمس لهم مذاهبَ الحق وطُرُقه ما استطعت فهم أولى الناس بذلك؛ وما اختلفوا إلا عن بيِّنة، وما قاتلوا أو قتلوا إلا فى سبيل جهاد أو إظهار حق، واعتقد مع ذلك أن اختلافهم رحمةٌ لمن بَعْدَهم من الأمة، ليقتدى كل واحد بمن يختاره منهم، ويجعله إمامه وهاديه ودليله. فافهم ذلك، وتبين حكمة الله فى خلقه وأكوانه، واعلم أنه على كل شىء قدير وإليه الملجأ والمصير. والله تعالى أعلم.

٣١ ـ فصل فى الخُططِ [٣٥٦] الدينية الخلافية [٦٥ب]

لما تبين[(٦٧٨)] أن حقيقة الخلافة نيابة عن صاحب الشرع فى حفظ الدين وسياسة الدنيا، فصاحب الشرع متصرف فى الأمرين: أما فى الدين فمقتضى التكاليف الشرعية التى هو مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها؛ وأما سياسة الدنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم فى العمران البشرى. وقد قدمنا [٦٧٨] أن هذا العمران ضرورى للبشر وأن رعاية مصالحه كذلك لئلا يفسد إن أهملت؛ وقدمنا أن الملك وسطوته كاف فى حصول هذه المصالح. نعم إنما تكون أكمل إذا كانت بالأحكام الشرعية لأنه[(٦٧٩)] أعلم بهذه المصالح. فقد صار الملك يندرج تحت الخلافة إذا كان إسلاميا ويكون من توابعها. وقد ينفرد إذا كان فى غير الملة. وله كل حال مراتب خادمة ووظائف تابعة تتعين خُطَطاً [٣٥٦]، وتتوزع على رجال

---

(٦٧٨) فى الفصل الخامس والعشرين من هذا الباب، وعنوانه: «فصل فى معنى الخلافة والإمامة». والموضوع الذى يحيل عليه ملخص فى آخر ذلك الفصل.

(٦٧٩) أى لأن الشارع وهو الله تعالى أعلم بهذه المصالح (فالضمير يعود على معلوم لا على مذكور قبل ذلك) ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ (آية ٣٢ من سورة ص وهى سورة ٣٨). فالضمير فى الآية يعود على الشمس للعلم بها مع أنها لم تذكر فى الآيات السابقة.

الدولة وظائف، فيقوم كل واحد بوظيفته حسبما يعينه الملك الذى تكون يده عالية عليهم، فيتم بذلك أمره، ويحسن قيامه بسلطانه. وأما المنصب الخلافى وإن كان الملك يندرج تحته بهذا الاعتبار الذى ذكرناه فتصرفه الدينى يختص بخُطَط[٣٠٦] ومراتب لا تُعْرف إلا للخلفاء الإسلاميين. فلنذكر الآن الخُطَط[٣٥٦] الدينية المختصة بالخلافة، ونرجع إلى الخطط الملوكية السلطانية.

فاعلم أن الخُطَطَ الدينية الشرعية من الصلاة والفُتْيا والقضاء والجهاد والحسْبة كلها مندرجة تحت الإمامة الكبرى التى هى الخلافة، فكأنها الإمام الكبيِر والأصل الجامع، وهذه كلها متفرعة عنها وداخلة فيها لعموم نظر الخلافة وتصرفها فى سائر أحوال الملة الدينية والدنيوية، وتنفيذ أحكام المشرع فيها على العموم.

(فأما إمامة الصلاة) فهى أرفع هذه الخُطَط كلها وأرفع من المُلْك بخصوصه المندرج معها تحت الخلافة. ولقد يشهد لذلك استدلال الصحابة فى شأن أبى بكر رضى اللّه عنه باستخلافه فى الصلاة على استخلافه فى السياسة فى قولهم ارتضاه رسول اللّه ﷺ لديننا، أفلا نرضاه لدنيانا؟! فلولا أن الصلاة أرفع من السياسة لما صح القياس. وإذا ثبت ذلك فاعلم أن المساجد فى المدينة صنفان: مساجد عظيمة كثيرة الغاشية[٦٨٠] معدة للصلوات المشهودة؛ وأخرى دونها مختصة بقوم أو محلة وليست للصلوات العامة. فأما المساجد العظيمة فأمرها راجع إلى الخليفة أو من يفوض إليه من سلطان أو وزير أو قاض، فينصب لها الإمام فى الصلوات الخمس والجمعة والعيدين والخسوفين والاستسقاء. وتعيُّنُ ذلك إنما هو من طريق الأَوْلى والاستحسان ولئلا يفتات الرعايا عليه[٦٨١] فى شىء من النظر فى المصالح العامة. وقد يقول بالوجوب فى ذلك من يقول بوجوب إقامة الجمعة، فيكون نصب الإمام لها عنده واجبًا. وأما المساجد المختصة بقوم أو محلة فأمرها راجع إلى الجيران ولا تحتاج إلى نظر خليفة ولا سلطان. وأحكام هذه الولاية وشروطها والمولى فيها معروفة فى كتب الفقه ومبسوطة فى كتب الأحكام السلطانية للماوردى وغيره، فلا نُطَوِّل بذكرها. ولقد كان الخلفاء الأولون لا يقلدونها لغيرهم من الناس. وانظر من طُعن من

---

(٦٨٠) الغاشية أى من يغشاها من الناس(من القاموس).

(٦٨١) افتات عليه عمل بدون أمره(من القاموس).

الخلفاء فى المسجد عند الأذان بالصلاة وترصدهم لذلك فى أوقاتها، يشهد لك ذلك بمباشرتهم لها وأنهم لم يكونوا يستخلفون فيها. وكذا كان رجال الدولة الأموية من بعدهم استئثاراً بها واستعظاماً لرتبتها. يحكى عن عبد الملك أنه قال لحاجبه قد جعلت لك حجابة بابى إلا عن ثلاثة: صاحب الطعام فإنه يفسد بالتأخير؛ والآذن بالصلاة فإنه داع إلى اللّه؛ والبريد فإن فى تأخيره فساد القاصية. فلما جاءت طبيعة الملك وعوارضه من الغلظة والترفع عن مساواة الناس فى دينهم ودنياهم، استنابوا فى الصلاة، فكانوا يستأثرون بها فى الأحيان وفى الصلوات العامة كالعيدين والجمعة إشادةً وتنويها. فعل ذلك كثير من خلفاء بنى العباس والعُبَيْديين[٦١٧] صدر دولتهم.

(وأما الفُتْيا) فللخليفة تصفح أهل العلم والتدريس، وردُّ الفتيا إلى من هو أهل لها وإعانته على ذلك، ومَنعُ من ليس أهلا لها وزجره؛ لأنها من مصالح المسلمين فى أديانهم، فتجب عليه مراعاتها، لئلا يتعرض لذلك من ليس له بأهل فيُضلَّ الناسَ. وللمدرس الانتصاب لتعليم المعلم وبثه والجلوس لذلك فى المساجد: فإن كانت من المساجد العظام، التى للسلطان الولاية عليها أو النظر فى أئمتها كما مرَّ، فلابد من استئذانه فى ذلك؛ وإن كانت من مساجد العامة فلا يتوقف ذلك على إذن. على أنه ينبغى أن يكون لكل أحد من المفتين والمدرسين زاجر من نفسه يمنعه عن التصدى لما ليس له بأهل فَيُدِلُّ[٢٧٠] به المستهدى ويضل به المسترشد. وفى الأثر: «**أجرؤكم على الفتْيا أجرؤكم على جرائيم جهنم**». فللسلطان فيهم لذلك من النظر ما توجبه المصلحة من إجازة أو رد.

(وأما القضاء) فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة لأنه منصب الفصل بين الناس فى الخصومات حسما للتداعى وقطعاً للتنازع؛ إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة؛ فكان لذلك من وظائف الخلافة ومندرجًا فى عمومها. وكان الخلفاء فى صدر الإسلام يباشرونه بأنفسهم ولا يجعلون القضاء إلى من سواهم. وأول من دفعه إلى غيره وفوضه فيه عمر رضى اللّه عنه، فولى أبا الدرداء معه بالمدينة، وولى شُرَيْحا بالبصرة، وولى أبا موسى الأشعرى بالكوفة. وكتب له فى ذلك الكتاب المشهور الذى تدور عليه أحكام القضاة وهى مستوفاة فيه[٦٨٢].

---

(٦٨٢) روى هذا الكتاب أبو عبيد؛ قال حدثنا كثير بن هاشم عن جعفر بن برقان، وقال أبو نعيم عن جعفر بن برقان بن معمر البصرى عن أبى العوام قال كتب عمر إلى أبى موسى «أما بعد فإن =

يقول: «أما بعد فإن القضاء فريضة مُحْكَمَةٌ، وسنة مُتَّبَعةٌ، فافهم إذا أُدِّى[٦٨٣] إليك،[٦٨٤] فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له. وآس[٦٨٥] بين الناس فى وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف فى حَيْفك[٦٨٦]، ولا ييأس ضعيف من عدلك. البينة على من ادعى واليمين على من أنكر. والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا

= القضاء... إلخ». قال أبو عبيد فقلت لكثير هل أسنده جعفر (أى هل ذكر جعفر سندًا لهذا الحديث). قال لا. وقال ابن القيّم فى كتابه «أعلام الموقعين» بعد أن روى هذا الاسناد وأثبت نص الكتاب: «وهذا الكتاب الجليل تلقاه العلماء بالقبول وبنوا عليه أصول الحكم والشهادة، والحاكم والمفتى أحوج شىء إليه وإلى تأمله والتفقه فيه». ثم شرحه شرحا وافيا فى الجزأين الأول والثانى من كتاب «أعلام الموقعين». وقد أورده كذلك أبو العباس المبرد فى الجزء الأول من كتابه «الكامل» وصدَّره بالعبارة الآتية: «ومن ذلك رسالته (رسالة عمر) فى القضاء إلى أبى موسى الأشعرى، وهى التى جمع فيها جمل الأحكام، واختصرها بأجود الكلام، وجعل الناس بعده يتخذونها إماما، ولا يجد مُحق عنها معدلا، ولا ظالم عن حدودها محيصا، وهى: بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبدالله بن قيس، سلام عليك، أما بعد، فإن القضاء فريضة محكمة... إلخ». ثم ذكر نص الكتاب وشرحه شرحاً وافياً.

هذا، ولما كان هذا الكتاب يبيح القياس والرأى إذ يقول: «ثم اعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور بنظائرها»، وهو ما لا يقول به الظاهرية الذين يقفون عند ظاهر النص، لذلك طعن هؤلاء فى صحته، وقطعوا بأنه مكذوب. وعلى رأس الظاهرية الإمام ابن حزم الأندلسى. فقد حمل على هذه الرسالة حملة منكرة وقال عنها: «إنها مكذوبة موضوعة؛ لأنه لم يروها إلا عبدالملك بن الوليد بن معدان عن أبيه وهو ساقط بلا خلاف وأبوه أسقط منه أو هو ممن مثله فى السقوط». (والإسناد الذى ذكره ابن حزم يختلف عما ذكره ابن القيم).

غير أن العلماء لم يعولوا على رأى الظاهرية ولا على طعن ابن حزم مع أنه معروف بالتبحر فى السنة وطرقها.

وقد حقق هذا الموضوع حديثاً الأستاذ محمود بن محمد بن عرنوس القاضى بمحاكم مصر الشرعية فى كتابه «تاريخ القضاء فى الإسلام» فرجح أن تكون هذه الرسالة موضوعة معتمدا فى ذلك على دليل تاريخى، وهو أن أبا موسى الأشعرى لم يتول قضاء الكوفة فى عهد عمر، ورواة الرسالة يقولون إن عمر قد بعث بها إلى أبى موسى الأشعرى لما ولاه قضاء الكوفة (انظر عبارة ابن خلدون نفسها)، وإنما كان قاضيها فى ذلك العهد شريحًا، وأن أبا موسى لم يل الكوفة إلا فى خلافة عثمان (انظر صفحات ١٢ - ١٦ من كتاب «تاريخ القضاء» للأستاذ محمود بن محمد بن عرنوس).

(٦٨٣) رواية المبرد: «فافهم إذا أدلى إليك». يقال أدلى فلان بحجته وبدفاعه إذا قدم حجته ودفاعه؛ وأدلى بماله إلى الحاكم دفعه إليه رشوة، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة ١٨٨).

(٦٨٤) ورواية ابن القيم: «فافهم إذا أدلى إليك، وأنْفِذْ إذا تبين لك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له». والكلام على هذه الرواية متسق مفهوم. أما على رواية ابن خلدون، وهى كذلك رواية المبرد، فتكون جملة: «فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له» تفريعًا على محذوف.

(٦٨٥) هكذا فى جميع النسخ، والروايات كلها على حذف واو العطف فى أول هذا الفعل. ومعنى «آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك» سوِّ بينهم فى هذا كله واجعل بعضهم آسوة بعض.

(٦٨٦) حتى لا يطمع شريف فى أن تجور فى الحكم من أجله وأن تميل معه لشرفه.

أحل حرامًا أو حرم حلالا. ولا يمنعك قضاء قضيتَه أمس،[٦٨٧] فراجعت اليوم فيه عقلك، وهديت فيه لرشدك، أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم[٦٨٨]، ومراجعةَ الحق خير من التمادى فى الباطل. الفهمَ الفهمَ فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة. ثم اعرف الأمثال والأشباه؛ وقس الأمور بنظائرها. واجعل لمن ادعى حقًا غائبًا أو بينة أمدًا ينتهى إليه، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه، وإلا استحللت القضية عليه؛ فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى. المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حَدّ،[٦٨٩] أو مجربا عليه شهادة زور، أو ظنينًا فى نسب أو ولاء؛ فإن الله سبحانه عفا عن الأيمان[٦٩٠]، ودرأ بالبينات. وإياك والقلق[٦٩١] والضجر والتأفف بالخصوم؛ فإن استقرار الحق فى مواطن الحق يعظِّم الله به الأجر ويحسن به الذكر[٦٩٢] والسلام». انتهى كتاب عمر.

وإنما كانوا يقلدون القضاء لغيرهم وإن كان مما يتعلق بهم، لقيامهم بالسياسة العامة وكثرة أشغالها، من الجهاد والفتوحات وسد الثغور[٤٦٦] وحماية البيضة[٦٩٣]، ولم يكن ذلك مما يقوم به غيرهم لعظم العناية. فاستخفوا القضاء فى الواقعات بين الناس، واستخلفوا فيه من يقوم به تخفيفاً على أنفسهم. وكانوا مع ذلك إنما يقلدونه أهل عصبيتهم بالنسب أو الولاء ولا يقلدونه لمن بعد عنهم فى ذلك.

---

(٦٨٧) روايتا ابن القيم والمبرد: «ولا يمنعنك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك..» والمعنى على رواية ابن خلدون أوضح.

(٦٨٨) موجود قبل الباطل، لأنه المطابق للواقع؛ أما الباطل فاختلاق طارئ. ويروى: «فإن الحق قويم» بالواو لا بالدال.

(٦٨٩) يقصد المجلود فى حدّ القذف لقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (آية ٤ من سورة النور، وهى سورة ٢٤).

(٦٩٠) الجملة غير مفهومة ولم ترد فى الروايتين الشهيرتين. فرواية المبرد: «فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان» أى دفع التهمة بالبينة أو باليمين. ورواية ابن القيم «فإن الله تعالى تولى من العباد السرائر وستر عليهم الحدود إلا بالبينات والأيمان».

(٦٩١) رواية المبرد: «وإياك والغَلَق» وهو ضيق الصدر وقلة الصبر. يقال فى سوء الخلق رجل غَلق.

(٦٩٢) ذكر المبرد فى خاتمة الرسالة قول عمر: «فمن صحّت نيته، وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس. ومن تخلق بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله. فما ظنك بثواب الله عزّوجلَّ فى عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام». - وذكر ابن القيم فى خاتمتها عبارات بهذا المعنى وإن اختلفت عنها بعض الاختلاف فى لفظها.

(٦٩٣) من معانى البيضة: حَوْزة كل شىء (من القاموس). وهذا المعنى هو المقصود فى عبارة ابن خلدون.

وأما أحكام هذا المنصب وشروطه فمعروفة فى كتب الفقه، وخصوصاً كتب الأحكام السلطانية. إلا أن القاضى إنما كان له فى عصر الخلفاء الفصل بين الخصوم فقط؛ ثم دفع لهم بعد ذلك أمور أخرى على التدريج بحسب اشتغال الخلفاء والملوك بالسياسة الكبرى. واستقر منصب القضاء آخر الأمر على أنه يجمع مع الفصل بين الخصوم استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر فى أمور المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السَّفَه[٦٩٤]، وفى وصايا المسلمين وأوقافهم، وتزويج الأيامَى[٦٩٥] عند فقد الأولياء على رأى من رآه، والنظر فى مصالح الطرقات والأبنية؛ وتصفح الشهود والأمناء والنواب واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح[٦٦٦] ليحصل له الوثوق بهم[٦٩٦]. وصارت هذه كلها من تعلقات وظيفته وتوابع ولايته.

وقد كان الخلفاء من قبل يجعلون للقاضى النظر فى المظالم، وهى وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونَصَفَة[٥٧٢] القضاء. وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المعتدى. وكأنه يمضى ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه. ويكون نظره فى البينات والتعزير واعتماد الأمارات والقرائن، وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق، وحمل الخصمين على الصلح، واستحلاف الشهود؛ وذلك أوسع من نظر القاضى. وكان الخلفاء الأولون يباشرونها بأنفسهم إلى أيام المهتدى من بنى العباس، وربما كانوا يجعلونها لقضاتهم كما فعل عمر رضى الله عنه مع قاضيه أبى إدريس الخولانى، وكما فعله المأمون ليحيى بن أكثم، والمعتصم لأحمد بن أبى دؤاد. وربما كانوا يجعلون للقاضى قيادة الجهاد فى عساكر (الطوائف)[٦٩٧]. وكان يحيى بن أكثم

---

(٦٩٤) السفيه فى الفقه المتلف لماله فيما لا مصلحة فيه. وقال كثير من الفقهاء، ومنهم أبو يوسف ومحمد صاحبا أبى حنيفة، بجواز الحجر عليه. وعلى هذا المذهب يجرى العمل فى القضاء المصرى. وقال أبو حنيفة لا يحجر على السفيه وتصرفه فى ماله جائز، لأن فى سلب ولايته إهداراً لآدميته وإلحاقه بالبهائم، وهو أشد ضرراً من التبذير (انظر الميدانى على القدورى، باب الحجر، صفحتى ١٢٣، ١٢٤). وهذا اتجاه اجتماعى نبيل من الإمام الأعظم، وقد استوحاه من روح الإسلام وشدة حرصه على حماية الحرية المدنية للأفراد.

(٦٩٥) الأيِّم العَزَب رجلا كان أو امرأة. قال الصغانى: وسواء تزوج من قبل أو لم يتزوج. وجمع الأيِّم أيامى. قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ..﴾ (آية ٣٢ من سورة النور، وهى سورة ٢٤). والفعل فى الآية أمر الرباعى المتعدى بالهمزة أى زوِّجوا.

(٦٩٦) هذه الوظيفة شبيهة بوظيفة المباحث والمخابرات فى عصرنا.

(٦٩٧) هكذا فى جميع النسخ. ويظهر لى أنه تحريف عن «الصوائف» بالصاد جمع صائفة وهى الغزوة فى الصيف وكانت عادتهم أن يغزوا الروم فى الصيف (انظر فى هذا الموضوع نفسه تعليق ١٤٢).

يخرج أيام المأمون (بالطائفة)[٦٩٧] إلى أرض الروم؛ وكذا منذر بن سعيد قاضى عبد الرحمن الناصر من بنى أمية بالأندلس. فكانت تولية هذه الوظائف إنما تكون للخلفاء أو من يجعلون ذلك له من وزير مفوض أو سلطان متغلب.

وكان أيضًا النظر فى الجرائم وإقامة الحدود فى الدولة العباسية والأموية بالأندلس والعُبيْدِيين[٦١٧] بمصر والمغرب راجعًا إلى صاحب الشُّرْطَة؛ وهى وظيفة أخرى دينية كانت من الوظائف الشرعية فى تلك الدول، توسع النظر فيها عن أحكام القضاء قليلا؛ فيجعل للتهمة فى الحكم مجالا، ويفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم، ويقيم الحدود الثابتة فى محالها، ويحكم فى القَود[٣٨٨] والقصاص، ويقيم التعزير[٦٩٨] والتأديب فى حق من لم ينته عن الجريمة.

ثم تنوسى شأن هاتين الوظيفتين فى الدول التى تنوسى فيها أمر الخلافة. فصار أمر المظالم راجعًا إلى السلطان، كان له تفويض من الخليفة أو لم يكن. وانقسمت وظيفة الشرطة قسمين. منها وظيفة التهمة على الجرائم، وإقامة حدودها، ومباشرة القطع[٦٩٩] والقصاص حيث يتعين؛ ونصب لذلك فى هذه الدول حاكم يحكم فيها بموجب السياسة دون مراجعة الأحكام الشرعية، ويسمى تارة

---

(٦٩٨) التعزير عند الفقهاء هو ما عدا العقوبات المقررة فى الحدود. فهو عقوبة يقدرها القاضى أو يقدرها القانون المتواضع عليه فى صورة تتفاوت فى شدتها حسب درجات الجريمة ومبلغ خطرها وحسب اختلاف المجرمين أنفسهم وما يكفى لردعهم؛ ويكون بالحبس والجلد والنفى والتأنيب... وما إلى ذلك (انظر ذلك فى كتب الفقه الإسلامى، وكتابنا فى «حقوق الإنسان فى الإسلام» صفحات ١٥٠، ١٥٥، ١٥٦، وكتاب «التعزير فى الإسلام» للدكتور عبدالعزيز عامر).

(٦٩٩) هكذا فى جميع النسخ، ويقصد قطع يد السارق عند ثبوت حد السرقة؛ وهذا هو ما يقصده الفقهاء عند إطلاق كلمة «القطع» فى مثل هذا المقام.. والذى يظهر أن كلمة «القطع» محرفة عن كلمة «القَوَد» (انظر فى شرح هذه الكلمة الأخيرة تعليق ٣٨٨)؛ وذلك لأن قطع يد السارق حدٌّ من الحدود المقررة؛ وإقامة الحدود والتعازير قد انتزعت فى هذا العصر من اختصاصات الشرطة وألحقت باختصاصات القاضى كما سيذكر ذلك فى الفقرة التالية إذ يقول: «ويبقى قسم التعازير وإقامة الحدود فى الجرائم الثابتة شرعا فجمع ذلك للقاضى...إلخ». ومما يؤكد أن كلمة القطع فى قوله «ومباشرة القطع والقصاص حيث يتعين» محرفة عن «القَودَ» ماذكره فى الفقرة السابقة عن اختصاصات وظيفة الشرطة فى الدولة العباسية والأموية بالأندلس والعبيديين بمصر والمغرب إذ جعل إقامة الحدود كلها مظهراً من اختصاصات هذه الوظيفة وجعل الحكم فى القَود والقصاص مظهراً آخر، وذلك إذ يقول: «... ويقيم الحدود الثابتة فى محالها، ويحكم فى القَودَ والقصاص...» (انظر السطرين الثامن والتاسع من هذه الصفحة).

باسم الوالى وتارة باسم الشرطة. وبقى قسم التعازير[٦٩٨] وإقامة الحدود فى الجرائم الثابتة شرعا فجمع ذلك للقاضى مع ما تقدم وصار ذلك من توابع وظيفته وولايته، واستقر الأمر لهذا العهد على ذلك. وخرجت هذه الوظيفة عن أهل عصبية الدولة، لأن الأمر لما كان خلافة دينية، وهذه الخطة من مراسم الدين، فكانوا لا يولون فيها إلا من أهل عصبيتهم من العرب ومواليهم بالحلف أو بالرق[٢٩٨] أو بالاصطناع ممن يوثق بكفايته أو غنَائه[١٤٣] فيما يدفع إليه ولما انقرض شأن الخلافة وطورها وصار الأمر كله ملكا أو سلطانًا صارت هذه الخُطَط الدينية بعيدة عنه بعض الشىء، لأنها ليست من ألقاب الملك ولا مراسمه. ثم خرج الأمر جملة من العرب وصار الملك لسواهم من أمم الترك والبربر، فازدادت هذه الخطط الخلافية بعداً عنهم بمنحاها وعصبيتها. وذلك أن العرب كانوا يرون أن الشريعة دينُهُم، وأن النبى ﷺ منهم، وأحكامه وشرائعه نِحلَتُهم بين الأمم وطريقُهم، وغيرهم لا يرون ذلك، إنما يولونها جانبًا من التعظيمِ لما دانوا بالملة فقط. فصاروا يقلدونها[٧٠٠] من غير عصابتهم ممن كان تأهل لها فى دول الخلفاء السالفة. وكان أولئك المتأهلون لما أخذهم ترف الدول منذ مئين من السنين قد نسوا عهد البداوة وخشونتها، والتبسوا بالحضارة فى عوائد ترفهم ودعتهم، وقلة الممانعة عن أنفسهم، وصارت هذه الخُطَطُ فى الدول الملوكية من بعد الخلفاء مختصة بهذا الصنف من المستضعفين فى أهل الأمصار، ونزل أهلها عن مراتب العز لفقد الأهلية بأنسابهم وما هم عليه من الحضارة، فلحقهم من الاحتقار ما لحق الحضر المنغمسين فى الترف والدعة، البعداء عن عصبية الملك، الذين هم عيال على الحامية، وصار اعتبارهم فى الدولة من أجل قيامها بالملة وأخذها بأحكام الشريعة، لما أنهم الحاملون للأحكام المقتدون بها. ولم يكن إيثارهم فى الدولة حينئذ إكرامًا لذواتهم، وإنما هو لما يتَلمَّحُ[٧٠١] من التجمل بمكانهم فى مجلس الملك لتعظيم الرتب الشرعية، ولم يكن لهم فيها من الحل والعقد شىء، وإن حضروه فحضور رسمى لا حقيقة وراءه، إذ حقيقة الحل والعقد وإنما هى لأهل القدرة عليه، فمن لا قدرة له عليه فلا حل له ولا عقد لديه. اللهم إلا أخذ الأحكام الشرعية عنهم وتلقى الفتاوى منهم فنعم. والله الموفق.

---

(٧٠٠) قلَّده وظيفةً: ولاه أمرها.

(٧٠١) من لمح الشىء نظر إليه وصوّب إليه البصر (من المصباح).

وربما يظن بعض الناس أن الحق فيها وراء ذلك، وأن فعل الملوك فيما فعلوه من إخراج الفقهاء والقضاة من الشورى مرجوح، وقد قال ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء». فاعلم أن ذلك ليس كما ظنه. وحكم الملك والسلطان إنما يجرى على ما تقتضيه طبيعة العمران وإلا كان بعيداً عن السياسة. فطبيعة العمران فى هؤلاء لا تقتضى لهم شيئًا من ذلك، لأن الشورى والحل والعقد لا تكون إلا لصاحب عصبية يقتدر بها على حل أو عقد أو فعل أو ترك، وأما من لا عصبية له ولا يملك من أمر نفسه شيئًا ولا من حمايتها، وإنما هو عيال على غيره، فأى مدخل له فى الشورى، أو أى معنى يدعو إلى اعتباره فيها. اللهم إلى شُوراه فيما يعلمه من الأحكام الشرعية فموجودة فى الاستفتاء خاصة. وأما شُوراه فى السياسة فهو بعيد عنها لفقدانه العصبية والقيام على معرفة أحوالها وأحكامها. وإنما إكرامهم من تبرعات الملوك والأمراء الشاهدة لهم بجميل الاعتقاد فى الدين وتعظيم من ينتسب إليه، بأى جهة انتسب. وأما قوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»، فاعلم أن الفقهاء فى الأغلب لهذا العهد وما احتف به إنما حملوا الشريعة أقوالا فى كيفية الأعمال فى العبادات وكيفية القضاء فى المعاملات ينصونها على من يحتاج إلى العمل بها؛ هذه غاية أكابرهم؛ ولا يتصفون إلا بالأقل منها، وفى بعض الأحوال. والسلف رضوان اللّه عليهم وأهل الدين والورع من المسلمين حملوا الشريعة اتصافًا بها وتحققًا بمذاهبها. فمن حَمَلَها اتصافًا وتحققًا دون نقل فهو من الوارثين، مثل أهل رسالة القشيرى. ومن اجتمع له الأمران فهو العالم وهو الوارث على الحقيقة، مثل فقهاء التابعين والسلف والأئمة الأربعة ومن اقتفى طريقهم وجاء على أثرهم، وإذا انفرد واحد من الأئمة بأحد الأمرين فالعابد أحق بالوراثة من الفقيه الذى ليس بعابد؛ لأن العابد ورث بصفة والفقيه الذى ليس بعابد لم يرث شيئًا، إنما هو صاحب أقوال ينصها علينا فى كيفيات العمل؛ وهؤلاء أكثر فقهاء عصرنا، ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾[٧٠٢].

(العدالة) وهى وظيفة دينية تابعة للقضاء ومن مواد تصريفه. وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن إذن القاضى بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم، تحملاً

(٧٠٢) جملة من آية ٢٤ من سورة ص (سورة ٣٨).

عند الإشهاد، وأداء عند التنازع وكَتْباً فى السجلات تحفظ به حقوق الناس وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم. وشرط هذه الوظيفة الاتصاف بالعدالة الشرعية والبراءة من الجَرح[٦٦٦]، ثم القيام بكتب السجلات والعقود من جهة عبارتها، وانتظام فصولها، ومن جهة أحكام شروطها الشرعية وعقودها فيحتاج حينئذ إلى ما يتعلق بذلك من الفقه. ولأجل هذه الشروط وما يحتاج إليه من المران[٧٠٣] على ذلك والممارسة له اختص ذلك ببعض العدول، وصار الصنف القائمون به كأنهم مختصون بالعدالة؛ وليس كذلك، وإنما العدالة من شروط اختصاصهم بالوظيفة.

ويجب على القاضى تصفح أحوالهم والكشف عن سيرهم رعاية لشرط العدالة فيهم، وألا يهمل ذلك لما يتعين عليه من حفظ حقوق الناس، فالعهدة عليه فى ذلك كله، وهو ضامنٌ دَرَكَه[٧٠٤]. وإذا تعين هؤلاء لهذه الوظيفة عمت الفائدة فى تعيين من تخفى عدالته على القضاة بسبب اتساع الأمصار واشتباه الأحوال، واضطرار القضاة إلى الفصل بين المتنازعين بالبينات الموثوقة، فيعولون غالبًا فى الوثوق بها على هذا الصنف. ولهم فى سائر الأمصار دكاكين ومصاطب يختصون بالجلوس عليها فيتعاهدهم أصحاب المعاملات للإشهاد وتقييده بالكتَاب[٧٠٥].

وصار مدلول هذه اللفظة[٧٠٦] مشتركًا بين هذه الوظيفة التى تَبَيَّن مدلولها وبين العدالة الشرعية التى هى أخت الجَرْح[٦٦٦]. وقد يتواردان ويفترقان، والله تعالى أعلم.

(الحِسْبَة والسِّكَّة) أما الحسبة فهى وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى هو فرض على القائم بأمور المسلمين؛ يعين لذلك من يراه أهلا له، فيتعين فرضه عليه، ويتخذ الأعوان على ذلك، ويبحث عن المنكرات، ويعزر[٦٩٨] ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة فى المدينة: مثل المنع من المضايقة فى الطرقات؛ ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار فى

(٧٠٣) مرن على الشىء مُرُونًا ومُرُونة ومَرَانة تعوده (من القاموس والمصباح). ولم يُذكر «المِران» مصدرًا ولا اسمًا لهذا الفعل وإن كان استعماله شائعا.

(٧٠٤) الدَّرْك والدَّرَك: التَّبِعَة يقال ما لحقك من دَرَك فَعَلَىَّ خلاصه (مختار الصحاح).

(٧٠٥) الكتاب هنا مصدر الفعل كتب.

(٧٠٦) يقصد كلمة العدالة.

الحمل؛ والحكم على أهل المبانى المتداعية للسقوط بهدمها، وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة؛ والضرب على أيدى المعلمين فى المكاتب وغيرها فى الإبلاغ(٧٠٧) فى ضربهم للصبيان المتعلمين. ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء[٦٦٢]، بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه. وليس له إمضاء الحكم فى الدعاوى مطلقًا؛ بل فيما يتعلق بالغش والتدليس فى المعايش وغيرها، وفى المكاييل والموازين، وله أيضاً حمل المماطلين على الإنصاف، وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا إنفاذ حكم.

وكأنها أحكام ينزه القاضى عنها لعمومها وسهولة أغراضها، فتُدْفَع على صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها. فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء. وقد كانت فى كثير من الدول الإسلامية مثل العُبيْديين[٦١٧] بمصر والمغرب والأمويين بالأندلس داخلة فى عموم ولاية القاضى يولى فيها باختياره. ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة وصار نظره عاماً فى أمور السياسة اندرجت فى وظائف الملك وأفردت بالولاية.

وأما السكة فهى النظر فى النقود المتعامل بها بين الناس وحفظها مما يداخلها من الغش أو النقص إن كان يتعامل بها عدداً أو ما يتعلق بذلك ويوصل إليه من جميع الاعتبارات، ثم فى وضع علامة السلطات على تلك النقود بالاستجادة والخلوص برسم تلك العلامة فيها من خاتم حديد اتخذ لذلك ونقش فيه نقوش خاصة به، فيوضع على الدينار بعد أن يقدر ويضرب عليه بالمطرقة حتى ترسم فيه تلك النقوش وتكون علامة على جودته بحسب الغاية التى وقف عندها السبك والتخليص فى متعارف أهل القطر ومذاهب الدولة الحاكمة؛ فإن السبك والتخليص فى النقود لا يقف عند غاية، وإنما ترجع غايته إلى الاجتهاد؛ فإذا وقف أهل أفق أو قطر على غاية من التخليص وقفوا عندها وسموها إماماً وعياراً يعتبرون به نقودهم وينتقدونها بمماثلته، فإن نقص عن ذلك كان زَيْفًا.

والنظر فى ذلك كله لصاحب هذه الوظيفة. وهى دينية بهذا الاعتبار؛ فتندرج تحت الخلافة. وقد كانت تندرج فى عموم ولاية القاضى، ثم أفردت لهذا العهد كما وقع فى الحسبة.هذا آخر الكلام فى الوظائف الخلافية. وبقيت منها وظائف ذهبت بذهاب ما ينظر فيه وأخرى صارت سلطانية. فوظيفة الإمارة والوزارة

---

(٧٠٧) يعنى المبالغة فى الضرب والإيذاء.

والحرب والخراج صارت سلطانية، نتكلم عليها فى أماكنها بعد وظيفة الجهاد. ووظيفة الجهاد بطلت ببطلانه إلا فى قليل من الدول يمارسونه ويدرجون أحكامه غالباً فى السلطانيات. وكذا نقابة الأنساب التى يتوصل بها إلى الخلافة أو الحق فى بيت المال قد بطلت لدثور[٢٨٧] الخلافة ورسومها. وبالجملة قد اندرجت رسوم الخلافة ووظائفها فى رسوم الملك والسياسة فى سائر الدول لهذا العهد. والله مصرف الأمور كيف يشاء.

٣٢ـ فصل فى اللقب بأمير المؤمنين وأنه من سمات الخلافة وهو محدث منذ عهد الخلفاء[٦٥ب]

وذلك أنه لما بويع أبو بكر رضى الله عنه، كان الصحابة رضى الله عنهم وسائر المسلمين يسمونه خليفة رسول الله ﷺ؛ ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن هلك. فلما بويع لعمر بعهده إليه[٦٥٧ - ٦٦٠] كانوا يدعونه خليفة خليفة رسول الله ﷺ. وكأنهم استثقلوا هذا اللقب بكثرته وطول إضافته وأنه يتزايد فيما بعد دائمًا إلى أن ينتهى إلى الهُجْنَة[٧٠٨] ويذهب منه التمييز بتعدد الإضافات وكثرتها، فلا يعرف. فكانوا يعدلون عن هذا اللقب إلى ما سواه مما يناسبه ويدعى به مثله. وكانوا يسمون قواد البعوث باسم الأمير وهو فعيل من الإمارة.. وقد كان الجاهلية يدعون النبى ﷺ أمير مكة وأمير الحجاز؛ وكان الصحابة أيضًا يدعون سعد بن أبى وقاص أمير المؤمنين لإمارته على جيش القادسية، وهم معظم المسلمين يومئذ.

واتفق أن دعا بعض الصحابة عمر رضى الله عنه يا أمير المؤمنين، فاستحسنه الناس واستصوبوه ودعوه به. يقال: إن أول من دعاه بذلك عبدالله بن جحش؛ وقيل عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة؛ وقيل: بريد جاء بالفتح من بعض البعوث ودخل المدينة وهو يسأل عن عمر ويقول: أين أمير المؤمنين، وسمعها أصحابه فاستحسنوه، وقالوا أصبت والله اسمه، إنه واللهِ أمير المؤمنين حقاً، فدعوه

(٧٠٨) «الهُجْنَة فى الكلام: ما يعيبه» (القاموس).

بذلك، وذهب لقبًا له فى الناس. وتوارثه الخلفاء من بعده سِمَةً لا يشاركهم فيها أحد سواهم سائرَ دولة بنى أمية.

ثم إن الشيعة خصوا عليًا باسم الإمام نعتًا بالإمامة التى هى أخت الخلافة وتعريضاً بمذهبهم فى أنه أحق بإمامة الصلاة من أبى بكر لما هو مذهبهم وبدعتهم؛ فخصوه بهذا اللقب ولمن يسوقون إليه منصب الخلافة من بعده؛ فكانوا كلهم يسمون بالإمام ماداموا يدعون لهم فى الخلفاء؛ حتى إذا استولوا على الدولة يحولون اللقب فيمن بعده إلى أمير المؤمنين، كما فعله شيعة بنى العباس، فإنهم مازالوا يدعون أئمتهم بالإمام إلى إبراهيم الذى جهروا بالدعاء له، وعقدوا الرايات للحرب على أمره، فلما هلك دعى أخوه السفاح بأمير المؤمنين. وكذا الرافضة بإفريقية فإنهم مازالوا يدعون أئمتهم من ولد إسماعيل[٦١٥ - ٦١٧] بالإمام، حتى انتهى الأمر إلى عبيد الله المهدى، وكانوا أيضًا يدعونه بالإمام، ولابنه أبى القاسم من بعده. فلما استوثق لهم الأمر دعوا من بعدهما بأمير المؤمنين. وكذا الأدارسة بالمغرب كانوا يلقبون إدريس بالإمام، وابنه إدريس الأصغر كذلك، وهكذا شأنهم.

وتوارث الخلفاء هذا اللقب بأمير المؤمنين، وجعلوه سمة لمن يملك الحجاز والشام والعراق: المواطن التى هى ديار العرب، ومراكز الدولة وأهل الملة والفتح. وازداد كذلك[(٧٠٩)] فى عنفوان الدولة وبذخها[(٧٠٩ب)] لقب آخر للخلفاء يتميز به بعضهم عن بعض لما فى أمير المؤمنين من الاشتراك بينهم، فاستحدث ذلك بنو العباس حجابًا لأسمائهم الأعلام عن امتهانها فى ألسنة السوقة وصونًا لها عن الابتذال، فتلقبوا بالسفاح والمنصور والمهدى والهادى والرشيد إلى آخر الدولة. واقتفى أثرهم فى ذلك العبيديون[٦١٧] بإفريقية ومصر. وتجافى بنو أمية عن ذلك: أما بالمشرق فجريا على الغضاضة[٤٩٩ب] والسذاجة[(٧١٠)]؛ لأن العروبية ومنازعها لم تفارقهم حينئذ ولم يتحول عنهم شعار البداوة إلى شعار الحضارة؛ وأما بالأندلس فتقليداً لسلفهم مع ما علموه من أنفسهم من القصور عن ذلك

---

(٧٠٩) فى جميع النسخ «وازداد» وهو تحريف على ما يظهر، وصوابه «وزاد» - وفي جميع النسخ «لذلك» وهى تحريف كما لا يخفى.

(٧٠٩ب) فى «التيمورية» وبذَّخها، بضبط الذال المشددة. وكتب في هامشها: «التبذيخ تفعيل من البذخ وهو الكبر، وبذخ كفرح، وتبذخ تكبر وعلا، وشرف باذخ عال، قاموس».

(٧١٠) فى نسخ أخرى «مع الغضاضة والسذاجة».

بالقصور عن الخلافة التى استأثر بها بنو العباس، ثم بالعجز عن ملك الحجاز أصل العرب، والملة[٧١٠ب] والبعد عن دار الخلافة التى هى مركز العصبية، وأنهم إنما مَنَعوا بإمارة القاصيَةِ أنفسَهم من مهالك بنى العباس. حتى إذا جاء عبد الرحمن الآخِر[٧١١] منهم وهو الناصر ابن الأمير عبد الله محمد بن عبد الرحمن الأوسط[٧١١ب] لأول المائة الرابعة[٧١٢]، واشتهر ما نال الخلافة بالمشرق من الحجر واستبداد الموالى وعَيْثِهم[٧١٣] فى الخلفاء بالعزل والاستبدال والقتل والسمل[٧١٤]، ذهب عبد الرحمن هذا إلى مثل مذاهب الخلفاء بالمشرق وإفريقية، وتسمى بأمير المؤمنين وتلقب بالناصر لدين الله، وأخِذَت من بعده عادة ومذهبا لُقِّن عنه ولم يكن لآبائه وسلف قومه.

واستمر الحال على ذلك إلى أن انقرضت عصبية العرب أجمع وذهب رسم الخلافة وتغلب الموالى من العجم على بنى العباس، والصنائع على العُبَيْدِيين[٦١٧] بالقاهرة، وصنهاجة على أمراء إفريقية، وزناتة على المغرب، وملوك الطوائف بالأندلس على أمر بنى أمية واقتسموه، وافترق أمر الإسلام، فاختلف مذاهب الملوك بالمغرب والمشرق فى الاختصاص بالألقاب بعد أن تسموا جميعاً باسم السلطان.

(٧١٠ب) هكذا وردت هذه العبارة فى التيمورية، وهى على هذا الوضع مستقيمة واضحة الدلالة. وقد وردت فى النسخ المتداولة محرفة مضطربة غير مفهومة، ونصها: «وتجافى بنو أمية عن ذلك فى المشرق قبلهم من الغضاضة والسذاجة، لأن العروبية ومنازعها لم تفارقهم حينئذ ولم يتحول عنهم شعار البداوة إلى شعار الحضارة. وأما بالأندلس فتلقوا كسلفهم مع ما علموه من أنفسهم من القصور عن ذلك بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة».

(٧١١) هكذا فى «التيمورية» وفى النسخ الأخرى «عبدالرحمن الداخل الآخر منهم..»، وهو سبق قلم من المؤلف أو الناسخ، وصوابه «عبدالرحمن الناصر» أو «عبدالرحمن الثالث» (تولى الخلافة سنة ٣٠٠ هـ، ٩١٢م)؛ لأن المسمى عبدالرحمن الداخل هو عبدالرحمن الأول أول أمراء بنى أمية بالأندلس (تولى سنة ١٣٨ هـ، ٧٥٦م) وهو الذى أفلت من أيدى العباسيين وهرب إلى الأندلس (ومن ثم سمى بالداخل) وأسس فيها الدولة الأموية.

(٧١١ب) هكذا فى «التيمورية» وهو الصحيح فى سلسلة النسب. وفى غيرها: «وهو الناصر بن محمد بن الأمير عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن الأوسط».

(٧١٢) ليس عبدالرحمن الناصر أو الثالث آخر من اسمه عبدالرحمن من خلفاء بنى أمية بالأندلس: لأنه قد جاء من بعده خليفتان اسم كل منهما عبدالرحمن، وهما عبدالرحمن الرابع المرتضى (٤٠٨هـ، ١٠١٨م) وعبدالرحمن الخامس المستظهر (٤١٤هـ، ١٠٢٣م) ـ ولكن جرت عادة المؤرخين أن يلقبوا عبدالرحمن الثالث بالآخر، وعبدالرحمن الثانى بالأوسط (٢٠٦ هـ، ٨٢٢م) وعبدالرحمن الداخل بالأول، كأنهم لم يلقوا بالا إلى عبدالرحمن الرابع المرتضى ولا إلى عبدالرحمن المستظهر.

(٧١٣) «العَيْث: الإفساد وهو مصدر عاث يعيث» (القاموس).

(٧١٤) «سمل عينه: فقأها» (القاموس).

فأما ملوك المشرق من العجم فكان الخلفاء يخصونهم بألقاب تشريفية حتى يستشعر منها انقيادهم وطاعتهم وحسن ولايتهم، مثل شرف الدولة وعضد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة ونصير الدولة ونظام الملك وبهاء الدولة وذخيرة الملك وأمثال هذه. وكان العُبَيْديون[٦١٧] أيضًا يخصون بها أمراء صنهاجة. فلما استبدوا على الخلافة قَنِعوا بهذه الألقاب وتجافوا عن ألقاب الخلافة أدبًا معها، وعدولا عن سمتها المختصة بها، شأن المتغلبين المستبدين كما قلناه قبل[(٧١٥)].

ونزع المتأخرون أعاجم المشرق، حين قوى استبدادهم على الملك، وعلا كعبهم فى الدولة والسلطان، وتلاشت عصبية الخلافة واضمحلت بالجملة، إلى انتحال الألقاب الخاصة بالملك مثل الناصر والمنصور زيادة على ألقاب يختصون بها قبل هذا الانتحال مشعرة بالخروج عن ربقة الولاء والاصطناع بما أضافوها إلى الدين فقط، فيقولون صلاح الدين، أسد الدين، نور الدين.

وأما ملوك الطوائف بالأندلس فاقتسموا ألقاب الخلافة وتوزعوها لقوة استبدادهم عليها بما كانوا من قبيلها وعصبيتها، فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمظفر وأمثالها، كما قال ابن (أبى)[(٧١٥ب)] شرف ينعى عليها:

مما يزهِّدنى فى أرض أندلس ... أسماء معتمد فيها ومعتضد

ألقاب مملكة فى غير موضعها ... كالهر يحكى انتفاخا صورة الأسد

وأما صنهاجة فاقتصروا على الألقاب التى كان الخلفاء العُبَيْديون[٦١٧] يلقبون بها للتنويه مثل نصير الدولة ومعز الدولة. واتصل لهم ذلك لما أدالوا[٢٩٩] من دعوة العبيديين بدعوة العباسيين. ثم بعدت الشقة بينهم وبين الخلافة ونسوا عهدها، فنسوا هذه الألقاب واقتصروا على اسم السلطان. وكذا شأن ملوك مغراوة بالمغرب لم ينتحلوا شيئًا من هذه الألقاب إلا اسم السلطان جريًا على مذاهب البداوة والغضاضة[٤٤٩ب].

ولما مُحى رسم الخلافة وتعطل دَسْتُها[(٧١٦)]، وقام بالمغرب من قبائل البربر

---

(٧١٥) ذكر ذلك فى الفصل الثانى والعشرين من هذا الباب، وعنوانه «فصل فى أن المتغلبين على السلطان لا يشاركونه فى اللقب الخاص بالملك» (انظر صفحتى ٥٥٨، ٥٥٩).

(٧١٥ب) هكذا فى جميع النسخ. والمشهور أن اسمه ابن شرف.

(٧١٦) الدَّسْتُ من الثياب ما يلبسه الإنسان ويكفيه لتردده فى حوائجه والجمع دسوت مثل فلس وفلوس (معرب). والكلام فى عبارة ابن خلدون مجازى.

يوسف بن تاشفين ملك لمتونة فملك العُدوتين، وكان من أهل الخير والاقتداء، نزعت به همته إلى الدخول فى طاعة الخليفة تكميلا لمراسم دينه. فخاطب المستظهر العباسى وأوفد عليه ببيعته عبد الله بن العربى وابنه القاضى أبا بكر من مشيخة إشبيلية يطلبان توليته إياه على المغرب وتقليدَه ذلك، فانقلبوا[٧١٧] إليه بعهد الخلافة له على المغرب واستشعار زيهم فى لبوسه ورتبته، وخاطبه فيه[٧١٨] بأمير المؤمنين تشريفاً له واختصاصًا فاتخذها لقبًا. ويقال إنه كان دعى له بأمير المؤمنين من قبل[٧١٩] أدبًا مع رتبة الخلافة لما كان عليه هو وقومه المرابطون من انتحال الدين واتباع السنة.

وجاء المهدى على أثرهم داعيا إلى الحق آخذًا بمذاهب الأشعرية ناعيًا على أهل المغرب عدولهم عنها إلى تقليد السلف فى ترك التأويل لظواهر الشريعة وما يئول إليه ذلك من التجسيم، كما هو معروف من مذهب الأشعرية[٧٢٠]. وسمى

(٧١٧) هكذا فى جميع النسخ، والصواب: «فانقلبا إليه».

(٧١٨) أى فى ذلك العهد الذى بعث به إليه.

(٧١٩) لابد أن تكون هنا جملة ساقطة من الناسخ، وأن تكون العبارة علي هذا الوضع: «ويقال إنه كان دعى له بأمير المؤمنين من قبل (ثم أهمل ذلك) أدبا مع رتبة الخلافة...».

(٧٢٠) يتلخص ما ذكره ابن خلدون في هذا الموضوع فى عدة فصول من مقدمته فيما يلي: اختلف علماء المسلمين فى المتشابه من الآيات وهى التى يسند فيها إلي الله تعالى صفة يدل ظاهرها علي التجسم، كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ (آية ٥ من سورة طه، وهى سورة ٢٥)، وقوله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (آية ١٠ من سورة الفتح، وهى سورة ٤٨)، وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ (آية ٨٨ من سورة القصص، وهى سورة ٢٨)، وقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾(آيتى ٢٦، ٢٧ من سورة الرحمن، وهى سورة ٥٥). فقد أسند لله تعالى فى هذه الآيات الاستواء واليد والوجه، وهى صفات يدل ظاهرها علي التجسيم وشغل المكان وما إلى ذلك من صفات الحوادث التى يتنزه عنها البارئ جلّ وعزّ.

فأما قدامى السلف من الصحابة والتابعين فكانوا يسكتون عن تأويل هذه الآيات ويفوّضون الأمر فى معناها إلى الله تعالى، فيقولون الله أعلم بمراده منها، معتمدين فى ذلك على قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (آية ٧ من سورة آل عمران وهى سورة ٣). وهم يجعلون كلمة «والراسخون» مستأنفة على أنها مبتدأ خبره «يقولون آمنا به»، ورجحوا ذلك على عطفها على لفظ الجلالة، لأن الإيمان بالغيب أبلغ فى الثناء على الراسخين فى العلم، ومع عطف الكلمة على لفظ الجلالة يكون إيمانهم إيماناً بما يعلمون. ويعضد ذلك قوله تعالى على لسان الراسخين فى العلم «كل من عند =

= ربنا». ويستدلون على مذهبهم كذلك بأن الألفاظ اللغوية إنما يفهم منها المعانى التى وضعها العرب لها؛ فإذا استحال إسناد الصفة بحسب مدلولها اللغوى إلى من وصف بها فإننا نجهل حينئذ مدلول الكلام؛ فإن جاءنا من عند الله فوضنا علمه إليه، ولا نشغل أنفسنا بمدلول نلتمسه، فلا سبيل لنا إلى ذلك هذا هو مذهب السلف من الصحابة والتابعين فى الآيات المتشابهة. وجاء فى السنة ألفاظ مثل ذلك محملها عندهم محمل الآيات؛ لأن المنبع واحد، وذلك كقوله عليه الصلاة والسلام: «إنكم لترون ربكم يوم القيامة كالقمر ليلة البدر لا تضامون فى رؤيته».

وذهب جماعة من المحدثين من أتباع السلف وبعض المتأخرين من الحنابلة إلى أن هذه الأمور صفات ثابتة لله تعالى، ولكنها مجهولة الكيفية. فالاستواء مثلا فى قوله تعالى: «الرحمن على العرش استوى» هو فى نظرهم صفة ثابتة لله تعالى ولكنها مجهولة الكيفية وكذلك الوجه واليد.. وما إلى ذلك. وإنما دعاهم إلى إثبات هذه الأمور لله حرصهم على أن يكون لهذه الألفاظ مدلول وفرارهم من تعطيلها وتجردهم من الأدلة، ولا يقولون بالكيفية فراراً من تشبيه الله بالحوادث. ولم يدروا أنهم بذلك ولجوا إلى التشبيه إذ أثبتوا لله الاستواء واليد والوجه.. إلخ؛ إذ الاستواء عند أهل اللغة موضوعه الاستقرار والتمكن وهو جسمانى، وكذلك اليد والوجه. وأما تعطيل اللفظ الذى يفرون منه فلا ضير فيه ما دام أمر تفسيره إلى الله تعالى، وما دام يُعترف بأن معناه قد خفى على أذهاننا وبأن الله أعلم بمراده منه.

وذهب الأشاعرة (أبو الحسن الأشعرى وأتباعه) فى ذلك مذهباً ثالثاً يقوم على العدول عن الحقائق اللغوية لهذه الكلمات وتأويلها بمعانيها المجازية. فيؤولون الاستواء بالاستيلاء والسيطرة، ويؤولون اليد بالقدرة، والوجه بالذات، جرياً فى ذلك على طرائق العرب فى تعبيرهم المجازى. وقد حملهم على هذا التأويل، وإن كان مخالفاً لمذهب السلف من الصحابة والتابعين الذين يفوضون الأمر فى تفسير هذه الصفات إلى الله تعالى، حرصهم على عدم تعطيل هذه الألفاظ وأن يكون لها مدلولات سليمة لا توهم التجسيم كالمدلولات التى ذهب إليها جماعة من المحدثين من أتباع السلف وبعض المتأخرين من الحنابلة.

وإلى مذهب السلف من الصحابة والتابعين ومذهب الأشاعرة يشير اللقانى فى الجوهرة إذ يقول:

وكل نصٍ أوهم التشبيها ... أوِّلْه أو فَوِّضْ ورُمْ تنزيها

فالتأويل هو مذهب الأشاعرة، والتفويض هو مذهب السلف من الصحابة والتابعين.

وكلا المذهبين سليم لا غبار عليه من ناحية العقيدة. أم ما ذهب إليه جماعة من المحدثين من أتباع السلف وبعض المتأخرين من الحنابلة من جعل هذه الأمور صفات ثابتة لله تعالى مجهولة الكيفية فقد رأيت أنه يفضى - من حيث لا يريد أصحابه - إلى التشبيه وإلى التجسيم.

ومن هذا يظهر أن ابن خلدون لا يقصد بكلمة السلف التى استخدمها فى عبارته قدامى السلف من الصحابة والتابعين، (لأن هؤلاء يفوضون الأمر فى مدلولات هذه الصفات إلى الله، ولا يقولون بشىء يفضى إلى تشبيه الله بالحوادث ولا إلى التجسيم)؛ وإنما يقصد بها المحدثين من أتباع السلف و بعض المتأخرين من الحنابلة الذين لا يؤولون هذه الكلمات بمعانيها المجازية بل يأخذونها على مدلولاتها الحقيقية مع تقريره أن الكيفية مجهولة. فقد رأيت ما يفضى إليه مذهبهم هذا من تشبيه الله بالحوادث ونسبة التجسيم إليه.

فمعنى عبارة ابن خلدون أن المهدى قد نعى على أهل المغرب عدولهم عن مذهب الأشاعرة الذين يؤولون من هذه الألفاظ بمعانيها المجازية وتقليدهم لمذهب المحدثين من أتباع السلف الذين يتركون التأويل ويأخذون بظواهر هذه الألفاظ وحقيقتها، وهو مذهب يؤول (أى يؤدى) إلى نسبة التجسيم لله تعالى.

هذا، وقد عرض ابن خلدون نفسه هذه الآراء وآراء أخرى قيلت فى هذا الموضوع وناقشها مناقشة وافية فى فصل من الفصول التى تزيد بها طبعة باريس لمقدمة ابن خلدون عن الطبعات المتداولة فى العالم العربى وهو الفصل السابع عشر من الباب السادس بحسب طبعة باريس، وعنوانه «فصل فى كشف الغطاء عن المتشابه من الكتاب والسنة وما حدث لأجل ذلك من طوائف السنية والمبتدعة فى الاعتقادات».

أتباعه الموحدين تعريضاً بذلك النكير[٧٢١]. وكان يرى أهل البيت الإمام المعصوم وأنه لابد منه فى كل زمان يحفظ بوجوده نظام هذا العالم؛ فسمى بالإمام لما قلناه أولا من مذاهب الشيعة فى ألقاب خلفائهم[٧٢٢]، وأردف بالمعصوم إشارة إلى مذهبه فى عصمة الإمام، وتنزه عند أتباعه عن أمير المؤمنين أخذاً بمذاهب المتقدمين من الشيعة، ولما فيها من مشاركة الأغمار[٤٦٥] والولدان من أعقاب أهل الخلافة يومئذ بالمشرق. ثم انتحل عبد المؤمن ولى عهده اللقب بأمير المؤمنين، وجرى عليه من بعده خلفاء بنى عبد المؤمن وآل أبى حفص من بعدهم، استئثاراً به عمن سواهم، لما دعا إليه شيخهم المهدى من ذلك، وأنه صاحب الأمر وأولياؤه من بعده كذلك دون كل أحد، لانتفاء عصبية قريش وتلاشيها. فكان ذلك دأبهم.

ولما انتقض الأمر بالمغرب وانتزعته زناتة ذهب أولهم مذاهب البداوة والسذاجة واتِّباع لمتونة فى انتحال اللقب بأمير المؤمنين[٧٢٣] أدباً مع رتبة الخلافة التى كانوا على طاعتها لبنى عبد المؤمن أولا ولبنى أبى حفص من بعدهم. ثم نزع المتأخرون منهم إلى اللقب بأمير المؤمنين وانتحلوه لهذا العهد استبلاغاً فى منازع الملك وتتميماً لمذاهبه وسماته. والله غالب على أمره.

---

(٧٢١) أى إن أتباعه يقولون بتوحيد الله وتنزيهه عن الشبيه لا كما يفعل غيرهم. فهو يُعَرِّض بذلك بمن يقولون بذلك النكير المفضى إلى التجسيم والتشبيه.

(٧٢٢) انظر الفصل السابع والعشرين من هذا الباب وعنوانه: «فصل فى مذاهب الشيعة فى حكم الإمام» (صفحات ٥٧١ – ٥٨٠).

(٧٢٣) أى إنهم فى مبدأ أمرهم قد سلكوا المسلك نفسه الذى سلكته لمتونة فى مبدأ أمرها حيال اللقب بأمير المؤمنين؛ فلم ينتحلوا لأنفسهم هذا اللقب أدبا مع رتبة الخلافة كما فعلت لمتونة فى أول عهدها من قبل. ولو قال: «واتباع لمتونة فى (عدم) انتحال اللقب بأمير المؤمنين لكان أوضح. (انظر تعليقات ٧١٧ ـ ٧١٩ والموضوعات المتصلة بهذه التعليقات).

٣٣ ـ فصل فى شرح اسم البابا والبطرك فى الملة النصرانية واسم الكوهن عند اليهود ٥٦٥ب

اعلم أن الملة لابد لها من قائم عند غيبة النبى يحملهم على أحكامها وشرائعها ويكون كالخليفة فيهم للنبى فيما جاء به من التكاليف. والنوع الإنسانى أيضاً، بما تقدم(٧٢٤) من ضرورة السياسة فيهم للاجتماع البشرى، لابد لهم من شخص يحملهم على مصالحهم ويزعهم عن مفاسدهم بالقهر، وهو المسمى بالملك.

والملة الإسلامية لما كان الجهاد فيها مشروعاً لعموم الدعوة وحمل الكافة على دين الإسلام طوعاً أو كرهاً اتحدت(٧٢٥) فيها الخلافة والملك لتوجه الشوكة من القائمين بها إليهما معاً.

وأما ما سوى الملة الإسلامية فلم تكن دعوتهم عامة ولا الجهاد عندهم مشروعاً إلا فى المدافعة فقط. فصار القائم بأمر الدين فيها لا يعنيه شىء من سياسة الملك وإنما وقع الملك لمن وقع منهم بالعرض ولأمر غير دينى، وهو ما اقتضته لهم العصبية لما فيها من الطلب للملك بالطبع لما قدمناه(٧٢٥ب)، لأنهم غير مكلفين بالتغلب على الأمم كما فى الملة الإسلامية، وإنما هم مطلوبون بإقامة دينهم فى خاصتهم.

ولذلك بقى بنو إسرائيل من بعد موسى ويوشع صلوات الله عليهما نحو أربعمائة سنة لا يعتنون بشىء من أمر الملك، إنما همهم إقامة دينهم فقط. وكان

(٧٢٤) انظر المقدمة الأولى من الباب الأول، وعنوانها: «فصل فى أن الاجتماع الإنسانى ضرورى» صفحات ٣٤٤-٣٤٢ وخاصة فى آخر ص ٣٤٢ .

(٧٢٥) فى جميع النسخ «اتخذت» بخاء فذال معجمتين، وهو تحريف كما لا يخفى، إذ سياق الكلام السابق والتالى يدل على أن الغرض اتحاد الخلافة والملك. أو كما نعبر نحن ـ اجتماع السلطتين الدينية والزمنية فى يد شخص واحد.

(٧٢٥ب) انظر الفصل السابع عشر من الباب الثانى وعنوانه: «فصل فى أن الغاية التى تجرى إليها العصبية هى الملك» (صفحتى ٤٩٥-٤٩٦).

القائم به بينهم يسمى الكوهن، كأنه خليفة موسى صلوات الله عليه يقيم لهم أمر الصلاة والقربان، ويشترطون فيه أن يكون من ذرية هارون صلوات الله عليه(٧٢٦) لأن موسى لم يعقب. ثم اختاروا لإقامة السياسة التى هى للبشر بالطبع سبعين شيخًا كانوا يتولون(٧٢٧) أحكامهم العامة. والكوهن أعظم منهم رتبة فى الدين، وأبعد عن شغب الأحكام. واتصل ذلك فيهم إلى أن استحكمت طبيعة العصبية وتمحضت الشوكة للملك. فغلبوا الكنعانيين على الأرض التى أورثهم الله ـ بيت المقدس وما جاورها ـ كما بُيِّن لهم على لسان موسى صلوات الله عليه(٧٢٨)، فحاربتهم أمم الفلسطين والكنعانيين والأرمن وأردُن وَعُمانَ ومَأْرِب ورياستهم فى ذلك راجعة إلى شيوخهم. وأقاموا على ذلك نحواً من أربعمائة سنة، ولم تكن لهم صولة الملك. وضجر بنو إسرائيل من مطالبة الأمم، فطلبوا على لسان شمويل(٧٢٩) من أنبيائهم أن يأذن الله لهم فى تمليك رجل عليهم فولى عليهم طالوت، وغلب الأمم وقتل جالوت ملك الفلسطين(٧٣٠). ثم ملك بعده داود ثم سليمان صلوات الله عليهما واستفحل مُلْكُهُ وامتد إلى الحجاز ثم أطراف اليمن ثم إلى أطراف بلاد الروم. ثم افترق الأسباط(٧٣١) من بعد سليمان صلوات الله عليه بمقتضى العصبية فى الدول كما قدمناه إلى

---

(٧٢٦) وكان هؤلاء ينسبون إلى قبيلة اللاويين Lé vites نسبة إلى «لاوى» Lévi ثالث أبناء يعقوب، لأن موسى وهارون عليهما السلام كانا من نسل لاوى (انظر سفر العدد، الأصحاح الأول، فقرات ٤٧ ـ ٥٣). وقد خصص لبيان الوظائف الدينية التى يشرف عليها اللاويون سفر على حدة يعد من أهم أسفار العهد القديم وهو «سفر اللاويين».

(٧٢٧) فى جميع النسخ «يتلون» وهو تحريف كما لا يخفى.

(٧٢٨) يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ... يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (آيتى ٢٠، ٢١ من سورة المائدة، وهى سورة ٥).

(٧٢٩) هو صموئيل Samuel وقد خصص له سفران في العهد القديم كما سيأتى بيان ذلك.

(٧٣٠) أشار القرآن الكريم إلى هذه القصة فى الآيات ٢٤٦ ـ ٢٥١ من سورة البقرة إذ يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ... (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا... (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾...

(٧٣١) تطلق كلمة الأسباط على أولاد يعقوب ونسلهم، يقال للعرب «قبائل» ولفرق اليهود «أسباط». وواحده سِبْط وهو الفريق من اليهود. ويطلق السِّبْط كذلك على ولد البنت (انظر تعليق ٥٩٢ب).

دولتين كانت إحداهما بالجزيرة والموصِل للأسباط العشرة والأخرى بالقدس والشام لبنى يهوذا وبنيامين.[٧٣٢]

ثم غلبهم بُخْتَنَصَّر ملك بابل على ما كان بأيديهم من الملك؛ أولاً الأسباط العشرة، ثم ثانيًا بنى يهوذا وبيت المقدس بعد اتصال ملكهم نحو ألف سنة، وخرب مسجدهم وأحرق توراتهم وأمات دينهم، ونقلهم إلى أصبهان وبلاد العراق، إلى أن ردهم بعض ملوك الكيانية من الفرس إلى بيت المقدس من بعد سبعين سنة من خروجهم، فبنوا المسجد وأقاموا أمر دينهم على الرسم الأول للكهنة فقط، والملك للفرس. ثم غلب الإسكندر وبنو يونان على الفرس وصار اليهود فى مَلَكتهم[٧٠]. ثم فشل أمر اليونانيين، فاعتز اليهود عليهم بالعصبية الطبيعية ودفعوهم عن الاستيلاء عليهم، وقام بملكهم الكهنة الذين كانوا فيهم من بنى حشمناى، وقاتلوا اليونان حتى انقرض أمرهم وغلبهم الروم[٧٣٣] فصاروا تحت أمرهم. ثم رجعوا إلى بيت المقدس وفيها بنو هيرودس أصهار بنى حشمناى[٧٣٤]، وبقيت دولتهم، فحاصروهم مدة ثم افتتحوها عنوة وأفحشوا فى القتل والهدم والتحريق، وخربوا بيت المقدس وأجلوهم عنها إلى رومة وما وراءها، وهو الخراب الثانى للمسجد، ويسميه

---

(٧٣٢) الأسباط العشرة هم أولاد روبين Ruben؛ وأولاد سيميون Simeon؛ وأولاد إسَّاكار Issacare؛ وأولاد زابولون Zabulon؛ وأولاد إفراييم Ephraim (وهم نسل يوسف عليه السلام)؛ وأولاد ماناسًى Manassé؛ وأولاد دان Dan؛ وأولاد آزر Aser؛ وأولاد جاد Gad؛ وأولاد نفتالى Nephthali. والسبطان الآخران هما أولاد يهوذا Juda وأولاد بنيامين Benjamin (انظر سفر العدد، أصحاح ١، فقرات ٥ - ١٦).

وكانت المملكة الأولى تسمى مملكة إسرائيل والثانية تسمي مملكة يهوذا. وقد نشبت بين المملكتين حروب أهلية كثيرة سجلها العهد القديم وسجلها التاريخ (انظر سفر الملوك الأول، أصحاح ١٢ وتوابعه، وانظر كذلك كتابنا فى «قصة الملكية فى العالم» (٤٥ - ٥٠).

(٧٣٣) كان العرب يطلقون كلمة الروم على اليونان. وبهذا المعنى جاء ت الآية الكريمة منبئة بما حدث بين الفرس واليونان من مواقع ومخبرة بما سيئول إليه الأمر فى المستقبل، وهي قوله تعالى:﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ...﴾: (الآيتان الأولى والثانية من سورة الروم، وهى سورة ٣٠). - ولكن ابن خلدون يقصد بكلمة الروم هنا الدولة الرومانية التى كانت قاعدتها روما والتى استولت، فيما استولت عليه، على بلاد اليونان.

(٧٣٤) وكان بنو هيرودس قد انتزعوا الملك حينئذ فى بيت المقدس من يد أصهارهم بنى حشمناى كما سيذكر بعد.

اليهود بالجلوة الكبرى.[٧٣٥] فلم يقم لهم بعدها ملك لفقدان العصبية منهم وبقوا بعد ذلك فى مَلَكَةِ[٧٠] الروم ومن بعدهم يقيم لهم أمر دينهم الرئيس عليهم المسمى بالكوهن.

ثم جاء المسيح صلوات الله وسلامه عليه بما جاءهم به من الدين والنَّسْخ لبعض أحكام التوراة، وظهرت على يديه الخوارق العجيبة من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، واجتمع عليه كثير من الناس وآمنوا به، وأكثرهم الحواريون من أصحابه وكانوا اثنى عشر، وبعث منهم رسلا إلى الآفاق داعين إلى ملَّته، وذلك أيام أوغسطس، أوَّلِ ملوك القياصرة، وفى مدة هيرودس ملك اليهود الذى انتزع الملك من بنى حشمناى أصهاره. فحسده اليهود وكذبوه، وكاتب هيرودس مَلِكُهُم مَلِكَ القياصرة أوغسطس يغريه به، فأذن لهم فى قتله، ووقع ما تلاه القرآن من أمره[٧٣٦]. وافترق الحواريون شيعًا ودخل أكثرهم بلاد الروم داعين إلى دين النصرانية. وكان بطرس[٧٣٧] كبيرَهم فنزل برومة، دارِ ملك القياصرة. ثم كتبوا الإنجيل الذى أنزل

---

(٧٣٥) ضمير الفاعل فى «أجلوهم» يعود على الروم (الدولة الرومانية الغربية). وضمير المفعول يعود علي اليهود. وإلى هاتين الهزيمتين أو هذين الجلاءين أو هذين الحشرين كما يسميهما القرآن (إجلاء البابليين لليهود فى عهد بختنصر إلى أصبهان وبلاد العراق؛ وإجلاء الرومان لهم إلى رومة وما وراءها) يشير القرآن الكريم فى الآيات ٤ ـ ٧ من سورة الإسراء (سورة ١٧) إذ يقول ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا (أى الجلوة الأولى) بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ (وهم البابليون) فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ (أي الجلوة الآخِرة وهو الجلاء الثانى أو الأخير) لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. ﴾.

هذا، ومصدر جلا القوم عن الموضع هو الجلاء أو الجلْوْ. وأما «الجَلوة» التي استعملها ابن خلدون فهى مصدر على فَعْلَة للدلالة على المرة كجلسة وسجدة... إلخ. وتأتى «الجِلْوة» كذلك مصدرًا لفعل جلا العروس على زوجها بمعنى زفَّها.

(٧٣٦) يشير بذلك إلى ما قصَّه الله تعالى فى الآيات ١٥٥ ـ ١٦٠ من سورة النِّساء (السورة الرابعة) إذ يقول: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم (الضمير يعود على اليهود، وما زائدة) مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ .. وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ۝١٥٦ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ..وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝١٥٧ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾.

(٧٣٧) هو الرسول بطرس أو بيير St pierre رئيس الحواريين الاثنى عشر. وهو أول من نزل برومة من الحواريين ونشر المسيحية فى الدولة الرومانية. ولد سنة ١٠ قبل المسيح وقتله نيرون (امبراطور روما) سنة ٦٧م على الأرجح. وله فى العهد الجديد سفران سيأتى ذكرهما V. Larousse du xxe siécle, mot St pierre

على عيسى(٧٣٧ب) صلوات الله عليه، فى نسخ أربع على اختلاف رواياتهم: فكتب متّى إنجيله فى بيت المقدس بالعبرانية، ونقله يوحنا بن زِبِدى منهم إلى اللسان اللطينى(٧٣٨)، وكتب لُوقا منهم إنجيله باللطينى إلى بعض أكابر الروم(٧٣٩)؛ وكتب يوحنّا بن زِبِدى منهم إنجيله برومة(٧٤٠)؛ وكتب بُطرس ٧٣٧ إنجيله باللطينى ونسبه إلى

(٧٣٧ب) هذا غير صحيح. فأناجيلهم تختلف اختلافًا كبيرًا عن الإنجيل الذى يحدثنا القرآن أن الله أنزله على عيسى (انظر فى هذا كتابنا «الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام» صفحات ٦٨ - ٨٠).

(٧٣٨) هو الرسول «مَتّى» أو «ماتييه» الإنجيلى St Matthieu l'Evangiliste من كبار الحواريين الاثنى عشر. استشهد حوالى سنة ٧٠م. وقد كتب متى إنجيله بالآرامية لا بالعبرية كما يقول ابن خلدون (كانت العبرية قد انقرضت حينئذ من لغتى الحديث والكتابة عند العبريين وحلت محلها الآرامية - انظر الباب الثالث والفصل الثالث من الباب الثانى من كتابنا «فقه اللغة»). ولكن هذا الأصل الآرامى لم يصل إلينا ولا يُعرف عنه شيء والذى وصل إلينا هو ترجمته إلى اللغة اليونانية، لا إلى اللغة اللاتينية كما يقول ابن خلدون وهى ترجمة قديمة يرجع تاريخها إلى تاريخ الأصل الآرامىّ نفسه؛ فكلاهما يرجع إلى حوالى سنة ٦٠م. - أما مترجم هذا الإنجيل إلى اليونانية فغير معروف، ويقال: إنه الرسول متى نفسه (انظر لاروس القرن العشرين). وقد اعتمد ابن خلدون على ما رواه ابن البطريق من أن يوحنا بن زبدى هو الذى ترجمه V.Larousse du xxe siécle, mots Evangile et Matthieu وستأتى ترجمة يوحنا بن زبدى فى تعليق ٧٤٠.

(٧٣٩) هو الرسول «لوقا» أو «لوك» الإنجيلى St Luc l'Evangilste وقد صاحب الرسول بولس St Paul (والرسول بولس من كبار الحواريين، وله فى العهد الجديد أربعة عشر سفرا سيأتى ذكرها). وقد كتب «لوقا» إنجيله باليونانية لا باللاتينية كما يقول ابن خلدون، وكان تحريره فى الفترة الواقعة بين سنتى ٦٠ و٧٠م، ويرجح أن يكون ذلك سنة ٦٣. وللرسول «لوقا» سفر آخر فى العهد الجديد سيأتى ذكره وهو «أعمال الرسل» أو «تاريخ الرسل» كتبه باليونانية حوالى سنة ٦٤م. وقد توفى لوقا سنة ٧٠م V. Larousse du xxe siécle, mots: Evangile et Luc.

(٧٤٠) هو الرسول يوحنا أو حنا أو جان الإنجيلى St Jean l'Evangiliste من كبار الحواريين الاثنى عشر. واسم أبيه زِبِدى Zébé dée (وكان أبوه هذا من الدعاة الأولين للمسيحية) واسم أمه سالومى Salome، وهى قديسة شهيرة ورد ذكرها فى الأناجيل وهى قريبة السيدة مريم العذراء. وقد جاءت من زبدى بالرسول يوحنا الإنجيلى الذى نتحدث عنه وبالرسول يعقوب الكبير أو جاك الكبير St Jacques le majeur (ويعقوب الكبير هو كذلك من كبار الحواريين الاثنى عشر. وقد استشهد سنة ٤٤م). وقد باركهما المسيح منذ طفولتهما لما قدمتهما إليه سالومى فوضع أحدهما على يمينه والآخر على يساره. وقد كتب يوحنا إنجيله هذا باليونانية فى أواخر القرن الأول الميلادى (حوالى سنة ٩٠ على الأرجح). وهو يختلف عن الأناجيل الثلاثة الأخرى (التى تكاد تكون متحدة فى معظم ما تشتمل عليه) بعنايته بالرد على الأخطاء والبدع الدينية التى استحدثت فى عصره، كما أنه جاء مكملا للأناجيل الثلاثة فى كثير من العقائد والتاريخ الدينى - وللرسول يوحنا كذلك أربعة أسفار أخرى فى العهد الجديد سيأتى ذكرها. وقد توفى بين سنتى ٩٨ و١٠٠م. V. Larousse du xxe siécle mots: Evangile et St Jean.
هذا، وفى بعض النسخ: «يوحنا بن زيدى» بياء بعد الزاى، وهو تحريف.

مُرقاص[٧٤١] تلميذه. واختلفت هذه النسخ الأربع من الإنجيل[٧٤٢]. مع أنها ليست كلها وحيًا صرفًا بل مشوبة بكلام عيسى عليه السلام، وبكلام الحواريين؛ ولكنها مواعظ وقصص؛ والأحكام فيها قليلة جداً. واجتمع الحواريون الرسل لذلك العهد برومة، ووضعوا قوانين الملة النصرانية، وصيروها بيد أقليمنطس[٧٤٣] تلميذ بطرس[٧٣٧]، وكتبوا فيها عدد الكتب التى يجب قبولها والعمل بها.

فمن شريعة اليهود القديمة التوراة، وهى خمسة أسفار، وكتاب يوشع، وكتاب القضاة، وكتاب راعوث، وكتاب يهوذا، وأسفار الملوك أربعة، وسفر

---

(٧٤١) هو الرسول مرقص أو مارك الإنجيلى St Marc I'Evangiliste من التلاميذ السبعين وقد صاحب الرسول بولس (والرسول بولس من كبار الحواريين وله فى العهد الجديد أربعة عشر سفرًا سيأتى ذكرها) والقديس برنابا St Barnabe (والقديس برنابا من التلاميذ السبعين وقريب الرسول مرقص. وينسب إلى برنابا إنجيل جاءت فيه بشارة المسيح برسولنا عليه السلام، وينسب إليه كذلك سفر آخر فى تاريخ الرسل. وكلا السفرين لا يعترف المسيحيون بهما ولا بنسبتهما إلى برنابا) فى دعوتهما إلى المسيحية فى قبرص وآسيا الصغرى. ثم صحب الرسول بطرس (انظر تعليق ٧٣٧) وتبعه إلى روما. وبعد استشهاد الرسول بطرس شخص الرسول مرقص إلى مصر، ونشر فيها المسيحية وأنشأ بها بطرياركة الإسكندرية التى يتولاها إلى الآن بطاركة الأقباط بمصر - وقد اختاره أهل فينيسيا (البندقية) حاميًا لمدينتهم. وله فيها كنيسة تعد من أجمل كنائس العالم وأفخمها وأدقها عمارة وأغناها بالآثار الفنية - ولد ببيت المقدس واستشهد فى مصر حوالى سنة ٦٧م - هذا، وقد كتب إنجيل مرقص فى الفترة نفسها التى دون فيها إنجيل لوقا، وكتب باليونانية لا باللاتينية كما يقول ابن خلدون. ولا يقول المسيحيون بأن بطرس هو الذى كتبه، كما يذكر ابن خلدون، وإنما يقولون: إنه كُتب تحت إشرافه، وإن مرقص قد رجع إليه فى بعض حقائقه واستمد منه بعض الذكريات. وقد اعتمد ابن خلدون فيما ذكره على ما رواه ابن البطريق.

(٧٤٢) لا يكاد يوجد خلاف يعتد به بين أناجيل متَّى ومرقص ولوقا. أما إنجيل يوحنا فيختلف عن هذه الأناجيل الثلاثة فى النواحى التى أشرنا إليها فى تعليق ٧٤٠.

هذا، ولما كان إنجيل متَّى هو أقدم الأناجيل الأربعة جميعًا (انظر تعليق ٨٣٨)، وإنجيل يوحنا هو أحدثها (انظر تعليق ٧٤٠) وكان تدوين إنجيلى مرقص ولوقا فى زمن واحد بين هاتين الفترتين (انظر تعليقى ٧٣٩ و٧٤١) لذلك جرت العادة فى العهد الجديد بوضع الأناجيل الأربعة على الترتيب التالى: إنجيل متى؛ فإنجيل مرقص؛ فإنجيل لوقا؛ فإنجيل يوحنا - ومن هذا يظهر أن الترتيب الذى سار عليه ابن خلدون ليس ترتيبًا تاريخيًا.

(٧٤٣) هو القديس أقليمونتس أو كليمان الأول Clé ment 1' تلميذ بطرس (تعليق ٧٣٧) وقد تولى أقليمونتس كرسى البابوية بروما من سنة ٨٨ أو ٩١ إلى سنة ٩٧ أو ١٠٠ م، ونسبت إليه كتب كثيرة معظمها موضوع. والرسالة التى أصبحت من المحقق أنها له هى رسالة عنوانها، «الرسالة الأولى إلى أهل قورنثة أو كورنثوس» وهى التى حررها للقضاء على الاضطراب ووضع الأمور فى نصابها فى كنيسة قورنثة، وهى غير الرسالة الأولى للرسول بولس إلى أهل قورنثة التى تعد من أسفار العهد الجديد وسيأتى ذكرها.

بنيامين، وكتب المقابيين لابن كريون ثلاثة، وكتاب عزرا الإمام، وكتاب أوشير وقصة هامان، وكتاب أيوب الصديق، ومزامير داود عليه السلام، وكتب ابنه سليمان عليه السلام خمسة، ونُبوَّات الأنبياء الكبار والصغار ستة عشر، وكتاب يشوع بن شارخ وزير سليمان(٧٤٤).

(٧٤٤) اعتمد اليهود من أسفارهم تسعة وثلاثين سفرًا اعتبروها أسفارا مقدسة أى موحى بها، وأطلقوا عليها اسم «الأسفار» أو «الكتب» Les Ecritures، ثم أطلق عليها فى العصور اسم «العهد الجديد». ـ ويراد بكلمة «العهد» فى هاتين التسميتين ما يرادف معنى الميثاق؛ أى إن كلتا المجموعتين تمثل ميثاقا أخذه الله على الناس وارتبطوا به alliance: فأولاهما تمثل ميثاقا قديما من عهد موسى؛ والأخرى تمثل ميثاقا جديدا من عهد عيسى.

وتنقسم أسفار العهد القديم أربعة أقسام:

(القسم الأول) التوراة أو كتب موسى بحسب ما يزعم اليهود أو الأسفار الخمسة pentateuque du grec penta =einq et «teukhos =livre» وهى: سفر «التكوين» Genese (ويقص تاريخ العالم من «تكوين» السماوات والأرض إلى استقرار أولاد يعقوب فى أرض مصر)؛ وسفر «الخروج» Exode (ويعرض تاريخ بنى إسرائيل فى مصر وقصة موسى ورسالته و«خروجه» مع بنى إسرائيلم، وتاريخهم فى سيناء. ويشتمل كذلك على طائفة من أحكام الشريعة اليهودية)؛ وسفر «اللاويين» Lévitiques (انظر تعليق ٧٢٦)؛ وسفر «العدد» Nombres (شغل معظمه بإحصائيات عن قبائل بنى إسرائيل وجيوشهم وأموالهم وكثير مما يمكن إحصاؤه و«عده» من شئونهم وبأحكام تتعلق بطائفة من العبادات والمعاملات)؛ وسفر «التثنية» Deuteronome, du grec deutéronomion =seconde loi (شغل معظمه بأحكام الشريعة اليهودية الخاصة بالحروب والسياسة وشئون الاقتصاد والمعاملات والعقوبات والعبادات.. وهلم جرا. وسمى «التثنية»؛ لأنه «يعيد» ذكر التعاليم التى تلقاها موسى من ربه وأمر بتبليغها إلى بنى إسرائيل).

(والقسم الثانى) الأسفار التاريخية، وهى اثنا عشر سفرا، وهى: «يوشع» Josue (هو فتى موسى وخليفته وهو الذى قاد جيش بنى إسرائيل فى دخوله بلاد كنعان وإغارته على أهلها بعد موت موسى)؛ «والقضاة» Juges (وهم الذين تولوا شئون الحكم بعد استيلاء بنى إسرائيل على بلاد كنعان)؛ «وراغوث» Ruth (هى جدة داود من جهة أبيه)؛ «وصموئيل» سفران (هو أحد أنبيائهم وآخر قضاتهم. وهو الذى عين لهم أول ملوكهم. وقد وردت قصته فى القرآن الكريم فى الآيات ٢٤٦ ـ ٢٤٨ من سورة البقرة ووردت بعد ذلك قصة أول ملك من ملوكهم فى آيات ٢٤٩ ـ ٢٥١)؛ و«الملوك» سفران (وهم الذين تولوا الحكم بعد القضاة وأولهم طالوت Saul ثم داود وسليمان. ولكن السفر الأول من سفرى الملوك يبدأ بتاريخ سليمان)؛ و«أخبار الأيام» سفران Croniques (تعرض الأصحاحات التسعة الأولى من السفر الأول لشجرة النسب من آدم إلى بنى إسرائيل. وما بقى من هذا السفر يعرض لتاريخ داود. وتعرض الأصحاحات التسعة الأولى من السفر الثانى لتاريخ سليمان. وما بقى من هذا السفر يعرض للتاريخ السياسى لبنى إسرائيل بعد سليمان)؛ و«عزرا» Esdras (يرجع إليه الفضل فى إعادة طائفة من بنى إسرائيل فى القرن الخامس ق م من منفاهم فى بابل إلى أوطانهم. وقد حرر الديانة اليهودية وأعاد إليها بعض معالمها. وجدد بناء بيت المقدس. وإليه ينسب تحرير كثير من أسفار العهد القديم التى كانت قد احترقت فى أثناء الغزو البابلى. وقد نال عزرا منزلة كبيرة فى =

= نفوس بنى إسرائيل. حتى لقد اعتقدت بعض فرقهم أنه ابن الله. وإلى هذا يشير القرآن الكريم إذ يقول: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾. (آية ٣٠ من سورة التوبة)؛ و«نحميا» Nehemie (ساعد عزرا فى إعادة تشييد فلسطين. وحصل من ملك الفرس على موافقته على ذلك) و«إستير» Esther (يهودية كانت زوجة لأحد ملوك الفرس وهو إخشرشيش Assureus وأحبطت مؤامرة دبرها أحد وزراء هذا الملك واسمه هامان. وعملت على القضاء عليه وعلى أعوانه فى هذه المؤامرة. وساعدها فى ذلك يهودى آخر اسمه مردخاى - وهامان المذكور فى هذه القصة هو غير هامان وزير فرعون الذى ورد ذكره فى آية ٣٨ من سورة القصص وفى آيتى ٣٦، ٣٧ من سورة غافر).

(والقسم الثالث) يسمى أسفار الأناشيد أو الأسفار الشعرية. وهى أناشيد ومواعظ معظمها دينى مؤلفة تأليفا شعريا فى أساليب بليغة. وعددها خمسة أسفار. وهى سفر «أيوب» Job (يبدو من عبارات هذا السفر أن أيوب صاحبه من بنى عيسو أخو يعقوب التوأم. وليس من بنى إسرائيل. وهو أيوب المذكور فى القران)، و«مزامير داود» Psaumes؛ و«أمثال سليمان» Proverbes؛ و«الجامعة من كلام سليمان» Ecclesiastes؛ و«نشيد الأناشيد» لسليمان Cantique des cantiques.

(والقسم الرابع) يسمى أسفار الأنبياء. وعددها سبعة عشر سفرا. وهى: «أشعياء» Esaie؛ و«أرمياء» Jeremie؛ و«مراثى أرمياء» Lamentations de Jérémie؛ و«حذقيال» Ezechiel؛ و«دانيال» Daniel؛ و«هوشع» Osée؛ و«يوئيل» Joél؛ و«عاموس» Amos و«عوبديا» Abdias؛ و«يونس» أو «يونان» Jonas؛ و«ميخا» Niche؛ و«ناحوم» Nahum؛ و«حبقوق» Habakuk؛ و«صفنيا» Sophonie؛ و«حجى» Aggee؛ و«زكريا» Zacharie (وهو غير زكريا «أبو يحيى» الذى ورد ذكره فى القرآن وفى الأناجيل)؛ و«ملاحى» أو «ملاخيا» Malachié وجميع هؤلاء الأنبياء إسرائيليون وأرسلوا إلى بنى إسرائيل ماعدا يونس فإنه يظهر من عبارات كتابه أنه مرسل إلى نينوى، وهو النبى يونس المذكور فى القرآن.

هذا. وقد دونت جميع أسفار العهد القديم بلغة واحدة. وهى اللغة العبرية، وإن كانت التراكيب والأساليب وبعض المفردات تختلف باختلاف هذه الأسفار وتنم على العصور التى ألف فيها كل سفر منها. ولا يستثنى من ذلك إلا بعض أجزاء يسيرة ألفت من أول الأمر باللغة الآرامية، وهى بعض أجزاء من سفرى عزرا Esdras ودانيال وفقرة واحدة من سفر أرمياء Jérémie وكلمتان اثنتان فى سفر التكوين وردتا باللغة الآرامية عن قصد - وقد أخطأ بعض مؤرخى العرب إذ قرروا أن جميع ما فى العهد القديم مدون باللغة العبرية.

وأقدم ترجمة للعهد القديم هى الترجمة «السبعينية» Version de septanté وهى التى ترجمته إلى اللغة اليونانية وتمت فى سنتى ٢٨٢ و٢٨٣ قبل الميلاد على يد اثنين وسبعين فقيها من يهود مصر، من كل سبط من الأسباط اليهودية الاثنى عشر ستة فقهاء، بأمر بطليموس فيلادلف ملك مصر حينئذ؛ وكان ذلك لفائدة اليهود الذين كانوا يسكنون مصر حينئذ ويتكلمون اليونانية.

وتشتمل الترجمة السبعينية على أربعة عشر سفراً لا توجد فى الأصل العبرى، وهى: سفر «طوبيا» Tobié (وهو وصف لسيرة يهودى اسمه طوبيا وسيرة ابنه وقد كانا أسيرين فى نينوى فى أرض بابل فى القرن السابع ق م)، وسفر «الحكمة لسليمان» Sagesse de Salomon (ويشتمل على أمثلة حكمية وعظات =

الأربعة، وكتب القتاليقون سبع رسائل، وثامنها الإبريكسيس فى قصص

= بليغة لسليمان. وقد كتب لمقاومة الوثنية) وسفر «يهوديت» Judith (يتضمن قصة انتصار اليهود على قائد الجيش الأشورى بمساعدة يهوديت، وهى أرملة يهودية جميلة وغنية وتقية)؛ وسفر «الكهنوت» أو سفر «الحكمة» ليسوع بن سيراخ» L'Ecclesiastique, ou Sagesse de Jésus Fils de sirach (وهو مجموعة أمثال على غرار أمثال سليمان)؛ و«تسبيحة الفتية الثلاثة» Cantique de Trois Enfants (وهى الكلمات التى يقال إنه سبح بها أصدقاء دانيال الثلاثة وهم فى أتون النار)؛ وسفر «سوزان» أو «قصة سوسنة العفيفة» suzane (ويشتمل على تمجيد النبى دانيال لقاض دحض وشاية ضد سوسنة العفيفة)؛ وسفر «بيل والتنين» Bel et le Dragon (ألحقت هذه القصة بسفر دانيال. وهى تبين كيف اقتنع الملك كورش ببطلان عبادة الأصنام)؛ وثلاثة أسفار منسوبة لعزرا زيادة على السفر المثبت فى الأصل العبرى؛ وأسفار «المكابيين» وعددها أربعة أسفار Macca bees (والمكابيون هم الذين حكموا فلسطين حكمًا وطنيا فى عهد الرومان فى القرن الثانى ق. م وقد جاء اسمهم هذا من الشعار الذى كانوا يتخذونه لأنفسهم ويكبرون به فى الحروب، وهو «مى كاموخا بجيِّيم يهوڤا؟» أى «من مثلك بين الأمم يا إلهنا؟ أو «ليس كمثلك شيء يارب» أو كما نقول نحن «الله أكبر» فأخذ من كل كلمة الحرف الأول منها (م كاب ى) وجعل مجموع هذه الحروف (مكابى) اسما أو وصفا لكل منهم ومن ثم اشتهروا باسم المكابيين).
وأضيف كذلك فى الترجمة السبعينية بعض زيادات فى سفر دانيال نفسه. وعن الترجمة السبعينية تُرجمتْ أسفار العهد القديم إلى اللغة اللاتينية La Vulgate Latine ومع أن هذه الترجمة اللاتينية كانت ترجمة للسبعينية اليونانية. فإنها لم تأت مطابقة لها كل المطابقة. فقد اشتملت على سفرين اثنين فقط للمكابيين (أسفار أربعة فى السبعينية). وحذف منها أسفار عزرا الثلاثة التى زيدت فى السبعينية على الأصل العبرى. واشتملت على سفر يسمى سفر «باروخ» Baruch لا وجود له فى السبعينية (وباروخ هذا تلميذ أرمياء، وقد أملى عليه أرمياء تنبؤاته، وسفره هذا يمكن أن يعد من أسفار الأنبياء ويلحق بسفر أرمياء ومراثى أرمياء. ويتضمن هذا السفر صلوات وأدعية دينية لليهود ألفت بأسلوب رائع بليغ. ويرجع تاريخ باروخ إلى حوالى القرن السادس ق. م)، كما اشتملت على بعض زيادات فى سفر إستير. وهى سبع إضافات لتكملة قصة استير ومردخاى وهامان. وفيما عدا ذلك لا يوجد بين الترجمتين خلاف نوبال.
وفضلا عن الأجزاء والأسفار التى تزيد بها الترجمتان اليونانية واللاتينية على الأصل العبرى فإنهما فى بعض المواضع لا تنطبقان على هذا الأصل تمام الانطباق. ولم تعرف إلى الآن على وجه اليقين الأسباب التى أدت إلى هذه الزيادات وهذا الاختلاف.
وقد أقرت الكنيسة الكاثوليكية جميع الأسفار والأجزاء التى تزيد بها الترجمة اللاتينية عن الأصل العبرى واعتبرتها كلها أسفاراً وأجزاءً مقدسة واعتبرتها من أسفار العهد القديم وأجزائه. ولكن معظم البروتستانت لا يعتبرون هذه الزيادات مقدسة ولا يعتبرونها من العهد القديم. وأما اليهود أنفسهم فإنهم يدخلون فى القسم الذى يسمونه «الأسفار الخفية» Apocryphes جميع ما تزيد به الترجمتان عن الأصل العبرى من أسفار وأجزاء. و«الأسفار الخفية» عندهم لا يدخل شيء منها فى العهد القديم. ولكن بعضها يمكن أن يكون مقدساً.
ومن هذا يتبين أنه يرد على ما قاله ابن خلدون فى صدد «العهد القديم» الملاحظات الآتية:
١ - ذكر ابن خلدون خمسة كتب فقط من الكتب التى تزيد بها الترجمتان اليونانية واللاتينية عن الأصل العبرى، وهى: سفر «يهوديت» وقد حرف اسم صاحب هذا السفر من المؤلف أو من الناسخ إلى كتاب «يهوذا»؛ و«كتب المقابيين لابن كريون ثلاثة» (وهى الكتب التى سبق ذكرها فى زيادات الترجمة اليونانية - وأما كلمة ابن كريون فيظهر أنها تحريف لكلمة يس الكريونى نسبة إلى «كريان» أو «جريان» أو «جبل جريان» Djebel Gharian, Cyrenaique وهو اسم قديم لمقاطعة برقة بليبيا - ويس الكريونى هذا قد =

الرسل، وكتاب بولس أربع عشرة رسالة، وكتاب أقليمنطس وفيه الأحكام، وكتاب أبو غالمسيس وفيه رؤيا يوحنًا بن زبدى[٧٤٥].

= اختصر أسفار المكابيين الأربعة كلها فى ثلاثة أجزاء. وهذا هو ما عناه ابن خلدون بقوله «وأسفار المكابيين لابن كريون فى ثلاثة أجزاء»)؛ و«كتاب يشوع بن شارخ وزير سليمان» («وقد حرف ابن خلدون اسم صاحب السفر وصوبه «يسوع سيراخ») وهو يسوع بن سيراخ بن سيراخ بن يسوع. وقد عاش صاحب هذا السفر بعد النفى البابلى، أى بعد سليمان بأمد طويل، فلا يمكن أن يكون وزيراً لسليمان، كما يقول ابن خلدون إنما جده الثانى يسوع هو الذى يحتمل أن يكون فى عهد سليمان. ويسمى هذا السفر كذلك «سفر الكهنوت» أو «السفر الكهنوتى» كما تقدم.

٢ ـ ذكر ابن خلدون سفراً لا وجود له فى الأسفار المعتمدة ولا فى الأسفار الخفية وهو سفر «بنيامين»، ولعل هذا الاسم تحريف من المؤلف أو من الناسخ لسفر «نحميا» Nehemi (من الأسفار التاريخية) أو تحريف لسفر «بل والتنين» (من الأسفار التى تزيد بها الترجمة اليونانية).

٣ ـ أسفار الملوك فى العهد القديم سفران وليست أربعة أسفار كما يقول ابن خلدون ولعله عد السفرين الخاصين بأخبار الأيام من أسفار الملوك لاشتمالهما كذلك على تاريخ كثير من ملوك بنى إسرائيل كما تقدمت الإشارة إلى ذلك.

٤ ـ الكتب المنسوبة لسليمان فى العهد القديم أربعة أسفار وليست خمسة كما يقول ابن خلدون: ثلاثة منها فى الأصل العبرى وهى: «الأمثال»؛ و«الجامعة»؛ و«نشيد الأناشيد»، وكتاب زادته الترجمة السبعينية وهو كتاب «الحكمة».

٥ ـ أسفار الأنبياء الكبار والصغار عددها سبعة عشر سفراً لا ستة عشر كما يقول ابن خلدون ولعله اعتبر سفر «أرمياء» وسفر «مراثى أرمياء» سفراً واحداً.

٦ ـ سمى ابن خلدون سفر «إستير» كتاب «أوشير وقصة هامان»؛ لأن هذا الكتاب يشتمل على ما فعلته إستير وهامان كما تقدم «وأوشير» هو تحريف لكلمة «استير».

٧ ـ أغفل ابن خلدون من الأسفار المعتمدة فى العهد القديم خمسة أسفار وهى: كتابا «صموئيل» الأول والثانى؛ و«أخبار الأيام» الأول والثانى (أو لعله جعلهما سفرين من أسفار الملوك كما سبقت الإشارة إلى هذا الاحتمال)؛ وسفر «نحميا» (أو لعل هذا السفر حرفه المؤلف أو الناسخ إلى بنيامين كما سبقت الإشارة إلى ذلك).

انظر تفصيل هذا الموضوع فى كتابنا «الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام» صفحات ١٢-٢١.

(٧٤٥) اعتمد من أسفار المسيحيين المقدسة سبعة وعشرون سفراً أطلق عليها اسم «العهد الجديد» للتفرقة بينها وبين أسفار اليهود التى أطلق عليها اسم «العهد القديم» (انظر أول تعليق ٧٤٤) وهى خمسة أقسام:

(أولاً) الأناجيل الأربعة التى تقدم الكلام عليها فى تعليقات ٧٣٨ ـ ٧٤٢ .

(ثانياً) «أعمال الرسل» أو «تاريخ الرسل» Acts des Apotres (ويقصد بهم الحواريون) للرسول لوقا (انظر ترجمته فى تعليق ٧٣٩).

(ثالثا) رسائل الرسول بولس Epitres de paul (وقد اعتنق بولس المسيحية بعد أن كان من ألد أعدائها وبعد رفع المسيح، وذلك على أثر ظهور المسيح له ـ كما يزعم المسيحيون ـ فى عمود من نور وهدايته له. وأصبح من ذلك الحين من أشد أنصار المسيحية وأكبر دعاتها. وبفضل رسائله هذه أصبح له فى تاريخ المسيحية وعقائدها وشرائعها أكبر شأن، حتى إن المسيحية الحاضرة ـ بما فيها من عقيدة =

واختلف شأن القياصرة فى الأخذ بهذه الشريعة تارة وتعظيم أهلها، ثم تركها أخرى والتسلط عليهم بالقتل والبغى؛ إلى أن جاء قسطنطين وأخذ بها واستمروا عليها.

وكان صاحب هذا الدين والمقيم لمراسمه يسمونه البَطْرَك، وهو رئيس الملة عندهم وخليفة المسيح فيهم يبعث نوابه وخلفاءه إلى ما بَعُدَ عنه من أمم

= التثليث وألوهية المسيح - لتنسب إليه أكثر مما تنسب إلى غيره - انظر تفصيل ترجمته فى كتابنا «الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام» صفحات ٦٨، ٧١، ٧٢ وعددها أربع عشرة رسالة، وهى: رسالته إلى الرومان Romains؛ ورسالتاه الأولى والثانية إلى أهل كورنثوس Corenthiens؛ ورسالته إلى أهل غلاطية Galates؛ ورسالته إلى أهل إفسوس Ephésiens؛ ورسالته إلى أهل فيلبِّى Philippiens؛ ورسالته إلى أهل كولوسى Colossiens؛ ورسالتاه الأولى والثانية إلى أهل تَسَالونيكى Thessaloniciens؛ ورسالتاه الأولى والثانية إلى تلميذه تيموثاوس Timothée؛ ورسالته إلى تلميذه تيُطس Tite؛ ورسالته إلى تلميذه فيليمون Philemon؛ ورسالته إلى العبرانيين Hebreux.

(رابعاً) الرسائل الكاثوليكية Epîtres Catholiques. ويطلق هذا الاسم على سبع رسائل، وهى: رسالة الرسول يعقوب الصغير Epître de St Jacques Le Mineur (من الحواريين الاثنى عشر، استشهد سنة ٦٢م)؛ والرسالتان الأولى والثانية لبطرس الرسول (انظر ترجمته فى تعليق ٧٣٧)؛ والرسائل الثلاث ليوحنا (انظر ترجمته فى تعليق ٧٤٠)؛ ورسالة يهوذا Epitre de Jude (ويسمى كذلك «تَدِّى» Thaddée ولِبِّى Lebbée وهو من الحواريين الاثنى عشر، وهو أخو يعقوب الصغير Jacques le Mineur).

(خامساً) رؤيا يوحنا أو «بيوكاليبس يوحنا» (أبوكاليبسس Apokalupsis كلمة يونانية معناها الوحى أو الرؤيا، ومنها الكلمة الفرنسية Apocalypse - ويوحنا هذا هو يوحنا بن زبدى الإنجيلى الذى تقدمت ترجمته فى تعليق ٧٤٠. ويقال له: يوحنا الرسائلى، لأن له ثلاث رسائل من الرسائل الكاثوليكية السابق ذكرها فى القسم الرابع. ويقال له كذلك: يوحنا اللاهوتى نظراً إلى هذا الوحى أو هذه الرؤيا أو هذه التنبؤات التى تنبأ بها فى هذا السفر).

***

ومن هذا يتبين أنه يرد على ما قاله ابن خلدون فى صدد «العهد الجديد» الملاحظات الآتية:

١ - ليس من أسفار العهد الجديد ما سماه ابن خلدون «كتاب إقليمنتس فى الأحكام» (انظر ترجمة إقليمنتس فى تعليق ٧٤٣).

٢ - ما سماه ابن خلدون كتب القتاليقون هى الرسائل الكاثوليكية السبع التى تقدم الكلام عليها فى القسم الرابع من أسفار العهد الجديد. و«قتاليقون» هو تعريب كلمة كاتوليكيون Catholiques.

٣ - ما سماه ابن خلدون «الإبريكسيس» (هكذا فى «ل» و«م»، وفى «ن» إيركسيس بالياء وهو تحريف) فى «قصص الرسل» هو كتاب «أعمال الرسل» أو «تاريخ الرسل» السابق ذكره فى القسم الثانى من أقسام العهد الجديد ويُقصد بكلمة الرسل هنا الحواريون. وهو للقديس لوقا، وقد كتبه باليونانية. و«إبركسيس» هى تعريب الكلمة اليونانية «بركسيس» Praxis أى أعمال.

٤ - ما سماه ابن خلدون كتاب أبو غالمْسيس هو «أبو كالِيبْسِس يوحنا» أو «رؤيا يوحنا» الذى تقدم ذكره فى القسم الخامس من أقسام العَهد الجديد.

النصرانية، ويسمونه(٧٤٦) الأسقف أى نائب البطرك. ويسمون الإمام الذى يقيم الصلوات ويفتيهم فى الدين بالقسيس. ويسمون المنقطع الذى حبس نفسه فى الخلوة للعبادة بالراهب. وأكثر خلواتهم فى الصوامع. وكان بطرس٧٣٧ الرسول رأس الحواريين وكبير التلاميذ برومة يقيم بها دين النصرانية إلى أن قتله نيرون خامس القياصرة٧٣٧ فيمن قتل من البطارق والأساقفة؛ ثم قام بخلافته فى كرسى رومة أريوس(٧٤٧). وكان مُرْقاس٧٤١ الإنجيلى بالإسكندرية ومصر والمغرب داعيًا سبع سنين؛ فقام بعده حنانيا وتَسَمَّى بالبطرك وهو أول البطاركة فيها. وجعل معه اثنى عشر قسًا على أنه إذا مات البطرك يكون واحد من الاثنى عشر مكانه، ويختار من المؤمنين واحداً مكان ذلك الثانى عشر. فكان أمر البطاركة إلى القسوس. ثم لما وقع الاختلاف بينهم فى قواعد دينهم وعقائده واجتمعوا بنيقية(٧٤٨) أيام قسطنطين لتحرير الحق فى الدين، واتفق ثلثمائة وثمانية عشر من أساقفتهم على رأى واحد فى الدين، فكتبوه وسموه الإمام، وصيروه أصلا يرجعون إليه(٧٤٨ب). وكان فيما كتبوه

---

(٧٤٦) أى يسمون من يبعثه البطرك إلى ما بعد عنه من أمم النصرانية.

(٧٤٧) قام بخلافة بطرس فى كرسى البابوية بروما القديس لان St Lin (٦٤ - ٧٦م)؛ ثم القديس كليت St Clet (٧٦ - ٨٨م)؛ ثم القديس إقليمونتس الأول St Clément I (٨٨ - ٩٧م انظر ترجمته فى تعليق ٧٤٣)؛ ثم القديس إيفارست» St Evariste (٩٧ - ١٠٥م)... إلخ (انظر قائمة البابوات) فى Larousse du XXe siécle.

أما القسيس أريوس Arius الذى يذكره ابن خلدون فلم يتولَّ مطلقًا كرسى البابوية ولا ما يقرب منه. هذا إلى أنه قد ولد بعد وفاة بطرس بأكثر من قرنين، فلا يعقل أن يكون خليفة مباشرًا له. فقد ولد بالإسكندرية سنة ٢٨٠ على حين أن الرسول بطرس استشهد سنة ٦٧ على الأرجح كما تقدم (انظر تعليق ٧٣٧). وقد رسم أريوس قسيسًا فى عهد أسقف الإسكندرية أشيلاس Achillas. وأخذ منذ سنة ٣٢٣ يجهر بمذهبه فى نفى الطبيعة اللاهوتية للمسيح أو للكلمة Le Verbe. ولذلك حكم مجمع نيقية Nicée بتجريده من ألقابه الكهنوتية وشلحه سنة ٣٢٥. وتوفى بالقسطنطينية سنة ٣٣٨ بعد أن كادت تنجح مساعى التوفيق بينه وبين الكنيسة.

انظر فى ذلك كتابنا «الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام» ١٠١، ١٠٢.

(٧٤٨) نيقية Nicée بلد قديم فى آسيا الصغرى (وتسمى الآن إسنيك Isnik). وقد عُقد فيه مجمعان دينيان مهمان: أولهما الذى يشير إليه ابن خلدون، وقد عقد سنة ٣٢٥ فى عهد قسطنطين؛ وثانيهما عقد سنة ٧٨٧.

(٧٤٨ب) اتخذ فى مجمع نيقية الأولى قرارات أخرى كثيرة غير ما ذكره ابن خلدون، وكان أهم هذه القرارات القرار الخاص بألوهية المسيح، بل إن البت فى شخصية المسيح كان السبب الرئيسى لاجتماع مجمع نيقية الأول (انظر تفصيل ذلك فى كتابنا «الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام» صفحتى ١٠٢، ١٠٣).

أن البطرك القائم بالدين لا يرجع فى تعيينه إلى اجتهاد الأقسة(٧٤٩) كما قرره حنانيا تلميذ مرقاس^٧٤١، وأبطلوا ذلك الرأى، وإنما يقدم عن ملأ واختيار(٧٥٠) من أئمة المؤمنين ورؤسائهم؛ فبقى الأمر كذلك. ثم اختلفوا بعد ذلك فى تقرير قواعد الدين وكانت لهم مجتمعات فى تقريره. ولم يختلفوا فى هذه القاعدة؛ فبقى الأمر فيها على ذلك. واتصل فيهم نيابة الأساقفة عن البطاركة.

وكان الأساقفة يدعون البطرك بالأب [الأعظم تعظيما له. فصار الأقسة يدعون الأسقف فيما غاب عن البطرك بالأب] أيضاً تعظيماً له(٧٥١). فاشتبه الاسم فى أعصار متطاولة، يقال آخرها بطركية هرقل بالإسكندرية؛ فأرادوا أن يميزوا البطرك عن الأسقف فى التعظيم فدعوه البابا، ومعناه أبو الآباء. وظهر هذا الاسم أول ظهوره بمصر على ما زعم جرجيس بن العميد فى تاريخه. ثم نقلوه إلى صاحب الكرسى الأعظم عندهم وهو كرسى روما؛ لأنه كرسى بطرس الرسول^٧٣٧ كما قدمناه. فلم يزل سِمَةً عليه إلى الآن.

ثم اختلفت النصارى فى دينهم بعد ذلك، وفيما يعتقدونه فى المسيح وصاروا طوائف وفرقًا، واستظهروا بملوك النصرانية كل على صاحبه. فاختلف الحال فى العصور فى ظهور فرقة دون فرقة، إلى أن استقرت لهم ثلاث طوائف هى فرقهم ولا يلتفون إلى غيرها، وهم الملكية واليعقوبية والنسطورية(٧٥٢). [ولم نر أن نُسَخِّم(٧٥٣) أوراق الكتاب بذكر

---

(٧٤٩) هكذا فى جميع النسخ والمعروف فى جمع قَس وقسيس هو قسوس وقسيسون وقساوسة (من المصباح والقاموس والصحاح).

(٧٥٠) فى «م» و«ن»: «عن ملأ واختيار»؛ وفى «ل»: «عن بلاء واختبار». ـ والعبارة الأولى أوضح وأكثر اتساقًا مع المعنى المراد ومع سياق الحديث.

(٧٥١) المحصور بين هذين القوسين مثبت فى «التيمورية». وساقط من غيرها، وهو سقط فى النسخ أو سقط مطبعى كما لا يخفى، ولا تستقيم العبارة بدونه.

(٧٥٢) اليعقوبية أو اليعاقبة هم أتباع يعقوب بارادوس Jocob Barados القائل بوحدة طبيعة المسيح أى إنها طبيعة إلهية خالصة. والنسطورية أو النساطرة هم أتباع نستوريوس Nestorius القائل بازدواج طبيعة المسيح أى بأنه جامع بين الطبيعتين الإلهية والإنسانية. والمذهب الملكى أو الملكانى هو المذهب الرسمى الذى أخذت به قياصرة الدولة الرومانية الشرقية؛ ومن ثم سمى الملكى أو الملكانى نسبة إلى الملك. وقد عرّف به ابن حزم فى كتابه «الفصل فى الملل والنحل» إذ يقول: الملكانية وهى مذهب جميع ملوك النصارى حيث كانوا ما عدا الحبشة والنوبة». وأخطأ الشهرستانى فى التعريف بأصل الكلمة إذ يقول فى كتابه «الملل والنحل»: «الملكانية أصحاب ملكا الذى ظهر بالروم واستولى عليها». فليس هناك فى تاريخ النصرانية شخص اسمه «ملكا» ابتدع مذهبًا واستولى على بلاد الروم والمذهب الملكانى يختلف عن المذهبين اليعقوبى والنسطورى فى تصور طبيعة المسيح وفى بعض فروع الديانة.

(٧٥٣) «السُّخَم السواد، وسَخَّم وجهه سوّده» (القاموس).

مذاهب كفرهم، فهى على الجملة معروفة، وكلها كفر كما صرح به القرآن الكريم، ولم يبق بيننا وبينهم فى ذلك جدال ولا استدلال، إنما هو الإسلام أو الجزية أو القتل][٧٥٤].

ثم اختصت كل فرقة منهم ببطرك؛ فبطرك روما اليوم المسمى بالبابا على رأى الملكية، وروما للإفرنجة وملكهم قائم بتلك الناحية. وبطرك المعاهدين بمصر على رأى اليعقوبية وهو ساكن بين ظهرانيهم؛ والحبشة يدينون بدينهم؛ ولبطرك مصر فيهم أساقفة ينوبون عنه فى إقامة دينهم هنالك. واختص اسم البابا ببطرك رومة لهذا العهد. ولا تسمى اليعاقبة بطركهم بهذا الاسم. وضبط هذه اللفظة بباءين موحدتين من أسفل، والنطق بها مفخمة والثانية مشددة[٧٥٥]. ومن مذاهب البابا عند الإفرنجية أنه يحضهم على الانقياد لَملِكٍ واحد يرجعون إليه فى اختلافهم واجتماعهم تحرجاً من افتراق الكلمة، ويتحرى به العَصَبية التى لا فوقها منهم، لتكون يده عالية على جميعهم، ويسمونه الإنْبِرَنُور؛ وحرفه الوسط بين الذال والظاء المعجمتين[٧٥٦]؛ ومباشرُه يضع التاج على رأسه للتبرك[٧٥٧] فيسمى المتوَّج؛ ولعله معنى لفظه الإنبرنور[٧٥٨].

وهذا ملخص ما أوردناه من شرح هذين الاسمين اللذين هما البابا والكوهن؛ والله يضل من يشاء ويهدى من يشاء.

---

(٧٥٤) العبارة التى وضعناها بين قوسين هكذا [ ] ساقطة من «ل» وسايرها فى ذلك «دار الكتاب اللبنانى»؛ ولكنها مثبتة فى «م» و«ن» وفى الترجمتين الفرنسية والتركية للمقدمة. ويظهر أن عدم وجودها فى «ل» لا يستند إلى نسخة خطية وأنها استبعدت عمداً فى أثناء الطبع مراعاة لشعور المسيحيين المواطنين فى البلد الذى ظهرت فيه هذه الطبعة وهو لبنان. وليس هذا غريبا على هذه الطبعة التى رأينا فيما سبق أنها تحذف من المقدمة فصولا برمتها حذفًا تحكميًا (انظر ص ٢٥٢ من تمهيدنا للمقدمة).

ويرجح الأستاذ ساطع الحصرى فى كتابه «دراسات عن مقدمة ابن خلدون » أن الفقرة المذكورة فقرة استطرادية قد زيدت بين سطور البحث فى النسخ الخطية بعد كتابتها الأولى وأيد رأيه هذا بأن الجملة معترضة مقحمة بين جزأين مرتبطين من الكلام؛ وبأنها لا تمثل موقف المسلمين حيال النصارى فى عصر ابن خلدون؛ وأنه يستبعد صدورها من قبل ابن خلدون الذى كان ملمًا كل الإلمام بأصول عصره؛ وأن ابن خلدون نفسه قد تكلم بالتفصيل فى الجزء الثانى من تاريخه على مذهب كل طائفة من طوائف النصارى، فليس هو إذن ممن يتحاشون التعرض لهذه الأمور (انظر صفحات ٦٣٤ ـ ٦٣٨ من كتاب الأستاذ ساطع الحصرى).

وانظر فى جميع ما يتعلق باليهود والنصارى كتابنا فى «الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام» صفحات ٥ ـ ١٢٤.

(٧٥٥) كلمة Pape أصلها فى اليونانية Pappas (فكلا الباءين فى اليونانية مفخمة والباء الثانية مشددة).

(٧٥٦) أصل الكلمة اللاتينية «إمبراتور Imperator» (وينطق بالميم بصوت قريب من النون لوجود الباء بعدها). فحرفه الواقع بعد الألف تاء وليس بين الذال والظاء المعجمتين كما يقول ابن خلدون.

(٧٥٧) أى والذى يباشر كرسى البابوية فى روما يضع التاج على رأس الإمبراطور ويتوجه ليباركه. وقد ظل تتويج البابوات للقياصرة معمولا به أمداً طويلا.

(٧٥٨) ليس فى كلمة الإمبراطور شىء من هذا المعنى الذى أشار إليه ابن خلدون؛ وإنما الأصل المأخوذ منه الكلمة يعنى الحكم والأمر والسلطان. lat. "Imperator", de "imperare" = commander

٣٤ ـ فصل فى مراتب الملك والسلطان وألقابها[٦٥ب]

اعلم أن السلطان فى نفسه ضعيف يحمل أمراً ثقيلا، فلابد له من الاستعانة بأبناء جنسه. وإذا كان يستعين بهم فى ضرورة معاشه وسائر مهنه فما ظنك بسياسة نوعه ومن استرعاه الله من خلقه وعباده. وهو محتاج إلى حماية الكافة من عدوهم بالمدافعة عنهم، وإلى كف عدوان بعضهم على بعض فى أنفسهم بإمضاء الأحكام الوازعة فيهم، وكف العدوان عليهم فى أموالهم بإصلاح سابلتهم(٧٥٩)، وإلى حملهم على مصالحهم، وما تعمهم به البلوى فى معاشهم ومعاملاتهم من تفقد المعايش والمكاييل والموازين حذراً من التطفيف، وإلى النظر فى السكَّة بحفظ النقود التى يتعاملون بها من الغش، وإلى سياستهم بما يريده منهم من الانقياد له والرضا بمقاصده منهم وانفراده بالمجد دونهم. فيتحمل من ذلك فوق الغاية من معاناة القلوب. قال بعض الأشراف من الحكماء: «لَمُعاناةُ نقل الجبال من أماكنها أهونُ علىَّ من معاناة قلوب الرجال».

ثم إن الاستعانة إذا كانت بأولى القربى من أهل النسب أو التربية أو الاصطناع القديم للدولة كانت أكمل، لما يقع فى ذلك من مجانسة خُلُقهم لخُلُقه، فتتم المشاكلة فى الاستعانة. قال تعالى: ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾(٧٦٠).

وهو إما أن يستعين فى ذلك بسيفه(٧٦١) أو قلمه أو رأيه أو معارفه أو بحجابه عن الناس أن يزدحموا عليه فيشغلوه عن النظر فى مهماتهم. أو يدفع النظر فى

---

(٧٥٩) «السابلة الجماعة المختلفة فى الطرقات فى حوائجهم» (المصباح).

(٧٦٠) آيات ٢٩ ـ ٣٢ من سورة طه، وهى سورة ٢٠، والكلام على لسان موسى داعياً ربه.

(٧٦١) أى بسيف من يستعين به، وكذلك مرجع الضمير فى الكلمات التالية. والمعنى يستعين بغيره فى شئون الحرب، أو فى شئون الكتابة، أو فى شئون الرأى والمعرفة والعلم، أو يستعين به فى أن يحجب الملك عن الناس أن يزدحموا عليه... إلخ. والعبارة ركيكة كما لا يخفى.

الملك كله[٧٦٢]، ويعول على كفايته فى ذلك واضطلاعه. فلذلك قد توجد[٧٦٢ب] فى رجل واحد وقد تفترق فى أشخاص. وقد يتفرع كل واحد منها إلى فروع كثيرة: كالقلم يتفرع إلى قلم الرسائل والمخاطبات، وقلم الصكوك والإقطاعات، وإلى قلم المحاسبات، وهو صاحب الجباية والعطاء وديوان الجيش؛ وكالسيف يتفرع إلى صاحب الحرب، وصاحب الشرطة، وصاحب البريد، وولاية الثغور.

ثم اعلم أن الوظائف السلطانية فى هذه الملة الإسلامية مندرجة تحت الخلافة لاشتمال منصب الخلافة على الدين والدنيا كما قدمناه[٧٦٣]. فالأحكام الشرعية متعلقة بجميعها وموجودة لكل واحدة منها فى سائر وجوهها، لعموم تعلق الحكم الشرعى بجميع أفعال العباد. والفقيه ينظر فى مرتبة الملك والسلطان وشروط تقليدها استبداداً على الخلافة وهو معنى السلطان، أو تعويضاً منها وهى معنى الوزارة عندهم كما يأتى، وفى نظره فى الأحكام والأموال وسائر السياسات مطلقًا أو مقيداً، أو فى موجبات العزل إن عرضت، وغير ذلك من معانى الملك والسلطان، وكذا فى سائر الوظائف التى تحت الملك والسلطان من وزارة أو جباية أو ولاية. لابد للفقيه من النظر فى جميع ذلك لما قدمناه من انسحاب حكم الخلافة الشرعية فى الملة الإسلامية على رتبة الملك والسلطان. إلا أن كلامنا فى وظائف الملك والسلطان ورتبته إنما هو بمقتضى طبيعة العمران ووجود البشر لا بما يخصها من أحكام الشرع، فليس من غرض كتابنا كما علمت[٧٦٤]، فلا نحتاج إلى تفصيل أحكامها الشرعية؛ مع أنها مستوفاة فى كتب الأحكام السلطانية مثل كتاب القاضى أبى الحسن الماوردى وغيره من أعلام الفقهاء؛ فإن أردت استيفاءها فعليك بمطالعتها هنالك. وإنما تكلمنا فى الوظائف الخلافية وأفردناها لنميز بينها وبين الوظائف السلطانية

(٧٦٢) هكذا فى جميع النسخ؛ ولابد من وضع كلمة «إليه» فى الجملة حتى يستقيم تركيبها: «أو يدفع إليه النظر فى الملك كله». والمعنى أن الملك يوزع أحيانا الوظائف الأربع على عدة أشخاص وأحيانا يجمعها كلها فى يد شخص واحد فيدفع «إليه النظر فى الملك كله ويعول على كفايته فى ذلك واضطلاعه». ووجود وزير واحد أو حاجب واحد يضطلع بكل شئون المملكة قد تحقق فى كثير من الدول الإسلامية فى الشرق والغرب كما سيذكره فى هذا الفصل.

(٧٦٢ب) أى توجد هذه الوظائف الأربع.

(٧٦٣) فى الفصل الخامس والعشرين من هذا الباب وهو «فصل فى معنى الخلافة والإمامة» (انظر الصفحتين ٥٦٢، ٥٦٣).

(٧٦٤) أى فليس ذلك (وهو ما يخص وظائف الملك والسلطان من أحكام الشرع) من غرض كتابنا.

فقط، لا لتحقيق أحكامها الشرعية، فليس من غرض كتابنا[٧٦٤]؛ وإنما نتكلم فى ذلك بما تقتضيه طبيعة العمران فى الوجود الإنسانى. والله الموفق.

(الوزارة) وهى أم الخُطَط[٢٥٦] السلطانية والرتب الملوكية، لأن اسمها يدل على مطلق الإعانة؛ فإن الوزارة مأخوذة إما من الموازرة وهى المعاونة، أو من الوِزْر وهو الثِّقْل كأنه يحمل مُفاعله(٧٦٥) أوزارَه وأثقاله، وهو راجع إلى المعاونة المطلقة. وقد كنا قدمنا فى أول الفصل أن أحوال السلطان وتصرفاته لا تعدو أربعة[٧٦١]: لأنها إمّا أن تكون فى أمور حماية الكافة وأسبابها من النظر فى الجند والسلاح والحروب وسائر أمور الحماية والمطالبة، وصاحب هذا هو الوزير المتعارف فى الدول القديمة بالمشرق ولهذا العهد بالمغرب[٧٦١]؛ وإما أن تكون فى أمور مخاطباته لمن بعد عنه فى المكان أو فى الزمان وتنفيذه الأوامر فيمن هو محجوب عنه وصاحب هذا هو الكاتب[٧٦١]؛ وإما أن تكون فى أمور جباية المال وإنفاقه، وضبط ذلك من جميع وجوهه أن يكون بمضيعة(٧٦٦)، وصاحب هذا هو صاحب المال والجباية وهو المسمى بالوزير لهذا العهد بالمشرق[٧٦١]؛ وإما أن يكون فى مدافعة الناس ذوى الحاجات عنه أن يزدحموا عليه فيشغلوه عن فهمه(٧٦٦ب)، وهذا راجع لصاحب الباب الذى يحجبه[٧٦١]، فلا تعدو أحواله هذه الأربعة بوجه[٧٦١]. وكل خُطَّة[٢٥٦] أو رتبة من رتب الملك والسلطان فإليها ترجع(٧٦٧). إلا أن الأرفع منها ما كانت الإعانة فيه عامة فيما تحت يد السلطان من ذلك الصنف؛ إذ هو يقتضى مباشرةَ السلطان دائمًا ومشاركتَه فى كل صنف من أحوال ملكه. وأما ما كان خاصّاً ببعض الناس أو ببعض الجهات فيكون دون الرتبة الأخرى كقيادة ثغر أو ولاية جباية خاصة أو النظر فى أمر خاص كحسبة الطعام أو النظر فى السكة؛ فإن هذه كلها نظر فى أحوال خاصة، فيكون صاحبها تبعًا لأهل النظر العام، وتكون رتبته مرءوسة لأولئك[٧٦٢].

---

(٧٦٥) أى مع من يوازره، وهو تعبير لعلماء النحو والصرف يقولون: الموازرة مفاعلة من الجانبين، فكل واحد من الشخصين مُفاعِل للآخر.

(٧٦٦) أى خشية أن يكون بمضيعة. وفى «ل» وطبعة دار الكتاب اللبنانى «أن يكون بمضبطة» وهو تحريف.

(٧٦٦ب) هكذا فى جميع النسخ. ولعل كلمة «فهمه» محرفة عن «مهامّه» أو عن «عمله».

(٧٦٧) أى فإلى هذه الأمور الأربعة ترجع.

ومازال الأمر فى الدول قبل الإسلام هكذا حتى جاء الإسلام وصار الأمر خلافة فذهبت تلك الخُطَطُ[٣٥٦] كلها بذهاب رسم الملك إلا[٧٦٨] ما هو طبيعى من المعاونة بالرأى والمفاوضة فيه، فلم يمكن زواله، إذ هو أمر لابد منه. فكان ﷺ يشاور أصحابه ويفاوضهم فى مهماته العامة والخاصة، ويخص مع ذلك أبا بكر بخصوصيات أخرى؛ حتى كان العرب الذين عرفوا الدول وأحوالها فى كسرى وقيصر والنجاشى يسمون أبا بكر وزيره. ولم يكن لفظ الوزير يعرف بين المسلمين لذهاب رتبة الملك بسذاجة الإسلام. وكذا عمر مع أبى بكر، وعلى وعثمان مع عمر. وأما حال الجباية والإنفاق والحُسْبان[٧٦٩] فلم يكن عندهم برتبة؛ لأن القوم كانوا عرباً أميين لا يحسنون الكتاب[٧٠٥] والحساب. فكانوا يستعملون فى الحساب أهل الكتاب أو أفرادًا من موالى العجم ممن يجيده؛ وكان قليلا فيهم؛ وأما أشرافهم فلم يكونوا يجيدونه، لأن الأمية كانت صفتهم التى امتازوا بها. وكذا حال المخاطبات وتنفيذ الأمور لم تكن عندهم رتبة خاصة للأمية التى كانت فيهم والأمانة العامَّة فى كتمان القول وتأديته، ولم تُحْوج السياسة إلى اختياره[٧٧٠]، لأن الخلافة إنما هى دين ليس من السياسة الملكية فى شىء. وأيضا فلم تكن الكتابة صناعة فيُسْتَجَاد للخليفة أحسنُها؛ لأن الكل كانوا يعبرون عن مقاصدهم بأبلغ العبارات. ولم يبق إلا الخط فكان الخليفة يستنيب فى كتابته، متى عَنَّ له، من يحسنه. وأما مدافعة ذوى الحاجات عن أبوابهم فكان محظوراً بالشريعة فلم يفعلوه.

فلما انقلبت الخلافة إلى الملك وجاءت رسوم السلطان وألقابه كان أول شىء بُدئ به فى الدولة شأن الباب وسده دون الجمهور بما كانوا يخشون على أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم كما وقع بعمر وعلى ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم، مع ما فى فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات. فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسموه الحاجب. وقد جاء أن عبد الملك لما ولَّى حاجبه قال له: قد وليتك حجابة بابى إلا عن ثلاثة: المؤذن للصلاة فإنه داعى اللّه؛

---

(٧٦٨) فى جميع النسخ «إلى» وهو تحريف كما لا يخفى على المتتبع لسياق الكلام.

(٧٦٩) «حَسَبت المال حَسْباً من باب قتل وحُسْباناً بالضم» (المصباح).

وأما «حِسْبان» بالكسر فهو مصدر حَسِب يحسب من باب تعب بمعنى ظن.

(٧٧٠) هكذا فى «التيمورية» وفى النسخ المتداولة «ولم تخرج السياسة» وهو تحريف يجعل العبارة مجردة من الدلالة.

وصاحب البريد فَأَمْر ما جاء به[٧٧١]؛ وصاحب الطعام لئلا يفسد. ثم استفحل الملك بعد ذلك فظهر المشاور والمعين في أمور القبائل والعصائب واستئلافهم؛ وأطلق عليه اسم الوزير. وبقي أمر الحُسبان[٧٦٩] فى الموالى والذميين. واتُّخذ للسجلات كاتب مخصوص حوطةً[٧٧٢] على أسرار السلطان أن تشتهر فتفسد سياسته مع قومه؛ ولم يكن بمثابة الوزير؛ لأنه إنما احتيج له من حيث الخط والكتاب[٧٠٥] لا من حيث اللسان الذى هو الكلام؛ إذ اللسان لذلك العهد على حاله لم يفسد. فكانت الوزارة لذلك أرفع رتبهم يومئذ. هذا فى سائر دولة بنى أمية. فكان النظر للوزير عاماً فى أحوال التدبير والمفاوضات وسائر أمور الحمايات والمطالبات وما يتبعها من النظر فى ديوان الجند وفرض العطاء بالأهلَّة وغير ذلك.

فلما جاءت دولة بنى العباس واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت، عظم شأن الوزير وصارت إليه النيابة فى إنفاذ الحل والعقد وتعينت مرتبته فى الدولة، وَعَنَتْ[٧٧٣] لها الوجوه، وخضعت لها الرقاب، وجعل النظر فى ديوان الحُسْبان[٧٦٩] لما تحتاج إليه خُطَّتُه من قَسْم الأعْطِيات[٤٨٠] فى الجند، فاحتاج إلى النظر فى جمعه وتفريقه، وأضيف إليه النظر فيه. ثم جعل له النظر فى القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ولحفظ البلاغة، لما[٥٨١] كان اللسان قد فسد عند الجمهور. وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذِّياع والشِّياع[٧٧٤] ودفع إليه. فصار اسم الوزير جامعا لخطتى السيف والقلم، وسائر معانى الوزارة والمعاونة. حتى لقد دُعى جعفر بن يحيى بالسلطان أيام الرشيد إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة. ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها إلا الحجابة التى هى القيام على الباب فلم تكن له، لاستنكافه عن مثل ذلك.

---

(٧٧١) يصح أن تكون الجملة: «فأمْر ما جاء به» أى إن أمراً عظيما قد دعاه إلى المجيء. وهو تعبير عربى فصيح. ومنه المثل المشهور: «لأمْرٍ ما جَدَع قصيرٌ أنفَه».
ويصح أن تكون الجملة: «فأمرٌ ما جاء به» أى فاتركه يمر. والوضع الأول أدق وأبلغ لأنه ينطوى على السبب المبرر لإدخال صاحب البريد على الخليفة وعدم حجاب بابه عليه كما ذكر عقب المؤذن وصاحب الطعام السبب المبرر لإدخال كل منهما.

(٧٧٢) «احتاط أخذ فى الحزم والاسم الحَوْطة والحَيْطة ويكسر» (القاموس).

(٧٧٣) «عَنا عُنُوًّا من باب قعد خضع وذل والاسم العَنَاء فهو عانٍ» (المصباح). ومنه قوله تعالى يصف حال الناس يوم القيامة: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ (آية ١١١ من سورة طه، وهى سورة ٢٠).

(٧٧٤) لم يذكر فى المعجمات الذِّياع ولا الشِّياع من بين مصادر ذاع وشاع، ولكنهما مصدران قياسيان لذايع وشايع بمعنى تداول الإذاعة والإشاعة مع غيره.

ثم جاء فى الدولة العباسية شأن الاستبداد على السلطان[٧٧٥]، وتعاور فيها استبداد الوزارة مرة والسلطان أخرى. وصار الوزير إذا استبد محتاجًا إلى استنابة الخليفة إياه لذلك لتصح الأحكام الشرعية وتجيء على حالها كما تقدم. فانقسمت الوزارة حينئذ إلى وزارة تنفيذ، وهى حال ما يكون السلطان قائما على نفسه. وإلى وزارة تفويض وهى حال ما يكون الوزير مستبدا عليه. ثم استمر الاستبداد وصار الأمر لملوك العجم وتعطل رسم الخلافة. ولم يكن لأولئك المتغلبين أن ينتحلوا ألقاب الخلافة، واستنكفوا من مشاركة الوزراء فى اللقب لأنهم خَوَلٌ لهم، فتسموا بالإمارة والسلطان. وكان المستبد علي الدولة يسمى أمير الأمراء أو بالسلطان، إلى ما يحليه به الخليفة من ألقابه[٧٧٦] كما تراه فى ألقابهم، وتركوا اسم الوزارة إلى من يتولاها للخليفة فى خاصته. ولم يزل الشأن عندهم إلى آخر دولتهم. وفسد اللسان خلال ذلك كله، وصارت صناعة ينتحلها بعض الناس، فامتهنت وترفع الوزراء، ولأنهم عجم، وليست تلك البلاغة هى المقصودة من لسانهم فَتُخُيِّر لها من[٧٧٦ب] سائر الطبقات واختصت به، وصارت خادمةً للوزير. واخْتُصَّ اسمُ الأمير بصاحب الحروب والجند وما يرجع إليها، ويده مع ذلك عالية على أهل الرتب، وأمره نافذ فى الكل إما نيابة أو استبداداً. واستمر الأمر على هذا .

ثم جاءت دولة الترك آخراً بمصر، فرأوا أن الوزارة قد ابتذلت بترفع أولئك عنها ودفعها لمن يقوم بها للخليفة المحجور، ونظره مع ذلك متعقَّبٌ بنظر الأمير، فصارت مرءوسة ناقصة، فاستنكف أهل هذه الرتبة العالية فى الدولة عن اسم الوزارة، وصار صاحب الأحكام والنظر فى الجند يسمى عندهم بالنائب لهذا العهد، وبقى اسم الحاجب فى مدلوله. واختص اسم الوزير عندهم بالنظر فى الجباية. وأما دولة بنى أمية بالأندلس فأَنفوا اسم الوزير فى مدلوله أول الدولة، ثم قسموا خُطته [٣٥٦] أصنافاً وأفردوا لكل صنف وزيراً: فجعلوا لحُسْبَان[٧٦٩] المال وزيراً، وللترسيل وزيراً، وللنظر فى حوائج المتظلمين وزيراً، وللنظر فى أحوال أهل الثغور وزيراً. وجُعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم، وينفذون

(٧٧٥) الأوضح أن يقول: «الاستبداد على الخليفة». وقد وقع هذا الاستبداد من جانب الوزير تارة ومن جانب السلطان تارة أخرى، كما يتضح ذلك مما يلى.

(٧٧٦) أى وما إلى ذلك مما يُحلِّيه به الخليفة من الألقاب.

(٧٧٦ب) يظهر أن هنا كلمتين ساقطتين: «فتخير لها (من يجيدها) من سائر الطبقات».

أمر السلطان هناك كل فيما جعل له. وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان فى كل وقت، فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب. ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم. فارتفعت خُطَّة[٣٥٦] الحاجب ومرتبته على سائر الرتب، حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها، فأكثرهم يومئذ يسمى الحاجب كما نذكره.

ثم جاءت دولة الشيعة بإفْرِيقية[٤٩ب] والقيروان [١٤] وكان للقائمين بها رسوخ فى البداوة فأغفلوا أمر هذه الخُطَط[٣٥٦] أولا وتنقيح أسمائها حتى أدركت دولتهم الحضارة فصاروا إلى تقليد الدولتين قبلهم فى وضع أسمائها كما تراه فى أخبار دولتهم. ولما جاءت دولة الموحدين من بعد ذاك أغفلت الأمر أولا للبداوة، ثم سارت إلى انتحال الأسماء والألقاب. وكان اسم الوزير فى مدلوله. ثم اتَّبعوا دولة الأمويين(٧٧٧) وقلدوها فى مذاهب السلطان واختاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان فى مجلسه، ويقف بالوفود والداخلين على السلطان عند الحدود فى تحيتهم وخطابهم والآداب التى تلزم فى الكون بين يديه، ورفعوا خُطَّة[٣٥٦] الحجابة عنه ما شاءوا ولم يزل الشأن ذلك إلى هذا العهد.

وأما فى دولة الترك بالمشرق فيسمون هذا الذى يقف بالناس على حدود الآداب فى اللقاء والتحية فى مجالس السلطان والتقديم بالوفود بين يديه الدويدار، ويضيفون إليه استتباع كاتب السر وأصحاب البريد المتصرفين فى حاجات السلطان بالقاصية وبالحاضرة، وحالهم على ذلك لهذا العهد. والله مولى الأمور لمن يشاء.

(الحجابة) قد قدمنا أن هذا اللقب كان مخصوصًا فى الدولة الأموية والعباسية بمن يحجب السلطان عن العامة ويغلق بابه دونهم أو يفتحه لهم على قَدَره فى مواقيته. وكانت هذه مُنَزَّلَةً يومئذ عن الخطط مرءوسة لها، إذ الوزير متصرف فيها بما يراه. وهكذا كانت سائر أيام بنى العباس وإلى هذا العهد، فهى مرءوسة لصاحب الخُطَّة[٣٥٦] العليا المسمى بالنائب.

وأما فى الدولة الأموية بالأندلس فكانت الحجابة لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة، ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم. فكانت فى دولتهم

(٧٧٧) يقصد دولة الأمويين فى الأندلس .

رفيعة غايةً كما تراه فى أخبارهم، كابن حديد وغيره من حجابهم. ثم لما جاء الاستبداد على الدولة اختُص المستبدُّ باسم الحجابة لشرفها. فكان المنصور بن أبى عامر[٧٧٧ب] وأبناؤه كذلك. ولما بدءوا فى مظاهر الملك وأطواره جاء مَنْ بعدهم من ملوك الطوائف فلم يتركوا لقبها، وكانوا يعدونها شرفا لهم، وكان أعظمهم ملكا بعد انتحال ألقاب الملك وأسمائه لابد له من ذكر الحاجب وذى الوزارتين يعنون به السيف والقلم، ويدلون بالحجابة على حجابة السلطان عن العامة والخاصة، وبذى الوزارتين على جمعه لخطتى السيف والقلم.

ثم لم يكن فى دول المغرب وإفريقية ذكر لهذا الاسم للبداوة التى كانت فيهم. وربما يوجد فى دولة العُبَيْديين[٦١٧] بمصر عند استعظامها وحضارتها إلا أنه قليل.

ولما جاءت دولة الموحدين لم تستمكن فيها الحضارة الداعية إلى انتحال الألقاب وتمييز الخُطط[٣٥٦] وتعيينها بالأسماء إلا آخرا. فلم يكن عندهم من الرتب إلا الوزير. فكانوا أولا يخصون بهذا الاسم الكاتب المتصرف المشارك للسلطان فى خاص أمره، كابن عطية وعبد السلام الكومى. وكان له مع ذلك النظر فى الحساب والأشغال المالية. ثم صار بعد ذلك اسم الوزير لأهل نسب الدولة من الموحدين كابن جامع وغيره. ولم يكن اسم الحاجب معروفًا فى دولتهم يومئذ.

وأما بنو أبى حفص بإفريقية فكانت الرياسة فى دولتهم أولا والتقديم لوزير الرأى والمشورة، وكان يُخَص باسم شيخ الموحدين، وكان له النظر فى الولايات والعزل وقود العساكر والحروب. واختُص الحُسبان[٧٦٩] والديوان برتبة أخرى، ويسمى متوليها بصاحب الأشغال ينظر فيها النظر المطلق فى الدخل والخرج، ويحاسب ويستخلص الأموال ويعاقب على التفريط، وكان من شرطه أن يكون من الموحدين. واختُص عندهم القلمُ أيضًا بمن يجيد الترسيل ويؤتمن على الأسرار، لأن الكتابة لم تكن من منتحل القوم ولا الترسيل

(٧٧٧ب) هو محمد بن أبى عامر الملقب بالمنصور، كان حاجبًا لهشام الثانى الذى انتقل إليه لقب الخلافة فى الأندلس بعد الحكم الثانى سنة ٣٦٦ هـ ولما يتجاوز الحادية عشرة من عمره. وقد ظل المنصور مستبداً بالملك حتى توفى سنة ٣٩٤ هـ، وتولى أبناؤه منصب الحجابة من بعده. (انظر ترجمته وآثاره المجيدة فى الحروب والسياسة والعمران والأدب فى كتب التاريخ العام وتاريخ أدب اللغة).

بلسانهم، فلم يشترط فيه النسب، واحتاج السلطان لاتساع ملكه وكثرة المرتزقين بداره إلى قَهْرَمان(٧٧٨) خاص بداره فى أحواله يجريها على قدرها وترتيبها، من رزق وعطاء وكسوة ونفقة فى المطابخ والاصطبلات وغيرهما وحصر الذخيرة وتنفيذ ما يحتاج إليه فى ذلك على أهل الجباية. فخصوه باسم الحاجب، وربما أضافوا إليه كتابة العلامة على السجلات إذا اتفق أنه يحسن صناعة الكتابة، وربما جعلوه لغيره. واستمر الأمر على ذلك، وحجب السلطان نفسه عن الناس، فصار هذا الحاجب واسطة بين الناس وبين أهل الرتب كلهم. ثم جُمع له آخرَ الدولة السيف والحربُ ثم الرأى والمشورة. فصارت الخُطة[٣٥٦] أرفع الرتب وأوعبها(٧٧٩) للخُطَط، ثم جاء الاستبداد والحجر مدة من بعد السلطان الثانى عشر منهم. ثم استبد بعد ذلك حفيده السلطان أبو العباس على نفسه(٧٧٩ب) وأذهب آثار الحجر والاستبداد بإذهاب خُطَّة[٣٥٦] الحجابة التي كانت سلمًا إليه، وباشر أموره كلها بنفسه من غير استعانة بأحد. والأمر على ذلك لهذا العهد.

وأما دولة زناتة بالمغرب، وأعظمها دولة بنى مَرِين(٧٨٠)، فلا أثر لاسم الحاجب عندهم. وأما رياسة الحرب والعساكر فهى للوزير. ورتبة القلم فى الحُسْبان[٧٦٩] والرسائل راجعة إلى من يحسنها من أهلها، وإن اختُصَّت ببعض البيوت المصطنعين فى دولتهم. وقد تُجمَعُ عندهم وقد تُفَرَّق[٧٦٣]. وأما باب السلطان وحجبه عن العامة فهى رتبة عندهم، يسعى صاحبها بالمِزْوَار ومعناه المقدم على الجنادرة المتصرفين بباب السلطان فى تنفيذ أوامره وتصريف عقوباته وإنزال سطواته وحفظ المعتقلين فى سجونه، والعريف عليهم فى ذلك. فالباب له، وأخذ الناس بالوقوف عند الحدود فى دار العامة راجع إليه، فكأنها وزارة صغرى.

وأما دولة بنى عبد الواد[٧٨٠] فلا أثر عندهم لشىء من هذه الألقاب ولاتمييز الخُطط[٣٥٦] لبداوة دولتهم وقصورها. وإنما يخصون باسم الحاجب فى بعض

---

(٧٧٨) القَهْرَمان الخادم الخاص، ومن أمثلتهم: «المرأة ريحانة، وليست قهرمانة».

(٧٧٩) أفعل تفضيل من فعل «وَعَبَه كوعده» إذا أخذه أجمع كأوعبه واستوعبه» (القاموس).

(٧٧٩ب) يظهر أنه قد سقطت هنا كلمة «معتمداً» أو مافى معناها، فتكون العبارة هكذا: «استبد بعد ذلك حفيده السلطان أبو العباس معتمداً على نفسه».

(٧٨٠) انظر بعض تفصيلات عن هذه الدولة وصلة ابن خلدون بسلاطينها فى صفحة ٥٨ وتوابعها من تمهيدنا للمقدمة.

الأحوال مُنَفِّذَ الخاص[781] بالسلطان فى داره، كما كان فى دولة بنى أبى حفص وقد يجمعون له الحُسْبان[769] . والسجل كما كان فيها، حملهم على ذلك تقليد الدولة بما كانوا فى تبعها وقائمين بدعوتها منذ أول أمرهم.

وأما أهل الأندلس لهذا العهد فالمخصوص عندهم بالحُسْبان[769] وتنفيذ خاص[782] السلطان وسائر الأمور المالية يسمونه بالوكيل، وأما الوزير فكالوزير، إلا أنه يجمع له الترسيل. والسلطان عندهم يضع خطة على السجلات كلها، فليس هناك خُطَّة العلامة كما لغيرهم من الدول.

وأما دولة الترك بمصر فاسم الحاجب عندهم موضوع لحاكم من أهل الشوكة وهم الترك، ينفذ الأحكام بين الناس فى المدينة، وهم متعددون[783]. وهذه الوظيفة عندهم تحت وظيفة النيابة التى لها الحكم فى أهل الدولة وفى العامة على الإطلاق. وللنائب التولية والعزل فى بعض الوظائف على الأحيان، ويقطع القليل من الأرزاق، ويثبتها، وتنفذ أوامره كما تنفذ المراسم السلطانية. وكان له النيابة المطلقة عن السلطان. وللحجاب الحكم فقط فى طبقات العامة والجند عند الترافع إليهم، وإجبار من أَبَى الانقياد للحكم، وطورهم تحت طور النيابة[784]. والوزير فى دولة الترك هو صاحب جباية، ثم الأموال فى الدولة على اختلاف أصنافها من خراج أو مكس أو جزية ثم فى تصريفها فى الاتفاقات السلطانية أو الجِرَايَات المقدَّرة، وله مع ذلك التولية والعزل فى سائر العمال المباشرين لهذه الجباية والتنفيذ على اختلاف مراتبهم وتباين أصنافهم. ومن عوائدهم أن يكون هذا الوزير من صنف القبط القائمين على ديوان الحُسبان[769] والجباية لاختصاصهم بذلك فى مصر منذ عصور قديمة. وقد يوليها السلطان بعض الأحيان لأهل الشوكة من رجالات الترك أو أبنائهم على حسب الداعية لذلك. والله مدبر الأمور ومصرفها بحكمته، لا إله إلا هو رب الأولين والآخرين.

---

(٧٨١) أى منفذ الأمر الخاص بالسلطان؛ أى الأمور الخاصة به.

(٧٨٢) فى جميع النسخ «حال السلطان»، وهو تحريف (انظر التعليق السابق).

(٧٨٣) أى والحجاب متعددون عندهم، لا كما كان الشأن عند غيرهم من إطلاق اسم الحاجب على شخص واحد فى الدولة.

(٧٨٤) أى وطور الحجاب تحت طور النيابة، بمعنى أن منزلتهم دون منزلتها.

(ديوان الأعمال والجبايات) اعلم أن هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك، وهى القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة فى الدَّخْل والخَرْج وإحصاء العساكر بأسمائهم، وتقدير أرزاقهم وصرف أُعْطَيَاتهم[٤٨٠] فى إبَّاناتها[(٧٨٥)] والرجوع فى ذلك إلى القوانين التى يُرَتِّبُها قَوَمَة تلك الأعمال، وقَهَارِمَة[٧٧٨] الدولة وهى كلها مسطورة فى كِتَابٍ شاهد بتفاصيل ذلك فى الدَّخْل والخَرْج مبنى على جزء كبيرٍ من الحساب لا يقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال، ويسمى ذلك الكتابُ بالديوان، وكذلك مكان جلوس العمال المباشرين لها. ويقال: إن أصل هذه التسمية أن كسرى نظر يوما إلى كُتَّابِ ديوانه وهم يحسبون على أنفسهم كأنهم يحادثون فقال: «ديوانه» أى مجانين بلغة الفرس، فسمى موضعهم بذلك، وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفاً فقيل ديوان، ثم نقل هذا الاسم إلى كِتَابِ هذه الأعمال المتضمن للقوانين والحسبانات[٧٦٩].

وقيل: إنه اسم للشياطين بالفارسية، سمى الكتاب بذلك لسرعة نفوذهم فى فهم الأمور ووقوفهم على الجلى والخفى وجمعهم لما شذ وتفرق، ثم نقل إلى مكان جلوسهم لتلك الأعمال. وعلى هذا فيتناول اسمُ الديوان كُتَّابَ الرسائل ومكانَ جلوسهم بباب السلطان على مايأتى بعد. وقد تُفْرد هذه الوظيفة بناظرٍ واحد ينظر فى سائر هذه الأعمال، وقد يُفْرد كل صنف منها بناظر، كما يفرد فى بعض الدول النظر فى العساكر وإقطاعاتهم وحُسْبَان[٧٦٩] أَعْطِياتِهم[٤٨٠] أو غير ذلك على حساب مصطلح الدولة وما قرره أوَّلوها.

واعلم أن هذه الوظيفة إنما تحدث فى الدول عند تمكن الغَلَبِ والاستيلاء والنظر فى أعطاف الملك وفنون التمهيد.

وأول من وضع الديوان فى الدولة الإسلامية عمر رضى الله عنه، يقال لسبب مالٍ أتى به أبو هريرة رضى الله عنه من البحرين فاستكثروه وتعبوا فى قَسْمه، فَسَمَوا إلى إحصاء الأموال وضبط العطاء والحقوق، فأشار خالد بن الوليد بالديوان وقال: رأيت ملوك الشام يدونون، فقبل منه عمر. وقيل بل أشار عليه به الهُرْمُزَان[(٧٨٦)] لما رآه يبعث البعوث بغير ديوان، فقيل له ومن يعلم بغيبة من يغيب منهم؟ فإن من تخلف أخل بمكانه، وإنما يضبط ذلك الكتاب، فأثبت لهم

(٧٨٥) «إبَّان الشىء بالكسر حينه أو أوله» (القاموس) ويجمع قياساً جمع مؤنث سالم على «إبَّانات».

(٧٨٦) «الهُرْمزان والهَارَموز الكبير من ملوك العجم» (القاموس).

ديواناً. وسأل عمر عن اسم الديوان، فَعُبِّر له. ولما اجتمع ذلك أمر عقيلَ بن أبى طالب ومحرمة بن نوفل وجُبير بن مُطْعم، وكانوا من كُتَّابِ قريش، فكتبوا ديوان العساكر الإسلامية على ترتيب الأنساب مبتدأ من قرابة رسول الله ﷺ وما بعدها، الأقربِ فالأقرب. هكذا كان ابتداء ديوان الجيش. وروى الزُّهرى عن سعيد بن المُسيِّب أن ذلك كان فى المحرم سنة عشرين.

وأما ديوان الخراج والجبايات فبقى بعد الإسلام على ما كان عليه من قبل: ديوان العراق بالفارسية، وديوان الشام بالرومية. وكتاب الدواوين من أهل العهد من الفريقين. ولما جاء عبد الملك بن مَرْوان، واستحال الأمر ملكا، وانتقل القوم من غضاضة[٧٨٧] البداوة إلى رونق الحضارة، ومن سذاجة[٦٨٠ب] الأمِّيَّة إلى حِذْقِ الكتابة، وظهر فى العرب ومواليهم مَهَرَةَ فى الكِتَابِ[٧٠٥] والحُسْبان[٧٦٩]، فأمر عَبد الملك سليمان بن سعيد والى الأرْدُن لعهده أن يَنقل ديوان الشام إلى العربية، فأكمله لسنة من يوم ابتدائه، ووقف عليه سرجون كاتب عبد الملك، فقال لكُتَّاب الروم اطلبوا العيش فى غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم. وأما ديوان العراق فأمر الحجاج كاتبه صالح بن عبد الرحمن، وكان يكتب بالعربية والفارسية، ولقن ذلك عن زادان فَرُّخَ كاتب الحجاج قبله، ولما قتل زادان فى حرب عبد الرحمن بن الأشعث استخلف الحجاج صالحًا هذا مكانه، وأمر أن ينقل الديوان من الفارسية إلى العربية ففعل، ورَغِمَ لذلك كُتَّابُ الفرس[٧٨٨]. وكان عبد الحميد بن يحيى يقول لله در صالح، ما أعظم مِنَّتَه على الكُتَّاب.

ثم جعلت هذه الوظيفة فى دولة بنى العباس مضافة إلى من كان له النظر فيه[٧٨٩]، كما كان شأن بنى برمك وبنى سهل بن نوبخت وغيرهم من وزراء الدولة.

---

(٧٨٧) من معانى الغَضَاضة النَّضارة ومن معانيها كذلك الذلة والمنقصة (من القاموس)، وكلا المعنيين محتمل فى هذه العبارة وإن كان الأخير أكثر اتساقاً مع سياق الحديث.

(٧٨٨) «رَغِمَه كعلمه ومنعه كرهه» (القاموس)، فكان الأصح أن يقول: «ورَغِم ذلك كتَّاب الفرس» أى كرهوه وتضايقوا منه لانتقال هذه الصناعة من أيديهم إلى أيدى العرب.

(٧٨٩) يقصد أن وظيفة ديوان الأعمال والجبايات أضيفت فى عهد بنى العباس إلى الوزير الذى كان له النظر فى هذا الديوان. والعبارة ركيكة كما لا يخفى.. وأوضح منها ما ذكره فى فقرة «الوزارة» إذ قال: «فلما جاءت دولة بنى العباس... عظم شأن الوزير... وتعيَّنت مرتبته فى الدولة... وجُعل لها النظر فى ديوان الحُسبان لما تحتاج إليهُ خطَّتُه من قسم الأعْطيَات فى الجند... وأضف إليه النظر فيه... إلخ» (انظر آخر ص ٦٣٨).

وأما مايتعلق بهذه الوظيفة من الأحكام الشرعية مما يختص بالجيش أو بيت المال فى الدخل والخرج وتمييز النواحى بالصلح والعَنوة، وفى تقليد هذه الوظيفة لمن يكون، وشروط الناظر فيها والكاتب وقوانين الحسْبَانات[٧٦٩]، فأمر راجع إلى كتب الأحكام السلطانية، وهى مسطورة هنالك وليست من غرض كتابنا، وإنما يتكلم فيها من حيث طبيعة الملك الذى نحن بصدد الكلام فيه.

وهذه الوظيفة جزء عظيم من الملك، بل هى ثالثة أركانه، لأن الملك لابد له من الجند والمال والمخاطبة لمن غاب عنه، فاحتاج صاحب الملك إلى الأعوان فى أمر السيف وأمر القلم وأمر المال فينفرد صاحبها لذلك بجزء من رياسة الملك وكذلك كان الأمر فى دولة بنى أمية بالأندلس والطوائف بعدهم.

وأما فى دولة الموحدين فكان صاحبها إنما يكون من الموحدين يستقل بالنظر فى استخراج الأموال وجمعها وضبطها وتعقب نظر الولاة والعمال فيها، ثم تنفيذها على قدرها وفى مواقيتها. وكان يعرف بصاحب الأشغال، وكان ربما يليها فى الجهات غير الموحدين ممن يحسنها.

ولما استبد بنو أبى حفص بإفْرِيقِيَة وكان شأن الجالية من الأندلس، فقدم عليهم أهل البيوتات وفيهم من كان يستعمل ذلك فى الأندلس، مثل بنى سعيد أصحاب القلعة جوار غرناطة المعروفين ببنى أبى الحسن، فاستكفوا بهم فى ذلك وجعلوا لهم النظر فى الأشغال، كما كان لهم بالأندلس، ودالوا فيها بينهم وبين الموحدين(٧٩٠) ثم استقل بها أهل الحُسبان[٧٦٩] والكتاب[٧٠٥] وخرجت عن الموحدين. ثم لما استغلظ أمر الحاجب ونفذ أمره فى كل شَأن من شئون الدولة تعطل هذا الرسم، وصار صاحبه مرءوسًا للحاجب، وأصبح من جملة الجباة، وذهبت تلك الرياسة التى كانت له فى الدولة.

وأما دولة بنى مَرين[٧٨٠] لهذا العهد فحُسْبان[٧٦٩] العطاء والخراج مجموع لواحد، وصاحب هذه الرتبة هو الذى يصحح الحُسْبَانَات[٧٦٩] كلها، ويرجع إلى ديوانه ونظره معقب بنظر السلطان أو الوزير، وخطه معتبر فى صحة الحُسبان فى الخراج والعطاء.

هذه أصول الرتب والخُطَط[٣٥٦] السلطانية، وهى الرتب العالية التى هى عامة النظر ومباشرة للسلطان.

---

(٧٩٠) أى تداولوها فيما بينهم فأصبحت دُولة بينهم وبين الموحدين.

وأما هذه الرتبة فى دولة الترك فمتنوعة. وصاحب ديوان العطاء يعرف بناظر الجيش. وصاحب المال مخصوص باسم الوزير، وهو الناظر فى ديوان الجباية العامة للدولة، وهو أعلى رتب الناظرين فى الأموال، لأن النظر فى الأموال عندهم يتنوع إلى رتب كثيرة لانفساح دولتهم، وعظمة سلطانهم، واتساع الأموال والجبايات عن أن يستقل بضبطها الواحد من الرجال، ولو بلغ فى الكفاية مبالغة، فتعين للنظر العام منها هذا المخصوص باسم الوزير. وهو مع ذلك رديف لمولى من موالى السلطان وأهل عصبيته وأرباب السيوف فى الدولة، يرجع نظر الوزير إلى نظره، ويجتهد جهده فى متابعته، ويسمى عندهم أستاذ الدولة، وهو أحد الأمراء الأكابر فى الدولة من الجند وأرباب السيوف. ويتبع هذه الخطَّةَ خُطَطٌ[٣٥٦] عندهم أخرى كلها راجعة إلى الأموال والحُسْبَان[٧٦٩] مقصورة النظر على أمور خاصة مثل ناظر الخاص، وهو المباشر لأموال السلطان الخاصة به من إقطاعه أو سُهْمانه[(٧٩١)] من أموال الخراج وبلاد الجباية مما ليس من أموال المسلمين العامة. وهو تحت يد الأمير أستاذ الدار. وإن كان الوزير من الجند فلا يكون لأستاذ الدار نظرعليه، وناظر الخاص تحت يد الخازن لأموال السلطان الخاص.

هذا بيان هذه الخطة بدولة الترك بالمشرق بعد ماقدمناه من أمرها بالمغرب. والله مصرف الأمور لا رب غيره.

(ديوان الرسائل والكتابة) هذه الوظيفة غير ضرورية فى الملك لاستغناء كثير من الدول عنها رأسًا كما فى الدول العربية فى البداوة التى لا يأخذها تهذيب الحضارة ولا استحكام الصنائع. وإنما أكد الحاجة إليها فى الدولة الإسلامية شأن اللسان العربى والبلاغة فى العبارة عن المقاصد. فصار الكتاب يؤدى كنه الحاجة بأبلغ من العبارة اللسانية فى الأكثر. وكان الكاتب للأمير يكون من أهل نسبه ومن عظماء قبيله، كما كان للخلفاء وأمراء الصحابة بالشام والعراق لعظم أمانتهم وخلوص أسرارهم. فلما فسد اللسان وصار صناعة اختُص بمن يحسنه. وكانت عند بنى العباس رفيعة. وكان الكاتب يصدر السجلات مطلقة ويكتب فى آخرها اسمه، ويختم عليها السلطان، وهو طابع

(٧٩١) السَّهْم: النصيب وجمعه سُهْمان وسُهْمة وأسْهُم وسِهام (من القاموس والمصباح)

منقوش فيه اسم السلطان أو شارته، يغمس فى طين أحمر مذاب بالماء ويسمى طين الختم، ويطبع به على طرفى السجل عند طيه وإلصاقه. ثم صارت السجلات من بعدهم تصدر باسم السلطان ويضع الكاتب فيها علامته أولا أو آخراً على حسب الاختيار فى جملها وفى لفظها. ثم قد تنزل هذه الخطةُ[٢٥٦] بارتفاع المكان عند السلطان لغير صاحبها من أهل المراتب فى الدولة أو استبداد وزير عليه، فتصير علامة هذا الكتاب ملغاة الحكم بعلامة الرئيس عليه، يستدل بها فيكتب صورة علامته المعهودة، والحكم لعلامة ذلك الرئيس. كما وقع آخر الدولة الحفصية لما ارتفع شأن الحجابة، وصار أمرها إلى التفويض ثم الاستبداد، صار حكم العلامة التى للكاتب ملغى وصورتها ثابتة، اتباعاً لما سلف من أمرها. فصار الحاجب يرسم للكاتب إمضاء كتابه ذلك بخط يصنعه ويتخير له من صيغ الإنفاذ ما شاء، فيأتمر الكاتب له، ويضع العلامة المعتادة. وقد يختص السلطان بنفسه بوضع ذلك إذا كان مستبداً بأمره قائماً على نفسه، فيرسم الأمر للكاتب ليضع علامته.

ومن خُطَط[٢٥٦] الكتابة التوقيع، وهو أن يجلس الكاتب بين يدى السلطان في مجالس حكمه وفضله ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها، متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه، فإما أن تصدر كذلك، وإما أن يحذو الكاتب على مثالها فى سجل يكون بيد صاحب القصة . ويحتاج الموقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه. وقد كان جعفر بن يحيى يوقع القصص بين يدى الرشيد ويرمى بالقصة إلى صاحبها، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء فى تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها، حتى قيل إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار. وهكذا كان شأن الدول.

واعلم أن صاحب هذه الخطَّة[٢٥٦] لابد أن يُتَخَيَّر من أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم، وزيادة العلم وعارضة البلاغة، فإنه معرض للنظر فى أصول العلم لما يعرض فى مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك مع ماتدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل، مع مايضطر إليه فى الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها.

وقد تكون الرتبة فى بعض الدول مستندة إلى أرباب السيوف، لما يقتضيه طبع الدولة من البعد عن معاناة العلوم لأجل سذاجة[٦٨ب] العصبية فيختص

السلطان أهلَ عصبيته بخُطَط[٣٥٦] دولته وسائر رتبه، فيقلد المال والسيف والكتابة منهم. فأما رتبة السيف فتستغنى عن معاناة العلم، وأما المال والكتابة فيضطر إلى ذلك للبلاغة فى هذه والحسبان[٧٦٩] فى الأخرى، فيختارون لها من هذه الطبقة[٧٩٢] مادعت إليه الضرورة ويقلدونه، إلا أنه تكون يدُ آخَرَ من أهل العصبية عالية على يده[٧٩٣]، ويكون نظره متصرفا عن نظره، كما هو فى دولة الترك لهذا العهد بالمشرق، فإن الكتابة عندهم وإن كانت لصاحب الإنشاء إلا أنه تحت يد أمير من أهل عصبية السلطان يعرف بالدويدار، وتعويل السلطان ووثوقه به، واستنامته فى غالب أحواله إليه، وتعويله على الآخر فى أحوال البلاغة وتطبيق المقاصد وكتمان الأسرار وغير ذلك من توابعها.

وأما الشروط المعتبرة فى صاحب هذه الرتبة التى يلاحظها السلطان فى اختياره وانتقائه من أصناف الناس فهى كثيرة، وأحسن من استوعبها عبد الحميد الكاتب فى رسالته إلى الكتاب، وهى:

«أما بعد حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم، فإن الله عز وجل جعل الناس، بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن بعد الملوك المكرمين، أصنافًا، وإن كانوا فى الحقيقة سواء، وصرفهم فى صنوف الصناعات وضروب المحاولات إلى أسباب معاشهم وأبواب أرزاقهم، فجعلكم معشر الكتاب فى أشرف الجهات أهلَ الأدب والمروءات، والعلم والرزانة. بكم ينتظم للخلافة محاسنُها وتستقيم أمورها. وبنصحائكم يصلح الله للخلق سلطانهم وتعمر بلدانهم. لايستغنى الملك عنكم، ولا يوجد كاف إلا منكم. فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التى بها يسمعون، وأبصارهم التى بها يبصرون، وألسنتهم التى بها ينطقون، وأيديهم التى بها يبطشون. فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم، ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم، وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم».

---

(٧٩٢) أى من طبقة من يجيدون البلاغة والحُسْبَان.

(٧٩٣) فى جميع النسخ: «إلا أنه لا تكون يد آخر من أهل العصبية غالباً على يده» وهو تحريف شنيع، زاد «لا» فى العبارة فغير معناها المقصود إلى نقيضه (انظر آخر ص١٥ وأول ص١٦ من تمهيدنا للمقدمة، ومثالاً آخر من هذا القبيل فى تعليق ٤٢٥).

«أيها الكتاب إذا كنتم على ما يأتى فى هذا الكتاب من صفتكم فإن الكاتب يحتاج من نفسه ويحتاج منه صاحبه الذى يثق به فى مهمات أموره أن يكون حليما فى موضع الحلم، فهيما فى موضع الحكم، مقداما فى موضع الإقدام، مُحْجما فى موضع الإحجام، مؤثراً للعفاف والعدل والإنصاف، كتوماً للأسرار، وفيّا عند الشدائد، عالماً بما يأتى من النوازل، يضع الأمور مواضعها، والطوارق فى أماكنها، قد نظر فى كل فن من فنون العلم فأحكمه، وإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفى به، يعرف بغزيزة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده، وعاقبةَ ما يصدر عنه قبل صدوره، فيُعِدُّ لكل أمر عُدَّتَهُ وَعَتَادَه، ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته».

«فتنافسوا يامعشر الكتاب فى صنوف الآداب، وتفقهوا فى الدين. وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض[٧٩٤]، ثم العربية فإنها ثقاف[٧٩٥] ألسنتكم، ثم أجيدوا الخط فإنه حِليةُ كتبكم، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيامَ العرب والعجم وأحاديثها وسيَرها، فإن ذلك معين لكم على ماتسمو إليه هممكم، ولاتضيعوا النظر فى الحساب فإنه قِوامُ كتاب الخراج».

«وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيِّها ودنِّيها، وسَفْسَاف الأمور ومحاقرها، فإنها مذلة للرقاب، مفسدة للكتاب. ونزهوا صناعتكم عن الدناءة. واربئوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات. وإياكم والكبر والسُّخْف والعظمة، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحْنَة. وتحابوا فى الله عز وجل فى صناعتكم، وتواصوا عليها بالذى هو أليق لأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم. وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع إليه حاله ويثوب إليه أمره. وإن أقعد أحداً منكم الكِبَرُ عن مكسبه ولقاء إخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته، وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه أحْوَطَ منه على ولده وأخيه. فإن عرضت فى الشغل مَحْمَدَة فلا يصرفها إلا إلى صاحبه، وإن عرضت مذمة فليحملها هو من دونه. وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال. فإن

(٧٩٤) يطلق الفقهاء كلمة الفرائض اصطلاحاً على أحكام الميراث.

(٧٩٥) الثِّقاف ككتاب الآلة التى تُسَوَّى بها الرماح (من القاموس). وهذا هو المعنى المراد فى هذه العبارة.

العيب إليكم معشرَ الكتاب أسرَعُ منه إلى القراء[٧٩٦]، وهو لكم أفسد منه لهم[٧٩٦ب]. فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه من يبذل له من نفسه مايجب له عليه من حقه، فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله وخيره ونصيحته وكتمان سره وتدبير أمره ما هو جزاء لحقه، ويصدِّقُ ذلك بفعاله عند الحاجة إليه، والإضرار إلى ماليه، فاستشعروا ذلك. وفقكم الله من أنفسكم فى حالة الرخاء والشدة والحرمان والمواساة والإحسان والسراء والضراء. فنعمت الشيمة هذه من وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة».

«وإذا ولى الرجل منكم أو صُيِّر إليه من أمر خلق الله وعياله أمرٌ فليراقب الله عز وجل، وليؤثر طاعته، وليكن مع الضعيف رفيقًا وللمظلوم منصفًا، فإن الخلق عيال الله، وأحبهم إليه أرفقهم بعياله».

«ثم ليكن بالعدل حاكمًا، وللأشراف مكرمًا، وللفىء موفرًا، وللبلاد عامرًا، وللرعية متألفًا، وعن أذاهم متخلفًا، وليكن فى مجلسه متواضعًا حليمًا، وفى سجلات خراجه واستقضاء حقوقه رفيقًا».

«وإذا صحب أحدكم رجلا فليختبر خلائقه، فإذا عرف حسنها وقبيحها أعانه على ما يوافقه من الحسن، واحتال على صرفه عما يهواه من القبح بألطف حيلة وأجمل وسيلة. وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيرًا بسياستها التمس معرفة أخلاقها، فإن كانت رَمُوحاً[٧٩٧] لم يهجْها إذا ركبها، وإن كانت شَبُوباً[٧٩٨] اتقاها من بين يديها، وإن خاف منها شُرُوداً[٧٩٩] توقاها من ناحية رأسها، وإن كانت حَرُوناً[٨٠٠] قمع برِفْقٍ هواها فى طَرْقِها[٨٠١]، فإن استمرت عَطَفَها يسيراً فيسلَس[٨٠٢] له قيادها. وفى هذا الوصف من السياسة دلائل لمن

---

(٧٩٦) هكذا فى «ل» الفراء بالفاء. وفى «ن» الغراء بالغين.

(٧٩٦ب) فى «م» و «ن»: «أفسد منه لها».

(٧٩٧) رمحِ الفرسُ كمنع: رفس ورمحه: رفسه. وفرس رموح: كثير الرفس (من القاموس والمصباح).

(٧٩٨) شبَّ الفرس ويَشُب شباباً وشَبيباً وشُبُوباً رفع يديه، وفرس شَبوب: كثيرة رفع اليدين (من القاموس).

(٧٩٩) «شَرَد شُروداً وشِراداً وشِراداً نفر، فهو شارد وشَرود» (القاموس).

(٨٠٠) «حَرَنت الدابة كنصر وكرم حراناً بالكسر والضم فهى حرون، وهى التى إذا استُدِر جَرْيُها وقفت، خاص بذوات الحافر» (القاموس).

(٨٠١) من معانى «الطَّرق» الضرب، وهو المقصود فى هذه العبارة.

(٨٠٢) «سَلِس سَلَساً من باب تعب سهل ولان» (المصباح).

ساس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم. والكاتب، لفضل أدبه وشريف صنعته ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوره من الناس ويناظره ويفهم عنه أو يخاف سطوته، أولى بالرفق لصاحبه ومداراته وتقويم أَوَده من سائس البهيمة التى لاتحير جوابًا ولا تعرف صوابًا ولا تفهم خطابًا إلا بقدر ما يُصيِّرها إليه صاحبها الراكب عليه. ألا فارفقوا ـ رحمكم الله ـ فى النظر، واعملوا ما أمكنكم فيه من الروية والفكر، تأمنوا بإذن الله ممن صحبتموه النَّبْوَةَ والاستثقالَ والحَفْوَةَ، ويصير منكم إلى الموافقة، وتصيروا منه إلى المواخاة والشفقة إن شاء الله».

«ولايُجاوِزَنَّ الرجل منكم فى هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه وغير ذلك من فنون أمره قدرَ حقِّه، فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم خَدَمَةٌ لاتحملون فى خدمتكم على التقصير، حَفَظَةٌ لاتُحتمَل منكم أفعالُ التضييع والتبذير. واستعينوا على عفافكم بالقصد[٢٩٣] فى كل ما ذكرته لكم وقصصته عليكم. واحذروا متالف السَّرَف وسوء عاقبة الترف، فإنهما يُعْقبان الفقر ويُذلان الرقاب ويفضحان أهلهما ولاسيما الكتاب وأرباب الآداب».

«وللأمور أشباه وبعضها دليل على بعض، فاستدلوا على مُؤتَنَف[٨٠٣] أعمالكم بما سبقت إليه تجربتُكم، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها مَحَجَّةً، وأصدقها حُجَّةً، وأحمدها عاقبة. واعلموا أن للتدبير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ علمه ورَوِيَّته. فليَقصد[٢٩٣] الرجل منكم فى مجلسه قَصْدَ الكافى من منطقه، وليوجز فى ابتدائه وجوابه، وليأخذ بمجامع حججه، فإن ذلك مصلحة لفعله ومَدْفَعَةٌ للشاغل عن إكثاره. وليضرع إلى الله فى صلة توفيقه وإمداده بتسديده مخافة وقوعه فى الغلط المضر ببدنه وعقله وآدابه. فإنه إن ظن منكم ظان أو قال قائل: إن الذى برز من جميل صنعته وقوة حركته إنما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره، فقد تعرض بحسن ظنه أو مقالته إلى أن يَكِلَه الله عز وجل إلى نفسه، فيصير منها إلى غير كافٍ، وذلك على من تأمله غير خافٍ. ولا يقول أحد منكم إنه أبصر بالأمور وأحمل لعبء التدبير من مرافقه فى

---

(٨٠٣) «أمر أُنُفٌ: مستأنف لم يسبق به قَدَر... والمؤتَنف للمفعول الذى لم يؤكل منه شىء» (القاموس). والمعنى: أمر جديد لم يسبق فيه تجربة.

صناعته ومصاحبه فى خدمته، فإن أعقل الرجلين عند ذوى الألباب من رمى بالعُجْب وراء ظهره، ورأى أن أصحابه أعقل منه وأجمل فى طريقته.

وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرف فضل نعم الله جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ولا تزكية لنفسه، ولا يُكاثِر(٨٠٤) على أخيه أو نظيره وصاحبه وعشيره. وحمد الله واجب على الجميع، وذلك بالتواضع لعظمته والتذلل لعزته والتحدث بنعمته».

«وأنا أقول فى كتابى هذا ماسبق به المثل: مَن تلزمه النصيحة يلزمْه العمل، وهو جوهر هذا الكتاب وغُرة(٨٠٥) كلامه بعد الذى فيه من ذكر الله عز وجل. فلذلك جعلته آخره وتممته به».

«تولانا الله وإياكم يامعشر الطلبة والكتبة بما يتولى به من سبق علمه بإسعاده وإرشاده، فإن ذلك إليه وبيده. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»أ هـ.

(الشُّرْطَة). ويسمى صاحبها لهذا العهد بإفْرِيقِية[٤٩ب] الحاكم، وفى دولة أهل الأندلس صاحبَ المدينة، وفى دولة الترك الوالى. وهى وظيفة مرءوسة لصاحب السيف فى الدولة، وحكمه نافذ فى صاحبها فى بعض الأحيان. وكان أصل وضعها فى الدولة العباسية لمن يقيم أحكامَ الجرائم فى حال استبدائها أولا ثم الحدود[٦٩٨، ٦٩٩] بعد استيفائها. فإن التهم التى تعرض فى الجرائم لانظر للشرع إلا فى استيفاء حدودها، وللسياسة النظر فى استيفاء موجباتها بإقرار يكرهه عليه الحاكم إذا احتفت به القرائن لما توجبه المصلحة العامة فى ذلك. فكان الذى يقوم بهذا الاستبداء وباستيفاء الحدود بعده إذا تنزه عنه القاضى يسمى صاحب الشُّرْطة، وربما جعلوا إليه النظر فى الحدود والدماء بإطلاق، وأفردوها من نظر القاضى[٦٩٨، ٦٩٩]. ونزهوا هذه المرتبة وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم. ولم تكن عامة التنفيذ فى طبقات الناس، إنما كان حكمهم على الدهماء وأهل الرِّيَب، والضرب على أيدى الرعاع والفجرة.

ثم عظمت نباهتها فى دولة بنى أمية بالأندلس، ونوعت إلى شُرْطة كبرى

---

(٨٠٤) «كاثره: غالبه وتعاظم عليه» (من القاموس).

(٨٠٥) «الغُرَّة: بياض فى الجبهة وفرس أغر ومهرة أغر، والغُرَّة من الشهر أوله، ومن القمر طلعته، ومن الأسنان بياضها وأولها، ومن المناخ خياره، ومن القوم شريفهم» (القاموس). فالمعنى: أحسن ما فى هذا الكتاب.

وشُرْطة صغرى. وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدهماء. وجعل له الحكم على أهل المراتب السلطانية والضرب على أيديهم فى الظلامات، وعلى أيدى أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه. وجعل صاحب الصغرى مخصوصاً بالعامة، ونُصب لصاحب الكبرى كرسىٌّ بباب دار السلطان ورجال يتبوءون المقاعد بين يديه، فلا يبرحون عنها إلا فى تصريفه. وكانت ولايتها للأكابر من رجالات الدولة حتى كانت ترشيحا للوزارة والحجابة.

وأما فى دولة الموحدين بالمغرب فكان لها حظ من التنويه وإن لم يجعلوها عامة. وكان لايليها إلا رجالات الموحدين وكبراؤهم. ولم يكن له التحكم على أهل المراتب السلطانية. ثم فسد اليوم منصبها وخرجت عن رجال الموحدين وصارت ولايتها لمن قام بها من المصطنعين.

وأما فى دولة بنى مرين[٧٨٠] . لهذا العهد بالمشرق فولايتها فى بيوت من مواليهم وأهل اصطناعهم، وفى دولة الترك بالمشرق فى رجالات الترك أو أعقاب أهل الدولة قبلهم من الكرد يتخيرونهم لها فى النظر بما يظهر منهم من الصلابة والمضاء فى الأحكام لقمع مواد الفساد وحسم أبواب الدعارة، وتخريب مواطن الفسوق وتغريق مجامعه، مع إقامة الحدود الشرعية والسياسية كما تقتضيه رعاية المصالح العامة فى المدينة.

والله مقلب الليل والنهار، وهو العزيز الجبار، والله تعالى أعلم.

(قيادة الأساطيل) وهى من مراتب الدولة وخُطَطها[٣٥٦] فى ملك المغرب وإفْرِيقِية[٤٩ب] ، ومرءوسة لصاحب السيف وتحت حكمه فى كثير من الأحوال. ويسمى صاحبها فى عرفهم الملند بتفخيم اللام منقولا من لغة الإفرنجة فإنه اسمها فى اصطلاح لغتهم. وإنما اختصت هذه المرتبة بملك إفْرِيقِية[٤٩ب] والمغرب لأنهما جميعًا على ضِفة البحر الرومى[١٧٣] من جهة الجنوب، وعلى عُدْوته الجنوبية بلاد البربر كلهم من سَبتة[٢٢١ب] إلى الإسكندرية إلى الشام، وعلى عدوته الشمالية بلاد الأندلس والإفرنجة والصقالبة والروم إلى بلاد الشام أيضًا، ويسمى البحر الرومى والبحر الشامى نسبة إلى أهل عُدوته. والساكنون بِسِيف(٨٠٦) هذا البحر وسواحله من عُدوتيه يعانون من أحواله مالا تعانيه أمة من أمَم البحار. فقد كانت الروم والإفرنجة والقوط بالعدْوة الشمالية من هذا

(٨٠٦) «السِّيف بكسر السين ساحل البحر وساحل الوادى» (القاموس).

البحر الرومى[172]، وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم فى السفن، فكانوا مهرة فى ركوبه والحرب فى أساطيله. ولما سَفَّ(٨٠٧) من أسَفَّ منهم إلى ملك العُدْوة الجنوبية، مثل الروم إلى إفريقية والقوط إلى المغرب، أجازوا(٨٠٨) فى الأساطيل وملكوها وتغلبوا على البربر بها، وانتزعوا من أيديهم أمرها، وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنَّة وسبيطلة وجلولاء ومرناق وشرشال وطنجة. وكان صاحب قرطاجنة من قَبْلهم يحارب صاحب رومة(٨٠٩)، ويبعث الأساطيل لحربه مشحونة بالعساكر والعُدَد. فكانت هذه عادة لأهل هذا البحر الساكنين حِفافَيْه(٨١٠) معروفةً فى القديم والحديث.

ولما ملك المسلمون مصر كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص، رضى الله عنهما، أن صِفْ لى البحر، فكتب إليه: «إن البحر خلق عظيم، يركبه خلق ضعيف، دود على عود». فأوعز حينئذ بمنع المسلمين من ركوبه. ولم يركبه أحد من العرب إلا من افتات على عمر فى ركوبه ونال من عقابه، كما فعل بعرفجة ابن هرثمة الأزدى سيد بجيلة لما أغزاه[51] عُمان، فبلغه غزوه فى البحر، فأنكر عليه وعنفه أنه ركب البحر للغزو. ولم يزل الشأن ذلك حتى إذا كان لعهد معاوية أذن للمسلمين فى ركوبه والجهاد على أعواده. والسبب فى ذلك أن العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة فى ثقافته وركوبه، والروم والإفرنجة لممارستهم أحواله ومرباهم فى التقلب على أعواده مرنوا عليه وأحكموا الدراية بثقافته.

فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم العجم خولا لهم تحت

---

(٨٠٧) من معانى «أسَفَّ» طَلَب الأمورَ الدنيئة (من القاموس). وهذا هو المعنى المراد فى هذه العبارة.

(٨٠٨) جاز المكان وأجازه بالألف: قطعه وأجاز غيره إليه (من المصباح والقاموس)، فيستعمل المزيد بالألف لازماً (كما استعمله ابن خلدون فى هذه العبارة) ويستعمل متعدياً.

(٨٠٩) يشير بذلك إلى الحروب «البونية» Guerres Puniques التى نشبت بين الرومان والقرطاجنيين وظلت سجالا بينهم نحو مائة وعشرين سنة (من سنة ٢٦٤ إلى سنة ١٤٦ ق. م.) . ويقسمها المؤرخون ثلاث حروب: استمرت أولاها نحو ثلاث وعشرين سنة (٢٦٤ – ٢٤١ ق. م.) وانتهت بانتصار الرومان، واستمرت ثانيتها نحو عشرين سنة (٢١٨ – ٢٠١ ق. م.) وكان النصر فيها للقرطاجنيين، واستمرت الثالثة نحو ثلاث سنين (١٤٩ – ١٤٦ ق. م.) ، وانتهت بانتصار روما وتدمير قرطاجنة. وكان قائد القرطاجنيين فى مرحلتيها الأخيرتين القائد هانيبال الشهير.

(٨١٠) «الحِفاف ككتاب الجانب» (القاموس) فهو مفرد لا جمع كما قد يتبادر إلى الذهن.

أيديهم، وتقرب كل ذى صنعة إليهم بمبلغ صناعته، واستخدموا من النَوَاتيَّة[٢٠٧] فى حاجاتهم البحرية أمما وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته، استحدثوا بصراء بها، فَشَرِهوا(٨١١) إلى الجهاد فيه، وأنشئوا السفن فيه والشَّوَانى(٨١٢)، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح، وأمطوها العساكر والمقاتله لمن وراء البحر من أمم الكفر، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم[٤٦٦] ما كان أقرب لهذا البحر، وعلى حافته مثل الشام وإفْريقية[٤٩ب] والمغرب والأندلس. وأوعز الخليفة عبد الملك إلى حسان بن النعمان عامل إفْرِيقِيَة باتخاذ دار الصناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية حرصًا على مراسم الجهاد. ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله الأول ابن ابراهيم بن الأغلب على يد أسد بن الفرات شيخ الفُتْيَا، وفتح قوصرة أيضاً فى أيامه بعد أن كان معاوية بن خديج أغْزِى[٥١] صقلية أيام معاوية بن أبى سفيان فلم يفتح الله على يديه، وفتحت على يد ابن الأغلب وقائده أسد بن الفرات. وكانت له من بعد ذلك أساطيل إفْرِيقية والأندلس فى دولة العُبَيْدِيين[٦١٧] والأمويين تتعاقب إلى بلادهما فى سبيل الفتنة، فتجوس خلال السواحل بالإفساد والتخريب. وانتهى أسطول الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر[٧١١] إلى مائتى مركب أو نحوها، وأسطول إفريقية كذلك مثله أو قريبًا منه. وكان قائد الأساطيل بالأندلس ابن رماحس، ومرفؤها للحط والإقلاع بِجاية[٢١٥جـ] والمريَّة[٢٣١د]. وكانت أساطيلها مجتمعة من سائر الممالك، من كل بلد يتَّخَذُ فيه السفن أسطولٌ، يرجع نظره إلى قائد من النَّواتيَّة[٢٠٧] يدبر أمر حربه وسلاحه ومقاتلته، ورئيس يدبر أمر جريته بالريح أو بالمجاذيف وأمر إرسائه فى مرفئه. فإذا اجتمعت الأساطيل لغزو محتفل(٨١٣) أو غرض سلطانى مهم عسكرت بمرفئها المعلوم وشحنها السلطان برجاله وأنجاد[٣٧٨] عساكره ومواليه، وجعلهم لنظر أمير واحد من أعلى طبقات أهل مملكته يرجعون كلهم إليه، ثم يسرحهم لوجههم وينتظر إيابهم بالفتح والغنيمة.

وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه، وعظمت صولتُهم وسلطانهم فيه، فلم يكن للأمم النصرانية قِبَلٌ

---

(٨١١) «شَرِه كفرح غلبه حرصُه فهو شَرِهٌ وشَرْهان» (القاموس).

(٨١٢) من معانى «الشَّوْنج» المركب المعد للجهاد فى البحر، وجمعها الشوانى (من القاموس).

(٨١٣) اسم فاعل من احتفل بمعنى اجتمع وتجمع (من القاموس).

بأساطيلهم بشىء من جوانبه، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم، فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه، مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وأقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والإفرنج. وكان أبو القاسم الشيعى وأبناؤه يغزون[٥١] أساطيلهم من المهدية جزيرة جنوة فتنقلب بالظُّفَر والغنيمة. وافتتح مجاهد العامرى صاحب دانية[١٧٧] من ملوك الطوائف جزيرة سردانية فى أساطيله سنة خمس وأربعمائة، وارتجعها النصارى لوقتها. والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لُجَّة هذا البحر، وسارت أساطيلهم فيهم جائية وذاهبة، والعساكر الإسلامية تُجِيز[٨٠٨] البحر فى الأساطيل من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها من العُدْوَة الشمالية، فتوقع بملوك الإفرنج وتُثْخِن[٤٧٢] فى ممالكهم، كما وقع فى أيام بنى الحسين ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العُبَيْديين[٦١٧]، وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالى الشرقى منه من سواحل الإفرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لايعدونها. وأساطيل المسلمين قد ضَرِيَتْ عليهم ضراء[(٨١٤)] الأسد على فريسته، وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عُدَّةً وعَدَداً واختلفت فى طرقه سلمًا وحربًا، فلم تسبح للنصرانية فيه ألواح.

حتى إذا أدرك الدولةَ العُبَيْدية[٦١٧] والأموية الفشلُ والوَهَنُ وطَرَقَها الاعتلال مد النصارى أيديهم إلى جزائر البحر الشرقية مثل صقلية وإقريطش ومالطة فملكوها، ثم أَلَحُّوا على سواحل الشام فى تلك الفترة وملكوا طرابلس وعسقلان وصور وعكا، واستولوا على جميع الثغور بسواحل الشام، وغلبوا على بيت المقدس وبنوا عليه كنيسة لإظهار دينهم وعبادتهم، وغلبوا بنى خزرون على طرابلس، ثم على قابس وصفاقس ووضعوا عليهم الجزية، ثم ملكوا المهدية مقر ملوك العُبَيْديين[٦١٧] من يد أعقاب بلكين بن زيرى، وكانت لهم فى المائة الخامسة الكرَّةُ بهذا البحر. وضعف شأن الأساطيل فى دولة مصر والشام إلى أن انقطع، ولم يعتنوا بشىء من أمره لهذا العهد، بعد أن كان لهم به فى الدولة العُبيدية[٦١٧] عناية تجاوزت الحد كما هو معروف فى أخبارهم. فبطل رسم هذه

(٨١٤) ضرِى بالشىء وعليه كرضى ضَرًى وضِراءً: اعتاده واجترأ عليه، وضَرِى الكلب بالصيد فهو ضَارٍ (من القاموس).

الوظيفة هنالك، وبقيت بإفريقية[٤٩ب] والمغرب فصارت مختصة بها. وكان الجانب الغربي من هذا البحر لهذا العهد موفور الأساطيل ثابت القوة لم يتحيَّفْه(٨١٥) عدو، ولا كانت لهم به كرَّة. فكان قائد الأسطول به لعهد لمتونة بني ميمون رؤساء جزيرة قادس، ومن أيديهم أخذها عبد المؤمن بتسليمهم وطاعتهم، وانتهى عدد أساطيلهم إلى المائة من بلاد العُدوتين جميعاً.

ولما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة وملكوا العُدوتين أقاموا خُطةَ[٢٥٦] هذا الأسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد. وكان قائد أسطولهم أحمد الصقلي أصله من صدغيار الموطنين بجزيرة جربة من سرويكش، أسره النصارى من سواحلها وربَى عندهم واستخلصه صاحب صقلية واستكفاه ثم هلك، وولي ابنه، فأسخطه ببعض النزعات، وخشي على نفسه ولحق بتونس، ونزل على السيد بها من بني عبد المؤمن، وأجاز[٨٠٨] إلى مراكش، فتلقاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بالمبرة والكرامة، وأجزل الصلة وقلده أمر أساطيله فَجَلَّى(٨١٦) في جهاد أمم النصرانية، وكانت له آثار وأخبار ومقامات مذكورة في دولة الموحدين. وانتهت أساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والاستجادة إلى مالم تبلغه من قبل ولابعد فيما عهدناه.

ولما قام صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر والشام لعهده باسترجاع ثغور الشام من يد أمم النصرانية، وتطهير بيت المقدس من رجس الكفر وبنائه(٨١٦ب)، تتابعت أساطيلهم الكفرية(٨١٦جـ) بالمدد لتلك الثغور من كل ناحية قريبة لبيت المقدس الذي كانوا قد استولوا عليه، فأمدوهم بالعُدَد والأقوات، ولم تقاومهم أساطيل الإسكندرية لاستمرار الغَلَب لهم في ذلك الجانب الشرقي من البحر، وتعدد أساطيلهم فيه، وضعف المسلمين منذ زمان طويل عن ممانعتهم هناك كما أشرنا إليه قبل. فأوفد صلاحُ الدين عَلَى أبي يعقوب المنصور سلطان المغرب لعهده من الموحدين رسولَه عبد الكريم بن منقذ من بيت بني منقذ ملوك

---

(٨١٥) «تَحَيَّفه تَنَقَّصَه من حقه أي نواحيه» (القاموس).

(٨١٦) الفرس المُجَلِّي السابقَ في الحلبة (من القاموس). وفي بعض النسخ «فحلى» بالحاء المهملة، وهو تحريف.

(٨١٦ ب) حذفت عبارة «من رجس الكفر وبنائه» من طبعتي «ل» و «دار الكتاب اللبناني» مجاملة لنصارى لبنان، ولكن على حساب الأمانة العلمية.

(٨١٦ جـ) حذفت كلمة «الكفرية» على النحو المشار إليه في التعليق السابق.

شيزر، وكان ملّكها من أيديهم وأبقى عليهم فى دولته، فبعث عبد الكريم منهم هذا إلى ملك المغرب طالبا مدد الأساطيل لتحول فى البحر بين أساطيل الكفرة(٨١٦ د) وبين مرامهم من إمداد النصرانية بثغور الشام، وأصحبه كتابَهُ إليه فى ذلك، من إنشاء الفاضل البيسانى يقول فى افتتاحه: «فتح الله بسيدنا أبواب المناجح والميامن»، حسبما نقله العماد الأصفهانى فى كتاب الفتح القدسى. فَنَقَمَ عليهم المنصور تجافيهم عن خطابه بأمير المؤمنين وأسرّها فى نفسه، وحملهم على مناهج البر والكرامة، وردهم إلى مرسلهم، ولم يجبه إلى حاجته من ذلك. وفى هذا دليل على اختصاص ملك المغرب بالأساطيل وما حصل للنصرانية فى الجانب الشرقى من هذا البحر من الاستطالة وعدم عناية الدول بمصر والشام لذلك العهد وما بعده بشأن الأساطيل البحرية والاستعداد منها للدولة.

ولما هلك أبو يعقوب المنصور واعتلت دولة الموحدين واستولت أمم الجلالقة على الأكثر من بلاد الأندلس، وألجئوا المسلمين إلى سِيف[٨٠٦] البحر، وملكوا الجزائر التى بالجانب الغربى من البحر الرومى[١٧٣]، قويت ريحهم فى بسط هذا البحر، واشتدت شوكتهم، وكثرت فيه أساطيلهم، وتراجعت قوة المسلمين فيه إلى المساواة معهم، كما وقع لعهد السلطان أبى الحسن ملك زناتة بالمغرب، فإن أساطيله كانت عند مرامه الجهادَ مثلَ عُدَّةِ النصرانية وعديدهم.

ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين فى الأساطيل لضعف الدولة ونسيان عوائد البحر، بكثرة العوائد البدوية بالمغرب وانقطاع العوائد الأندلسية. ورجع النصارى فيه إلى دينهم المعروف من الدُّرْبة(٨١٧) فيه والمران عليه والبصر بأحواله وغَلَبِ الأمم فى لُجَّته وعلى أعواده. وصار المسلمون فيه كالأجانب إلا قليلا من أهل البلاد الساحليةِ لهم المران[٧٠٣] عليه لو وجدوا كثرة من الأمصار والأعوان أو قوة من الدولة تستجيش لهم أعوانًا وتوضح لهم فى هذا الغرض مسلكًا، وبقيت الرتبة لهذا العهد فى الدولة الغربية محفوظة، والرسم فى معاناة الأساطيل بالإنشاء والركوب معهوداً لما عساه أن تدعو إليه الحاجة من الأغراض السلطانية فى البلاد البحرية. والمسلمون يَسْتَهِبُّون الريحَ على الكفر

(٨١٦ د) استبدل بهذه الكلمة فى طبعتى «ل» و «دار الكتاب اللبنانى» كلمة «الأجانب» مجاملة لنصارى لبنان، ولكن على حساب الأمانة العلمية.

(٨١٧) «دَرِب به كفرح دَربًا ودُرْبَةً بالضم ضَرِى كتدرب» (القاموس). انظر فى ضَرِى تعليق ٨١٤ .

وأهله، فمن المشتهر بين أهل المغرب عن كتب الحِدْثان[٢٤١] أنه لابد للمسلمين من الكرَّة على النصرانية وافتتاح ما وراء البحر من بلاد الإفرنجة، وأن ذلك يكون في الأساطيل. والله ولى المؤمنين، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

٣٥ - فصل فى التفاوت بين مراتب السيف والقلم فى الدول[٥٦٥ب]

اعلم أن السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بهما على أمره إلا أن الحاجة فى أول الدولة إلى السيف مادام أهلها فى تمهيد أمرهم أشد من الحاجة إلى القلم، لأن القلم فى تلك الحال خادم فقط منفذ للحكم السلطانى، والسيف شريك فى المعونة. وكذلك فى آخر الدولة حيث تضعف عصبيتها كما ذكرناه، ويقل أهلها بما ينالهم من الهرم الذى قدمناه، فتحتاج الدولة إلى الاستظهار بأرباب السيوف وتقوى الحاجة إليهم فى حماية الدولة، والمدافعة عنها، كما كان الشأن أول الأمر فى تمهيدنا. فيكون للسيف مزية على القلم فى الحالتين، ويكون أرباب السيف حينئذ أوسع جاهاً وأكثر نعمة وأسنى إقطاعًا. وأما فى وسط الدولة فيستغنى صاحبها بعض الشىء عن السيف؛ لأنه قد تمهد أمره، ولم يبق همه إلا فى تحصيل ثمرات الملك من الجباية والضبط ومباهاة الدول وتنفيذ الأحكام، والقلم هو المعين له فى ذلك، فتعظم الحاجة إلى تصريفه وتكون السيوف مهملة فى مضاجع أغمادها، إلا إذا نابت نائبة أو دعيت إلى سد فُرْجة[٨١٨] وما سوى ذلك فلا حاجة إليها. فيكون أرباب الأقلام فى هذه الحاجة أوسع جاهًا، وأعلى رتبة، وأعظم نعمةً وثروة، وأقرب من السلطان مجلساً، وأكثر إليه ترددًا وفى خلواته نَجِيًّا[٨١٩]؛ لأنه[٨١٩ب] حينئذ آلته التى بها يستظهر على تحصيل ثمرات ملكه، والنظر فى أعطافه، وتثقيف أطرافه،

(٨١٨) من معانى «الفُرْجة» بالضم الخلل وموضع المخافة (من المصباح). وهذا هو المعنى المراد فى هذه العبارة.

(٨١٩) النَّجِى السرُّ والمُسَارُّون (القاموس). واستُخدم فى عبارة ابن خلدون بمعنى المُسَارِّين، والمُسَارُّون للإنسان يكونون من خلصائه.

(٨١٩ب) الضمير يعود على القلم المعلوم من السياق.

والمباهاة بأحواله، ويكون الوزراء حينئذ وأهل السيوف مستغنى عنهم، مُبْعَدين عن باطن السلطان، حذرين على أنفسهم بوادره.

وفى معنى ذلك ما كتب به أبو مسلم للمنصور حين أمره بالقدوم: «أما بعد فإنه مما حفظناه من وصايا الفرس أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء». سنة الله فى عباده، والله سبحانه وتعالى أعلم.

٣٦ - فصل فى شارات الملك والسلطان الخاصة به ٦٥ب

اعلم أن للسلطان شارات وأحوالاً تقتضيها الأُبَّهةُ والبَذَخُ فيختص بها ويتميز بانتحالها عن الرعية والبطانة وسائر الرؤساء فى دولته. فلنذكر ما هو مشتهر منها بمبلغ المعرفة، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (٨١٩جـ).

(الآلة) فمن شارات الملك اتخاذ الآلة من نشر الألوية والرايات وقرع الطبول والنفخ فى الأبواق والقرون. وقد ذكر أرسطو فى الكتاب المنسوب إليه فى السياسة، أن السر فى ذلك إرهاب العدو فى الحرب، فإن الأصوات الهائلة لها تأثير فى النفوس بالروعة. ولعمرى إنه وجدانى فى مواطن الحرب يجده كل أحد من نفسه. وهذا السبب الذى ذكره أرسطو إن كان ذكره فهو صحيح ببعض الاعتبارات. وأما الحق فى ذلك فهو أن النفس عند سماع النغم والأصوات يدركها الفرح والطرب بلا شك، فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب، ويستميت فى ذلك الوجه الذى هو فيه. وهذا موجود حتى فى الحيوانات العجم، بانفعال الإبل بالحداء والخيل بالصفير والصريخ كما علمت. ويزيد ذلك تأثيراً إذا كانت الأصوات متناسبة كما فى الغناء، وأنت تعلم مايحدث لسامعه من مثل هذا المعنى. ولأجل ذلك تتخذ العجم فى مواطن حروبهم الآلات الموسيقية(٨٢٠) لاطبلاً ولا بوقًا، فيُحْدِقُ المغنون بالسلطان فى

(٨١٩جـ) آخر آية ٧٦ من سورة يوسف، وهى سورة ١٢ .

(٨٢٠) علق الهورينى على هذه الكلمة فى طبعته (انظر صفحات ٢٤٦-٢٤٨). بما يلى: «قوله الموسيقية وفى نسخة الموسيقارية وهى صحيحة، لأن الموسيقى بكسر القاف بين التحتيتين (أى بين الياء ين) اسم للنغم والألحان وتوقيعها، ويقال فيها موسيقير، ويقال لضارب الآلة موسيقار. «انظر أول سفينة الشيخ شهاب».

موكبه بآلاتهم ويغنون، فيحركون نفوس الشجعان بضربهم إلى الاستماتة. ولقد رأينا فى حروب العرب من يتغنى أمام الموكب بالشعر ويطرب، فتجيش همم الأبطال بما فيها، ويسارعون إلى مجال الحرب، وينبعث كل قِرْن إلى قِرْنه(٨٢١). وكذلك زناتة من أمم المغرب: يتقدم الشاعر عندهم أمام الصفوف ويتغنى فيحرك بغنائه الجبال الرواسى، ويبعث على الاستماتة من لا يُظن بها، ويسمون ذلك الغناء «تاصو كايت». وأصله كله فرح يحدث فى النفس فتنبعث عنه الشجاعة كما تنبعث عن نشوة الخمر بما حدث عنها من الفرح. والله أعلم.

وأما تكثير الرايات وتلوينها وإطالتها فالقصد به التهويل لا أكثر، وربما يحدث فى النفوس من التهويل زيادة فى الإقدام، وأحوال النفوس وتلوناتها غريبة. والله الخلاق العليم. ثم إن الملوك والدول يختلفون فى اتخاذ هذه الشارات، فمنهم مكثر ومنهم مقلِّل بحسب اتساع الدولة وعظمها. فأما الرايات فإنها شعار الحروب من عهد الخليقة، ولم تزل الأمم تعقدها فى مواطن الحروب والغزوات، لعهد النبى ﷺ ومن بعده من الخلفاء. وأما قرع الطبول والنفخ فى الأبواق فكان المسلمون لأول الملة متجافين عنه، تنزها عن غلظة الملك ورفضًا لأحواله، واحتقاراً لأُبَّهته التى ليست من الحق فى شىء. حتى إذا انقلبت الخلافة مُلْكًا وتبجحوا بزهرةِ الدنيا ونعيمها، ولابسهم الموالى من الفرس والروم أهل الدول السالفة، وأروهم ما كان أولئك ينتحلونه من مذاهب البَذَخ والترف، فكان مما استحسنوه اتخاذ الآلة فأخذوها، وأذنوا لعمالهم فى اتخاذها تنويها بالملك وأهله. فكثيراً ما كان العامل صاحب الثغر٤٦٦ أو قائد الجيش يعقد الخليفة من العباسيين أو العُبَيْديين٦١٧ لواءه، ويخرج إلى بعثه أو عمله من دار الخليفة أو داره فى موكب من أصحاب الرايات والآلات، فلا يميز بين موكب العامل والخليفة إلا بكثرة الألوية وقلتها، أو بما اختُصَّ به الخليفة من الألوان لرايته كالسواد فى رايات بنى العباس، فإن راياتهم كانت سوداً حزنًا على شهدائهم من بنى هاشم، ونعيًا على بنى أمية فى قتلهم، ولذلك سموا المسوِّدة.

ولما افترق أمر الهاشميين وخرج الطالبيون على العباسيين فى كل جهة وعصر ذهبوا إلى مخالفتهم فى ذلك فاتخذوا الرايات بيضًا وسمو المبيِّضَةَ لذلك سائر أيام العُبَيْديين٦١٧ ومن خرج من الطالبيين فى ذلك العهد بالمشرق،

---

(٨٢١) «القِرن بالكسر كفؤك فى الشجاعة، أو عامٌّ» (القاموس).

كالداعى بطبرستان وداعى صعدة أو من دعا إلى بدعة الرافضة من غيرهم كالقرامطة.

ولما نزع المأمون عن لبس السواد وشعاره فى دولته، عدل إلى لون الخضرة، فجعل رايته خضراء.

وأما الاستكثار منها فلا ينتهى إلى حد، وقد كانت آلة العُبَيْديين لما خرج العزيز إلى فتح الشام خمسمائة من البنود وخمسمائة من الأبواق.

وأما ملوك البربر بالمغرب من صنهاجة وغيرها فلم يختصوا بلون واحد، بل وشَّوْها بالذهب واتخذوها بالحرير الخالص ملونة، واستمروا على الإذن فيها لعمالهم. حتى إذا جاءت دولة الموحدين ومن بعدهم زناتة قصروا الآلة من الطبول والبنود على السلطان، وحظروها على من سواه من عماله، وجعلوا لها موكبًا خاصًا يتبع أثر السلطان فى مسيره يسمى الساقة. وهم فيه بين مكثر ومقلل باختلاف مذاهب الدول فى ذلك: فمنهم من يقتصر على سبع من العدد تبركا بالسبعة كما هو فى دولة الموحدين وبنى الأحمر بالأندلس، ومنهم من يبلغ العشرة والعشرين كما هو عند زناتة. وقد بلغت فى أيام السلطان أبى الحسن فيما أدركناه مائة من الطبول ومائة من البنود ملونة بالحرير منسوجة بالذهب، ما بين كبير وصغير. ويأذنون للولاة والعمال والقواد فى اتخاذ راية واحدة صغيرة من الكتان بيضاء وطبل صغير أيام الحرب لايتجاوزون ذلك.

وأما دولة الترك لهذا العهد بالمشرق فيتخذون أولا راية واحدة عظيمة، وفى رأسها خُصْلَةٌ كبيرة من الشعر يسمونها الشالش والجتر، وهى شعار السلطان عندهم، ثم تتعدد الرايات ويسمونها السناجق، واحدها السنجق وهى الراية بلسانهم. وأما الطبول فيبالغون فى الاستكثار منها ويسمونها الكوسات، ويبيحون لكل أمير أو قائد عسكر أن يتخذ من ذلك ما يشاء، إلا الجتر فإنه خاص بالسلطان.

وأما الجلالقة لهذا العهد من أمم الإفرنج بالأندلس، فأكثر شأنهم اتخاذ الألوية القليلة ذاهبة فى الجو صَعَدًا[٩٤] ومعها قرع الأوتار من الطنابير، ونفخ الغيطات، يذهبون فيها مذهب الغناء وطريقه فى مواطن حروبهم، وهكذا يبلغنا

عنهم وعمن وراءهم من ملوك العجم. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾(٨٢٢).

(السرير) وأما السرير والمنبر والتخت والكرسى فهى أعواد منصوبة أو أرائك مُنَضَّدة لجلوس السلطان عليها مترفعًا عن أهل مجلسه أن يساويهم فى الصعيد. ولم يزل ذلك من سنن الملوك قبل الإسلام وفى دول العجم. وقد كانوا يجلسون على أسِرَّة الذهب. وكان لسليمان بن داود صلوات الله عليهما وسلامه كرسى وسرير من عاج مغشى بالذهب. إلا أنه لا تأخذ به الدول إلا بعد الاستفحال والترف شأن الأُبَّهَة كلها كما قلناه. وأما فى أول الدولة عند البداوة فلا يتشوَّفون إليه.

وأول من اتخذه فى الإسلام معاوية واستأذن الناس فيه، وقال لهم إنى قد بَدُنْتُ(٨٢٣) فأذنوا له، اتخذه واتبعه الملوك الإسلاميون فيه، وصار من منازع الأُبَّهَة. ولقد كان عمرو بن العاص بمصر يجلس فى قصره على الأرض مع العرب، ويأتيه المقوقس إلى قصره ومعه سرير من الذهب محمول على الأيدى لجلوسه شأن الملوك، فيجلس عليه وهو أمامه، ولا يغيرون عليه وفاء له بما عقد معهم من الذمة واطِّراحًا لأبهة الملك. ثم كان بعد ذلك لبنى العباس والعُبَيْديين٦١٧ وسائر ملوك الإسلام شرقًا وغربًا من الأسرة والمنابر والتخوت ماعفا١٤٦ عن الأكاسرة والقياصرة. والله مُقَلِّب الليل والنهار.

(السِّكَّة) وهى الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة، ويضرب بها على الدينار أو الدرهم، فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة، بعد أن يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس فى خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى، وبعد تقدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه، فيكون التعامل بها عددًا، وإن لم تقدر أشخاصها يكون التعامل بها وزنًا. ولفظ السِّكَّة كان اسمًا للطابع، وهى الحديدة المتخذة لذلك، ثم نقل إلى أثرها وهى النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم، ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر فى استيفاء حاجاته وشروطه، وهى الوظيفة، فصار علمًا عليها فى عرف الدول. وهى وظيفة ضرورية للملك إذ

---

(٨٢٢) آية ٢٢ من سورة الروم، وهى سورة ٣٠.
(٨٢٣) بَدُن ككرم ونصر بَدْنا وبُدْنا وبَدانة، أصبح جسيما (من القاموس).

بها يتميز الخالص من المغشوش بين الناس فى النقود عند المعاملات، ويتقون فى سلامتها الغش بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة. وكان ملوك العجم يتخذونها وينقشون فيها تماثيل تكون مخصوصة بها، مثل تمثال السلطان لعهدها أو تمثيل حصن أو حيوان أو مصنوع أو غير ذلك، ولم يزل هذا الشأن عند العجم إلى آخر أمرهم.

ولما جاء الاسلام أغفل ذلك لسذاجة[٦٨ب] الدين وبداوة العرب. وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة وزنًا. وكانت دنانير الفرس ودراهمهم بين أيديهم يردونها فى معاملتهم إلى الوزن ويتصارفون بها بينهم، إلى أن تفاحش الغش فى الدنانير والدراهم، لغفلة الدولة عن ذلك، وأمر عبدُ الملكِ الحجاجَ، على ما نقل سعيدُ بنُ المسيِّب وأبو الزناد، بضرب الدراهم وتمييز المَغشوش من الخالص وذلك سنة أربع وسبعين، وقال المدائنى سنة خمس وسبعين، ثم أمر بصرفها فى سائر النواحى سنة ست وسبعين، وكُتب عليها: «الله أحد الله الصمد». ثم وَلى ابنُ هُبَيْرةَ العراقَ أيام يزيد بن عبد الملك. فجوَّد السِّكَّةَ، ثم بالغ خالد القسرى فى تجويدها، ثم يوسف بن عمر بعده. وقيل أول من ضرب الدنانير والدراهم مُصْعَبُ بن الزبير بالعراق سنة سبعين بأمر أخيه عبد الله لما ولى الحجاز، وكتب عليها فى أحد الوجهين «بركة الله» وفى الآخر «اسم الله»، ثم غيرها الحجاج بعد ذلك بسنة، وكتب عليها اسم الحجاج وقدر وزنها على ما كانت استقرت أيام عمر. وذلك أن الدرهم كان وزنه أوَّلَ الإسلام ستة دوانق، والمثقال وزنه درهم وثلاثة أسباع درهم، فتكون عشرة دراهم بسبعة مثاقيل. وكان السبب فى ذلك أن أوزان الدرهم أيام الفرس كانت مختلفة وكان منها على وزن المثقال عشرون قيراطًا، ومنها اثنا عشر، ومنها عشرة. فلما احتيج إلى تقديره فى الزكاة أخذ الوسط وذلك اثنا عشر قيراطًا، فكان المثقال درهمًا وثلاثة أسباع درهم. وقيل كان منها البغلى بثمانية دوانق، والطبرى أربعة دوانق، والمغربى ثمانية دوانق، واليمنى ستة دوانق، فأمر عمر أن يُنْظَرَ الأغلبُ فى التعامل فكان البغلى والطبرى وهما اثنا عشر دانقًا، وكان الدرهم ستة دوانق، وإن زدت ثلاثة أسباعه كان مثقالا، وإذا أنقصت ثلاثة أعشار المثقال كان درهمًا. فلما رأى عبد الملك اتخاذ السكَّة لصيانة النقدين الجاريين فى معاملة المسلمين من الغش عيَّن مقدارها على هذا الذى استقر لعهد عمر رضى الله

عنه، واتخذ طابع الحديد واتخذ فيه كلمات لا صوراً، لأن العرب كان الكلام والبلاغة أقرب مناحيهم وأظهرها، مع أن الشرع ينهى عن الصور. فلما فعل ذلك استمر بين الناس فى أيام الملة كلها، وكان الدينار والدرهم على شكلين مدوَّرين، والكتابة عليهما فى دوائر متوازنة يكتب فيها من أحد الوجهين أسماء الله تهليلاً وتحميداً وصلاة على النبى وآله، وفى الوجه الثانى التاريخ واسم الخليفة. وهكذا أيام العباسيين والعُبَيْديين[٦١٧] والأمويين.

وأما صنهاجة فلم يتخذوا سِكَّةً إلا آخر الأمر، اتخذها منصور صاحب بجاَية [٢١٥ج] ذكر ذلك ابن حماد فى تاريخه. ولما جاءت دولة الموحدين كان مما سنَّ لهم المهدى اتخاذ سِكَّة الدرهم مربع الشكل، وأن يرسم فى دائرة الدينار شكل مربع فى وسطه، ويملأ من أحد الجانبين تهليلاً وتحميداً، ومن الجانب الآخر كَتْبًا فى السطور باسمه واسم الخلفاء من بعده، ففعل ذلك الموحدون، وكانت سِكَّتُهُم على هذا الشكل لهذا العهد. ولقد كان المهدى فيما ينقل ينعت قبل ظهوره بصاحب الدرهم المربع، نعته بذلك المتكلمون بالحِدْثان[٣٤١] من قبله، المخبرون فى ملاحمهم عن دولته.

وأما أهل المشرق لهذا العهد فسِكَّتُهُم غير مقدرة، وإنما يتعاملون بالدنانير والدراهم وزنًا بالصَّنْجَات[(٨٢٤)] المقدرة بعدة منها، ولا يطبعون عليها بالسِّكَّة نقوش الكلمات بالتهليل والصلاة واسم السلطان كما يفعله أهل المغرب. ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[(٨٢٤ ب)].

ولنختم الكلام فى السكة بذكر حقيقة الدرهم والدينار الشرعيين وبيان حقيقة مقدارهما.

وذلك أن الدينار والدرهم مختلفا السِّكَّة فى المقدار والموازين بالآفاق والأمصار وسائر الأعمال[(٨٢٤جـ)]. والشرع قد تعرض لذكرهما وعلَّق كثيراً من الأحكام بهما فى الزكاة والأنكحة والحدود[٦٩٨] وغيرها. فلابد لهما عنده من

---

(٨٢٤) مفرده صَنْجة وهى معربة، وفى القاموس: «وصَنْجة الميزان، معربة».

(٨٢٤ب) آخر آية ٣٨ من سورة يس: (وهى سورة ٣٦): ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

(٨٢٤جـ) من معانى العمالة (مثلثة العين) الجهة يُوَلَّى عليها العامل، وجمعها أعمال، يقال هذه البلدة من أعمال مديرية كذا أى تابعة لها.

حقيقة ومقدار معين فى تقدير تجرى عليهما أحكامه دون غير الشرعى منهما. فاعلم أن الإجماع منعقد منذ صدر الإسلام وعهد الصحابة والتابعين أن الدرهم الشرعى هو الذى تزن العشرة منه سبعة مثاقيل من الذهب والأوقية منه أربعين درهما، وهو على هذا سبعة أعشار الدينار. ووزن المثقال من الذهب اثنان وسبعون حبة من الشعير. فالدرهم، الذى هو سبعة أعشاره، خمسون حبة وخمسا حبة. وهذه المقادير كلها ثابتة بالإجماع. فإن الدرهم الجاهلى كان بينهم على أنواع أجودها الطبرى، وهو أربعة دوانق، والبغلى وهو ثمانية دوانق، فجعلوا الشرعى بينهما وهو ستة دوانق. فكانوا يوجبون الزكاة فى مائة درهم بغلية ومائة طبرية خمسة دراهم وسَطًا.

وقد اختلفت الناس هل كان ذلك من وضع عبد الملك وإجماع[(٨٢٥)] الناس بعد عليه كما ذكرناه، ذكر ذلك الخطام فى كتاب معالم السنن والماردى فى الأحكام السلطانية، وأنكره المحققون من المتأخرين، لما يلزم عليه أن يكون الدينار والدرهم الشرعيان مجهولين فى عهد الصحابة ومن بعدهم، مع تعلق الحقوق الشرعية بهما فى الزكاة والأنكحة والحدود[٦٩٨] وغيرها كما ذكرناه والحق أنهما كانا معلومى المقدار فى ذلك العصر لجريان الأحكام يومئذ بما يتعلق بهما من الحقوق. وكان مقدارهما غير مشخص فى الخارج، وإنما كان متعارفًا بينهم بالحكم الشرعى على المقدر فى مقدارهما وزنتهما. حتى استفحل الإسلام وعظمت الدولة، ودعت الحال إلى تشخيصهما فى المقدار والوزن كما هو عند الشرع ليستريحوا من كلفة التقدير. وقارن ذلك أيام عبد الملك فشخَّص مقدارهما وعينهما فى الخارج كما هو فى الذهن، ونقش عليهما السِّكَّة باسمه وتاريخه إثر الشهادتين الإيمانيتين، وطرح النقود الجاهلية رأسًا حتى خلصت ونقش عليها سكة وتلاشى وجودها. فهذا هو الحق الذى لامحيد عنه.

ومن بعد ذلك وقع اختيار أهل السكَّة فى الدول على مخالفة المقدار الشرعى فى الدينار والدرهم، واختلفت فى كل الأقطار والآفاق، ورجع الناس إلى تصور مقاديرهما الشرعية ذهنًا كما كان فى الصدر الأول، وصار أهل كل أفق يستخرجون الحقوق الشرعية من سكنهم بمعرفة النسبة التى بينها وبين مقاديرها الشرعية.

---

(٨٢٥) فى جميع النسخ «أو إجماع» وهو تحريف كما لايخفى على المتتبع لسياق الموضوع.

وأما وزن الدينار باثنتين وسبعين حبة من الشعير الوسط فهو الذى نقله المحققون وعليه الإجماع إلا ابن حزم[٦٣٢] خالف ذلك، وزعم أن وزنه أربعة وثمانون حبة، نقل ذلك عنه القاضى عبد الحق، ورده المحققون، وعده وهمًا وغلطًا، وهو الصحيح. والله يُحقُّ الحقَّ بكلماته.

وكذلك تعلم أن الأوقية الشرعية ليست هى المتعارفة بين الناس، لأن المتعارفة مختلفة باختلاف الأقطار، والشرعية متحدة ذهنًا لا اختلاف فيها. والله «خلق كل شىء فقدَّره تقديرًا»(٨٢٥ب).

(الخَاتَم) وأما الخاتم فهو من الخطَط[٢٥٦] السلطانية والوظائف الملوكية. والختم على الرسائل والصكوك معروف للملوك قبل الإسلام وبعده. وقد ثبت فى الصحيحين(٨٢٦) أن النبى ﷺ أراد أن يكتب إلى قيصر، فقيل له إن العجم لايقبلون كتاباً إلا أن يكون مختوماً، فاتخذ خاتمًا من فضة ونقش فيه «محمد رسول الله». قال البخارى: «جعل ثلاث كلمات فى ثلاثة أسطر وختم به لاينقش أحد مثله»، قال: «وتَخَتَّم به أبو بكر وعمر وعثمان، ثم سقط من يد عثمان فى بئر أريس، وكانت قليلة الماء فلم يدرك قعرها بعد، واغتم عثمان وتطير منه وصنع آخر على مثله».

وفى كيفية نقش الخاتم والختم به وجوه. وذلك أن الخاتم يطلق على الآلة التى تجعل فى الأصبع، ومنه تَخَتَّم إذا لبسه. ويطلق على النهاية والتمام، ومنه ختمت الأمر إذا بلغت آخره، وختمت القرآن كذلك، ومنه خاتم النبيين وخاتم الأمر. ويطلق على السِّدَاد الذى يسد به الأوانى والدِّنان، ويقال فيه خِتَام، ومنه قوله تعالى ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾(٨٢٧). وقد غلط من فسر هذا بالنهاية والتمام، قال لأن آخر مايجدونه فى شرابهم ريح المسك، وليس عليه، وإنما هو من الختام، الذى هو السِّدادُ، لأن الخمر يجعل لها فى الدَّنِّ سِدادُ الطين أو القار يحفظها ويطيِّبُ عَرفَها(٨٢٨)

(٨٢٥ب) جزء من آية ٢ من سورة الفرقان (وهى سورة٢٥): ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾

(٨٢٦) هما البخارى ومسلم.

(٨٢٧) أول آية ٢٦ من سورة المطففين، (وهى سورة ٨٣): ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾

(٨٢٨) العَرْف الرائحة، وأكثر استعماله فى الرائحة الطيبة، ومنه قول الشاعر:

لولا اشتعال النار فيما حولها ... ما كان يُعْرف طِيبُ عَرْفِ العود

ونوقها، فبولغ فى وصف خمر الجنة بأن سدادها من المسك، وهو أطيب عَرْفًا ونوقًا من القار والطين المعهودين فى الدنيا.

فإذا صح إطلاق الخاتم على هذه كلها صح إطلاقه على أثرها الناشئ عنها، وذلك أن الخاتم إذا نقشت به كلمات أو أشكال ثم غمس فى مُذَاقٍ[829] من الطين أو مداد، ووضع على صفح القرطاس بقى أكثر الكلمات فى ذلك الصفح. وكذلك إذا طبع به على جسم لين كالشمع، فإنه يبقى نقش ذلك المكتوب مرتسمًا فيه. وإذا كانت كلماتٌ وارتسمت فقد يُقْرأ من الجهة اليسرى إذا كان النقش على الاستقامة من اليمنى، وقد يقرأ من الجهة اليمنى إذا كان النقش من الجهة اليسرى؛ لأن الختم يقلب جهة الخط فى الصفح عما كان فى النقش من يمين أو يسار. فيحتمل أن يكون الختم بهذا الخاتم بغمسه فى المداد أو الطين، ووضعه على الصفح فتنتقش الكلمات فيه، ويكون هذا من معنى النهاية والتمام بمعنى صحة ذلك المكتوب ونفوذه، كأن الكتاب إنما يتم العمل به بهذه العلامات، وهو من دونها ملغى ليس بتمام. وقد يكون هذا الختم بالخط آخرَ الكتاب أو أوله بكلمات منتظمة من تحميد أو تسبيح، أو باسم السلطان أو الأمير أو صاحب الكتاب كائنًا من كان، أو شيء من نعوته، يكون ذلك الخط علامة على صحة الكتاب ونفوذه، ويسمى ذلك فى التعارف علامة، ويسمى ختما تشبيهًا له بأثر الخاتم الآصَفى[830] فى النقش، ومن هذا خاتم القاضى الذى يبعث به للخصوم، أى علامته وخطه الذى ينفذ بهما أحكامه، ومنه خاتم السلطان أو الخليفة أى علامته. قال الرشيد ليحيى بن خالد لما أراد أن يستوزر جعفراً ويستبدل به من الفضل

---

(829) مذقت اللبن والشراب بالماء مذقا من باب قتل مزجته وخلطته، فهو مذيق. وفلان يمذق الود إذا شابه بكدر، فهو مُذَاق» (المصباح). فالمعنى فى مزيج، من الطين والماء. هذا، وفى جميع النسخ: «فى مداف»، وهو تحريف.

(830) نسبة إلى «آصَف» كهاجَر، وهو كاتب سليمان صلوات الله وسلامه عليه دعا بالاسم الأعظم فرأى سليمان العرش مستقرا عنده» (القاموس). وينسب إليه الخاتم فيقال الخاتم الآصفى، ويقال كذلك خاتم سليمان.

أخيه فقال لأبيهما يحيى: «يا أبت[٨٣١] إنى أردت أن أحوِّل الخاتم من يمينى إلى شمالى»، فكنى له بالخاتم عن الوزارة، لما كانت العلامة على الرسائل والصكوك من وظائف الوزارة لعهدهم. ويشهد لصحة هذا الإطلاق ما نقله الطبرى أن معاوية أرسل إلى الحسن عند مراودته إياه فى الصلح صحيفة بيضاء ختم على أسفلها، وكتب إليه أن اشترط فى هذه الصحيفة التى ختمتُ أسفَلها ما شئت فهو لك. ومعنى الختم هنا علامة فى آخر الصحيفة بخطه أو غيره. ويحتمل أن يختم به فى جسم لين فتنتقش فيه حروفه، ويحمل على موضع الحَزْم من الكتاب إذا حُزِمَ وعلى المودعات وهو من السداد كما مر. وهو فى الوجهين آثار الخاتم، فيطلق عليه خاتم.

وأول من أطلق الختم على الكتاب٧٠ أى العلامة معاوية، لأنه أمر لعمر بن الزبير عند زياد بالكوفة بمائة ألف، ففتح الكتاب وصير المائة مائتين، ورفع زياد حسابه، فأنكرها معاوية، وطلب بها عمر وحبسه حتى قضاها عنه أخوه عبدالله. واتخذ معاوية عند ذلك ديوان الخاتم ذكره الطبرى، وقال آخرون: وحزم الكتب ولم تكن تحزم أى جعل لها السِّداد. وديوان الختم عبارة عن الكُتَّاب القائمين على إنفاذ كتب السلطان. والختم عليها إما بالعلامة أو بالحزم. وقد يطلق الديوان على مكان جلوس هؤلاء الكتاب كما ذكرناه فى ديوان الأعمال[٨٣١ب].

والحزم للكتب يكون إما بدس الورق كما فى عرف كتاب المغرب، وإما بلصق رأس الصحيفة على ما تنطوى عليه من الكتاب كما فى عرف أهل المشرق. وقد يجعل على مكان الدس أو الإلصاق علامة يؤمن معها من فتحه والاطلاع على ما فيه. فأهل المغرب يجعلون على مكان الدس قطعة من الشمع ويختمون عليها بخاتم نقشت فيه علامة لذلك، فيرسم النقش فى الشمع. وكان فى المشرق فى الدول القديمة يُخْتم على مكان اللصق بخاتم منقوش أيضًا قد غمس فى

---

(٨٣١) هكذا كان الرشيد يخاطب يحيى بن خالد البرمكى، انظر ص ٣٠٢ من تمهيدنا للمقدمة: «...لمكان أبيهم يحيى من كفالة هارون ولىَّ عهدٍ وخليفة، حتى شب فى حجره، ودرج من عشه، وغلب على أمره، وكان يدعوه: يا أبت».

(٨٣١ب) انظر ص ٦٤٤ .

مُذاق[839] من الطين معد لذلك، صبغه أحمر فيرتسم ذلك النقش عليه. وكان هذا الطين فى الدولة العباسية يعرف بطين الختم، وكان يجلب من سيراف، فيظهر أنه مخصوص بها.

فهذا الخاتم الذى هو العلامة المكتوبة أو النقش للسداد والحزم للكتب خاص بديوان الرسائل. وكان ذلك للوزير فى الدولة العباسية. ثم اختلف العرف وصار لمن إليه الترسيل وديوان الكتاب فى الدولة. ثم صاروا فى دول المغرب يعدون من علامات الملك وشاراته الخاتم للأصبع، فيستجيدون صوغه من الذهب ويرصعونه بالفصوص من الياقوت والفيروزج والزمرد، ويلبسه السلطان شارة فى عرفهم، كما كانت البردة والقضيب فى الدولة العباسية، والمظلة فى الدولة العُبَيْدية٦١٧ . والله مصرف الأمور بحكمه.

(الطـــــراز) من أبَّهة الملك والسلطان ومذاهب الدول أن ترسم أسماؤهم أو علامات تختص بهم فى طراز أثوابهم المعدة للباسهم، من الحرير أو الديباج أو الإبْرِيسَم(٨٣٢)، تعتبر كتابة خطها فى نسج الثوب ألحاما وأسداء(٨٣٣) بخيط الذهب، أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب، على ما يُحْكِمُهُ الصناع فى تقدير ذلك ووضعه فى صناعة نسجهم. فتصير الثياب الملوكية مُعْلَمَةً بذلك الطراز قصد التنويه بلابسها من السلطان فمن دونه، أو التنويه بمن يختصه السلطان بملبوسه إذا قَصَدَ تشريفَهُ بذلك أو ولايتَه لوظيفة من وظائف دولته.

وكان ملوك العجم من قبل الإسلام يجعلون ذلك الطراز بصور الملوك وأشكالهم، أو أشكال وصور معيَّنة لذلك. ثم اعتاض ملوك الإسلام عن ذلك بكتب أسمائهم مع كلمات أخرى تجرى مجرى الفأل أو السجلات. وكان ذلك فى الدولتين من أُبَّهة الأمور وأفخم الأحوال. وكانت الدور المعدة لنسج أثوابهم فى قصورهم تسمى دور الطراز لذلك، وكان القائم على النظر فيها يسمى

---

(٨٣٢) «الإبْرِيسَم بفتح السين وضمها الحرير» (القاموس).

(٨٣٣) اللُّحْمة بالفتح والضم للثوب ما يُنْسَج عرضاً وقد جمعه ابن خلدون على ألحام، والسَّدى ما يُمدُّ طولا فى النسيج، وجمعه أسْداء (من المصباح).

صاحب الطراز، ينظر فى أمور الصبّاغ(٨٣٤) والآلة والحاكة(٨٣٥) فيها وإجراء أرزاقهم وتسهيل آلاتهم ومشارفة أعمالهم. وكانوا يُقَلِّدون ذلك لخواص دولتهم وثقات مواليهم. وكذلك كان الحال فى دولة بنى أمية بالأندلس، والطوائف من بعدهم، وفى دولة العُبَيْديين٦١٧ بمصر، ومن كان على عهدهم من ملوك العجم بالمشرق. ثم لما ضاق نطاق الدول عن الترف والتفنن فيه لضيق نطاقها فى الاستيلاء، وتعددت الدول، تعطلت هذه الوظيفة والولاية عليها من أكثر الدول بالجملة.

ولما جاءت دولة الموحدين بالمغرب بعد بنى أمية أول المائة السادسة، لم يأخذوا(٨٣٦) بذلك أول دولتهم، لما كانوا عليه من منازع الديانة والسذاجة٦٨ب التى لقنوها عن إمامهم محمد بن تومرت المهدى، وكانوا يتورعون عن لباس الحرير والذهب. فسقطت هذه الوظيفة من دولتهم، واستدرك منها أعقابُهم آخر الدولة طرفًا لم يكن بتلك النباهة. وأما لهذا العهد فأدركنا بالمغرب فى الدولة المرينيَّة٧٨٠ لعنفوانها وشموخها رسمًا جليلا لُقِّنوه من دولة ابن الأحمر(٨٣٦ب) معاصرهم بالأندلس، واتبع هو فى ذلك ملوك الطوائف، فأتى منه بلمحة شاهدة بالأثر.

وأما دولة الترك بمصر والشام لهذا العهد ففيها من الطراز تحرير آخر على مقدار ملكهم وعمران بلادهم. إلا أن ذلك لا يصنع فى دورهم وقصورهم وليست من وظائف دولتهم، وإنما ينسج ما تطلبه الدولة من ذلك عند صُنَّاعِهِ من الحرير ومن الذهب الخالص، ويسمونه المزركش (لفظةٌ أعجمية). ويرسم اسم السلطان أو الأمير عليه ويعده الصناع لهم فيما يعدونه للدولة من طرف الصناعة اللائقة بها. والله مقدر الليل والنهار، والله خير الوارثين .

---

(٨٣٤) الصبّاغ ما يصبغ به، وفى بعض النسخ «الصيَّاغ» جمع صائغ.

(٨٣٥) «حاك الثوبَ نسجه، وبابه قال، وحِياكة أيضًا، فهو حائك وقوم حَاكَة وحَوَكَة» (المختار).

(٨٣٦) فى جميع النسخ «ولم يأخذوا بذلك». وهو تحريف زيدت فيه الواو، لأن الجملة خبر.

(٨٣٦ب) انظر طرفاً من أخبار هذه الدولة وصلة ابن خلدون بها فى تمهيدنا للمقدمة، صفحات ٥٨ – ٦٤ ، ٧١ .

(الفساطيط والسياج) اعلم أن من شارات الملك وترفه اتخاذ الأخبية والفساطيط والفازات(٨٣٧) من ثياب الكتان والصوف والقطن بجدل الكتان والقطن، فيُبَاهَى بها فى الأسفار وتُنَوَّعُ منها الألوانُ ما بين كبير وصغير على نسبة الدولة فى الثروة واليسار. وإنما يكون الأمر فى أول الدولة فى بيوتهم التى جرت عادتهم باتخاذها قبل الملك. وكان العرب ٣٥٩ لعهد الخلفاء الأولين من بنى أمية إنما يسكنون بيوتهم التى كانت لهم خياماً من الوبر والصوف.

ولم تزل العرب ٣٥٩ لذلك العهد بادين ٣٥٣ إلا الأقل منهم. فكانت أسفارهم لغزواتهم وحروبهم بظعونهم(٨٣٨) وسائرِ حللهم ٢٥ وأحيائهم من الأهل والولد كما هو شأن العرب ٣٥٩ لهذا العهد. وكانت عساكرهم لذلك كثيرة الحلل٢٥، بعيدة ما بين المنازل، متفرقة الأحياء، يغيب كل واحد منها عن نظر صاحبه من الأخرى كشأن العرب. ولذلك كان عبدالملك (٨٣٩) يحتاج إلى سَاقَة(٨٤٠) تَحشدُ(٨٤١) الناس على أثره أن يقيموا إذا ظعن٨٣١ ونقل أنه استعمل فى ذلك الحجَّاجَ حين أشارَ به روْح بن زِنْبَاع. وقصتها فى إحراق فساطيط روح وخيامه لأول ولايته حين وجدهم مقيمين فى يوم رحيل عبدالملك قصة مشهورة. ومن هذه الولاية تُعرَفُ رتبةُ الحجاج بين العرب؛ فإنه لا يتولى إرادتهم(٨٤٢) على الظعْنِ٨٣٨ إلا من يأمن بوادر السفهاء من أحيائهم(٨٤٣)، بما له من العصبية الحائلة دون ذلك، ولذلك اختصه عبدالملك بهذه الرتبة ثقة بغَنائه١٤٣ فيها بعصبيته وصرامته(٨٤٤).

---

(٨٣٧) «الفازة، مظلة بعمودين» (القاموس).

(٨٣٨) ظَعَن كمنع ظَعْنًا وظَعَنًا (المصدر هو الساكن، والاسم هو المحرك)

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ (آية ٨٠ من سورة النحل، وهى سورة ١٦). والظعينة: الهودج فيه امرأة أم لا، وجمعه ظعائن وأظعان وظُعْن وظُعُن (من القاموس والمصباح). فلم يذكر فيهما الظعون من بين جموع الظعينة.

(٨٣٩) فى جميع النسخ: «ولذلك ما كان عبدالملك يحتاج إلى ساقة»، وهو تحريف يغير المعنى المقصود إلى نقيضه (انظر آخر ص١٥ وأول ص١٦ من تمهيدنا للمقدمة وأمثلة أخرى لذلك فى تعليقىْ ٤٢٥، ٧٩٣).

(٨٤٠) ساق سَوْقًا فهو سائق وسواق ويجمع على ساقة (وبهذا المعنى استعمله هنا ابن خلدون). والساقة أيضاً مؤخرة الجيش كأنها تسوقه سَوْقا.

(٨٤١) «حَشَد يحشُد ويحشِد جمع؛ والحَشْد الجماعة» (القاموس).

(٨٤٢) أراده على الأمر أكرهه عليه. (٨٤٣) «الحيُّ القبيلة من العرب والجمع أحياء» (المصباح).

(٨٤٤) عرض ابن خلدون فيما سبق لمكانة الحجاج وعصبيته وصحَّح ما يتبادر إلى الذهن عندما يذكر المؤرخون أن أباه كان من المعلِّمين (انظر صفحتى ٣٢٢، ٣٢٣).

فلما تفننت الدولة العربية فى مذاهب الحضارة والبَذَخ ونزلوا المدن الأمصار وانتـقلوا من سكنى الخيـام إلى سكنى القصـور، ومن ظهـر الخف إلى ظهـر الحافر(٨٤٥)، اتخذوا للسكنى فى أسفارهم ثياب الكتان يستعملون منها بيوتًا مختلفة الأشكال مقدرة الأمثال من القَوْراء(٨٤٦) والمستطيلة والمربعة ويحتفلون فيها بأبلغ مذاهب الاحتفال والزينة ويدير الأمير القائد للعساكر على فساطيطه وفازاته ٨٣٧ من بينهم سياجًا من الكتان يسمى فى المغرب بلسان البربر الذى هو لسان أهله «أفزاك» بالكاف التى بين الكاف والقاف، ويختص به السلطان بذلك القطر لا يكون لغيره.

وأما فى المشرق فيتخذه كل أمير وإن كان دون السلطان. ثم جنحت الدعة بالنساء والولِدان إلى المقام بقصورهم ومنازلهم، فخف لذلك ظهرهم وتقاربت الساج بين منازل العسكر، واجتمع الجيش والسلطان فى معسكر واحد يحصره البصر فى بسيطة زهوًا أنيقًا لاختلاف ألوانه. واستمر الحال على ذلك فى مذاهب الدول فى بذخها وترفها.

وكذا كانت دولة الموحدين وزناتة التى أظلتنا. كان سفرهم أوَّلَ أمرهم فى بيوت سكناهم قبل الملك من الخيام والقياطن(٨٤٧). حتى إذا أخذت الدولة فى مذاهب الترف وسكنى القصور عادوا إلى سكنى الأخبية والفساطيط، وبلغوا من ذلك فوق ما أرادوه وهو من الترف بمكان. إلا أن العساكر به تصير عُرْضَةً للبيَات(٨٤٨) لاجتماعهم فى مكان واحد تشملهم فيه الصيحة ولخفتهم من الأهل والولد الذين تكون الاستماتة دونهم، فيُحتاجُ فى ذلك إلى تَحَفُّظٍ آخَر، والله القوى العزيز.

(المقصورة للصلاة والدعاء فى الخطبة) وهما من الأمور الخِلافيَّة ومن شارات الملك الإسلامى، ولم يعرف فى غير دول الإسلام.

فأما البيت المقصورة من المسجد لصلاة السلطان فيتخذ سياجًا على المحراب فيحوزه وما يليه. فأول من اتخذها معاوية بن أبى سفيان حين طعنه

---

(٨٤٥) أى من ظهور الإبل إلى ظهور الخيل.
(٨٤٦) «القَوْراء الواسعة» (القاموس).
(٨٤٧) جمع قَيْطون وهو المخْدَع (من القاموس).
(٨٤٨) بيَّت العدوَّ أوقع بهم ليلا والاسم البيَات» (من الصحاح).

الخارجى، والقصة معروفة؛ وقيل: أول من اتخذها مروان بن الحكم حين طعنه اليمانى. ثم اتخذها الخلفاء من بعدهما وصارت سنة فى تمييز السلطان عن الناس فى الصلاة. وهى إنما تحدث عند حصول الترف فى الدول والاستفحال شأن أحوال الابَّهة كلها. ومازال الشأن ذلك فى الدول الإسلامية كلها. وعند افتراق الدولة العباسية وتعدد الدول بالمشرق، وكذا بالأندلس عند انقراض الدولة الأموية وتعدد ملوك الطوائف. وأما المغرب فكان بنو الأغلب يتخذونها بالقَيْروان[14] ثم الخلفاء العُبَيْدِيُّون[617]، ثم وُلاتُهم على المغرب من صنهاجة [50]، بنو باديس بفاس، وبنو حماد بالقلعة. ثم ملك الموحدون سائر المغرب والأندلس، ومحوا ذلك الرسم على طريقة البداوة التى كانت شعارهم. ولما استفحلت الدولة وأخذت بحظها من الترف، وجاء أبو يعقوب المنصور ثالث ملوكهم فاتخذ هذه المقصورة، وبقيت من بعده سنة لملوك المغرب والأندلس. وهكذا كان الشأن فى سائر الدول. سنة الله فى عباده.

وأما الدعاء على المنابر فى الخطبة فكان الشأن أولا عند الخلفاء ولايةَ الصلاة بأنفسهم، فكانوا يدعون لذلك بعد الصلاة بالصلاة على النبى ﷺ والرضا عن أصحابه. وأول من اتخذ المنبر عمرو بن العاص لما بنى جامعه بمصر. وأول من دعا للخليفة على المنبر ابن عباس دعا لعلى رضى الله عنهما فى خطبته وهو بالبصرة عامل له عليها، فقال: اللهم انصر عليا على الحق. واتصل العمل على ذلك فيما بعد. وبعد أخذ عمرو بن العاص المنبر بلغ عمر بن الخطاب ذلك، فكتب إليه عمر بن الخطاب: «أما بعد فقد بلغنى أنك اتخذت منبراً ترقى به على رقاب المسلمين، أوَما يكفيك أن تكون قائماً والمسلمون تحت عقبك؟! فعزمت عليك إلا ما كسرته» فلما حدثت الأبهة، وحدث فى الخلفاء المانع من الخطبة والصلاة استنابوا فيهما. فكان الخطيب يشيد بذكر الخليفة على المنبر تنويها باسمه ودعاء له بما [42ب] جعل الله مصلحة العالم فيه، ولأن تلك الساعة مَظِنَّةٌ للإجابة، ولما ثبت عن السلف فى قولهم: من كانت له دعوة صالحة فليضعها فى السلطان. وكان الخليفة يُفرَد بذلك.

فلما جاء الحجر والاستبداد صار المتقلبون على الدول كثيراً ما يشاركون الخليفة فى ذلك، ويشاد باسمهم عقب اسمه وذهب ذلك بذهاب تلك الدول،

وصار الأمر إلى اختصاص السلطان بالدعاء له على المنبر دون من سواه، وحظر أن يشاركه فيه أحد ويسمو إليه.

وكثيراً ما يغفل الماهدون[٣٤] من أهل الدول هذا الرسم عندما تكون الدولة فى أسلوب الغضاضة[٤٤٩ب] ومناحى البداوة فى التغافل والخشونة، ويقنعون بالدعاء على الإبهام والإجمال لمن ولى أمور المسلمين. ويسمون مثل هذه الخطبة إذا كانت على هذا المنحى عباسية، يعنون بذلك أن الدعاء على الإجمال إنما يتناول العباسى تقليداً فى ذلك لما سلف من الأمر، ولا يَحْفلُون بما وراء ذلك من تعيينه والتصريح باسمه. يحكى أن يغمراسن بن زيان، مَاهِدَ[٣٤] دولة بنى عبدالواد لما غلبه الأمير أبو زكريا يحيى بن أبى حفص على تِلِمْسان(٨٤٩)، ثم بدا له فى إعادة الأمر إليه على شروط شرطها، كان فيها ذكر اسمه على منابر عمله، فقال يغمراسن تلك أعوادهم يذكرون عليها من شاءوا. وكذلك يعقوب بن عبدالحق ماهد[٣٤] دولة بنى مَرِين[٧٨٠]، حضره رسول المستنصر الخليفة بتونس من بنى أبى حفص وثالث ملوكهم، وتخلف بعض أيامه عن شهود الجمعة، فقيل له لم يحضر هذا الرسول كراهيةً لخلو الخطبة من ذكر سلطانه. فأذن فى الدعاء له، وكان ذلك سبباً لأخذهم بدعوته. وهكذا شأن الدول فى بدايتها وتمكنها فى الغضاضة[٧٨٧] والبداوة. فإذا انتبهت عيون ساستهم، ونظروا فى أعطاف ملكهم، واستتموا شِيَات(٨٥٠) الحضارة ومعانى البَذَخِ والأُبَّهة، انتحلوا جميع هذه السِّمات وتفننوا فيها، وتجاروا إلى غايتها، وأنفوا من المشاركة فيها، وجزعوا من افتقادها وخلو دولتهم من آثارها. والعالم بستان. والله على كل شىء رقيب.

---

(٨٤٩) انظر تعليق ٢ ص ٤٨ من تمهيدنا للمقدمة.

(٨٥٠) الشِّيَة: العلامة واللون ومنه يقال شية الفرس: أى لونه وجمعه شيات. والشِّية كذلك لون فى الحيوان يخالف لون جلده؛ وهى فى الأصل مصدر وَشَاه وشْياً وشِيَةً إذا خلط بلونه لوناً آخر. ومنه قوله تعالى فى وصف بقرة بنى إسرائيل ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَ شِيَةَ فِيهَا﴾ (آية ٧١ من سورة البقرة وهى السورة الثانية). (من القاموس والمصباح والبيضاوى فى تفسير القرآن).

٣٧. فصل فى الحروب ومذاهب الأمم فى ترتيبها [٣٨٩ب، ٦٥ب]

اعلم أن الحروب وأنواع المُقَاتَلة لم تزل واقعة فى الخليقة منذ برأها الله. وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض، ويتعصب لكل منها أهل عصبيته. فإذا تذامروا[٤٤٣] لذلك وتواقفت الطائفتان، إحداهما تطلب الانتقام، والأخرى تدافع، كانت الحرب. وهو أمر طبيعى فى البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل.

وسبب هذا الانتقام فى الأكثر: إما غيرة ومنافسة؛ وإما عدوان؛ وإما غضب لله ولدينه؛ وإما غضب للملك وسعى فى تمهيده. فالأول أكثر ما يجرى بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة. والثاني وهو العدوان أكثر ما يكون من الأمم الوحشية الساكنين بالقفر كالعرب[٢٥٩] والترك والتركمان والأكراد وأشباههم؛ لأنهم جعلوا أرزاقهم فى رماحهم، ومعاشهم فيما بأيدى غيرهم، ومَن دافعهم عن متاعه آذنوه بالحرب، ولا بُغْيَة لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا ملك، وإنما همهم ونُصبُ أعينهم غَلَبُ الناس على مافى أيديهم، والثالث هو المسمى فى الشريعة بالجهاد. والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليها والمانعين لطاعتها، فهذه أربعة أصناف من الحروب: الصنفان الأولان منها حروب بغى وفتنة؛ والصنفان الأخيران حروب جهاد وعدل.

وصفة الحروب الواقعة بين الخليقة منذ أول وجودهم على نوعين: نوع بالزحف صفوفًا ونوع بالكر والفر. أما الذى بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم، وأما الذى بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب.

وقتال الزحف أوثق وأشد من قتال الكر والفر. وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف، وتسوى كما تسوى القداح أو صفوف الصلاة، ويمشون بصفوفهم إلى العدو قُدُمًا. فلذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق فى القتال وأرهب للعدو، لأنه كالحائط الممتد والقصر المشيد، لا يطمع فى إزالته. وفى التنزيل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾(٨٥١) أى يشد بعضهم بعضًا بالثبات. وفى الحديث الكريم: «المؤمن للمؤمن كالبُنْيان

(٨٥١) آية ٤ من سورة الصف وهى سورة ٦١.

يشد بعضه بعضاً». ومن هنا يظهر لك حكمة إيجاب الثبات وتحريم التولى فى الزحف[٨٥٢]؛ فإن المقصود من الصف فى القتال حفظ النظام كما قلناه، فمن ولَّى العدوَّ ظهرَه فقد أخل بالمصاف، وباء بإثم الهزيمة إن وقعت، وصار كأنه جرها على المسلمين، وأمْكَنَ منهم عدوَّهم، فعظم الذنب لعموم المفسدة، وتعديها إلى الدين بخرق سياجه؛ فعد من الكبائر.

ويظهر من هذه الأدلة أن قتال الزحف أشد عند الشارع.

وأما قتال الكر والفر فليس فيه من الشدة والأمن من الهزيمة ما فى قتال الزحف. إلا أنهم قد يتخذون وراءهم فى القتال مصافّا ثابتًا يلجئون إليه فى الكر والفر، ويقوم لهم مقام قتال الزحف كما نذكره بعد.

ثم إن الدول القديمة الكثيرة الجنود المتسعة الممالك كانوا يقسمون الجيوش والعساكر أقساماً، يسمونها كراديس، ويسوون فى كل كردوس[٨٥٢ب] صفوفه، وسبب ذلك أنه لما كثرت جنودهم الكثرة البالغة وحشدوا من قاصية النواحى استدعى ذلك أن يجهل بعضهم بعضًا إذا اختلطوا فى مجال الحرب واعتوروا مع عدوهم الطعن والضرب، فيخشى من تدافعهم فيما بينهم لأجل النكراء[٨٥٣] وجهل بعضهم ببعض. فلذلك كانوا يقسمون العساكر جموعا ويضمون المتعارفين بعضهم لبعض، ويرتبونها قريبًا من الترتيب الطبيعى فى الجهات الأربع. ورئيس العساكر كلها من سلطان أو قائد فى القلب. ويسمون هذا الترتيب التعبئة، وهو مذكور فى أخبار فارس والروم والدولتين صدر الإسلام[١٢]. فيجعلون بين يدى الملك عسكراً منفرداً بصفوفه متميزاً بقائده ورايته وشعاره، ويسمونه المقدّمَة؛ ثم عسكراً آخر من ناحية اليمين عن موقف الملك وعلى سمته يسمونه الميمنة، ثم عسكراً آخر من ناحية الشمال كذلك يسمونه الميسرة؛ ثم

(٨٥٢) يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (آيتى ١٥، ١٦ من سورة الأنفال وهى سورة ٨).

(٨٥٢ب) «الكُرْدوسة بالضم قطعة عظيمة من الخيل، وكردس الخيل جعلها كتيبة كتيبة» (القاموس).

(٨٥٣) النُّكْراء المنكر والأمر الشديد والداهية والفطنة والدهاء (من القاموس والمصباح). وقد استعملها ابن خلدون هنا بمعنى الجهل بالشىء من نَكِر فلان الأمر كفرح نَكَرًا ونُكْرًا ونُكُوراً ونَكِيراً (من القاموس). وهو استعمال للكلمة فى غير معانيها الحقيقية. وكان الصحيح أن يستعمل مصدراً من مصادر هذا الفعل أو يستخدم كلمة «النكرة» وهى مقابل المعرفة.

عسكراً آخر من وراء العسكر يسمونه الساقة[٨٤٠]؛ ويقف الملك وأصحابه فى الوسط بين هذه الأربع، ويسمون موقفه القلب. فإذا تم لهم هذا الترتيب المحكم، إما فى مدى واحد للبصر أو على مسافة بعيدة، أكثرها اليوم واليومان بين كل عسكرين منها، أو كيفما أعطاه حال العساكر فى القلة والكثرة، فحينئذ يكون الزحف من بعد هذه التعبئة.

وانظر ذلك فى أخبار الفتوحات وأخبار الدولتين[١٢] بالمشرق، وكيف كانت العساكر لعهد عبدالملك تتخلف عن رحيله لبعد المدى فى التعبئة، فاحتيج لمن يسوقها من خلفه وعين لذلك الحجاج بن يوسف كما أشرنا إليه(٨٥٣ب)، وكما هو معروف فى أخباره. وكان فى الدولة الأموية بالأندلس أيضًا كثير منه، وهو مجهول فيما لدينا، لأنا إنما أدركنا دولا قليلة العساكر لا تنتهى فى مجال الحرب إلى التناكر، بل أكثر الجيوش من الطائفتين معًا يجمعهم لدينا حِلَّةٌ[٢٥] أو مدينة ويعرف كل واحد منهم قِرنَه[٨٣١] ويناديه فى حومة الحرب باسمه ولقبه، فاستُغْنى عن تلك التعبئة.

(فصل)[٣٠٩] ومن مذاهب أهل الكر والفر فى الحروب ضرب المصاف وراء عسكرهم من الجمادات والحيوانات العجم، فيتخذونها ملجأ للخيالة فى كرهم وفرهم، يطلبون به ثبات المقاتلة ليكون أدوم للحرب وأقرب إلى الغلب. وقد يفعله أهل الزحف أيضًا ليزيدهم ثباتا وشدة.

فقد كان الفرس، وهم أهل الزحف، يتخذون الفيلة فى الحروب ويحمِّلون عليها أبراجًا من الخشب أمثال الصروح، مشحونة بالمقاتلة والسلاح والرايات، ويصفونها وراءهم فى حومة الحرب كأنها حصون، فتقوى بذلك نفوسهم ويزداد وثوقهم. وانظر ما وقع من ذلك فى القادسية، وأن فارس فى اليوم الثالث اشتدوا بها على المسلمين حتى اشتدت رجالات من العرب فخالطوهم وبعجوها(٨٥٤) بالسيوف على خراطيمها، فنفرت ونكصت على أعقابها إلى مرابطها بالمدائن، فجفا(٨٥٥) معسكر فارس لذلك وانهزموا فى اليوم الرابع.

وأما الروم وملوك القوط بالأندلس وأكثر العجم فكانوا يتخذون لذلك الأسِرَّة

(٨٥٣ب) انظر ص ٦٧٣ وأول ٦٧٤ .

(٨٥٤) «بَعَجَه كمنعه شقَّه» (القاموس).

(٨٥٥) «جفا جفاء وتجافى لم يلزم مكانه» (القاموس).

ينصبون للملك سريره فى حومة الحرب، ويَحُفُّ[٨٥٦] به من خدمه وحاشيته وجنوده مَن هو زعيم[٨٥٧] بالاستماتة دونه، وترفع الرايات فى أركان السرير، ويحدق به سياج آخر من الرماة والرَّجَّالة[٨٥٨]، فيعظم هيكل السرير ويصير فئة[٨٥٩] للمقاتلة وملجأ للكر والفر. وجعل ذلك الفرس أيام القادسية، وكان رستم جالسًا على سرير نصبه لجلوسه، حتى اختلفت صفوف فارس وخالطه العرب فى سريره ذلك، فتحول عنه إلى الفرات وقتل.

وأما أهل الكر والفر من العرب[٣٥٩] وأكثر الأمم البدوية الرَّحَّالة فيصُفُّون لذلك إبلهم والظهر الذى يحمل ظعائنهم[٨٣٨] فيكون فئة لهم[٨٥٩]، ويسمونها المجبوذة[٨٦٠].

وليس أمة من الأمم إلا وهى تفعل ذلك فى حروبها، وتراه أوثق فى الجولة، وآمن من الغِرَّة والهزيمة. وهو أمر مشاهد.

وقد أغفلته الدول لعهدنا بالجملة، واعتاضوا عنه بالظهر الحامل للأثقال والفساطيط يجعلونها ساقة[٨٤٠] من خلفهم؛ ولا تغنى غَنَاءَ[١٤٣] الفيلة والإبل. فصارت العساكر بذلك عُرْضَــةً للهزائم، ومستشعرة للفرارِ فى المواقف.

وكان الحرب أولَ الإسلام كله زحفًا. وكان العرب إنما يعرفون الكر والفر. لكن حملهم على ذلك أولَ الإسلام أمران: أحدهما أن عدوهم كانوا يقاتلون زحفاً فيضطرون إلى مقاتلتهم بمثل قتالهم؛ الثانى أنهم كانوا مستميتين فى جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر، ولما رسخ فيهم من الإيمان، والزحف إلى الاستماتة أقرب.

وأول من أبطل الصف فى الحروب وصار إلى التعبئة كراديس[٨٥٢] مروان بن الحكم فى قتال الضحاك الخارجى والحبيرى بعده. قال الطبرى لما ذكر قتال

---

(٨٥٦) حَفُّوا حوله: أى أطافوا به واستداروا، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ (آية ٧٥ من سورة الزمر وهى سورة ٣٩) وبابه رَدَّ (من المختار).

(٨٥٧) الزعيم: الكفيل بالشىء، قال تعالى: ﴿.. وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ (آية ٧٢ من سورة يوسف، وهى سورة ١٢).

(٨٥٨) رَجِلَ كفرح إذا لم يكن له ظهر يركبه فهو راجل وجمعه رِجَال ورَجَّالة ورُجَّال (من القاموس).

(٨٥٩) أى بمنزلة فئة من الجيش يُلْجأ إليها عند الحاجة. وقد اقتبس لفظ «فئة» من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ...﴾ (انظر تعليق ٨٥٢).

(٨٦٠) جبذه جبذاً من باب ضرب بمعنى جذبه جذباً وليس مقلوباً عنه بل هو لغة صحيحة (القاموس والمصباح). وسميت الإبل والظعائن المصفوفة وراء الجيش مجبوذة؛ لأنها مجذوبة إليه ومشدودة به.

الحبيرى: «فولى الخوارج عليهم شيبان بن عبدالعزيز اليشكرى ويلقب أبا الذلفاء وقاتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس[٨٥٢ب]، وأبطل الصف من يومئذ»انتهى. فتنوسى قتال الزحف بإبطال الصف، ثم تنوسى الصف وراء المقاتلة بما داخل الدول من الترف. وذلك أنها حينما كانت بدوية وسكناهم الخيام كانوا يستكثرون من الإبل وسكنى النساء والوِلدان معهم فى الأحياء.

فلما حصلوا على ترف الملك وألفوا سكنى القصور والحواضر وتركوا شأن البادية والقفر نسوا لذلك عهد الإبل والظعائن[٨٣٨] وصعب عليهم اتخاذها، فخلفوا النساء فى الأسفار، وحملهم الملك والترف على اتخاذ الفساطيط والأخبية، فاقتصروا على الظهر الحامل للأثقال والأبنية[(٨٦١)]. وكان ذلك صفتهم فى الحرب. ولا يغنى كل الغَنَاء[١٤٣] لأنه لا يدعو إلى الاستماتة كما يدعو إليها الأهل والمال. فيخف الصبر من أجل ذلك وتصرفهم الهَيْعاتُ[٢٧٦] وتُخْرَم[(٨٦٢)] صفوفُهُم.

(فصل)[٣٠٩] ولما ذكرناه من ضرب المصاف وراء العساكر وتأكده فى قتال الكر والفر، صار ملوك المغرب يتخذون طائفة من الإفرنج فى جندهم، واختُصُّوا بذلك لأن قتال أهل وطنهم كله بالكر والفر. والسلطان يتأكد فى حقه ضرب المصاف ليكون ردءًا للمقاتلة أمامه، فلابد وأن[٥٧] يكون أهل ذلك الصف من قوم متعودين للثبات فى الزحف، وإلا أجفلوا[(٨٦٣)] على طريقة أهل الكر والفر، فانهزم السلطان والعساكر بإجفالهم[٨٦٣]؛ فاحتاج الملوك بالمغرب أن يتخذوا جندًا من هذه الأمة المتعودة الثبات فى الزحف وهم الإفرنج، ويرتبون مصافهم المحدق بهم منها. هذا على ما فيه من الاستعانة بأهل الكفر. وإنما استخفوا ذلك للضرورة التى أريناكها من تخوف الإجفال[٨٦٣] على مصاف السلطان. والإفرنج لا يعرفون غير الثبات فى ذلك، لأن عادتهم فى القتال الزحف، فكانوا أقوم بذلك من غيرهم. مع أن الملوك فى المغرب إنما يفعلون ذلك عند الحرب مع أمم العرب والبربر وقتالهم على الطاعة؛ وأما فى الجهاد فلا يستعينون بهم حذرًا من

---

(٨٦١) «مراده بالأبنية الخيام، كما يدل له قوله فى فصل الخندق الآتى قريبًا «إذا نزلوا وضربوا أبنيتهم» (ا هـ. تعليق الهورينى على هذه الكلمة). (انظر السطر الثانى عشر من ص ٦٨٢).

(٨٦٢) «خَرَم الخرزة يَخْرِمها وخَرَّمها فتخرمت فصمها» (القاموس). فالمعنى تفصم صفوفهم وتضطرب.

(٨٦٣) «أجفل القومُ وجَفَلوا جَفْلاً من باب قتل إذا أسرعوا الهرب» (المصباح).

ممالأتهم على المسلمين. هذا هو الواقع بالمغرب لهذا العهد؛ وقد أبدينا سببه. والله بكل شيء عليم.

(فصل)[٣٠٩] وبلغنا أن أمم الترك لهذا العهد قتالهم مناضلة بالسهام، وأن تعبئة الحرب عندهم بالمصاف، وأنهم يقسمون بثلاثة صفوف، يضربون صفًا وراء صف، ويترجلون عن خيولهم، ويفرغون سهامهم بين أيديهم، ثم يتناضلون جلوسًا، وكل صف ردء للذى أمامه أن يكبسهم(٨٦٤) العدو، إلى أن يتهيأ النصر لإحدى الطائفتين على الأخرى. وهى تعبئة محكمة غريبة.

(فصل)[٣٠٩] وكان من مذاهب الأُول فى حروبهم حفر الخنادق على معسكرهم عندما يتقاربون للزحف حذرًا من مَعَرَّةِ البَيَات[٨٤٨] والهجوم على العسكر بالليل لما فى ظلمته ووحشته من مضاعفة الخوف فيلوذ الجيش بالفرار وتجد النفوس فى الظلمة سترًا من عاره، فإذا تساووا فى ذلك أُرْجِفَ(٨٦٥) العسكر ووقعت الهزيمة. فكانوا لذلك يحتفرون الخنادق على معسكرهم إذا نزلوا وضربوا أبنيتهم[٨٦١]، ويديرون الحفائر نطاقًا عليهم من جميع جهاتهم، حرصًا أن يخالطهم العدو بالبيات[٨٤٨] فيتخاذلوا. وكانت للدول فى أمثال هذا قوة وعليه اقتدار باحتشاد الرجال وجمع الأيدى عليه فى كل منزل من منازلهم، بما كانوا عليه من وفور العمران وضخامة الملك. فلما خَرِبَ العمران وتبعه ضعف الدولة وقلة الجنود وعدم الفَعَلَة نُسِيَ هذا الشأن جُمْلَةً كأنه لم يكن. والله خير القادرين.

وانظر وصية على - رضى الله عنه - وتحريضه لأصحابه يوم صِفِّين[٢٢٧] تجد كثيرًا من علم الحرب ولم يكن أحد أبصر بها منه(٨٦٦).

---

(٨٦٤) «كَبَس دارَه اقتحمه وهجم عليه» (من القاموس).

(٨٦٥) أرجف القوم خاضوا فى أخبار الفتن ونحوها. ومنه قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ..﴾ (آية ٦٠ من سورة الأحزاب وهى سورة ٣٣)، وأرجفت الأرض زُلْزِلَت كأُرْجِفَتْ بالضم (من القاموس).

والمعنى الأخير هو المقصود فى عبارة ابن خلدون، أى يُزَلْزل العسكرُ ويضطرب.

(٨٦٦) يشير بذلك إلى قول على رضى الله عنه فى خطبة له فى أهل العراق: «والله لقد أفسدتم علىّ رأيى بالعصيان، وملأتم جوفى غيظًا، حتى قالت قريش: ابن أبى طالب رجل شجاع، ولكن لا رأى له فى الحرب. لله درهم! ومن ذا يكون أعلم بها منى أو أشد لها مِرَاسًا. فوالله لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، ولقد نَيَّفْتُ اليوم على الستين.

ولكن لا رأى لمن لا يطاع» (انظر الخطبة كاملة فى الجزء الأول من كتاب الكامل للمبرد صفحات ١٠ - ١٤ طبعة التقدم سنة ١٣٢٣هـ).

قال فى كلام له: «فسوّوا صفوفكم كالبنيان المرصوص. وقدموا الدّارعَ(٨٦٧) وأخروا الحاسرَ(٨٦٨). وعَضّوا على الأضراس؛ فإنه أنبى للسيوف عن الهامَ(٨٦٩). والتووا على أطراف الرماح، فإنه أصون للأسنة. وغضوا الأبصار؛ فإنه أربط للجأش وأسكن للقلوب. وأخْفتوا الأصوات، فإنه أطرد للفشل وأولى بالوقار. وأقيموا راياتكم فلا تميلوها ولا تجعلوها إلا بأيدى شجعانكم. واستعينوا بالصدق والصبر؛ فإنه بقدر الصبر ينزل النصر».

وقال الأشتر يومئذ يحرض الأزد: «عَضّوا على النواجذ من الأضراس. واستقبلوا القوم بهَامكم٨٦٩. وشدوا شدة قوم موتورين يثأرون بآبائهم وإخوانهم(٨٦٩ب) حنافًا على عدوهم، وقد وطّنوا على الموت أنفسهم لئلا يُسبقوا بوِتْر(٨٧٠) ولا يلحقهم فى الدنيا عار.

وقد أشار إلى كثير من ذلك أبو بكر الصيرفى شاعر لمتونة وأهل الأندلس فى كلمة يمدح بها تاشفين بن على بن يوسف، ويصف ثباته فى حرب شهدها، ويُذَكِّره بأمور الحرب فى وصايا وتحذيرات تنبهك على معرفة كثير من سياسة الحرب يقول فيها:

يا أيها الملأ الذى يتقنع	من منكم المَلِكُ الهمام الأروع
ومن الذى غَدَر العَدُوُّ به دُجىً	فانفضّ كلٌّ وهُو لا يَتَزعزَع
تمضى الفوارس والطِّعَان يصدها	عنه ويُذْمِرُها الوفاء فترجع
والليل من وضح الترائك(٨٧١) إنه	صبح على هام الجيوش يُلمّعُ
أنّى فزعتم يا بنى صِنْهاجَةٍ	واليكمُ فى الرّوْع كان المفزع
إنسان عين لم يصبه منكم	حَضْنٌ(٨٧٢) وقلب أسلمته الأضلع
وصددتم عن تاشفين وإنه	لعقابه لو شاء فيكم موضع

(٨٦٧) درع الحديد بالكسر مؤنثة وقد تذكر وهى الزَرَديَّة، ورجل دارع عليه درع.

(٨٦٨) «الحاسر: من لا درع له ولا جُنَّة له» وهو من حسر الشيء إذا انكشف (من القاموس).

(٨٦٩) «الهامة: من الشخص رأسه وجمعه هَامٌ» (المصباح).

(٨٦٩ب) «ثأرَ القتيلَ بالقتيل اى قَتَل قاتلَه، وبابه قطع». (الصحاح).

(٨٧٠) من معانى الوِتْر الذَّحْل أى الثأر كالتِّرَة والوتيرة، وقد وتره يَتِره وِتْراً وتِرَة فهو موتور (القاموس). وهذا المعنى هو المقصود فى كلمة الأشتر.

(٨٧١) من معانى التَّريكة (كسفينة) بيضة الحديد (تلبس فى الحرب) وجمعها ترائك (من القاموس).

(٨٧٢) «حضن الطائر البيض حَضْناً وحضاناً وحَضَانة رخم عليه للتفريخ». (القاموس). والمعنى لم ينله منكم حدب ولا رعاية وأنكم لم تحافظوا عليه.

مــا أنْتُمْ إلا أســود خَــفِــيَّــةٍ (٨٧٣) كلٌّ لكل كــريهــة مــســتطلعُ
يــاتاشــفــين أقم لجــيــشك عــذره بالليل والعــذر (٨٧٤) الذى لايدفعُ

(ومنها فى سياسة الحرب)

أهديك من أدب الســيــاســة مــابه كــانت ملوك الفــرس قــبلك تُولَعُ
لا إننــى أدْرَى بهــــا لكنهـــــا ذكــــرى تحض المؤمنين وتـنـفعُ
والبــس من الحَلَـق (٨٧٥) المضاعفـة التى
وصَّى بهـــا صِنْـع (٨٧٦) الصنانــع ١٣٦ تُبَّـعُ
والهِنْدُوَانِى (٨٧٧) الرقـــيق فـــإنه أمضى على حد الدِّلاص ٨٧٨ وأقطعُ
واركب مــن الخيل السوابقَ عُـدّةً (٨٧٨ب)
سيــان تَتْبَــع ظافــــرا (٨٧٨ج) أو تُتْبَــعُ
خَنْدِق (٨٧٩) عليك إذا ضربت (٨٨٠) مَحَلَّةً (٨٨١)
حِصْنــاً حصينــاً ليـــس فيـــه مَدْفَـع (٨٨٢)

---

(٨٧٣) «الخَفيَّة كغَنيَّة الغيضة الملتفة الأشجار» (القاموس). (٨٧٤) فى نسخة «والقدر».
(٨٧٥) «الحَلْقَة الدرْع.. وجمعه حلَق» (القاموس).
(٨٧٦) «يقال رجل صنْعُ اليدين بالكسر وصَنَعُ اليدين وصنَاعُهما أى حاذق فى الصنعة» (القاموس).
(٨٧٧) «السيف الهِنْدُواني بكسر الهاء وضمهامنسوب إلى رجال الهند» (القاموس).
(٨٧٨) «يقال درْعٌ دلاص ككتاب ملساء لينة. والمعنى أن السيف الهندوانى أقوى السيوف على قطع الدروع وأمضاها على حدها.
(٨٧٨ ب) «السوابق» مفعول اركب» و«عُدَّة» حال من السوابق. (٨٧٨ ج) حال من فاعل تتبع.
(٨٧٩) «الخندق حفير حول أسوار المدن معرب، وخندقه أى حفره» (القاموس). والفعل فى البيت فعل أمر، أى احفر حولك خندقًا، ومفعوله «حصنًا».
(٨٨٠) «ضرب فى الأرض خرج تاجرًا أو غازيًا أى محاربًا» (القاموس).
والمعنى الثانى هو المقصود هنا. ومنه قوله تعالي﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ﴾ (آية ١٠١ من سورة النساء، وهي سورة ٤). وقد ضمنه الشاعر معنى نزل فتعدى إلى «محلة».
(٨٨١) «المَحَلَّة بالفتح المكان ينزل فيه القوم» (المصباح).
(٨٨٢) في جميع النسخ: واركب من الخيل السوابق عدة حصنًا حصينًا ليس فيه مدفع
خنـدق عليك إذا ضربت محـلة سيـان تَتْبـع ظافـرًا أو تُتْبـع
وهو تحريف شنيع وضع عجز كل بيت منهما مكان عجز البيت الآخر، فأصبح العجزان عديمى الدلالة لا ارتباط لهما بصدرى البيتين. ومعنى البيت الأول علي الوضع الصحيح: إنك إذا ركبت السوابق من الخيل أمكنك أن تظفر بعدوك إن كنت تتبعه وأن تنجو إن كنت موليًا يتبعك العدو. ومعنى البيت الثاني: إذا نزلت محلة في أثناء القتال يجب أن تقيم خندقًا أمام جيشك فيكون لك بمثابة حصن حصين لا موضع فيه للدَّفْع (مدفع فى البيت اسم مكان من دَفَع، أى موضع الدَّفْع).

والوادَ لا تعبُره وانزل عنده ... بين العدو وبين جيشك يقطعُ
واجعل مناجزة الجيوش عَشِيّةً ... ووراءك الصَّدَف(٨٨٣) الذى هو أمنعُ
وإذا تضايَقَتِ الجيوش بمعرك ... ضَنْكٍ فأطرافُ الرماح تُوسِّعُ
واصدِمْهُ أولَ وَهْلةٍ لا تكترث ... شيئاً فإظهار النُّكول(٨٨٤) يُضَعْضِعُ
واجعل من الطُّلاَّع(٨٨٥) أهلَ شهامة ... للصدق فيهم شيمة لا تُخْدَعُ
لا تسمع الكذّاب جاءك مُرْجِفاً[٨٦٥] ... لا رأى للكذاب فيما يصنعُ

قوله: «واصدِمه أوّلَ وهلةٍ لا تكترث». البيت مخالف لما عليه الناس فى أمر الحرب، فقد قال عمر لأبى عبيد بن مسعود الثقفى لما ولاَّه حرب فارس والعراق فقال له: «اسمع وأطع من أصحاب النبى ﷺ وأشركهم فى الأمر، ولا تجيبن مسرعًا حتى تتبين، فإنها الحرب! ولا يصلح لها إلا الرجل المَكيث(٨٨٦) الذى يعرف الفرصة والكَفَّ». وقال له فى أخرى: «إنه لن يمنعنى أن أؤمر سليطاً(٨٨٧) إلا سُرْعتُهُ فى الحرب. وفى التسرع فى الحرب - إلا عن بيانٍ - ضَيَاعٌ. والله لولا ذلك لأمَّرْتُه. لكن الحرب لا يصلح لها إلا الرجل المَكيث[٨٨٦]». هذا كلام عمر؛ وهو شاهد بأن التثاقل فى الحرب أولى من الخُفوف(٨٨٨)، حتى يتبين حال تلك الحرب. وذلك عكس ما قاله الصيرفى؛ إلا أن يريد أن الصدم بعد البيان، فله وجه. والله تعالى أعلم.

(فصل)[٣٠٩] ولا وثوق فى الحرب بالظَّفَر وإن حصلت أسبابه من العدة والعديد؛ وإنما الظَّفَر فيها والغَلَب من قبيل البخت والاتفاق وبيان ذلك أن أسباب الغَلَب فى الأكثر مجتمعة من أمور ظاهرة وهى الجيوش ووفورها وكمال الأسلحة واستجادتها وكثرة الشجعان وترتيب المصاف، ومنه صدق القتال وما

(٨٨٣) فى جميع النسخ: «الصدق» بالقاف، وهو تحريف، وصوابه الصَّدَف. والصَّدَف: منقطع الجبل أو ناحيته وكل شىء مرتفع من حائط ونحوه. وبمعنى الجبل جاء قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ (آية ٩٦ من سورة الكهف، وهى سورة ١٨). ومعنى البيت: لتناجز الأعداء ووراءك ما يحمى ظهرك من جبل ونحوه. أو لعل الكلمة محرفة عن «الصف» أى لتناجزْ الأعداء ووراءك صف منيع من الجيش يحمى ظهرك.

(٨٨٤) نَكَل عن العدو وعن اليمين كضرب وعلم ونصر نكولا: نكص وجبن (من القاموس والمصباح).

(٨٨٥) الطليعة القوم يبحثون أمام الجيش يتعرفون طِلعْ العدو أى خبره والجمع طلائع (من المصباح والقاموس).

(٨٨٦) المكيث الرزين الذى لا يعجل. (٨٨٧) اسم علم.

(٨٨٨) «خَفَّ إلى العدو خُفوفا أسرع» (المصباح).

جرى مجرى ذلك، ومن أمور خفية وهى إما من خدع البشر وحيلهم فى الإرجاف[٨٦٥] والتشانيع التى يقع بها التخذيل، وفى التقدم إلى الأماكن المرتفعة، ليكون الحرب من أعلى فيتوهم المنخفض لذلك، وفى الكمون فى الغياض[٨٨٩] ومطمئن الأرض والتوارى بالكُدى[٨٩٠] عن العدو حتى يتداولهم العسكر دفعة وقد تورطوا فيتلفتون[٨٩١] إلى النجاة، وأمثال ذلك. وإما أن تكون تلك الأسباب الخفية أموراً سماوية لا قدرة للبشر على اكتسابها تلقى فى القلوب، فيستولى الرَّهَبُ عليهم لأجلها فتختل مراكزهم فتقع الهزيمة. وأكثر ما تقع الهزائم عن هذه الأسباب الخفية لكثرة ما يُعْتَمَلُ لكل واحد من الفريقين فيها حرصا على الغَلَب، فلابد من وقوع التأثير فى ذلك لأحدهما ضرورة. ولذلك قال ﷺ: «الحرب خُدْعة». ومن أمثال العرب: «رب حيلة أنفعُ من قبيلة». فقد تبين أن وقوع الغلب فى الحروب غالبًا عن أسباب خفية غير ظاهرة، ووقوع الأشياء عن الأسباب الخفية هو معنى البخت كما تقرر فى موضعه. فاعتبره، وتفهَّمْ من وقوع الغلب عن الأمور السماوية كما شرحناه معنى[٨٩٢] قوله ﷺ: «نُصرْتُ بالرعب مسيرة شهر»، وما وقع من غَلَبِهِ للمشركين فى حياته بالعدد القليل وغَلَب المسلمين من بعده كذلك فى الفتوحات. فإن الله سبحانه وتعالى تكفل لنبيه بإلقاء الرعب فى قلوب الكافرين حتى يستولى على قلوبهم فينهزموا، معجزة لرسوله ﷺ؛ فكان الرعب فى قلوبهم سببًا للهزائم فى الفتوحات الإسلامية كلها؛ إلا أنه خفى عن العيون.

وقد ذكر الطرطوشى: أن من أسباب الغلب فى الحروب أن تفضُل عدَّةُ الفرسان المشاهير من الشجعان فى أحد الجانبين على عِدَّتهم فى الجانب الآخر، مثل أن يكون أحد الجانبين فيه عشرة أو عشرون من الشجعان المشاهير وفى الجانب الآخر ثمانية أو ستة عشر، فالجانب الزائد ولو بواحد يكون له الغلب؛ وأعاد فى ذلك وأبدى؛ وهو راجع إلى الأسباب الظاهرة التى قدمنا؛ وليس بصحيح. وإنما الصحيح المعتبر فى الغلب حال العصبية أن يكون فى أحد الجانبين عصبية واحدة جامعة لكلهم، وفى الجانب الآخر عصائب

(٨٨٩) «الغَيْضة الأجمة وهى الشجر الملتف وجمعه غياض» (المصباح).
(٨٩٠) «الكُدْية الأرض الصلبة والجمع كُدىً مثل مُدْية ومُدًى» (المصباح).
(٨٩١) فى جميع النسخ «فيتلممون» وهى تحريف عن «فيتلفتون» بمعنى يتجهون بوجوههم يمنة ويسرة باحثين عن النجاة.
(٨٩٢) مفعول تَفَهَّم.

متعددة، لأن العصائب إذا كانت متعددة يقع بينها من التخاذل ما يقع في الوحْدان المتفرقين الفاقدين للعصبية، إذ تنزل كل عصابة منهم منزلة الواحدة، ويكون الجانب الذي عصابته متعددة لا يقاوم الجانب الذي عصبيته واحدة لأجل ذلك. فتفهمه واعلم أنه أصح في الاعتبار مما ذهب إليه الطرطوشي. ولم يحمله على ذلك إلا نسيان شأن العصبية في حلّته[٢٥] وبلده[(٨٩٣)]، وأنهم إنما يردون ذلك الدفاع والحماية والمطالبة إلى الوحْدان والجماعَة الناشئة عنهم[(٨٩٤)]، لا يعتبرون في ذلك عصبية ولا نسباً. وقد بينا ذلك أول الكتاب[(٨٩٤ب)]. مع أن هذا وأمثاله على تقدير صحته إنما هو من الأسباب الظاهرة مثل اتفاق الجيش في العدة وصدق القتال وكثرة الأسلحة وما أشبهها، فكيف يجعل ذلك كفيلا بالغلب؟ ونحن قد قررنا لك الآن أن شيئًا منها لا يعارض الأسباب الخفية من الحيل والخداع ولا الأمور السماوية من الرعب والخذلان الإلهي. فافهمه وتفهم أحوال الكون. والله مقدر الليل والنهار.

(فصل)[٣٠٩] ويلحق بمعنى الغلب في الحروب - وأن أسبابه خفية وغير طبيعية - حال الشهرة والصيت. فقل أن تصادف موضعها في أحد من طبقات الناس من الملوك والعلماء والصالحين والمنتحلين للفضائل على العموم، وكثير ممن اشتهر بالشر وهو بخلافه، وكثير ممن تجاوزت عنه الشهرة وهو أحق بها وأهلها.

وقد تصادف موضعها وتكون طبقًا على صاحبها. والسبب في ذلك أن الشهرة والصيت إنما هما بالأخبار، والأخبار يدخلها الذهول عن المقاصد عند التناقل، ويدخلها التعصب والتشيع، ويدخلها الأوهام، ويدخلها الجهل بمطابقة الحكايات للأحوال، لخفائها بالتلبس والتصنع أو لجهل الناقل، ويدخلها التقرب لأصحاب التجلة والمراتب الدنيوية بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك، والنفوس مولعة بحب الثناء، والناس متطاولون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة، وليسوا في الأكثر براغبين في الفضائل ولا متنافسين في أهلها[(٨٩٤ج)]؛ وأين مطابقة الحق مع هذه كلها؟ فتختل الشهرة عن أسباب خفية من هذه، وتكون غير مطابقة. وكل ما حصل بسبب خفي فهو الذي يعبر عنه بالبخت كما تقرر. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

---

(٨٩٣) في جميع النسخ: «في حلة وبلدة» وهو تحريف.

(٨٩٤) في جميع النسخ: «يرون ذلك الدفاع والحماية... إلخ» وكلمة «يرون في هذه الجملة محرفة عن «يردون».

(٨٩٤ب) يحيل بذلك على ما ذكره في الفصل التاسع من هذا الباب (انظر صفحات ٥٢٨-٥٣٠).

(٨٩٤ج) أشار ابن خلدون إلى هذا كله في هذه العبارات نفسها في تمهيده للكتاب الأول (انظر ص٣٣٠ من الجزء الأول الطبعة الثانية).

٣٨ ـ فصل فى الجباية وسبب قلتها وكثرتها[٣٨٩ب]

اعلم أن الجباية أوَّلَ الدولة تكون قليلة الوزائع[(٨٩٥)] كثيرة الجملة، وآخِرَ الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة. والسبب فى ذلك أن الدولة: إن كانت على سنن الدين فليست تقتضى إلا المغارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية، وهى قليلة الوزائع، لأن مقدار الزكاة من المال قليل كما علمت، وكذا زكاة الحبوب والماشية، وكذا الجزية والخراج وجميع المغارم الشرعية، وهى حدود لاتتعدى؛ وإن كانت على سنن التغلب والعصبية فلابد من البداوة فى أولها كما تقدم، والبداوة تقتضى المسامحة والمكارمة وخفض الجناح والتجافى عن أموال الناس، والغفلة عن تحصيل ذلك إلا فى النادر، فيقل لذلك مقدار الوظيفة الواحدة والوزيعة التى تجمع الأموال من مجموعها. وإذا قلت الوزائع والوظائف على الرعايا نشطوا للعمل ورغبوا فيه، فيكثر الاعتمار. ويتزايد محصول الاغتباط[(٨٩٦)] بقلة المَغْرَم، وإذا كثر الاعتمار كثرت أعداد تلك الوظائف والوزائع[٨٩٥]، فكثرت الجباية التى هى جملتها. فإذا استمرت الدولة واتصلت، وتعاقب ملوكها واحداً بعد واحد واتصفوا بالكَيس، وذهب شر[(٨٩٦ب)] البداوة والسذاجة وخلقها من الإغضاء والتجافى، وجاء الملك العَضُوض[(٨٩٧)] والحضارة الداعية إلى الكيس، وتخلق أهل الدولة حينئذ بخلق التحذلق[(٨٩٨)]، وتكثرت عوائدهم وحوائجهم بسبب ما انغمسوا فيه من النعيم والترف، فيكثِّرون الوظائف والوزائع[٨٩٥] حينئذ على الرعايا والأكَرة[(٨٩٩)] والفلاحين وسائر أهل المغارم، ويزيدون فى كل وظيفة ووزيعة[٨٩٥] مقداراً عظيما لتكثر لهم الجباية، ويضعون المكوس على المبايعات وفى الأبواب كما نذكر بعد، ثم تتدرج الزيادات

---

(٨٩٥) الوزائع جمع وزيعة وهو ما يتوزع على الأشخاص.

(٨٩٦) الغِبْطة حسن الحال والاغتباط التبجح بالحال الحسنة (من المصباح والقاموس).

(٨٩٦ب) هكذا فى جميع النسخ، ولعلها محرفة عن «أثر».

(٨٩٧) «العَضوض ما يُعَضُّ عليه» (القاموس). وقد وصف به الملك فى قوله عليه السلام: «الخلافة بعدى ثلاثون ثم تكون ملكا عضوضاً».

(٨٩٨) حذلق أظهر الحذق أو ادعى أكثر مما عنده كتحذلق» (القاموس).

(٨٩٩) «الأكّار الحرّاث والجمع أكَرة» (القاموس). والمعنى من يشتغلون بالزراعة.

فيها بمقدار بعد مقدار لتدرج عوائد الدولة فى الترفِ وكثرة الحاجات والإنفاق بسببه، حتى تثقل المغارم على الرعايا وتنهضم وتصير عادة مفروضة، لأن تلك الزيادة تدرجت قليلاً قليلا ولم يشعر أحد بمن زادها على التعيين، ولا من هو واضعها، إنما تثبت على الرعايا (كأنها عادة مفروضة ثم تزيد إلى الخروج عن حد الاعتدال فتذهب غبطة[٨٩٦] الرعايا)[(٩٠٠)] فى الاعتمار لذهاب الأمل من نفوسهم بقلة النفع، إذا قابل[(٩٠١)] بين نفعه ومغارمه وبين ثمرته وفائدته، فتنقبض كثير من الأيدى عن الاعتمار جملة، فتنقص جملة الجباية حينئذ بنقصان تلك الوزائع[٨٩٥] منها. وربما يزيدون فى مقدار الوظائف إذا رأوا ذلك النقص فى الجباية ويحسبونه جبراً لما نقص، حتى تنتهى كل وظيفة ووزيعة إلى غاية ليس وراءها نفع ولا فائدة، لكثرة الإنفاق حينئذ فى الاعتمار وكثرة المغارم وعدم وفاء الفائدة المرجوة به. فلا تزال الجملة فى نقص ومقدار الوزائع والوظائف فى زيادة لما يعتقدونه من جبر الجملة بها، إلى أن ينتقض العمران بذهاب الآمال من الاعتمار، ويعود وبال ذلك على الدولة، لأن فائدة الاعتمار عائدة إليها. وإذا فهمت ذلك علمت أن أقوى الأسباب فى الاعتمار تقليل مقدار الوظائف على المعتمرين ما أمكن؛ فبذلك تنبسط النفوس إليه لثقتها بإدراك المنفعة فيه. والله سبحانه وتعالى مالك الأمور كلها، و﴿ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[(٩٠١ب)].

---

(٩٠٠) العبارة المحصورة بين هذين القوسين مثبتة فى «التيمورية». ولكنها ساقطة من جميع النسخ الأخرى، وبسقوطها لا يكون للكلام مدلول.

(٩٠١) الفاعل ضمير يعود على معلوم من السياق أى إذا قابل الواحد منهم.

(٩٠١ب) آخر آية من سورة يس، وهى سورة ٣٦: ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

٣٩. فصل فى ضرب المكوس أواخر الدولة [٣٨٩ب]

اعلم أن الدولة تكون فى أولها بدوية كما قلنا، فتكون لذلك قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده، فيكون خَرْجُها وإنفاقها قليلاً، فيكون فى الجباية حينئذ وفاء بأزيد منها، بل يفضل منها كثير عن حاجاتهم. ثم لا تلبث أن تأخذ بدين الحضارة فى الترف وعوائدها، وتجرى على نهج الدول السابقة قبلها، فيكثر لذلك خراج أهل الدولة، ويكثر خراج السلطان خصوصًا كثرة بالغة بنفقته فى خاصته، وكثرة عطائه، ولا تفى بذلك الجباية، فتحتاج الدولة إلى الزيادة فى الجباية لما تحتاج إليه الحامية من العطاء والسلطان من النفقة؛ فيزيد فى مقدار الوظائف والوزائع[٨٩٥] أولا كما قلناه، ثم يزيد الخراج والحاجات والتدريج فى عوائد الترف وفى العطاء للحامية، ويدرك الدولةَ الهَرَمُ، وتضعف عصابتها عن جباية الأموال من الأعمال(٩٠٢) والقاصية، فتقل الجباية وتكثر العوائد، ويكثر بكثرتها أرزاق الجند وعطاؤهم. فيستحدث صاحب الدولة أنواعًا من الجباية يضربها على البِياعات، ويفرض لها قدرًا معلومًا على الأثمان فى الأسواق، وعلى أعيان السلع فى أموال المدينة، وهو مع هذا مضطر لذلك بما دعاه إليه ترف الناس من كثرة العطاء مع زيادة الجيوش والحامية، وربما يزيد ذلك فى أواخر الدولة زيادة بالغة، فتكسد الأسواق لفساد الآمال، ويؤذن ذلك باختلال العمران، ويعود على الدولة؛ ولا يزال ذلك يتزايد إلى أن تضمحل.

وقد كان وقع منه بأمصار المشرق فى أخريات الدولة العباسية والعُبيْدية[٦١٧] كثير، وفرضت المغارم حتى على الحاج فى الموسم، وأسقط صلاح الدين أيوب تلك الرسوم جملة وأعاضها بآثار الخير. وكذلك وقع بالأندلس لعهد الطوائف حتى محا رَسْمَه يوسف بن تاشفين أمير المرابطين. وكذلك وقع بأمصار الجريد[٢١٦] بإفْرِيقيَة[٤٩ب] لهذا العهد حين استبد بها رؤساؤها. والله تعالى أعلم.

(٩٠٢) من معانى العِمَالة (مثلثة) الجهة يولى عليها العامل يقال عمّله على البصرة، فهى عمالة له، وجمعها أعمال، يقال هذه البلدة من أعمال مديرية كذا، أى تابعة لها؛ وتجمع كذلك جمع مؤنث سالم على عمالات.

٤٠. فصل فى أن التجارة من السلطان مضرة بالرعايا مفسدة للجباية

اعلم أن الدولة إذا ضاقت جبايتها بما قدمناه من الترف وكثرة العوائد والنفقات وقَصَّرَ الحاصل من جبايتها على الوفاء بحاجاتها ونفقاتها، واحتاجت إلى مزيد المال والجباية، فتارة توضع المكوس على بياعات الرعايا وأسواقهم كما قدمنا ذلك فى الفصل قبله، وتارة بالزيادة فى ألقاب المكوس إن كان قد استحدث من قبل، وتارة بمقاسمة العمال والجباة وامتكاك[٩٠٣] عظامهم، لمَّا يرون أنهم قد حصلوا على شىء طائل من أموال الجباية لا يظهره الحُسْبان[٧٦٩]، وتارة باستحداث التجارة والفلاحة للسلطان على تسمية الجباية[٩٠٤]، لَمَّا يرون التجار والفلاحين يحصلون على الفوائد والغلات مع يسارة[٩٠٥] أموالهم، وأن الأرباح تكون على نسبة رءوس الأموال. فيأخذون فى اكتساب الحيوان والنبات لاستغلاله فى شراء البضائع والتعرض بها لحوالة الأسواق، ويحسبون ذلك من إدرار الجباية وتكثير الفوائد. غلط عظيم وإدخال الضرر على الرعايا من وجوه متعددة.

فأولا مضايقة الفلاحين والتجار فى شراء الحيوان والبضائع وتيسير أسباب ذلك[٩٠٦]؛ فإن الرعايا متكافئون فى اليسار متقاربون، ومزاحمة بعضهم بعضاً تنتهى إلى غاية موجودهم أو تقرب، وإذا رافقهم السلطان فى ذلك، ومالُه أعظم كثيراً منهم، فلا يكاد أحد منهم يحصل على غرضه فى شىء من حاجاته، ويدخل على النفوس من ذلك غم ونكد.

---

(٩٠٣) «مكّة وامتكه... امتصه جميعه» (القاموس).

(٩٠٤) أى باسم الجباية أو كما نقول نحن: على أنها ضرائب غير مباشرة تجبى من المستهلكين.

(٩٠٥) اليَسَارة واليَسَار والمَيْسَرة واليُسْر: السهولة والغنى. وقد استخدمها ابن خلدون بمعنى القلة أخذاً لها من اليسير بمعنى القليل والهين.

(٩٠٦) هكذا فى جميع النسخ. ولعل كلمة «تيسير»، تحريف لكلمة «تعسير» أو لعل الأصل «عدم تيسير أسباب ذلك» فسقطت كلمة «عدم» من الناسخ. ويصح بتكلف أن تعطف كلمة «تيسير» على كلمة «شراء» أى مضايقتهم فى تيسير ذلك.

ثم إن السلطان قد ينتزع الكثير من ذلك إذا تعرض له غضًا(٩٠٧) أو بأيسر ثمن، إذ(٩٠٨) لا يجد من ينافسه(٩٠٩) فى شرائه فيبخس ثمنه على بائعه.

ثم إذا حصل فوائد الفلاحة ومُغِلُّها(٩١٠) كله من زرع أو حرير أو عسل أو سكر أو غير ذلك من أنواع الغلات، وحصلت بضائع التجارة من سائر الأنواع، فلا ينتظرون به حوالة الأسواق ولانَفَاق٤٤ البياعات، لما يدعوهم إليه تكاليف الدولة، فيكلفون أهل تلك الأصناف من تاجر أو فلاح بشراء تلك البضائع، ولا يرضون فى أثمانها إلا القِيَمَ وأزيد فيستوعبون فى ذلك ناضَّ(٩١١) أموالهم وتبقى تلك البضائع بأيديهم عُرُوضًا جامدة ويمكثون عُطَّلاً من التجارة(٩١١ب) التى فيها كسبهم ومعاشهم(٩١٢). وربما تدعوهم الضرورة إلى شيء من المال فيبيعون تلك السلع على كساد من الأسواق بأبخس ثمن. وربما يتكرر ذلك على التاجر والفلاح منهم بما يُذْهِبُ رأس ماله، فيقعد عن سوقه، ويتعدد ذلك ويتكرر، ويدخل به على الرعايا من العَنَت والمضايقة وفساد الأرباح ما يقبض آمالهم عن السعى فى ذلك جُمْلَةً، ويؤدى إلى فساد الجباية، فإن معظم الجباية إنما هى من الفلاحين والتجار، لاسيما١٦٧ب بعد وضع المكوس ونمو الجباية بها؛ فإذا انقبض الفلاحون عن الفلاحة، وقعد التجار عن التجارة، ذهبت الجباية جملة أو دخلها النقص المتفاحش.

وإذا قايس السلطان بين ما يحصل له من الجباية وبين هذه الأرباح القليلة وجدها بالنسبة إلى الجباية أقل من القليل. ثم إنه ولو كان مفيداً فيذهب له

(٩٠٧) «غضَّ منه: نقص ووضع من قدره» (القاموس).

(٩٠٨) فى جميع النسخ «أو لا يجد» وهو تحريف كما لا يخفى.

(٩٠٩) فى جميع النسخ «يناقشه» وهو تحريف كما لا يخفى.

(٩١٠) «مُغِلُّها» اسم فاعل من أغلت الضياع: أى أعطت غلتها (من القاموس).

(٩١١) «النَّاضّ: الدرهم والدينار» (القاموس).

(٩١١ب) فى جميع النسخ «الإدارة» وهى تحريف عن «التجارة» كما لا يخفى.

(٩١٢) معنى العبارة أن حاشية السلطان بعد أن تحصل على هذه السلع لا تعرضها فى الأسواق لتأخذ دورها وتسرى عليها قوانين العرض والطلب، بل تستدعى التجار وتلزمهم بشرائها بأثمان باهظة، فتمتص بذلك أموالهم، وتبقى هذه البضائع جامدة بأيديهم، إذ لا يجدون من يشتريها منهم بأثمان مجزية، فتتعطل بذلك تجارتهم التى فيها كسبهم ومعاشهم.

بحظ عظيم من الجباية فيما يعانيه من شراء أو بيع؛ فإنه من البعيد أن يوجد فيه من المكس، ولو كان غيرهُ فى تلك الصفقات لكان تكسُّبها كلها حاصلا من جهة الجباية. ثم فيه التعرض لأهل عمرانه، واختلال الدولة بفسادهم ونقصه؛ فإن الرعايا إذا قعدوا عن تثمير أموالهم بالفلاحة والتجارة نقصت وتلاشت النفقات، وكان فيها إتلاف أحوالهم، فافهم ذلك[٩١٣].

وكان الفرس لا يُملِّكون عليهم إلا من أهل بيت المملكة، ثم يختارونه من أهل الفضل والدين والأدب والسخاء والشجاعة والكرم، ثم يشترطون عليه مع ذلك العدل، وأن لا يتخذ صنعة فيضر بجيرانه، ولا يتاجر فيحب غلاء الأسعار فى البضائع، وأن لا يستخدم العبيد فإنهم لا يشيرون بخير ولا مصلحة.

واعلم أن السلطان لا يُنْمِي ماله ولاُ يُدِرُّ موجودَهُ إلا الجبايةُ؛ وإدرارها إنما يكون بالعدل فى أهل الأموال، والنظر لهم بذلك؛ فبذلك تنبسط آمالهم، وتنشرح صدورهم للأخذ فى تثمير الأموال وتنميتها؛ فتعظم منها جباية السلطان. وأما غير ذلك من تجارة أو فلح فإنما هو مضرة عاجلة للرعايا وفساد للجباية ونقص للعمارة. وقد ينتهى الحال بهؤلاء المنسلخين للتجارة والفلاحة من الأمراء والمتغلبين فى البلدان أنهم يتعرضون لشراء الغلات والسلع من أربابها الواردين على بلدهم، ويفرضون لذلك من الثمن ما يشاءون، ويبيعونها فى وقتها لمن تحت أيديهم من الرعايا بما يفرضون من الثمن. وهذه أشد من الأولى وأقرب إلى فساد الرعية واختلال أحوالهم. وربما يحمل السلطانَ على ذلك من يداخله من هذه الأصناف، أعنى التجار والفلاحين لما هى صناعته التى نشأ عليها، فيحمل السلطانَ على ذلك ويضرب معه بسهم لنفسه ليحصل على غرضه من جمع المال سريعًا، سيما ١٦٧ب مع ما يحصل له من التجارة بلا مَغْرم ولا مَكْس، فإنها أجدر بنمو الأموال، وأسرع فى تثميره، ولا يفهم ما يدخل على السلطان من الضر بنقص جبايته. فينبغى للسلطان أن يحذر من هؤلاء، ويُعرِضَ عن سعَايتهم المضرة بجبايته وسلطانه. والله يلهمنا رشد أنفسنا، وينفعنا بصالح الأعمال والله تعالى أعلم.

---

(٩١٣) يتفق ما يراه ابن خلدون فى صدد الأضرار المترتبة على دخول الحكومة مشترية فى السوق وعلى اشتغالها بالتجارة أو احتكارها لبعض الأصناف، واعتبار ذلك ضرائب غير مباشرة على المستهلكين... يتفق ذلك مع ما يراه كثير من المحدثين من علماء الاقتصاد السياسى. وقد علله ابن خلدون بالعلل نفسها التى نراها فى أحدث مؤلفات الاقتصاد السياسى. انظر كتابنا فى «الاقتصاد السياسى»، فصل «المنافسة الحرة» (صفحات ١٩٤ـ ٢٠٠ من الطبعة الخامسة).

٤١ - فصل فى أن ثروة السلطان وحاشيته إنما تكون فى وسط الدولة [٣٨٩ب]

والسبب فى ذلك أن الجباية فى أول الدولة تتوزع على أهل القبيل والعصبية بمقدار غَنَائهم[١٤٣] وعصبيتهم، ولأن الحاجة إليهم فى تمهيد الدولة كما قلناه من قبل. فرئيسهم فى ذلك متجاف لهم عما يَسْمُون إليه من الجباية، معتاض عن ذلك بما هو يروم من الاستبداد عليهم، فله عليهم عزة وله إليهم حاجة. فلا يُطَيِّر(٩١٤) فى سُهْمانه[٧٩١] من الجباية إلا الأقل من حاجته. فتجد حاشيته لذلك وأذياله من الوزراء والكتاب والموالى مُمْلِقين(٩١٥) فى الغالب، وجاههم متقلص لأنه من جاه مخدومهم، ونطاقه قد ضاق بمن يزاحمه فيه من أهل عصبيته.

فإذا استفحلت طبيعة الملك، وحصل لصاحب الدولة الاستبداد على قومه، قبض أيديهم عن الجبايات إلا ما يُطَيَّر[٩١٤] لهم بين الناس فى سُهْمانهم[٧٩١]، وتقل حظوظهم إذ ذاك لقلة غَنائهم[١٤٣] فى الدولة، بما انكبح من أعنَّتِهم، وصار الموالى والصنائع مساهمين لهم فى القيام بالدولة وتمهيد الأمر؛ فينفرد صاحب الدولة حينئذ بالجباية أو معظمها، ويحتوى على الأموال ويحتجنها[٧٢] للنفقات فى مهمات الأحوال، فتكثر ثروته وتمتلئ خزائنه ويتسع نطاق جاهه، ويعتز على سائر قومه، فيعظم حال حاشيته وذويه، من وزير وكاتب وحاجب ومولى وشُرْطِىّ ويتسع جاههم، ويقتنون الأموال ويتأثَّلونها[٤٧٥ب].

ثم إذا أخذت الدولة فى الهَرَم بتلاشى العصبية وفناء القبيل الماهدين[٢٤] للدولة احتاج صاحب الأمر حينئذ إلى الأعوان والأنصار ولكثرة الخوارج والمنازعين والثوار، وتوهم الانتقاض، فصار خراجه لظهرائه وأعوانه، وهم أرباب السيوف وأهل العصبيات، وأنفق خزائنه وحاصله فى مهمات الدولة،

(٩١٤) «أطار المال وطيّره: قسمه» (القاموس)، فالمضارع يُطير أو يُطَيِّر؛ والمبنى للمجهول من المضارع يُطَار أو يُطَيَّر. فمعنى: «لا يُطَيِّر فى سهمانه إلا الأقل» لا يُقْسَم له ولا ينال إلا الأقل.

(٩١٥) أملق افتقر، والإملاق الفقر، والملق الفقير. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ (آية٣١ من سورة الإسراء، وهى سورة١٧) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾ (آية١٥١ من سورة الأنعام، وهى سورة ٦) .

وقلّت مع ذلك الجباية لما قدمناه من كثرة العطاء والإنفاق، فيقل الخراج وتشتد حالة الدولة إلى المال، فيتقلص ظل النعمة والترف عن الخواص والحُجّاب والكُتّاب بتقلص الجاه عنهم، وضيق نطاقه على صاحب الدولة.

ثم يشتد حاجة صاحب الدولة إلى المال وتنفق أبناء البطانة والحاشية ما تأثّله[٤٧٥ب] آباؤهم من الأموال فى غير سبيلها من إعانة صاحب الدولة، ويقبلون على غير ما كان عليهم آباؤهم وسلفهم من المناصحة، ويرى صاحب الدولة أنه أحق بتلك الأموال التى اكتسبت فى دولة سلفه وبجاههم، فيصطلمها[٦٥٨] وينتزعها منهم لنفسه شيئًا فشيئًا وواحداً بعد واحد، على نسبة رتبهم وتنكر الدولة لهم، ويعود وبال ذلك على الدولة بفناء حاشيتها ورجالاتها وأهل الثروة والنعمة من بطانتها، ويتقوض بذلك كثير من مبانى المجد بعد أن يدعمه أهله ويرفعوه.

وانظر ما وقع من ذلك لوزراء الدولة العباسية فى بنى قحطبة وبنى برمك وبنى سهل وبنى طاهر وأمثالهم فى الدولة الأموية بالأندلس عند انحلالها أيام الطوائف فى بنى شهيد وبنى عبدة وبنى حديرة وبنى برد وأمثالهم، وكذا فى الدولة التى أدركناها لعهدنا: سنة الله التى قد خلت فى عباده.

(فصل)[٣٠٩] ولما يتوقعه أهل الدولة من أمثال هذه المعاطب صار الكثير منهم ينزِعون إلى الفِرار عن الرتب والتخلص من ربقة السلطان بما حصل فى أيديهم من مال الدولة إلى قطر آخر، ويرون أنه أهنأ لهم وأسلم فى إنفاقه وحصول ثمرته. وهو من الأغلاط الفاحشة والأوهام المفسدة لأحوالهم ودنياهم.

واعلم أن الخلاص من ذلك بعد الحصول فيه عسير ممتنع. فإن صاحب هذا الغرض إذا كان هو الملك نفسه، فلا تمكنه الرعية من ذلك طرفة عين، ولا أهل العصبية المزاحمون له، بل فى ظهور ذلك منه هدم لملكه وإتلاف لنفسه بمجارى العادة بذلك؛ لأن ربقة الملك يعسر الخلاص منها، سيما[١٦٧ب] عند استفحال الدولة وضيق نطاقها وما يعرض فيها من البعد عن المجد والخلال والتخلق بالشر. وأما إذا كان صاحب هذا الغرض من بطانة السلطان وحاشيته وأهل الرتب فى دولته، فقلَّ أن يُخَلَّى بينه وبين ذلك. أما أوَّلا: فلما يراه الملوك أن ذويهم وحاشيتهم بل[٢٤٤] وسائر رعاياهم مماليك لهم مطلعون على ذات صدورهم، فلا يسمحون بحلِّ ربقته من الخدمة ضنّاً بأسرارهم وأحوالهم أن يطلع عليها أحد، وغَيْرَةً من خدمته لسواهم. ولقد كان بنو أمية بالأندلس يمنعون أهل دولتهم من السفر لفريضة الحج

لما يتوهمونه من وقوعهم بأيدى بنى العباس؛ فلم يحج سائر أيامهم أحد من أهل دولتهم، وما أبيح الحج لأهل الدول من الأندلس إلا بعد فراغ شأن الأموية ورجوعها إلى الطوائف. وأما ثانيًا فلأنهم وإن سمحوا بحلِّ رِبقته هو فلا يسمحون بالتجافى عن ذلك المال، لما يرون أنه جزء من مالهم كما يرون أنه جزء من دولتهم، إذ لم يُكتسب إلا بها وفى ظل جاهها؛ فتحوم نفوسهم على انتزاع ذلك المال والتقامه كما هو جزء من الدولة ينتفعون به.

ثم إذا توهمنا أنه خَلَصَ [٥٠٩] بذلك المال إلى قطر آخر؛ وهو فى النادر الأقل، فتمتد إليه أعين الملوك بذلك القطر وينتزعونه بالإرهاب والتخويف تعريضًا أو بالقهر ظاهراً، لما يرون أنه مال الجباية والدول، وأنه مستحق للإنفاق فى المصالح. وإذا كانت أعينهم تمتد إلى أهل الثروة واليسار المكتسبين من وجوه المعاش، فأحرى بها أن تمتد إلى أموال الجباية والدول التى تجد السبيل إليه بالشرع والعادة. ولقد حاول السلطان أبو يحيى زكريا بن أحمد اللحيانى تاسع أو عاشر ملوك الحفصيين بإفريقية الخروج عن عهدة الملك واللحاق بمصر فراراً من طلب صاحب الثغور الغربية لَمَّا استجمع لغزو تونس، فاستعمل اللحيانى الرحلة إلى ثغر طرابلس يُوَرِّى [٥٥٢] بتمهيده، وركب السفين من هناك، وخَلَصَ [٥٠٩] إلى الإسكندرية بعد أن حمل جميع ما وجده ببيت المال من الصامت(٩١٦) والذخيرة، وباع كل ما كان بخزائنهم من المتاع والعقار والجواهر، حتى الكتب، واحتمل ذلك كله إلى مصر ونزل على الملك الناصر محمد بن قلاوون، سنة سبع عشرة من المائة الثامنة، فأكرم نزله ورفع مجلسه، ولم يزل يستخلص ذخيرته شيئًا فشيئًا بالتعريض إلى أن حصل عليها، ولم يبق معاش ابن اللحيانى إلا فى جرايته التى فرضت له؛ إلى أن هلك سنة ثمان وعشرين حسبما نذكره فى أخباره. فهذا وأمثاله من جملة الوسواس الذى يعترى أهل الدول لما يتوقعونه من ملوكهم من المعاطب، وإنما يخلُصون إن اتفق لهم الخلاص بأنفسهم، وما يتوهمونه من الحاجة فغلط ووهم، والذى حصل لهم من الشهرة بخدمة الدول كاف فى وجدان المعاش لهم بالجرايات السلطانية أو بالجاه فى انتحال طرق الكسب من التجارة والفلاحة. والدول أنساب؛ لكن.

النفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا تُردُّ إلى قليلٍ تقنعُ

والله سبحانه هو الرزاق، وهو الموفق بمنه وفضله، والله أعلم.

---

(٩١٦) «الصامت من المال الذهب والفضة» (المصباح).

٤٢ - فصل فى أن نقص العطاء من السلطان نقص فى الجباية

والسبب فى ذلك أن الدولة والسلطان هى السوق الأعظم للعالم، ومنه مادة العمران. فإذا احتجن[٧٢] السلطان الأموال أو الجبايات، أو فُقدت فلم يصرفها فى مصارفها، قل حينئذ ما فى أيدى الحاشية والحامية، وانقطع أيضًا ما كان يصل منهم لحاشيتهم وذويهم، وقلت نفقاتهم جملة، وهم معظم السواد، ونفقاتهم أكثر مادة للأسواق ممن سواهم. فيقع الكساد حينئذ فى الأسواق، وتضعف الأرباح فى المتاجر فيقل الخراج لذلك. لأن الخراج والجباية إنما تكون من الاعتمار والمعاملات ونفاق الأسواق وطلب الناس للفوائد والأرباح. ووبال ذلك عائد على الدولة بالنقص لقلة أموال السلطان حينئذ بقلة الخراج. فإن الدولة كما قلناه هى السوق الأعظم، أم الأسواق كلها، وأصلها ومادتها فى الدخل والخرج؛ فإن كسدت وقلت مصاريفها فأجدر بما بعدها من الأسواق أن يلحقها مثل ذلك وأشد منه. وأيضًا فالمال إنما هو متردد بين الرعية والسلطان، منهم إليه، ومنه إليهم، فإذا حبسه السلطان عنده فقدته الرعية. سنة الله فى عباده.

٤٣. فصل فى أن الظلم مؤذن بخراب العمران

اعلم أن العدوان على الناس فى أموالهم ذاهب بآمالهم فى تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابُها من أيديهم. وإذا ذهبت آمالهم فى اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعى فى ذلك. وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعى فى الاكتساب. فإذا كان الاعتداء كثيراً عامًا فى جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب

كذلك لذهابه الآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها. وإن كان الاعتداء يسيراً كان الانقباض عن الكسب على نسبته. والعمران ووفوره ونَفَاق[٤٤] أسواقه إنما هو بالأعمال وسعى الناس فى المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين. فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران، وانتقضت الأحوال وابْذَعَرّ[٤٢٩] الناس فى الآفاق من غير تلك الإيالة فى طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها. فخف ساكن القطر، وخلت دياره، وخربت أمصاره، واختل باختلاله حال الدولة والسلطان؛ لما أنها صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورةً.

وانظر فى ذلك ما حكاه المسعودى فى أخبار الفرس عن الموبذان[١٦٠ب] صاحب الدين عندهم أيام بهرام بن بهرام، وما عَرَّض به للملك فى إنكار ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته على الدولة، بضرب المثال فى ذلك على لسان البوم حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامها، فقال له: إن بوماً ذكراً يروم نكاح بوم أنثى، وأنها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب فى أيام بهرام فقبل شرطها؛ وقال لها: إن دامت أيام الملك أقطعتك ألف قرية، وهذا أسهل مرام. فتنبه الملك من غفلته وخلا بالموبذان وسأله عن مراده، فقال له: أيها الملك إن الملك لا يتم عزه إلا بالشريعة، والقيام لله بطاعته، والتصرف تحت أمره ونهيه؛ ولا قوام للشريعة إلا بالمَلِك؛ ولا عز للملك إلا بالرجال، ولا قوام للرجال إلا بالمال؛ ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة؛ ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل. والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة، نصبه الرب وجعل له قَيِّماً، وهو الملك. وأنت أيها الملك عمدت إلى الضِّياع فانتزعتها من أربابها وعُمَّارها؛ وهم أرباب الخراج ومن تؤخذ منهم الأموال، وأقطعتها الحاشية والخدم وأهل البطالة، فتركوا العمارة، والنظر فى العواقب وما يصلح الضياع، وسومحوا فى الخراج لقربهم من الملك. ووقع الحيف على من بقى من أرباب الخراج وعُمَّار الضياع؛ فانجلوا عن ضياعه، وخلّوا ديارهم، وآووا إلى ما تعذر من الضياع فسكنوها، فقلت العمارة وخربت الضياع وقلت الأموال وهلكت الجنود والرعية وطمع فى ملك فارس من جاورهم من الملوك لعلمهم بانقطاع المواد التى لا تستقيم دعائم الملك إلا بها. فلما سمع الملك ذلك أقبل على النظر فى ملكه، وانتزِعت الضِّياع

من أيدى الخاصة وردُّت على أربابها، وحُملوا على رسومهم السالفة وأخذوا في العمارة، وقوى من ضعف منهم، فعمرت الأرض، وأخصبت البلاد وكثرت الأموال عند جباة الخراج، وقويت الجنود، وقطعت مواد الأعداء، وشحنت الثغور[٤٦٦]، وأقبل الملك على مباشرة أموره بنفسه، فحسنت أيامه، وانتظم ملكه. فتفهم من هذه الحكاية أن الظلم مخرب للعمران، وأن عائدة الخراب فى العمران على الدولة بالفساد والانتفاض.

ولا تنظر في ذلك إلى أن الاعتداء قد يوجد بالأمصار العظيمة من الدول التي بها، ولم يقع فيها خراب واعلم أن ذلك إنما جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء وأحوال أهل المصر. فلما كان المصر كبيراً وعمرانه كثيراً وأحواله متسعة بما لا ينحصر، كان وقوع النقص فيه بالاعتداء والظلم يسيرا؛ لأن النقص إنما يقع بالتدريج. فإذا خفي بكثرة الأحوال واتساع الأعمال في مصر لم يظهر أثره إلا بعد حين. وقد تذهب تلك الدولة المعتدية من أصلها قبل خراب المصر، وتجيء الدولة الأخرى، فترقعه بجدَّتها، وتجبر النقص الذى كان خفيّا فيه، فلا يكاد يشعر به، إلا أن ذلك فى الأَقَل النادر.

والمراد من هذا أن حصول النقص في العمران عن الظلم والعدوان أمر واقع لابد منه لما قدمناه، ووباله عائد على الدول.

ولا تحسبنّ الظلم إنما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور، بل الظلم أعم من ذلك. وكل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقّا لم يفرضه الشرع فقد ظلمه. فجباة الأموال بغير حقها ظَلَمَةٌ، والمعتدون عليها ظلمة، والمنتهبون لها ظلمة، والمانعون لحقوق الناس ظلمة، وغُصَّاب الأملاك على العموم ظلمة؛ ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذى هو مادتها لإذهابه الآمال من أهله.

واعلم أن هذه هى الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم، وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه، وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشرى، وهى الحكمة العامة المراعاة للشرع فى جميع مقاصده الضرورية الخمسة، من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، فلما كان الظلم كما رأيت مؤذنًا بانقطاع النوع لما أدى إليه من تخريب العمران، كانت حكمة الحظر فيه موجودة، فكان

تحريمه مهمّا. وأدلته من القرآن والسنة كثير، أكثر من أن يأخذها قانون الضبط والحصر.

ولو كان كل واحد قادرًا عليه لوُضِع بإزائه من العقوبات الزاجرة ماوُضِع بإزاء غيره من المفسدات للنوع، التي يقدر كل أحد على اقترافها من الزنا والقتل والسُكْر، إلا أن الظلم لاَ يقْدِر عليه إلا من لا يُقْدَر عليه(٩١٧)، لأنه إنما يقع من أهل القدرة والسلطان. فبولغ في ذمه وتكرير الوعيد فيه، عسى أن يكون الوازع فيه للقادر عليه في نفسه. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(٩١٧ب).

ولا تقولن إن العقوبة قد وضعت بإزاء الحِرَابة(٩١٨) في الشرع، وهي من ظلم القادر؛ لأن المحارب زمن حرابته قادر. فإن في الجواب عن ذلك طريقين. أحدهما أن تقول: العقوبة على ما يقترفه من الجنايات في نفس أو مال على ماذهب إليه الكثير، وذلك إنما يكون بعد القدرة عليه والمطالبة بجنايته، وأما نفس الحرابة فهي خلو من العقوبة. الطريق الثانى أن تقول: المحارب لا يوصف بالقدرة؛ لأنا إنما نعني بقدرة الظالم اليد المبسوطة التي لا تعارضها قدرة؛ فهى المؤذنة بالخراب، وأما قدرة

---

(٩١٧) فى جميع النسخ «لا يقدر عليه إلا من يقدر عليه» وهو تحريف بسقوط حرف النفي.

(٩١٧ب) آخر آية ٤٦ من سورة فُصِّلَت، وهى سورة ٤١: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

(٩١٨) الحِرابة هى قطع الطريق. وعقوبتها القتل أو الصلب أو كلاهما معًا إن قبض على قطاع الطريق بعد أن سلبوا المال وقتلوا النفس؛ أو القتل فقط إن كانوا قد قتلوا النفس ولم يكونوا قد سلبوا مالا بعد؛ أو قطع الأيدى والأرجل من خلاف بأن تقطع من كل واحد منهم يده اليمنى ورجله اليسرى إذا كانوا قد سلبوا المال فقط؛ أو الحبس إذا كان القبض عليهم قد حدث من قبل أن يقتلوا نفسًا ولا يأخذوا مالا. هذا إلى ما توعدهم الله به من عذاب عظيم فى الآخرة. وفى هذا يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (آية ٣٣ من سورة المائدة وهى السورة الخامسة). وتفسير هذه الآية على الوجه الذى ذكرناه (من جعلها منصبة على قطاع الطريق، ومن توزيع العقوبات المذكورة فيها على حالات الجريمة، وتفسير النفى الوارد فيها بالحبس) هو مذهب أبى حنيفة. (انظر فى ذلك: الميدانى على القدورى ٣٠٧، ٣٠٨). وتفسر المذاهب الأخرى هذه الآية على وجوه أخرى مبينة فى كتب الفقه (انظر فى هذا الموضوع كتابنا «حقوق الإنسان فى الإسلام» صفحتى ١٥٠، ١٥١ طبعة «نهضة مصر») - هذا، واستخدام كلمة «الحِرَابة» فى قطع الطريق يكثر فى كتب المالكية (انظر ص ٣٤٨ وتوابعها من الجزء الرابع من حاشية الدسوقى على الشرح الكبير للدردير على متن خليل: «باب فى الحِرابة وما يتعلق بها من الأحكام... المحارب قاطع الطريق لمنع سلوك.. أو أخذ مال...»

المحارب فإنما هى إخافة يجعلها ذريعة لأخذ الأموال؛ والمدافعة عنها بيد الكل موجودة شرعًا وسياسة؛ فليست من القدر المؤذن بالخراب. والله قادر على ما يشاء.

(فصل)[٣٠٩] ومن أشد الظلمات وأعظمها فى إفساد العمران تكليف الأعمال وتخسير الرعايا بغير حق. وذلك أن الأعمال من قبيل المتمولات كما سنبين فى باب الرزق(٩١٨ب)؛ لأن الرزق والكسب إنما هو قيم أعمال أهل العمران. فإذًا مساعيهم وأعمالهم كلها متمولات ومكاسب لهم، بل لا مكاسب لهم سواها؛ فإن الرعية المعتملين فى العمارة إنما معاشهم ومكاسبهم من اعتمالهم ذلك. فإذا كُلِّفوا العمل فى غير شأنهم واتُّخذوا سُخْرِيًا فى معاشهم بطل كسبهم واغتُصبوا قيمةَ عملهم ذلك، وهو متموَّلهم، فدخل عليهم الضرر، وذهب لهم حظ كبير من معاشهم، بل هو معاشهم بالجملة. وإن تكرر ذلك أفسد امالهم فى العمارة، وقعدوا من السعى فيها جملةً، فأدى ذلك إلى انتقاض العمران وتخريبه، والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

(فصل)[٣٠٩] وأعظم من ذلك فى الظلم وإفساد العمران والدولة التسلُّط على أموال الناس، بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان، ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والإكراه في الشراء والبيع، وربما تُفرض عليهم تلك الأثمان على التراخى(٩١٩) والتأجيل(٩٢٠)، فيتعللون فى تلك الخسارة التي تلحقهم بما تحدثهم المطامع من جبر ذلك بحوالة الأسواق فى تلك البضائع(٩٢١) التى فرضت بالغلاء(٩٢٢) إلى بيعها بأبخس الأثمان، وتعود خسارة ما بين الصفقتين على رءوس أموالهم. وقد يعم ذلك أصنافَ التجار المقيمين

(٩١٨ب) يقصد الباب الخامس من المقدمة: «فى المعاش ووجوهه من الكسب... إلخ». (انظر السطر الأخير من ص١٨٢ والأول من ص١٨٣ من تمهيدنا للمقدمة). وقد عرض للموضوع الذى يتحدث عنه فى الفصل الأول من ذلك الباب: «فصل فى حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وأن الكسب هو قيمة الأعمال».

(٩١٩) فى جميع النسخ «النواحى» وهى محرفة عن «التراخى».

(٩٢٠) فى «ل» وطبعة «دار الكتاب اللبنانى»: «والتعجيل»؛ وهو تحريف غيّر المعنى إلى نقيضه.

(٩٢١) أى يأملون أن تتحول الأسواق فى صددها فترتفع أثمانها، فيستطيعوا أن يستردوا رءوس أموالهم ويحققوا لهم ربحًا.

(٩٢٢) هكذا فى جميع النسخ. ولابد أن تكون هنا عبارة ساقطة بين كلمة «الأسواق» وكلمة «فى». أو بين كلمة «البضائع» وكلمة «التى». ويكون وضع الكلام على الاحتمال الأول كما يلى: «فيتعللون فى تلك الخسارة التى تلحقهم بما تحدثهم به المطامع من جبر ذلك بحوالة الأسواق. (وربما تدعوهم =

بالمدينة والواردين من الآفاق في البضائع، وسائرَ السوقة وأهلَ الدكاكين في المآكل والفواكه، وأهلَ الصنائع فيما يتخذ من الآلات والمواعين، فتشمل الخسارةُ سائرَ الأصناف والطبقات، وتتوالى على الساعات، وتجحف برءوس الأموال، ولا يجدون عنها وليجة[481] إلا القعود عن الأسواق لذهاب رءوس الأموال في جبرها بالأرباح(٩٢٣)، ويتثاقل الواردون من الآفاق لشراء البضائع وبيعها من أجل ذلك، فتكسد الأسواق ويبطلُ معاش الرعايا؛ لأن عامته من البيع والشراء. وإذا كانت الأسواق عطّلا منها بطل معاشهم، وتنقص جباية السلطان أو تفسد؛ لأن معظمها من أواسط الدولة، وما بعدها إنما هو من المكوس على البياعات كما قدمناه(٩٢٤). ويئول ذلك إلى تلاشي الدولة وفساد عمران المدينة. ويطرق هذا الخلل على التدريج ولا يُشعر به.

هذا ما كان بأمثال هذه الذرائع والأسباب إلى أخذ الأموال. وأما أخذها مجّانًا والعدوان على الناس في أموالهم وحُرَمِهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم.

= الضرورة إلى شيء من المال فيضطرون على كساد من الأسواق) في تلك البضائع التي فرضت عليهم بالغلاء إلى بيعها بأبخس الأثمان». ويكون وضع الكلام على الاحتمال الثاني كما يلي: «فيتعللون في تلك الخسارة التي تلحقهم بما تحدثهم به المطامع من جبر ذلك بحوالة الأسواق في تلك البضائع). و(ربما تدعوهم الضرورة إلي شيء من المال فيضطرون على كساد من الأسواق في تلك البضائع) التي فرضت عليهم بالغلاء إلي بيعها بأبخس الأثمان». وقد اقتبسنا ألفاظ العبارة الساقطة مما ذكره ابن خلدون في الفصل الأربعين من هذا الباب إذ يتحدث عن الموضوع نفسه الذي نحن بصدده فيقول «... وربما تدعوهم الضرورة إلى شيء من المال فيبيعون تلك السلع على كساد من الأسواق بأبخس ثمن» (انظر السطرين الحادى عشر والثانى عشر من صفحة ٦٩٢). وقد سهَّل سقوط هذه العبارة وجود كلمتي «البضائع» و«الأسواق» فى آخر الجملة السابقة وفى وسط هذه الجملة. هذا، وفى «التيمورية» دونت العبارة السابقة في الصيغة الآتية: «فيتعللون فى تلك الخسارة التي تلحقهم بما تحدثهم به المطامع من جبر ذلك بحوالة الأسواق فى تلك البضائع التى فرضت عليهم بالغلاء (ثم يطالبون بتلك الأثمان معجلة فيضطرون) إلى بيعها بأبخس الأثمان».

ويظهر لى أن العبارة التى وضعناها بين قوسين قد زادها الناسخ من عنده حينما رأى عدم استقامة المعنى بحسب المثبت فى النسخة الخطية التى ينقل عنها. وهذه العبارة لا يستقيم معها المعنى كل الاستقامة، لأن المفروض أنه قد فرضت عليهم «تلك الأثمان على التراخى وبالتأجيل» فكيف يطالبون بعد ذلك بأثمانها معجلة.

(٩٢٣) هكذا فى جميع النسخ، ولابد أن يكون هنا سقط وتحريف، والوضع الصحيح للعبارة هو ما يلى: «لذهاب رءوس الأموال والعجز عن جبرها بالأرباح» أى إن جزءًا من رءوس أموالهم قد ذهب فى ثمن تلك البضائع التى فرضت عليهم بأكثر من ثمنها الطبيعى، ولم تمكنهم حالة السوق من تحقيق ربح يجبر ما خسروه.

(٩٢٤) انظر الفصول ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١ من هذا الباب، وخاصة فصل ٤١.

فهو يُفضى إلي الخلل والفساد دفعة، وتنتقض الدولة سريعًا بما ينشأ عنه من الهَرْج [٤٥٩ب] المفضى إلى الانتقاض.

ومن أجل هذه المفاسد حظر الشرع ذلك كله وشرع المكايسة[٩٢٥] في البيع والشراء، وحظر أكل أموال الناس بالباطل، سدًا لأبواب المفاسد المفضية إلى انتقاض العمران بالهَرْجِ [٤٥٩ب] أو بطلان المعاش.

واعلم أن الداعي لذلك كله إنما هو حاجة الدولة والسلطان إلى الإكثار من المال بما يعرض لهم من الترف في الأحوال، فتكثر نفقاتهم ويعظم الخرج ولا يفى به الدخل على القوانين المعتادة، فيستحدثون ألقابًا ووجوهًا يوسعون بها الجباية ليفى لهم الدخل بالخرج، ثم لايزال الترف يزيد، والخرج بسببه يكثر، والحاجة إلى أموال الناس تشتد، ونطاق الدولة بذلك يزيد، إلى أن تنمحى دائرتها ويذهب رسمها ويغلبها طالبها. والله أعلم.

---

(٩٢٥) المكايسة فى البيع فى عرف الفقهاء هى المغالبة التى تتمثل فى المساومة ومحاولة كل من البائع والمشترى أن يصل إلى الثمن الذى يحقق فائدته. قال القاموس فى أخر مادة «الكَيْس»: «وكايسه: غالبه فى الكَيْس». وقال فى أول المادة: «والكيس الغلبة بالكياسة وقد كاسه يكيسه، وفى الحديث: إنما كسْتُك لآخذ جملك، أى غلبتك بالكياسة». هذا والتعبير بكلمة «المكايسة فى البيع» يكثر فى كتب المالكية. قال ابن عرفة فى تعريف البيع: «هو عقد معاوضة.. ذو مكايسة...» وقال الدردير فى شرح هذه الكلمة: «والمكايسة المغالبة» (انظر ص٢ من الجزء الثالث من حاشية الدسوقى على الشرح الكبير للدردير على متن خليل). هذا، وما يقرره الإسلام فى هذا الصدد هو ما يذهب إليه المحدثون من علماء الاقتصاد إذ يرون أن «المنافسة الحرة» التى تحقق الثمن الطبيعى للسلعة لا يتم وجودها إلا بالمساومة ومحاولة كل من البائع والمشترى أن يصل إلى الثمن الذى يحقق فائدته (انظر كتابنا «فى الاقتصاد السياسى» فصل «المنافسة الحرة» وخاصة صفحتى ١٩٦ و١٩٧ من الطبعة الخامسة).

٤٤ـ فصل في الحجاب كيف يقع في الدول وأنه يعظم عند الهرم [٣٨٩ب]

اعلم أن الدولة فى أول أمرها تكون بعيدة عن منازع الملك كما قدمناه؛ لأنه لابد لها من العصبية التي بها يتم أمرها ويحصل استيلاؤها، والبداوة هى شعار العصبية. والدولة إن كان قيامها بالدين فإنه بعيد عن منازع الملك؛ وإن كان قيامها بعز الغَلَب فقط فالبداوة التى بها يحصل الغَلَب بعيدة أيضًا عن منازع الملك ومذاهبه، فإذا كانت الدولة فى أول أمرها بدوية كان صاحبها على حال الغضاضة[٤٩٩ب] والبداوة والقرب من الناس وسهولة الإذن.

فإذا رسخ عزه وصار إلى الانفراد بالمجد، واحتاج إلى الانفراد بنفسه عن الناس للحديث مع أوليائه فى خواص شئونه، لما يكثر حينئذ مَن بحاشيته[٩٢٦]، فيطلب الانفراد عن العامة ما استطاع، ويتخذ الإذن ببابه على من لا يأمنه من أوْليائه وأهل دولته، ويتخذ حاجبًا عن الناس يقيمه ببابه لهذه الوظيفة.

ثم إذا استفحل الملك وجاءت مذاهبه ومنازعه استحالت خُـلُق صاحب الدولة إلى خُلُق المُلْك، وهى خُلُق غريبة مخصوصة، يحتاج مباشرها إلى مداراتها ومعاملتها بما يجب لها، وربما جهل تلك الخلق منهم[٩٢٧] بعض من يباشرهم فوقع فيما لا يرضيهم، فسَخِطوه[٥٩٤] وصاروا إلى حالة الانتقام منه فانفرد بمعرفة هذه الآداب الخواص مِن أوليائهم[٩٢٧] وحجبوا غير أولئك الخاصة عن لقائهم فى كل وقت، حفاظًا على أنفسهم[٩٢٧] من معاينة ما يُسْخِطُهم، وعلى الناس من التعرض لعقابهم.

فصار لهم حجاب آخر أخص من الحجاب الأول، يفضى[٩٢٨] إليهم[٩٢٧] منه

(٩٢٦) «ما» مصدرية أى لكثرة من بحاشيته.

(٩٢٧) أى من الملوك؛ فالضمير يعود على معلوم من السياق.

(٩٢٨) «أفضى إلى الشيء وصل إليه» (المصباح)، أى يصل إليهم من هذا الحجاب خواصهم من الأولياء.

خواصهم من الأولياء ويحجب دونه من سواهم من العامة، والحجاب الثاني يفضى إلى مجالس الأولياء، ويحجب دونه من سواهم من العامة(٩٢٩).

والحجاب الأول يكون فى أول الدولة كما ذكرنا، كما حدث لأيام معاوية وعبدالملك وخلفاء بنى أمية، وكان القائم على ذلك الحجاب يسمى عندهم الحاجب جريًا على مذهب الاشتقاق الصحيح.

ثم لما جاءت دولة بنى العباس وجدت الدولة من الترف والعز ما هو معروف، وكملت خُلُق الملك على ما يجب فيها، فدعا ذلك إلى الحجاب الثانى، وصار اسم الحاجب أخص به، وصار بباب الخلفاء داران للعباسية: دار الخاصة؛ ودار العامة؛ كما هو مسطور في أخبارهم(٩٣٠).

ثم حدث فى الدول حجاب ثالث أخص من الأولين، وهو عند محاولة الحجر على صاحب الدولة. وذلك أن أهل الدولة وخواص الملك إذا نصبوا الأبناء من الأعقاب، وحاولوا الاستبداد عليهم، فأول ما يبدأ به ذلك المستبد أن يحجب عنه بطانة أبيه(٩٣١) وخواص أوليائه، يوهمه أن فى مباشرتهم إياه خرق حجاب الهيبة، وفساد قانون الأدب، ليقطع بذلك لقاء الغير، ويعوده ملابسة أخلاقه هو، حتى لا يتبدل به سواه، إلى أن يستحكم الاستيلاء عليه، فيكون هذا الحجاب من دواعيه. وهذا الحجاب لا يقع فى الغالب إلا أواخر الدولة كما قدمناه في الحجر(٩٣١ب)، ويكون دليلا على هرم الدولة ونفاذ قوتها. وهو مما يخشاه أهل الدول على أنفسهم، لأن القائمين بالدولة يحاولون ذلك بطباعهم عند هرم الدولة وذهاب الاستبداد من أعقاب ملوكهم، لما رُكِّب فى النفوس من محبة الاستبداد بالملك وخصوصاً مع الترشيح لذلك وحصول دواعيه ومباديه.

(٩٢٩) هكذا وردت العبارة فى جميع النسخ. ولابد أن يكون قد حدث فيها حذف وتكرار، والوضع الصحيح للعبارة هو ما يلى: «فصار لهم حجاب آخر أخص من الحجاب الأول يفضى إليهم منه خواصهم من الأولياء، ويحجب دونه من سواهم من الخاصة والعامة؛ بينما كان الحجاب الأول يفضى إليهم منه الخاصة ويحجب دونه من سواهم من العامة. والحجاب الأول يكون فى أول الدولة كما ذكرنا...». وقد سهل هذا السقط وهذه الزيادة وجود كلمة «من سواهم» فى الجملتين.

هذا، وقد سبق الكلام على الحجاب متضمنًا هذه الحقائق كلها فى الفصل الرابع والثلاثين من هذا الباب فى فقرتى «الوزارة» (انظر ص٦٤٢ وتوابعها)، و«الحجابة» (انظر ص ٦٦٤ وتوابعها).

(٩٣٠) ذكر فيما سبق أن الحجاب الأول فقط هو الذى كان متبعا فى دولة بنى أمية وبنى العباس. (انظر فقرة «الحجابة»: «هذا اللقب كان مخصوصًا فى الدولة الأموية والعباسية بمن يحجب السلطان عن العامة ويغلق بابه دونهم أو يفتح لهم على قدره فى مواقيته... وهكذا كانت سائر أيام بنى العباس... أما فى الدولة الأموية بالأندلس فكانت الحجابة لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة...» - انظر ص٦٤٦).

والمقرر فى كتب التاريخ أن الحجاب الثانى والحجاب الثالث الذى سيذكره قد اتبعا فى أواخر الدولة العباسية.

(٩٣١) فى جميع النسخ «بطانة ابنه» وهو تحريف كما لا يخفى.

(٩٣١ب) يقصد الفصل الواحد والعشرين من هذا الباب: «فصل فيما يعرض فى الدول من حجر السطان والاستبداد عليه» (انظر صفحتى ٥٧٠، ٥٧١).

٤٥ ـ فصل فى انقسام الدولة الواحدة بدولتين [٢٨٩ب]

اعلم أن أول ما يقع من آثار الهرم في الدولة انقسامُها، وذلك أن الملك عندما يستفحل ويبلغ من أحوال الترف والنعيم إلى غايتها، ويستبد صاحب الدولة بالمجد وينفرد به، يأنف حينئذ عن المشاركة، ويصير إلى قطع أسبابها ما استطاع، بإهلاك من استراب به من ذوي قرابته المرشحين لمنصبه. فربما ارتاب المساهمون له في ذلك بأنفسهم، ونزعوا إلى القاصية، (واجتمع)[٩٣٢] إليهم من يلحق بهم (فى)[٩٣٣] مثل حالهم من الاغترار والاسترابة. ويكون نطاق الدولة قد أخذ فى التضايق ورجع عن القاصية. فيستبد ذلك النازع من القرابة فيها. ولايزال أمره يعظم بتراجع نطاق الدولة، حتى يقاسم الدولة أو يكاد.

وانظر ذلك فى الدولة الإسلامية العربية حين كان أمرها حريزاً[٩٣٤] مجتمعًا، ونطاقها ممتدّا فى الاتساع، وعصبية بني عبد مناف واحدة غالبة على سائر مضر، فلم يَنْبِض عرق من الخلاف سائر أيامها؛ إلا ما كان من بدعة الخوارج المستميتين فى شأن بدعتهم، لم يكن ذلك لنزعة ملك ولا رياسة، ولم يتم أمرهم لمزاحمتهم العصبية القوية.

ثم لما خرج الأمر من بني أمية، واستقل بنو العباس بالأمر، وكانت الدولة العربية قد بلغت الغاية من الغَلَب والترف، وآذنت بالتقلص عن القاصية، نزع عبدالرحمن الداخل إلى الأندلس، قاصية دولة الإسلام، فاستحدث بها ملكًا، واقتطعها عن دولتهم، وصير الدولة دولتين. ثم نزع إدريس إلى المغرب، وخرج به وقام بأمره. وأمَّر ابنَه من بعده البرابرة من أوربة ومغيلة وزناتة، واستولى على ناحية المغربين، ثم ازدادت الدولة تقلصًا فاضطرب الأغالبة فى الامتناع

---

(٩٣٢) الكلمة التى وضعناها بين قوسين مثبتة فى «التيمورية» وهى ساقطة من جميع النسخ الأخرى. وبدون هذه الكلمة لا يستقيم المعنى.

(٩٣٣) الكلمة التى وضعناها بين قوسين مثبتة فى «التيمورية»، وساقطة من النسخ الأخرى. ويمكن أن تقرأ الجملة بدونها على أن تكون كلمة «مثل» فى هذه العبارة فاعل «يلحق»؛ أى ينضم إليهم الذين يلحق بهم مثلُ ما لحقهم من الاسترابة... إلخ.

(٩٣٤) «الحرْز الموضع الحصين. وهذا حرز حريز» أى: حين كان أمرها متماسكا قويًا (القاموس).

عليهم، ثم خرج الشيعة[٦١٧] وقام بأمرهم كتامة وصنهاجة، واستولوا على إفريقية[٤٩ب] والمغرب، ثم مصر والشام والحجاز، وغلبوا على الأدارسة، وقسموا الدولة دولتين أخريين، وصارت الدولة العربية ثلاث دول: دول بني العباس بمركز العرب، وأصلهم ومادتهم الإسلام؛ ودولة بني أمية المجددين بالأندلس ملكَهم القديمَ وخلافَتَهم بالمشرق؛ ودولة العُبَيْديين[٦١٧] بإفريقية ومصر والشام والحجاز. ولم تزل هذه الدولة(٩٣٥) إلى أن كان انقراضها متقاربًا أو جميعًا.

وكذلك انقسمت دولة بنى العباس بدول أخرى: وكان بالقاصية بنو سامان فيما وراء النهر وخراسان؛ والعلوية في الديلم وطبرستان؛ وآل ذلك إلى استيلاء الديلم على العراقين وعلى بغداد والخلفاء. ثم جاء السلجوقية فملكوا جميع ذلك. ثم انقسمت دولتهم أيضًا بعد الاستفحال كما معروف فى أخبارهم.

وكذلك اعتبره في دولة صنهاجة[٥٠] بالمغرب وإفرِيقِية[٤٩ب]، لما بلغت إلى غايتها أيام باديس بن المنصور، خرج عليه عمه حماد واقتطع ممالك الغرب لنفسه، ما بين جبل أوراس[١٢١٥] إلى تلمْسان[٨٤٩] وملوية، واختط القلعة بجبل كتامة[٥٠] حيال المسيلة، ونزلها واستولى علَى مركزهم أشير بجبل تيطرى، واستحدث ملكا آخر قسيمًا لملك آل باديس، وبقى آل باديس بالقيروان وما إليها، ولم يزل ذلك إلى أن انقرض أمرهما جميعًا.

وكذلك دولة الموحدين(٩٣٦) لما تقلص ظلها ثار بإفْرِيقية[٤٩ب] بنو أبي حفص(٩٣٧) فاستقلوا بها، واستحدثوا ملكا لأعقابهم بنواحيها. ثم لما استفحل أمرهم واستولى على الغاية، خرج على الممالك الغربية من أعقابهم الأمير أبو زكريا يحيى ابن السلطان أبي إسحق إبراهيم رابع خلفائهم، واستحدث ملكا، ببجاية[٢١٥ج] وقُسَنْطينة[٢١٥] وما إليها، أورثه بنيه، وقسموا به الدولة قسمين، ثم استولى على كرسى الحضرة بتونس، ثم انقسم الملك ما بين أعقابهم، ثم عاد الاستيلاء فيهم.

وقد ينتهى الانقسام إلى أكثر من دولتين وثلاثة، وفي غير أعياص[٤٤٨] الملك

---

(٩٣٥) فى جميع النسخ« ولم تزل هذه الدولة»؛ وهو تحريف؛ لأن الكلام منصب على الدول الثلاث لا على دولة الفاطميين وحدها.

(٩٣٦) انظر طرفًا من تاريخ هذه الدولة فى صفحتى ٣٩، ٤٠ من تمهيدنا للمقدمة وفى تعليق ٧٢١.

(٩٣٧) انظر طرفًا من تاريخ هذه الدولة وصلة ابن خلدون بها فى صفحات ٥٢، ٥٣، ٦٨ وتوابعها.

من قومه، كما وقع فى ملوك الطوائف بالأندلس. وملوك العجم بالمشرق، وفى ملك صنْهَاجَة[٥٠] بأفريقِية: فقد كان لآخر دولتهم فى كل حصن من حصون إفريقيةَ ثائر مستقل بأمره كما تقدم ذكره. وكذا حال الجريد[٢١٦] والزاب[٢١٥] من إفريقِية قبيل هذا العهد كما نذكره.

وهكذا شأن كل دولة لابد وأن[٥٧] يعرض فيها عوارض الهَرَم بالنزف والدعة، وتقلص ظل الغَلَب، فيقتسم أعياصُها[٤٤٨] أو من يغلب من رجال دولتها الأمرَ، وتتعدد فيها الدول. والله وارث الأرض ومَن عليها.

٤٦ـ فصل فى أن الهَرَمَ إذا نزل بالدولة لا يرتفع[٣٨٩ب]

قد قدَّمنا ذكر العوارض المؤذنة بالهَرَم وأسبابه واحداً بعد واحد، وبيَّنا أنها تحدث للدولة بالطبع، وأنها كلها أمور طبيعية لها. وإذا كان الهَرَم طبيعيًا فى الدولة كان حدوثه بمثابة حدوث الأمور الطبيعية، كما يحدث الهَرَم فى المِزاج الحيوانى: والهَرَم من الأمراض المزمنة التى لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها؛ لما أنه طبيعى، والأمور الطبيعية لا تتبدل. وقد يتنبه كثير من أهل الدول ممن له يقظة فى السياسة، فيرى ما نزل بدولتهم من عوارض الهَرَم، ويظن أنه ممكن الارتفاع، فيأخذ نفسه بتلافى الدولة، وإصلاح مزاجِها عن ذلك الهرم، ويحسبه أنه لحقها بتقصير مَنْ قبله من أهل الدولة وغفلتهم؛ وليس كذلك، فإنها أمور طبيعية للدولة، والعوائد هى المانعة له من تلافيها. والعوائد منزلة طبيعية أخرى؛ فإن من أدرك مثلا أباه وأكثر أهل بيته يلبسون الحرير والديباج، ويتحلون بالذهب فى السلاح والمراكب، ويحتجبون عن الناس فى المجالس والصلوات، فلا يمكنه مخالفة سلفه فى ذلك إلى الخشونة فى اللباس والزى والاختلاط بالناس؛ إذ العوائد حينئذ تمنعه وتقبح عليه مرتكبه. ولو فعله لرمى بالجنون والوسواس فى الخروج عن العوائد دفعة، وخشى عليه عائدة ذلك وعاقبته فى سلطانه. وانظر شأن الأنبياء فى إنكار العوائد ومخالفتها، لولا التأييد الإلهى والنصر السماوى. وربما تكون العصبية قد ذهبت فتكون الأُبَّهَةُ تعوض عن موقعها من النفوس. فإذا أزيلت تلك الأُبَّهَة مع ضعف العصبية تجاسرت

الرعايا على الدولة بذهاب أوهام الأبَّهَة. فتتذرع الدولة بتلك الأبهة ما أمكنها حتى ينقضى الأمر.

وربما يحدث عند آخر الدولة قوة توهم أن الهرم قد ارتفع عنها ويومض ذُبالُها إيماضة الخمود، كما يقع فى الذبال المشتعل فإنه عند مقاربة انطفائه يومض إيماضة توهم أنها اشتعال، وهى انطفاء. فاعتبر ذلك، ولا تغفل سر الله تعالى وحكمته فى اطراد وجوده على ما قدر فيه. و﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾[٩٣٧ب].

٤٧ـ فصل فى كيفية طروق الخلل للدولة [٢٨٩ب]

اعلم أن مبنى الملك على أساسين لابد منهما. فالأول: الشوكة والعصبية وهو المعبر عنه بالجند؛ والثانى: المال الذى هو قوام أولئك الجند وإقامة ما يحتاج إليه الملك من الأحوال. والخلل إذا طرق الدولة طرقها فى هذين الأساسين. فلنذكر أولاً طروق الخلل فى الشوكة والعصبية؛ ثم نرجع إلى طروقه فى المال والجباية.

***

١ ـ واعلم أن تمهيد الدولة وتأسيسها كما قلناه إنما يكون بالعصبية، وإنه لابد من عصبية كبرى جامعة للعصائب مستتبعة لها، وهى عصبية صاحب الدولة الخاصة من عشيرة وقبيلة. فإذا جاءت الدولةَ طبيعةُ الملك من الترف وجدع أنوف أهل العصبية، كان أول ما يجدع أنوف عشيرته وذوى قرباه المقاسمين له فى اسم الملك. فيستبد فى جدع أنوفهم بما بلغ من سواهم. ويأخذهم الترف أيضًا أكثر من سواهم لمكانهم من الملك والعز والغلب، فيحيط بهم هادمان وهما الترف والقهر. ثم يصير القهر آخرًا إلى القتل لما يحصل من مرض قلوبهم عند رسوخ الملك لصاحب الأمر، فيقلب غيرتَه منهم إلى الخوف على ملكه، فيأخذهم بالقتل والإهانة وسلب النعمة والترف الذى تعودوا الكثير منه، فيهلكون ويقلون وتفسد عصبية صاحب الدولة منهم، وهى العصبية الكبرى التى كانت تجمع بها العصائب وتستتبعها، فتنحل عُرُوتُها، وتضعف شكيمتها،

(٩٣٧ب) آخر آية ٣٨ من سورة الرعد، وهى سورة ١٣.

ويستبدل عنها بالبطانة(٩٣٨) من موالى النعمة وصنائع الإحسان، ويتخذ منهم عصبية. إلا أنها ليست مثل تلك الشدة الشكيمية، لفقدان الرحم(٩٣٨ب)، لما جعل الله فى ذلك.

فينفرد صاحب الدولة عن العشير والأنصار الطبيعية، ويحس بذلك أهل العصائب الأخرى، فيتجاسرون عليه وعلى بطانته تجاسراً طبيعياً، فيهلكهم صاحب الدولة، ويتبعهم بالقتل واحداً بعد واحد. ويقلد الآخر من أهل الدولة فى ذلك الأَوَّلَ؛ مع ما يكون قد نزل بهم من مَهْلَكَة الترف الذى قدمنا. فيستولى عليهم الهلاك بالترف والقتل، حتى يخرجوا عن صبغة تلك العصبية، وينسوا نُعْرتها[٢٥٥] وسورتها(٩٣٩) ويصيروا أجراء(٩٤٠) على الحماية، ويقلون لذلك، فتقل الحامية التى تنزل بالأطراف والثغور[٤٦٦]. فيتجاسر الرعايا على نقض(٩٤١) الدعوة فى الأطراف، ويبادر الخوارج على الدولة من الأعياص[٤٤٨] وغيرهم إلى تلك الأطراف، لما يرجون حينئذ من حصول غرضهم بمبايعة أهل القاصية لهم، وأمنهم من وصول الحامية إليهم. ولايزال ذلك يتدرج ونطاق الدولة يتضايق حتى تصير الخوارج فى أقرب الأماكن إلى مركز الدولة. وربما انقسمت الدولة عند ذلك بدولتين أو ثلاثة على قدر قوتها فى الأصل كما قلناه(٩٤١ب)، ويقوم بأمرها غير أهل عصبيتها، ولكن إذعاناً لأهل عصبيتها ولغلبهم المعهود.

واعتبر هذا فى دول العرب فى الإسلام انتهت أولاً إلى الأندلس والهند والصين. وكان أمر بنى أمية نافذاً فى جميع العرب بعصبية بنى عبد مناف، حتى لقد أمر سليمان بن عبدالملك من دمشق بقتل عبدالعزيز بن موسى بن نصير بقرطبة فقتل ولم يرد أمره. ثم تلاشت عصبية بنى أمية بما أصابهم من الترف فانقرضوا. وجاء بنو العباس فغضو أعِنَّة بنى هاشم، وقتلوا الطالبيين

---

(٩٣٨) فى جميع النسخ «البطالة» باللام، وهو تحريف كما لا يخفى.

(٩٣٨ب) تقدم ذلك فى الفصل الثامن من الباب الثانى وعنوانه: «فصل فى أن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب وما فى معناه» (انظر صفحتى ٤٨٤، ٤٨٥).

(٩٣٩) وردت هذه الجملة محرفة فى جميع النسخ: ففى بعضها «ويفشو بعزتها وثورتها» وفى بعضها «وينشو بعزتها وشورتها».

(٩٤٠) فى بعض النسخ «ويصيروا أو جز»، وهو تحريف.

(٩٤١) فى جميع النسخ: «على بعض الدعوة» وهو تحريف كما لا يخفى.

(٩٤١ب) انظر الفصل الخامس والأربعين من هذا الباب: «فصل فى انقسام الدولة الواحدة بدولتين» (صفحات ٧١٢-٧١٤).

وشردوهم، فانحلت عصبية عبد مناف وتلاشت، وتجاسر العرب عليهم، فاستبد عليهم أهل القاصية مثل بنى الأغلب بإفريقية وأهل الأندلس وغيرهم، وانقسمت الدولة، ثم خرج بنو إدريس بالمغرب، وقام البربر بأمرهم إذعانًا للعصبية التى لهم، وأمنًا أن تضلهم مقاتلة أو حامية للدولة.

فإذا خرج الدعاة آخرًا فيتغلبون على الأطراف والقاصية، وتحصل لهم هناك دعوة وملك تنقسم به الدولة وربما يزيد ذلك متى زادت الدولة نقصًا، إلى أن ينتهى إلى المركز، وتضعف البطانة بعد ذلك بما[٤٤٥] أخذ منها الترف، فتهلك وتضمحل وتضعف الدولة المنقسمة كلها.

وربما طال أمدها بعد ذلك فتستغنى عن العصبية بما حصل لها من الصبغة فى نفوس أهل إيالتها، وهى صبغة الانقياد والتسليم منذ السنين الطويلة التى لا يعقل أحد من الأجيال مبدأها ولا أوليتها فلا يعقلون إلا التسليم لصاحب الدولة، فيستغنى بذلك عن قوة العصائب، ويكفى صاحبَها، بما حصل لها فى تمهيد أمرها، الأجراءُ على الحامية من جندى ومرتزق، ويعضد ذلك ما وقع فى النفوس عامة من التسليم؛ فلا يكاد أحد أن يتصور عصيانًا أو خروجًا إلا والجمهور منكرون عليه مخالفون له؛ فلا يقدر على التصدى لذلك ولو جهد جهده.

وربما كانت الدولة فى هذا الحال أسلم من الخوارج والمنازعة لاستحكام صبغة التسليم والانقياد لهم. فلا تكاد النفوس تحدث سرها بمخالفة، ولا يختلج فى ضميرها انحراف عن الطاعة. فيكون أسلم من الهَرج[٤٥٩ب] والانتقاض الذى يحدث من العصائب والعشائر. ثم لا يزال أمر الدولة كذلك وهى تتلاشى فى ذاتها، شأن الجرارة الغريزية فى البدن العادم للغذاء، إلى أن تنتهى إلى وقتها المقدور. و ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[٩٣٧ب]؛ ولكل دولة أمد. ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[٢٤٠] وهو الواحد القهار.

* * *

٢ ـ وأما الخلل الذى يتطرق من جهة المال، فاعلم أن الدولة فى أولها تكون بدوية كما مرَّ، فيكون[١٦٨] خُلُقُ الرفق بالرعايا والقصد[٢٩٣] فى النفقات، والتعفف عن الأموال، فتتجافى عن الإمعانِ فى الجباية، والتحذلق[٨٩٨] والكَيْس فى جمع الأموال وحُسْبان[٧٦٩] العمال، ولا داعية حينئذ إلى الإسراف فى النفقة، فلا تحتاج الدولة إلى كثرة المال. ثم يحصل الاستيلاء ويعظم، ويستفحل الملك، فيدعو إلى

الترف، ويكثر الإنفاق بسببه، فتعظم نفقات السلطان وأهل الدولة على العموم، بل يتعدى ذلك إلى أهل المصر، ويدعو ذلك إلى الزيادة فى أعْطِيات[٤٨٠] الجند وأرزاق أهل الدولة. ثم يعظم الترف فيكثر الإسراف فى النفقات، وينتشر ذلك فى الرعية، لأن الناس على دين ملوكها وعوائدها. ويحتاج السلطان إلى ضرب المكوس على أثمان البياعات فى الأسواق لإدرار الجباية لما يراه من ترف المدينة الشاهد عليهم بالرَّفْه[٧٠٥]، ولما يحتاج هو إليه من نفقات سلطانه وأرزاق جنده. ثم تزيد عوائد الترف فلا تفى بها المكوس، وتكون الدولة قد استفحلت فى الاستطالة والقهر لمن تحت يدها من الرعايا، فتمتد أيديهم إلى جمع المال من أموال الرعايا من مكس أو تجارة أو نقد فى بعض الأحوال، بشبهة أو بغير شبهة، ويكون الجند فى ذلك الطور قد تجاسر على الدولة بما لحقها من الفشل والهرم فى العصبية فتتوقع ذلك منهم، وتداوى بسكينة العطايا وكثرة الإنفاق فيهم، ولا تجد عن ذلك وليجة[٤٨١]. ويكون جباة الأموال فى الدولة قد عظمت ثروتهم فى هذا بكثرة الجباية وكونها بأيديهم وبما اتسع لذلك من جاههم. فيُتَوَجَّه إليهم باحتجان[٧٣] الأموال من الجباية، وتفشو السعاية فيهم بعضهم من بعض للمنافسة والحقد، فتعمهم النكبات والمصادرات واحداً واحداً إلى أن تذهب ثروتهم وتتلاشى أحوالهم، ويُفْقَدَ ما كان للدولة من الأبَّهة والجمال بهم. وإذا اصطُلِمت[٦٥٨] نعمتُهم تجاوزتهم الدولة إلى أهل الثروة من الرعايا سواهم. ويكون الوَهَن فى هذا الطور قد لحق الشوكة وضعفت عن الاستطالة والقهر، فتنصرف سياسة صاحب الدولة حينئذ إلى مداراة الأمور ببذل المال، ويراه أرفع من السيف لقلة غَنائه[١٤٣]؛ فتعظم حاجته إلى الأموال، زيادة على النفقات وأرزاق الجند، ولا يغنى فيما يريد[(٩٤٢)]. ويعظم الهرم بالدولة ويتجاسر عليها أهل النواحى، والدولةُ تنحل عراها فى كل طور من هذه، إلى أن تُفْضِيَ إلى الهلاك، وتتعرض لاستيلاء الطُلاَّب[(٩٤٣)].

فإن قصدها طالب انتزعها من أيدى القائمين بها، وإلا بقيت وهى تتلاشى إلى أن تضمحل كالذُّبال فى السراج إذا فنى زيته وطفئ. والله مالك الأمور، ومدبر الأكوان، لا إله إلا هو.

---

(٩٤٢) فاعل يُغْنى ضمير يعود على أمر معلوم من السياق، أى ولا يغني ما يبذله فى تحقيق ما يريده.

(٩٤٣) وردت هذه العبارة محرفة فى جميع النسخ. ففى بعضها: «وتتعوض من الاستيلاء الكلل»؛ وفى بعضها: «وتتعوض من الاستيلاء الكلى».

(٤٨ - فصل فى اتساع نطاق الدولة أولاً إلى نهايته ثم تضايقه طورا بعد طور إلى فناء الدولة واضمحلالها)[944] [389ب]

[قد كان تقدم لنا فى فصل الخلافة والملك، وهو الثالث من هذه المقدمة[944ب]، أن كل دولة لها حصة من الممالك والعمالات[902] لا تزيد عليها[945]. واعتبر ذلك بتوزيع عصابة الدولة على حماية أقطارها وجهاتها. فحيث نفد[946] عددهم فالطَّرَف الذى انتهي عنده هو الثغر[466]؛ ويحيط بالدولة من سائر جهاتها كالنطاق. وقد تكون النهاية هى نطاق الدولة الأولى. وقد يكون أوسع منه إذا كان عدد العصابة أوفر من الدولة قبلها. وهذا كله عندما تكون الدولة فى شعار البداوة وخشونة البأس. فإذا استفحل العز والغَلَب وتوفرت النعم والأرزاق بدرور الجبايات، وزخر بحر الترف والحضارة، ونشأت الأجيال على اعتياد ذلك،

---

(٩٤٤) هذا الفصل هو أحد الفصول التى تزيد بها طبعة باريس عن الطبعات المتداولة فى العالم العربى. وقد وضع فى طبعة باريس فى هذا الموضع، أى بعد الفصل السابع والأربعين من هذا الباب. ويشغل فى طبعة باريس أربع صفحات، من ص١١٤ إلى آخر ص١١٧ من المجلد الثانى (انظر السطور الخامس إلى آخر الثامن من ص٢٥٢ من تمهيدنا للمقدمة).

وقد وجدنا هذا الفصل كذلك مثبتا فى هذا الموضع فى «التيمورية». كما وجدنا فيها جميع الفصول والفقرات الأخرى التى تزيد بها طبعة باريس. هذا وسنضع من الآن فصاعداً هذين القوسين الكبيرين { } للإشارة إلى الفصول والفقرات التى تزيد بها طبعة باريس وهذه النسخة الخطية عن غيرهما من الطبعات والمخطوطات.

(٩٤٤ب) خرج بذلك عن عادته فى تسمية هذا القسم من مؤلفه. فقد جرت عادته أن يسميه الكتاب الأول (انظر ص ١٨١).

(٩٤٥) تفيد هذه العبارة أنه يحيل على فصل قد انتهى منه؛ مع أنه لم ينته بعد من الفصل الثالث الرئيسى (الباب الثالث بحسب اصطلاحنا نحن) الذى يحيل عليه. والموضوع الخاص الذى يحيل عليه قد تكلم عنه فى الفصل السابع الفرعى من هذا الباب. وهو الذى عنونه بقوله: «فصل فى أن كل دولة لها حصة من الممالك والأوطان لاتزيد عليها» (انظر آخر ص٥٣٠ وتوابعها). فكان ينبغى إذن أن يقول: «تقدم فى إحدى فقرات هذا الفصل» أو «تقدم فى فقرة سابقة من هذا الفصل».

(٩٤٦) فى طبعة باريس «نفذ» بالذال، وهو تحريف كما لا يخفى.

لطفت أخلاق الحامية ورقت حواشيهم، وعاد من ذلك إلى نفوسهم هيئات(٩٤٧) الجبن والكسل بما يعانونه من خَنَث(٩٤٨) الحضارة المؤدى إلى الانسلاخ من شعار البأس والرجولية بمفارقة البداوة وخشونتها وبأخذهم العز بالتطاول إلى الرياسة والتنازع عليها. فيفضى إلى قتل بعضهم بعضهم؛ ويكبحهم السلطان عن ذلك بما يؤدى إلى قتل أكابرهم وإهلاك رءسائهم. فتفقد الأمراء والكبراء، ويكثر التابع والمرءوس، فَيَفُلُّ(٩٤٩) ذلك من(٩٥٠) حدّ الدولة، ويكسر من شوكتها، ويقع الخلل الأول فى الدولة، وهو الذى من جهة الجند والحامية كما تقدم(٩٥١) ويساوق ذلك السَّرفُ(٩٥١ب) فى النفقات بما يعتريهم من أبَّهة العز، وتجاوز الحدود بالبذخ، بالمناغاة[٢٤٦] فى المطاعم والملابس، وتشييد القصور واستجادة السلاح وارتباط الخيول؛ فيَقصُرُ[٥٥٧] دخل الدولة حينئذ عن(٩٥٢) خرجها، ويطرق الخلل الثانى فى الدولة وهو الذى من جهة المال. والجباية(٩٥٣). ويحصل العجز والانتقاض بوجود الخَلَلَيْن. وربما تنافس رؤساؤهم، فتنازعوا وعجزوا عن مغالبة المجاورين والمنازعين ومدافعتهم. وربما اعتز أهل الثغور[٤٦٦] والأطراف بما[٤٤٥] يحسون من ضعف الدولة وراءهم، فيصيرون إلى الاستقلال والاستبداد بما فى أيديهم من العمَالات[٩٠٢]، ويعجز صاحب الدولة عن حملهم على الجادّة، فيضيق نطاق الدولة عما كانت انتهت إليه فى أولها، وترجع العناية فى تدبيرها(٩٥٣ب) بنطاقٍ دونه، إلى أن يحدث فى النطاق الثانى ما حدث فى الأول بعينه من العجز والكسل فى العصابة وقلة الأموال والجباية. فيذهب القائم

---

(٩٤٧) فى طبعة باريس وفى «التيمورية» «هيات». وهو تحريف كما لا يخفى.

(٩٤٨) «خنِث خَنَثاً من باب تعب: إذا كان فيه لين وتكسر» (المصباح). وفى طبعة باريس «حنث» بالحاء المهملة، وهو تحريف.

(٩٤٩) فى طبعة باريس «فيقل» بالقاف، وهو تحريف كما لا يخفى. وفى «التيمورية»: «فيقل ذلك من حدود الدولة» وهو معنى محتمل.

(٩٥٠) أول صفحة ٣١٥ من الجزء الثانى من طبعة باريس.

(٩٥١) انظر القسم الأول من الفصل السابق صفحات ٧١٥-٧١٨ .

(٩٥١ب) «ذلك» مفعول يساوق، وفاعله «السرف».

(٩٥٢) فى طبعة باريس: «ويقصر دخل الدولة من خرجها». وفى «التيمورية»: «ويقصر دخل الدولة عن خروجها» وكلتاهما تشتمل على تحريف فى إحدى كلمات الجملة.

(٩٥٣) انظر القسم الثانى من الفصل السابق، صفحتى ٧١٧-٧١٨ .

(٩٥٣ب) فى طبعة باريس «فى تدبيرهما» وهو تحريف.

بالدولة إلى تغيير القوانين التى كانت عليها سياسة الدول من قَبل(٩٥٣ج) الجند والمال والولايات ليجرى حالها على استقامةٍ بتكافؤ الدَّخْل والخَرْج والحامية والعمالات٩٠٢ وتوزيع الجباية على الأرزاق، ومقايسة(٩٥٤) ذلك بأول الدولة فى سائرَ الأحوال. والمفاسد(٩٥٥) مع ذلك متوقعة من كل جهة. فيحدث فى هذا الطور من بعد ما حدث فى الأول من قبل. ويعتبر صاحب الدولة ما اعتبره الأول، ويقايس٩٥٤ بالوِزان(٩٥٦) الأول أحوالها الثانية، يروم دفع مفاسد الخلل الذى يتجدد فى كل طور، ويأخذ من كل طرف، حتى يضيق نطاقها الآخر إلى نطاق دونه كذلك، ويقع فيه ما وقع فى الأول، فكل واحد من هؤلاء المغيِّرين للقوانين قبلهم كأنهم منشئون دولةً أخرى، ومجددون ملكا، حتى تنقرض الدولة، وتتطاول الأمم حولها إلى التغلب عليها وإنشاء دولة أخرى لهم، فيقع من ذلك ما قدر الله وقوعه.

واعتبر ذلك فى الدولة الإسلامية كيف اتسع نطاقها بالفتوحات والتغلب على الأمم، ثم تزايد الحامية وتكاثر عددهم بما تخوّلوه من النعم والأرزاق، إلى أن انقرض أمر بنى أمية وغلب بنو العباس. ثم تزايد الترف، ونشأت الحضارة، وطرق الخلل، فضاق النطاق من الأندلس والمغرب بحدوث الدولة الأموية والمروانية والعلوية، واقتطعوا ذينك الثغرين عن نطاقها، إلى أن وقع الخلاف بين بنى الرشيد، وظهر دعاة العلوية فى كل جانب، وتمهدت لهم دول، ثم قتل المتوكل، واستبد الأمراء على الخلفاء وحجروهم، واستقل الولاة بالعمالات(٩٥٦ب)٩٠٣ فى الأطراف، وانقطع الخراج منها، وتزايد الترف. وجاء المعتضد فغير قوانين الدولة إلى قانون آخر من السياسة أقطع(٩٥٧) فيه ولاة الأطراف ما غلبوا عليه، مثل بنى سامان وراء النهر، وبنى طاهر العراق وخراسان، وبنى الصفار السند وفارس، وبنى طولون مصر، وبنى الأغلب إفْرِيقية٤٩ب، إلى أن افتقر أمر العرب وغلب العجم، واستبد بنو بويه والديلم

(٩٥٣ج) فى طبعة باريس «فى قبل» وهو تحريف.

(٩٥٤) «قايسته جاريته فى القياس، وقايست بين الأمرين قدرت» (القاموس).

(٩٥٥) أول ص ١١٦ من الجزء الثانى من طبعة باريس.

(٩٥٦) «وازنه موازنة ووزانا عادله وقابله وحاذاه» (القاموس).

(٩٥٦ب) فى« التيمورية»: «استقل الولاة بالعمارات»، وهو تحريف.

(٩٥٧) أول ص ١١٧ من الجزء الثانى من طبعة باريس.

بدولة الإسلام وحجروا الخلافة، وبقى بنو سامان فى استبدادهم وراء النهر، وتطاول الفاطميون من المغرب إلى مصر والشام فملكوه. ثم قامت الدولة السلجوقية من الترك فاستولوا على ممالك الإسلام؛ وأبقوا الخلفاء فى حَجْرهم، إلى أن تلاشت دولهم. واستبد الخلفاء منذ عهد الناصر فى نطاق أضيق من هالة القمر وهو عراق العرب إلى أصبهان وفارس والبحرين، وأقامت الدولة كذلك بعض الشيء إلى أن انقرض أمر الخلفاء على يد هولاكو بن طولى بن دوشى خان ملك التتر والمُغُل حين غلبوا السلجوقية وملكوا ما كان فى أيديهم من ممالك الإسلام. وهكذا يتضايق نطاق كل دولة على نسبة نطاقها الأول. ولايزال طوراً بعد طور إلى أن تنقرض الدولة. واعتبر ذلك فى كل دولة عظمت أو صغرت فهكذا سنة الله فى الدول، إلى أن يأتى ما قدر الله من الفناء على خلقه. و﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾(٩٥٨)].

٤٩ـ فصل فى حدوث الدولة وتجددها كيف يقع [٢٨٩ب]

اعلم أن نشأة الدولة وبدايتها إذا أخذت الدولة المستقرة فى الهرم والانتقاص يكون على نوعين:

إما بأن يستبد ولاة الأعمال فى الدولة بالقاصية عندما يتقلص ظلها عنهم، فتكون لكل واحد منهم دولة يستجدها لقومه وما يستقر فى نصابه، يرثه عنه أبناؤه أو مواليه، ويستفحل لهم الملك بالتدريج، وربما يزدحمون على ذلك الملك ويتقارعون عليه، ويتنازعون فى الاستئثار به، ويغلب منهم من يكون له فضل قوة على صاحبه، وينتزع ما فى يده؛ كما وقع فى دولة بنى العباس حين أخذت دولتهم فى الهرم، وتقلص ظلها عن القاصية؛ واستبد بنو سامان بما وراء النهر، وبنو حمدان بالموصل والشام، وبنو طولون بمصر؛ وكما وقع بالدولة الأموية بالأندلس؛ وافترق ملكها فى الطوائف الذين كانوا ولاتها فى الأعمال[٩٠٢]، وانقسمت دولا وملوكا أورثوها من بعدهم من قرابتهم أو مواليهم. وهذا النوع لا

(٩٥٨) فقرة من الآية الأخيرة (آية ٨٨) من سورة القصص (سورة ٢٨).
ونص الآية: ﴿ وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

يكون بينهم وبين الدولة المستقرة حرب، لأنهم مستقرون فى رياساتهم، ولا يطمعون فى الاستيلاء على الدولة المستقرة بحرب؛ وإنما الدولة أدركها الهرم وتقلص ظلها عن القاصية، وعجزت عن الوصول إليها.

والنوع الثانى بأن يخرج عن الدولة خارج ممن يجاورها من الأمم والقبائل إما بدعوة يحمل الناس عليها كما أشرنا إليه، أو يكون صاحب شوكة وعصبية كبيراً فى قومه قد استفحل أمره فيسمو بهم إلى الملك، وقد حدثوا به أنفسهم بما حصل لهم من الاعتزاز على الدولة المستقرة، وما نزل بها من الهرم. فيتعين له ولقومه الاستيلاء عليها، ويمارسونها بالمطالبة إلى أن يظفروا بها ويَزِنون(٩٥٩) أمرها كما يتبين. والله سبحانه وتعالى أعلم.

٥٠- فصل فى أن الدولة المستجدة إنما تستولى على الدولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة [٣٨٩ب]

قد ذكرنا أن الدول الحادثة المتجددة نوعان. نوع من ولاية الأطراف إذا تقلص ظل الدولة عنهم وانحسر تيارها، وهؤلاء لا يقع منهم مطالبة للدولة في الأكثر كما قدمناه، لأن قُصاراهم القُنُوع(٩٦٠) بما فى أيديهم وهو نهاية قوتهم؛

(٩٥٩) في بعض النسخ «ويرفون أمرها» من رفا الثوب أصلحه (من القاموس) ولعل هذه الكلمة محرفة عن «يرثون».

(٩٦٠) «قنَع يقنَع بفتحتين قُنوعًا سأل. وفى التنزيل: ﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ (فقرة من آية ٣٦ من سورة الحج، وهي سورة ٢٢). فالقانع السائل والـمُعْتَرّ الذي يطيف ولا يسأل. وقَنِعت به قَنَعًا من باب تعب وقناعة رضيت» (المصباح)... وفي القاموس: «القُنُوع بالضم السؤال والتذلل والرضى بالقسم، ضدٌ (أي يستخدم في هذين المعنيين المتضادين وهما السؤال والرضى) والفعل كمنع. ومن دعائهم: نسأل الله القناعة ونعوذ بالله من القُنُوع (فاستُخدم القُنوع هنا بمعني السؤال والتذلل)، وفى المثل: خير الغنى القُنُوع وشر الفقر الخضوع (فاستخدم القنوع هنا بمعنى الرضى). والقناعة الرضى كالقَنَع، والفعل كفرح، فهو قَنِع وقانع وقَنوع وقنيع». فبحسب ما فى القاموس يستعمل قَنَع المفتوح العين ويستعمل مصدره القُنُوع فى المعنيين كليهما. وبحسب ما فى المصباح لا يستعملان إلا بمعنى السؤال. وأما قنِع المكسور العين والقَنَع والقناعة فلا تستخدم إلا بمعنى الرضى باتفاق المصباح والقاموس. فكان الأفضل أن يستخدم ابن خلدون فى هذه العبارة «القَنَع» أو «القناعة» لوجود الخلاف فى استخدام القنوع بمعنى الرضى.

والنوع الثانى نوع الدعاة والخوارج على الدولة وهؤلاء لابد لهم من المطالبة، لأن قوتهم وافية بها، فإن ذلك إنما يكون فى نصاب يكون له من العصبية والاعتزاز ما هو كفَاءٌ(٩٦١) ذلك ووافٍ به. فيقع بينهم وبين الدولة المستقرة حروب سِجالٌ تتكرر وتتصل إلى أن يقع لهم الاستيلاء والظَّفَر بالمطلوب. ولا يحصل لهم فى الغالب ظفر بالمناجزة. والسبب فى ذلك أن الظَّفَر فى الحروب إنما يقع كما قدمناه بأمور نفسانية وهمية، وإن كان العدد والسلاح وصدق القتال كفيلا به، لكنه قاصر مع تلك الأمور الوهمية كما مر(٩٦٢)؛ ولذلك كان الخداع من أنفع ما يستعمل فى الحرب وأكثر ما يقع الظَّفَرُ به؛ وفى الحديث: «الحرب خدعة».

والدولة المستقرة قد صيَّرتْ العوائدُ المألوفةُ طاعَتَها ضروريةً واجبَةً كما تقدم فى غير موضع. فتكثر بذلك العوائق لصاحب الدولة المستجدة، ويكسر(٩٦٣) من هم أتباعه وأهل شوكته؛ وإن كان الأقربون من بطانته على بصيرة فى طاعته وموازرته، إلا أن الآخرين أكثر، وقد داخلهم الفشل بتلك العقائد فى التسليم للدولة المستقرة، فيحصل بعض الفتور منهم ولا يكاد صاحب الدولة المستجدة يقاوم صاحب الدولة المستقرة. فيرجع إلى الصبر والمطاولة، حتى يتضح هَرَمُ الدولة المستقرة، فتضمحل عقائد التسليم لها من قومه، وتنبعث منهم الهمم لصدق المطالبة معه، فيقع الظفر والاستيلاء.

وأيضاً فالدولة المستقرة كثيرة الرزق(٩٦٣ب) بما استحكم لهم من الملك، وتوسع من النعيم واللذات، واختُصوا به دون غيرهم من أموال الجباية، فيكثر عندهم ارتباط الخيول واستجادة الأسلحة، وتعظم فيهم الأبَّهَة الملكية، ويفيض العطاء بينهم من ملوكهم اختياراً واضطراراً، فيُرهِبون بذلك كلِّه عدوَّهم.

---

(٩٦١) المستخدم فى هذا المعنى بحسب ما ورد فى القاموس والمصباح الكلمات الآتية: الكُفْء والكَفِىء والكُفُوء والكُفْو والكُفِى (كهدى) والمكافئ. ولم يذكر أحدهما «الكفَاء» - ولكننى وجدت فى الأمالى فى مطلب ما وقع بين سُبَيْع بن الحارث ومِيثَم بن مُثَوِّب من المخاصَمة بمجلس مَرْثَد الخير، قول ميثَم: «وإنا والله ما نعتدّ لهم بيدٍ إلا وقد نالهم منا كِفاؤها» (ص ٩٣ من الجزء الأول من الأمالى، طبعة بولاق سنة ١٣٢٤).

(٩٦٢) فى الفصل السابع والثلاثين من هذا الباب، وعنوانه: «فصل فى الحروب ومذاهب الأمم فى ترتيبها». والموضوع الذى يشير إليه قد ورد فى أواخر هذا الفصل فى فقرة عنوانها «(فصل) ولا وثوق فى الحرب بالظَّفَر وإن حصلت أسبابه من العدة والعديد... إلخ» (انظر السطور الأربعة الأخيرة من ص٦٩١ وصفحتى ٦٩٢، ٦٩٣)

(٩٦٣) فى جميع النسخ «ويكثر» بالثاء. وهو تحريف كما لا يخفى. والمقصود أن ذلك يكسر هممهم أى يثبط قواهم ويضعف من عزائمهم.

(٩٦٣ب) فى (التيمورية): «كثيرة الترف» وكلتا الكلمتين متسقة مع العبارة.

وأهل الدولة المستجدة بمعزل عن ذلك؛ لما هم فيه من البداوة وأحوال الفقر والخَصَاصة[٩٦٤] (التى يُفْقَدُ معها الاستعداد من ذلك)[٩٦٤ب] فيسبق إلى قلوبهم أوهام الرعب بما يبلغهم من أحوال الدولة المستقرة (وكثرة استعدادها)[٩٦٤ب]، ويحجمون[٩٦٥] عن قتالهم من أجل ذلك فيصير أمرهم إلى المطاولة حتى تأخذ المستقرة مأخذها من الهَرَم، ويستحكم الخلل فيها فى العصبية والجباية، فينتهز حينئذ صاحب الدولة المستجدة فرصته فى الاستيلاء عليها بعد حين منذ المطالبة. سنة الله فى عباده.

وأيضًا فأهل الدولة المستجدة كلهم مباينون للدولة المستقرة بأنسابهم وعوائدهم وفى سائر مناحيهم، ثم هم مفاخرون لهم ومنابذون بما وقع من هذه المطالبة وبطمعهم فى الاستيلاء عليها، فتتمكن المباعدة بين أهل الدولتين سرًا وجهرًا، ولا يصل إلى أهل الدولة المستجدة خبر عن أهل الدولة المستقرة يصيبون منه غِرَّة[٩٦٦] باطنًا وظاهرًا، لانقطاع المداخلة بين الدولتين، فيقيمون على المطالبة وهم فى إحجام، ويَنْكُلون[٩٦٦ب] عن المناجزة حتى يأذن الله بزوال الدولة المستقرة، وفناء عمرها، ووفور الخلل فى جميع جهاتها، ويتضح لأهل الدولة المستجدة مع الأيام ما كان يخفى منها، ومن هرمها وتلاشيها، وقد عظمت قوتهم بما اقتطعوه من أعمالها[٩٠٢] ونقصوه من أطرافها، فتنبعث هممهم يدًا واحدة للمناجزة، ويذهب ما كان يَفُتُّ[٩٦٧] فى عزائمهم من التوهمات، وتنتهى المطاولة إلى حدها، ويقع الاستيلاء آخِرًا بالمعاجلة.

---

(٩٦٤) الخَصَاصة بالفتح الفقر والحاجة، قال تعالى يصف الأنصار فى المدينة وحسن معاملتهم للمهاجرين (الذين هاجروا إليهم من مكة): ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. (آية ٩ من سورة الحشر، وهى سورة ٥٩).

(٩٦٤ب) الجملة الموضوعة بين قوسين ساقطة من جميع النسخ ومثبتة فى «التيمورية».

(٩٦٥) فى جميع النسخ: «ويحرمون عن قتالهم»، وهو تحريف كما لا يخفى.

(٩٦٦) الغرَّة الغفلة، يقال: على حين غِرَّة منه» أى فاجأه على حين غفلة منه.

(٩٦٦ب) «نَكَلت عن العدو نُكُولا من بابَ قعد، وهذه لغة الحجاز، ونَكِل نَكَلاً من باب تعب. لغة، ومنعها الأصمعى، وهو الجبن والتأخر. قال أبوزيد: نكل إذا أراد أن يصنَع شيئاً فهابه. ونكل عن اليمين امتنع منها» (المصباح). (انظر كذلك تعليق ٨٨٤).

(٩٦٧) فى جميع النسخ «بث»، وهو تحريف عن «فَتَّ» أو «يَفُتُّ» لأن الغالب استخدام هذا الفعل مع كلمة الساعد أو العزيمة بمعنى الإضعاف يقال «فتَّ فى ساعده» و«فتَّ فى عزيمته» أى أضعفه أو أضعفها (انظر القاموس). ولا يستقيم استعمال فعل «بث» إلا إذا تعدى إلى النفوس أو إلى الرُّوع، فقيل مثلا: ويذهب ما كان بُثَّ فى نفوسهم أو فى رُوعهم من التوهمات.

واعتبر ذلك فى دولة بنى العباس حين ظهورها، حين قام الشيعة بخراسان بعد انعقاد الدعوة واجتماعهم على المطالبة عشر سنين أو تزيد. وحينئذ تم لهم الظَّفَر واستولوا على الدولة الأموية.

وكذا العلوية بطَبَرَسْتَان[١٩٥] عند ظهور دعوتهم فى الديلم، كيف كانت مطاولتهم حتى استولوا على تلك الناحية. ثم لما انقضى أمر العلوية وسما الديلم إلى ملك فارس والعراقين، فمكثوا سنين كثيرة يُطَاوِلون حتى اقتطعوا أصبهان ثم استولوا على الخليفة ببغداد.

وكذا العُبَيْدِيونَ[٦١٧] أقام داعيتهم بالمغرب أبو عبد الله الشيعى[٦١٨] ببنى كتامة من قبائل البربر عشر سنين ويزيد يطاول بنى الأغلب بإفْرِيقية حتى ظفر بهم، واستولوا[(٩٦٨)] على المغرب كله. وسمَوْا إلى ملك مصر؛ فمكثوا ثلاثين سنة أو نحوها فى طلبها يجهزون إليها العساكر والأساطيل فى كل وقت[(٩٦٩)] ويجىء المدد لمدافعتهم براً وبحراً من بغداد والشام، وملكوا الإسكندرية والفيوم والصعيد، وتخطت دعوتهم من هنالك إلى الحجاز وأقيمت بالحرمين. ثم نازل قائدهم جوهر الكاتب بعساكره مدينة مصر[(٩٧٠)] واستولى عليها، واقتلع دولة بنى طُغْج[(٩٧١)] من أصولها، واختط القاهرة، فجاء الخليفة بعدُ المُعِزُّ لدين الله، فنزلها لستين سنة أو نحوها منذ استيلائهم على الإسكندرية[٩٦٩].

وكذا السلجوقية ملوك الترك لما استولوا على بنى سامان، وأجازوا[٨٠٨] من وراء النهر مكثوا نحواً من ثلاثين سنة، يطاولون بنى سبكتكين بخراسان حتى استولوا على دولته. ثم زحفوا إلى بغداد فاستولوا عليها وعلى الخليفة بها بعد أيام من الدهر.

---

(٩٦٨) أى العبيديون.

(٩٦٩) كانت أول محاولة حربية لاستيلاء الفاطميين على مصر فى عهد عبيد الله المهدى نفسه سنة ٣٠١هـ. فقد وجه إليها فى هذه السنة جيشاً من إفريقية بقيادة ابنه أبى القاسم، فاستولى على الإسكندرية والفيوم وبعض مدن الصعيد ثم تتابعت بعد ذلك هذه المحاولات. ولم يتم للفاطميين الاستيلاء على مصر إلا سنة ٣٥٨هـ (انظر الكندى والمقريزى وابن الأثير وأبا المحاسن) فكان الصحيح أن يقول: «فمكثوا ستين سنة أو نحوها...» ويظهر أن كلمة «ثلاثين» تحريف أو سبق قلم. لأن ابن خلدون نفسه سيختم هذه الفقرة بقوله: «فنزلها (أى المعز لدين الله) لستين سنة أو نحوها بعد استيلائهم على الإسكندرية» أى بعد المحاولة الأولى التى استولى فيها جيش عبيد الله المهدى بقيادة ابنه أبى القاسم على الإسكندرية سنة ٣٠١هـ.

وكذا التتر من بعدهم خرجوا من المفازة عام سبع عشرة وستمائة فلم يتم لهم الاستيلاء إلا بعد أربعين سنة.

وكذا أهل المغرب خرج به المرابطون[٢٠٨ب] من لمتونة على ملوكه من مغراوة، فطاولوهم سنين ثم استولوا عليه. ثم خرج الموحدون[٩٣٦] بدعوتهم على لمتونة فمكثوا نحواً من ثلاثين سنة يحاربونهم حتى استولوا على كرسيهم بمراكش.

وكذا بنو مرين[٧٨٠] من زناتة خرجوا على الموحدين فمكثوا يطاولونهم نحواً من ثلاثين سنة، واستولوا على فاس واقتطعوها وأعمالها[٩٠٢] من ملكهم. ثم أقاموا فى محاربتهم ثلاثين أخرى، حتى استولوا على كرسيهم بمراكش حسبما نذكر ذلك كله فى تواريخ هذه الدول[٩٧١ب].

فهكذا حال الدول المستجدة مع المستقرة فى المطالبة والمطاولة. سنة الله فى عباده؛ ولن تجد لسنة الله تبديلا.

ولا يُعَارَضُ ذلك بما وقع فى الفتوحات الإسلامية وكيف كان استيلاؤهم على فارس والروم لثلاث أو أربع من وفاة النبى ﷺ؛ واعلم أن ذلك إنما كان معجزة من معجزات نبينا ﷺ؛ سرها استماتة المسلمين فى جهاد عدوهم استبصاراً[٩٧١ج] بالإيمان، وما أوقع الله فى قلوب عدوهم من الرعب والتخاذل. فكان ذلك كله خارقاً للعادة المقررة فى مطاولة الدول المستجدة للمستقرة. وإذا كان ذلك خارقاً فهو من معجزات نبينا، صلوات الله عليه، المتعارف ظهورها فى الملة الإسلامية. والمعجزاتُ لايقاس عليها الأمور العادية، ولاُ يُعْتَرَضُ بها. والله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق.

---

(٩٧٠) يقصد عاصمة مصر فى دولة الإخشيد.

(٩٧١) هى دولة الإخشيد التى كان أول سلاطينها محمد بن طغج الإخشيد، وقد ظلت هذه الدولة تحكم مصر نحو خمس وثلاثين سنة (من ٣٢٣ هـ إلى ٣٥٨هـ).

(٩٧١ب) يحيل بذلك على ما سيذكره فى بحوثه التاريخية اللاحقة للمقدمة من كتابه «العبر» (انظر صفحات ٧٦ - ٧٩ من تمهيدنا للمقدمة).

(٩٧١ج) فى جميع النسخ: «استبعاداً» وهو تحريف لكلمة «استبصاراً».

٥١ـ فصل فى وفور العمران
آخِرَ الدولة وما يقع فيها من كثرة المَوَتَان[(٩٧٢)] والمجاعات[٣٨٩ب]

اعلم أنه قد تقرر لك فيما سلف[(٩٧٢ب)] أن الدولة فى أول أمرها لابد لها من الرفق فى مَلَكتها[٧٠] والاعتدال فى إيالتها، إما من الدين إن كانت الدعوة دينية، أو من المكارمة والمحاسنة التى تقتضيها البداوة الطبيعية للدول. وإذا كانت المَلَكَةُ[٧٠] رفيقة محسنة انبسطت آمال الرعايا، وانتشطوا للعمران وأسبابه فتوفر[٦٠]، ويكثر التناسل. وإذا كان ذلك كله بالتدريج فإنما يظهر أثره بعد جيل أو جيلين فى الأقل. وفى انقضاء الجيلين تشرف الدولة على نهاية عمرها الطبيعى. فيكون حينئذ العمران فى غاية الوفور والنماء. ولا تقولن إنه قد مرَّ لك[(٩٧٣)] أن أواخر الدولة يكون فيها الإجحاف بالرعايا وسوء المَلَكَة[٧٠]، فذلك صحيح، ولا يعارض ما قلناه؛ لأن الإجحاف وإن حدث حينئذ وقلت الجبايات فإنما يظهر أثره فى تناقص العمران بعد حين، من أجل التدريج فى الأمور الطبيعية. ثم إن المجاعات والمَوَتان[٩٧٢] تكثر عند ذلك فى أواخر الدول. والسبب فيه:

أما المجاعات فلقبض الناس أيديهم عن الفَلْح فى الأكثر، بسبب ما يقع فى آخر الدولة من العدوان فى الأموال والجبايات، أو الفتن الواقعة فى انتقاص الرعايا وكثرة الخوارج لهَرَم الدولة، فيقل احتكار الزرع غالبًا؛ وليس صلاح

---

(٩٧٢) المَوَتان بفتحتين الموت، وهو كذلك مصدر ماتت الأرض مَوَتَانًا أى خلت من العمارة والسكان (من المصباح).

(٩٧٢ب) فى الفصل الرابع والعشرين من هذا الباب، وعنوانه: «فصل فى أن إرهاف الحد مضر بالملك ومفسد له فى الأكثر» (انظر صفحات ٥٦٦-٥٦٨). وفى الفصل الثالث والأربعين من هذا الباب، وعنوانه: «فصل فى أن الظلم مؤذن بخراب العمران» (انظر صفحات ٧٠٣-٧٠٩).

(٩٧٣) فى الفصل السابع والأربعين من هذا الباب، وعنوانه: «فصل فى كيفية طروق الخلل بالدولة» (انظر صفحات ٧١٥-٧١٨).
وقد عرض كذلك لهذه الحقيقة نفسها فى الفصل الثالث والأربعين من هذا الباب (انظر عنوانه وصفحاته فى التعليق السابق).

الزرع وثمرته بمستمر الوجود، ولا على وتيرة واحدة، فطبيعة العالم فى كثرة الأمطار وقلتها مختلفة، والمطر يقوى ويضعف ويقل ويكثر، والزرع والثمار والضرع على نسبته، إلا أن الناس واثقون فى أقواتهم بالاحتكار. فإذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات، فغلا الزرع، وعجز عنه أولو الخَصَاصة[٩٦٤] فهلكوا، وكان[١٦٨] بعضُ السنوات، والاحتكارُ مفقودٌ، فشمل الناسَ الجوع[(٩٧٣ب)].

وأما كثرة المَوتان[٩٧٣] فلها أسباب من كثرة المجاعات كما ذكرناه، أو كثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهَرْج[٤٥٩ب] والقتل، أو وقوع الوباء. وسببه فى الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العَفَن والرطوبات الفاسدة. وإذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيوانى ومُلابِسُهُ دائمًا فيسرى الفساد إلى مزاجه. فإن كان الفساد قويًا وقع المرض فى الرئة. وهذه هى الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة. وإن كان الفساد دون القوىّ والكثير فيكثر العَفَن ويتضاعف، فتكثر الحميات فى الأمزجة وتمرض الأبدان وتهلك وسبب كثرة العَفَن والرطوبات الفاسدة فى هذا كله كثرة العمران ووفوره آخرَ الدولة، لما كان[١٦٨] فى أوائلها من حسن المَلَكَة[٧٠] ورفقها وقلة المَغْرَم، وهو ظاهر ولهذا تبين فى موضعه من الحكمة أن تخلل الخلاء والقفر بين العمران ضرورى، ليكون تموج الهواء يذهب بما يحصل فى الهواء من الفساد والعَفَن بمخالطة الحيوانات، ويأتى بالهواء الصحيح. ولهذا أيضًا فإن المَوَتان[٩٧٢] يكون فى المدن الموفورة العمران أكثر من غيرها بكثير، كمصر بالمشرق وفاس بالمغرب والله يقدِّر ما يشاء.

(٩٧٣ب) «كان» هنا تامة بمعنى حصل، و«بعض» فاعل كان؛ وجملة «والاحتكار مفقود» جملة حالية، والواو فيها للحال لا للعطف.

٥٢ - فصل فى أن العمران البشرى لابد له من سياسة ينتظم بها أمره

اعلم أنه تقدم لنا فى غير موضع[٩٧٤] أن الاجتماع للبشر ضرورى، وهو معنى العمران الذى نتكلم فيه، وأنه لابد لهم فى الاجتماع من وازع حاكم يرجعون إليه. وحكمه فيهم: تارة يكون مستنداً إلى شرع منزل من عند الله يوجب انقيادَهم إليه إيمانُهم بالثواب والعقاب عليه الذى جاء به مبلِّغُه؛ وتارة إلى سياسة عقلية يوجب انقيادَهم إليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم. فالأولى يحصل نفعها فى الدنيا والآخرة لعلم الشارع بالمصالح فى العاقبة، ولمراعاته نجاة العباد فى الآخرة، والثانية إنما يحصل نفعها فى الدنيا فقط[٩٧٥].

وما تسمعه من السياسة المدنية فليس من هذا الباب، وإنما معناه عند الحكماء ما يجب أن يكون عليه كل واحد من أهل ذلك المجتمع فى نفسه وخلقه حتى يستغنوا عن الحكام رأساً: ويسمون المجتَمعَ الذى يحصل فيه ما يسمى من[٩٧٥ب] ذلك «بالمدينة الفاضلة»؛ والقوانينَ المراعاةَ فى ذلك «بالسياسة المدنية»[٩٧٦]. وليس مرادهم السياسةَ التى يُحْمل عليها أهلُ الاجتماع بالمصالح

---

(٩٧٤) وأول حديث عن هذا الموضوع، وهو أهم ما قاله ابن خلدون فيه، وكثيراً ما يحيل إليه، كان فى المقدمة الأولى من الكتاب الأول وعنوانها: «المقدمة الأولى فى أن الاجتماع الإنسانى ضرورى» (انظر صفحات ٣٤٤-٣٤٦: من الجزء الأول من طبعتنا هذه).

(٩٧٥) سبق الكلام على هذين النوعين وعلى نوع ثالث للحكم فى الفصل الخامس والعشرين من هذا الباب، وعنوانه: «فصل فى معنى الخلافة والإمامة» (انظر صفحتى ٥٦٨-٥٦٩).

(٩٧٥ب) هكذا فى جميع النسخ. ويظهر أن كلمتى «ما يسمى من» مقحمتان لا محل لهما فى الجملة.

(٩٧٦) يشير بذلك على الأخص إلى آراء أفلاطون فى كتابه «الجمهورية» وإلى آراء الفارابى فى كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة». غير أنه يلاحظ أن كليهما قد رأى ضرورة وجود رئيس أو رؤساء ووجود حكومة لمدينته، خلافا لما يوهمه كلام ابن خلدون فى هذه الفقرة. صحيح أن كليهما يرى أنه ينبغى أن يكون أهل المدينة الفاضلة على درجة عالية من كمال الأخلاق، وأن يكونوا صورة من رئيس المدينة نفسه. وأفراد هذا شأنهم لن يكونوا فى حاجة كبيرة إلى حاكم وازع. وبذلك يمكن التوفيق بين ما يقرره أصحاب المدن الفاضلة وما يقرره هنا ابن خلدون، أو ما يتبادر إلى الذهن من عبارته. (انظر كتابنا «فصول من آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى» وانظر كذلك آخر ص٢٤٢ وأول ٢٤٣ من تمهيدنا لمقدمة ابن خلدون).

العامة؛ فإن هذه غير تلك. وهذه المدينة الفاضلة عندهم نادرة أو بعيدة الوقوع، وإنما يتكلمون عليها على جهة الفرض والتقدير.

ثم إن السياسة العقلية التى قدمناها تكون على وجهين. أحدهما يراعى فيها المصالح على العموم ومصالح السلطان فى استقامة ملكه على الخصوص. وهذه كانت سياسة الفرس وهى على جهة الحكمة. وقد أغنانا الله تعالى عنها فى الملة ولعهد الخلافة، لأن الأحكام الشرعية مغنية عنها فى المصالح العامة والخاصة والآداب(٩٧٧)، وأحكام الملك مندرجة فيها. الوجه الثانى أن يراعى فيها مصلحة السلطان وكيف يستقيم له الملك مع القهر والاستطالة، وتكون المصالح العامة فى هذه تبعًا. وهذه السياسة التى يحمل عليها أهل الاجتماع التى(٩٧٧ب) لسائر الملوك فى العالم من مسلم وكافر(٩٧٧ج): إلا أن ملوك المسلمين يجرون منها على ما تقتضيه الشريعة الإسلامية بحسب جهدهم؛ فقوانينها إذًا مجتمعة من أحكام شرعية، وآداب خلقية، وقوانين فى الاجتماع طبيعية، وأشياء من مراعاة الشوكة والعصبية ضرورية، والاقتداء فيها بالشرع أولًا، ثم الحكماء فى آدابهم والملوك فى سيرهم.

ومن أحسن ما كتب فى ذلك وأودع كتاب طاهر بن الحسين لابنه عبدالله بن طاهر لما ولاه المأمون الرَّقَّة ومصر وما بينهما. فكتب إليه أبوه طاهر كتابه المشهور عهد إليه فيه ووصاه بجميع ما يحتاج إليه فى دولته وسلطانه من الآداب الدينية والخلقية، والسياسة الشرعية والملوكية، وحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم بما لا يستغنى عنه ملك ولا سوقة. ونص الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له وخشيته، ومراقبته عز وجل، ومزايلة(٩٧٨) سخطه. واحفظ رعيتك فى الليل والنهار. والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك وما أنت صائر إليه

---

(٩٧٧) فى جميع النسخ: «والآفات» وهو تحريف لكلمة: «والآداب».

(٩٧٧ب) «التى» خبر «هذه». فالمعنى: وهذه السياسة... هى التى لسائر الملوك.

(٩٧٧ج) استبدل بكلمة «وكافر» كلمة «وغيره» فى طبعتى «ل» و«دار الكتاب اللبنانى» مجاملة لنصارى لبنان. ولكن على حساب الأمانة العلمية. (انظر كذلك تحريفًا من هذا القبيل فى تعليقى ٨١٦ب، ٨١٦ج وانظر كذلك تعمد حذف فقرات للأسباب نفسها وحذف فصول وفقرات حذفًا تحكميًا فى تعليق ٧٥٤ وفى ص ٢٥٦).

(٩٧٨) تستعمل المزايلة بمعنى المفارقة، والابتعاد. وهذا المعنى هو المقصود فى هذه العبارة.

وموقوف عليه ومسئول عنه، والعمل فى ذلك كله بما يعصمك من الله عزوجل وينجيك يوم القيامة من عقابه وأليم عذابه. فإن الله سبحانه قد أحسن إليك وأوجب الرأفة عليك بمن استرعاك أمرهم من عباده، وألزمك العدل فيهم، والقيامَ بحقه وحدوده عليهم، والذبَّ عنهم، والدفعَ عن حريمهم ومنصبهم، والحَقْنَ(٩٧٩) لدمائهم، والأمنَ لسِرْبهم، وإدخالَ الراحة عليهم. ومؤاخِذُكَ بما فرض عليك، ومُوقفُك٤٥ب عليه، وسائلك عنه، ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت. ففرّغ لذلك فهمَك وعقلك وبصرك، ولا يشغلك عنه شاغل، وإنه رأس أمرك ومَلاكُ(٩٨٠) شأنك، وأول ما يُوقفُك٤٥ب الله عليه. وليكن أوَّلُ ما تُلزِم به نفسَك وتَنسب إليه فعلَك المواظبةَ على ما فرض الله عزوجل عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قِبلَكَ، وتُوْقعها(٩٨١) على سننها، من إسباغ الوضوء لها وافتتاح ذكر الله عزوجل فيها(٩٨٢)، ورتل فى قراءتك، وتمكن فى ركوعك وسجودك وتَشَهُّدك، ولتصرف فيه رأيك ونيتك، واحضض عليه جماعة ممن معك وتحت يدك، وادأب عليها، فإنها كما قال الله عزوجل: ﴿ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ(٩٨٣) ﴾.

«ثم أتبع ذلك بالأخذ بسنن رسول الله ﷺ، والمثابرة على خلائقه، واقتفاء أثر السلف الصالح من بعده. وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله عزوجل وتقواه، وبلزوم ما أنزل الله عزوجل فى كتابه من أمره ونهيه وحلاله وحرامه، وائتمام ما جاءت به الآثار عن رسول الله ﷺ. ثم قم فيه بالحق لله عز وجل. ولا تميلن عن العدل فيما أحببت أو كرهت لقريب من الناس أو لبعيد».

و«آثِر الفقه وأهله، والدين وحمَلَته، وكتاب الله عز وجل والعاملين(٩٨٣ب) به؛

(٩٧٩) حقنت دمه خلاف هدرته، وهو من حقنت الماء في السِّقاء حقنا من باب قتل إذا جمعته فيه، فكأنك جمعت الدم في صاحبه فلم ترقه (من المصباح).

(٩٨٠) مِلاك الأمر بالكسر قوامه؛ ومنه يقال: «القلب ملاك الجسد» و«ملاك الشيمة الأدب».

(٩٨١) في جميع النسخ: «وتوابعها» وهو تحريف.

(٩٨٢) يقصد دعاء الاستفتاح في أول الصلاة بعد تكبيرة الإحرام (انظر كتب الفقه).

(٩٨٣) فقرة من آية ٤٥ من سورة العنكبوت (وهي سورة ٢٩): ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. ﴾.

(٩٨٣ب) لعل الأصل: (وآثِرْ الفقهَ وأهلَه، وكتاب الله عزوجل وحمَلَته، والدين والعاملين به». فإن الشائع أن يقال: حمَلَة كتاب الله، والعاملون بالدين.

فإن أفضل ما يتزين به المرء الفقه فى الدين، والطلب له، والحث عليه والمعرفة بما يتقرب به إلى الله عزوجل، فإنه الدليل على الخير كله، والقائد إليه والآمر به، والناهى عن المعاصى والموبقات كلها. ومع توفيق الله عزوجل يزداد المرء معرفة وإجلالا له ودَرَكًا(٩٨٤) للدرجات العلى فى المعاد. مع ما فى ظهوره للناس من التوقير لأمرك، والهيبة لسلطانك، والأنَسة بك(٩٨٥) والثقة بعدلك».

«وعليك بالاقتصاد فى الأمور كلها فليس شىء أبين نفعًا، ولا أخص أمنًا، ولا أجمع فضلا منه، والقصد[٢٩٣] داعية إلى الرشد، والرشد دليل على التوفيق والتوفيق قائد إلى السعادة، وقِوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد، فآثِره(٩٨٦) فى دنياك كلها».

«ولا تقصر فى طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة والسنن المعروفة ومعالم الرشد والإعانة، والاستكثار من البر والسعى له إذا كان يطلب به وجه الله تعالى ومرضاته، ومرافقةِ أولياء الله فى دار كرامته. واعلم(٩٨٧) أن القصد فى شأن الدنيا يورث العز ويمحص من الذنوب، وأنك لن تحوط نفسك من قائل ولا تنصلح أمورك بأفضل منه، فأته واهتد به تتم أمورك وتزد مقدرتك وتصلح عامتك وخاصتك. وأحسن ظنك بالله عزوجل تستقم لك رعيتك، والتمس الوسيلة إليه فى الأمور كلها تستدم به النعمة عليك».

«ولا تتهمن أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره؛ فإن إيقاع التهم بالبُرآء، والظنون السيئة بهم، آثَم إثم. فاجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك، واطرد عنك سوء الظن بهم، وارفضه، يُعنْك ذلك على استطاعتهم ورياضتهم. ولا تتخذن عدو الله الشيطان فى أمرك مَعمدًا، فإنه إنما يكتفى بالقليل من وَهَنك ويدخل عليك من الغم بسوء الظن بهم ما ينقص

---

(٩٨٤) الدَّرَك بفتحتين (وسكون الراء لغة فيه) اسم من أدركت الشيء قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ (آية ٧٧ من سورة طه وهى سورة ٢٠).

(٩٨٥) «الأنَسة محركة ضد الوحشة» (القاموس).

(٩٨٦) فى جميع النسخ «وكذا» وهو تحريف لكلمة «فآثِرْه» (أى فقدمه على غيره) كما وردت الكلمة فى نص هذه الرسالة فى كتب أخرى.

(٩٨٧) فى جميع النسخ «أما تعلم»، وهو تحريف لكلمة «واعلم» كما وردت الكلمة فى نص هذه الرسالة فى كتب أخرى.

لذاذة عيشك. واعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة. وتكتفى به ما أحببت كفايته من أمورك، وتدعو الناس إلى محبتك والاستقامة فى الأمور كلها. ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك، والرأفة برعيتك، أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك. والمباشرة لأمور الأولياء، وحياطة الرعية، والنظر فى حوائجهم، وحمل مئوناتهم، أيسر عندك مما سوى ذلك؛ فإنه أقوم للدين وأحيا للسنة».

«وأخلص نيتك فى جميع هذا، وتفرد بتقويم نفسك تفرُّدَ من يعلم أنه مسئول عما صنع، ومَجْزِىٌّ بما أحسن، ومؤاخذ بما أساء. فإن الله عزوجل جعل الدين حرزًا وعزًّا، ورفع من اتبعه وعززه».

«واسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقه الأهدى. وأقم حدود الله تعالى فى أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه، ولا تعطل ذلك ولا تتهاون به، ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة، فإن فى تفريطك فى ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك. واعتزم على أمرك فى ذلك بالسنن المعروفة، وجانِب البدع والشبهات يسلم لك دينك وتتم لك مروءتك».

«وإذا عاهدت عهداً فأوف به، وإذا وعدت الخير فأنجزه، واقبل الحسنة وادفع بها. واغمض عن عيب كل ذى عيب من رعيتك. واشدد لسانك عن قول الكذب والزور، وابغض أهل النميمة، فإن أول فساد أمورك فى عاجلها وآجلها، تقريب الكذوب، والجراءة على الكذب؛ لأن الكذب رأس المآثم، والزور والنميمة خاتمها، لأن النميمة لا يسلم صاحبها، وقائلها لا يسلم له صاحب ولا يستقيم له أمر. وأحبب أهل الصلاح والصدق، وأعزَّ الأشراف بالحق، وأعن الضعفاء وصل الرحم؛ وابتغ بذلك وجه الله تعالى وأَعزز أمره، والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة. واجتنب سوء الأهواء والجَوْر، واصرف عنهما رأيك، وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك. وأنعم بالعدل سياستهم وقم بالحق فيهم، وبالمعرفة التى تنتهى بك إلى سبيل الهدى. وأملك نفسك عند الغضب، وآثِر الحلمَ والوقارَ، وإياك والحدة والطيش والغرور فيما أنت بسبيله».

«وإياك أن تقول أنا مسلَّطٌ أفْعَلُ ما أشاء، فإن ذلك سريع إلى نقص الرأى وقلة اليقين بالله عزوجل. وأخلص لله وحده النية فيه واليقين به. واعلم أن الملك لله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء. ولن تجد تغير النعمة وحلول النقمة إلى أحد أسرع منه إلى جَهَلَةِ النعمة من أصحاب السلطان،

والمبسوطِ لهم فى الدولة إذا كفروا نعم الله وإحسانه، واستطالوا بما أعطاهم الله عز وجل من فضله».

«ودع عنك شَرَهَ نفسك، ولتكن ذخائرك وكنوزك التى تدخر وتكنز البرَّ والتقوى، واستصلاحَ الرعية، وعمارة بلادهم والتفقد لأمورهم، والحفظ لدمائهم، والإغاثة لملهوفهم».

«واعلم أن الأموال إذا اكتُنِزت وادُّخِرَت فى الخزائن لا تنمو؛ وإذا كانت فى صلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكف الأذية عنهم نمت وزكت[٧٧٩]، وصلحت بها العامة، وترتبت بها الولاية، وطاب بها الزمان، واعتُقِد فيها العز والمنفعة.

فليكن كنز خزائنك تفريقَ الأموال فى عمارة الإسلام وأهله، ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قِبَلَكَ حقوقهم، وأوف من ذلك حصَصَهم، وتعهد ما يصلح أمورهم ومعاشهم؛ فإنك إذا فعلت ذلك قَرَّتْ النعمة لك، واستوجَبْت المزيدَ من الله تعالى، وكنت بذلك على جباية أموال رعيتك وخراجك أقدر، وكان الجميعُ لما شملهم من عدلك وإحسانك أسلَس[٨٠٢] لطاعتك. وطب نفساً بكل ما أردتُ، وأجهد نفسك فيما حددتُ لك فى هذا الباب، وليعظم حقك فيه. وإنما يبقى من المال ما أنفق فى سبيل الله وفى سبيل حقه. واعرف للشاكرين حقهم وأثبهم عليه. وإياك أن تنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة فتتهاون بما يحق عليك، فإن التهاون يورث التفريط، والتفريط يورث البوار. وليكن عملك لله عز وجل وفيه، وارج الثواب منه، فإن الله سبحانه قد أسبغ عليك فضله. واعتصم بالشكر، وعليه فاعتمد، يزدك الله خيراً وإحساناً؛ فإن الله عز وجل يثيب بقدر شكر الشاكرين وإحسان المحسنين».

«ولاتُحَقِّرَنَّ ذنباً، ولا تمالئن حاسداً، ولا ترحمن فاجراً، ولا تَصلَنَّ كفوراً ولا تُدَاهِنَنَّ عدوا، ولا تصدقن نماماً، ولا تأمنن غدّاراً، ولا توالين فاسقاً، ولا تتبعن غاوياً، ولا تحمدن مرائياً، ولا تحقِّرَنَّ إنساناً، ولا تردَنَّ سائلا فقيرا. ولا تُحَسِّنَنَّ باطلاً، ولا تلاحظن مضحكا، ولا تخلفن وعداً، ولاتزهون فخراً، ولا تظهرن غضباً، ولا تباينن رجاء، ولا تمشين مرحاً، ولا تُزَكِّين سفيها، ولا تفرطن فى طلب الآخرة، ولا ترفعن للنمام عيناً، ولا تغمضن عن ظالم رهبة منه أو محاباة، ولا تطلبن ثواب الآخرة فى الدنيا».

«وأكثر مشاورة الفقهاء، واستعمل نفسك بالحلم، وخذ عن أهل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة. ولا تدخلن فى مشورتك أهل الرِّفْه[٥٠٧] والبخل ولا تسمعن لهم قولا، فإن ضررهم أكثر من نفعهم».

«وليس شىء أسرع فساداً لما استقبلت فيه أمر رعيتك من الشح. واعلم أنك إذا كنت حريصًا كنت كثير الأخذ قليل العطية، وإذا كنت كذلك لم يستقم أمرك إلا قليلا، فإن رعيتك تعقد على محبتك بالكف عن أموالهم وترك الجَوْرِ عليهم. ووَالِ من صافاك من أوليائك بالإفضال عليهم وحسن العطية لهم واجتنب الشح، واعلم أنه أول ما عصى الإنسان به ربه، وأن العاصى بمنزلة الخزى، وهو قول الله عز وجل: ﴿ وَمَن يوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٩٨٨) ﴾ . فسهل طريق الجود بالحق، واجعل للمسلمين كلهم فى فيئك حظًا ونصيبا، وأيقن أن الجود أفضل أعمال العباد، فأَعِدَّهُ لنفسك خلقًا وارض به عملا ومذهبًا. وتفقد الجند فى دواوينهم ومكاتبهم، وأَدِرَّ عليهم أرزاقهم، ووسع عليهم فى معايشهم، يذهب الله عزوجل بذلك فاقتهم، فيقوى لك أمرهم، وتزيد قلوبهم فى طاعتك وأمرك خلوصًا وانشراحًا. وحسب ذى السلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته ذا رحمة فى عدله وعطيته وإنصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته. فزايل(٩٨٩) مكروه أحد البابين باستشعار فضل الباب الآخر، ولزوم العمل به، تلق إن شاء الله تعالى به نجاحًا وصلاحًا وفلاحًا».

«واعلم أن القضاء من الله تعالى بالمكان الذى ليس فوقه شىء من الأمور لأنه ميزان الله الذى تعدل عليه أحوال الناس فى الأرض. وبإقامة العدل فى القضاء والعمل تصلح أحوال الرعية وتُؤْمَن السبل، ويَنْتَصِفُ المظلوم، وتأخذ الناس حقوقهم، وتحسن المعيشة ويُؤدى حق الطاعة، ويرزق الله العافية والسلامة. ويقيم الدينَ، ويُجْرِى السُّنَنَ والشرائع فى مجاريها. واشتد فى أمر الله عز وجل. وتورع عن النَّطَف(٩٩٠). وامض لإقامة الحدود. وأقلل العجلة، وابعد

---

(٩٨٨) آخر آية ١٦ من سورة التغابن (وهى سورة ٦٤): ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْراً لأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وهى كذلك آخر الآية المشار إليها فى تعليق ٩٦٤.

(٩٨٩) أمر من زايل بمعنى باعد (انظر تعليق ٩٧٨) وفى بعض النسخ «فذلل»: وكلتا الكلمتين يتسق معناها مع العبارة.

(٩٩٠) «نَطِف كفرِح وعُنى نَطَفاً ونَطَافة ونُطوفة تلطخ بعيب، واتهم بريبة، وفسد» (القاموس)؛ أى ابتعد عن كل مواطن الريب والشبهات.

عن الضجر والقلق، واقنع بالقسم، وانتفع بتجربتك، وانتبه فى صحتك، واسددُ[٩٩١] فى منطقك، وأنْصف الخصم، وقف عند الشبهة، وأبْلِغ فى الحجة، ولا يأخذك فى أحد من رعيتك محاباة ولا مجاملة ولا لومة لائم، وتثبت وتأن وراقب وانظر وتفكر وتدبر واعتبر، وتواضع لربك، وارفق بجميع الرعية، وسلط الحق على نفسك، ولا تسرعن إلى سفك دم فإن الدماء من الله عز وجل بمكان عظيم، (فإياك)[٩٩٢] انتهاكاً لها بغير حقها».

«وانظر هذا الخراج الذى استقامت عليه الرعية، وجعله الله للإسلام عزّاً ورفعة، ولأهله توسعة ومَنَعَة[٢٨١]؛ ولعدوه كبتًا وغيظًا، ولأهل الكفر من معاديهم ذلا وصغارا، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم، ولا تدفعن شيئا منه عن شريف لشرفه[٩٩٣]. ولا عن غنى لغناه، ولا عن كاتب لك، ولا عن أحد من خاصتك ولا حاشيتك، ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له. ولا تكلِّف أمرًا فيه شطط. واحمل الناس كلهم على أمر الحق، فإن ذلك أجمع لألفتهم وألزم لرضاء العامة».

«واعلم أنك جُعِلْتَ بولايتك خازنًا وحافظًا وراعيًا. وإنما سمى أهل عملك رعيتك لأنك راعيهم وقيِّمهم، فخذ منهم ما أعطوك من عفوهم[٩٩٤] ونفذه فى قِوام أمرهم وصلاحِهم وتقويم أوَدهم. واستعمل عليهم أولى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعلم والعدل بالسياسة والعفاف. ووسع عليهم فى الرزق؛ فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأسْند إليك، فلا يشغلك عنه شاغل ولا يصرفك عنه صارف. فإنك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك، وحسن الأحْدوثة فى عملك، واستجررت به المحبة من رعيتك، وأعنت على الصلاح، فَدَرَّتْ الخيراتُ ببلدك، وفشت العمارة بناحيتك، وظهر الخصب فى كُورِكَ[٩٩٥]، وكثر خراجك وتوفرت أموالك، وقَوِيْتَ بذلك على ارتياض جندك،

---

(٩٩١) فعل أمر من سدَّ يسُدُّ أى لازَمَ السداد وصار سديداً. وفى نسخة: و«سَدِّد».

(٩٩٢) الكلمة الموضوعة بين قوسين ساقطة من جميع النسخ. ولابد من إثباتها أو إثبات كلمة بمعناها حتى تستقيم العبارة.

(٩٩٣) أى لا تُعْف شريفًا من شىء من هذا الخراج محاباة له ومراعاة لشرفه ومكانته.

(٩٩٤) عَفْوُ المال ما يفضل عن النفقة. ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ (أى يتصدقون به) ﴿قل العفو﴾ (فقرة من آية ٢١٩ من سورة البقرة وهى السورة الثانية). قال البيضاوى فى تفسير هذه الكلمة: «هو أن ينفق ما تيسر له بذله ولا يبلغ منه الجهد».

(٩٩٥) «الكُورة المدينة والصُّقْع وجمعه كُوَر» (القاموس).

وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم من نفسك، وكنت محمود السياسة مرضى العدل فى ذلك عند عدوك، وكنت فى أمورك كلها ذا عدل وآلة وقوة وعُدَّة. فنافس فيها ولا تقدم عليها شيئاً تُحمَدْ عاقبة أمرك إن شاء الله تعالى».

«واجعل فى كل كورة[٩٩٥] من عملك أمينًا يخبرك خبر عمالك ويكتب إليك سيرهم وأعمالهم. حتى كأنك مع كل عامل فى عمله معاينًا لأموره كلها وإذا أردت أن تأمرهم بأمر فانظر فى عواقب ما أردت من ذلك، فإن رأيت السلامة فيه والعافية ورجوت فيه حسن الدفاع والصنع فأمْضه، وإلا فتوقف عنه، وراجع أهل البصر والعلم به، ثم خذ فيه عدته، فإنه ربما نظر الرجل فى أمره وقد أتاه على ما يهوى، فأغواه ذلك وأعجبه؛ فإن لم ينظر فى عواقبه أهلكه، ونقض عليه أمره. فاستعمل الحزم فى كل ما أردت وباشره بعد عون الله عز وجل بالقوة. وأكثر من استخارة ربك فى جميع أمورك».

و«افرُغ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك، وأكثر مباشرته بنفسك، فإن لغد أموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذى أخرت. واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه. فإذا أخرت عمله اجتمع عليك عمل يومين فيشغلك ذلك حتى تمرض منه. وإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت بدنك ونفسك، وجمعت أمر سلطانك».

«وانظر أحرار الناس وذوى الفضل منهم ممن بلوت صفاء طويَّتهم، وشهدت مودتهم لك، ومظاهرتَهُم بالنصح والمحافظة على أمرك، فاستخلصهم وأحسن إليهم. وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلَتْ عليهم الحاجةُ واحتملْ مئونتهم، وأصلح حالهم، حتى لا يجدوا لخلَّتهم[٢٦١] منافراً(٩٩٦). وأفرد نفسك بالنظر فى أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على رفع مظلمته إليك، والمُحْتَقَر(٩٩٧) الذى لا علم له بطلب حقه، فسل عنه أحفى(٩٩٨) مسألة،

---

(٩٩٦) من معانى المنافرة المفاخرة (من القاموس). وهذا المعنى هو المقصود فى هذه العبارة. أى حتى لا يجدوا من يتعاظم عليهم بسبب فقرهم.

(٩٩٧) عطف على الفقراء، أى: وأفرد نفسك كذلك بالنظر فى أمر المحتَقَر.. إلخ.

(٩٩٨) حَفِى به كرضى حَفَاوَة واحتفى بالغ فى إكرامه والعناية بأمره وأكثر السؤال عن حاله فهو حَفِىّ، وأحفى
السؤال ردّده فهو حَفٍ أى مُلِحٍّ فى سؤاله ومستقص فيه. ومن الأول قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه
السلام مخاطبا أباه: ﴿سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ (آية ٤٧ من سورة مريم، وهى
سورة١٩)؛ ومن الثانى قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى .. يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ
حَفِىٌّ عَنْهَا..﴾ (آية ١٨٧ من سورة الأعراف، وهى سورة ٩). (من القاموس ومختار الصحاح).
وكلمة «أحفى» المستخدمة فى العبارة التى نعلق عليها هى أفعل تفضيل من هذا الفعل، وكلا المعنيين
السابقين محتمل فيها.
هذا، وفى معظم النسخ «أخفى» بالخاء. وهو تحريف كما لا يخفى.

وكِلْ[٩٩٩] بأمثاله أهلَ الصلاح فى رعيتك، ومُرْهم برفع حوائجهم وخلالهم[١٠٠٠] إليك لتنظر فيما يصلح الله به أمرهم. وتعاهد ذوى البأساء ويتماهم[١٠٠١] وأراملهم، واجعل لهم أرزاقًا من بيت المال اقتداء بأمير المؤمنين أعزه الله تعالى فى العطف عليهم والصلة لهم، ليصلح الله بذلك عيشهم، ويرزقك به بركة وزيادة. وأجْرِ للأضرَّاء[١٠٠٢] من بيت المال، وقدم حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره فى الجراية على غيرهم. وانصب لمرضى المسلمين دورًا تؤويهم وقُوَّامًا يرفقون بهم، وأطباء يعالجون أسقامهم، وأسعفهم بشهواتهم ما لم يؤدِّ ذلك إلى سَرَفٍ فى بيت المال».

«واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وأفضل أمانيِّهم لم يرضهم ذلك ولم تطب أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى ولاتهم، طمعًا فى نيل الزيادة وفضل الرفق بهم[١٠٠٣]. وربما تبرَّم المتصفح لأمور الناس لكثرة ما يرد عليه، ويشغل ذكره[١٠٠٣ب] وفكره منها ما يناله به من مئونة ومشقة. وليس من يرغب فى العدل ويعرف محاسن أموره فى العاجل وفضل ثواب الآجل كالذى يستقل ما يقرِّبه من الله تعالى، وتُلتمسُ به رحمته[١٠٠٤]».

---

(٩٩٩) فعل أمر من وكل به فلانا ووكل إليه الأمر سلمه وتركه وفوضه إليه واعتمد عليه فى شأنه (من القاموس والمصباح).

(١٠٠٠) الخَلَّة الحاجة والفقر والخصاصة (انظر تعليق ٢٦١)؛ وهى كذلك الخَصْلة؛ وجمعها فى المعنيين خِلال (من القاموس والمصباح) والمعنى الأول هو المقصود فى هذه العبارة. وفى بعض النسخ «وحالاتهم» بدلا من «خلالهم».

هذا، وأما «خِلال» فى قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ (آية ٣١ من سورة إبراهيم، وهى سورة ١٤)، فهى مصدر خالَّة مُخَالَّة وخلالا أى اتخذ كل منهما الآخر خليلا وصديقاً، من الخُلَّة بضم الخاء وهى الصداقة (انظر تعليقى ٩٠ و٢٦١).

(١٠٠١) يجمع اليتيم على أيتام ويتامى ويَتَمة وميتمة (من القاموس). وفى بعض النسخ ويتاماهم.

(١٠٠٢) «الأضرَّاء جمع ضرير وهو الذاهب البصر» (القاموس). وفى بعض النسخ «الأمراء»، وهو تحريف.

(١٠٠٣) هكذا فى «ل» مع تحريف كلمة «بهم» إلى «منهم». ووردت هذه الجملة فى «م» و«ن» هكذا: «واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وفضل أماناتهم لم تبرمهم وربما تبرم المتصفح لأمور الناس... إلخ»؛ ووردت فى «التيمورية» هكذا: «واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وفضل أمانيِّهم لم يرضهم ذلك».

(١٠٠٣ب) فى «التيمورية»: «ويشغل ذهنه».

(١٠٠٤) وردت هذه الجملة محرفة فى جميع النسخ. ففى «ل»: «كالذى يستقبل ما يقربه من الله تعالى ويلتمس رحمته». وفى «م»: «كالذى يستفزء ما يقربه إلى الله تعالى وتلتمس رحمته». وفى «ن»: «كالذى يستقرى ما يقربه إلى الله تعالى وتلتمس رحمته».

«وأكْثِر الإذن للناس عليك وأرهِم وجهك، وسَكِّنْ لهم حواسك[١٠٠٥]، واخفض لهم جناحك، وأظهر لهم بِشْرَك، ولِنْ لهم فى المسألة والنطق واعطف عليهم بجودك وفضلك. وإذا أعطيت فأعط بسماحة وطيب نفس والتماس للصنيعة والأجر من غير تكدير ولا امتنان؛ فإن العطية على ذلك تجارة مربحة إن شاء الله تعالى».

«واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى من قبلك من أهل السلطان والرياسة فى القرون الخالية والأمم البائدة»،

«ثم اعتصم فى أحوالك كلها بالله سبحانه وتعالى، والوقوف عند محبته والعمل بشريعته وسنته، وبإقامة دينه وكتابه، واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا إلى سخط الله عزوجل».

«واعرف ما يجمع عمالك من الأموال، وما ينفقون منها. ولا تجمع حراما ولا تنفق إسرافا».

«وأكْثِرْ مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم. وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها، وإيثار مكارم الأخلاق ومعاليها وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من إذا رأى عيبا لم تمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك فى ستر، وإعلامك بما فيه من النقص؛ فإن أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك».

«وانظر عمالك الذين بحضرتك وكُتَّابَك فوقِّت لكل رجل منهم فى كل يوم وقتًا يدخل فيه بكتبه ومؤامرته وما عنده من حوائج عمالك وأمور الدولة ورعيتك. ثم فرِّغْ لما يورد عليك من ذلك سمعَك وبصرك وفهمك وعقلك، وكرر النظر فيه والتدبر له، فما كان موافقًا للحق والحزم فأمْضه، واستخر الله عزوجل فيه، وما كان مخالفًا لذلك فاصرفه إلى المسألة عنه، والتثَبت منه».

«ولا تمنن على رعيتك ولا غيرهم بمعروف تؤتيه إليهم، ولا تقبل من أحد إلا الوفاء والاستقامة والعون فى أمور المسلمين، ولا تضعن المعروف إلا على ذلك».

«وتفهم كتابى إليك وأمعن النظر فيه والعمل به، واستعن بالله على جميع أمورك واستخره؛ فإن الله عزوجل مع الصلاح وأهله. وليكن أعظم سيرتك وأفعل رغبتك ما كان لله عزوجل رضاً، ولدينه نظامًا، ولأهله عزّا وتمكينًا، وللملة

(١٠٠٥) فى بعض النسخ: وسَكِّن حُرَّاسك» أى اجعلهم ساكنين حتى يدخل عليك من يريد لقاءك.

والذمة عدلاً وصلاحًا. وأنا أسأل الله عزوجل أن يحسن عونك وتوفيقك ورشدك وكَلاءتك والسلام».

* * *

وحدث الإخباريون أن هذا الكتاب لما ظهر وشاع أمره أعْجِب به الناس، واتصل بالمأمون فلما قرئ عليه، قال: ما أبقى أبو الطيب، يعنى طاهرًا، شيئًا من أمور الدنيا والدين والتدبير والرأى والسياسة وصلاح الملك والرعية وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد[٢٦] أحكمه وأوصى به. ثم أمر المأمون فكتب به إلى جميع العمال فى النواحى ليقتدوابه، ويعملوا بما فيه. هذا أحسن ما وقفت عليه فى هذه السياسة والله أعلم.

٥٣ـ فى أمر الفاطمى وما يذهب إليه الناس فى شأنه وكشف الغطاء عن ذلك ٥٦٥ب[(١٠٠٦)]

اعلم أن المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على ممر الأعصار، أنه لابد فى آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين، ويظهر العدل، ويتبعه المسلمون، يستولى على الممالك الإسلامية، ويسمى بالمهدى. ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط[(١٠٠٧)] الساعة الثابتة فى الصحيح على أثره؛ وأن

(١٠٠٦) كان الوضع الطبيعى لهذا الفصل أن يأتى بعد الفصل السابع والعشرين وهو الفصل الخاص بمذاهب الشيعة فى حكم الإمامة (انظر صفحات ٥٧٧-٥٨٦). فقد تكلم فى هذا الفصل على مذاهب الشيعة، وعرض لآراء الإمامية الاثنى عشرية فى الفاطمى المنتظر أو المهدى المنتظر.

ويلاحظ أنه أحال فى نهاية ذلك الفصل من أراد استيعاب مذاهب الشيعة وآرائهم على كتب الملل والنحل لابن حزم والشهرستانى وغيرهما. (انظر ص٥٨٦). ـ ومن هذا يتبين أنه رأى فى المبدأ أن يقتصر فى هذا الموضوع على ما ذكره فى الفصل السابع والعشرين محيلا من يرغب فى الاستزادة على كتب الملل والنحل؛ ثم عنَّ له بعد ذلك أن يعرض لتفصيل ناحية من هذا الموضوع، وهى الناحية المتعلقة بالمهدى المنتظر، فكتب فيها هذا الفصل، ووضعه فى نهاية الباب الثالث أو قبيل نهايته بدلا من أن يضعه فى موضعه بعد الفصل السابع والعشرين وقد فعل مثل ذلك فى مواطن أخرى من المقدمة. (انظر أمثلة لذلك فى ص٣٣٠ وتعليق ١٤٨ وفى ص٣٥٢ وتعليق ٢٠١).

(١٠٠٧) «الشَّرَط بفتحتين: العلامة والجمع أشراط مثل سبب وأسباب، ومنه أشراط الساعة» (المصباح).

عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجال، أو ينزل معه فيساعده على قتله، ويأتم بالمهدى فى صلاته. ويحتجون فى هذا الشأن بأحاديث خَرَّجها الأئمة، وتكلم فيها المنكرون لذلك، وربما عارضوها ببعض الأخبار. وللمتصوفة المتأخرين فى أمر هذا الفاطمى طريقة أخرى، ونوع من الاستدلال؛ وربما يعتمدون فى ذلك على الكشف الذى هو أصل طرائقهم.

ونحن الآن نذكر هنا الأحاديث الواردة فى هذا الشأن وما للمنكرين فيها من المطاعن وما لهم فى إنكارهم من المستند، ثم نتبعه بذكر كلام المتصوفة ورأيهم، ليتبين لك الصحيح من ذلك إن شاء الله تعالى. فنقول:

إن جماعة من الأئمة خرَّجوا أحاديث المهدى، منهم الترمذى وأبو داود والبزَّار وابن ماجه والحاكم والطبرانى وأبو يَعْلَى الموصلى، وأسندوها إلى جماعة من الصحابة مثل علىٍّ وابن عباس وابن عمر وطلحة وابن مسعود وأبى هريرة وأنس وأبى سعيد الخدرى وأم حبيبة وأم سلمة وثوبان وقُرَّة ابن إيَاس وعلى الهلالى وعبدالله بن الحارث بن جَزْء، بأسانيد ربما يعرض لها المنكرون كما نذكره. إلا أن المعروف عند أهل الحديث أن الجَرْح[٦٦٦] مقدم على التعديل. فإذا وجدنا طعنًا فى بعض رجال الأسانيد بغفلة أو بسوء حفظ أو ضعف أو سوء رأى تطرق ذلك إلى صحة الحديث وأوهن منها. ولا تقولن: مثلُ ذلك ربما يتطرق إلى رجال الصحيحين[١٠٠٨]؛ فإن الإجماع قد اتصل فى الأمة على تَلَقِّيهما بالقبول والعمل بما فيهما؛ وفى الإجماع أعظم حماية وأحسن دفع. وليس غير الصحيحين بمثابتهما فى ذلك؛ فقد نجد مجالا للكلام فى أسانيدها بما نقل عن أئمة الحديث فى ذلك.

ولقد توغل أبو بكر بن أبى خيثمة، على ما نقل السهيلى عنه، فى جمعه للأحاديث الواردة فى المهدى فقال: ومن أغربها إسنادًا ما ذكره أبو بكر الإسكَاف، فى فوائد الأخبار، مسندًا إلى مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر عن جابر، قال قال رسول الله ﷺ: «من كذَّب بالمهدى فقد كفر ومن كذَّب بالدجال فقد كفر»[١٠٠٩] وقال فى طلوع الشمس من مغربها مثل

(١٠٠٨) هما صحيحا البخارى ومسلم.

(١٠٠٩) فى «ل» و«م»: «ومن كذب بالدجال فقد كذب». والغالب أنها تحريف.

ذلك،(١٠١٠) فيما أحسب. وحسبك هذا غلوا. والله أعلم بصحة طريقه إلى مالك ابن أنس. على أن أبا بكر الإسكافَ عندهم متَّهم وَضَّاعٌ(١٠١١).

وأما الترمذي ٢٠٠ فخرَّج هو وأبو داود بسنديهما إلى ابن عباس من طريق عاصم بن أبى النَّجُود أحد القراء السبعة(١٠١٢) إلى زِرِّ بن حُبَيْش عن عبدالله ابن مسعود عن النبى ﷺ: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطوَّل الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلا منى أو من أهل بيتى يواطئ اسمه اسمى واسم أبيه اسم أبى».. هذا لفظ أبى داود وسكت عليه. وقال فى رسالته المشهورة: «إن ما سكت عليه فى كتابه فهو صالح» ولفظ الترمذى: «لا تذهب الدنيا حتى يملك العربَ رجل من أهل بيتى يواطئ اسمه اسمى». وفى لفظ آخر: «حتى يلى رجل من أهل بيتى» وكلاهما حديث حسن صحيح. ورواه أيضًا من طريقٍ موقوفًا على أبى هريرة، وقال الحاكم: رواه الثوري وشعبة وزائدة وغيرهم من أئمة المسلمين عن عاصم. قال: وطرق عاصم عن زرٍ عن عبدالله(١٠١٣) كلها صحيحة على ما أصَّلْتُهُ من الاحتجاج بأخبار عاصم، إذ هو إمام من أئمة المسلمين. انتهى.

إلا أن عاصمًا قال فيه أحمد بن حنبل: كان رجلا صالحًا قارئًا للقرآن خَيِّرًا ثقةً، والأعمش أحفظ منه. وكان شعبة يختار الأعمش عليه فى تثبيت الحديث. وقال العَجَلى: كان يُخْتَلَفُ عليه فى زِرٍّ وأبى وائل، يشير بذلك إلى ضعف روايته عنهما. وقال محمد بن سعد: كان ثقة، إلا أنه كثير الخطأ فى حديثه. وقال يعقوب بن سفيان: فى حديثه اضطراب. وقال عبدالرحمن بن أبى حاتم: قلت لأبى إن أبا زرعة يقول: عاصمٌ ثقةٌ؛ فقال: ليس محله هذا. وقد تكلم فيه ابن علية فقال: كل من اسمه عاصم سيئ الحفظ. وقال أبو حاتم. محله عندى محل

(١٠١٠) أى وينسب إلى الرسول عليه السلام أنه قال بكفر من ينكر أن الشمس ستطلع من المغرب وأن ذلك سيكون من أشراط الساعة.

(١٠١١) أى يكثر من وضع الأحاديث واختلاقها. وكلمة «موضوع» فى وصف الحديث بمعنى مختلق هى من مصطلحات علماء الحديث.

(١٠١٢) أى صاحب قراءة من القراءات السبع المتواترة للقرآن. وهو عاصم بن أبى النَّجود الكوفى التابعى. وقد أخذ قراءته عن أبى عبدالرحمن عبدالله بن حبيب السُلمى عن عثمان بن عفان وعلى ابن أبى طالب وزيد بن ثابت وأُبيّ بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم. وقد رويت قراءة عاصم بروايتين: إحداهما رواية حفص بن سليمان بن المغيرة الأسدى الكوفى، وهى القراءة المشهورة فى مصر؛ والأخرى رواية أبى بكر شعبة بن عياش الكوفي.

(١٠١٣) يقصد طرق عاصم بن أبى النَّجوُد عن زِرّ بن حُبَيْش عن عبدالله بن مسعود.

الصدق صالح الحديث، ولم يكن بذلك الحافظ. واختلف فيه قول النسائى. وقال ابن حراش: فى حديثه نكرة وقال أبو جعفر العقيلى: لم يكن فيه إلا سوء الحفظ. وقال الدَّارقُطْنى: فى حفظه شىء وقال يحيى القطان: ما وجدت رجلا اسمه عاصم إلا وجدته ردىء الحفظ. وقال أيضاً سمعت شعبة يقول: حدثنا عاصم ابن أبى النَّجود وفى الناس ما فيها[١٠١٤]. وقال الذهبى: ثَبَتٌ[١٠] فى القراءة، وهو فى الحديث دون الثَّبَت[١٠]، صَدُوق فَهِم[١٠١٥]. وهو حسن الحديث، وإن احتج أحد بأن الشيخين[٨٣٦] أخرجا له، فنقول أخرجا له مقروناً بغيره لا أصلا. والله أعلم.

وخرَّج أبو داود فى الباب عن على رضى الله عنه، من رواية فطر بن خليفة عن القاسم بن أبى بُرة[١٠١٥ب] عن أبى الطفيل عن على عن النبى ﷺ قال: «لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلا من أهل بيتى يملؤها عدلا، كما ملئت جَوْراً».

وفطر بن خليفة[١٠١٥ب] وإن وثَّقه أحمد ويحيى بن القطان وابن معين والنسائى وغيرهم، إلا أن العَجَلِىّ قال: حسن الحديث وفيه تشيع قليل. وقال ابن معين مَرَّةً: ثقة شيعى. وقال أحمد بن عبدالله بن يونس: كنا نمرُّ على فطر وهو مطروح لا نكتب عنه. وقال مرة كنت أمر به وأدعه مثل الكلب وقال الدَّارقُطْنى: لا يحتج به. وقال أبو بكر بن عياش[١٠١٢]: ما تركت الرواية عنه إلا لسوء مذهبه. وقال الجرجانى: زائغ غير ثقة. انتهى.

وخرَّج أبو داود أيضًا بسنده إلى على رضى الله عنه عن هارون[١٠١٥ج] بن المغيرة عن عمر بن أبى قيس، عن شعيب بن أبى خالد، عن أبى إسحق السَّبِيعى[١٠١٥د] قال: قال على ونظر إلى ابنه الحسن: «إن ابنى هذا سيدكما

(١٠١٤) العبارة غير واضحة المعنى، ويظهر أن هنا تحريفًا أو عبارة ساقطة؛ أو لعل كلمة «الناس» محرفة عن كلمة «النفس»: أى وفى النفس من ناحيته وناحية الثقة بكلامه ما فيها.

(١٠١٥) هو فَهِمٌ «ككتف سريع الفهم» (القاموس)

(١٠١٥ب) فى جميع النسخ «قطن بن خليفة». ولا يعرف من بين رجال الحديث من يسمى قَطَن بن خليفة. وإنما ثمة محدث اسمه «قطن بن قَبيصة» ومحدث آخر اسمه «فِطْرُ بن خليفة». وبالرجوع إلى أبى داود تبين أن صاحب هذه الرواية هو «فِطْر بن خليفة». - وفى جميع النسخ: «عن القاسم ابن أبى مرة» بالميم وهو تحريف «برة» بالباء.

(١٠١٥ج) فى جميع النسخ: «مروان»، وهو خطأ أو تحريف، وصوابه «هارون بن المغيرة» (انظر سنن أبى داود).

(١٠١٥د) فى جميع النسخ: «النسفى»، وهو خطأ أو تحريف، وصوابه «أبى إسحق السَّبِيعى» (انظر سنن أبى داود).

سماه رسول الله ﷺ سيخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم يشبهه فى الخُلُق ولا يشبهه فى الخَلْق يملأ الأرض عدلا». وقال هارون: حدثنا عمر بن أبى قيس عن مُطَرِّف بن طَريف عن أبى الحسن عن هلال بن عمر، سمعت عليًا يقول: قال النبى ﷺ: «يخرج رجل من وراء النهر يقال له: الحارث على مقدمته رجل يقال: له منصور يُوطِّئ أو يمكّنُ لآل محمد كما مكنت قريش لرسول الله ﷺ، وجب على كل مؤمن نصره، أو قال إجابته».

سكت أبو داود عليه. وقال فى موضع آخر فى هارون: هو من وُلْد الشيعة. وقال السليمانى: فيه نظر. وقال أبو داود: عمر بن أبى قيس لا بأس به، فى حديثه خطأ. وقال الذهبى: صَدْق[١٠١٦] له أوهام. وأما أبو إسحق السبيعى[١٠١٧] وإن خرج عنه فى الصحيحين[١٠٠٨] فقد ثبت أنه اختلط آخِرَ عمره، وروايته عن على منقطعة[١٠١٧ب]. وكذلك رواية أبى داود عن هارون بن المغيرة. وأما السند الثانى فأبو الحسن فيه وهلال بن عمر مجهولان؛ ولم يعرف أبو الحسن إلا من رواية مُطَرِّف بن طَريف عنه. انتهى.

وخرَّج أبو داود أيضًا عن أم سَلَمةَ وكذا ابن ماجه والحاكم فى المستدرك، من طريق على بن نفيل، عن سعيد بن المسيِّب، عن أم سلمة قالت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المهدى من ولْد فاطمة». ولفظ الحاكم: سمعت رسول الله ﷺ يذكر المهدى فقال: «نعم هو حق وهو من بنى فاطمة».

ولم يتكلم عليه بتصحيح ولا غيره. وقد ضعَّفَه أبو جعفر العقيلى وقال: لا يتابع على بن نفيل عليه، ولا يعرف إلا به.

(١٠١٦) الصدْق الصادق والكامل من كل شىء (من القاموس).

(١٠١٧) فى جميع النسخ: «الشيعى» وهو خطأ أو تحريف، وصوابه «أبو إسحق السبيعى» وهو المحدث نفسه الذى تقدم ذكره محرفاً إلى «النسفى» وصححناه فى تعليق ١٠١٥د.

(١٠١٧ب) أى لم تكون هناك صلة بين أبى إسحق السبيعى وبين على. ولم يذكر فى هذه الرواية اسم من روى عن على مباشرة وأخذ عنه أبو إسحق السبيعى - هذا، وقد ذكر الخطابى فى معالم السنن أن هذا الحديث منقطع. ولكنه يَرْوِى عن أبى إسحق السبيعى أنه «رأى عليًا رؤيةً». وهذا لا ينفى أن يكون الحديث منقطعًا، لأنه من الجائز أن يكون قد رآه بدون أن يكون قد سمع منه هذا الحديث.

وخَرَّج أبو داود أيضًا عن أم سلمة من رواية صالح بن الخليل عن صاحب له عن أم سلمة قال: «يكون اختلافٌ عند موت خليفة، فيخرج رجل من أهل المدينة هاربًا إلى مكة، فيأتيه ناس من أهل مكة فيُخْرِجُونَه وهو كاره، فيبايعونه بين الركن والمقام، فيُبْعَثُ إليه بعثٌ من الشام، فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة، فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبْدال(١٠١٨) أهل الشام، وعصائب أهل العراق فيبايعونه. ثم ينشأ رجل من قريش أخواله كلب، فَيبْعَثُ إليهم بعثًا فيظهرون عليهم، وذلك بعث كلب. والخيبة لمن لم يشهد غنيمة كلب، فيقسم المال، ويعمل فى الناس بسنة نبيهم ﷺ، ويُلْقِى الإسلام بجرانه(١٠١٩) على الأرض، فيلبث سبع سنين». وقال بعضهم: «تسع سنين». ثم رواه أبو داود من رواية أبى خليل عن عبدالله بن الحارث عن أم سلمة، فتبين بذلك المبهم فى الإسناد الأول. ورجاله رجال الصحيحين١٠٠٨ لا مطعن فيهم ولا مغمز.

وقد يقال: إنه من رواية قَتَادة، عن أبى الخليل، وقتادة مُدَلِّسٌ، وقد عنعنه، والمدلس لا يقبل من حديثه إلا ما صرح فيه بالسماع. مع أن الحديث ليس فيه تصريح بذكر المهدى. نعم ذكره أبو داود فى أبوابه.

وخرَّج أبو داود أيضًا وتابعه الحاكم عن أبى سعيد الخدرى من طريق عمران القطان عن قَتادة عن أبى بصرة عن أبى سعيد الخدرى قال، قال رسول الله ﷺ: «المهدى منى أجْلَى(١٠٢٠) الجبهة أقنى(١٠٢١) الأنف يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما ملئت ظلمًا وجَوْرًا، يملك سبع سنين». هذا لفظ أبى داود وسكت عليه. ولفظ الحاكم: «المهدى منا أهلَ البيت؛ أَشَمُّ(١٠٢٢) الأنف أقنى١٠٢١ أجلى١٠٢٠

(١٠١٨) «الأبدال قوم بهم يقيم الله عزّوجل الأرض، وهم سبعون: أربعون بالشام؛ وثلاثون بغيرها. لا يموت أحدهم إلا قام مكانه آخر من الناس» (القاموس).

(١٠١٩) «الجران مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحْره. فإذا برك البعير ومد عنقه على الأرض قيل ألقى جرانه» (المصباح). وتستعمل عبارة «ألقى جرانه» كناية عن الاستقرار والتمكن.

(١٠٢٠) الجَلا مقصورة: انحسار مقدم الشعر أو نصف الرأس أو هو دون الصلع... والنعت أجلى وجلواء، وجبهة جلواء واسعة، وهو أجلى الجبهة واسعها (من القاموس).

(١٠٢١) «قنا الأنف ارتفاع أعلاه واحديداب وسطه وسبوغ طرفه، أو نتُوّ وسط القصبة وضيق المنخَرين، وهو أقنى وهى قَنواء» (القاموس).

(١٠٢٢) «الشمم ارتفاع الأنف، وهو مصدر من باب تعب. فالرجل أشم والمرأة شماء والجمع شُمّ» (المصباح). ويستخدم الشمم مجازا عن العظمة والترفع عن الدنايا.

يملأ الأرض قسطًا وعدلاً، كما ملئت جَوْراً وظلمًا، يعيش هكذا» وبسط يساره وإصبعين من يمينه السبابة والإبهام وعقد ثلاثة. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يُخَرِّجاه أهـ[٨٢٦، ١٠٠٨].

وعمران القطان مختلف في الاحتجاج به، وإنما أخرج له البخاري استشهاداً لا أصلا. وكان يحيى القطان لا يحدث عنه. وقال يحيى بن معين: ليس بالقوى؛ وقال مرة: ليس بشىء. وقال أحمد بن حنبل: أرجو أن يكون صالح الحديث. وقال يزيد بن زُرَيْعٍ: كان حَرُوريّاً[١٠٢٣] وكان يرى السيف على أهل القبلة[١٠٢٤]. وقال النسائي: ضعيف. وقال أبو عبيد الآجُرِّي: سألت أباداود عنه فقال: من أصحاب الحسن، وما سمعت عنه إلا خيراً. وسمعته مرة أخرى ذكره فقال: ضعيف، أفتى في أيام إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بفتوى شديدة فيها سفك الدماء.

وخرَّج الترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي سعيد الخدري من طريق زيد العمي عن أبي صديق الناجي عن أبي سعيد الخدري قال: خشينا أن يكون بعض شيء حدث، فسألنا نبي الله ﷺ، فقال: «إن في أمتىَ المهدي يخرج، يعيش خمساً أو سبعًا أو تسعاً»، زيد الشاكُّ[١٠٢٥]؛ قال: قلنا: وماذاك؟ قال: «سنين» قال: «فيجيء إليه الرجل فيقول يا مهدي أعطني». قال: «فيحثو له[١٠٢٦] في ثوبه ما استطاع أن يحمله». لفظ الترمذي قال: هذا حديث حسن. وقد روى من غير وجه عن أبي سعيد عن النبي ﷺ. ولفظ ابن ماجه والحاكم: «يكون في أمتي المهدي إن قصر فسبع وإلا فتسع، فَتَنْعم أمتي فيه نعمة لم ينعموا بمثلها قط، تؤتى الأرض أكُلَها ولا يدخر منه شيء. والمال يومئذ كدوس[١٠٢٧]، فيقوم الرجل فيقول: يا مهدي أعطني! فيقول خذ». انتهى.

(١٠٢٣) نسبة إلى حَرُوراَء «وهي قرية بقرب الكوفة تنسب إليها فرقة من الخوارج كان أول اجتماعهم بها، وتعمقوا في الدين حتى مرقوا منه. ومنه قول عائشة: أحرورية أنت؟! معناها أخارجة عن الدين بسبب التعمق في السؤال» (المصباح).

(١٠٢٤) أي كان يرى جواز قتال المسلمين.

(١٠٢٥) أي إن زيداً الذي روى هذا الحديث هو الذي شك في سماعه أحدَ هذه الأرقام، ولم يكن الشاكُّ الرسولَ عليه السلام.

(١٠٢٦) «حثا الرجل التراب يحثوه حثوا.. إذا هاله بيده، وحثوت له أعطيته» (من القاموس والمصباح).

(١٠٢٧) الكُدْس على وزن قفل: ما يجمع من الطعام والدراهم وغيرها، ويقال كُدْس مُكَدَّس والجمع أكداس، مثل قفل وأقفال. والكُداسة ما يُكدس بعضه فوق بعض (من المصباح والقاموس). فكلمة «كَدوس» في الحديث صيغة مبالغة على ما يظهر، أي منكدس بعضه فوق بعض. أو لعلها «كُدُوس» بضم الكاف جمع «كُدْس»؛ وإن كان المسموع في هذا الجمع «أكداس».

وزيد العمى وإن قال فيه الدَّارقُطْنى وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين: إنه صالح، وزاد أحمد: إنه فوق يزيد الرقاشي وفضل بن عيسى، إلا أنه قال فيه أبو حاتم: ضعيف، يُكتب حديثه ولا يُحْتَجُّ به. وقال يحيى بن معين فى رواية أخرى: لا شىء. وقال مَرَّةً: يُكتب حديثه، وهو ضعيف. وقال الجرجانى: متماسك. وقال أبو زرعة: ليس بقوى واهى الحديث ضعيف. وقال أبو حاتم ليس بذاك، وقد حدث عنه شعبة. وقال النسائى: ضعيف. وقال ابن عدى عامة ما يرويه عنهم ضعفاء، على أن شعبة قد روى عنه، ولعل شعبة لم يرو عن أضعف منه.

وقد يقال: إن حديث الترمذى وقع تفسيراً لما رواه مسلم فى صحيحه من حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «ويكون فى آخر أمتى خليفة يحثو[١٠٢٦] المال حثواًلا يَعُدُّه عداً». ومن حديث أبى سعيد قال: «من خلفائكم خليفة يحثو [١٠٢٦] المال حثواً». ومن طريق أخرى عنهما قال: «يكون فى آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده» انتهى. وأحاديث مسلم لم يقع فيها ذكر المهدى ولا دليل يقوم على أنه المراد منها.

ورواه الحاكم أيضًا من طريق عوف الأعرابى عن أبى الصديق الناجى عن أبى سعيد الخدرى قال، قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تُمْلأَ الأرضُ جَوْراً وظلماً وعدوانًا، ثم يخرج من أهل بيتى رجل يملؤها قِسْطاً وعدلا كما ملئت ظلمًا وعدوانًا».

وقال فيه الحاكم: هذا صحيح على شرط الشيخين[٨٢٦]، ولم يخرِّجاهُ.

ورواه الحاكم أيضًا من طريق سليمان بن عبيد عن أبى الصديق الناجى عن أبى سعيد الخدرى، عن رسول الله ﷺ قال: «يخرج فى آخر أمتى المهدى يسقيه الله الغيث، وتخرج الأرض نباتها. ويعطى المال صَحَاحًا(١٠٢٨)، وتكثر الماشية، وتعظم الأمة، يعيش سبعًا أو ثمانيًا» يعنى حِجَجًا. وقال فيه: حديث

(١٠٢٨) الصَّحاح بالفتح زوال المرض والبراءة من كل عيب.. فهو صحيح وصَحَاح» (القاموس). «والصَّحَاح بالفتح لغة فى الصحيح» (المصباح).

صحيح الإسناد ولم يُخَرِّجاه[٨٢٦]. مع أن سليمان بن عبيد لم يخرج له أحد من الستة. ولكن ذكره ابن حِبَّان فى الثقات. ولم يرد أن أحداً تكلم فيه.

ثم رواه الحاكم أيضًا من طريق أسد بن موسى عن حماد بن سلمة عن مطر الوراق وأبى هارون العبدى عن أبى الصديق الناجى عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «تُمْلأُ الأرض جَوْراً وظلماً فيخرج رجل من عِتْرتى[١٠٢٩] فيملك سبعاً أو تسعاً فيملأ الأرض عدلا وقسطاً كما ملئت جَوْراً وظلماً».

وقال الحاكم فيه: هذا حديث صحيح على شرط مسلم. وإنما جعله على شرط مسلم لأنه أخرج عن حماد بن سلمة وعن شيخه مطر الوراق. وأما شيخه الآخر وهو أبو هارون العبدى فلم يُخَرِّج له. وهو ضعيف جدّاً متهم بالكذب، ولا حاجة إلى بسط أقوال الأئمة فى تضعيفه.

وأما الراوى له عن حماد بن سلمة وهو أسد بن موسى ويلقب أسد السنة، وإن قال البخارى: مشهور الحديث، واستشهد به فى صحيحه، واحتج به أبو داود والنسائى، إلا أنه قال مرة أخرى: ثقة ولو لم يُصَنِّف كان خيراً له. وقال فيه محمد بن حزم: مُنْكَرُ الحديث.

ورواه الطبرانى فى معجمه الأوسط من رواية أبى الواصل عبدالحميد بن واصل عن أبى الصديق الناجى عن الحسن بن يزيد السعدى أحد بنى بهدلة عن أبى سعيد الخدرى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج رجل من أمتى يقول بسنتى ينزل الله عزوجل له القَطْرَ من السماء، وتخرج الأرض بركتها، وتُمْلأ الأرض منه قسطاً وعدلا كما ملئت جَوْراً وظلماً، يعمل على هذه الأمة سبع سنين وينزل على بيت المقدس».

وقال الطبرانى فيه: ورواه جماعة عن أبى الصديق، ولم يُدْخِل أحد منهم بينه وبين أبى سعيد أحداً إلا أبا الواصل، فإنه رواه عن الحسن بن يزيد عن أبى سعيد. انتهى.

وهذا الحسن بن يزيد ذكره ابن أبى حاتم، ولم يعرفه بأكثر مما فى هذا الإسناد من روايته عن أبى سعيد، ورواية أبى الصديق عنه. وقال الذهبى فى

(١٠٢٩) «العِتْرَة بالكسر نسل الرجل ورهطه وعشيرته الأدنون ممن مضى وغبر» (القاموس).

الميزان: مجهول. لكن ذكره ابن حَبَّان فى الثقات. وأما أبو الواصل الذى رواه عن أبى الصديق فلم يخرِّج له أحد من الستة. وذكره ابن حِبَّان فى الثقات فى الطبقة الثانية، وقال فيه: يروى عن أنس، وروى عنه شعبة وعتاب ابن بشر.

وخرَّج ابن ماجه فى كتاب السنن عن عبدالله بن مسعود، من طريق يزيد بن أبى زياد، عن إبراهيم عن علقمة، عن عبدالله قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ، إذ أقبل فتية من بنى هاشم، فلما رآهم رسول الله ﷺ، ذرفت عيناه وتغير لونه. قال: فقلت ما نزال نرى فى وجهك شيئا نكرهه. فقال: «إنا أهلَ البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وإن أهل بيتى سيلقون بعدى بلاء وتشريداً وتطريداً، حتى يأتى قوم من قبَل المشرق معهم رايات سود، فيسألون الخير فلا يُعْطَوْنَه، فيقاتلون ويُنْصَرون، فُيعْطَون ما سألوا فلا يقبلونه، حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتى فيملؤها قِسْطا كما ملئوها جَوْرًا. فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حَبْوًا على الثلج». انتهى.

وهذا الحديث يعرف عند المُحدِّثين بحديث الرايات. ويزيد أبى زياد راويه، قال فيه شعبة: كان رفّاعًا؛ يعنى يرفع الأحاديث التى لا تعرف مرفوعة. وقال محمد بن الفضيل: كان من كبار أئمة الشيعة. وقال أحمد ابن حنبل: لم يكن بالحافظ؛ وقال مَرَّةً: حديثه ليس بذلك. وقال يحيى بن معين: ضعيف. وقال العجَلىُّ جائز الحديث، وكان بآخره يلقن وقال أبو زرعة: لَيِّنٌ يُكتب حديثه ولا يُحتجُّ به. وقال أبو حاتم، ليس بالقَوى. وقال الجرجانى: سمعتهم يُضَعِّفون حديثه. وقال أبو داود: لا أعلم أحداً ترك حديثه، وغيره أحب إلى منه وقال ابن عدى: هو من شيعة أهل الكوفة، ومع ضعفه يُكتب حديثه. وروى له مسلم لكن مقرونًا بغيره. وبالجملة فالأكثرون على ضعفه. وقد صرح الأئمة بتضعيف هذا الحديث، الذى رواه عن إبراهيم عن علقمة عن عبدالله وهو حديث الرايات. وقال وكيع بن الجراح فيه: ليس بشىء. وكذلك قال أحمد بن حنبل. وقال أبو قدامة: سمعت أبا أسامة يقول فى حديث يزيد عن إبراهيم فى الرايات: لو حلف عندى

خمسين يميناً قَسَامَةً[١٠٢٩ب] ما صدقته، أهذا مذهب إبراهيم، أهذا مذهب علقمة، أهذا مذهب عبدالله؟!. وأورد العقيلى هذا الحديث فى الضعفاء. وقال الذهبى: ليس بصحيح.

وخرَّج ابن ماجه عن على رضى الله عنه من رواية ياسين العَجَلِىّ، عن إبراهيم بن محمد بن الحنفية[٥٩٨] عن أبيه عن جده قال، قال رسول الله ﷺ: «المهدى منا أهل البيت يصلح الله به فى ليلة».

وياسين العَجَلىُّ وإن قال فيه ابن معين: ليس به بأس، فقد قال البخارى: فيه نظر. وهذه اللفظة من اصطلاحه قوية فى التضعيف جداً وأورد له ابن عدى فى الكامل والذهبى فى الميزان هذا الحديث على وجه الاستنكار له، وقال: هو معروف به.

وخرَّج الطبرانى فى معجمه الأوسط، عن على رضى الله عنه، أنه قال للنبى ﷺ: أمنَّا المهدى أم من غيرنا يا رسول الله؟ فقال: «بل منا ، بنا يختم الله كما بنا فتحَ ، وبنا يُسْتَنقَذون من الشرك ، وبنا يؤَلِّف الله بين قلوبهم بعد عداوة بيِّنة ، كما بنا ألَّف بين قلوبهم بعد عداوة الشرك» . قال على : أمؤمنون أم كافرون؟ قال : «مفتون وكافر». انتهى.

وفيه عبدالله بن لَهِيعَةَ وهو ضعيف معروف الحال. وفيه عمر بن جابر الحضرمى وهو أضعف منه. قال أحمد بن حنبل: روى عن جابر مناكير، وبلغنى أنه كان يكذب. وقال النسائى: ليس بثقة، وقال: كان ابن لَهِيعَةَ شيخاً أحمق ضعيف العقل، وكان يقول: علىٌّ فى السحاب، وكان يجلس معنا فيبصر سحابة فيقول: هذا على قد مَرَّ فى السحاب.

وخرَّج الطبرانى عن على رضى الله تعالى عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

(١٠٢٩ب) فى «ل» «وطبعة دار الكتاب اللبنانى» حرفت هذه الكلمة إلى «أسامة». و«القَسَامة» عند الفقهاء إجراء شرعى يتخذ فى حالة وجود قتيل فى محلة لا يُعلم من قتله. ففى هذه الحالة يختار ولىّ الدم خمسين رجلا من أهل المحلة فيحلفون بالله ما قتلناه ولا علمنا له قاتلا. فإذا حلفوا سقط القصاص ووجَبت الدية عن أهل المحلة. وفى بعض المذاهب إذا اتهم أولياء الدم واحداً بعينه يُسْتحلفون خمسين يمينا على أن من اتهموه هو القاتل. فإذا حلفوا يقتص من المدعى عليه (انظر فى ذلك كتب الفقه، وكتابنا «فى حقوق الإنسان فى الإسلام» صفحات ١٤١ ـ ١٤٣). وفى النص الذى نعلق عليه سميت الأيمان الخمسون قاسمةً تشبيهاً لها بهذا الإجراء الشرعى.

«يكون فى آخر الزمان فتنة يحصل الناس فيها كما يحصل الذهب فى المعدن(١٠٢٩ج). فلا تسبوا أهل الشام ولكن سبوا أشرارهم فإن فيهم الأبدال١٠١٨. يوشك أن يُرْسَلَ على أهل الشام صيِّبٌ(١٠٣٠) من السماء فيفرق جماعتهم، حتى لو قاتلَتْهم الثعالبُ غلبتهم. فعند ذلك يخرج خارج من أهل بيتى فى ثلاث رايات، المكثر يقول هم خمسة عشر ألفاً، والمقلل يقول هم اثنا عشر ألفا، وأمارتهم: أمِتْ أمِتْ(١٠٣١)، يلقون سبع رايات تحت كل راية منها رجل يطلب الملك، فيقتلهم الله جميعًا، ويرد الله إلى المسلمين ألفتَهم ونعمتهم وقاصيتهم ودانيتهم»(١٠٣٢)أهـ.

وفيه عبدالله بن لَهِيعَة وهو ضعيف معروف الحال.

ورواه الحاكم فى المستدرك، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرِّجاه(١٠٣٣). وفى روايته(١٠٣٣ب): «ثم يظهر الهاشمى فيرد الله الناس إلى ألفتهم».. إلخ، وليس فى طريقه ابن لَهِيعَة، وهو إسناد صحيح كما ذكر.

وخرَّج الحاكم فى المستدرك عن على رضى الله عنه، من رواية أبى الطفيل عن محمد بن الحنفية٥٩٨ قال: «كنا عند على رضى الله عنه، فسأله رجل عن المهدى، فقال على: هيهات. ثم عقد بيده سبعًا، فقال: ذلك يخرج فى آخر

(١٠٢٩ج) أى تضطرب فيها الأمور ويختلط فيها الحابل بالنابل والغث بالسمين.

(١٠٣٠) الصَّيِّب من الصوب وهو النزول، يقال للمطر وللسحاب، قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ..﴾ (آية ١٩ من سورة البقرة وهى السورة الثانية).

(١٠٣١) كلمة «أمِتْ أمِتْ» كانت كلمة السرِّ بين أفراد جيش المسلمين فى غزوة بدر يعرف بها بعضهم بعضا، وستكون كلمة السرِّ بين أهل هذه الرايات ـ هذا وفى كثير من الأحاديث الخاصة بالمهدى يشبَّه أنصاره بأهل بدر؛ وسيأتى فى الحديث التالى أن عدتهم على عدة أهل بدر.

(١٠٣٢) فى «ل» و«م» و«دار الكتاب اللبنانى»: و«رأيهم» وهو تحريف.

(١٠٣٣) أى ولم يُخَرِّج هذا الحديث البخارى ولا مسلم ـ ويلاحظ أن البخارى ومسلمًا لم يُخَرِّجا أى حديث من الأحاديث الخاصة بالمهدى. وفى هذا يقول السيد رشيد رضا فى تفسير المنار (ص٤٩٩ من الجزء التاسع من الطبعة الأولى) فى باب «التعارض والإشكالات فى أحاديث المهدى»: «التعارض فى أحاديث المهدى أقوى وأظهر، والجمع بين الروايات فيه أعسر، والمنكرون لها أكثر، والشبهة فيها أظهر. ولذلك لم يعتد الشيخان (البخارى ومسلم) بشىء من روايتها فى صحيحيهما».

(١٠٣٣ب) فى جميع النسخ: «فى روايته»، وصوابه «وفى روايته: ثم يظهر.. إلخ»، أى وفى رواية الحاكم لهذا الحديث عبارة: «ثم يظهر الهاشمى فيرد الله الناس إلى ألفتهم...».

الزمـان، إذا قـال الرجل: اللهَ اللّهَ قُـتِل. ويجـمع الله قـومـًا قـزَعـًا كـقَـزَع السحاب(١٠٣٤)، يؤلف الله بين قلوبهم فلا يستوحشون إلى أحد، ولا يفرحون بأحد دخل فيهم، عِدَّتهم على عِدَّة أهل بدر(١٠٣٥)، لم يسبقهم الأولون، ولا يدركهم الآخرون، وعلى عدد أصحـاب طالوت الذين جاوزوا مـعـه النهـر(١٠٣٦). قـال أبو الطفيل، قـال ابن الحنفيـة[٦٩٨] أتريده؟ قلت نعم! قـال: فإنه يخـرج من بين هذين الأخشبين(١٠٣٧) قلت لا جرم والله، ولا أدعها حتى أموت، ومات بـها يعنى مكة». قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين[٨٢٦]. انتهى.

(١٠٣٤) «القَزَع محركة: قطع من السحاب الواحدة بهاء، وفى كلام على: كما يجتمع قَزَعُ الخريف. وليس هذا حديثا كما توهم الجوهرى (صاحب الصحاح)» (القاموس) - والمعنى يجتمع الناس إليه أفواجا ويلتئم بعضهم ببعض كما تجتمع قطع السحاب ويلتئم بعضها ببعض.
وقد أخطأت «ل» و«م» و«دار الكتاب اللبنانى» فى تعليقها على هذه الكلمة بأنها بضم القاف وفتح الزاى ممنوعة من الصرف كأُخَر.

(١٠٣٥) كان عدد المسلمين فى غزوة بدر على أرجح الروايات ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا. ويطلق عليهم لقب البدريين، وعلى كل منهم لقب «البدرىّ»؛ كما يظهر ذلك من أحاديث البخارى التى سنذكرها فى التعليق التالى.

(١٠٣٦) هم الذين ذكرهم الله تعالى فى قوله: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ..﴾ (الآية ٢٤٩ من سورة البقرة وهى السورة الثانية). والقليل الذين لم يخالفوه فلم يكرعوا فى النهر ولم يفرطوا فى الشرب منه، وهم الذين جاوزوا معه النهر، كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً وقيل: ثلاثة آلاف وقيل: ألف (انظر البيضاوى على القرآن الكريم). والعدد الأول وهو ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا هو الذى قصده علىّ فى كلمته التى نعلق عليها، لأنه جعل عدد من يتحدث عنهم على عدة أهل بدر وعلى عدد أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر وعدة أصحاب بدر على أصح الروايات هو ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا كما تقدم فى التعليق السابق ويؤيد هذا ما ورد فى صحيح البخارى فى صدد عدة أصحاب بدر وأنهم على عدة أصحاب طالوت وفيما يلى أهم هذه الأحاديث، وقد ذكرها فى باب «عدة أهل بدر»:
حدثنا عمر بن خالد.. قال: سمعت البَراء رضى الله عنه يقول: حدثنى أصحاب محمد ﷺ ممن شهد بدرا أنهم كانوا على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر. بضعة عشر وثلثمائة».
حدثنا عبدالله بن رجاء... عن البرَاء قال: «كنا أصحابَ محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا مؤمن، بضعة عشر وثلثمائة».
حدثنى عبدالله بن أبى شيبة.. عن البراء رضى الله عنه قال: «كنا نتحدث أن أصحاب بدر ثلثمائة وبضعة عشر بعدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر وما جاوز معه إلا مؤمن».
حدثنى محمود حدثنا وهب.. عن البراء قال: «استصغرت أنا وابن عمر يوم بدر، وكان المهاجرون يوم بدر نيِّفًا على ستين والأنصار نيِّفًا وأربعين ومائتين».

(١٠٣٧) الأخشبان جبلا مكة «أبو قبيس؛ والأحمر» (القاموس).

وإنما هو على شرط مُسْلِمٍ فقط، فإن فيه عَمَّاراً الدُّهْنى[١٠٣٧ب] ويونس بن أبي إسحق، ولم يُخَرِّج لهما البخارى، وفيه عمرو بن محمد العَنْقَرى[١٠٣٧ج] ولم يخرج له البخارى احتجاجًا بل استشهاداً، مع ما ينضم إلى ذلك من تشيع فى عمار الدُّهْنى،[١٠٣٧ب(١٠٣٨)] وهو وإن وثقه أحمد وابن معين وأبو حاتم والنسائى وغيرهم، فقد قال على بن المدينى[١٠٣٩] عن سفيان إن بشر بن مروان قطع عرقوبيه[١٠٤٠] قلت: فى أى شىء. قال: فى التشيع.

وخَرَّجَ ابن ماجه عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى رواية سعد بن عبدالحميد بن جعفر، عن على بن زياد اليمامى، عن عِكْرِمَة بن عَمَّار عن إسحق ابن عبدالله، عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نحن وُلْدَ عبدالمطلب سادات أهل الجنة، أنا وحمزة وعلى وجعفر والحسن والحسين والمهدى». انتهى.

وعِكْرِمة بن عَمَّار وإن أخرج له مسلم فإنما أخرج متابَعَة. وقد ضعَّفه بعض ووثَّقه آخرون. وقال أبو حاتم الرازى: هو مدلِّس فلا يقبل، إلا أن يصرِّحَ بالسماع. وعلى بن زياد، قال الذهبى فى الميزان: لا ندرى من هو؛ ثم قال: الصواب فيه عبدالله بن زياد. وسعد بن عبدالحميد وإن وثقه يعقوب بن أبى شيبة، وقال فيه يحيى بن معين ليس به بأس، فقد تكلم فيه الثورى، قالوا: لأنه رآه يفتى فى مسائل ويخطئ فيها. وقال ابن حِبَّان: كان ممن فحش عطاؤه فلا يحتج به. وقال أحمد بن حنبل: سعد بن عبدالحميد يدعى أنه سمع عَرض كتب مالك والناس ينكرون عليه ذلك وهو ههنا ببغداد لم يحج، فكيف سمعها؟ وجعله الذهبى ممن لم يقدح فيه كلام من تكلم فيه.

وخَرَّج الحاكم فى مستدركه من رواية مجاهد عن ابن عباس موقوفًا عليه، قال مجاهد: قال ابن عباس: لو لم أسمع أنك مثل[١٠٤٠ب] أهل البيت ماحدثتك بهذا الحديث؛ قال: فقال مجاهد: فإنه فى سترٍ لا أذكره لمن يكره! قال: فقال ابن

(١٠٣٧ب) فى جميع النسخ: «الذهبى»، وهو تحريف.
(١٠٣٧ج) فى جميع النسخ «العبقرى» وهو تحريف.
(١٠٣٨) يظهر أن هنا جملة ساقطة، وتقديرها: «وفيه كذلك بشر بن مروان، وهو وإن وثَّقه... إلخ».
(١٠٣٩) وفي بعض النسخ «المدنى» وهو خطأ.
(١٠٤٠) العُرْقوب عصب غليظ فوق عقب الإنسان. و«قطع عرقوبيه فى أمر ما» كناية عن تفانيه فيه.
(١٠٤٠ب) فى «ن»: «من أهل البيت».

عباس: «منا أهل البيت أربعة. منا السفاح ومنا المنذر ومنا المنصور ومنا المهدى». قال: فقال مجاهد: بيّن لى هؤلاء الأربعة. فقال ابن عباس: «أما السفاح فربما قتل أنصاره وعفا عن عدوه؛ وأما المنذر، أراه قال: فإنه يعطى المال الكثير ولايتعاظم فى نفسه، ويمسك القليل من حقه؛ وأما المنصور فإنه يُعْطَى النصرَ على عدوه الشطرَ مما كان يُعطى رسولُ الله ﷺ ويَرْهَب منه عدوُّه على مسيرة شهرين، والمنصور يرهب منه عدوه على مسيرة شهر؛ وأما المهدى فإنه الذى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جَوْراً، وتأمن البهائمُ السباعَ، وتلقى الأرض أفلاذ كبدها». قال: قلت: وما أفلاذ كبدها؟ قال: «مثال الأسطوانة من الذهب والفضة» أ هـ.

وقال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخرِّجاه[١٠٣٢]، وهو من رواية إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر عن أبيه؛ وإسماعيل ضعيف؛ وإبراهيم أبوه وإن خَرَّج له مسلم، فالأكثرون على تضعيفه. اهـ.

وخَرَّج ابن ماجة عن ثَوْبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يقتتل عند كَنْزِكم ثلاثة كلهم ابن خليفة، ثم لا يصير إلى واحد منهم، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونهم قتلا لم يقتله قوم». ثم ذكر شيئًا لا أحفظه قال: «فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبواً على الثلج فإنه خليفة الله المهدى» اهـ.

ورجاله رجال الصحيحين[١٠٠٨]؛ إلا أن فيه أبا قلابة الجَرْمِى، وذكر الذهبى وغيره أنه مُدَلِّس؛ وفيه سفيان الثورى وهو مشهور بالتدليس؛ وكل واحد منهما عنعن ولم يصرح بالسماع فلا يقبل؛ وفيه عبدالرزاق بن همام وكان مشهوراً بالتشيع وعمى فى آخر وقته فخلط؛ قال ابن عدى حدث بأحاديث فى الفضائل لم يوافقه عليها أحد، ونسبوه إلى التشيع. انتهى.

وخرَّج ابن ماجه عن عبدالله بن الحارث بن جَزْء الزبيدى من طريق ابن لَهيعَة عن أبى زرعة عمر بن جابر الحضرمى عن عبدالله بن الحارث بن جَزْء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يخرج ناس من المشرق فيوطِّئون للمهدى يعنى سلطانه».

قال الطبرانى: تفرد به ابن لَهيعَة، وقد تقدم لنا فى حديث على الذى خرجه الطبرانى فى معجمه الأوسط أن ابن لَهيعَة ضعيف وأن شيخه عمر بن جابر أضعف منه(١٠٤١).

(١٠٤١) انظر ص ٧٥١ .

وخرَّج البزار فى مسنده والطبرانى فى معجمه الأوسط واللفظ للطبرانى، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «يكون فى أمتى المهدى إن قصَّرَ فسبع وإلا فثمان وإلا فتسع ، تنعم فيها أمتى نعمة لم ينعموا بمثلها : تُرْسَل السماء عليهم مدرارًا ؛ ولا تدَّخِرُ الأرض شيئًا من النبات ؛ والمال كدوس[١٠٢٧] ، يقوم الرجل يقول يا مهدى أعطنى ، فيقول : خذ».

قال الطبرانى والبزّار: تفرد به محمد بن مروان العَجَلى. زاد البزار ولا نعلم أنه تابعه عليه أحد؛ وهو وإن وثَّقَهُ أبو داود وابن حِبَّان أيضًا بما ذكره فى الثقات وقال فيه يحيى بن معين: صالح، وقال مَرَّةً: ليس به بأس، فقد اختلفوا فيه: قال أبو زرعة: ليس عندى بذلك؛ وقال عبدالله بن أحمد بن حنبل: رأيت محمد بن مروان العَجَلىّ حدث بأحاديث وأنا شاهد لم نكتبها، تركتها على عمد وكتب بعض أصحابنا عنه كأنه ضَعَّفَه.

وخرَّج أبو يَعْلَى المَوْصِلىُّ فى مسنده عن أبى هريرة، قال: حدثنى خليلى أبو القاسم ﷺ وقال: «لا تقوم الساعة حتى يخرج عليهم رجل من أهل بيتى فيضربهم حتى يرجعوا إلى الحق . قال : قلت : وكم يملك؟ قال خمسًا واثنتين . قال قلت : وما خمسًا واثنتين؟ قال لا أدرى» اهـ.

وهذا السند، وإن كان فيه بشير بن نَهِيك، وقال فيه أبو حاتم: لا يحتج به، فقد احتج به الشيخان[٨٢٦] ووثَّقَهُ الناس ولم يلتفتوا إلى قول أبى حاتم: لا يحتج به. إلا أن فيه رجاء بن أبى رجاء اليَشْكُرى، وهو مختلف فيه. قال أبو زرعة: ثقة؛ وقال يحيى بن معين: ضعيف؛ وقال أبو داود: ضعيف؛ وقال مَرَّةً: صالح. وعلَّق له البخارى فى صحيحه[١٠٠٨] حديثًا واحدًا.

وخرَّجَ أبو بكر البزار فى مسنده والطبرانى فى معجمه الكبير والأوسط عن قُرَّةَ بن إياس قال: قال رسول الله ﷺ : «لَتُمْلأنَّ الأرض جَوْرًا وظلمًا ، فإذا ملئت جورًا وظلمًا بعث الله رجلا من أمتى اسمه اسمى واسم أبيه اسم أبى يملؤها عدلا وقسطًا كما ملئت جورًا وظلمًا ؛ فلا تمنع السماء من قطرها شيئًا ولا تدخر الأرض شيئًا من نباتها . يلبث فيكم سبعًا أو ثمانيًا أو تسعًا» يعنى سنين ا . هـ.

وفيه داود بن المُحَبَّر بن قَحْذَم(١٠٤٢). عن أبيه وهما ضعيفان جدًا.

وخرَّجَ الطبراني في معجمه الأوسط عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ في نفر من المهاجرين والأنصار، وعلى بن أبي طالب عن يساره، والعباس عن يمينه، إذ تلاحى(١٠٤٣) العباس ورجل من الأنصار، فأغلظ الأنصاري للعباس. فأخذ النبي ﷺ بيد العباس وبيد علي وقال: «سيخرج من صلب هذا فتى يملأ الأرض جورًا وظلمًا، وسيخرج من صلب هذا فتى يملأ الأرض قسطًا وعدلا. فإذا رأيتم ذلك فعليكم بالفتى التميمي، فإنه يقبل من قبل المشرق وهو صاحب راية المهدي» ا.هـ.

وفيه عبدالله بن عمر العمري(١٠٤٤) وعبدالله بن لَهِيعَة وهما ضعيفان اهـ.

وخرج الطبراني في معجمه الأوسط عن طلحة بن عبدالله عن النبي ﷺ قال: «ستكون[168] فتنة لا يسكن منها جانب إلا تشاجر جانب، حتى ينادي مناد من السماء أن أميركم فلان» ا.هـ.

وفيه المثنى بن الصباح وهو ضعيف جدا. وليس في الحديث تصريح بذكر المهدي وإنما ذكروه في أبوابه وترجمته استئناسًا.

* * *

فهذه جملة الأحاديث التي خرَّجها الأئمة في شأن المهدي وخروجه آخِرَ الزمان. وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه.

وربما تمسك المنكرون لشأنه بما رواه محمد بن خالد الجندي عن أبَان بن صالح بن أبي عَيَّاش عن الحسن البصري عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «لا مهدي إلا عيسى ابن مريم».

(١٠٤٢) ورد هذا الاسم محرفاً في جميع النسخ: ففي «ن»: «المحبر بن قحزم» وفي «ل»: «المحبى بن المحرِم». وفي «م»: «المحبى بن المجرم». وفي دار الكتاب اللبناني: «المجى بن المحرم». - وصوابه «المحبر بن قَحْذم». قال ابن حجر في الجزء الثالث من كتابه «تهذيب التهذيب» (ص١٩٩): «داود ابن المحبر بن قحذم بن سليمان الطائي ويقال: الثقفي البكراوي أبو سليمان البصري نزيل بغداد صاحب كتاب «العقل»

(١٠٤٣) لحاه يلحوه شتمه، وتلاحيا تشاتما (من القاموس).

(١٠٤٤) في جميع النسخ «العمي» وهو تحريف وصوابه «العمري». كما جاء في كتاب «لسان الميزان» لابن حجر: «عبدالله بن حجر بن القاسم عن عبدالله بن عمر العمري» وقد ذكرهما من الضعاف.

وقال يحيى بن معين فى محمد بن خالد الجندى: إنه ثقة. وقال البيهقى: تفرد به محمد بن خالد وقال الحاكم فيه: إنه رجل مجهول واختُلفَ عليه فى إسناده: فمرةً يروى كما تقدم وينسب ذلك لمحمد بن إدريس الشافعى، ومرة يروى عن محمد بن خالد عن أبان عن الحسن عن النبى ﷺ مرسلا. قال البيهقى فرجع إلى رواية محمد بن خالد وهو مجهول، عن أبان أبى عَيَّاش وهو متروك، عن الحسن عن النبى صلى الله عليه وسلم وهو منقطع[١٠١٧ب] وبالجملة فالحديث ضعيف مضطرب. وقد قيل فى أن «لا مهدى إلا عيسى» أى لا يتكلم فى المهد إلا عيسى، يحاولون بهذا التأويل رد الاحتجاج به، أو الجمع بينه وبين الأحاديث وهو مدفوع بحديث جُرَيْج ومثله من الخوارق[١٠٤٥].

* * *

(١٠٤٥) يشير بذلك إلى ما ورد فى البخارى ومسلم عن رضيعين تكلما فى المهد أحدهما صاحب جُرَيْج. ورواية مسلم فى صددهما أكمل وأكثر تفصيلا، وقد وردت فى فصل «ضَعَفَة المسلمين والفقراء والخاملين» ونصها ما يلى:

عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يتكلم فى المهد إلا ثلاث»: «عيسى ابن مريم»؛ «وكان جُرَيْج رجلا عابدا، فاتخذ صومعة فكان فيها، فأتته أمه وهو يصلى، فقالت: يا جُرَيْج، فقال: يا رب أمى وصلاتى، فأقبل على صلاته، فانصرفت. فلما كان من الغد أتته وهو يصلى، فقالت: يا جُرَيْج، فقال: يا رب أمى وصلاتى، فأقبل على صلاته فلما كان من الغد أتته وهو يصلى فقالت: يا جُرَيْج، فقال: يارب أمى وصلاتى فأقبل على صلاته، فقالت: اللهم لا تُمتْه حتى ينظر إلى وجوه المومسات. فتذاكر بنو إسرائيل جُرَيْجًا وعبادتَه، وكانت امرأة بغىٌ يُتَمثَّلُ بحسنها؛ فقالت: إن شئتم لأفتننَّه؛ فتعرضتْ له، فلم يلتفت إليها. فأتت راعيًا كان يأوى إلى صومعته، فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت فلما ولدت قالت هو من جُرَيْج. فأتوه فاستنزلوه، وهدموا صومعته، وجعلوا يضربونه فقال ما شأنكم؟ قالوا: زنيت بهذه البَغِىِّ فولدتْ منك. قال أين الصغير؟ فجاءوا به. فقال دعونى حتى أصلى؛ فصلى. فلما انصرف أتى الصبىَّ فطعن فى بطنه، فقال: يا غلام من أبوك؟ قال فلان الراعى. فأقبلوا على جُرَيج يقبلونه ويتمسحون به. فقالوا نبنى لك صومعتك من ذهب قال لا أعيدوها من طين كما كانت ففعلوا».

«وبينما صبى يرضع من أمه فمرَّ رجل راكبًا على دابة فارهة وشارة حسنة. فقالت أمه: اللهم اجعل ابنى مثل هذا. فترك الثدى وأقبل إليه فنظر إليه فقال اللهم لا تجعلنى مثله. فأقبل على ثديه فجعل يرضع» (فكأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يَحْكى ارتضاعه بأصبعه السبابة فى فيه - من كلام أبى هريرة) ثم قال: «ومروا بجارية وهم يضربونها، ويقولون: زنيت سرقت! وهى تقول: حسبى الله ونعم الوكيل. فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابنى مثلها. فترك الرضاع ونظر إليها فقال: اللهم اجعلنى مثلها. فهنالك تراجعا الحديث. فقالت: مرَّ رجل حسن الهيئة، فقلتُ: اللهم اجعل ابنى مثله، فقلتَ: اللهم لا تجعلنى مثله؛ ومروا بهذه الأمَة وهم يضربونها ويقولون: زنيتِ سرقت، فقلتُ: اللهم لا تجعل ابنى مثلها، فقلتَ: اللهم اجعلنى مثلها. قال إن ذلك الرجل جبار فقلتُ: اللهم لا تجعلنى مثله. وإن هذه الأمة يقولون: زنيت وسرقتِ ولم تزن ولم تسرق، فقلتُ: اللهم اجعلنى مثلها».

وأما المتصوفة فلم يكن المتقدمون منهم يخوضون فى شىء من هذا، وإنما كان كلامهم فى المجاهدة بالأعمال وما يحصل عنها من نتائج المواجد والأحوال. وكان كلام الإمامية والرافضة من الشيعة فى تفضيل على رضى الله تعالى عنه والقول بإمامته وادعاء الوصية له بذلك من النبى ﷺ والتبرى من الشيخين[٨٢٦] كما ذكرناه فى مذاهبهم[١٠٤٦]. ثم حدث فيهم بعد ذلك القول بالإمام المعصوم، وكثرت التآليف فى مذاهبهم. وجاء الإسماعيلية منهم يدعون ألوهية الإمام بنوع من الحلول؛ وآخرون يدعون رجعة من مات من الأئمة بنوع التناسخ؛ وآخرون منتظرون مجىء من يقطع بموته منهم؛ وآخرون منتظرون عود الأمر فى أهل البيت مستدلين على ذلك بما قدمناه من الأحاديث فى المهدى وغيرها[١٠٤٦].

ثم حدث أيضًا عند المتأخرين من الصوفية الكلام فى الكشف وفيما وراء الحس. وظهر من كثير منهم القول على الإطلاق بالحلول والوحدة، فشاركوا فيها الإمامية والرافضة لقولهم بألوهية الأئمة وحلول الإله[١٠٤٦] فيهم. وظهر منهم أيضًا القول بالقطب والأبْدال[١٠١٨] وكأنه يحاكى مذهب الرافضة فى الإمام والنقباء وأُشْرِبوا أقوال الشيعة، وتوغلوا فى الديانة بمذاهبهم، حتى لقد جعلوا مستند طريقهم فى لبس الخرقة أن عليّا رضى الله عنه ألبسها الحسن البصرى وأخذ عليه العهد بالتزام الطريقة. واتصل ذلك عنهم بالجُنَيْد من شيوخهم. ولا يعلم هذا عن علىّ من وجه صحيح. ولم تكن هذه الطريقة خاصة بعلى كرم الله وجهه؛ بل الصحابة كلهم أسوة فى طرق الهدى؛ وفى تخصيص هذا بعلى دونهم رائحة من التشيع قوية، يفهم منها ومن غيرها مما تقدم دخولهم فى التشيع، وانخراطهم فى سلكه.

وظهر منهم أيضًا القول بالقطب وامتلأت كتب الإسماعيلية من الرافضة وكتب المتأخرين من المتصوفة بمثل ذلك فى الفاطمى المنتظر. وكان بعضهم يمليه على بعض ويلقنه بعضهم من بعض، وكأنه مبنى على أصول واهية من الفريقين. وربما يستدل بعضهم بكلام المنجمين فى القرانات، وهو من نوع الكلام فى الملاحم؛ ويأتى الكلام عليها فى الباب الذى يلى هذا[١٠٤٧].

(١٠٤٦) يحيل بذلك على ما ذكره فى الفصل السابع والعشرين من هذا الباب (انظر صفحة ٥٧٧ وتوابعها).

(١٠٤٧) يقصد الفصل الفرعى التالى. وعنوانه: «فصل فى ابتداء الدول والأمم وفيه الكلام على الملاحم والكشف عن مسمى الجفر».

وأكثر من تكلم من هؤلاء المتصوفة المتأخرين فى شأن الفاطمى، ابن العربى الحاتمى(١٠٤٧ب) فى كتاب «عَنْقَاءُ مغْرب» وابن قسى فى كتاب «خلع النعلين»، وعبدالحق بن سبعين(١٠٤٧ج)، وابن أبى واطيل تلميذه فى شرحه لكتاب «خلع النعلين»، وأكثر كلماتهم فى شأنه ألغاز وأمثال، وربما يصرحون فى الأقل أو يصرح مفسرو كلامهم. وحاصل مذهبهم فيه، على ما ذكر ابن أبى واطيل، أن النبوة بها ظهر الحق والهدى بعد الضلال والعمى؛ وأنها تعقبها الخلافة؛ ثم يعقب الخلافة الملك؛ ثم يعود تجبراً وتكبراً وباطلا. قالوا: ولما كان فى المعهود من سنة الله رجوع الأمور إلى ما كانت وجب أن يحيا أمر النبوة والحق بالولاية؛ ثم بخلافتها؛ ثم يعقبها الدجل مكان الملك والتسلط؛ ثم يعود الكفر بحاله. يشيرون بهذا لما وقع من شأن النبوة، والخلافة بعدها والملك بعد الخلافة: هذه ثلاث مراتب. وكذلك الولاية التى هى لهذا الفاطمى؛ والدجل بعدها كناية عن خروج الدجال على أثره؛ والكفر من بعد ذلك. فهى ثلاث مراتب على نسبة الثلاث مراتب الأولى. قالوا: ولما كان أمر الخلافة لقريش حكمًا شرعيّا بالإجماع الذى لا يوهنه إنكار من لم يزاول علمه وجب أن تكون الإمامة فيمن هو أخص من قريش بالنبى ﷺ، إما ظاهراً كبنى عبدالمطلب، وإما باطنًا ممن

(١٠٤٧ب) محيى الدين بن عربى من أشهر الصوفية. وهو محمد بن على بن أحمد بن عبد الله؛ ويكنى أبا بكر، ويلقب بمحيى الدين؛ ويعرف بالحاتمى وبابن عربى بدون ألف ولام كما اصطلح على ذلك أهل المشرق تمييزاً له عن القاضى أبى بكر بن العربى (وهو الذى سيتحدث عنه ابن خلدون ويناقش مذهبه فى تعليم الولدان ورأيه فى تقديم تعليم العربية والحساب على درس القرآن وحفظه فى الفصل الثانى والثلاثين من الباب السادس حسب الطبعات المتداولة فى العالم العربى، والفصل التاسع والثلاثين حسب طبعة باريس، والفصل الأربعين حسب طبعتنا)، ولكنه كان يعرف فى المغرب بابن العربى. وقد سار ابن خلدون على ما كان يعرف به فى المغرب. ولد بمرسيا فى الأندلس ٥٦٠هـ وبعد أن درس الحديث والفقه فى إشبيلية ارتحل إلى المشرق سنة ٥٩٨هـ، وزار بلاداً كثيرة منها مصر والحجاز وما بين النهرين وآسيا الصغرى، واستقر بالشام حيث وافته المنون بدمشق سنة ٦٣٨هـ. ولابن عربى عدد كبير من المؤلفات المنثورة والمنظومة تبلغ زهاء المائتين.

(١٠٤٧ ج) هو قطب الدين أبو محمد عبدالحق بن سبعين. ولد بمرسيا بالأندلس سنة ٦١٣هـ وتوفى بمكة سنة ٦٦٧هـ. درس العربية والآداب فى الأندلس، ثم انتقل إلى سَبْتة بالمغرب (انظر تعليق ٢٢١ب) حيث انتحل التصوف على قاعدة زهد الفلاسفة وتصوفهم، وعكف على مطالعة كتبهم. ويدل على رسوخ قدمه فى الفلسفة رسائله إلى فردريك الثانى التى دار البحث فيها حول قدم العالم وطبيعة النفس وغير ذلك من المسائل التى تنم على سعة اطلاعه الفلسفى وإحاطته الشاملة بمذهب أرسطو وبالأفلاطونية الحديثة.

كان من حقيقة الآل، والآل من إذا حضر لم يغب من هو آله. وابن العربى الحاتمى[١٠٤٧ب] سماه فى كتابه «عنقاء مغرب» من تأليفه: «خاتم الأولياء»؛ وكنى عنه بِلَبِنَة الفضة إشارة إلى حديث البخارى فى باب خاتم النبيين، قال ﷺ: «مثلى فيمن قبلى من الأنبياء كمثل رجل ابتنى بيتًا وأكمله، حتى إذا لم يبق منه إلا موضع لَبِنَة فأنا تلك اللَّبِنَةُ»[١٠٤٧د] فيفسرون خاتم النبيين باللبِنَة التى[١٠٤٨] أكملت البنيان، ومعناه النبى الذى حصلت له النبوة الكاملة. ويمثلون الولاية فى تفاوت مراتبها بالنبوة، ويجعلون صاحب الكمال فيها خاتم الأولياء أى حائز الرتبة التى هى خاتمة الولاية، كما كان خاتم الأنبياء حائزًا للمرتبة التى هى خاتمة النبوة، فكنى الشارع عن تلك المرتبة الخاتمة بِلَبِنَة البيت فى الحديث المذكور. وهما على نسبة واحدة فيها. فهى لَبِنَة واحدة فى التَمثيل. ففى النبوة لبِنَة ذهب؛ وفى الولاية لبنة فضة؛ للتفاوت بين الرتبتين، كما بين الذهب والفضة. فيجعلون لبنة الذهب كناية عن النبى ﷺ؛ ولبنة الفضة كناية عن هذا الولى الفاطمى المنتظر. وذلك خاتم الأنبياء، وهذا خاتم الأولياء.

وقال ابن العربى[١٠٤٧ب] فيما نقل ابن أبى واطيل عنه: «وهذا الإمام المنتظر وهو من أهل البيت من وُلْد فاطمة، وظهوره يكون من بعد مضى (خ ف ج) من الهجرة» ورسم حروفًا ثلاثة يريد عددها بحساب الجُمَّل، وهو الخاء المعجمة بواحدة من فوق ستمائة، والفاء أخت القاف بثمانين، والجيم المعجمة بواحدة من أسفل ثلاثة، وذلك ستمائة وثلاث وثمانون سنة[٢٣٦]، وهى فى آخر القرن السابع. ولما انصرم هذا العصر ولم يظهر حمل ذلك بعض المقلدين لهم على أن المراد بتلك المدة مولده، وعبر بظهوره عن مولده، وأن خروجه يكون بعد العشر والسبعمائة فإنه الإمام الناجم من ناحية المغرب. قال: «وإذا كان مولده كما زعم ابن العربى[١٠٤٧ب] سنة ثلاث وثمانين وستمائة فيكون عمره عند خروجه ستًا وعشرين سنة». قال: «وزعموا أن خروج الدجال يكون سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة من اليوم المحمدى، وابتداء اليوم المحمدى عندهم من يوم وفاة النبى ﷺ إلى تمام ألف سنة». قال ابن أبى واطيل فى شرحه كتابَ «خلع النعلين».

(١٠٤٧د) ورد هذا الحديث فى البخارى (كتاب المناقب، باب خاتم النبيين) بالنص الآتى: «مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة. فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين».

(١٠٤٨) فى جميع النسخ «حتى»، وهو تحريف كما لا يخفى.

«الولى المنتظر القائم بأمر الله المشار إليه بمحمد المهدى وخاتم الأولياء، وليس هو بنبى وإنما هو ولى ابتعثه روحُه وحبيبُهُ. قال ﷺ: «العالم فى قومه كالنبى فى أمته». وقال: «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل». ولم تزل البشرى تتابع به من أول اليوم المحمدى إلى قبيل الخمسمائة نصف اليوم. وتأكدت وتضاعفت بتباشير المشايخ بتقريب وقته، وازدلاف زمانه منذ انقضت إلى هلم جرا» قال: وذكر الكندى(١٠٤٨ب) أن هذا الولى هو الذى يصلى بالناس صلاة الظهر، ويجدد الإسلام، ويظهر العدل، ويفتح جزيرة الأندلس، ويصل إلى رومية فيفتحها، ويسير إلى المشرق فيفتحه، ويفتح القسطنطينية، ويصير له ملك الأرض، فيتقوى المسلمون ويعلو الإسلام، ويظهر دين الحنيفية(١٠٤٨ج) فإن من صلاة الظهر إلى صلاة العصر وقتَ صلاة؛ قال عليه الصلاة والسلام: «ما بين هذين وقت». وقال الكندى١٠٤٨ب أيضاً: الحروف العربية غير المعجمة يعنى المفتتح بها سور القرآن جملة عددها سبعمائة وثلاثة وأربعون، وسبعة دجّاليَّةٌ، ثم ينزل عيسى فى وقت صلاة العصر، فيصلح الدنيا وتمشى الشاة مع الذئب. ثم يبقى ملك العجم بعد إسلامهم مع عيسى مائة وستين عاماً، عدد حروف المعجم وهى (ق ى ن)[٢٣٦]، دولة العدل منها أربعون عاماً». قال ابن أبى واطيل: «وما ورد من قوله لا مهدى إلا عيسى، فمعناه لا مهدى تساوى هدايتُه ولايتَه، وقيل لا يتكلم فى المهد إلا عيسى. وهذا مدفوع بحديث جُرَيْج وغيره ١٠٤٥. وقد جاء فى الصحيح أنه قال: «لا يزال هذا الأمر قائمًا حتى تقوم الساعة أو يكون عليهم

(١٠٤٨ب) يقصد الكندى الفيلسوف. وهو أبو يوسف يعقوب بن إسحق بن الصباح بن عمران بن إسماعيل بن محمد بن الأشعث بن قيس. وينسب إلى قبيلة كندة وأصلها من كهلان باليمن. ولد حوالى ١٨٥هـ، ٨٠١م (كما رجحه ده بور فى دائرة المعارف الإسلامية)، وتعلم فى الكوفة، ثم انتقل إلى بغداد. واشتغل بالأدب ثم بعلوم الفلسفة وتمكن منها كل التمكن حتى صار إمام أول مذهب فلسفى إسلامى فى بغداد، وتبحر فى مختلف العلوم العقلية السائدة فى عصره. وحرر جملة من التراجم العربية لمصنفات يونانية. وألف بالعربية فى الفلسفة والمنطق والرياضيات والفلك والنجوم والطب والموسيقى وعلم النفس والطبيعة.. وغير ذلك. ويذكر ابن النديم فى الفهرست (ص٢٥٥) أنه ألف فى سبعة عشر نوعاً من العلوم. وقد عبثت يد الضياع بمعظم ما كتب الكندى. والراجع أنه توفى فى أواخر سنة ٢٥٢هـ. (انظر ترجمة له فى كتاب «فيلسوف العرب والمعلم الثانى» للمغفور له الشيخ مصطفى عبدالرازق شيخ الجامع الأزهر الأسبق. وهو أول ما ظهر من مؤلفات «الجمعية الفلسفية المصرية» التى شرفت برياستها والإشراف على إصدار مؤلفاتها».

(١٠٤٨ج) يظهر أن هنا جملة ساقطة تقديرها: ويصلى بالناس صلاة بين الظهر والعصر، فإن من صلاة الظهر... إلخ.

اثنا عشر خليفة» يعنى قرشيًا. وقد أعطى الوجود أن منهم من كان فى أول الإسلام، ومنهم من سيكون فى آخره. وقال: «الخلافة بعدى ثلاثون أو إحدى وثلاثون أو ستة وثلاثون». وانقضاؤها فى خلافة الحسن وأوّل أمر معاوية، فيكون أول أمر معاوية خلافة أخذاً بأوائل الأسماء فهو سادس الخلفاء، وأما سابع الخلفاء فعمر بن عبدالعزيز، والباقون خمسة من أهل البيت من ذرية على، يؤيده قوله[١٠٤٩] «إنك لذو قَرْنَيْها[١٠٤٩ب]»، يريد الأمة، أى إنك لخليفة فى أولها، وذريتك فى آخرها. وربما استدل بهذا الحديث القائلون بالرجعة. فالأوّلُ هو المشار إليه عندهم بطلوع الشمس من مغربها[١٠٤٩ج]. وقد قال ﷺ: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله». وقد أنفق عمر بن الخطاب كنوز كسرى فى سبيل الله. والذى يهلك قيصر وينفق كنوزه فى سبيل الله هو هذا المنتظر حين يفتح القسطنطينية. فنعم الأمير أميرها، ونعم الجيش ذلك الجيش. كذا قال ﷺ: «ومدة حكمه بضع»، والبضع من ثلاث إلى تسع وقيل إلى عشر. وجاء ذكر أربعين؛ وفى بعض الروايات سبعين فأما الأربعون فإنها مدته ومدة الخلفاء الأربعة الباقين من أهله القائمين بأمره من بعده على جميعهم السلام». قال: «وذكر أصحاب النجوم والقرانات أن مدة بقاء أمره وأهل بيته من بعده مائة وتسعة وخمسون عامًا فيكون الأمر على هذا جاريًا على الخلافة والعدل أربعين أو سبعين، ثم تختلف الأحوال فتكون ملكا». انتهى كلام ابن أبى واطيل.

وقال فى موضع آخر: «نزول عيسى يكون فى وقت صلاة العصر من اليوم المحمدى حين تمضى ثلاثة أرباعه». قال: «وذكر الكندى يعقوب بن إسحق[١٠٤٨ب] فى كتاب الجفر الذى ذكر فيه القِرانات أنه إذا وصل القِران إلى الثور على

(١٠٤٩) أى قوله عليه الصلاة والسلام لعلى بن أبى طالب.

(١٠٤٩ب) قَرْنُ الشمس أول شعاعها وآخره. وقد شبه الخلافة بالشمس، وأن عليًا سيكون أول شعاعها وآخره.

(١٠٤٩ج) أى فأول الخلافة هو الذى يعبر عنه الصوفية أو القائلون بالرجعة بطلوع الشمس من مغربها، أى إن أولها على رضى الله عنه وهو نفسه الذى ستغرب منه. فقد طلعت إذن من مكان غروبها. ويشيرون بذلك إلى تشبيه النبى ﷺ خلافة على بالشمس فى قوله: «إنك لذو قرنيها».
هذا وأما غير المتصوفة وغير القائلين بالرجعة فإنهم عندما يتحدثون عن شروق الشمس من المغرب يعنون حقيقة الشمس وأن ذلك سيحدث قبيل قيام الساعة، وسيكون من أشراطها (انظر تعليقَىْ ١٠٠٧، ١٠١٠).

رأس ضح بحرفين: الضاد المعجمة والحاء المهملة[١٠٥٠]، يريد ثمانية وتسعين وستمائة من الهجرة، ينزل المسيح فيحكم في الأرض ما شاء الله تعالى». قال: «وقد ورد في الحديث أن عيسى ينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، ينزل بين مهرودتين، يعني حلتين مزعفرتين صفراوين ممصرتين واضعاً كفيه على أجنحة الملكين، له لِمَّة[١٠٥١]، كأنما خرج من ديماس[١٠٥٢]، إذا طأطأ رأسه قَطَرَ[١٠٥٣]، وإذا رفعه تحدر منه جُمَانٌ[١٠٥٤] كاللؤلؤ، كثير خيلان [٦٥ب] الوجه. وفي حديث آخر: مربوع الخلق وإلى البياض والحمرة وفي آخر: إنه يتزوج في الغرب، والغرب دلو البادية[١٠٥٥]، يريد أنه يتزوج منها وتلد زوجته. وذكر وفاته بعد أربعين عاماً. وجاء أن عيسى يموت بالمدينة ويدفن إلى جانب عمر بن الخطاب. وجاء أن أبا بكر وعمر يُحشران بين نبيين. قال ابن أبي واطيل: «والشيعة تقول إنه هو المسيح مسيح المسايح من آل محمد. قلت وعليه حمل بعض المتصوفة حديث لا مهدي إلا عيسى أي لا يكون مهدي إلا المهدي الذي نِسْبَتُه إلى الشريعة المحمدية نسبة عيسى إلى الشريعة الموسوية في الاتباع وعدم النسخ».

إلى كلام من أمثال هذا يعينون فيه الوقت والرجل والمكان بأدلة واهية وتحكمات مختلفة، فينقضي الزمان ولا أثر لشيء من ذلك، فيرجعون إلى تجديد رأي آخر منتحل كما تراه من مفهومات لغوية وأشياء تخيلية وأحكام نجومية. في هذا انقضت أعمار الأول منهم والآخر.

وأما المتصوفة الذين عاصرناهم فأكثرهم يشيرون إلى ظهور رجل مجدد لأحكام الملة ومراسم الحق ويتحينون ظهوره لما قرب من عصرنا. فبعضهم يقول: من ولد فاطمة. وبعضهم يطلق القول فيه. سمعناه من جماعة أكبرهم أبو يعقوب البادسي كبير الأولياء بالمغرب، كان في أول هذه المائة الثامنة،

(١٠٥٠) علق الهوريني على ذلك بقوله: «الضاد عند المغاربة بتسعين والصاد بستين». والصاد لا داعي لذكرها هنا، وكان الأوضح أن يقول الضاد عند المغاربة بتسعين والحاء عند المشارقة والمغاربة بثمانية، فيكون المجموع ثمانية وتسعين (انظر تعليق ٣٣٦).

(١٠٥١) «اللِّمة بالكسر الشعر المجاور شحمة الأذن جمعه لِمَم ولمام» (القاموس).

(١٠٥٢) «الدَّيماس بفتح الدال ويكسر الكِنّ والسَّرب والحَمّام» (القاموس). والمعنى الأخير هو المقصود في العبارة بدليل قوله: «إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جُمان كاللؤلؤ».

(١٠٥٣) «قَطَر الماء قَطْراً وقَطَراناً وقُطوراً» (القاموس).

(١٠٥٤) الجُمان كغراب: هنوات أشكال اللؤلؤ من فضة الواحدة جُمانة. والمعنى إذا رفع رأسه تحدر منه قطرات ماء تشبه الجُمان.

(١٠٥٥) «الغَرْب الدلو العظيمة» ويُسقى بها عادة في البادية».

وأخبرنى عنه حافده[١٠٥٦] صاحبنا أبو يحيى زكريا عن أبيه أبى محمد عبدالله عن أبيه الولى أبى يعقوب المذكور.

* * *

هذا آخر ما اطلعنا عليه أو بلغنا من كلام هؤلاء المتصوفة، وما أورده أهل الحديث من أخبار المهدى قد استوفينا جميعه بمبلغ طاقتنا.

والحق الذى ينبغى أن يتقرر لديك أنه لا تتم دعوة من الدين والملك إلا بوجود شوكة عصبية تظهره وتدافع عنه من يدفعه حتى يتم أمر الله فيه. وقد قررنا ذلك من قبل بالبراهين القطعية التى أريناك هناك[١٠٥٧]. وعصبية الفاطميين بل[٢٤٤] وقريش أجمع قد تلاشت من جميع الآفاق، ووجد أمم آخرون قد استعلت عصبيتهم على عصبية قريش إلا ما بقى بالحجاز فى مكة وينبع بالمدينة من الطالبيين[١٠٥٨] من بنى حسن وبنى حسين وبنى جعفر، منتشرون فى تلك البلاد وغالبون عليها. وهم عصائب بدوية متفرقون فى مواطنهم وإماراتهم وآرائهم يبلغون آلافا من الكثرة. فإن صح ظهور هذا المهدى فلا وجه لظهور دعوته إلا بأن يكون منهم، ويؤلف الله بين قلوبهم فى اتباعه حتى تتم له شوكة وعصبية وافية بإظهار كلمته وحمل الناس عليها. وأما على غير هذا الوجه، مثل أن يدعو فاطمى منهم إلى مثل هذا الأمر فى أفق من الآفاق من غير عصبية ولا شوكة إلا مجرد نسبه فى أهل البيت، فلا يتم ذلك ولا يمكن، لما أسلفناه من البراهين الصحيحة.

وأما ما تدعيه العامة والأغْمار[٤٦] من الدهماء ممن لا يرجع فى ذلك إلى عقل يهديه ولا علم يقيده[١٠٥٨ب]، فيتحينون[١٠٥٨ج] ذلك على غير نسبة وفى غير مكان تقليداً لما اشتهر من ظهور فاطمى، ولا يعلمون حقيقة الأمر كما بيناه. وأكثر ما يتحينون[١٠٥٨ج] فى ذلك القاصية من الممالك وأطراف العمران، مثل الزاب[١٢١٥] بإفْرِيقية[٤٩ب] والسوس من المغرب. ونجد الكثير من ضعفاء البصائر يقصدون

(١٠٥٦) «حَفَدَ حَفْداً من باب ضرب: أسرع، وفى الدعاء: « وإليك نسعى ونحْفد» أى نسرع إلى الطاعة، وحفَد حَفْداً خدم، فهو حافد والجمع حفَدة مثل كافر وكَفَرَة، ومنه قيل الأعوان حَفَدة، وقيل لأولاد الأولاد حَفَدة لأنهم كالخدام فى الصغر» (المصباح). «الحَفَدَة بفتحتين الأعوان والخدم... وقيل ولد الولد واحدهم حافد» (المختار) والمقصود فى عبارة ابن خلدون المعنى الثانى وهو ولد الولد.

(١٠٥٧) يحيل بذلك على ما ذكره فى الفصلين الأول ،السادس من هذا الباب (انظر صفحات ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٧-٥٣٠).

(١٠٥٨) يقصد المنتسبين إلى على بن أبى طالب.

(١٠٥٨ب) هكذا وردت هذه الكلمة فى «التيمورية» وفى غيرها: «يفيده» بالفاء. وهى بالقاف أمثل.

(١٠٥٨ج) فى جميع النسخ: «فيجيبون» وهو تحريف عن «فيتحينون» وتحيّنه وحيّنه بمعنى جعل له حيناً أى وقتاً (من القاموس).

رباطًا بماسة لما[٥٨١] كان ذلك الرباط بالمغرب من الملثمين من كدالة واعتقادهم أنه منهم أو قائمون بدعوته، زعما لا مستند لهم، إلا غرابة تلك الأمم وبعدهم عن يقين المعرفة بأحوالها من كثرة أو قلة أو ضعف أو قوة، ولبعد القاصية عن منال الدولة وخروجها عن نطاقها، فتقوى عندهم الأوهام فى ظهوره هناك بخروجه عن ربقة الدولة ومنال الأحكام والقهر؛ ولا محصول لديهم فى ذلك إلا هذا. وقد يقصد ذلك الموضع كثير من ضعفاء العقول للتلبيس بدعوة تمنيه النفسُ تمامَها وسواسًا وحمقًا[(١٠٥٨د)]. وقُتل كثير منهم. أخبرنا شيخنا محمد بن إبراهيم الآبِلِى[(١٠٥٩)] قال: خرج برباط ماسة لأول المائة الثامنة وعصر السلطان يوسف بن يعقوب رجل من منتحلى التصوف، يعرف بالتُّوَيزَرِىِّ نسبة إلى تُوَيزَر[٢١٦] مصغرًا، وادعى أنه الفاطمى المنتظر واتبعه الكثير من أهلَ السوس من ضالة وكزولة وعظم أمره وخافه رؤساء المصامدة على أمرهم، فدس عليه السكسوى من قتله بَياتًا[(١٠٦٠)] وانحلّ أمره.

وكذلك ظهر فى غمارة فى آخر المائة السابعة وعشر التسعين منها رجل يعرف بالعباس، وادعى أنه الفاطمى، واتبعه الدهماء من غمارة، ودخل مدينة فاس عَنْوَةً وحرق أسواقها وارتحل إلى بلد المزمة فقُتل بها غيلةً ولم يتم أمره. وكثير من هذا النمط. وأخبرنى شيخنا المذكور[١٠٥٩] بغَرِيبةٍ فى مثَل هذا، وهو أنه صحب فى حجه فى رباط العباد، وهو مدفن الشيخ أبى مدينٍ فى جبل تلمسان المطل عليها، رجلاً من أهل البيت من سكان كربلاء، كان متبوعًا معظمًا كثير التلميذ والخادم. قال وكان الرجال من موطنه يتلقونه بالنفقات فى أكثر البلدان. قال وتأكدت الصحبة بيننا فى ذلك الطريق فانكشف لى أمرهم، وأنهم إنما جاءوا من موطنهم بكربلاء لطلب هذا الأمر وانتحال دعوة الفاطمى بالمغرب. فلما عاين دولةَ بنى مَرين[٧٨٠]، ويوسفُ بن يعقوب يومئذ منازلٌ لتلمْسان[٨٤٩]، قال لأصحابه: ارجعوا فقد أزرى بنا الغلط، وليس هذا الوقت وقتنا. ويدَل هذا القول من هذا الرجل على أنه مستبصر فى أن الأمر لا يتم إلا بالعصبية المكافئة لأهل الوقت، فلما علم أنه غريب فى ذلك الوطن ولا شوكة له وأن عصبية بنى مرين[٧٨٠] لذلك العهد لا يقاومها أحد من أهل

(١٠٥٨د) هكذا وردت هذه الجملة فى «التيمورية» وقد حرفت فى غيرها على الوجه الآتى: «للتلبيس بدعوة يميه تمامها وسواسا وحمقا».

(١٠٥٩) انظر تعليق ٢ فى ص ٤٢ من تمهيدنا للمقدمة.

(١٠٦٠) البَيَات: الإغارة ليلا، وهو اسم من بيَّته تبييتًا، وبيّت الأمر: دبّره ليلا. ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (آية ٩٧ من سورة الأعراف، وهى سورة ٧).

المغرب استكان ورجع إلى الحق وأقصر عن مطامعه. ويقى عليه أن يستيقن أن عصبية الفواطم وقريش أجمع قد ذهبت، لاسيما فى المغرب. إلا أن التعصب لشأنه لم يتركه لهذا القول. والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

وقد كانت بالمغرب لهذه العصور القريبة نَزَعةٌ من الدعاة إلى الحقّ والقيام بالسنة لا ينتحلون فيها دعوة فاطمي ولا غيره، وإنما ينزع منهم فى بعض الأحيان الواحد فالواحد إلى إقامة السنة وتغيير المنكر ويعتنى بذلك ويكثر تابعه وأكثر ما يُعْنَوْنَ بإصلاح السابلة٧٥٩ لما أن أكثر فساد الأعراب فيها، لما قدمناه من طبيعة معاشهم(١٠٦١)، فيأخذون فى تغيير المنكر بما استطاعوا. إلا أن الصبغة الدينية فيهم لا تستحكم(١٠٦١ب) لما أن توبة العرب ورجوعهم إلى الدين إنما يقصدون بها الإقصار عن الغارة والنهب؛ لا يعقلون فى توبتهم وإقبالهم إلى مناحى الديانة غير ذلك، لأنها المعصية التى كانوا عليها قبل المقربة، ومنها توبتهم. فتجد تابع(١٠٦٢) ذلك المنتحل للدعوة القائم بزعمه بالسنة غير متعمقين فى فروع الاقتداء والاتباع، إنما دينهم الإعراض عن النهب والبغى وإفساد السابلة، ثم الإقبال على الدنيا والمعاش بأقصى جهدهم، وشتان بين طلب هذا الأمر فى صلاح الخلق وبين طلب الدنيا(١٠٦٢ب)، فاتفاقهما ممتنع، ولا تستحكم لهم صبغة فى الدين، ولا يكمل لهم نزوع عن الباطل على الجملة، ولا يكثرون. ويختلف حال صاحب الدعوة معهم فى استحكام دينه وولايته فى نفسه دون تابعه. فإذا هلك انحل أمرهم وتلاشت عصبيتهم. وقد وقع ذلك بإفريقية، لرجل من كعب من سليم يسمى قاسم بن مرة بن أحمد فى المائة السابعة، ثم من بعده لرجل آخر من بادية رياح من بطن منهم يعرفون بمسلم وكان يسمى سعادة وكان أشد ديناً من الأول وأقوم طريقة فى نفسه، ومع ذلك فلم يستتبًّ أمر

(١٠٦١) انظر على الأخص الفصل السادس والعشرين من هذا الباب (صفحة ٦٦٠ وتوابعها).

(١٠٦١ب) سقطت «لا» النافية من هذه الجملة فى معظم النسخ، فاستحال بذلك معنى العبارة إلى نقيضه. وفى «ن»: «لم تستحكم»، واستخدام حرف «لم» هنا غير سليم.

(١٠٦٢) كلمة «تابع» ساقطة من جميع النسخ وقد عثرنا عليها فى النسخة «التيمورية» وبدونها لا يستقيم المعنى ومعناها التابعون له، فهى مفرد فى اللفظ وجمع فى المعنى ولذلك أخبر عنها بقوله: غير متعمقين» مراعاة لمعناها.

(١٠٦٢ب) هكذا وردت هذه العبارة فى «التيمورية». وقد وردت فى غيرها محرفة وناقصة. ففى «ل» و«م» وطبعة دار الكتاب اللبنانى: «وشتان بين هذا الأجر من إصلاح الخلق من طلب الدنيا، فاتفاقهما ممتنع، فلا تستحكم له صبغة فى الدين ولا يكمل له نزوع عن الباطل»، وفى «ن»: و«شتان بين هذا الأخذ فى إصلاح الخلق ومن طلب الدنيا، فاتفاقهما ممتنع، لا تستحكم له صبغة فى الدين...».

تابعه كما ذكرناه حسبما يأتى ذكر ذلك فى موضعه عند ذكر قبائل سليم ورياح(١٠٦٣). وبعد ذلك ظهر ناس بهذه الدعوة يتشبهون بمثل ذلك، ويُلَبِّسون[٤٥٩] فيها وينتحلون اسم السُّنة وليسوا عليها إلا الأقل، فلا يتم لهم ولا لمن بعدهم شىء من أمرهم. انتهى.

٥٤ـ فصل فى حِدثان[٣٤١](١٠٦٣ب) الدول والأمم وفيه الكلام عن الملاحم والكشف عن مسمى الجَفر[٦٥ب]

اعلم أن من خواص النفوس البشرية التشوف إلى عواقب أمورهم، وعلم ما يحدث لهم من حياة وموت وخير وشر، سيما[٤٥ج] الحوادث العامة كمعرفة ما بقى من الدنيا، ومعرفة مدد الدول أو تفاوتها. والتطلع إلى هذا طبيعةٌ للبشر مجبولون عليها. ولذلك نجد الكثير من الناس يتشوفون إلى الوقوف على ذلك فى المنام. والأخبار منْ الكهان لمن قصدهم بمثل ذلك من الملوك والسوقة معروفة. ولقد نجد فى المدن صنفًا من الناس ينتحلون المعاش من ذلك لعلمهم بحرص الناس عليه، فينتصبون لهم فى الطرقات والدكاكين يتعرضون لمن يسألهم عنه. فتغدو عليهم وتروح نسوان المدينة وصبيانها وكثير من ضعفاء العقول، يستكشفون عواقب أمرهم فى الكسب والجاه والمعاش والمعاشرة والعداوة وأمثال ذلك، ما بين خط فى الرمل ويسمونه المنجم، وطرق بالحصى والحبوب ويسمونه الحاسب، ونظر فى المرايا والمياه ويسمونه ضارب المندل. وهو من المنكرات الفاشية فى الأمصار، لما تقرر فى الشريعة من ذم ذلك، وأن البشر محجوبون عن الغيب إلا من أطلعه الله عليه من عنده فى نوم أو ولاية.

وأكثر ما يعتنى بذلك ويتطلع إليه الأمراء والملوك فى آماد دولتهم. ولذلك انصرفت العناية من أهل العلم إليه. وكل أمة من الأمم يوجد لهم كلام من

(١٠٦٣) فى القسم الخاص بتاريخ البربر من كتاب «العبر» (انظر آخر ص١٤٣ وص١٤٤ من تمهيدنا للمقدمة).

(١٠٦٣ ب) فى جميع النسخ «فصل فى ابتداء الدول» وكلمة «ابتداء» تحريف لكلمة «حِدْثان». وقد وردت صحيحة فى «التيمورية». (انظر شرح هذه الكلمة فى تعليق ٢٤١).

كاهن أو منجم أو ولى فى مثل ذلك من ملك يرتقبونه أو دولة يحدثون أنفسهم بها، وما يحدث لهم من الحرب والملاحم، ومدة بقاء الدولة، وعدد الملوك فيها، والتعرض لأسمائهم، ويسمى مثل ذلك الحِدْثان[٢٤١].

وكان فى العرب الكهان والعرافون يرجعون إليهم فى ذلك، وقد أخبروا بما سيكون للعرب من الملك والدولة، كما وقع لِشِقٍّ وسَطِيح[(١٠٦٤)] فى تأويل رؤيا ربيعة بن نصر من ملوك اليمن أخبرهم بملك الحبشة بلادهم ثم رجوعها إليهم ثم ظهور الملك والدولة للعرب من بعد ذلك. وكذا تأويل سطيح لرؤيا المُوبَذَان[١٦٠ب] حين بعث إليه كسرى بها مع عبدالمسيح[(١٠٦٥)]، وأخبرهم بظهور دولة العرب. وكذا كان فى جيل البربر كهان من أشهرهم موسى بن صالح من بنى يفرن ويقال: من غمرة، وله كلمات حِدْثَانِيَّة[٢٤١] على طريقة الشعر برطانتهم وفيها حِدْثان[٢٤١] كثير، ومعظمه فيما يكون لزناتة من الملك والدولة بالمغرب وهى متداولة بين أهل الجيل. وهم يزعمون تارة أنه ولى، وتارة أنه كاهن، وقد يزعم بعض مزاعمهم أنه كان نبيًّا، لأن تاريخه عندهم قبل الهجرة بكثير والله أعلم.

وقد يستند الجيل (فى ذلك)[(١٠٦٥ب)] إلى خبر الأنبياء إن كان لعهدهم، كما وقع لبنى إسرائيل؛ فإن أنبياءهم المتعاقبين فيهم كانوا يخبرونهم بمثله عندما يعنونهم فى السؤال عنه.

وأما فى الدولة الإسلامية فوقع منه كثير فيما يرجع إلى بقاء الدنيا ومدتها على العموم، وفيما يرجع إلى الدولة وأعمارها على الخصوص. وكان المعتمد فى ذلك فى صدر الإسلام آثار منقولة عن الصحابة، وخصوصًا مسلِمَة بنى إسرائيل، مثل كعب الأحبار ووهب بن مُنَبِّه وأمثالهما. وربما اقتبسوا بعض ذلك من ظواهر مأثورة وتأويلات محتملة.

(١٠٦٤) أولهما شِقٌّ بن أنمار الذئبى (من بنى ذئب)؛ والآخر سَطيح بن مازن الغسّانى. وقد عَلقت بهما أساطير كثيرة. فمن ذلك ما يروى من أن سطيحًا أخبر بمبعث النبى ﷺ وأنه عاش ثلثمائة سنة ومات فى أيام كسرى أنوشروان بعد مولده ﷺ، وأنه سمى بذلك لأنه لم يكن بين مفاصله قصب تعتمد عليه، فكان أبدًا منبسطًا منسطحًا على الأرض لايقدر على قيام ولا قعود وأنه كان يطوى كما يطوى الحصير وكان يتكلم بالأعاجيب. ومن ذلك ما يروى عن شِقٍّ من أنه كان نصف إنسان، فكانت له يد واحدة ورجل واحدة؛ ولذلك سمى «شِقًّا». وهو ابن خالة سَطيح. ويروى أن ولادتهما كانت فى يوم واحد، وأنه فى ذلك اليوم توفيت طريفة ابنة الخير الحميرية الكاهنة.

(١٠٦٥) هو عبدالمسيح بن عمر بن بقيلة الغسانى ابن أخت سطيح.

(١٠٦٥ب) الموضوع بين قوسين ( ) مثبت فى «التيمورية»، ولكنه ساقط من جميع النسخ الأخرى.

ووقع لجعفر وأمثاله من أهل البيت كثير من ذلك، مستندهم فيه، والله أعلم، الكشف بما كانوا عليه من الولاية. وإذا كان مثله لا ينكر من غيرهم من الأولياء فى ذويهم وأعقابهم، وقد قال ﷺ: «إن فيكم مُحَدَّثين[٣٢٢]»، فهم أولى الناس بهذه الرتب الشريفة والكرامات الموهوبة. وأما بعد صدر الملة، وحين علق الناس على العلوم والاصطلاحات، وترجمت كتب الحكماء إلى اللسان العربى، فأكثر معتمدهم فى ذلك كلام المنجمين فى الملك والدول وسائر الأمور العامة من القرانات وفى المواليد والمسائل وسائر الأمور الخاصة من الطوالع لها، وهى شكل الفلك عند حدوثها. فلنذكر الآن ما وقع لأهل الأثر فى ذلك ثم نرجع لكلام المنجمين.

* * *

أما أهل الأثر فلهم فى مدة الملل وبقاء الدنيا على ما وقع فى كتاب السهيلى فإنه نقل عن الطبرى ما يقتضى أن مدة بقاء الدنيا منذ الملة خمسمائة سنة، ونقض ذلك بظهور كذبه: ومستند الطبرى فى ذلك أنه نقل عن ابن عباس أن الدنيا جمعة من جمع الآخرة، ولم يذكر لذلك دليلا. وسره والله أعلم تقدير الدنيا بأيام خلق السموات والأرض وهى سبعة، ثم اليوم بألف سنة لقوله:﴿ . .وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[١٠٦٦] قال: وقد ثبت فى الصحيحين[١٠٠٨].

أن رسول الله ﷺ قال: «أجَلُكُم فى أجل من كان قبلكم، من صلاة العصر إلى غروب الشمس». وقال: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، وأشار بالسبابة والوسطى، وقدر ما بين صلاة العصر وغروب الشمس حين صيرورة ظل كل شىء مثليه، يكون على التقريب نصف سبع، وكذلك وصل الوسطى على السبابة، فتكون هذه المدة نصف سبع الجمعة كلها، هو خمسمائة سنة ويؤيده قوله ﷺ: «لن يعجزَ الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم»، فدل ذلك على أن مدة الدنيا قبل الملة خمسة آلاف وخمسمائة سنة.[١٠٦٧] وعن وهب بن مُنَبِّه أنها خمسة آلاف وستمائة سنة أعنى الماضى. وعن كعب أن مدة الدنيا كلها ستة آلاف سنة.

(١٠٦٦) آخر آية ٤٧ من سورة الحج وهى سورة ٢٢: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾.

(١٠٦٧) هكذا فى جميع النسخ، ولعله ستة آلاف وخمسمائة سنة، على أساس أن ما انقضى من الدنيا يساوى ستة أيام ونصف يوم، وأن ما بقى منها يساوى نصف يوم، وأن اليوم مقداره ألف سنة.

قال السهيلى: وليس فى الحديثين ما يشهد لشىء مما ذكره مع وقوع الوجود بخلافه. فأما قوله: «لن يعجز الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم» ، فلا يقتضى نفى الزيادة على النصف. وأما قوله: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، فإنما فيه الإشارة إلى القرب، وأنه ليس بينه وبين الساعة نبى غيره، ولا شرع غير شرعه.

ثم رجع السهيلى إلى تعيين أمد الملة من مدرك آخر، لو ساعده التحقيق، وهو أنه جمع الحروف المقطعة فى أوائل السور بعد حذف المكرر، قال: وهى أربعة عشر حرفًا يجمعها قولك (ألم يسطع نص حق كره) فأخذ عددها بحساب الجُمَّل فكان سبعمائة وثلاثة[(١٠٦٨)]، أضافه إلى المنقضى من الألف الآخر قبل بعثه، فهذه هى مدة الملة. قال: ولا يبعد أن يكون ذلك من مقتضيات هذه الحروف وفوائدها . قلت وكونه لا يبعد لا يقتضى ظهوره ولا التعويل عليه.

والذى حمل السهيلى على ذلك إنما هو ما وقع فى السِّيَر لابن إسحق فى حديث ابنى أخطب من أحبار اليهود، وهما أبو ياسر وأخوه حىٍّ، حين سمعا من الأحرف المقطعة «ألم» وتأولاها على بيان المدة بهذا الحساب، فبلغت إحدى وسبعين، فاستقلا المدة. وجاء حىٍّ إلى النبى ﷺ يسأله: هل مع هذا غيره؟ فقال (المص)، ثم استزاد (الر)، ثم استزاد (المر)، فكانت إحدى وسبعين ومائتين فاستطال المدة. وقال قد لُبِّس[٤٥٩] علينا أمرك يا محمد! حتى لا ندرى أقليلا أعطيت أم كثيراً، ثم ذهبوا عنه. وقال لهم أبو ياسر: ما يدريكم لعله أعطى عددها كلها تسعمائة وأربع سنين[(١٠٦٩)]. قال ابن

(١٠٦٨) علّق الهورينى على ذلك بما يلى: «هذا العدد غير مطابق، كما أن المترجم التركى لم يطابق فى قوله ٩٣٠، وإنما المطابق للحروف المذكورة ٦٩٣، وهو الموافق لما سيذكره عن يعقوب الكندى» (يقصد ما سيذكره ابن خلدون عن الكندى الفيلسوف نقلا عن جراس فى صفحة ٧٧٧).

وقد حسب الهورينى هذه الحروف على طريقة المشارقة فبلغ مجموعها ٦٩٣. أما السهيلى فيظهر أنه قد حسبها على طريقة المغاربة فبلغ مجموعها تسعمائة وثلاثة. ولذلك يظهر أن لفظ «سبعمائة» الموجود فى جميع نسخ المقدمة محرف عن «تسعمائة» وأن المترجم التركى قد حرف رقم ٩٠٣ إلى ٩٣٠. (انظر حساب الجُمَّل على طريقتى المشارقة والمغاربة فى تعليق ٣٣٦ صفحة ٤٣٩ من الجزء الأول).

هذا، وقد وردت هذه العبارة فى «التيمورية» كما يلى: «فكان تسعمائة وثلاثة تضاف إلى المنقضى من الألف الآخر قبل بعثته»؛ وهو متفق مع ما رجحناه.

وفى طبعة «دار الكتاب اللبنانى»: «لم يستطع...»، وهو خطأ وصوابه: «لم يسطع...» لأن التاء غير موجودة فى الحروف المقطعة فى أوائل السور، ولأن مجموع هذه الحروف أربعة عشر حرفًا لا خمسة عشر.

(١٠٦٩) لعله تسعمائة وثلاث سنين، حتى يطابق ما ذكرناه فى التعليق السابق. وفى «التيمورية» «لعله أعطى عددها كلها بسبعمائة وأربع سنين» وفى هامشها تصحيح: «بسبعمائة وثلاث وأربعين سنة».

إسـحق: فنزل قـوله تعـالى: ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُـحْكَمَـاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَـابِ وَأُخَـرُ مُتَشَابِهَاتٌ[١٠٧٠]ا هـ.

ولا يقوم من القصة دليل على تقرير الملة بهذا العدد، لأن دلالة هذه الحروف على الأعداد ليست طبيعية ولا عقلية. وإنما هى بالتواضع والاصطلاح الذى يسمونه حساب الجُمَّل. نعم إنه قديم مشهور، وقدم الاصطلاح لا يصير حجة[١٠٧١]. وليس أبو ياسر وأخوه حى ممن يؤخذ رأيه فى ذلك دليلاً، ولا من علماء اليهود، لأنهم كانوا بادية بالحجاز، غفلا من الصنائع والعلوم، حتى عن علم شريعتهم وفقه كتابهم وملتهم، وإنما يتلقفون مثل هذا الحساب كما تتلقفه العوام فى كل ملة. فلا ينهض للسهيلى دليل على ما ادعاه من ذلك.

ووقع فى الملة فى حِدْثَان[٣٤١] دولتها على الخصوص مسند من الأثر إجمالى فى حديث خرجه أبو داود عن حُذَيْفَة بن اليمَان، من طريق شيخه محمد بن يحيى الذهبى عن سعيد بن أبى مريم عن عبدالله بن فَرُّوخ عن أسامة بن زيد الليثى عن أبى قبيصة بن ذؤيب عن أبيه، قال: قال حذيفة بن اليمان: والله ما أدرى أنسى أصحابى أم تناسوه، والله ما ترك رسول الله ﷺ من قائد فئة إلى أن تنقضى الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعداً إلا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه وقبيلته. وسكت عليه أبو داود، وقد تقدم أنه قال فى رسالته: ماسكت عليه فى كتابه فهو صالح[١٠٧١ب]. وهذا الحديث إذا كان صحيحاً فهو مجمل، ويفتقر فى بيان إجماله وتعيين مبهماته إلى آثار أخرى يجود أسانيدها. وقد وقع إسناد هذا الحديث فى غير كتاب السنن[١٠٧١ج] على غير هذا الوجه. فوقع

(١٠٧٠) الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (آية ٧ من سورة آل عمران، وهى السورة الثانية). وقد اجتزأ ابن إسحق بجزء من الآية، مع أن المعنى الذى يريد تقريره لا يستفاد إلا إذا ذكرت الآية كلها.

وفى «التيمورية»: «فنزل قوله تعالى: ﴿ .. مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ .. ﴾الآية»، وهو وضع صحيح، لأنه يطلب أن تقرأ بقية الآية حتى تتم الدلالة.

(١٠٧١) كان الأوضح أن يقول: «ولكن قدم الاصطلاح لا يصير حجة».

(١٠٧١ب) انظر السطر الأخير من ص ٧٨٩ والأول من ص٧٩٠.

(١٠٧١ج) يقصد سنن أبى داود.

في الصحيحين[١٠٠٨] من حديث حُذَيفة أيضًا قال: قام رسول الله ﷺ فينا خطيبًا، فما ترك شيئًا يكون في مقامه ذاك إلى قيام الساعة إلا حدّث عنه، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابه هؤلاء. ا هـ. ولفظ البخاري ما ترك شيئًا إلى قيام الساعة إلا ذكره. وفي كتاب الترمذي[٢٠٠] من حديث أبي سعيد الخدري قال: صلى بنا رسول الله ﷺ يومًا صلاة العصر بنهار، ثم قام خطيبًا، فلم يدع شيئًا يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه ا هـ.

وهذه الأحاديث كلها محمولة على ما ثبت في الصحيحين[١٠٠٨] من أحاديث الفتن والأشراط[١٠٠٧] لا غير؛ لأنه المعهود من الشارع صلوات الله وسلامه عليه، في أمثال هذه العمومات. وهذه الزيادة ـ التي تفرد بها أبو داود في هذا الطريق(١٠٧٢) ـ شاذة منكرة، مع أن الأئمة اختلفوا في رجاله؛ فقال ابن أبي مريم في ابن فرُّوخ: أحاديثه مناكير؛ وقال البخاري: يعرف منه وينكر؛ وقال ابن عدي: أحاديثه غير محفوظة. وأسامة بن زيد(١٠٧٢ب) وإن خُرِّج له في الصحيحين[١٠٠٨]، ووثَّقه ابن معين، فإنما خَرَّج له البخاري استشهادًا، وضعَّفه يحيى بن سعيد وأحمد بن حنبل، وقال أبو حاتم: يُكتب حديثه ولا يُحْتج به. وأبو قبيصة بن ذؤيب مجهول. فتضعف هذه الزيادة[١٠٧٢] التي وقعت لأبي داود في هذا الحديث من هذه الجهات مع شذوذها كما مر.

وقد يستندون في حدْثان[٣٤١] الدول على الخصوص إلى كتاب الجَفْر، ويزعمون أن فيه علم ذلك كله من طريق الآثار والنجوم، لا يزيدون على ذلك، ولا يعرفون أصل ذلك ولا مستنده. واعلم أن كتاب الجفر كان أصله أن هارون بن سعيد العَجَلي ـ وهو رأس الزيدية ـ كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق، وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص. وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم على طريق الكرامة والكشف الذي يقع لمثلهم من الأولياء. وكان مكتوبًا عند جعفر في جلد ثور صغير، فرواه عنه

(١٠٧٢) وهي قوله: «ما ترك رسول الله ﷺ من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعدًا إلا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه وقبيلته». (انظر أول هذه الصفحة). ومعنى تفرد بها أبو داود، أي اختلف بها في هذا الحديث عما ورد في نظائره في البخاري ومسلم والترمذي.

(١٠٧٢ب) يقصد أسامة بن زيد الليثي، الذي ورد اسمه في سند هذا الحديث (انظر أول ٨٦٠).

هارون العَجِلِيّ وكتبه، وسماه الجفر باسم الجلد الذى كتب عليه؛ لأن الجفر فى اللغة هو الصغير(١٠٧٣)، وصار هذا الاسم عَلَمًا على هذا الكتاب عندهم. وكان فيه تفسير القرآن وما فى باطنه من غرائب المعانى مروية عن جعفر الصادق. وهذا الكتاب لم تتصل روايته ولا عرف عينه، وإنما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل. ولو صح السند إلى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستند من نفسه أو من رجال قومه، فهم أهل الكرامات، وقد صح عنه أنه كان يحذر بعض قرابته بوقائع تكون لهم، فتصح كما يقول. وقد حذر يحيى ابن عمه زيد من مصرعه وعصاه، فخرج وقتل بالجوزجان كما هو معروف. وإذا كانت الكرامة تقع لغيرهم فما ظنك بهم علمًا ودينًا وآثارًا من النبوة، وعناية من الله بالأصل الكريم تشهد لفروعه الطيبة. وقد ينقل بين أهل البيت كثير من هذا الكلام، غير منسوب إلى أحد. وفى أخبار دولة العُبَيْديين[٦١٧] كثير منه. وانظر ما حكاه ابن الرقيق فى لقاء أبى عبدالله الشيعى[٦١٨] لعبيد الله المهدى[٦١٧] مع ابنه محمد الحبيب، وما حدثاه به، وكيف بعثاه إلى ابن حوشب داعيتهم باليمن، فأمره بالخروج إلى المغرب، وبث الدعوة فيه على علم لُقِّنه أن دعوته تتم هناك، وأن عبيد الله[٦١٧] لما بنى المهدية بعد استفحال دولتهم بإفْرِيقِية[٤٩ب] قال: «بنيتها ليعتصم بها الفواطم ساعة من نهار» وأراهم موقف صاحب الحمار (بساحتها، وبلغ هذا الخبر حافده[١٠٥٦] إسماعيل المنصور، فلما حاصره صاحب الحمار(١٠٧٤) أبو يزيد

(١٠٧٣) «الجَفْر من أولاد المعز ما بلغ أربعة أشهر، وجَفَر جنباه اتسعا وفُصل عن أمه، والأنثى جَفْرة» (الصحاح).

«الجَفْرة من ولد الشاء ما جفر جنباه أى اتسع، وقال ابن الأنبارى فى تفسير حديث أم زرع: الجفرة الأنثى من ولد الضأن والذكر جفر والجمع جفار. وقيل الجفر من ولد المعز: ما بلغ أربعة أشهر والأنثى جفرة» (المصباح).

«الجَفْر من أولاد الشاء ما عظم واستكرش أو بلغ أربعة أشهر» (القاموس).

«قوله: من أولاد الشاء، عبارة الجوهرى (فى معجمه الصحاح): من أولاد المعز، ومثله أكثر اللغويين. اهـ عاصم. وفى الشارح: واقتصر فى المحكم (معجم لابن سيده) على الشاء وتبعه المصنف (يعنى الفيروز ابادى فى القاموس)» (هامش القاموس).

ومن هنا يظهر أنه لابد أن يكون فى العبارة التى نعلق عليها كلمات ساقطة، وأن يكون أصلها: «لأن الجفر فى اللغة هو ولد الشاء أو المعز الصغير، ثم أطلق على جلده، ثم أطلق على كل جلد صغير». وبهذا يستقيم قوله فيما سبق: «وكان مكتوبًا عند جفر فى جلد ثور صغير». ولعل كلمة ثور فى هذه العبارة الأخيرة محرفة عن «معز».

(١٠٧٤) الموضوع بين قوسين ساقط من جميع النسخ المتداولة، وقد عثرنا عليه فى «التيمورية»، وبدونه لا تكون العبارة مفهومة.

بالمهدية كان يسائل عن منتهى موقفه، حتى جاءه الخبر ببلوغه إلى المكان الذى عينه جده عبيد الله فأيقن بالظفر، وبرز من البلد، فهزمه واتبعه إلى ناحية الزاب[١٢١٥] فظفر به وقتله. ومثل هذه الأخبار عندهم كثيرة.

* * *

وأما المنجمون فيستندون فى حدثان[٢٤١] الدول إلى الأحكام النجومية. أما فى الأمور العامة مثل الملك والدول فمن القرانات، وخصوصًا بين العلويين. وذلك أن العلويين زحل والمشترى يقترنان فى كل عشرين سنة مرة، ثم يعود القران إلى برج آخر فى تلك المثلثة من التثليث الأيمن، ثم بعده إلى آخر كذلك، إلى أن يتكرر فى المثلثة الواحدة اثنتى عشرة مرة تستوى بروجه الثلاثة فى ستين سنة، ثم يعود فيستوى بها فى ستين سنة، ثم يعود ثالثة ثم رابعة بالمستوى فى المثلثة باثنتى عشرة مرة، وأربع عودات فى مائتين وأربعين سنة، ويكون انتقاله فى كل برج على التثليث الأيمن، وينتقل من المثلثة إلى المثلثة التى تليها أعنى البرج الذى يلى البرج الأخير من القران الذى قبله فى المثلثة. وهذا القران الذى هو قران العلويين. ينقسم إلى كبير وصغير ووسط: فالكبير هو اجتماع العلويين فى درجة واحدة من الفلك، إلى أن يعود إليها بعد تسعمائة وستين سنة مرة واحدة؛ والوسط هو اقتران العلويين فى كل مثلثة اثنتى عشرة مرة، وبعد مائتين وأربعين سنة ينتقل إلى مثلثة أخرى؛ والصغير هو اقتران العلويين فى درجة برج، وبعد عشرين سنة يقترنان فى برج آخر على تثليثه الأيمن فى مثل درجة أو دقائقه.

مثال ذلك وقع القران أول دقيقة من الحمل، وبعد عشرين يكون فى أول دقيقة من القوس، وبعد عشرين يكون فى أول دقيقة من الأسد، وهذه كلها نارية، وهذا كله قران صغير. ثم إلى أول الحمل بعد ستين سنة ويسمى دور القران وعود القران، وبعد مائتين وأربعين ينتقل من النارية إلى الترابية لأنها بعدها، وهذا قران وسط. ثم ينتقل إلى الهوائية ثم المائية، ثم يرجع إلى أول الحمل فى تسعمائة وستين سنة وهو الكبير. والقران الكبير يدل على عظام الأمور مثل تغيير الملك والدولة، وانتقال الملك من قوم إلى قوم؛ والوسط على ظهور المتغلبين والطالبين للملك؛ والصغير على ظهور الخوارج والدعاة وخراب المدن أو عمرانها. ويقع أثناء هذه القرانات قران النحسين فى برج السرطان فى كل ثلاثين سنة مرة ويسمى

الرابع. وبرج السرطان هو طالع العالم وفيه وبال زحل وهبوط المريخ، فتعظم دلالة هذا القران فى الفتن والحروب، وسفك الدماء، وظهور الخوارج، وحركة العساكر، وعصيان الجند، والوباء والقحط؛ ويدوم ذلك أو ينتهى على قدر السعادة والنحوسة فى وقت قرانهما على قدر تيسير الدليل فيه.

قال جراس بن أحمد الحاسب فى الكتاب الذى ألفه لنظام الملك: «ورجوع المريخ إلى العقرب له أثر عظيم فى الملة الإسلامية لأنه كان دليلها، فالمولد النبوى كان عند قران العلويين ببرج العقرب؛ فلما رجع هنالك حدث التشويش على الخلفاء وكثر المرض فى أهل العلم والدين ونقصت أحوالهم، وربما انهدم بعض بيوت العبادة. وقد يقال إنه كان عند قتل على رضى الله عنه، ومروان من بنى أمية، والمتوكل من بنى العباس. فإذا روعيت هذه الأحكام مع أحكام القرانات كانت فى غاية الإحكام».

«وذكر شاذان البلخى[١٠٧٥]: أن الملة تنتهى إلى ثلاثمائة وعشرين. وقد ظهر كذب هذا القول. وقال أبو معشر: يظهر بعد المائة والخمسين منها اختلاف كثير؛ ولم يصح ذلك».

وقال جراس: «رأيت فى كتب القدماء أن المنجمين أخبروا كسرى عن ملك العرب وظهور النبوة فيهم، وأن دليلهم الزُّهَرَة وكانت فى شرفها، فيبقى الملك فيهم أربعين سنة. وقال أبو معشر فى كتاب القرانات: القسمة إذا انتهت إلى السابعة والعشرين من الحوت فيها شرف الزُّهَرَة. ووقع القران مع ذلك ببرج العقرب وهو دليل العرب: ظهرت حينئذ دولة العرب وكان منهم نبى ويكون قوة ملكه ومدته على ما بقى من درجات شرف الزُّهَرَة، وهى إحدى عشرة درجة بتقريب من برج الحوت، ومدة ذلك ستمائة وعشر سنين. وكان ظهور أبى مسلم[١٠٧٦] عند انتقال الزُّهَرَة، ووقع القسمة أول الحمل، وصاحب الجد المشترى».

«وقال[١٠٧٥] يعقوب بن إسحق الكندى[١٠٤٨ب]: إن مدة الملة تنتهى إلى ستمائة وثلاث وتسعين سنة[١٠٦٨] قال: لأن الزُّهَرَة كانت عند قران الملة ثمان وعشرين درجة وثلاثين دقيقة من الحوت. فالباقى إحدى عشرة درجة وثمانى عشرة دقيقة ودقائقها ستون، فيكون ستمائة وثلاثًا وتسعين سنة. قال: وهذه مدة الملة

(١٠٧٥) متابعة للنص الذى ينقله ابن خلدون عن جراس.

(١٠٧٦) يقصد أبا مسلم الخراسانى داعية بنى العباس وموطد دولتهم.

باتفاق الحكماء، ويعضده الحروف الواقعة فى أول السور بحذف المكرر واعتباره بحساب الجُمَّل». قلت وهذا هو الذى ذكره السهيلى. والغالب أن الأول هو مستند السهيلى فيما نقلناه عنه(١٠٧٧).

قال جراس[١٠٧٥]: «سأل هرمز إفريد الحكيم عن مدة أردشير وولده وملوك الساسانية فقال: دليل ملكه المُشْتَرى، وكان فى شرفه فيعطى أطول السنين وأجودها، أربعمائة وسبعًا وعشرين سنة، ثم تزيد الزُّهَرَة، وتكون فى شرفها وهى دليل العرب، فيملكون لأن طالع القران الميزان، وصاحبه الزُّهَرَة، وكانت عند القران فى شرفها، فدل أنهم يملكون ألف سنة وستين سنة. وسأل كسرى أنوشروان وزيره بزرجمهر الحكيم عن خروج الملك من فارس إلى العرب، فأخبره أن القائم منهم يولد لخمس وأربعين من دولته، ويملك المشرق والمغرب، والمُشْتَرى يغوص إلى الزُّهَرَة، وينتقل القران من الهوائية إلى العقرب، وهو مائى وهو دليل العرب. فهذه الأدلة تفضى للملة أمية: دَوْر الزُّهَرَة وهى ألف وستون سنة. وسأل كسرى أبرويز أليوس الحكيم عن ذلك، فقال مثل قول بزرجمهر. وقال توفيل الرومى المنجم فى أيام بنى أيمة إن ملة الإسلام تبقى مدة القران الكبير تسعمائة وستين سنة، فإذا عاد القران إلى برج العقرب كما كان فى ابتداء الملة، وتغير وضع الكواكب عن هيئتها فى قران الملة، فحينئذ إما أن يفتر العمل به أو يتحدد من الأحكام ما يوجب خلاف الظن».

قال جراس[١٠٧٥]: «واتفقوا على أن خراب العالم يكون باستيلاء الماء والنار، حتى تهلك سائر المكونات، وذلك عندما يقطع قلب الأسد أربعًا وعشرين درجة. التى هى حد المريخ وذلك بعد مضى تسعمائة وستين سنة».

وذكر جراس[١٠٧٥]: «أن ملك زابلستان بعث إلى المأمون بحكيمه ذوبان أتحفه به فى هدية وأنه تصرف للمأمون فى الاختبارات بحروب أخيه وبعقد اللواء لطاهر، وأن المأمون أعظم حكمته، فسأله عن مدة ملكهم فأخبره بانقطاع الملك من عقبه واتصاله فى ولد أخيه، وأن العجم يتغلبون على الخلافة من الديلم فى دولة سنة خمسين، ويكون ما يريده الله، ثم يسوء حالهم، ثم تظهر الترك من شمال المشرق فيملكونه إلى الشام والفرات وسيحون وسيملكون بلاد الروم، ويكون ما يريده الله. فقال له المأمون: من أين لك هذا؟ فقال من كتب الحكماء

(١٠٧٧) انظر صفحة ٨٢٥.

ومن أحكام صصة بن داهر الهندى الذى وضع الشطرنج». قلت: والترك الذين أشار إلى ظهورهم بعد الديلم هم السلجوقية، وقد انقضت دولتهم أول القرن السابع.

وقال جراس[١٠٧٥]: «وانتقال القران إلى المثلثة المائية من برج الحوت يكون سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ليزدجرد وبعدها إلى برج العقرب حيث كان قران الملة سنة ثلاث وخمسين. قال: والذى فى الحوت هو أول الانتقال والذى فى العقرب يستخرج منه دلائل الملة. قال: وتحويل السنة الأولى من القرن الأول فى المثلثات المائية فى ثانى رجب سنة ثمان وستين وثمانمائة(١٠٧٨)». ولم يستوف الكلام على ذلك.

وأما مستند المنجمين فى دولةٍ على الخصوص، فمن القرن الأوسط وهيئة الفلك عند وقوعه، لأن له دلالة عندهم على حدوث الدولة، وجهاتها من العمران، والقائمين بها من الأمم، وعدد ملوكهم وأسمائهم وأعمارهم ونحلهم وأديانهم وعوائدهم وحروبهم، كما ذكر أبو معشر فى كتابه فى القرانات. وقد توجد هذه الدلالة من القران الأصغر إذا كان الأوسط دالا عليه، فمن هذا يوجد الكلام فى الدول.

وقد كان يعقوب بن إسحق الكندى[١٠٤٨ب] منجم الرشيد والمأمون وضع فى القرانات الكائنة فى الملة كتاباً سماه الشيعةُ بالجَفْر، باسم كتابهم المنسوب إلى جعفر الصادق[١٠٧٣] وذكر فيه فيما يقال حِدْثان[٢٤١] دولة بنى العباس، وأنها نهايته، وأشار إلى انقراضها والحادثة على بغداد أنها تقع فى انتصاف المائة السابعة، وأن بانقراضها يكون انقراض الملة. ولم نقف على شىء من خبر هذا الكتاب ولا رأينا من وقف عليه؛ ولعله غرق فى كتبهم التى طرحها هُلاكو ملك التتر فى دجلة عند استيلائهم على بغداد وقتل المستعصم آخر الخلفاء. وقد وقع بالمغرب جزء منسوب إلى هذا الكتاب يسمونه الجفر الصغير، والظاهر أنه وضع لبنى عبدالمؤمن، لذكر الأولين من الملوك الموحدين فيه على التفصيل، ومطابقة من تقدم عن ذلك من حدْثانه[٢٤١] وكذب ما بعده.

وكان فى دولة بنى العباس من بعد الكندى منجمون وكُتُبٌ فى الحدْثان[٢٤١]، وانظر ما نقله الطبرى فى أخبار المهدى عن أبى بديل من أصحابِ صنائع

(١٠٧٨) انتهى هنا النص المنقول عن جراس.

الدولة، قال: بعث إلىّ الربيع والحسن فى غزاتهما [٥٩٠] مع الرشيد أيام أبيه، فجئتهما جوف الليل، فإذا عندهما كتاب من كتب الدولة يعنى الحدْثان[٢٤١]، وإذا مدة المهدى فيه عشر سنين. فقلت هذا الكتاب لا يخفى على المهدى، وقد مضى من دولته ما مضى، فإذا وقف عليه كنتم قد نعيتم إليه نفسه. قالا: فما الحيلة؟ فاستدعيت عنبسة الورّاق مولى آل بديل، وقلت له انسخ هذه الورقة؛ واكتب مكان عشر أربعين ففعل. فوالله لولا أنى رأيت العشرة فى تلك الورقة والأربعين فى هذه ما كنت أشك أنها هى.

ثم كتب الناس من بعد ذلك فى حِدْثان[٢٤١] الدول منظومًا ومنثورًا ورجزًا ماشاء الله أن يكتبوه؛ وبأيدى الناس متفرقة كثير منها، وتسمى الملاحم. وبعضها فى حِدْثان[٢٤١] الملة على العموم، وبعضها فى دولة على الخصوص. وكلها منسوبة إلى مشاهير أهل الخليقة. وليس منها أصل يعتمد على روايته عن واضعه المنسوب إليه.

فمن هذه الملاحم بالمغرب قصيدة ابن مرانة من بحر الطويل على رَوِىّ الراء وهى متداولة بين الناس. وتحسب العامة أنها من الحِدْثان[٢٤١] العام فيطلقون الكثير منها على الحاضر والمستقبل. والذى سمعناه من شيوخنا أنها مخصوصة بدولة لمتونة، لأن الرجل كان قُبَيْل دولتهم، وذكر فيها استيلاءهم على سَبْتَة[٢٢١ب] من يد موالى بنى حمود وملكهم لعُدْوة الأندلس.

ومن الملاحم بيد أهل المغرب أيضًا قصيدة تسمى التُّبَّعيَّة أولها:

طربت وما ذاك منى طربْ ... وقد يطرب الطائر المغتصب[١٠٧٨ب]
وما ذاك منى لِلَهْوٍ أراه ... ولكن لتذكار بعض السببْ

قريبًا من خمسمائة بيت أو ألف فيما يقال. ذكر فيها كثيرًا من دولة الموحدين وأشار فيها إلى الفاطمى وغيره. والظاهر أنها مصنوعة.

ومن الملاحم بالمغرب أيضًا مَلْعَبَةٌ من الشعر الزجلى منسوبة لبعض اليهود، ذكر فيها أحكام القرانات لعصره العُلْوِيَّيْنِ والنَحْسَيْن وغيرهما، وذكر ميتته قتيلا بفاس. وكان كذلك فيما زعموه. وأوله:

(١٠٧٨ب) هكذا وردت هذه الكلمة فى «التيمورية». وفى النسخ الأخرى «المغتضب» بالضاد المعجمة، وهو تحريف.

فى صبغ ذا الأزرق لشرفه خيارًا ... فافهموا يا قوم هذى الإشارا

نجم زحل بذى أخبر بذى العلاما ... وبدل الشكلا وهى سلاما

شاشية زرقا بدل العماما ... وشاش أزرق بدل الغفارا[(١٠٧٨ج)]

يقول فى آخره:

قد تم ذا التجنيس لإنسان يهودى ... يصلب ببلدة فاس فى يوم عيد[(١٠٧٨د)]

حتى يجيه الناس من البوادى ... وقتله يا قوم على الفراد[(١٠٧٨هـ)]

وأبياته نحو الخمسمائة، وهى فى القرانات التى دلت على دولة الموحدين.

ومن ملاحم المغرب أيضًا قصيدة من عَروض المتقارب على رَوِىّ الباء فى حِدْثَان[٣٤١] دولة بنى أبى حفص بتونس من الموحدين، منسوبة لابن الأبار. وقال لِى قاضى قسنطينة[٢١٥د] الخطيب الكبير أبو على بن باديس. وكان بصيرًا بما يقوله، وله قدم فى التنجيم، فقال لى: إن هذا ابن الأبار ليس هو الحافظ الأندلسى الكاتب مقتول المستنصر، وإنما هو رجل خياط من أهل تونس تواطأت شهرته مع شهرة الحافظ. وكان والدى رحمه الله تعالى ينشد هذه الأبيات من هذه الملحمة وبقى بعضها فى حفظى مطلعها.

عـذيري مـن زمـن قُـلَّـبِ ... يَـغُـرُّ ببـارقه الأشنب

ومنها:

ويبعث من جيشه قائدًا ... ويبقى هناك على مرقب

فتأتى إلى الشيخ أخْبَارُهُ ... فَـيُـقْـبِلُ كالجمل الأجرب

ويُظْهِرُ من عدله سِيرَةً ... وتلك سياسة مستجلب

ومنها فى ذكر أحوال تونس على العموم:

فإمّا[(١٠٧٩)] رأيْتَ الرسوم انمحت ... ولم يُرْعَ حقٌ لذى منصب

(١٠٧٨ج) فى «التيمورية»: «وطاشرًا أزرق بدل الغفارا».

(١٠٧٨د) فى «التيمورية»: «يصلب على واد فاس فى يوم عيد».

(١٠٧٨هـ) فى «التيمورية»: «وقتل يا قوم على الغرارا».

(١٠٧٩) علق الهورينى على ذلك بقوله: «قوله: فإما رأيت...، أصله فإن رأيت، زيدت ما وأدغمت فى إن الشرطية المحذوف نونها خطًا. وفى نسخة: فلما رأيت. والأولى هى الموجودة فى النسخة التونسية» (انظر ص ٢٤٧ من الجزء الأول من هذه الطبعة).

=

فخذ في الترحل عن تونس وودّع معالمها واذهب
فسوف تكون بها فتنة تُضيف البرىء إلى المذنب

ووقفت بالمغرب على ملحمة أخرى فى دولة بنى أبى حفص هؤلاء بتونس، فيها بعد السلطان أبى يحيى الشهير عاشر ملوكهم ذِكْرُ محمدٍ أخيه من بعده.

يقول فيها:

وبعد أبى عبد الإله شقيقه ويعرف بالوثاب فى نسخة الأصل

إلا أن هذا الرجل لم يملكها بعد أخيه، وكان يُمَنِّى بذلك نفسَه إلى أن هلك.

ومن الملاحم فى المغرب أيضًا المَلْعَبَة المنسوبة إلى الهوشنى[١٠٧٩ب] على لغة العامة فى عروض البلد التى أولها:

دعنى بدمعى الهتان فترت الأمطار ولم تفتر
واستقت كلها الويدان وأنى تملى وتنغدر
البلاد كلها تروى فاولى ما ميل ما تدرى
ما بين الصيف والشتوى والعام والربيع تجرى
قال حين صحت الدعوى دعنى نبكى ومن عذر
أنادى من ذى الأزمان ذا القرن اشتد وتمرى

وهى طويلة ومحفوظة بين عامة المغرب الأقصى؛ والغالب عليها الوضع، لأنه لم يصح منها قول إلا على تأويل تحرِّفه العامة أو الحارف فيه من ينتحلها من الخاصة.

ووقفت بالمشرق[١٠٨٠] على ملحمة منسوبة لابن العربى الحاتمى[١٠٤٧ب] فى كلام

= والصحيح: «فإما رأيت»، بدليل الجواب عن هذا الشرط بقوله فى البيت التالى: «فَخُذْ». وهذا تركيب عربى شائع فصيح، وقد ورد فى القرآن الكريم فى عدة آيات، ومنها قوله تعالى لمريم ﴿.. فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ (آية ٢٦ من سورة مريم وهى سورة ١٩).

هذا، وفى «التيمورية»: «امَّحَتْ» بالإدغام، بدل: «انمحت» وكلاهما صحيح.

(١٠٧٩ب) هكذا ورد فى «التيمورية». وفى غيرها: «الهوثنى» بالثاء.

(١٠٨٠) انظر صفحة ٢٤٩ من الجزء الأول من هذه الطبعة.

طويل شبه ألغاز لا يعلم تأويله إلا الله لتخلله أوفاق عددية، ورموز ملغوزة، وأشكال حيوانات تامة، ورءوس مقطعة، وتماثيل من حيوانات غريبة. وفى آخرها قصيدة على روى اللام، والغالب أنها كلها غير صحيحة. لأنها لم تنشئ عن أصل علمى من نجامة ولا غيرها.

وسمعت أيضًا أن هناك ملاحم أخرى منسوبة لابن سينا وابن عقب، وليس فى شىء منها دليل على الصحة، لأن ذلك إنما يؤخذ من القرانات.

ووقفت بالمشرق[١٠٨٠] أيضاً على ملحمة من حدْثان[٣٤١] دولة الترك منسوبة إلى رجل من الصوفية يسمى الباجريقى وكلها ألغازٌ بالحروف، أولها:

إن شئت تكشف سر الجفر يا سائلى   من علم جفر وصى والد الحسن
فافهم وكن واعياً حرفاً وجملته   والوصف فافهم كفعل الحاذق الفطن
أما الذى قبل عصرى لست أذكره   لكننى أذكر الآتى من الزمن
بشهر بيبرس يبقى بعد خمستها   بحاء ميم بطيش نام فى الكنن
شين له أثر من تحت سرته   له القضاء قضى أى ذلك المنن
فمصر والشام مع أرض العراق له   وأذربيجان فى ملك إلى اليمن

ومنها:

وآل بوزان لما نال طاهرهم   الفاتك الباتك المعنىُّ بالسمن
لخلع سين ضعيف السن سين أتى   لا لو فاق ونون ذى قرن
قوم شجاع له عقل ومشورة   يبقى بحاء وأين بعد ذو سمن

ومنها:

من بعد باء من الأعوام قتلته   يلى المشورة ميم الملك ذو اللسن

ومنها:

هذا هو الأعرج الكلبى فاعن به   فى عصر فتن ناهيك من فتن
يأتى من الشرق فى جيش يقدمهم   عار عن القاف قاف جد بالفتن
بقتل دال ومثل الشام أجمعها   أبدت بشجو على الأهلين والوطن
إذا أتى زلزلت يا ويح مصر من الز   لزال مازال حاء غير مقتطن

طاء وظاء وعين كلهم حبسوا ... هلكا وينفق أموالا بلا ثمن
يسير القاف قافاً عند جمعهم ... هون به إن ذاك الحصن في سكن
وينصبون أخاه وهو صالحهم ... لا سلم الألف سين لذاك بنى
نمت ولايتهم بالحاء لا أحد ... من السنين يدانى الملك فى الزمن

ويقال: إنه أشار إلى الملك الظاهر وقدوم أبيه عليه بمصر:

يأتي إليه أبوه بعد هجرته ... وطول غيبته والشظف والزرن

وأبياتها كثيرة والغالب أنها موضوعة، ومثل صنعتها كان فى القديم كثيرًا أو معروف الانتحال.

حكى المؤرخون لأخبار بغداد أنه كان أيام المقتدر وَرَّاق ذكى يعرف بالدنيالى، يبل الأوراق ويكتب فيها بخط عتيق يرمز فيه بحروف من أسماء أهل الدولة، ويشير بها إلى ما يعرف ميلهم إليه من أحوال الرفعة والجاه كأنها ملاحم، ويحصل على ما يريد منهم من الدنيا، وأنه وضع فى بعض دفاتره ميمًا مكررة ثلاث مرات، وجاء به إلى مفلح مولى مقتدر وكان عظيمًا فى الدولة(١٠٨٠ب)، فقال له: هذا كتابه عنك، وهو مفلح مولى مقتدر (ميم فى كل واحدة ١٠٨٠ب)، وذكر عندها ما يعلم فيه رضاه مما يناله من الدولة ونصب له علامات لذلك من أحواله المتعارفة مَوَّه بها عليه، فبذل له ما أغناه به(١٠٨٠ج). ثم وضعه للوزير (الحسن) ١٠٨٠ب بن القاسم بن وهب (على مفلح هذا(١٠٨٠د))، وكان معزولا فجاءه بأوراق مثلها، وذكر اسم الوزير بمثل هذه الحروف، وبعلامات ذكرها وأنه يلى الوزارة للثامن عشر(١٠٨٠هـ) من الخلفاء وتستقيم الأمور على يديه، ويقهر الأعداء، وتعمر الدنيا فى أيامه. وأوقف [٤٥ب] مفلحًا هذا على الأوراق وذكر فيها كوائن أخرى، وملاحم من هذا النوع، مما وقع ومما لم يقع، ونسب جميعه إلى دانيال. فأعجب به مفلح. ووقف عليه المقتدر، واهتدى من تلك الأمور والعلامات إلى ابن وهب، وكان ذلك

(١٠٨٠ب) الموضوع بين قوسين مثبت فى التيمورية وساقط من النسخ الأخرى.

(١٠٨٠ج) أثبتنا هذه العبارة: «وذكر عندها ما يعلم» إلى قوله «فبذل له ما أغناه به» حسب ما ورد فى «التيمورية» وهى أوضح مما ورد فى غيرها.

(١٠٨٠د) الكلمات الموضوعة بين قوسين مثبتة فى جميع النسخ، ويظهر لى أنها زائدة فى الجملة وأن المعنى لا يستقيم إلا بحذفها.

(١٠٨٠هـ) فى «التيمورية»: «الثامن عشر»، وفى النسخ الأخرى: «الثانى عشر».

سببًا لوزارته بمثل هذه الحيلة العريقة فى الكذب والجهل بمثل هذه الألغاز. والظاهر أن هذه الملحمة التى ينسبونها إلى الباجريقى من هذا النوع.

ولقد سألت أكمل الدين ابن شيخ الحنفية من العجم بالديار المصرية[١٠٨٠] عن هذه الملحمة وعن هذا الرجل الذى تنسب إليه من الصوفية وهو الباجريقى، وكان عارفًا بطرائقهم، فقال: كان من القلندرية المبتدعة فى حلق اللحية، وكان يتحدث عما يكون بطريق الكشف ويومى إلى رجال معينين عنده، ويلغز عليهم بحروف يعينها فى ضمنها لمن يراه منهم. وربما يظهر نظم ذلك فى أبيات قليلة كان يتعاهدها فتنوقلت عنه، وولع الناس بها وجعلوها ملحمة مرموزة، وزاد فيها الخرَّاصون[١٠٨١] من ذلك الجنس فى كل عصر، وشغل العامة بفك رموزها، وهو أمر ممتنع، إذ الرمز إنما يهدى إلى كشفه قانون يعرف قبله، ويوضع له، وأما مثل هذه الحروف فدلالتها على المراد منها مخصوصة بهذا النظم لا يتجاوزه. فرأيت من كلام هذا الرجل الفاضل شفاء لما كان فى النفس من أمر هذه الملحمة.

﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾[١٠٨٢]. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق[١٠٨٣].

(١٠٨١) «خَرَصَ خَرْصاً كذب فهو خارص وخَرَّاص» (المصباح).

(١٠٨٢) جزء من آية ٤٣ من سورة الأعراف، وهى سورة ٧: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

(١٠٨٣) عبارة: والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق» غير موجودة فى «التيمورية». وبعد أن وُضعتْ فى هذه النسخة علامة على ختام الباب، كتب تحت هذه العلامة بخط فارسى (وخط النسخة نفسه من خط النسخ) العبارة الآتية:

«ثم وقفت بعد ذلك وأنا بدمشق عند حلولى مع الركاب بها سنة اثنتين وثمانمائة وأنا على قضاء المالكية بمصر، فوقفت على تاريخ ابن كثير فى سنة أربع وعشرين وسبعمائة فى ترجمة التعريف بهذا الرجل، فقال: شمس الدين محمد الباجريقى الذى نسبت إليه الفرقة الضالة الباجريقية، والمشهور عندهم إنكار الصانع. وكان والده جمال الدين عبدالرحيم بن عمر الموصلى رجلا صالحًا من علماء الشافعية، ودرس فى مدارس دمشق، ونشأ ابنه هذا بين الفقهاء، فاشتغل قليلاً، ثم أقبل على السلوك، ولازمه جماعة يعتقدون فيه ممن هو على طريقته. ثم حكم القاضى المالكى بإراقة دمه، وهرب إلى المشرق. ثم أقام البينة بالعداوة بينه وبين من شهد عليه. وحكم الحنبلى بحقن دمه. وأقام بالقابون مدة سنين. وتوفى ليلة الأربعاء السادس عشر ربيع الآخر سنة أربع وعشرين (يعنى وسبعمائة).

ومن هذا يظهر أن الناسخ قد نقل هذه العبارة عن تعليق أضافه ابن خلدون نفسه إلى ما كانت عليه المقدمة قبل سنة ٨٠٢، ووضعه على هامشها. (انظر ٢٤٧–٢٥٠ وخاصة ٢٥٠ من الجزء الأول).

الباب الرابع[165]
فى البلدان والأمصار وسائر العمران وما يعرض فى ذلك من الأحوال وفيه سوابق ولواحق(1084)

1- فصل فى أن الدول أقدم من المدن والأمصار وأنها إنما توجد ثانية عن الملك

وبيانه؛ أن البناء واختطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة التى يدعو إليها الترف والدعة كما قدمناه، وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها. وأيضًا فالمدن والأمصار ذات هياكل وأجرام عظيمة وبناء كبير، وهى موضوعة للعموم لا للخصوص، فتحتاج إلى اجتماع الأيدى وكثرة التعاون، وليست من الأمور الضرورية للناس التى تعم بها البلوى حتى يكون نزوعهم إليها اضطرارًا، بل

(1084) عرض ابن خلدون فى هذا الباب لما سماه العلاّمة دور كايم «المورفولوجيا الاجتماعية» La Morphologie Sociale أى علم البِنْيَة الاجتماعية، وهى الشعبة التى تعالج الظواهر المتصلة بطريقة التجمع الإنسانى، وبالنظم التى يسير عليها المجتمع فى إنشاء مواطن التجمع كالمدن والقرى والأمصار والمساكن، والطرق التى يتبعها فى تصميمها وأشكالها ومرافقها ووظائفها ومواقعها بالنسبة إلى الجبال والبحار والأنهار والبحيرات.. وجميع ما يتصل بهذه الشئون. وقد ظن دور كايم وأعضاء مدرسته أنهم أول من فطن إلى الخواص الاجتماعية لهذه الظواهر، وأول من أدخلها فى مسائل علم الاجتماع. ولم يدروا أنه قد سبقهم إلى ذلك ابن خلدون بأكثر من خمسة قرون (انظر صفحة 186).

هذا، وقد عالج ابن خلدون فى بعض الفصول من هذا الباب أمورًا تتصل بشئون الاقتصاد ولكنها متأثرة بالظواهر المورفولوجية (انظر تمهيدنا للمقدمة، الجزء الأول ص187 والتعليق الأول المدون فيها).

لابد من إكراههم على ذلك، وسوقهم إليه مضطهدين بعصا الملك أو مُرَغَّبين فى الثواب والأجر الذى لا يفى بكثرته إلا الملك والدولة. فلابد فى تمصير الأمصار واختطاط المدن من الدولة والملك.

ثم إذا بنيت المدينة وكمل تشييدها بحسب نظر من شيدها، وبما اقتضته الأحوال السماوية والأرضية فيها، فعمر الدولة حينئذ عمر لها: فإن كان عمر الدولة قصيراً وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمرانها وخربت؛ وإن كان أمد الدولة طويلا ومدتها منفسحة فلا تزال المصانع فيها تشاد، والمنازل الرحيبة تكثر وتتعدد، ونطاق الأسواق يتباعد وينفسح، إلى أن تتسع الخِطَّة[٧٣]، وتبعد المسافة، وينفسح ذرع المساحة، كما وقع ببغداد وأمثالها. ذكر الخَطيب فى تاريخه أن الحمامات بلغ عددها ببغداد لعهد المأمون خمسة وستين ألف حمام، وكانت مشتملة على مدن وأمصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الأربعين، ولم تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد لإفراط العمران. وكذا حال القيروان وقرطبة والمهدية فى الملة الإسلامية، وحال مصر القاهرة بعدها فيما يبلغنا لهذا العهد(١٠٨٥).

وأما بعد انقراض الدولة المشَيِّدَة للمدينة: فإما أن يكون لضواحى تلك المدينة وما قاربها من الجبال والبسائط مادة تفيدها(١٠٨٥ب) العمرانَ دائمًا، فيكون ذلك حافظًا لوجودها، ويستمر عمرها بعد الدولة كما تراه بفاس وبِجَاية[٢١٥ج] من المغرب، وبعراق العجم من المشرق الموجود لها العمران من الجبال، لأن أهل البداوة إذا انتهت أحوالهم إلى غاياتها من الرَّفْه[٥٠٧] والكسب، تدعو إلى الدَّعَة والسكون الذى فى طبيعة البشر، فينزلون المدن والأمصار ويتأهلون(١٠٨٦)؛ وأما إذا لم يكن لتلك المدينة المؤسسة مادة تفيدها العمران بترادف الساكن من بدوها، فيكون انقراض الدولة خرقًا لسياجها، فيزول حفظها، ويتناقص عمرانها شيئًا فشيئًا إلى أن يَبْذَعِر[٤٢٩] ساكنها وتخرب، كما وقع بمصر وبغداد والكوفة بالمشرق،

(١٠٨٥) كتب ابن خلدون هذا وهو فى المغرب قبل قدومه إلى مصر، ولم يغيره فى تعديله المقدمة بعد قدومه إليها. (انظر ما كتبناه فى هذا الموضوع فى تمهيدنا للمقدمة صفحات ٢٤٧-٢٥٠).

(١٠٨٥ب) فى جميع النسخ «بادية يمدها» وهو تحريف.

(١٠٨٦) هكذا فى جميع النسخ. وفى النسخة «التيمورية» «ويتأهلون فيها» ويظهر لى أنها محرفة عن «يتأثلون» بالثاء من أثل يأثِل أثولا وتأثل بمعنى تأصل واستقر (انظر تعليق ٤٧٥ب). ويكون المعنى يتأصلون ويستقرون. وهذه الكلمة يستخدمها ابن خلدون كثيرا فى مثل هذا المقام.

والقيروان والمهدية وقلعة بنى حماد بالمغرب، وأمثالها فتفهمه. وربما ينزل المدينة بعد انقراض مختطيها الأولين مَلكٌ آخر ودولة ثانية، يتخذها قرارًا وكرسيًا يستغنى بها عن اختطاط مدينة ينزلها، فتحفظ تلك الدولة سياجها وتتزايد مبانيها ومصانعها بتزايد أحوال الدولة الثانية وترفها، وتستجد بعمرانها عمرًا آخر كما وقع بفاس والقاهرة لهذا العهد. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

٢ - فصل فى أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار

وذلك أن القبائل والعصائب إذا حصل لهم الملك اضطروا للاستيلاء على الأمصار لأمرين؛ أحدهما : ما يدعو إليه الملك من الدعة والراحة وحط الأثقال واستكمال ما كان ناقصًا من أمور العمران فى البدو؛ والثانى : دفع مايُتَوقَّعُ على الملك من أمر النازعين والمشاغبين، لأن المصر الذى يكون فى نواحيهم ربما يكون ملجأ لمن يروم منازعتهم والخروج عليهم وانتزاع ذلك الملك الذى سموا إليه من أيديهم، فيعتصم بذلك المصر ويغالبهم، ومغالبة المصر على نهاية من الصعوبة والمشقة؛ والمصر يقوم مقام العساكر المتعددة لما فيه من الامتناع ونكاية الحرب من وراء الجدران من غير حاجة إلى كثير عدد ولا عظيم شوكة لأن الشوكة والعصابة إنما احتيج إليهما فى الحرب للثبات، لما يقع من بعد كرَّة القوم بعضهم على بعض عند الجولة، وثباتُ هؤلاء بالجدران، فلا يضطرون إلى كبير عصابة ولا عدد. فيكون حال هذا الحصن ومن يعتصم به من المنازعين مما يَفُتّ(١٠٨٧) فى عضد الأمة التى تروم الاستيلاء، ويخضدُ(١٠٨٨) شوكة استيلائها. فإذا كانت بين أحيائهم(١٠٨٨ب) أمصار انتظموها فى استيلائهم، للأمن من مثل هذا الانخرام[٨٦٢]. وإن لم يكن هناك مصر استحدثوه ضرورة لتكميل عمرانهم أوّلاً وحط أثقالهم، وليكون ثانيًا شجًا فى حلق من يروم العزة والامتناع عليهم من طوائفهم وعصائبهم. فتعين أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار والاستيلاء عليها. والله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق لا رب سواه.

(١٠٨٧) فتّ يفُتّ من باب رد بمعنى كسر وأضعف.

(١٠٨٨) خضد الشجر قطع شوكه بابه ضرب فهو خضيد ومخضود (المختار) ومنه قوله تعالى:﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ (آية ٢٨ من سورة الواقعة، وهى سورة ٥٦).

(١٠٨٨ب) هكذا وردت هذه الكلمة فى النسخة «التيمورية» ووردت فى جميع النسخ المتداولة محرفة إلى «أجنابهم».

٣ ـ فصل فى أن المدن العظيمة والهياكل المرتفعة إنما «يُشَيِّدها[١٠٨٩] الملك الكثير

قد قدمنا ذلك فى آثار الدولة من المبانى وغيرها[١٠٩٠]، وأنها تكون على نسبتها. وذلك أن تشييد المدن إنما يحصل باجتماع الفَعَلة وكثرتهم وتعاونهم؛ فإذا كانت الدولة عظيمة متسعة الممالك حُشِر الفَعَلة من أقطارها، وجُمعت أيديهم على عملها. وربما استعين فى ذلك فى أكثر الأمر بالهندام[١٠٩١] الذى يضاعف القوى والقُدَر فى حمل أثقال البناء، لعجز القوة البشرية وضعفها عن ذلك، كَالمَحال[١٠٩٢] وغيره. وربما يتوهم كثير من الناس إذا نظر إلى آثار الأقدمين ومصانعهم العظيمة، مثل إيوان كسرى، وأهرام مصر، وحنايا المعلقة وشرشال بالمغرب، أنها كانت بقدرتهم متفرقين أو مجتمعين، فيتخيل لهم أجسامًا تناسب ذلك أعظم من هذه بكثير فى طولها وقُدَرها لتناسب بينها وبين القُدَر التى صدرت تلك المبانى عنها، ويَغْفُلْ عن شأن الهندام[١٠٩١] والمَحَال[١٠٩٢]، وما اقتضته فى ذلك الصناعة الهندسية.

وكثير من المتغلبين فى البلاد يعاين فى شأن البناء واستعمال الحيل فى نقل الأجرام عند أهل الدولة المعتنين بذلك من العجم ما يشهد له بما قلناه عِيانًا،

(١٠٨٩) شاد الحائط يشيده فهو مشيد طلاه بالشِّيد وهو ما يطلى به من جِصّ ونحوه.
والمشيد المطلى بالشيد. وشيّدت البيت تشييداً فهو مُشَيَّد طوّلته ورفعته (من القاموس والمصباح).
والفعل المشدد هو المقصود فى عبارة ابن خلدون.

(١٠٩٠) يحيل بذلك على ما ذكره فى الفصل الثامن عشر من الباب الثالث (انظر ص٥٥٨ وتوابعها).

(١٠٩١) يطلق الهِنْدام على حسن التنظيم والإصلاح والإدارة، يقال: «شىء مهندم أى مصلح على مقدار» (القاموس ـ انظر كذلك تعليق ٥١٦). ويقصد به ابن خلدون هنا ما يشمل كذلك العُدد والآلات والأجهزة التى يستعان بها فى الصناعات.

(١٠٩٢) «المَحالَة والمَحَال، الخشبة التى يستقر عليها الطيّانون (البناءون) فى أثناء بنائهم وتشييدهم للبيوت» (من القاموس). وهى التى يسميها العامة فى مصر «السقالة». ـ هذا وقد وردت هذه الكلمة محرفة فى جميع الطبعات السابقة. ففى «ل» و«م» و«دار الكتاب اللبنانى» وردت بالخاء المعجمة (المخال). وفى «ن» وردت بزيادة النون بين الميم والحاء (المنحال). وفى النسخة «التيمورية» وردت بميم فياء فخاء «الميخال».

وأكثر آثار الأقدمين لهذا العهد تسميها العامة عَادِيَّة[٢٣٢] نسبة إلى قوم عاد لتوهمهم أن مباني عاد ومصانعهم إنما عظمت لعظم أجسامهم وتضاعف قُدَرهم، وليس كذلك، فقد نجد آثاراً كثيرة من آثار الذين تعرف مقادير أجسامهم من الأمم وهي في مثل ذلك العِظَم أو أعظم، كإيوان كسرى، ومباني العُبَيْديين[٦١٧] من الشيعة بإفريقية[٤٩ب]، والصِنهاجيين[٥٠] وأثرهم باد إلى اليوم في صومعة قلعة بني حماد، وكذلك بناء الأغالبة في جامع القيروان، وبناء الموحدين[٩٣٦] في رباط الفتح، ورباط السلطان أبي سعيد لعهد أربعين سنة في المنصورة بإزاء تلمْسان[٨٤٩]، وكذلك الحنايا التي جلب إليها أهل قرطاجنة الماء في القناة الراكبة عليها ماثلة أيضًا لهذا العهد، وغير ذلك من المباني والهياكل التي نقلت إلينا أخبار أهلها قريبًا وبعيداً، وتيقَّنا أنهم لم يكونوا بإفراط في مقادير أجسامهم، وإنما هذا رأى ولع[٤٨] به القصاص عن قوم عاد وثمود والعمالقة. ونجد بيوت ثمود في الحجر منحوتة إلى هذا العهد. وقد ثبت في الحديث الصحيح أنها بيوتهم يمر بها الركب الحجازي أكثر السنين ويشاهدونها لا تزيد في جوها ومساحتها وسمكها على المتعاهد وإنهم ليبالغون فيما يعتقدون من ذلك، حتى إنهم ليزعمون أن عوج بن عناق[٥١٧] من جيل العمالقة كان يتناول السمك من البحر طريًّا فيشويه في الشمس، يزعمون بذلك أن الشمس حارة فيما قرب منها، ولا يعلمون أن الحر فيما لدينا هو الضوء لانعكاس الشعاع بمقابلة سطح الأرض والهواء، وأما الشمس في نفسها فغير حارة ولا باردة، وإنما هي كوكب مضيء لا مزاج له[٥١٨]. وقد تقدم شيء من هذا في الفصل الثاني[(١٠٩٣)]، حيث ذكرنا أن آثار الدولة على نسبة قوتها في أصلها. والله يخلق ما يشاء ويحكم ما يريد.

(١٠٩٣) صوابه الفصل الثالث (الباب الثالث بحسب اصطلاحنا؛ انظر تعليق ١٦٥).

ويقصد ما ذكره في الفصل الثامن عشر من الباب الثالث (من الفصل الثالث الرئيسي بحسب اصطلاح ابن خلدون). انظر ص٥٥١ وتوابعها: ولعل الفصل الثالث كان الثاني في أول ترتيب للمقدمة ثم تغير بعد ذلك بدون أن يغير ابن خلدون رقمه في هذه الفقرة (انظر أمثلة أخرى لذلك في تعليقي ٤٠٢، ٤٤٢).

٤ ـ فصل فى أن الهياكل العظيمة جداً لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة

والسبب فى ذلك ما ذكرناه من حاجة البناء إلى التعاون ومضاعفة القُدَر البشرية. وقد تكون المبانى فى عظمها أكثر من القُدَر مفردة أو مضاعفة بالهندام[١٠٩١] كما قلناه فيُحتاجُ إلى معاودة قُدَر أخرى مثلها فى أزمنة متعاقبة إلى أن تتم، فيبتدئ الأول منهم بالبناء ويعقبه الثانى والثالث، وكل واحد منهم قد استكمل شأنه فى حشر الفَعلَة وجمع الأيدى حتى يتم القصد من ذلك ويكمل ويكون ماثلا للعِيان، يظنه من يراه من الآخرين أنه بناء دولة واحدة.

وانظر فى ذلك ما نقله المؤرخون فى بناء سد مأرب وأن الذى بناه سبأ بن يشجب، وساق إليه سبعين وادياً، وعاقه الموت عن إتمامه فأتمه ملوك حمير من بعده. ومثل هذا ما نقل فى بناء قرطاجنة وقناتها الراكبة على الحنايا العاديَّة[٢٢٣]. وأكثر المبانى العظيمة فى الغالب هذا شأنها. ويشهد لذلك أن المبانى العظيمة لعهدنا نجد الملك الواحد يشرع فى اختطاطها وتأسيسها، فإذا لم يتبع أثَرَه مَنْ بعده من الملوك فى إتمامها بقيت بحالها ولم يكمل القصد فيها.

ويشهد لذلك أيضًا أنا نجد آثاراً كثيرة من المبانى العظيمة تعجِز الدول عن هدمها وتخريبها، مع أن الهدم أيسر من البناء بكثير، لأن الهدم رجوع إلى الأصل الذى هو العدم، والبناء على خلاف الأصل؛ فإذا وجدنا بناء تضعف قوتنا البشرية عن هدمه مع سهولة الهدم، علمنا أن القدرة التى أسسته مفرطة القوة، وأنها ليست أثر دولة واحدة. وهذا مثل ما وقع للعرب فى إيوان كسرى لما اعتزم الرشيد على هدمه وبعث إلى يحيى بن خالد وهو فى محبسه يستشيره فى ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين لا تفعل واتركه ماثلا، يُستَدل به على عِظَم ملك آبائك الذين سلبوا الملك لأهل ذلك الهيكل. فاتهمه فى النصيحة، وقال أخذَته النُّعْرة[٣٧٩] للعجم، والله لأصرعنَّه، وشرع فى هدمه وجمع الأيدى عليه، واتخذ له الفئوس وحماه بالنار، وصب عليه الخل. حتى إذا أدركه العجز بعد ذلك كله وخاف الفضيحة، بعث إلى يحيى يستشيره ثانيًا فى التجافى عن الهدم فقال: يا أمير المؤمنين لا تفعل

واستمرَّ على ذلك؛ لئلا يقال عجز أمير المؤمنين ومَلِكُ العرب عن هدم مصنع من مصانع العجم. فعرفها الرشيد وأقصر[١٠٩٣ب] عن هدمه.

وكذلك اتفق للمأمون فى هدم الأهرام التى بمصر وجمع الفَعَلَة لهدمها فلم يَحْلَ[١٠٩٣ج] بطائل، وشرعوا فى نقبه، فانتهوا إلى جو بين الحائط الظاهر وما بعده من الحيطان، وهنالك كان منتهى هدمهم؛ وهو إلى اليوم فيما يقال منفذ ظاهر. ويزعم الزاعمون أنه وجد رِكازًا[١٠٩٤] بين تلك الحيطان. والله أعلم.

وكذلك حنايا المعلقة إلى هذا العهد: يحتاج أهل مدينة تونس إلى انتخاب الحجارة لبنائهم ويستجيد الصناع حجارة تلك الحنايا فيحاولون على هدمها الأيام العديدة ولا يسقط الصغير من جدرانها إلا بعد عَصْب الريق[١٠٩٥]، وتجتمع له المحافل المشهورة؛ شهدت منها فى أيام صباى كثيرًا. ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[١٠٩٦].

٥- فصل فيما تجب مراعاته فى أوضاع المدن وما يحدث إذا غفل عن تلك المراعاة

اعلم أن المدن قرار يتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه، فتؤثر الدعة والسكون، وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار. ولما كان ذلك للقرار والمأوى؛ وجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها، وجلب المنافع، وتسهيل المرافق لها.

فأما الحماية من المضار فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعًا سياج الأسوار وأن يكون وضع ذلك فى متمنّع من الأمكنة، إما على هضبة متوعرة

(١٠٩٣ب) أقْصَر عن الشىء عجز (القاموس).

(١٠٩٣ج) «يقال حَلِى منه بخير، وحلا يحلو، أصاب منه خيرًا» (القاموس)

(١٠٩٤) «الرِّكاز المال المدفون؛ فِعال بمعنى مفعول كالبساط بمعنى المبسوط والكتاب بمعنى المكتوب. ويقال هو المعدن» (المصباح).

(١٠٩٥) عَصْبُ الريق جفافه فى الفم (من القاموس). والجملة كناية عن شدة التعب.

(١٠٩٦) آية ٩٦ من سورة الصافات، وهى سورة ٣٧.

من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب مَنَالُها على العدو، ويتضاعف امتناعها وحصنها. ومما يراعى فى ذلك للحماية من الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الأمراض؛ فإن الهواء إذا كان راكدًا خبيثًا، أو مجاورًا للمياه الفاسدة أو مناقع متعفنة أو مروج خبيثة أسرع إليه العفن من مجاورته، فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة؛ وهذا مشاهد.

والمدن التى لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض فى الغالب. وقد اشتهر بذلك فى قطر المغرب بلد قابس من بلاد الجريد[٢١٦] بإفريقية[٤٩ب]، فلا يكاد ساكنها أو طارقها يخلص من حمى العفن بوجه. ولقد يقال إن ذلك حادث فيها، ولم تكن كذلك من قبل. ونقل البكرى فى سبب حدوثه أنه وقع فيها حفر ظهر فيه إناء من نحاس مختوم بالرصاص، فلما فض ختامُه[٨٢٧] صَعِد منه دخان إلى الجو وانقطع؛ وكان ذلك مبدأ أمراض الحمياَت فيه. وأرادَ بذلك أن الإناء كان مشتملا على بعض أعمال الطِّلَّسْمات لوبائه، وأنه ذهب سره بذهابه، فرجع إليها العفن والوباء. وهذه الحكاية من مذاهب العامة ومباحثهم الركيكة. والبكرى لم يكن من نباهة العلم واستنارة البصيرة بحيث يدفع مثل هذا أو يتبين خَرَفَه فنقله كما سمعه. والذى يكشف لك الحق فى ذلك أن هذه الأهوية العفنة أكثر مما يهيئها لتعفين الأجسام وأمراض الحميات ركودُها، فإذا تخللتها الريح وتفشت وذهبت بها يمينًا وشمالا خف شأن العفن والمرض البادى منها للحيوانات. والبلد إذا كان كثير الساكن وكثرت حركات أهله فيتموّج الهواء ضرورة وتحدث الريح المتخللة للهواء الراكد، ويكون ذلك معينًا له على الحركة والتموج. وإذا خف الساكن لم يجد الهواء معينًا على حركته وتموّجه، وبقى ساكنًا راكدًا وعظم عفنه وكثر ضرره. وبلد قابس هذه كانت عندما كانت إفريقية[٤٩ب] مستجدة العمران كثيرة الساكن تموج بأهلها موجًا؛ فكان ذلك معينًا على تموّج الهواء واضطرابه وتخفيف الأذى منه. فلم يكن فيها كثير عفن ولا مرض. وعندما خف ساكنها ركد هواؤها المتعفن بفساد مياهها، فكثر العفن والمرض، فهذا وجهه لا غير. وقد رأينا عكس ذلك فى بلاد وضعت ولم يراع فيها طيب الهواء وكانت أولا قليلة الساكن فكانت أمراضها كثيرة، فلما كثر ساكنها انتقل حالها عن ذلك.

وهذا مثل دار الملك بفاس لهذا العهد المسمى بالبلد الجديد، وكثير من ذلك فى العالم. فتفهّمه تجد ما قلته لك.

وأما جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى فيه أمور. منها الماء بأن يكون البلد على نهر أو بإزائها عيون عذبة ثَرَّة(١٠٩٧) فإن وجود الماء قريبًا من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهى ضرورية، فيكون لهم فى وجوده مرْفَقَةٌ عظيمة عامة. ومما يراعى من المرافق فى المدن طيب المراعى لسائمتهم؛ إذ صاحب كل قرار لابد له من دواجن الحيوان للنَّتاج[٣٥٢] والضرع والركوب، ولابد لها من المرعى؛ فإذا كان قريبًا طيبًا كان ذلك أرفق بحالهم، لما يعانون من المشقة فى بُعده، ومما يراعى أيضًا المزارع، فإن الزروع هى الأقوات؛ فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك أسهل فى اتخاذه وأقرب فى تحصيله. ومن ذلك الشجر للحطب والبناء؛ فإن الحطب مما تعم البلوى فى اتخاذه لوقود النيران للاصطلاء والطبخ؛ والخشب أيضًا ضرورى لسقفهم وكثير مما يستعمل فيه الخشب من ضرورياتهم. وقد يراعى أيضًا قربها من البحر لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد النائية؛ إلا أن ذلك ليس بمثابة الأول.

هذه كلها متفاوتة بتفاوت الحاجات، وما تدعو إليه ضرورة الساكن وقد يكون الواضع غافلا عن حسن الاختيار الطبيعى أو إنما يراعى ما هو أهم على نفسه وقومه، ولايذكر حاجة غيرهم، كما فعله العرب لأول الإسلام فى المدن التى اختطوها بالعراق وإفْرِيقِية[٤٩ب]، فإنهم لم يراعوا فيها الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعى السائمة من ذوات الظِلْف ولا غير ذلك، كالقيروان والكوفة والبصرة وأمثالها، ولهذا كانت أقرب إلى الخَرابَ لما[٥٨١] لم تراع فيها الأمور الطبيعية.

(فصل)[٣٠٩] ومما يراعى فى البلاد الساحلية التى على البحر أن تكون فى جبل، أو تكون بين أمة من الأمم موفورة العدد تكون صريخًا(١٠٩٨) للمدينة متى طرقها طارق من العدو. والسبب فى ذلك أن المدينة إذا كانت حاضرة البحر، ولم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصبيات، ولا موضعها متوعر من الجبل كانت فى غِرَّةٍ[٩٦٦] للبَيات[٨٤٨]، وسهل طروقُها فى الأساطيل البحرية على عدوها

(١٠٩٧) «الثَّرَّة من العيون الغزيرة» (القاموس).

(١٠٩٨) «الصريخ والصارخ المغيث والمستغيث، ضد» (القاموس).

وتحيّفُه[٨١٥] لها، لما[٥٨١] يأمن من وجود الصريخ[١٠٩٨] لها، وأن الحضر المتعودين للدّعة قد صاروا عيالا وخرجوا عن حكم المقاتلة؛ وهذه كالإسكندرية من المشرق وطرابلس من المغرب وبونة وسلا. ومتى كانت القبائل والعصائب مُتَوطِّنين بقربها بحيث يبلغهم الصريخ[١٠٩٨] والنفير، وكانت متوعرة المسالك من يرومها باختطاطها فى هضاب الجبال وعلى أسنمتها، كان لها بذلك مَنَعةٌ من العدو ويئسوا من طروقها، لما يكابدونه من وعرها، وما يتوقعونه من إجابة صريخها[١٠٩٨]، كما فى سَبْتَة[٢٢١ب] وبجاية[٢١٥ج] وبلد القل على صغرها. فافهم ذلك واعتبره فى اختصاص الإسكندرية باسم الثغر من لدن الدولة العباسية، مع أن الدعوة من ورائها ببرقة وإفْرِيقية[٤٩ب]، وإنما اعتبر فى ذلك المخافة المتوقعة فيها من البحر لسهولة وضعها. ولذلك ـ والله أعلم ـ كان طروق العدو للإسكندرية وطرابلس فى الملّة مرات متعددة. والله تعالى أعلم.

٦ـ فصل فى المساجد والبيوت العظيمة فى العالم[٦٥ب]

اعلم أن الله سبحانه وتعالى فضل من الأرض بقاعًا اختصها بتشريفه، وجعلها مواطن لعبادته، يضاعف فيها الثواب، وينمى بها الأجور، وأخبرنا بذلك على ألسن رسله وأنبيائه لطفًا بعباده وتسهيلا لطرق السعادة لهم.

وكانت المساجد الثلاثة هى أفضل بقاع الأرض حسبما ثبت فى الصحيحين[١٠٠٨] وهى مكة والمدينة وبيت المقدس.

أما البيت الحرام الذى بمكة فهو بيت إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، أمره الله ببنائه وأن يؤذن فى الناس بالحج إليه، فبناه هو وابنه إسماعيل كما نصه القرآن، قام بما أمره الله فيه، وسكن إسماعيل به مع هاجر ومن نزل معهم من جُرْهُم إلى أن قبضهما الله ودفنا بالحِجْر منه.

وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام. أمرهما الله ببناء مسجده ونصب هياكله؛ ودفن كثير من الأنبياء من وُلد إسحق عليه السلام حواليه. والمدينة مُهاجَرُ(١٠٩٩) نبينا محمد، صلوات الله وسلامه عليه، أمره الله تعالى

(١٠٩٩) اسم مكان من هاجر. واسم المكان من غير الثلاثى يكون على وزن اسم المفعول.

بالهجرة إليها وإقامة دين الإسلام بها، فبنى مسجده الحرام بها، وكان ملحَدُه الشريف فى تربتها.

فهذه المساجد الثلاثة قرة عين المسلمين، ومهوى أفئدتهم، وعظمة دينهم وفى الآثار من فضلها ومضاعفة الثواب فى مجاورتها والصلاة فيها كثير معروف. فلنشر إلى شيء من الخبر عن أولية هذه المساجد الثلاثة وكيف تدرّجت أحوالها إلى أن كمل ظهورها فى العالم.

فأما مكة فأوليتها - فيما يقال - أن آدم صلوات الله عليه بناها قبالة البيت المعمور، ثم هدمها الطوفان بعد ذلك. وليس منه خبر صحيح يعول عليه، وإنما اقتبسوه من مجمل الآية فى قوله: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل[١١٠٠]﴾. ثم بعث الله إبراهيم، وكان من شأنه وشأن زوجته سارَة وغيرتها من هاجَر ما هو معروف. وأوحى الله إليه أن يترك ابنه إسماعيل وأمه هاجر بالفلاة، فوضعهما فى مكان البيت وسار عنهما، وكيف جعل الله لهما من اللطف فى نبع ماء زمزم ومرور الرفقة من جرهم بهما، حتى احتملوهما وسكنوا إليهما، ونزلوا معهما حوالى زمزم كما عرف فى موضعه[١١٠١]. فاتخذ إسماعيل بموضع الكعبة بيتًا يأوى إليه، وأدار عليه سياجًا من الدَّوْم[١١٠١ب] وجعله زرْبًا[١١٠٢] لغنمه. وجاء إبراهيم صلوات الله عليه مرارًا لزيارته من الشام أمر فى آخرها ببناء الكعبة مكان ذلك الزِّرْب، فبناه واستعان فيه بابنه إسماعيل ودعا الناس إلى حجه[١١٠٣]، وبقى إسماعيل ساكنًا به. ولما قبضت أمه هاجَر [دفنها، ولم يزل قائمًا بخدمته إلى أن قبضه الله تعالى ودفن مع أمه هاجر][١١٠٤] وقام بنوه بعده بأمر

(١١٠٠) آية ١٢٧ من سورة البقرة وهى السورة الثانية.

(١١٠١) أشار القرآن الكريم إلى هذه القصة فى الآية السابعة والثلاثين من سورة إبراهيم وهى سورة ١٤، إذ يقول على لسان إبراهيم: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾.

(١١٠١ب) هكذا فى النسخة «التيمورية». والدَّوْم بالفتح شجر المقل والنبق وقد حرفت هذه الكلمة فى النسخ المتداولة إلى «الردم».

(١١٠٢) «الزَّرْب بالفتح والكسر موضع الغنم كالزريبة» (من القاموس).

(١١٠٣) أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى الآيتين ٢٦، ٢٧ من سورة الحج وهى سورة ٢٢، إذ يقول: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾.

(١١٠٤) المحصور بين هذين المعكوفين [ ] ساقط من جميع النسخ المتداولة، وقد عثرنا عليه فى النسخة «التيمورية»؛ والمعنى بدونه غير مستقيم كما لا يخفى.

البيت مع أخوالهم من جرهم، ثم العماليق من بعدهم، واستمر الحال على ذلك، والناس يُهْرَعون إليها من كل أفق من جميع أهل الخليقة لا من بنى إسماعيل ولا من غيرهم(١١٠٥) ممن دنا أو نأى. فقد نقل أن التبابعة كانت تحج البيت وتعظمه وأن تُبَّعًا كساها الملاء والوصائل، وأمر بتطهيرها، وجعل لها مفتاحًا. ونقل أيضًا أن الفرس كانت تحجه وتُقَرِّب إليه، وأن غَزالَىْ الذهب اللذين وجدهما عبدالمطلب حين احتفر زمزم كانا من قرابينهم. ولم يزل لجرهم الولاية عليه من بعد وُلْدِ إسماعيل من قبَل خُتولتهم، حتى أخرجتهم خزاعة(١١٠٦) وأقاموا بها بعدهم ما شاء الله. ثم كثر وُلْد إسماعيل وانتشروا وتشعبوا إلى كنانة، ثم كنانة إلى قريش وغيرهم، وساءت ولاية خزاعة فغلبتهم قريش على أمره وأخرجوهم من البيت وملَّكوا عليهم يومئذ قصَىَّ بن كلاب فبنى البيت وسقَّفه بخشب الدوم وجريد النخل. وقال الأعشى:

حلفت بثوبى راهب الدور والتى بناها قُصَىٌ والمضاض بن جرهم

ثم أصاب البيت سيل، ويقال حريق، وتهدم وأعادوا بناءه وجمعوا النفقة لذلك من أموالهم، وانكسرت سفينة بساحل جُدَّة فاشتروا خشبها للسقف. وكانت جدرانه فوق القامة فجعلوها ثمانية عشر ذراعًا، وكان الباب لاصقًا بالأرض فجعلوها فوق القامة لئلا تدخله السيول، وقصَّرَتْ بهم النفقة عن إتمامه فقصروا عن قواعده وتركوا منه ستة أذرع وشبرًا أداروها بجدار قصير يطاف من ورائه وهو الحجْر(١١٠٧).

وبقى البيت على هذا البناء إلى أن تحصن ابن الزبير بمكة حين دعا لنفسه، وزحفت إليه جيوش يزيد بن معاوية مع الحصين ابن نمير السكونى(١١٠٧ب)

(١١٠٥) هكذا فى جميع النسخ، وصوابه بحذف لا النافية فى التركيبين. وقد جرت عادة ابن خلدون بزيادة لا النافية فى مثل هذا الموضع حيث يريد الشمول الإيجابى. وقد مرت عبارات كثيرة من هذا القبيل.

(١١٠٦) هكذا فى النسخة «التيمورية». وقد حرفت هذه العبارة فى جميع النسخ المتداولة إلى ما يلى «حتى إذا خرجت خزاعة وأقاموا بها بعدهم ما شاء الله». والعبارة على هذا الوضع المحرف غير سليمة كما لا يخفى.

(١١٠٧) مع أن قريشا كانت من أكثر قبائل العرب فى الجاهلية حبًا للمال وتفانيًا فى جمعه وتعاملا بالربا، فإنها كانت تنظر إلى الكسب الذى يأتى عن طريق الربا على أنه كسب حرام من الناحية الدينية وسُحْتٌ من ناحية الأخلاق. ولا أدل على ذلك من أنه عندما تهدم سور الكعبة وأرادت قريش إعادة بنائه حرصت على أن تجمع الأموال اللازمة لذلك من البيوتات التى لا تتعامل بالربا، حتى =

ورمى البيت سنة أربع وستين فأصابه حريق، يقال: من النفط الذى رموا به على ابن الزبير. فأعاد بناءه أحسن ما كان، بعد أن اختلفت عليه الصحابة فى بنائه، واحتج عليهم بقول رسول الله ﷺ لعائشة رضى الله عنها: **لولا قومك حديثو عهد بكفر لرددت البيت على قواعد إبراهيم، ولجعلت له بابين شرقيًا وغربيًا**[١١٠٧]، فهدمه وكشف عن أساس إبراهيم عليه السلام وجمع الوجوه والأكابر حتى عاينوه وأشار عليه ابن عباس بالتحرى فى حفظ القبلة على الناس فأدار على الأساس الخشب ونصب من فوقها الأستار حفظًا للقبلة. وبعث إلى صنعاء فى القَصَّة[١١٠٧جـ]

= لا يدخل فى بناء البيت مال حرام. ولما كانت هذه البيوتات حينئذ قليلة العدد، فإن ما جمع منها لم يكف لبناء السور كله، فبقى جزء منه غير مبنى، وهو المسمى الآن بحجر إسماعيل. فقد ذكر ابن إسحق فى السيرة عن عبدالله بن أبى نجيح أنه أخبره عن عبدالله بن صفوان بن أمية أن أبا وهب بن عابد بن عمران بن مخزوم، وهو جد جعدة بن هبيرة بن أبى وهب المخزومى، قال لقريش لا تُدْخلوا فيه (أى فى بناء البيت) من كسبكم إلا الطيب، ولا تدخلوا فيه مهر بغىّ ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس. وروى سفيان بن عيينة فى جامعه عن عبيد الله بن أبى يزيد عن أبيه أنه شهد عمر بن الخطاب أرسل إلى شيخ من بنى زهرة أدرك ذلك، فسأله عن بناء الكعبة، فقال: إن قريشا تقربت لبناء الكعبة بالطيِّبة (أى بالنفقة الطيبة) فعجزت، فتركوا بعض البيت فى الحِجْر. فقال عمر: صدقت. وعن عائشة رضى الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الجَدْر (وهى لغة فى الجدار، وفى رواية الحِجْر): أمن البيت هو؟ قال نعم: قلت فما لهم لم يدخلوه فى البيت. قال ألم ترىْ قومك قصرت بهم النفقة (أى النفقة الطيبة التى ليس فيها ربا). قالت فما شأن بابه مرتفعا. قال فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا. ولولا أن قومك حديثو عهد بالجاهلية فأخاف أن تنكر قلوبهم أن أدخل الجدر (أى الحجر) فى البيت وأن ألصق بابه بالأرض! (أى لفعلت). وحينما بلغ عبدالله بن عمر حديث عائشة قال: «لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله ﷺ ما أرى رسول الله ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يتمم على قواعد إبراهيم».

وذلك أن الرسول عليه السلام كان يستلم الركنين اللذين قاما على قواعد إبراهيم وهما ركن الحجر الأسود والركن اليمانى ويترك استلام الركنين الآخرين اللذين يقعان فى الحجر لأنهما قاما على غير قواعد إبراهيم. (انظر فتح البارى على صحيح البخارى فى شرح هذا الحديث فى باب «فضل مكة وبنيانها»، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ (آية ١٢٥ من سورة البقرة، وهى السورة الثانية) وانظر كذلك شرح النووى على صحيح مسلم.

هذا وقد علل ابن خلدون ارتفاع باب الكعبة عن الأرض بالحرص على وقايتها من السيل، والمذكور فى الحديث الشريف أن قريشا فعلوا ذلك للتحكم فى الكعبة «ليدخلوا فيها من شاءوا ويمنعوا من شاءوا». ـ وكلا الغرضين محتمل. وقد يكونان مقصودين معا.

(١١٠٧ب) هكذا فى جميع النسخ، والكلمة على ما يظهر محرفة عن كلمة «الكوفى».

(١١٠٧جـ) «القَصة بفتح القاف وقد تكسر الجَصَّة والجَصَّة هى الجِصُّ، وهو مادة معروفة يبنى بها. وقد وردت هذه الكلمة على هذه الصورة الصحيحة فى النسخة «التيمورية»، بينما وردت فى جميع النسخ المتداولة محرفة إلى «الفضة».

والكِلْس[١١٠٨]، فحملها، وسأل عن مقطع الحجارة الأول فجمع منها ما احتاج إليه، ثم شرع فى البناء على أساس إبراهيم عليه السلام، ورفع جدرانها سبعا وعشرين ذراعا، وجعل لها بابين لاصقين بالأرض كما روى فى حديثه، وجعل فرشها وأزْرَها[١١٠٩] بالرخام، وصاغ لها المفاتيح وصفائح الأبواب من الذهب. ثم جاء الحجاج لحصاره أيام عبدالملك ورمى على المسجد بالمنجنيقات إلى أن تصدعت حيطانها، ثم لما ظفر بابن الزبير شاور عبدالملك فيما بناه وزاده فى البيت فأمره بهدمه ورد البيت على قواعد قريش كما هو اليوم. ويقال: إنه ندم على ذلك حين علم صحة رواية ابن الزبير لحديث عائشة، وقال: وددت أنى كنت حَمَّلْتُ أبا حبيب فى أمر البيت وبنائه ما تحمل. فهدم الحجاج منها ستة أذرع وشبرا مكان الحِجْر[١١٠٧]، وبناه على أساس قريش، وسد الباب الغربى وما تحت عتبة بابها اليوم من الباب الشرقى، وترك سائرها لم يغير منه شيئا. فكل البناء الذى فيه اليوم بناء ابن الزبير، وبناء الحجاج فى الحائط صلةٌ ظاهرة للعِيان، لحمة ظاهرة بين البناءين، والبناء متميز عن البناء بمقدار إصبع شبه الصدع، وقد لُحِم.

ويعرض ههنا إشكال قوى لمنافاته لما يقوله الفقهاء فى أمر الطواف: «ويحذر الطائف أن يميل على الشاذروان الدائر على أساس الجدر من أسفلها، فيقع طوافه داخل البيت بناء على أن الجدر إنما قامت على بعض الأساس وترك بعضه، وهو مكان الشاذروان». وكذا قالوا فى تقبيل الحجر الأسود: «لابد من رجوع الطائف من التقبيل حتى يستوى قائمًا لئلا يقع بعض طوافه داخل البيت». وإذا كانت الجدران كلها من بناء ابن الزبير، وهو إنما بنى على أساس إبراهيم فكيف يقع هذا الذى قالوه؟ ولا مخلص من هذا إلا بأحد أمرين: إما أن يكون الحجاج هدم جميعه وأعاده، وقد نقل ذلك جماعة، إلا أن العيان فى شواهد البناء بالتحام ما بين البناءين وتمييز أحد الشقين من أعلاه عن الآخر فى الصناعة يرد ذلك؛ وإما أن يكون ابن الزبير لم يرد البيت على أساس إبراهيم من جميع جهاته، وإنما فعل ذلك فى الحِجْر[١١٠٧] فقط

(١١٠٨) الكِلْس بالكسر الصاروج يبنى به وتطلى به الحوائط؛ والصاروج هو النُّورة وأخلاطها. وقد كلَّست الحائط طليتها بالكلْس.

(١١٠٩) «أزَّرت الحائط تأزيراً جعلت له من أسفله كالإزار، وآزرته مؤازرة أعنته وقويته، والاسم الأزْر مثل فَلْس» (المصباح).

ليدخله(١١٠٩أ)، فهى الآن مع كونها من بناء ابن الزبير ليست على قواعد إبراهيم، وهذا بعيد. ولا محيص من هذين. والله تعالى أعلم.

ثم إن مساحة البيت وهو المسجد كان فضاء للطائفين، ولم يكن عليه جدر أيام النبى ﷺ وأبى بكر من بعده. ثم كثر الناس فاشترى عمر رضى الله عنه دوراً هدمها وزادها فى المسجد وأدار عليها جداراً دون القامة. وفعل مثل ذلك عثمان، ثم ابن الزبير، ثم الوليد بن عبدالملك وبناه بِعُمُد الرخام، ثم زاد فيه المنصور وابنه المهدى من بعده. ووقفت الزيادة واستقرت على ذلك لعهدنا.

وتشريف الله لهذا البيت وعنايته به أكثر من أن يحاط به. وكفى من ذلك أن جعله مهبطاً للوحى والملائكة ومكاناً للعبادة وفرض شعائر الحج ومناسكه، وأوجب لحَرَمِه من سائر نواحيه من حقوق التعظيم والحق ما لم يوجبه لغيره: فمنع كل من خالف دين الإسلام من دخول ذلك الحرم؛ وأوجب على داخله أن يتجرد من المخيط إلا إزاراً يستره، وحمى العائذ به والراتع فى مسارحه من مواقع الآفات، فلا يرام فيه خائف ولا يصاد له وحش ولا يحتطب له شجر. وحد الحرم الذى يختص بهذه الحرمة من طريق المدينة ثلاثة أميال إلى التنعيم، ومن طريق العراق سبعة أميال إلى الثنية من جبل المنقطع، ومن طريق الطائف سبعة أميال إلى بطن نمرة، ومن طريق جدة سبعة أميال إلى منقطع العشائر.

هذا شأن مكة وخبرها وتسمى أم القرى، وتسمى الكعبة لعلوها من اسم الكعب. ويقال لها أيضا بكة. قال الأصمعى: لأن الناس يبك بعضهم بعضاً إليها أى يدفع. وقال مجاهد باء بكة أبدلوها ميما، كما قالوا: لازب ولازم لقرب المخرجين. وقال النخعى: بالباء البيت وبالميم البلد. وقال الزهرى: بالباء للمسجد كله وبالميم للحرم.

وقد كانت الأمم منذ عهد الجاهلية تعظمه، والملوك تبعث إليه بالأموال والذخائر مثل كسرى وغيره. وقصة الأسياف وغزالى الذهب اللذين وجدهما عبدالمطلب حين احتفر زمزم معروفة. وقد وجد رسول الله ﷺ حين افتتح مكة فى الجب الذى كان فيها سبعين ألف أوقية من الذهب، مما كان الملوك يهدون للبيت، فيها ألف ألف دينار مكررة مرتين بمائتى قنطار وزناً. وقال له على

(١١٠٩أ) أى فجعل عرض جداره متفقا مع عرض جدار الأساس، بينما جعل عرض الجدران الأخرى أقل من عرض جدار الأساس.

ابن أبى طالب رضى الله عنه: «يا رسول الله! لو استعنت بهذا المال على حربك»، فلم يفعل. ثم ذكر لأبى بكر فلم يحركه. هكذا قال الأزرقى. وفى البخارى بسنده إلى أبى وائل قال: جلست إلى شيبة بن عثمان، وقال :جلس إلىَّ عمر بن الخطاب فقال: هممت ألا أدع فيها صفراء ولا بيضاء إلا قسمتها بين المسلمين. قلت: ما أنت بفاعل قال: ولم؟ قلت :فلم يفعله صاحباك فقال: هما اللذان يقتدى بهما. وخرَّجه أبو داود وابن ماجه. وأقام ذلك المال إلى أن كانت فتنة الأفطس، وهو الحسن بن الحسين(١١٠٩ب) بن على بن على زين العابدين سنة تسع وتسعين ومائة. حين غلب على مكة، عمد إلى الكعبة فأخذ ما فى خزانتها، وقال ما تصنع الكعبة بهذا المال موضوعا فيها لا ينتفع به؟ نحن أحق به نستعين به على حربنا. وأخرجه وتصرف فيه. وبطلت الدخيرة من الكعبة من يومئذ.

وأما بيت المقدس وهو المسجد الأقصى فكان أول أمره أيام الصابئة موضع الزُّهَرة(١١١٠) وكانوا يقربون إليه الزيت فيما يقرّبونه يصبونه على الصخرة التى هناك. ثم دثر[٢٨٧] ذلك الهيكل، واتخذها بنو إسرائيل حين ملكوها قبلة لصلاتهم. وذلك أن موسى صلوات الله عليه لما خرج ببنى إسرائيل من مصر لتمليكهم بيت المقدس كما وعد الله أباهم إسرائيل وأباه إسحق من قبله وأقاموا بأرض التيه أمره الله باتخاذ قبة من خشب السنط عُيِّن بالوحى مقدارُها وصفتها وهياكلها وتماثيلها، وأن يكون فيها التابوت ومائدة بصِحافها ومنارة بقناديلها، وأن يصنع مذبحاً للقربان، وصف ذلك كله فى التوراة أكمل وصف(١١١١).

فصنع القبة ووضع فيها تابوت العهد، وهو التابوت الذى فيه الألواح المصنوعة عوضاً عن الألواح المنزلة بالكلمات العشر لما تكسرت، ووضع المذبح عندها وعهد الله إلى موسى بأن يكون هارونُ صاحبَ القربان(١١١٢). ونصبوا تلك القبة بين خيامهم فى التيه يصلون إليها ويتقربون فى المذبح أمامها، ويتعرضون للوحى عندها. ولما ملكوا {أرض الشام أنزلوها بكَلْكال (١١١٢ب) فى

(١١٠٩ب) فى النسخة «التيمورية» «الحسين بن الحسن».

(١١١٠) الزُّهَرة كتُوَدة: الكوكب المعروف.

(١١١١) يشير بذلك إلى ما ورد فى الأصحاحات ٢٥، ٢٦، ٢٧ من سفر الخروج.

(١١١٢) الأصحاح ٢٨ من سفر الخروج.

(١١١٢ب) «الكلكل والكلكال: الصدر» (القاموس). وهى هنا على ما يظهر اسم بلد أو مكان.

بلاد الأرض المقدسة ما بين قسمى بنى بنيامين وبنى إفراييم(١١١٢ج) وبقيت هنالك أربع عشرة سنة: سبعا مدة الحرب؛ وسبعا بعد الفتح أيام القسمة للبلاد ولما توفى يوشع عليه السلام نقلوها إلى بلد شيلو قريبا من كلكال١١١٢ب وأداروا عليها الحيطان، وأقامت هنالك(١١١٢د) ثلثمائة سنة حتى ملكها بنو فلسطين فى أيديهم كما مر٣(١١١٢هـ) وتغلبوا عليهم، ثم ردوا عليهم القبة ونقلوها بعد وفاة عالى الكوهن إلى نوف، ثم نقلت أيام طالوت إلى كنعون فى بلاد بنى بنيامين١١١٢ج ولما ملك داود عليه السلام نقل التابوت والقبة إلى بيت المقدس، وجعل لها خباء خاصا ووضعها على الصخرة وبقيت تلك قبلتهم}.(١١١٢و) وأراد داود عليه السلام بناء مسجده على الصخرة مكانها، فلم يتم له ذلك، وعهد به إلى ابنه سليمان فبناه لأربع سنين من ملكه ولخمسمائة سنة من وفاة موسى عليه السلام، واتخذ عمده من الصفر، وجعل به صرح(١١١٢ز) الزجاج، وغشّى أبوابه وحيطانه بالذهب، وصاغ هياكله وتماثيله وأوعيته ومناوره ومفاتيحه من الذهب، وجعل ظهره مقبوا ليودع(١١١٢ح) فيه تابوت العهد، وهو التابوت الذى فيه الألواح، وجاء به من صهيون(١١١٢ط) بلد أبيه داود{نقله إليها أيام عمارة المسجد، فجىء به}(١١١٢ى) تحمله الأسباط والكهنوتية(١١١٣) حتى

(١١١٢ج) فى النسخة التى ننقل عنها، وهى النسخة «التيمورية»: «ما بين قسم بنى يامين وبين إفراييم». وهو تحريف. انظر أسماء الأسباط العشرة فى تعليق ٧٣٢.

(١١١٢د) فى النسخة «التيمورية» التى ننقل عنها: «وأقامت ذلك»، وهو تحريف كما لا يخفى.

(١١١٢هـ) انظر ص٦٢٦ وتوابعها.

(١١١٢و) الموضوع بين هذين المعكوفين { } من آخر سطر فى الصفحة السابقة إلى هنا ساقط من جميع النسخ المتداولة. وقد عثرنا عليه فى النسخة «التيمورية».

(١١١٢ز) هو الصرح الذى تحدث عنه القرآن فى قصة ملكة سبأ مع سليمان إذ قال: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾

(آية ٤٤ من سورة النمل، وهى سورة ٢٧).

(١١١٢ح) هكذا فى النسخة «التيمورية». وقد وردت هذه الجملة فى جميع النسخ المتداولة محرفة إلى هذه الصيغة: «وجعل فى ظهره قبراً ليضع فيه تابوت العهد».

(١١١٢ط) هكذا فى جميع النسخ المتداولة. وفى النسخة «التيمورية»: «صيون» أو «ضيون».

(١١١٢ى) الموضوع بين هذين المعكوفين { } ساقط من جميع النسخ المتداولة، ومثبت فى النسخة «التيمورية».

(١١١٣) هكذا فى «ل» وفى النسخة «التيمورية». وفى «م» و«ن» تحمله الأسباذ» بالذال. وكلاهما غير واضح. أما كلمة الأسباط فتطلق على أولاد يعقوب المباشرين وغنى عن البيان أنهم ليسوا هم =

وضعه فى القبو[١١١٣ب]، ووضعت القبة والأوعية والمذبح كل واحد حيث أعدّ له من المسجد، وأقام كذلك ما شاء الله. ثم خربه بختنصر بعد ثمانمائة سنة من بنائه، وحرق التوراة والعصا، وسبك[١١١٤] الهياكل ونثر الأحجار.

ثم لما أعادهم ملوك الفرس بناه عُزَير نبى بنى إسرائيل لعهده، بإعانة بهمن ملك الفرس الذى كانت الولادة[١١١٥] لبنى إسرائيل عليه من سبى بختنصر، وحَدَّ لهم فى بنيانه حدوداً دون بناء سليمان بن داود عليهما السلام، فلم يتجاوزوها {وأما الأواوين[١١١٥ب] التى تحت المسجد، يركب بعضها بعضاً، عمود الأعلى منها على قوس الأسفل فى طبقتين، فيتوهم كثير من الناس أنها اصطبلات لسليمان عليه السلام، وليس كذلك، وإنما بناها تنزيها لبيت المقدس عما يتوهمه من النجاسات؛ لأن النجاسة فى شريعتهم، وإن كانت فى باطن الأرض وكان ما بينها وبين ظاهر الأرض محشوا بالتراب بحيث يصل ما بينها وبين الظاهر خط مستقيم، ينجس ذلك الظاهر بالتوهم، والمتوهم عندهم كالمحقق، فبنوا هذه الأواوين على هذه الصورة. فعمود الأواوين السفلية تنتهى إلى أقواسها، وينقطع خطه فلا يتصل، فلا ينتهى النجاسة بالأعلى على خط مستقيم.. وتنزه البيت عن هذه النجاسة المتوهمة، ليكون ذلك أبلغ فى الطهارة والتقديس فى البيت المقدس}[١١١٥ج].

ثم تداولتهم ملوك يونان والفرس والروم، واستفحل الملك لبنى إسرائيل فى

= المقصودين فى هذا المقام. وأما كلمة «الأسباذ» بالذال فلم نعثر على معنى لها.

هذا، وقد وردت هذه القصة بالتفصيل فى السفر الأول من سفرى الملوك فى العهد القديم. وتنص الفقرة الثالثة من الأصحاح الثامن من هذا السفر على أن التابوت قد جيء به محمولا على أعناق مقدمى القرابين sacrificateures واللاويين (نسل لاوى وأولاد هارون - وهم الذين كانوا يقومون بشئون الكهنوت - انظر تعليق ٦١٥). فلعل هذين هما المقصودان بكلمتى الأسباذ والكهنوتية.

(١١١٣ب) هكذا وردت هذه الكلمة فى النسخة «التيمورية» وقد وردت فى جميع النسخ المتداولة محرفة إلى «القبر» بالراء.

(١١١٤) هكذا وردت هذه الكلمة فى النسخة «التيمورية». وقد وردت فى جميع النسخ المتداولة محرفة إلى «وصاغ».

(١١١٥) هكذا فى جميع النسخ، ولعلها «الولاية»، وكلاهما غير واضح المعنى، وإن كانت الأخيرة أقل خفاء.

(١١١٥ب) الأواوين جمع إيوان كديوان وهو الصفة العظيمة.

(١١١٥ج) الموضوع بين هذين المعكوفين { } ساقط من جميع النسخ المتداولة، وقد عثرنا عليه فى النسخة «التيمورية».

هذه المدة، ثم لبنى حشمناى[٧٣٤] من كهنتهم، ثم لصهرهم هيرودس[٧٣٤] ولبنيه من بعده. وبنى هيرودس بيت المقدس على بناء سليمان عليه السلام، وتأنق فيه حتى أكمله فى ست سنين. فلما جاء طيطس من ملوك الروم وغلبهم وملك أمرهم خرب بيت المقدس ومسجدها، وأمر أن يزرع مكانه. ثم أخذ الروم بدين المسيح عليه السلام ودانوا بتعظيمه. ثم اختلف حال ملوك الروم فى الأخذ بدين النصارى تارة وتركه أخرى إلى أن جاء قسطنطين، وتنصرت أمه هيلانة، وارتحلت إلى القدس فى طلب الخشبة التى صلب عليها المسيح بزعمهم، فأخبرها القساوسة بأنه رمى بخشبته على الأرض وألقى عليها القمامات والقاذورات، فاستخرجت الخشبة، وبنت مكان تلك القمامات كنيسة القمامة، كأنها على قبره بزعمهم، وخربت ما وجدت من عمارة البيت، وأمرت بطرح الزبل والقمامات على الصخرة حتى غطاها وخفى مكانها جزاء بزعمها لما فعلوه بقبر المسيح، ثم بنوا بإزاء القمامة بيت لحم وهو البيت الذى ولد فيه عيسى عليه السلام.

وبقى الأمر كذلك إلى أن جاء الإسلام وحضر عمر لفتح بيت المقدس، وسأل عن الصخرة فأرى مكانها وقد علاها الزبل والتراب، فكشف عنها وبنى عليها مسجداً على طريق البداوة، وعظم من شأنه ما أذن الله من تعظيمه، وما سبق من أم الكتاب فى فضله حسبما ثبت.

ثم احتفل الوليد بن عبدالملك فى تشييد مسجده على سنن مساجد الإسلام بما شاء الله من الاحتفال.. كما فعل فى المسجد الحرام وفى مسجد النبى ﷺ بالمدينة وفى مسجد دمشق وكانت العرب تسميه بلاط الوليد. وألزم ملك الروم أن يبعث الفعلة والمال لبناء هذه المساجد، وأن ينمقوها بالفسيفساء فأطاع لذلك وتم بناؤها على ما اقترحه.

ثم لما ضعف أمر الخلافة أعوام الخمسمائة من الهجرة فى آخرها وكانت فى ملَكة[٧٠] العُبَيْديين[٦١٧] خلفاء القاهرة من الشيعة واختل أمرهم زحف الفرنجة إلى بيت المقدس، فملكوه وملكوا معه عامة ثغور الشام، وبنوا على الصخرة المقدسة منه كنيسة كانوا يعظمونها ويفتخرون ببنائها. حتى إذا استقل صلاح الدين بن أيوب الكردى بملك مصر والشام ومحا أثر العُبَيْديين[٦١٧] وبدعهم زحف إلى الشام وجاهد مَن كان به من الفرنجة حتى غلبهم على بيت المقدس، وعلى ما

كانوا ملكوه من ثغور الشام، وذلك لنحو ثمانين وخمسمائة من الهجرة، وهدم تلك الكنيسة وأظهر الصخرة وبنى المسجد على النحو الذى هو عليه اليوم لهذا العهد.

ولا يعرض لك الإشكال المعروف فى الحديث الصحيح أن النبى ﷺ سئل عن أول بيت وضع، فقال: «مكة»، قيل: ثم أى؟ قال: «بيت المقدس»، قيل: فكم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»؛ فإن المدة بين بناء مكة وبين بناء بيت المقدس بمقدار ما بين إبراهيم وسليمان؛ لأن سليمان بانيه، وهو ينيف على الألف بكثير. واعلم أن المراد بالوضع فى الحديث ليس البناء، وإنما المراد أول بيت عُيِّن للعبادة، ولا يبعد أن يكون بيت المقدس عين للعبادة قبل بناء سليمان بمثل هذه المدة.

وقد نقل أن الصابئة بنوا على الصخرة هيكل الزُّهَرَة[١١١٠]، فلعل ذلك أنها كانت مكاناً للعبادة كما كانت الجاهلية تضع الأصنام والتماثيل حوالى الكعبة وفى جوفها، والصابئة الذين بنوا هيكل الزُّهَرَة[١١١٠] كانوا على عهد إبراهيم عليه السلام، فلا تبعد مدة الأربعين سنة بين وضع مكة للعبادة ووضع بيت المقدس، وإن لم يكن هناك بناء كما هو المعروف، وأن أول من بنى بيت المقدس سليمان عليه السلام. فتفهمه ففيه حل هذا الإشكال.

وأما المدينة، وهى المسماة بيثرب، فهى من بناء يثرب بن مهلايل من العمالقة وملكها بنو إسرائيل من أيديهم فيما ملكوه من أرض الحجاز، ثم جاورهم بنوقَيْلَة[١١١٥د] من غسان وغلبوهم عليها وعلى حصونها.

ثم أمر النبى ﷺ بالهجرة إليها لما سبق من عناية الله بها، فهاجر إليها ومعه أبو بكر وتبعه أصحابه ونزل بها وبنى مسجده وبيوته فى الموضع الذى كان الله قد أعده لذلك وشرفه فى سابق أزله. وآواه أبناء قَيْلَة[١١١٥د] ونصروه؛ فلذلك سموا الأنصار. وتمت كلمة الإسلام من المدينة حتى علت على الكلمات. وغلب على قومه وفتح مكة وملكها. وظن الأنصار أنه يتحول عنهم إلى بلده فأهمهم ذلك، فخاطبهم رسول الله ﷺ وأخبرهم أنه غير متحول. حتى إذا قبض ﷺ كان مَلْحدَه الشريف بها وجاء فى فضلها من الأحاديث الصحيحة مالا خفاء به.

ووقع الخلاف بين العلماء فى تفضيلها على مكة، وبه قال مالك رحمه الله لما

(١١١٥د) «قَيْلَة: أم الأوس والخزرج» وهما القبيلتان اللتان تألف منهما «الأنصار» (القاموس)؛ يقال لهما أبناء قَيْلَة.

ثبت عنده فى ذلك من النص الصريح عن رافع بن خديج أن النبى ﷺ قال: «المدينة خير من مكة»، نقل ذلك عبدالوهاب فى المعونة، إلى أحاديث أخرى تدل بظاهرها على ذلك. وخالف أبو حنيفة والشافعى. وأصبحت على كل حال ثانية المسجد الحرام، وجنح إليها الأمم بأفئدتهم من كل أوب.

فانظر كيف تدرجت الفضيلة فى هذه المساجد المعظمة لما سبق من عناية الله لها، تفهم سر الله فى الكون وتدرجه على ترتيب محكم فى أمور الدين والدنيا.

وأما غير هذه المساجد الثلاثة فلا نعلمه فى الأرض إلا ما يقال من شأن مسجد آدم عليه السلام بسرنديب من جزائر الهند، لكنه لم يثبت فيه شىء يعول عليه. وقد كانت للأمم فى القديم مساجد يعظمونها على جهة الديانة بزعمهم، منها بيوت النار للفرس، وهياكل يونان، وبيوت العرب بالحجاز التى أمر النبى ﷺ بهدمها فى غزواته. وقد ذكر المسعودى منها بيوتا لسنا من ذكرها فى شىء إذ هى غير مشروعة ولا هى على طريق دينى، ولا يلتفت إليها ولا إلى الخبر عنها. ويكفى فى ذلك ما وقع فى التواريخ، فمن أراد معرفة الأخبار فعليه بها. والله يهدى من يشاء سبحانه.

٧- فصل فى أن المدن والأمصار بإفريقية[٤٩ب] والمغرب قليلة

والسبب فى ذلك أن هذه الأقطار كانت للبربر منذ آلاف من السنين قبل الإسلام، وكان عمرانها كله بدويًا، ولم تستمر فيهم الحضارة حتى تستكمل أحوالها. والدول التى ملكتهم من الإفرنجة والعرب لم يطل أمد ملكهم فيهم حتى ترسخ الحضارة منها. فلم تزل عوائد البداوة وشئونها، فكانوا إليها أقرب، فلم تكثر مبانيهم. وأيضًا فالصنائع بعيدة عن البربر؛ لأنهم أعرق فى البداوة والصنائع من توابع الحضارة، وإنما تتم المبانى بها، فلابد من الحذق فى تعلمها، فلما لم يكن للبربر انتحال لها لم يكن لهم تشوف إلى المبانى فضلا عن المدن وأيضا فهم أهل عصبيات وأنساب، لا يخلو عن ذلك جمع منهم، والأنساب

والعصبية أجنح إلى البدو. وإنما يدعو إلى المدن الدعة والسكون ويصير ساكنها عيالا على حاميتها. فتجد أهل البدو لذلك يستنكفون عن سكنى المدينة أو الإقامة بها، ولا يدعو إلى ذلك إلا الترف والغنى، وقليل ما هو فى الناس.

فلذلك كان عمران إفريقية[٤٩ب] والمغرب كله أو أكثره بدويًا أهل خيام وظواعن وقياطن[٨٤٧] وكنن فى الجبال، وكان عمران بلاد العجم كله أو أكثره قرى وأمصاراً ورساتيق(١١١٦) من بلاد الأندلس والشام ومصر وعراق العجم وأمثالها. لأن العجم فى الغالب ليسوا بأهل أنساب يحافظون عليها ويتنازعون[٢٤٦] فى صراحتها(١١١٧) والتحامها إلا فى الأقل. وأكثر ما يكون سكنى البدو لأهل الأنساب. لأن لُحْمة(١١١٨) النسب أقرب وأشد، فتكون عصبيته كذلك، وتنزع بصاحبها إلى سكنى البدو والتجافى عن المصر الذى يذهب بالبسالة ويصيره عيالا على غيره. فافهمه وقس عليه. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

٨ـ فصل فى أن المبانى والمصانع فى الملة الإسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها وإلى من كان قبلها من الدول

والسبب فى ذلك ما ذكرنا مثله فى البربر بعينه، إذ العرب[٣٥٩] أيضًا أعرق فى البدو وأبعد عن الصنائع. وأيضًا فكانوا أجانب من الممالك التى استولوا عليها قبل الإسلام، ولما تملكوها لم ينفسح الأمد حتى تستوفى رسوم الحضارة؛ مع أنهم استغنوا بما وجدوا من مبانى غيرهم. وأيضا فكان الدين أول الأمر مانعا من المغالاة فى البنيان والإسراف فيه غير القَصْد[٢٩٣] كما عهد لهم عمر حين استأذنوه فى بناء الكوفة بالحجارة، وقد وقع الحريق فى القصب الذى كانوا بنوا من قبل، فقال افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات، ولا تطاولوا فى

(١١١٦) «الرُّستاق والرُّسداق والرُّزداق بالضم السواد والقرى، معرب رستا» (القاموس).

(١١١٧) «الصَّرَح والصريح والصُّراح بالضم والفتح الخالص من كل شىء، الاسم الصُّراحة، وصرُح نسبُه ككرم خَلُص وهو صريح» (القاموس).

(١١١٨) «اللحمة بالضم القرابة» (القاموس).

البنيان، والزموا السنة تلزمكم الدولة. وعهد إلى الوفد، وتقدم إلى الناس ألايرفعوا بنيانا فوق القدر. قالوا: وما القدر؟ قال: مالا يقربكم من السَّرَف ولا يخرجكم عن القَصْد[٢٩٣].

فلما بعد العهد بالدين والتحرج فى مثال هذه المقاصد، وغلبت طبيعة الملك والترف، واستخدم العرب أمة الفرس وأخذوا عنهم الصنائع والمبانى، ودعتهم إليها أحوال الدعة والترف، فحينئذ شيدوا المبانى والمصانع، وكان عهد ذلك قريبا بانقراض الدولة، ولم ينفسح الأمد لكثرة البناء واختطاط المدن والأمصار إلا قليلا. وليس كذلك غيرهم من الأمم. فالفرس طالت مدتهم آلافا من السنين وكذلك القبط والنبط والروم، وكذلك العرب الأولى من عاد وثمود والعمالقة والتبابعة طالت آمادهم ورسخت الصنائع فيهم؛ فكانت مبانيهم وهياكلهم أكثر عدداً وأبقى على الأيام أثراً. واستبصر فى هذا تجده كما قلت لك. والله وارث الأرض ومن عليها.

٩- فصل فى أن المبانى التى كانت تختطها العرب[٣٥٩] يسرع إليها الخراب إلا فى الأقل

والسبب فى ذلك شأن البداوة والبعد عن الصنائع كما قدمناه فلا تكون المبانى وثيقة فى تشييدها. وله - والله أعلم - وجه آخر وهو أمسُّ به، وذلك قلة مراعاتهم لحسن الاختيار فى اختطاط المدن كما قلناه(١١١٩) فى المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعى، فإنه بالتفاوت فى هذه تتفاوت جودة المصر ورداءته من حيث العمران الطبيعى، والعرب بمعزل عن هذا، وانما يراعون مراعى إبلهم خاصة لا يبالون بالماء طاب أو خبث، ولا قل أو كثر، ولا يسألون عن زكاء المزارع والمنابت والأهوية، لانتقالهم فى الأرض، ونقلهم الحبوب من البلد البعيد، وأما الرياح فالقفر مختلف للمهاب كلها، والظعن كفيل لهم بطيبها، لأن الرياح إنما تخبث مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات.

(١١١٩) يشير بذلك إلى ما ذكره فى الفصل الخامس من هذا الباب بشأن ما تجب مراعاته فى اختطاط المدن وما يعنى العرب بمراعاته ويغفلون غيره.

وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا فى اختطاطها إلا مراعى إبلهم، وما يقرب من القفر ومسالك الظعن، فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعى للمدن، ولم تكن لها مادة تمد عمرانها من بعدهم كما قدمنا[1119] أنه يحتاج إليه فى حفظ العمران. فقد كانت مواطنها غير طبيعية للقرار، ولم تكن فى وسط الأمم فيعمرها الناس. فلأول وهلة من انحلال أمرهم وذهاب عصبيتهم التى كانت سياجا لها أتى عليها الخراب والانحلال كأن لم تكن: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾[٤٥].

١٠ـ فصل فى مبادئ الخراب فى الأمصار

اعلم أن الأمصار إذا اختطت أولا تكون قليلة المساكن، وقليلة آلات البناء من الحجر والجير وغيرهما مما يعالى على الحيطان عند التأنق كالزلُّج[1120] والرخام والربْج[1121] والزجاج والفُسيفساء[1122] والصدف، فيكون بناؤها يومئذ بدويا وآلاتها فاسدة. فإذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها كثرت الآلات بكثرة الأعمال حينئذ، وكثر الصناع إلى أن تبلغ غايتها من ذلك كما سبق بشأنها. فإذا تراجع عمرانها وخف ساكنها قلت الصنائع لأجل ذلك، ففقدت الإجادة فى البناء والإحكام والمعالاة عليه بالتنميق. ثم تقل الأعمال لعدم الساكن فيقل جلب الآلات من الحجر والرخام وغيرهما، فتفقد ويصير بناؤهم وتشييدهم من الآلات التى فى مبانيهم، فينقلونها من مصنع إلى مصنع لأجل خلاء أكثر المصانع والقصور والمنازل بقلة العمران وقصوره عما كان أولا. ثم لا تزال تنقل من قصر إلى قصر ومن دار إلى دار إلى أن يفقد الكثير منها جملة، فيعودون إلى البداوة فى البناء واتخاذ الطوب عوضا عن الحجارة، والقصور عن التنميق بالكلية، فيعود بناء المدينة مثل بناء القرى والمداشر[1122ب]، ويظهر عليها سيما البداوة، ثم تمر فى التناقص إلى غايتها من الخراب إن قدر لها به. سنة الله فى خلقه.

(١١٢٠) «الزُّلّج بضمتين الصخور الملس» (القاموس).

(١١٢١) «الربْج والرويج الدرهم الصغير الخفيف» (القاموس).

(١١٢٢) هى ما نسميه الموزايكو mosaique.

(١١٢٢ب) هكذا فى «ن» ومعناها المدائن فى لغة المغرب. وفى نسخ أخرى «والمدر» وهى كذلك المدن والحضر. وفى نسخ أخرى «والمدائر» «والمداثر» وكلاهما تحريف عن «المداشر» على ما يظهر (انظر ص ٣٣٥ وتعليق ١٦٤ب).

١١ـ فصل فى أن تفاضل الأمصار والمدن فى كثرة الرَّفه ٥٠٧ لأهلها

ونفاق ٤٤ الأسواق إنما هو فى تفاضل عمرانها فى الكثرة والقلة ١٠٨٤

والسبب فى ذلك أنه قد عرف وثبت أن الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته فى معاشه، وأنهم متعاونون جميعا فى عمرانهم على ذلك. والحاجة التى تحصل بتعاون طائفة منهم تسد(١١٢٣) ضرورة الأكثر من عددهم أضعافا. فالقوت من الحنطة مثلا لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه. وإذا انتدب لتحصيله الستة أو العشرة من حداد ونجار للآلات وقائم على البقر وإثارة الأرض وحصاد السنبل وسائر مؤن الفلح، وتوزعوا على تلك الأعمال أو اجتمعوا، وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت، فإنه حينئذ قوت لأضعافهم مرات. فالأعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضروراتهم.

فأهل مدينة أو مصر إذا وزعت أعمالهم كلها على مقدار ضروراتهم وحاجاتهم اكتفى فيها بالأقل من تلك الأعمال، وبقيت الأعمال كلها زائدة على الضرورات فتصرف فى حالات الترف وعوائده وما يحتاج إليه غيرهم من أهل الأمصار ويستجلبونه منهم بأعواضه وقِيَمه، فيكون لهم بذلك حظ من الغنى. وقد تبين لك فى الفصل الخامس فى باب الكسب والرزق(١١٢٤) أن المكاسب إنما هى قيم الأعمال، فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمها بينهم فكثرت مكاسبهم ضرورة، ودعتهم أحوال الرَّفْه٥٠٧ والغنى إلى الترف وحاجاته من التأنق فى

(١١٢٣) فى جميع النسخ المتداولة «تشتد» وهو تحريف. والمعنى أن ما ينتج عن تعاون جماعة منهم يكفى لسد حاجة أضعافهم.

(١١٢٤) يشير بذلك إلى ما سيذكره فى أول الفصل الخامس (حسب اصطلاحه هو، والباب الخامس حسب اصطلاحنا ـ انظر الفصل الأول من الباب الخامس).

ويظهر أن هذا الباب الأخير كان متقدمًا على الباب الذى نحن فيه، ولذلك أحال عليه على أنه بحث قد فرغ منه؛ ثم رتب المقدمة ترتيبًا آخر بدون أن يغير هذه العبارة.

المساكن والملابس واستجادة الآنية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب. وهذه كلها أعمال تُسْتدعى بقيمها ويختار المهرة فى صناعتها والقيام عليها. فتنفُق[٤٤] أسواق الأعمال والصنائع ويكثر دخل المصر وخرجه، ويحصل اليسار لمنتحلي ذلك من قبَل أعمالهم ومتى زاد العمران زادت الأعمال ثانية، ثم زاد الترف تابعًا للكسب وزادت عوائده وحاجاته، واستنبطت الصنائع لتحصيلها، فزادت قيمها، وتضاعف الكسب فى المدينة لذلك ثانية، ونَفَقَت[٤٤] سوق الأعمال بها أكثر من الأول. وكذا فى الزيادة الثانية والثالثة، لأن الأعمال الزائدة كلها تختص بالترف والغنى بخلاف الأعمال الأصلية التى تختص بالمعاش. فالمصر إذا فضل بعمران واحد ففضله بزيادة كسب ورَفْه[٥٠٧] وبعوائد من الترف لا توجد فى الآخر. فما كان عمرانه من الأمصار أكثر وأوفر كان حال أهله فى الترف أبلغ من حال المصر الذى دونه على وتيرة واحدة فى الأصناف: القاضى مع القاضى؛ والتاجر مع التاجر؛ والصانع مع الصانع؛ والسوقى مع السوقى؛ والأمير مع الأمير؛ والشُرْطىّ مع الشُرْطىّ.

واعتبر ذلك فى المغرب مثلا بحال فاس من غيرها من أمصاره الأخرى مثل بِجَاية[٢١٥ج] وتِلمْسان[٨٤٩] وسبْتَة[٢٢١ب] تجد بينهما بونًا كثيرًا على الجملة، ثم على الخصوصيات. فحال القاضى بفاس أوسع من حال القاضى بتلمْسان، وهكذا كل صنف مع صنف أهله. وكذا أيضًا حال تلمسان مع وهرَان أو الجزائر، وحال وهران والجزائر مع مادونهما، إلى أن تنتهى إلى المداشر[١١٢٢ب] الذين اعتمالهم فى ضروريات معاشهم فقط، ويقصرون عنها وما ذلك إلا لتفاوت الأعمال فيها، فكأنها كلها أسواق للأعمال. والخرج فى كل سوق على نسبته فالقاضى بفاس دخله كفاء[٩٦١] خرجه، وكذا القاضى بتلمْسان. وحيث الدخل والخرج أكثر تكون الأحوال أعظم، وهما بفاس أكثر لنفَاَق[٤٤] سوق الأعمال بما يدعو إليه الترف، فالأحوال أضخم. ثم كذا حال وهرانَ وقُسَنْطِينة[٢١٥د] والجزائر وبَسْكَرَة[٢١٥هـ] ـ حتى تنتهى كما قلناه إلى الأمصار التى لا توفى أعمالها بضروراتها، ولا تعد فى الأمصار إذ هى من قبيل القرى والمداشر[١١٢٢ب] فلذلك تجد أهل هذه الأمصار الصغيرة ضعفاء الأحوال، متقاربين فى الفقر والخَصَاصَة[٩٦٤] لما أن أعمالهم لا تفى بضروراتهم، ولا يفضل ما يتأثلونه[٤٧٥ب] كسبًا فلا تنمو مكاسبهم، وهم لذلك مساكين محاويج إلا فى الأقل النادر.

واعتبر ذلك حتى فى أحوال الفقراء والسُؤَّال. فإن السائل بفاس أحسن حالا

من السائل بتلمْسان أو وهران. ولقد شاهدت بفاس السُّؤَّال يسألون أيام الأضاحى أثمَان ضحاياهم، ورأيتهم يسألونَ كثيرًا من أحوال الترف واقتراح المآكل، مثل سؤال اللحم والسمن وعلاج الطبخ والملابس والماعون، كالغربال والآنية. ولو سأل سائل مثل هذا بتلمسان أو وهران لاستُنكر وعُنِّف وزجر.

ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر(١١٢٥) من الترف والغنى فى عوائدهم ما يقضى منه العجب، حتى إن كثيرًا من الفقراء بالمغرب ينزعون إلى النُّقْلَة(١١٢٦) إلى مصر لذلك، لما يبلغهم من أن شأن الرَّفْه[٥٠٧] بمصر أعظم من غيرها. ويعتقد العامة من الناس أن ذلك لزيادة إيثار فى أهل تلك الآفاق على غيرهم أو أموال مختزنة لديهم، وأنهم أكثر صدقة وإيثارًا من جميع أهل الأمصار. وليس كذلك وإنما هو لما تعرفه من أن عمران مصر والقاهرة أكثر من عمران هذه الأمصار التى لديك، فعظمت لذلك أحوالهم.

وأما حال الدخل والخرج فمتكافئ فى جميع الأمصار، ومتى عظم الدخل عظم الخرج وبالعكس ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت أحوال الساكن ووسع المصر.

كل شىء يبلغك من مثل هذا فلا تنكره واعتبره بكثرة العمران، وما يكون عنه من كثرة المكاسب التى يسهل بسببها البذل والإيثار على مبتغيه، ومثّلْهُ بشأن الحيوانات العجم مع بيوت المدينة الواحدة وكيف يختلف أحوالها فى هِجْرانها(١١٢٧) أو غِشْيانها(١١٢٨). فإن بيوت أهل النَّعَم والثروة والموائد الخصبة منها تكثر بساحتها وأفنيتها بنثر الحبوب وسواقط الفتات، فيزدحم عليها غواشى[١١٢٨] النمل والخِشاش(١١٢٩) ويُحَلِّقُ فوقها عصائب(١١٣٠) الطيور حتى

(١١٢٥) كتب هذا ابن خلدون قبل مجيئه إلى مصر، ولم يغيره فى تعديله للمقدمة بعد قدومه إليها (انظر ما كتبناه فى هذا الموضوع فى تمهيدنا للمقدمة صفحات ٢٤٣ ـ ٢٤٦).

(١١٢٦) «النُّقْلة بالضم الانتقال» (القاموس). وقد حرفت هذه الجملة فى جميع النسخ المتداولة. ففى «ل» و«م»: «ينزعون من الثقة»، وفى «دار الكتاب اللبنانى» «ينزعون من النقلة».

(١١٢٧) «هجره هَجْرا وهِجْرانًا بالكسر صرمه» (القاموس).

(١١٢٨) «غَشِيه من باب تعب جاءه والاسم الغِشْيان بالكسر» (المصباح).

«والغاشية... السؤَّال يأتونك والزوار والأصدقاء ينتابونك والجمع الغواشى» (القاموس).

(١١٢٩) «الخِشاش بالكسر ما لا دماغ له من دواب الأرض ومن الطير» (القاموس). «خَشاش الأرض وزان كلام وكسر الأول لغة دوابها الواحدة خَشاشة وهى الحشرة والهامة» (المصباح).

(١١٣٠) «العِصابة الجماعة من الناس والخيل والطير، والجمع عصائب» (المصباح).

تروح بطاناً(١١٣١) وتمتلئ شبعًا وريّاً. وبيوت أهل الخَصاصة[٩٦٤] والفقراء الكاسدة أرزاقهم لا يسرى بساحتها دبيب، ولا يحلق بجوها طائر، ولا تأوى إلى زوايا بيوتهم فأرة ولا هرة. كما قال الشاعر:

تسقط الطير حيث يُلْتقَطُ الحَبّ　　　وتُغْشَى[١١٢٨] منازلُ الكرماء

فتأمل سر الله تعالى فى ذلك، واعتبر غاشية[١١٢٨] الأناسى بغاشية العجم من الحيوانات، وفتات الموائد بفضلات الرزق والترف وسهولتها على ما يبذلها لاستغنائهم عنها فى الأكثر لوجود أمثالها لديهم. واعلم أن اتساع الأحوال وكثرة النعم فى العمران تابع لكثرته. والله سبحانه وتعالى أعلم، وهو غنى عن العالمين.

١٢ - فصل فى أسعار المدن

اعلم أن الأسواق كلها تشتمل على حاجات الناس، فمنها الضرورى وهى الأقوات من الحنطة وما فى معناها كالباقلاء والبصل والثوم وأشباهه، ومنها الحاجِى[٤٣٩ب] والكمالى مثل الأُدْم[٢٤٧] والفواكه والملابس والماعون والمواكب وسائر المصانع والمبانى. فإذا استبحر(١١٣١ب) المصر وكثر ساكنه رخصت أسعار الضرورى من القوت وما فى معناه، وغلت أسعار الكمالى من الأُدم[٢٤٧] والفواكه وما يتبعها. وإذا قل ساكن المصر وضعف عمرانه كان الأمر بالعكس.

والسبب فى ذلك أن الحبوب من ضرورات القوت، فتتوفر الدواعى على اتخاذها، إذ كل أحد لا يهمل قوت نفسه ولا قوت منزله لشهره أو سنته فيعم اتخاذها أهل المصر أجمع أو الأكثر منهم فى ذلك المصر أو فيما قرب منه، لابد من ذلك. وكل متخذ لقوته تفضل عنه وعن أهل بيته فضلة كبيرة تسد خَلَّة[٣٦٢] كثيرين من أهل ذلك المصر، فتفضل الأقوات عن أهل المصر من غير شك، فترخص أسعارها فى الغالب، إلا ما يصيبها فى بعض السنين من الآفات السماوية ولولا احتكار الناس لها لما يُتوَقَّع من تلك الآفات لبُذلت دون ثمن ولا

(١١٣١) «بطن من باب طرب عظم بطنه من الشبع» واسم الفاعل باطن وجمعه بطان، الممتلئة بطونها من الشبع. وضدها الخِماص وهى الجياع. وفى الأثر: «لو توكلتم على الله حق التوكُّل لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خِماصاً وتروح بِطاناً».

(١١٣١ب) استبحرَ اتسع وانبسطَ كتبحر» (القاموس).

عوض لكثرتها بكثرة العمران. وأما سائر المرافق من الأدْم[٢٤٧] والفواكه وما إليها، فإنها لا تعم بها البلوى ولا يستغرق اتخاذها أعمال أهل المصر أجمعين، ولا الكثير منهم. ثم إن المصر إذا كان مستبحراً[١١٣١ب] موفور العمران كثير حاجات الترف توفرت حينئذ الدواعى على طلب تلك المرافق والاستكثار منها، كلٌّ بحسب حاله، فيقصر[٥٥٧] الموجود منها عن الحاجات قصوراً بالغًا، ويكثر المستامون[٢٠] لها وهى قليلة فى نفسها، فتزدحم أهل الأغراض، ويبذل أهل الرَّفْه والترف أثمانها بإسراف فى الغلاء، لحاجتهم إليها أكثر من غيرهم، فيقع فيها الغلاء كما تراه.

وأما الصنائع والأعمال أيضًا فى الأمصار الموفورة العمران فسبب الغلاء فيها أمور ثلاثة: الأول: كثرة الحاجة لمكان الترف فى المصر بكثرة عمرانه؛ والثانى: اعتزاز أهل الأعمال بخدمتهم وامتهان أنفسهم لسهولة المعاش فى المدينة بكثرة أقواتها(١١٣٢)؛ والثالث: كثرة المترفين وكثرة حاجاتهم إلى امتهان غيرهم وإلى استعمال الصناع فى مهنهم، فيبذلون فى ذلك لأهل الأعمال أكثر من قيمة أعمالهم مزاحمة ومنافسة فى الاستئثار بها، فيعتز العمال والصناع وأهل الحرف وتغلو أعمالهم، وتكثر نفقات أهل المصر فى ذلك.

وأما الأمصار الصغيرة والقليلة الساكن فأقواتهم قليلة لقلة العمل فيها، وما يتوقعونه لصغر مصرهم من عدم القوت؛ فيتمسكون بما يحصل منه فى أيديهم ويحتكرونه، فيعز وجوده لديهم، ويغلو ثمنه على مُستامه[٢٠]. وأما مرافقهم فلا تدعو إليها أيضًا حاجة لقلة الساكن وضعف الأحوال، فلا تَنْفُق[٤٤] لديهم سوقه، فيختص بالرخص فى سعره.

وقد يدخل أيضًا فى قيمة الأقوات قيمة ما يُفْرَض(١١٣٣) عليها من المكوس والمغارم للسلطان فى الأسواق وأبواب المصر، وللجباة فى منافع يفرضونها على البياعات لأنفسهم(١١٣٤)، ولذلك كانت الأسعار فى الأمصار أغلى من

(١١٣٢) أى إن العمال يعتزون بما يؤدونه من خدمة وما يبذلونه من جهد، ولا يجدون حاجة كبيرة إلى كثرة الكدح لسهولة العيش فى المدينة لكثرة أقواتها. هذا وفى جميع النسخ المتداولة «لخدمتهم» باللام، والصحيح «بخدمتهم» بالباء، كما لا يخفى.

(١١٣٣) فى جميع النسخ المتداولة «يعرض» بالعين، وهو تحريف كما لا يخفى.

(١١٣٤) وردت هذه العبارة فى جميع النسخ المتداولة محرفة تحريفًا كبيراً إلى هذه الصيغة: «من المكوس والمغارم للسلطان فى الأسواق وأبواب الحفر والحياة فى منافع وصولها عن البيوعات لما يمسهم». - وقد عثرنا عليها صحيحة مستقيمة فى النسخة «التيمورية».

الأسعار فى البادية، إذ المكوس والمغارم والفرائض قليلة لديهم أو معدومة، وكثرتها فى الأمصار لاسيما فى آخر الدولة. وقد تدخل أيضًا فى قيمة الأقوات قيمة علاجها فى الفلح، ويحافظ على ذلك فى أسعارها، كما وقع بالأندلس لهذا العهد. وذلك أنهم لما ألجأهم النصارى إلى سيف[٨٠٦] البحر وبلاده المتوعرة الخبيثة الزراعة النَّكِدة(١١٣٤ب) النبات، وملكوا عليهم الأرض الزاكية[٢٧٩] والبلد الطيب فاحتاجوا إلى علاج المزارع والفُدُن[٢٥٤] لإصلاح نباتها وفلحها، وكان ذلك العلاج بأعمال ذات قيم ومواد من الزبل وغيره لها مئونة، وصارت فى فلحهم نفقات لها خطر فاعتبروها فى سعرهم، واختص قطر الأندلس بالغلاء منذ اضطرهم النصارى إلى هذا المعمور بالإسلام مع سواحلها لأجل ذلك(١١٣٥). ويحسب الناس إذا سمعوا بغلاء الأسعار فى قطرهم أنها لقلة الأقوات والحبوب فى أرضهم، وليس كذلك، فهم أكثر أهل المعمور فلحًا فيما علمناه وأقومهم عليه، وقل أن يخلو منهم سلطان أو سوقة عن فَدَّان[٢٥٤] أو مزرعة أو فلح إلا قليل من أهل الصناعات والمهن أو الطُّرَّاء على الوطن من الغزاة المجاهدين؛ ولهذا يختصهم السلطان فى عطائهم بالعَوْلة(١١٣٦) وهى أقواتهم وعلوفاتهم من الزرع. وإنما السبب فى غلاء سعر الحبوب عندهم ما ذكرناه. ولما كانت بلاد البربر بالعكس من ذلك فى زكاء[٢٧٩] منابتهم وطيب أرضهم ارتفعت عنهم المؤن جملة فى الفلح مع كثرته عمومًا، فصار ذلك سببًا لرخص الأقوات ببلدهم. والله مقدر الليل والنهار، وهو الواحد القهار لارب سواه.

(١١٣٤ب) «نكِدَ نكَداً من باب تعب فهو نَكِدٌ: تعسر، ونكد العيش نَكَدًا اشتد» (المصباح). ومنه قوله تعالى: ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا ﴾ (آية ٥٨ من سورة الأعراف، وهى سورة ٧).

(١١٣٥) العبارة الأخيرة غير واضحة المعنى، ولابد أن يكون هنا تحريف أو سقط. ولكن المعنى العام واضح، وهو أن هذا الغلاء قد أخذ يظهر منذ اضطُر المسلمون إلى الجلاء عن المواطن الخصبة.

(١١٣٦) «عال عياله عَوْلاً كفاهم ومانهم، والعول كل ما عالك والمستعان به وقوت العيال» (القاموس).

١٣ـ فصل فى قصور أهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران

والسبب فى ذلك أن المصر الكثير العمران يكثر ترفه كما قدمناه وتكثر حاجات ساكنه من أجل الترف، وتُعتاد تلك الحاجات لما يدعو إليها فتنقلب ضرورات، وتصير فيه الأعمال كلها مع ذلك عزيزة، والمرافق غالية بازدحام الأغراض عليها من أجل الترف، وبالمغارم السلطانة التى توضع على الأسواق والبياعات وتُعْتبر فى قيم المبيعات، ويعظم فيها الغلاء فى المرافق والأقوات والأعمال، فتكثر لذلك نفقات ساكنه كثرة بالغة على نسبة عمرانه ويعظم خرجه، فيحتاج حينئذ إلى المال الكثير للنفقة على نفسه وعياله فى ضرورات عيشهم وسائر مؤنهم.

والبدوى لم يكن دخله كثيراً إذا كان ساكنًا بمكان كاسد الأسواق فى الأعمال التى هى سبب الكسب، فلم يتأثل[٤٧٥ب] كسبًا ولا مالا، فتعذر عليه من أجل ذلك سكنى المصر الكبير لغلاء مرافقه وعزة حاجاته، وهو فى بدوه يسد خَلَّته[٢٦١] بأقل الأعمال؛ لأنه قليل عوائد الترف فى معاشه وسائر مؤنه، فلا يضطر إلى المال. وكل من يتشوف إلى المصر وسكناه من أهل البادية فسريعًا ما يظهر عجزه ويفتضح فى استيطانه، إلا من يُقَدِّم منهم تأثل[٧٤٥ب] المال ويحصل له منه فوق الحاجة، ويجرى إلى الغاية الطبيعية لأهل العمران من الدعة والترف، فحينئذ ينتقل إلى المصر وينتظم حاله مع أحوال أهله فى عوائدهم وترفهم. وهكذا شأن بداية عمران الأمصار. والله بكل شىء محيط.

١٤ـ فصل فى أن الأقطار فى اختلاف أحوالها بالرفه[٥٠٧] والفقر مثل الأمصار

اعلم أن ما توفر[٦٠] عمرانه من الأقطار وتعددت الأمم فى جهاته وكثر ساكنه اتسعت أحوال أهله وكثرت أموالهم وأمصارهم وعظمت دولهم وممالكهم. والسبب فى ذلك كله ما ذكرناه من كثرة الأعمال وما يأتى ذكره من أنها سبب للثروة بما يفضل عنها بعد الوفاء بالضروريات فى حاجات الساكن من الفضلة البالغة على مقدار العمران وكثرته، فيعود على الناس كسباً يتأثلونه[٤٧٥ب]، حسبما نذكر ذلك فى فصل المعاش وبيان الرزق والكسب، فيتزيد الرَّفْه[٥٠٧] لذلك وتتسع الأحوال ويجىء الترف والغنى وتكثر الجباية للدولة بنَفاق[٤٤] الأسواق فيكثر مالها ويشمخ سلطانها، وتتفنن فى اتخاذ المعاقل والحصون واختطاط المدن وتشييد الأمصار.

اعتبر ذلك بأقطار المشرق؛ مثل مصر والشام وعراق العجم والهند والصين وناحية الشمال كلها وأقطارها وراء البحر الرومى، لما كثر عمرانها كيف كثر المال فيهم، وعظمت دولتهم، وتعددت مدنهم وحواضرهم، وعظمت متاجرهم وأحوالهم. فالذى نشاهده لهذا العهد من أحوال تجار الأمم النصرانية الواردين على المسلمين بالمغرب فى رَفْههم واتساع أحوالهم أكثر من أن يحيط به الوصف. وكذا تجار أهل المشرق وما يبلغنا عن أحوالهم. وأبلغ منها أحوال أهل المشرق الأقصى من عراق العجم والهند والصين، فإنه يبلغنا عنهم فى باب الغنى والرَّفْه[٥٠٧] غرائب تسير الركبان بحديثها، وربما تُتلقى بالإنكار فى غالب الأمر، ويحسب من يسمعها من العامة أن ذلك لزيادة فى أموالهم، أو لأن المعادن الذهبية والفضية أكثر بأرضهم، أو لأن ذهب الأقدمين من الأمم استأثروا به دون غيرهم، وليس كذلك. فمعدن الذهب الذى نعرفه فى هذه الأقطار إنما هو من بلاد السودان وهى إلى المغرب أقرب. وجميع ما فى أرضهم من البضاعة فإنما يجلبونه إلى غير بلادهم للتجارة. فلو كان المال عتيداً موفوراً لديهم لما جلبوا بضائعهم إلى سواهم يبتغون بها الأموال، ولاستغنوا عن أموال الناس بالجملة.

ولقد ذهب المنجمون، لما رأوا مثل ذلك، واستغربوا ما فى المشرق من كثرة الأحوال واتساعها ووفور أموالها، فقالوا بأن عطايا الكواكب والسهام فى مواليد أهل المشرق أكثر منها حصصًا فى مواليد أهل المغرب. وذلك صحيح من جهه المطابقة بين الأحكام النجومية والأحوال الأرضية كما قلناه. وهم إنما أعطوا فى ذلك السبب النجومى، وبقى عليهم أن يعطوا السبب الأرضى، وهو ما ذكرناه من كثرة العمران واختصاصها بأرض المشرق وأقطاره. وكثرة العمران تفيد كثرة الكسب بكثرة الأعمال التى هى سببه. فلذلك اختص المشرق بالرِّفْه من بين الآفاق، لا أن ذلك لمجرد الأثر النجومى. فقد فهمت مما أشرنا لك أولا أنه لا يستقل بذلك، وأن المطابقة بين حكمه وعمران الأرض وطبيعتها أمر لابد منه.

واعتبر حال هذا الرفه من العمران فى قطر إفريقية[٤٩ب] وبرقة لما خف ساكنها وتناقص عمرانها كيف تلاشت أحوال أهلها وانتهوا إلى الفقر والخصاصة[٩٦٤]، وضعفت جباياتها، فقلت أموال دولها، بعد أن كانت دول الشيعة[٦١٧] وصنهاجة[٥٠] بها على ما بلغك من الرَّفْه وكثرة الجبايات واتساع الأحوال فى نفقاتهم وأعْطياتهم[٤٨٠]، حتى لقد كانت الأموال ترفع من القيروان إلى صاحب مصر لحاجاته ومهماته، وكانت أموال الدولة بحيث حمل جوهر الكاتب فى سفره إلى فتح مصر ألف حمل من المال يستعد بها لأرزاق الجنود وأعْطِياتِهم[٤٨٠] ونفقات الغزاة.

وقطر المغرب وإن كان فى القديم دون إفريقية فلم يكن بالقليل فى ذلك، وكانت أحواله فى دول الموحدين[٩٣٦] متسعة وجباياته موفورة. وهو لهذا العهد قد أقصر عن ذلك لقصور العمران فيه وتناقصه، فقد ذهب من عمران البربر فيه أكثر، ونقص عن معهوده نقصًا ظاهرًا محسوسًا، وكاد أن يلحق فى أحواله بمثل أحوال إفريقية[٤٩ب]، بعد أن كان عمرانه متصلاً من البحر الرومى إلى بلاد السودان فى طول ما بين السوس الأقصى وبرقة. وهى اليوم كلها أو أكثرها قفار وخلاء وصحارى، إلا ما هو منها بِسِيف[٨٠٦] البحر أو ما يقاربه من التلول. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

١٥ـ فصل فى تأثل العقار والضياع فى الأمصار وحال فوائدها ومستغلاتها[٣٨٩ب]

اعلم أن تأثل[٤٧٥ب] العقار والضياع الكثيرة لأهل الأمصار والمدن لا يكون دفعة واحدة، ولا فى عصر واحد؛ إذ ليس يكون لأحد منهم من الثروة ما يملك به الأملاك التى تخرج قيمها عن الحد، ولو بلغت أحوالهم فى الرّفْه[٥٠٧] ما عسى أن تبلغ. وإنما يكون ملكهم وتأثلهم[٤٧٥ب] لها تدريجاً إما بالوراثة من آبائه وذوى رحمه، حتى تتأدى أملاك الكثيرين منهم إلى الواحد وأكثر لذلك، أو أن يكون بحِوالة[٩٢١] الأسواق؛ فإن العقار فى آخر الدولة وأول الأخرى عند فناء الحامية وخَرق السياج وتداعى المصر إلى الخراب تقل الغبطة به لقلة المنفعة فيها بتلاشى الأحوال فترخص قيمها، وتُتَمَلَّك بالأثمان اليسيرة، وتتخطى بالميراث إلى ملك آخر، وقد استجد المصر شبابه باستفحال الدولة الثانية، وانتظمت له أحوال رائعة حسنة تحصل معها الغبطة فى العقار والضياع لكثرة منافعها حينئذ، فتعظم قيمها، ويكون لها خطر لم يكن فى الأول. وهذا معنى الحِوالة[٩٢١] فيها، ويصبح مالكها من أغنى أهل المصر، وليس ذلك: بسعيه واكتسابه، إذ قدرته تعجِز عن مثل ذلك.

وأما فوائد العقار والضياع فهى غير كافية لمالكها فى حاجات معاشه، إذ هى لا تفى بعوائد الترف وأسبابه، وإنما هى فى الغالب لسد الخَلَّة[٢٦١] وضرورة المعاش. والذى سمعناه من مَشْيَخَة البلدان أن القصد باقتناء الملك من العقار والضياع إنما هو الخشية على من يترك خلفه من الذرية الضعفاء ليكون مرباهم به ورزقهم فيه ونشؤهم بفائدته ما داموا عاجزين عن الاكتساب، فإذا اقتدروا على تحصيل المكاسب سعوا فيها بأنفسهم. وربما يكون من الوُلْد من يعجز عن التكسب لضعف فى بدنه أو آفة فى عقله المعاشى، فيكون ذلك العقار قِوَاماً(١١٣٧) لحاله. هذا قصد المترفين فى اقتنائه. وأما التمول منه وإجراء أحوال

(١١٣٧) قِوام الأمر نظامه وعماده، يقال فلان قِوام أهل بيته وقيام أهل بيته أي هو الذي يقيم شأنهم. وقوام الأمر مِلاكه الذي يقوم به، وقد يفتح. (القاموس والمصباح).

المترفين فلا. وقد يحصل ذلك منه للقليل أو النادر بحوالة[٩٢١] الأسواق وحصول الكثرة البالغة منه؛ والعالى فى جنسه وقيمته فى المصر. إلا أن ذلك إذا حصل ربما امتدت إليه أعين الأمراء والولاة واغتصبوه فى الغالب أو أرادوه على بيعه منهم ونالت أصحابه منه مضار ومعاطب. والله غالب على أمره وهو رب العرش العظيم.

١٦ـ فصل فى حاجات المتمولين من أهل الأمصار إلى الجاه والمدافعة[٣٨٩ب]

وذلك أن الحضرى إذا عظم تموله، وكثر للعقار والضياع تأثُّلُه[٤٧٥ب]، وأصبح أغنى أهل المصر، ورمقته العيون بذلك، وانفسحت أحواله فى الترف والعوائد، زاحم عليها الأمراء وغَصُّوا[٩٩] به. ولما فى طباع البشر من العدوان، تمتد أعينهم إلى تملك ما بيده وينافسونه فيه، ويتحيلون على ذلك بكل ممكن، حتى يُحَصِّلُوه[(١١٣٨)] فى ربقة حكم سلطانى، وسبب من المؤاخذة ظاهر ينتزع به ماله. وأكثر الأحكام السلطانية جائرة فى الغالب؛ إذ العدل المحض إنما هو فى الخلافة الشرعية وهى قليلة اللبث. قال ﷺ: «الخلافة بعدى ثلاثون سنة، ثم تعود ملكا عضوضاً[٨٩٧]». فلابد حينئذ لصاحب المال والثروة الشهيرة فى العمران من حامية تذود عنه، وجاه ينسحب عليه من ذى قرابة للملك أو خالصة له أو عصبية يتحاماها السلطان؛ ليستظل بظلها، ويرتع فى أمنها من طوارق التعدى. وإن لم يكن له ذلك أصبح نهبًا بوجوه التحيلات وأسباب الحكام. ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه﴾[٤٥٠].

(١١٣٨) حصل الشىء حصولا ثبت ووقع، وحصّله أثبته وأوقعه. هذا وفى جميع النسخ حتى يحصلونه، والصواب حتى يحصلوه، لأن حتى هنا للغاية فتنصب ما بعدها ـ وأصل الرِّبْقة (بكسر الراء وفتحها) العُروة من الحبل يشد به البَهْم. والمعنى حتى يوقعوه فى مأخذ ينطبق عليه فيه حكم سلطانى ويبرر فى الظاهر مصادرة أمواله.

١٧ ـ فصل فى أن الحضارة فى الأمصار من قِبَل الدول وأنها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها

والسبب فى ذلك أن الحضارة هى أحوال عادية زائدة على الضرورى من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرَّفْه[٥٠٧] وتفاوت الأمم فى القلة والكثرة تفاوتًا غير منحصر. وتقع فيها عند كثرة التفنن فى أنواعها وأصنافها، فتكون بمنزلة الصنائع. ويحتاج كل صنف منها إلى القَوَمَة عليه والمهرة فيه. وبقدر ما يتزيد من أصنافها تتزيد أهل صناعتها، ويتلوَّنُ ذلك الجيل بها. ومتى اتصلت الأيام وتعاقبت تلك الصناعات حَذَقَ أولئك الصناع فى صناعتهم، ومهروا فى معرفتها. والأعصار بطولها وانفساح أمدها وتكرير أمثالها تزيدها استحكامًا ورسوخًا. وأكثر ما يقع ذلك فى الأمصار لاستبحار[١١٣١ب] العمران وكثرة الرَّفْه[٥٠٧] فى أهلها. وذلك كله إنما يجىء من قبل الدولة. لأن الدولة تجمع أموال الرعية وتنفقها فى بطانتها ورجالها، وتتسع أحوالهم بالجاه أكثر من اتساعها بالمال. فيكون دخل تلك الأموال من الرعايا وخرجها فى أهل الدولة ثم فيمن تعلق بهم من أهل المصر، وهم الأكثر فتعظم لذلك ثروتهم، ويكثر غناهم، وتتزيد عوائد الترف ومذاهبه، وتستحكم لديهم الصنائع فى سائر فنونه وهذه هى الحضارة.

ولهذا تجد الأمصار التى فى القاصية ولو كانت موفورة العمران تغلب عليها أحوال البداوة وتبعد عن الحضارة فى جميع مذاهبها، بخلاف المدن المتوسطة فى الأقطار التى هى مركز الدولة ومقرها. وما ذاك إلا لمجاورة السلطان لهم وفيض أمواله فيهم، كالماء يخضر ما قرب منه فما قرب من الأرض إلى أن ينتهى إلى الجفوف على البعد. وقد قدمنا أن السلطان والدولة سوق للعالم[١١٣٨ب]. فالبضائع كلها موجودة فى السوق وما قرب منه، وإذا بعدت عن السوق افتقدت البضائع جملة.

ثم إنه إذا اتصلت تلك الدولة وتعاقب ملوكها فى ذلك المصر واحدًا بعد واحد استحكمت الحضارة فيهم وزادت رسوخًا.

(١١٣٨ب) تقدم ذلك فى الفصل الثانى والأربعين من الباب الثالث (انظر ٧٤١).

واعتبر ذلك فى اليهود لما طال ملكهم بالشام نحواً من ألف وأربعمائة سنة رسخت حضارتهم، وحَذَقُوا فى أحوال المعاش وعوائده والتفنن فى صناعته من المطاعم والملابس وسائر أحوال المنزل؛ حتى إنها لتؤخذ عنهم فى الغالب إلى اليوم. ورسخت الحضارة أيضًا وعوائدها فى الشام منهم ومن دولة الروم بعدهم ستمائة سنة، فكانوا فى غاية الحضارة. وكذلك أيضًا القبط دام ملكهم فى الخليقة ثلاثة آلاف من السنين، فرسخت عوائد الحضارة فى بلدهم مصر. وأعقبهم بها ملك اليونان والروم ثم ملك الإسلام الناسخ للكل. فلم تزل عوائد الحضارة بها متصلة. وكذلك أيضًا رسخت عوائد الحضارة باليمن لاتصال دولة العرب بها منذ عهد العمالقة والتبابعة آلافًا من السنين، وأعقبهم ملك مصر(١١٣٨ج). وكذلك الحضارة بالعراق لاتصال دولة النبط والفرس بها من لدن الكلدانيين والكيانية والكسروية والعرب بعدهم آلافًا من السنين.

فلم يكن على وجه الأرض لهذا العهد أحضر من أهل الشام والعراق ومصر. وكذا أيضًا رسخت عوائد الحضارة واستحكمت بالأندلس لاتصال الدولة العظيمة فيها للقوط. ثم ما أعقبها من ملك بنى أمية آلافًا من السنين، وكلتا الدولتين عظيمة، فاتصلت فيها عوائد الحضارة واستحكمت.

وأما إفْرِيقية[٤٩ب] والمغرب فلم يكن بها قبل الإسلام ملك ضخم. إنما قطع الروم الإفرنجة إلى إفريقية البحر وملكوا الساحل؛ وكانت طاعة البربر أهل الضاحية لهم طاعة غير مستحكمة، فكانوا على قلعة وأوْفاز(١١٣٩). وأهل المغرب لم تجاوزهم(١١٤٠) دولة، وإنما كانوا يبعثون بطاعتهم إلى القوط من وراء البحر

(١١٣٨ج) هكذا فى جمع النسخ. ولابد أن تكون كلمة «مصر» محرفة عن كلمة أخرى، لأنه لم يكن لمصر فى التاريخ القديم ملك فى اليمن.

(١١٣٩) من معانى الوفْز المكان المرتفع. والقلعة الحصن المرتفع والممتنع على الجبل (من القاموس). والمعنى أن الغزاة لإفريقية من الإفرنج لم يكن ملكهم مستقرًا ولم يكن عاما، وإنما ملكوا السواحل فقط وتحصنوا بالقلاع والأوفاز - ويغلب على الظن أن هنا تحريفًا وأن صوابه «فكانوا على القلعة والقيروان» وكلتاهما مدينة بإفريقية على الساحل. وتسمى الأولى كذلك قلعة أبى طويل. ويؤيد هذا ما سيذكره بعد بضعة أسطر إذ يقول: «وإلى هذا العهد يؤنس فيمن سلف له بالقلعة أو القيروان أو المهدية سلف». - هذا وفى النسخة «التيمورية»: «وكانوا على قلعة وأوفار» بالراء. والكلمة على هذه الصورة مجردة من الدلالة.

(١١٤٠) فى جميع النسخ «تجاورهم» بالراء، وهو تحريف. والصحيح «تجاوزهم» بالزاى. ويستخدم ابن خلدون فعل جاز ومزيداته فى شئون الغزو، بمعنى وصل إلى البلد وغزاه ومن ذلك قوله « ... مثل الروم إلى إفريقية والقوط إلى المغرب، أجازوا فى الأساطيل وملكوها وتغلبوا على البربر بها» (انظر ص٦٨٩). واستخدام الفعل فى هذا المعنى استخدام عربى صحيح (انظر تعليق ٨٠٨).

ولما جاء الله بالإسلام، وملك العرب إفريقية والمغرب لم يلبث فيهم ملك العرب إلا قليلا أول الإسلام، وكانوا لذلك العهد فى طور البداوة، ومن استقر منهم بإفْرِيقية والمغرب لم يجد بهما من الحضارة ما يقلد فيه من سلفه، إذ كانوا برابر منغمسين فى البداوة. ثم انتقض برابرة المغرب الأقصى لأقرب العهود على يد ميسرة المطفرى[(١١٤٠ب)] أيام هشام بن عبدالملك، ولم يراجعوا أمر العرب بعد، واستقلوا بأمر أنفسهم، وإن بايعوا لإدريس فلا تعد دولته فيهم عربية، لأن البرابر هم الذين تولوها، ولم يكن من العرب فيها كثير عدد[(١١٤١)]، وبقيت إفريقية للأغالبة ومن إليهم من العرب فكان لهم من الحضارة بعض الشىء بما حصل لهم من ترف الملك ونعيمه، وكثرة عمران القيروان. وورث ذلك عنهم كُتَامة[٥٠] ثم صِنْهاجة[٥٠] من بعدهم؛ وذلك كله قليل لم يبلغ أربعمائة سنة، وانصرمت دولتهم واستحالت صبغة الحضارة بما[٤٤٥] كانت غير مستحكمة. وتغلب بدو العرب الهلاليين عليها وخربوها، وبقى أثر خفى من حضارة العمران فيها. وإلى هذا العهد يؤنس فيمن سلف له بالقلعة أو القيروان أو المهدية سلف فتجد له من الحضارة فى شئون منزله وعوائد أحواله آثارًا ملتبسة بغيرها يميزها الحضرى البصير بها، وكذا فى أكثر أمصار إفريقية، وليس ذلك فى المغرب وأمصاره؛ لرسوخ الدولة بإفريقية أكثر أمدًا منذ عهد الأغالبة والشيعة[٦١٧] وصنهاجة[٥٠]؛ وأما المغرب فانتقل إليه منذ دولة الموحدين[٩٣٦] من الأندلس حظ كبير من الحضارة، واستحكمت به عوائدها بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الأندلس، وانتقل الكثير من أهلها إليهم طوعًا وكرهًا، وكانت من اتساع النطاق ما علمت، فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها؛ ومعظمها من أهل الأندلس؛ ثم انتقل أهل شرق الأندلس عند جالية النصارى إلى إفريقية فأبقوا فيها بأمصارها من الحضارة آثارًا، ومعظمها بتونس امتزجت بحضارة مصر، وما ينقله المسافرون من عوائدها؛ فكان بذلك للمغرب وإفريقية حظ صالح من الحضارة عَفَّى[١٤٦] عليه الخلاء، ورجع على أعقابه، وعاد البربر بالمغرب إلى أديانهم من البداوة والخشونة. وعلى كل حال فآثار الحضارة

(١١٤٠ب) فى النسخة «التيمورية»: «ميسرة المطغرى» بالغين.

(١١٤١) التركيب ركيك، والمعنى: وهم، وإن كانوا قد بايعوا إدريس الذى تنحدر أسرته من أصل عربى، فإن دولته فيهم لم تكن عربية؛ لأن البربر هم الذين تولوها.. الخ.

بإفريقية أكثر منها بالمغرب وأمصاره لما تداول فيها من الدول السالفة أكثر من المغرب ولقرب عوائدهم من أهل مصر بكثرة المترددين بينهم.

فتفطن لهذا السر فإنه خفى عن الناس، واعلم أنها أمور متناسبة وهى حال الدولة فى القوة والضعف، وكثرة الأمة أو الجيل، وعظم المدينة أو المصر، وكثرة النعمة واليسار. وذلك أن الدولة والملك صورة الخليقة والعمران، وكلها مادة لها من الرعايا والأمصار وسائر الأحوال، وأموال الجباية عائدة عليهم، ويسارهم فى الغالب من أسواقهم ومتاجرهم. وإذا أفاض السلطان عطاءه وأمواله فى أهلها انبثت فيهم ورجعت إليه ثم إليهم منه؛ فهى ذاهبة عنهم فى الجباية والخراج عائدة عليهم فى العطاء. فعلى نسبة حال الدولة يكون يسار الرعايا، وعلى نسبة يسار الرعايا وكثرتهم يكون مال الدولة. وأصله كله العمران وكثرته. فاعتبره وتأمله فى الدول تجده. ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾[٤٥٠].

١٨ - فصل فى أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وأنها مؤذنة بفساده[٣٨٩ب]

قد بينا لك فيما سلف أن الملك والدولة غاية للعصبية[(١١٤٢)]، وأن الحضارة غاية للبداوة[(١١٤٣)]، وأن العمران كله من بداوة وحضارة وملك وسوقة له عمر محسوس، كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمراً محسوسا[(١١٤٤)] وتبين فى المعقول والمنقول أن الأربعين للإنسان غاية فى تزايد قواه ونموها، وأنه إذا بلغ سن الأربعين وقفت الطبيعة عن أثر النشوء والنمو برهة، ثم تأخذ بعد ذلك فى الانحطاط. فلتعلم أن الحضارة فى العمران أيضاً كذلك. لأنه غاية لا مزيد وراءها. وذلك أن الترف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق

(١١٤٢) عرض لذلك فى الفصل السابع عشر من الباب الثانى (صفحتى ٤٩٩ ، ٥٠٠)
(١١٤٣) عرض لذلك فى الفصلين الأول والثالث من الباب الثانى (صفحات ٤٦٧ - ٤٦٩ - ٤٧٣ - ٤٧٤).
(١١٤٤) عرض لذلك فى الفصل الرابع عشر من الباب الثالث (صفحات ٥٤٥ - ٥٤٨)

بعوائدها. والحضارة كما علمت هى التفنن فى الترف واستجادة أحواله، والكَلَف[٦٨] بالصنائع التى تؤنق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو المبانى أو الفرش أو الآنية ولسائر أحوال المنزل. وللتأنق فى كل واحد من هذه صنائع كثيرة لا يحتاج إليها عند البداوة وعدم التأنق فيها. وإذا بلغ التأنق فى هذه الأحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات، فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها فى دينها ولا دنياها: أما دينها فلاستحكام صبغة العوائد التى يعسر نزعها؛ وأما دنياها فلكثرة الحاجات والمئونات التى تطالب بها العوائد ويعجِز الكسب عن الوفاء بها.

وبيانه أن المصر بالتفنن فى الحضارة تعظم نفقات أهله. والحضارة تتفاوت بتفاوت العمران، فمتى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل وقد كنا قدمنا(١١٤٥) أن المصر الكثير العمران يختص بالغلاء فى أسواقه وأسعار حاجته ثم تزيدها المكوس غلاء؛ لأن الحضارة إنما تكون عند انتهاء الدولة فى استفحالها وهو زمن وضع المكوس فى الدولة لكثرة خرجها حينئذ كما تقدم؛ والمكوس تعود على البياعات بالغلاء؛ لأن السوقة والتجار كلهم يحتسبون على سلعهم وبضائعهم جميع ماينفقونه حتى فى مئونة أنفسهم فيكون المكس لذلك داخلا فى قيم المبيعات وأثمانها؛ فتعظم نفقات أهل الحضارة وتخرج عن القصد[٢٩٣] إلى الإسراف، ولا يجدون وليجة[٤٨١] عن ذلك، لما[٥٨١] ملكهم من أثر العوائد وطاعتها، وتذهب مكاسبهم كلها فى النفقات ويتتابعون فى الإملاق[٩١٧] والخصاصة[٩٦٤] ويغلب عليهم الفقر، ويقل المستامون[٢٠] للمبايع، فتكسد الأسواق ويفسد حال المدينة. وداعية ذلك كله إفراط الحضارة والترف؛ وهذه مفسدات فى المدينة على العموم فى الأسواق والعمران.

وأما فساد أهلها فى ذاتهم واحداً واحداً على الخصوص فمن الكد والتعب فى حاجات العوائد والتلون بألوان الشر فى تحصيلها، وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون آخر من ألوانها فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه،

(١١٤٥) تقدم ذلك فى الفصل الثانى عشر من هذا الباب (صفحات ٨١٢ ـ ٨١٤)

وتنصرف النفس إلى الفكر فى ذلك والغوص عليه واستجماع الحيلة له فتجدهم أجرياء(١١٤٦) على الكذب والمقامرة والغش والخِلابة(١١٤٧) والسرقة والفجور فى الأيمان والربا فى البياعات.

ثم تجدهم أبصر بطرق الفسق ومذاهبه والمجاهرة به وبدواعيه واطراح الحشمة فى الخوض فيه، حتى بين الأقارب وذوى المحارم الذين تقتضى البداوة الحياء منهم فى الإقذاع بذلك. وتجدهم أيضًا أبصر بالمكر والخديعة، يدفعون بذلك ماعساه ينالهم من القهر، وما يتوقعونه من العقاب على تلك القبائح، حتى يصير ذلك عادة وخلقا لأكثرهم إلا من عصمه الله. ويموج بحر المدينة بالسِّفْلة من أهل الأخلاق الذميمة ويجاريهم فيها كثير من ناشئة الدولة وولدانهم ممن أهمل عن التأديب وغلب عليه خلق الجوارى، وإن كانوا أهل أنساب وبيوتات. وذلك أن الناس بشر متماثلون؛ وإنما تفاضلوا وتميزوا بالخلق واكتساب الفضائل واجتناب الرذائل. فمن استحكمت فيه صبغة الرذائل بأى وجه كان، وفسد خلق الخير فيه، لم ينفعه زكاء[٢٧٩] نسبه ولا طيب منبته. ولهذا تجد كثيراً من أعقاب البيوت وذوى الأحساب والأصالة وأهل الدول منطرحين فى الغُمار(١١٤٨) منتحلين للحرف الدنية فى معاشهم بما[٤٤٥] فسد من أخلاقهم، وما تلونوا به من صبغة الشر والسفسفة.

وإذا كثر ذلك فى المدينة أو الأمة تأذن الله بخرابها وانقراضها، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾(١١٤٩). ووجهه حينئذ أن مكاسبهم حينئذ لا تفى بحاجاتهم لكثرة العوائد ومطالبة النفس بها، فلا تستقيم أحوالهم. وإذا فسدت أحوال الأشخاص واحداً واحداً اختل نظام المدينة وخربت. وهذا معنى ما يقول بعض أهل الخواص: «إن المدينة إذ كثر فيها غرس النارنج تأذنت بالخراب»؛ حتى إن

(١١٤٦) «الجُرْأة كالجرعة الشجاعة، وقد جَرُؤَ ككرم فهو جرىء وجمعه أجراء» (القاموس) ولم يذكر فى الجمع أجرياء.

(١١٤٧) «خلبه خلْبًا وخلابًا وخِلابة بكسرهما خدعه كاختلبه وخالبه» (القاموس).

(١١٤٨) غُمار الناس وغُمارتهم بضم الغين وفتحها فيهما وغَمْرتهم وغَمْرهم وغَمَرهم جماعتهم ولفيفهم (من القاموس) ويطلق فى الغالب على الدهماء والطبقات الدنيا من الناس.

(١١٤٩) آية ١٦ من سورة الإسراء (وهى سورة ١٧).

كثيرًا من العامة يتحامى غرس النارنج بالدور؛ وليس المراد ذلك، ولا أنه خاصية في النارنج، وإنما معناه أن البساتين وإجراء المياه هو من توابع الحضارة. ثم إن النارنج والليم والسرو وأمثال ذلك مما لا طعم فيه ولا منفعة هو من غاية الحضارة، إذ لا يقصد بها في البساتين إلا أشكالها فقط، ولا تغرس إلا بعد التفنن في مذاهب الترف، وهذا هو الطور الذي يخشى معه هلاك المصر وخرابه كما قلناه. ولقد قيل مثل ذلك في الدِّفْلى[١١٥٠] وهو من هذا الباب، إذ الدِّفْلَى لا يقصد بها إلا تلون البساتين بِنَوْرها ما بين أحمر وأبيض وهو من مذاهب الترف.

ومن مفاسد الحضارة الانهماك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف، فيقع التفنن في شهوات البطن من المآكل والملاذ ويتبع ذلك التفنن في شهوات الفرج بأنواع المناكح من الزنا واللواط فيفضي ذلك إلى فساد النوع: إما بواسطة اختلاط الأنساب كما في الزنا فيجهل كل واحد ابنه إذ هو لغير رِشْدَة[١١٥١]؛ لأن المياه مختلطة في الأرحام، فتُفْقَد الشفقة الطبيعية على البنين والقيام عليهم فيهلِكُون، ويؤدي ذلك إلى انقطاع النوع؛ أو يكون فساد النوع [كما في اللواط المؤدي إلى عدم النسل رأسًا وهو أشد في فساد النوع][١١٥١ب] إذ هو يؤدي إلى ألا يوجد النوع والزنا يؤدي إلى عدم[١١٥٢] ما يوجد منه. ولذلك كان مذهب مالك رحمه الله في اللواط[١١٥٣] أظهر من مذهب غيره[١١٥٤] ودل على أنه أبصر بمقاصد الشريعة واعتبارها للمصالح.

(١١٥٠) «الدِّفل بالكسر وكذكْرى نبت مرّ قتَّال زهره كالورد الأحمر». (القاموس).

(١١٥١) يقال وُلد لِرِشْدَةٍ بكسر الراء والفتح لغة أو هو لِرِشْدَةٍ أي إنه صحيح النسب، ضد وُلِدَ لِزِنْيَة أو هو لزَنْيَة (من القاموس والمصباح).

(١١٥١ب) الموضوع بين هذين القوسين [ ] ساقط من جميع النسخ المتداولة، وقد عثرنا عليه في النسخة «التيمورية».

(١١٥٢) هكذا في جميع النسخ. ولابد أن يكون هنا سقط، وتقديره: «والزنا يؤدي إلى عدم معرفة أنساب ما يوجد منه».

(١١٥٣) يجعل الإمام مالك اللواط في حكم الزنا، بل يسميه زنا، ويوقع على مقترفه حد الزنا سواء بسواء (انظر الجزء الرابع من حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للدردير على متن خليل، صفحات ٣١٣ وتوابعها، طبعة المطبعة الأزهرية ١٩٢٧).

(١١٥٤) كأبي حنيفة مثلا الذي يذهب إلى أنه لا يوقع فيه حد الزنا وإنما يجب فيه التعزير - وقد خالفه في ذلك صاحباه أبو يوسف ومحمد فذهبا إلى ما ذهب إليه مالك من أن حكمه حكم الزنا (انظر الميداني على القدوري ص٢١٨ طبعة المطبعة الأزهرية ١٩٢٧).

فافهم ذلك واعتبر به أن غاية العمران هى الحضارة والترف وأنه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد وأخذ فى الهَرَم كالأعمار الطبيعية للحيوانات.

بل نقول: إن الأخلاق الحاصلة من الحضارة والترف هى عين الفساد؛ لأن الإنسان إنما هو إنسان باقتداره على جلب منافعه ودفع مضاره واستقامة خلقه للسعى فى ذلك. والحضرى لا يقدر على مباشرته حاجاته، إما عجزًا لما حصل له من الدعة، أو ترفعًا لما حصل له من المَرْبَى فى النعيم والترف، وكلا الأمرين ذميم (وكذلك لا يقدر على دفع المضار بما فقد من خلق البأس بالترف والمربى فى قهر التأدب والتعليم؛ فهو لذلك عيال على الحامية التى تدافع عنه. ثم هو فاسد أيضًا فى دينه غالبا بما أفسدت منه العوائد وطاعتها وما تلوثت به النفس فى ملكاتها كما قررناه، إلا فى الأقل النادر. وإذا فسد الإنسان فى قدرته ثم فى أخلاقه ودينه فقد فسدت إنسانيته وصار مسخا على الحقيقة. وبهذا الاعتبار كان الذين يربون فى جند السلطان على البداوة والخشونة أنفع من الذين يربون على الحضارة وخلقها. وهذا موجود فى كل دولة)[(١١٥٤ب)].

فقد تبين أن الحضارة هى سن الوقوف لعمر العالم فى العمران والدولة.

والله سبحانه وتعالى ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾[(١١٥٥)] لا يشغله شأن عن شأن.

(١١٥٤ب) الموضوع بين قوسين هو نص هذه العبارة كما وردت فى النسخة «التيمورية» مع إصلاح يسير لبعض الكلمات المحرفة من الناسخ. وقد وردت هذه العبارة محرفة تحريفًا كبيرًا فى جميع النسخ المتداولة؛ فجاء ت فيها على هذا الوضع: «كذا لا يقدر على دفع المضار واستقامة خلقه للسعى فى ذلك والحضرى بما قد فقد من خلق الإنسان بالترف والنعيم فى قهر التأديب فهو بذلك عيال على الحامية التى تدافع عنه. ثم هو فاسد أيضًا غالبًا بما فسدت منه العوائد وطاعتها، وما تلونت به النفس من مكانتها كما قررناه، إلا فى الأقل النادر. وإذا فسد الإنسان فى قدرته على أخلاقه ودينه فقد فسدت إنسانيته وصار مسخًا على الحقيقة. وبهذا الاعتبار كان الذين يتربون على الحضارة وخلقها موجودين فى كل دولة».

(١١٥٥) آخر الآية ٢٩ من سورة الرحمن، (وهى سورة ٥٥) .

١٩ ـ فصل فى أن الأمصار التى تكون كراسى للملك تخرب بخراب الدولة وانتقاضها

قد استقرينا فى العمران أن الدولة إذا اختلت وانتقضت فإن المصر الذى يكون كرسيًا لسلطانها ينتقض عمرانه وربما ينتهى فى انتقاضه إلى الخراب ولا يكاد ذلك يتخلف. والسبب فيه أمور:

الأول : أن الدولة لابد فى أولها من البداوة المقتضية للتجافى عن أموال الناس والبعد عن التحذلق. ويدعو ذلك إلى تخفيف الجباية والمغارم التى منها مادة الدولة فتقل النفقات ويقصر الترف. فإذا صار المصر الذى كان كرسيا للملك فى مَلَكة[٧٠] هذه الدولة المتجددة، ونقصت أحوال الترف فيها، نقص الترف فيمن تحت أيديها من أهل المصر، لأن الرعايا تبع للدولة، فيرجعون إلى خلق الدولة، إما طوعا لما فى طباع البشر من تقليد متبوعهم، أو كرهًا لما يدعو إليه خلق الدولة من الانقباض عن الترف فى جميع الأحوال وقلة الفوائد التى هى مادة العوائد، فتقصر لذلك حضارة المصر، ويذهب منه كثير من عوائد الترف، وهو معنى ما نقول فى خراب المصر.

الأمر الثانى : أن الدولة إنما يحصل لها الملك والاستيلاء بالغَلَب، والغلب إنما يكون بعد العداوة والحروب، والعداوة تقتضى منافاة بين أهل الدولتين وتكثر إحداهما عن الأخرى فى العوائد والأحوال، وغَلَب أحد المتنافيين يذهب بالمنافى الآخر، فتكون أحوال الدولة السابقة مُنْكَرَةً عند أهل الدولة الجديدة ومستبشعة وقبيحة، وخصوصا أحوال الترف، فتفقد فى عرفهم بنكير الدولة لها، حتى تنشأ لهم بالتدريج عوائد أخرى من الترف، فتكون عنها حضارة مستأنفة. وفيما بين ذلك قصور الحضارة الأولى ونقصها. وهو معنى اختلال العمران فى المصر.

الأمر الثالث : أن كل أمة لابد لهم من وطن هو منشؤهم ومنه أولية ملكهم. وإذا ملكوا ملكا آخر صار تبعًا للأول، وأمصاره تابعة لأمصار الأول، واتسع نطاق الملك عليهم، ولابد من توسط الكرسى تخوم الممالك التى للدولة، لأنه شبه

المركز للنطاق، فيبعد مكانه عن مكان الكرسى الأول، وتهوى أفئدة الناس إليه من أجل الدولة والسلطان، فينتقل إليه العمران ويخف من مصر الكرسى الأول، والحضارة إنما هى توفر العمران كما قدمناه، فتنتقص حضارته وتمدنه، وهو معنى اختلاله. وهذا كما وقع للسلجوقية فى عدولهم بكرسيهم عن بغداد إلى أصبهان، وللعرب قبلهم فى العدول عن المدائن إلى الكوفة والبصرة، ولبنى العباس فى العدول عن دمشق إلى بغداد، ولبنى مَرِينٍ[780] بالمغرب فى العدول عن مراكش إلى فاس. وبالجملة فاتخاذ الدولة الكرسى فى مصر يخل بعمران الكرسى الأول.

الأمر الرابع : أن الدولة المتجددة إذا غلبت على الدولة السابقة لابد فيها من تتبع أهل الدولة السابقة وأشياعها بتحويلهم إلى قطر آخر يؤمن فيه غائلتهم(1156) على الدولة. وأكثرُ أهلِ المصرِالكرسىِّ أشياعُ الدولة، إما من الحامية الذين نزلوا به أول الدولة أو من أعيان المصر؛ لأن لهم فى الغالب مخالطة للدولة على طبقاتهم وتنوع أصنافهم، بل أكثرهم ناشئ فى الدولة فهم شيعة لها، وإن لم يكونوا بالشوكة والعصبية فهم بالميل والمحبة والعقيدة. وطبيعة الدولة المتجددة محو آثار الدولة السابقة. فتنقلهم من مصرِ لكرسىٍّ إلى وطنها المتمكن فى مَلَكَتها[70] فبعضهم على نوع التغريب والحبس، وبعضهم على نوع الكرامة والتلطف بحيث لا يؤدى إلى النُّفْرة، حتى لا يبقى فى مصر الكرسى إلا الباعة والهَمَل[135] من أهل الفلح والعِيارَة(1157). وسواد العامة، وتُنْزَلُ مكانهم من حاميتها وأشياعها من يشتد به المصر(1158) وإذا ذهب من مصر أعيانه على طبقاتهم نقص ساكنه وهو معنى اختلال عمرانه. ثم لابد من أن يستجد عمران آخر فى ظل الدولة الجديدة وتحصل فيه حضارة أخرى على قدر الدولة وإنما ذلك بمثابة من له بيت على أوصاف مخصوصة فأظهر من قدرته على تغيير تلك الأوصاف وإعادة بنائها على ما يختاره ويقترحه، فيخرب ذلك البيت، ثم يعيد بناءه ثانياً.

(1156) هكذا وردت هذه العبارة فى النسخة «التيمورية» وقد وردت فى جميع النسخ المتداولة محرفة على هذا الوضع: «إن الدولة الثانية لابد فيها من تبع أهل الدولة السابقة وأشياعها بتحويلهم.. إلخ».

(1157) «عار الرجلُ ذهب وجاء.. والاسم العِيارة». فلعله يقصد الذين يكثرون من الذهاب والمجيء والتسكع فى الطرقات بلا عمل ولا صناعة. أو لعل الكلمة محرفة.

(1158) فى النسخة «التيمورية»: «وتنزل مكانهم من حاميتها وأشياعها من تسد به المصر» وفى النسخ المتداولة: «وينزل مكانهم حاميتها وأشياعها من يشتد به المصر» والأولى حُرِّف فيها الفعل، والثانية سقط منها حرف الجر. والصحيح ما أثبتناه.

وقد وقع من ذلك كثير في الأمصار التي هي كراسي للملك وشاهدناه وعلمناه ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[٤٢٠].

والسبب الطبيعي الأول في ذلك على الجملة أن الدولة والملك للعمران بمثابة الصورة للمادة وهو الشكل الحافظ بنوعه لوجودها. وقد تقرر في علوم الحكمة أنه لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر. فالدولة دون العمران لا تتصور؛ والعمران دون الدولة والملك متعذر، لما في طباع البشر من العدوان الداعي إلى الوازع فتتعين السياسة لذلك، إما الشرعية أو الملكية، وهو معنى الدولة. وإذا كانا لا ينفكان فاختلال أحدهما مؤثر في اختلال الآخر، كما أن عدمه مؤثر في عدمه. والخلل العظيم إنما يكون من خلل الدولة الكلية مثل دولة الروم أو الفرس أو العرب على العموم، أو بني أمية أو بني العباس كذلك. وأما الدولة الشخصية مثل دولة أنوشروان أو هرقل أو عبد الملك بن مروان أو الرشيد، فأشخاصها متعاقبة على العمران حافظة لوجوده وبقائه وقريبة الشبه بعضها من بعض، فلا تؤثر كثير اختلال. لأن الدولة بالحقيقة الفاعلة في مادة العمران إنما هي العصبية والشوكة، وهي مستمرة على أشخاص الدولة، فإذا ذهبت تلك العصبية ودفعتها عصبية أخرى مؤثرة في العمران، ذهب أهل الشوكة بأجمعهم وعظم الخلل كما قررناه أولاً. والله سبحانه وتعالى أعلم.

٢٠ـ فصل فى اختصاص بعض الأمصار ببعض الصنائع دون بعض

وذلك أنه من البين أن أعمال أهل المصر يستدعى بعضها بعضًا لما فى طبيعة العمران من التعاون. وما يُستدعى من الأعمال يختص ببعض أهل المصر، فيقومون عليه ويستبصرون فى صناعته، ويختصون بوظيفته، ويجعلون معاشهم فيه ورزقهم منه، لعموم البلوى به فى المصر والحاجة إليه. ومالا يُستدعى فى المصر يكون غُفْلا إذ لا فائدة لمنتحله فى الاحتراف به. وما يُستدعى من ذلك لضرورة المعاش، فيوجد فى كل مصر كالخياط والحداد والنجار وأمثالها. ومايُستدعى لعوائد الترف وأحواله فإنما يوجد فى المدن المستبحرة(١١٣١ب) فى العمارة والآخذة فى عوائد الترف والحضارة، مثل الزَّجَّاج(١١٥٨ب) والصائغ والدَّهَّان(١١٥٨ج) والطباخ والصَّفَّار(١١٥٨د) والفراش والدَّبَّاج(١١٥٨هـ) وأمثال هذه، وهى متفاوتة. وبقدر ما تزيد عوائد الحاضرة وتستدعى أحوال الترف تحدث صنائع لذلك النوع، فتوجد بذلك المصر دون غيره. ومن هذا الباب الحمامات لأنها إنما توجد فى الأمصار المستحضرة المستبحرة(١١٣١ب) العمران لما يدعو إليه الترف والغنى من التنعيم ولذلك لا تكون فى المدن المتوسطة. وإن نزع بعض الملوك والرؤساء إليها فيختطها ويجرى أحوالها، إلا أنها إذا لم تكن لها داعية من كافة الناس، فسرعان ما تهجر وتخرب، وتفر عنها القَوَمَةُ لقلة فائدتهم ومعاشهم منها. والله يقبض ويبسط.

(١١٥٨ب) الزَّجَّاج صانع الزجاج والمشتغل به.

(١١٥٨ج) الدَّهَّان المشتغل بالدُّهن وبائعه أو من يدهن البيوت.

(١١٥٨د) الصَّفَّار صانع الصُّفْر، وهو نوع من النحاس، والمشتغل به.

(١١٥٨هـ) الدَّبَّاج النقاش من الدَّبْج وهو النقش، هكذا وردت فى النسخة «التيمورية». ولعلها محرفة عن الدَّبَّاغ وهو الذى يدبغ الجلود. ـ وقد وردت فى جميع النسخ المتداولة «الذَّبَّاح» وهذه الكلمة لا معنى لها هنا.

٢١ ـ فصل فى وجود العصبية فى الأمصار وتغلب بعضهم على بعض

من البيّن أن الالتحام والاتصال موجود فى طباع البشر، وإن لم يكونوا أهل نسب واحد؛ إلا أنه كما قدمناه[١١٥٩] أضعف مما يكون بالنسب، وأنه تحصل به العصبية بعضا مما تحصل بالنسب. وأهل الأمصار كثير منهم ملتحمون بالصِّهْر[١١٦٠]، يجذب بعضهم بعضًا إلى أن يكونوا لُحمًا لُحمًا[١١٦١] وقرابة قرابة، وتجد بينهم من العداوة والصداقة ما يكون بين القبائل والعشائر مثلُهُ، فيفترقون شيعًا وعصائب[١١٣٠]. فإذا نزل الهَرَمُ بالدولة وتقلص ظل الدولةَ عن القاصية، احتاج أهل أمصارها إلى القيام على أمرهم، والنظر فى حماية بلدهم، ورجعوا إلى الشورى وتميز العلية[٩١] عن السِّفْلة[١١٦٢]. والنفوس بطباعها متطاولة إلى الغلب والرياسة، فتطمح المَشيخة[١١٦٣]، لخلاء الجو من السلطان والدولة القاهرة، إلى الاستبداد، وينازع كل صاحبه، ويستوصلون بالأتباع من الموالى والشيع والأحلاف، ويبذلون ما فى أيديهم للأوغاد والأوشاب؛ فيعصوصب كلٌّ لصاحبه ويتعين الغَلَبُ لبعضهم، فيعطف على أكفائه ليقص من أعنَّتهم ويتتبعهم بالقتل أو التغريب حتى يَخْضِد[١٠٨٨] منهم الشوكات النافذة، ويقلِّم الأظفار الخادشة، ويستبد بمصره أجمعَ. ويرى أنه قد استحدث ملكا يورثه عقبه، فيحدث فى ذلك الملك الأصغر ما يحدث فى الملك الأعظم من عوارض الجِدَّةِ والهَرَمِ.

وربما يسمو بعض هؤلاء إلى منازع الملوك الأعاظم أصحاب القبائل

(١١٥٩) يحيل بذلك على ما ذكره فى الفصل الثامن من الباب الثانى «فصل فى أن العصبية إنما تكون بالنسب وما فى معناه» (انظر صفحتى ٤٧٨، ٤٧٩).

(١١٦٠) الصِّهْر قرابة المصاهرة، وهى قرابة أهل الزوجة للزوج وأهل الزوج للزوجة، والصهْر أيضاً هؤلاء الأقرباء أنفسهم، ويقال لهم كذلك أصهار (من القاموس والمختار).

(١١٦١) جمع لُحمة بضم اللام وهى القرابة.

(١١٦٢) «علِيَة الناس جلَّتهم، وسِفْلتهم أسافلهم وغوغاؤهم» (القاموس).

(١١٦٣) يجمع الشيخ على شيوخ وأشياخ وشيخان ومشايخ ومَشْيَخة. (القاموس).

والعشائر والعصبيات والزحف والحروب والأقطار والممالك، فينتحلون بها من الجلوس على السرير(١١٦٤) واتخاذ الآلة(١١٦٥) وإعداد المواكب للسير فى أقطار البلد والتختم والحسبة(١١٦٦) والخطاب بالتهويل ما يسخر منه من يشاهد أحوالهم لما انتحلوه من شارات الملك التى ليسوا لها بأهل؛ إنما دفعهم إلى ذلك تقلص الدولة والتحام بعض القرابات حتى صارت عصبية. وقد يتنزه بعضهم عن ذلك ويجرى على مذهب السذاجة قراراً من التعريض بنفسه للسخرية والعبث.

وقد وقع هذا بإفْرِيقَية[٤٩ب] لهذا العهد فى آخر الدولة الحفصية[٩٣٧] لأهل بلاد الجريد[٢١٦] من طرابلس وقابس(١١٦٧) وتُوزَر[٢١٦] ونَفطة[٢١٦] وقَفصة[٢١٦] وبَسْكرة[٢١٥هـ] والزاب[٢١٥أ]، وما إلى ذلك سَمَوْا إلى مثلها عند تقلص ظل الدولة عنهم منذ عقود من السنين، فاستغلبوا على أمصارهم واستبدوا بأمرها على الدولة فى الأحكام والجباية، وأعطوا طاعة معروفة وصفقة مُمْرِضة(١١٦٨)، وأقطعوها جانبًا من الملاينة والملاطفة والانقياد، وهم بمعزل عنه، وأورثوا ذلك أعقابهم لهذا العهد، وحدث فى خلفهم من الغلظة والتجبر ما يحدث لأعقاب الملوك وخلفهم، ونظموا أنفسهم فى عداد السلاطين على قرب عهدهم بالسوقة. حتى محا ذلك مولانا أمير المؤمنين أبو العباس، وانتزع ما كان بأيديهم من ذلك كما نذكره فى أخبار الدولة. وقد كان مثل ذلك وقع فى آخر الدولة الصنهاجية[٥٠]، واستقل بأمصار الجريد[٢١٦] أهلها واستبدوا على الدولة حتى انتزع ذلك منهم شيخ الموحدين[٩٣٦] وملكهم عبدالمؤمن بن على، ونقلهم كلهم من إمارتهم إلى المغرب ومحا من تلك البلاد آثارهم كما نذكر فى أخباره. وكذا وقع بسَبتَة[٢٢١ب] لآخر دولة بنى عبدالمؤمن.

(١١٦٤) انظر تفسيره فى الفصل السادس والثلاثين من الباب الثالث صفحة ٦٧٠ .

(١١٦٥) انظر تفسيرها فى الفصل السادس والثلاثين من الباب الثالث صفحات ٦٦٦-٦٦٩ .

(١١٦٦) انظر تفسيرها فى الفصل الحادى والثلاثين من الباب الثالث صفحتى ٦١٧، ٦١٨ .

(١٩٦٧) قَابِس كناصر بلد بالمغرب بين طَرابُلس وصفَاقُس.

(١١٦٨) من معانى أمرض صار ذا مرض (من القاموس). فالمعنى صفقة (أى بيعة) غير خالصة، أى صفقة فى الظاهر صادرة عمن فى قلبه مرض. وفى «التيمورية»: «وأعطوا طاعة معروقة (بالقاف) وصفقة مُمْرِضة». والمعروق العظم المجرد من اللحم؛ فقد شبه به الطاعة غير المخلصة التى تصدر من اللسان فحسب ـ أو لعل فى هاتين الصفتين (معروفة أو معروقة وممرضة) تحريفا.

وهذا التغلب يكون غالبًا فى أهل السَّروات[1169] والبيوتات المرشحين للمشيخة والرياسة فى المصر. وقد يحدث التغلب لبعض السِّفْلة[1162] من الغوغاء والدهماء. وإذا حصلت له العصبية والالتحام بالأوغاد لأسباب يجرها له المقدار فيتغلب على المَشْيَخَة[1163] والعِلْيِة[1162] إذا كانوا فاقدين للعِصابة[1130]. والله سبحانه وتعالى غالب علَى أمره.

٢٢ـ فصل فى لغات أهل الأمصار

اعلم أن لغات أهل الأمصار إنما تكون بلسان الأمة أو الجيل الغالبين عليها أو المختطين لها. ولذلك كانت لغات الأمصار الإسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية، وإن كان اللسان العربى المضرى قد فسدت ملكته وتغير إعرابه. والسبب فى ذلك ما وقع للدولة الإسلامية من الغَلَب على الأمم، والدين والملة صورة للوجود وللملك، وكلها مواد له، والصورة مقدمة على المادة، والدين إنما يستفاد من الشريعة وهى بلسان العرب، لما أن النبى ﷺ عربى، فوجب هجر ما سوى اللسان العربى من الألسن فى جميع ممالكها. واعتبر ذلك فى نهى عمر رضى الله عنه عن بطانة الأعاجم وقال: إنها خِبٌّ أى مكر وخديعة. فلما هجر الدين اللغات الأعجمية وكان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربيًّا هجرت كلها فى جميع ممالكها، لأن الناس تبع للسلطان وعلى دينه، فصار استعمال اللسان العربى من شعائر الإسلام وطاعة العرب، وهجر الأمم لغاتهم وألسنتهم فى جميع الأمصار والممالك، وصار اللسان العربى لسانهم حتى رسخ ذلك لغة فى جميع أمصارهم ومدنهم، وصارت الألسنة العجمية دخيلة فيها وغريبة[1170].

(١١٦٩) سرُوَ ككرم فهو سَرِىٌّ وجمعه أسرياء.. والسَّراة اسم جمع وجمعه سروات، والاسم السَّرْو وهو المروءة والرياسة فى شرف. ومنه قول الشاعر:

لا يصلح الناس فوضى لاسَرَاة لهم ... ولا سَـــرَاة إذا جُهَّالــهم ســادوا

(١١٧٠) اشتبكت اللغة العربية فى صراع مع كثير من اللغات التى احتكت بها فى البلاد التى فتحها العرب، والتى اعتنق أهلها الإسلام، والتى كان لها ببلاد العرب صلة ما؛ وكتب لها النصر على بعضها؛ ولكنها لم تستطع القضاء على بعضها الآخر. ولهذا كله أسباب وعوامل وقوانين تختلف كثيرًا عما ذكره هنا ابن خلدون، ويضيق المقام عن بيانها. وقد تكلمنا عليها بتفصيل فى كتبنا =

ثم فسد اللسان العربى بمخالطتها فى بعض أحكامه وتغير أواخره، وإن كان بقى فى الدلالات على أصله، وسمى لساناً حضريا فى جميع أمصار الإسلام[1171].

= «علم اللغة» (الطبعة الخامسة، فصل صراع اللغات، وخاصة صفحات ٢١٠ ـ ٢١٨)؛ «واللغة والمجتمع» (الطبعة الثانية صفحات ٩٦ ـ ١٠٨)؛ و«فقه اللغة» (الطبعة الخامسة، فصل: صراع اللغة العربية مع غيرها من اللغات، صفحات ١٢٣ ـ ١٢٧).

فبحسبنا هنا أن نقول إن قوانين اللغات تقرر أنه إذا نزح إلى البلد المغلوب على أثر فتح أو غزو جالية من أهل البلد الغالب تتعلق بلغة غير لغة أهله، فإن النصر لا يتم للغة الشعب الغالب إلا بخمسة شروط: أحدها أن يكون أرقى من المغلوب فى حضارته وثقافته وآداب لغته وأقوى منه سلطاناً وأوسع نفوذاً، وثانيها أن تدوم غلبته وقوته مدة كافية؛ وثالثها أن تقيم بصفة دائمة جالية يعتد بها من أفراده فى بلاد الشعب المغلوب؛ ورابعها أن تمتزج بأفراد هذا الشعب؛ وخامسها أن تكون اللغتان من شعبة لغوية واحدة أو من شعبتين متقاربتين تنتميان إلى فصيلة واحدة.

وقد توافرت هذه الشروط جميعاً فى حالة العربية مع الآرامية فى الشام والعراق ومع القبطية فى مصر ومع البربرية فى المغرب. فتغلبت العربية على هذه اللغات الثلاث وأصبحت لغة الحديث والكتابة فى جميع هذه المناطق، وانقرضت الآرامية والقبطية والبربرية. غير أنه قد أفلت من هذا المصير بعض قرى فى سوريا ولبنان لا تزال تتكلم لهجات آرامية إلى العصر الحاضر، وأفلت منه كذلك بعض عشائر فى شمال إفريقيا لاتزال محتفظة بلهجاتها البربرية إلى الوقت الحاضر.

ولم تقو العربية على التغلب على الفارسية لاختلال كثير من الشروط السابقة. ولم تقو على التغلب على القوطية لاختلال الشرطين الرابع والخامس. ولم تقو على التغلب على التركية لاختلال الشروط الثلاثة الأخيرة.

(١١٧١) تطورت اللغة العربية فى جميع البلاد الناطقة بها فى أصواتها ومفرداتها ودلالاتها وقواعدها وأساليبها حتى استحالت إلى اللهجات العامية. ولهذا التطور عوامل وقوانين تختلف كثيرا عما ذكره هنا ابن خلدون. وقد تكلمنا عليها بتفصيل فى كتبنا المذكورة فى التعليق السابق (انظر على الأخص كتاب «فقه اللغة» صفحات ١٢٧ ـ ١٤٦ الطبعة الخامسة).

فبحسبنا هنا أن نقول: إن قوانين اللغات تقرر أنه متى انتشرت اللغة فى مناطق واسعة من الأرض وتكلم بها طوائف مختلفة من الناس، فإنه يستحيل عليها أن تحتفظ بوحدتها الأولى أمداً طويلا، بل لا تلبث أن تنشعب إلى لهجات، وتسلك كل لهجة من هذه اللهجات فى سبيل تطورها منهجاً يختلف عن منهج غيرها، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بينها حتى تصبح كل لهجة منها متميزة عن غيرها وغير مفهومة إلا لأهلها.

ولهذا القانون خضعت اللغات الإنسانية من مبدأ نشأتها إلى العصر الحاضر. ولم تفلت اللغة العربية ـ وما كان يمكن أن تفلت ـ من هذا المصير فمنذ أن اتسع انتشارها أخذت تنشعب إلى لهجات يختلف بعضها عن بعض وتختلف عن الأصل الأول الذى انشعبت منه فى كثير من مظاهر الصوت والقواعد والدلالة والمفردات، وسلكت كل لهجة منها فى تطورها منهجاً يختلف عن منهج غيرها تحت تأثير ظروفها الخاصة، وأخذت مسافة الخلف تتسع بين هذه اللهجات حتى أصبح بعضها شبه غريب عن بعض. فلهجة العراق أو لهجة المغرب مثلا فى العصر الحاضر غريبة بعض الغرابة على سمع المصرى. غير أنه قد خفف من أثر هذا الانقسام اللغوى بقاء العربية الأولى بين هذه الشعوب لغة أدب وكتابة ودين.

ويرجع السبب فى انشعاب هذه اللهجات من العربية الفصحى وفى تطورها المطرد فى نواحى الأصوات والقواعد والدلالة والمفردات إلى عوامل كثيرة. منها انتشار اللغة العربية فى مناطق لم تكن عربية اللسان وتأثرها فى كل منطقة من هذه المناطق بلغتها القديمة. ومنها استقلال البلاد العربية =

وأيضا فأكثر أهل الأمصار فى الملة لهذا العهد من أعقاب العرب المالكين لها الهالكين فى ترفها، بما كثّروا(١١٧١ب) العجم الذين كانوا بها وورثوا أرضهم وديارهم. واللغات متوارثة؛ فبقيت لغة الأعقاب على حيال لغة الآباء، وإن فسدت أحكامها بمخالطة الأعجام شيئًا فشيئًا.

وسميت لغتهم حضرية منسوبة إلى أهل الحواضر والأمصار بخلاف لغة البد و من العرب. فإنها كانت أعرق فى العروبية. ولما تملك العجم من الديلم والسلجوقية بعدهم بالمشرق، وزناتة والبربر بالمغرب، وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الإسلامية، فسد اللسان العربى لذلك، وكاد يذهب لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنة اللذين بهما حفظ الدين، وصار ذلك مرجعًا لبقاء اللغة العربية المضرية من الشعر والكلام إلا قليلاً بالأمصار. فلما ملك التتر والمغول بالمشرق ولم يكونوا على دين الإسلام ذهب ذلك المرجع، وفسدت اللغة العربية على الإطلاق، ولم يبق لها رسم فى الممالك الإسلامية بالعراق(١١٧٢) وخراسان وبلاد فارس وأرض الهند والسند وما وراء النهر وبلاد الشمال وبلاد الروم، وذهبت أساليب اللغة العربية من الشعر والكلام إلا قليلا يقع تعليمه صناعيًا بالقوانين المتدارسة من كلام العرب وحفظ كلامهم لمن يسره الله تعالى لذلك. وربما بقيت اللغة العربية المضرية بمصر والشام والأندلس والمغرب لبقاء الدين طلبًا لها، فانحفظت بعض الشىء. وأما فى ممالك العراق١١٧٢ وما وراءه فلم يبق لها أثر ولا عين. حتى إن كتب العلوم صارت تكتب باللسان العجمى وكذا تدريسه فى المجالس. والله أعلم بالصواب.

= بعضها عن بعض وضعف السلطان المركزى الذى كان يجمعها ويوثق ما بينها من علاقات؛ فانفصام الوحدة السياسية يؤدى إلى انفصام فى الوحدة الفكرية واللغوية. ومنها ما يوجد بين سكان هذه المناطق من فروق فى النظم الاجتماعية والعرف والتقاليد ومبلغ الثقافة ومناحى التفكير والوجدان.. وما إلى ذلك؛ فالاختلاف فى هذه الأمور يتردد صداه فى أداة التعبير. ومنها التطور الطبيعى لأعضاء النطق واختلاف أوضاع هذا التطور باختلاف المناطق وما يتبع ذلك من تطور فى الأصوات وانقراض بعضها وتحول بعضها إلى بعض. ومنها موقع الصوت فى الكلمة وما يتعرض له من انحراف بسبب موضعه هذا؛ وقد ترتب على ذلك سقوط علامات الإعراب من جميع اللهجات العامية العربية ولوقوعها فى أواخر الكلمات لأن الأصوات الأخيرة تكون غالبًا عرضة للسقوط والانقراض. ومنها تغير مدلول الكلمات تبعًا للحالات التى يكثر فيها استخدامها فى المناطق المختلفة. ومنها تغير مدلول الكلمة لأن الشىء نفسه الذى تدل عليه قد تغيرت طبيعته أو عناصره أو وظائفه أو الشئون الاجتماعية المتصلة به وما إلى ذلك. ومنها انتقال أصوات وكلمات وقواعد وأساليب جديدة إلى بعض اللهجات العامية العربية من اللغات الأجنبية التى احتكت بها. ومنها انقراض بعض الكلمات لانقراض مدلولها أو قلة استخدامه أو لثقلها على اللسان أو عدم تلاؤمها مع الحالة التى انتهت إليها أعضاء النطق أو لدقة مدلولها وعدم الاحتياج إليه فى لهجات المحادثة العادية.

(١١٧١ب) هكذا فى جميع النسخ، ولعل هذه الكلمة محرفة عن كلمة أخرى بمعنى أبادوا.

(١١٧٢) يقصد بالعراق بلاد فارس وما وراء ها.

الباب الخامس[165]

فى المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض فى ذلك كله من الأحوال وفيه مسائل[(1173)]

١ ـ فصل فى حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وأن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية

اعلم أن الإنسان مفتقر بالطبع إلى ما يقوته ويمونه في حالاته وأطواره من لدن نشوئه إلى أشُده إلى كبره: ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾[(1173ب)] والله سبحانه خلق جميع ما فى العالم للإنسان وامتن به عليه فى غير ما آية من كتابه فقال: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾[(1174)]

(١١٧٣) عرض ابن خلدون فى هذا الباب لما يسمى الآن علم الاجتماع الاقتصادى Sociologie economique، وهو الذى يدرس ظواهر الاقتصاد المتعلقة بإنتاج الثروة وتداولها وتوزيعها واستهلاكها للكشف عن القوانين التى تخضع لها هذه الظواهر وبيان العلاقات التى تربطها بعضها ببعض وتربطها بالظواهر الأخرى (انظر كتابنا «فى الاقتصاد السياسى»).

وقد عرض ابن خلدون كذلك لهذه الظواهر نفسها فى سبعة فصول من الباب الثالث وفى ستة فصول من الباب الرابع (انظر تمهيدنا للمقدمة، الجزء الأول صفحتى ١٨٦، ١٨٧ والتعليقين المدونين فى هاتين الصفحتين).

هذا، وقد حذفت بعض فصول من هذا الباب فى بعض النسخ، ورتبت فصوله فى نسخ أخرى على وضع آخر غير الوضع الموجود فى النسخ المتداولة وهو الوضع الذى سرنا عليه فى طبعتنا هذه. فمن ذلك مثلا أن النسخة «التيمورية» ترتب الفصول الأربعة التالية للفصل التاسع على هذا الوضع: نقل التاجر للسلع؛ الاحتكار؛ رخص الأسعار؛ أيّ أصناف الناس تحترف التجارة. على حين أنها مرتبة فى النسخ المتداولة على وضع آخر كما يظهر من تتابع الفصول فى طبعتنا هذه.

(١١٧٣ب) جملة من آية ٣٨ من سورة محمد (أو القتال) وهى سورة ٤٧. ونص الآية: ﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) ﴾ وقد ورد هذا المعنى نفسه فى آية ١٥ من سورة فاطر (وهى سورة ٣٥). ونص الآية ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾.

(١١٧٤) أول آية ١٣ من سورة الجاثية، وهى سورة ٤٥.

و﴿ سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ ﴾(١١٧٥) و﴿ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ ﴾(١١٧٦) وسخر لكم الأنعام(١١٧٧)، وكثير من شواهده. ويد الإنسان مبسوطة على العالم وما فيه بما جعل الله له من الاستخلاف٤٢٤؛ وأيدى البشر منتشرة فهى مشتركة فى ذلك؛ وما حصل عليه يد هذا امتنع عن الآخر إلا بعوض. فالإنسان متى اقتدر على نفسه، وتجاوز طور الضعف، سعى فى اقتناء المكاسب، لينفق ما آتاه الله منها فى تحصيل حاجاته وضروراته بدفع الأعواض عنها؛ قال الله تعالى: ﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ(١١٧٨) ﴾.

وقد يحصل له ذلك بغير سعى كالمطر المصلح للزراعة وأمثاله؛ إلا أنها إنما تكون معينة ولابد من سعيه معها كما يأتى.

فتكون له تلك المكاسب معاشًا إن كانت بمقدار الضرورة والحاجة ورياشًا ومتَمَوَّلاً إن زادت على ذلك. ثم إن ذلك الحاصل أو المقتنى إن عادت منفعته على العبد وحصلت له ثمرته من إنفاقه فى مصالحه وحاجاته سمى ذلك رزقا. قال ﷺ: «إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت». وإن لم ينتفع به فى شىء من مصالحه ولا حاجاته فلا يسمى بالنسبة إلى المالك رزقا؛ والمتملك منه حينئذ بسعى العبد وقدرته يسمى كسبًا؛

(١١٧٥) نص الآية: ﴿الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (آية ١٢ من سورة الجاثية، وهي سورة ٤٥).

(١١٧٦) جملة من آية ٣٢ من سورة إبراهيم وهي سورة ١٤، ونصها: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ﴾.

(١١٧٧) من الآيات التي وردت في تسخير الأنعام للإنسان قوله تعالى: ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (آيات ٥ ـ ٨ من سورة النحل، وهي سورة ١٦)؛ وقوله تعالي: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۝ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ (أيات ٧١ ـ ٧٣ من سورة يس، وهي سورة ٣٦)؛ وقوله تعالي: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (آية ٧٩ من سورة غافر، وهي سورة ٤١) ـ وأما العبارة التي ذكرها ابن خلدون وهي «وسخر لكم الأنعام» فلا نظن أنها وردت في القرآن بهذا النص.

(١١٧٨) جملة من آية ١٧ من سورة العنكبوت وهي سورة ٢٩، ونصها: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

وهذا مثل التراث[١١٧٩] فإنه يسمى بالنسبة إلى الهالك[١١٨٠] كسبًا ولا يسمى رزقًا، إذ لم يحصل به منتفع، وبالنسبة إلى الوارثين متى انتفعوا به يسمى رزقًا.

هذا حقيقة مسمى الرزق عند أهل السنة.

وقد اشترط المعتزلة فى تسميته رزقًا أن يكون بحيث يصح تملكه، وما لا يتملك عندهم لا يسمى رزقًا. وأخرجوا الغصوبات[١١٨١] والحرام كله عن أن يسمى شىء منها رزقًا والله تعالى يرزق الغاصب والظالم والمؤمن والكافر[١١٨٢] ويختص برحمته وهدايته من يشاء. ولهم فى ذلك حجج ليس هذا موضع بسطها.

ثم اعلم أن الكسب إنما يكون بالسعى فى الاقتناء والقصد إلى التحصيل فلابد فى الرزق من سعى وعمل ولو فى تناوله وابتغائه من وجوهه. قال تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾[١١٧٨]. والسعى إليه إنما يكون بإقدار الله تعالى وإلهامه؛ فالكل من عند الله؛ فلابد من الأعمال الإنسانية فى كل مكسوب ومتمول، لأنه إن كان عملا بنفسه مثل الصنائع فظاهر، وإن كان مقتنى من الحيوان والنبات والمعدن فلابد فيه من العمل الإنسانى كما تراه، وإلا لم يحصل ولم يقع به انتفاع.

ثم إن الله تعالى خلق الحجرين المعدنيين من الذهب والفضة قيمة لكل متمول، وهما الذخيرة والقنية[١١٨٣] لأهل العالم فى الغالب، وإن اقتنى سواهما فى بعض الأحيان فإنما هو لقصد تحصيلهما بما يقع فى غيرهما من حوالة[٩٢١] الأسواق التى هما عنها بمعزل[١١٨٤]، فهما أصل المكاسب والقنية والذخيرة.

(١١٧٩) أى الميراث.

(١١٨٠) أى إلى الميت، لأنه لم يستهلكه ولم ينتفع به فى شىء من حاجاته.

(١١٨١) أى ما يغتصب من الغير.

(١١٨٢) ضمّن هذا العبارة ردا على المعتزلة لاستخدامه فيها فعل يرزق.

(١١٨٣) قَنَوْت الشىء أقنوه قنوا من باب قتل: جمعته؛ وقَنَوْت الغنم أقنوها وقنيتها أقنيها والاسم القُنْوة بضم القاف وكسرها والقِنْيَة بكسر القاف (من القاموس والمصباح).

(١١٨٤) يقصد أن تغير القيمة يحدث فى غير الذهب والفضة؛ أما هما فقيمتهما الذاتية ثابتة. وهذا غير صحيح فإن قيمتهما الذاتية تتغير تبعًا لعوامل كثيرة منها: تغير كميتهما الموجودة فى العالم أو فى بلد ما؛ ومنها تغير مبلغ تداولهما؛ ومنها التغير فى نشاط الحركة الاقتصادية نفسها. وقد درسنا هذه الأمور بتفصيل فى كتابنا «فى الاقتصاد السياسى» (الطبعة الخامسة صفحات ٢٠٠ ـ ٢١٩).

وقد نظر ابن خلدون إلى النقود المضروبة وثبات قيمتها الاسمية فخيل إليه أن القيمة الذاتية للمعدنين ثابتة كذلك.

وإذا تقرر هذا كله فاعلم أن ما يفيده الإنسان ويقتنيه من المتمولات إن كان من الصنائع فالمفاد المقتنى منه قيمة عمله وهو القصد بالقنية، إذ ليس هناك إلا العمل وليس بمقصود بنفسه للقنية. وقد يكون مع الصنائع فى بعضها غيرها مثل النجارة والحياكة معهما الخَشب والغزل، إلا أن العمل فيهما أكثر فقيمته أكثر. وإن كان من غير الصنائع فلابد فى قيمة ذلك المفاد والقنية من دخول قيمة العمل الذى حصلت به، إذ لولا العمل لم تحصل قنيتها. وقد تكون ملاحظة العمل ظاهرة فى الكثير منها فتجعل له حصة من القيمة عظمت أو صغرت. وقد تخفى ملاحظة العمل كما فى أسعار الأقوات بين الناس، فإن اعتبار الأعمال والنفقات فيها ملاحظ فى أسعار الحبوب كما قدمناه؛ لكنه خفىٌّ فى الأقطار التى علاج الفلح فيها ومئونته يسيرة، فلا يشعر به إلا القليل من أهل الفلح. فقد تبين أن المفادات والمكتسبات كلها أو أكثرها إنما هى قيم الأعمال الإنسانية(١١٨٥)، وتبين مسمى الرزق وأنه المنتفع به. فقد بان معنى الكسب والرزق وشُرح مسماهما.

(١١٨٥) يجنح ابن خلدون فى هذه الفقرات إلى رأى القائلين بأن قيم الأشياء تختلف حسب اختلافها فى مبلغ ما بذل فيها من عمل وما يتطلبه إنتاج مثلها من مجهود. وقد اشتهرت هذه النظرية عند المحدثين من علماء الاقتصاد السياسى باسم «نظرية العمل وتقابلها نظرية أخرى تقرر أن قيم الأشياء تختلف تبعًا لاختلافها فى مبلغ نفعها للإنسان. وقد اشتهرت هذه النظرية عند المحدثين من علماء الاقتصاد السياسى باسم «نظرية المنفعة».

وكلتا النظريتين ليست صحيحة على إطلاقها. وقد ناقشناهما بتفصيل وبينا مواطن خطئهما، وانتهينا إلى ما ينبغى الأخذ به فى هذا الصدد، فى كتابنا «فى الاقتصاد السياسى» (الطبعة الخامسة، صفحات ١٤٨ - ١٦٠).

فبحسبنا هنا أن نشير إلى بعض ما يدل على عدم صحة النظرية التى يجنح إليها ابن خلدون فمن ذلك أنه إذا لم تتعلق بالشىء أية رغبة ولم يحقق أية منفعة للإنسان لا تكون له قيمة مهما بذل فى سبيله من مجهود. ومن ذلك أنه يكون للشىء قيمة متى تعلقت به رغبة ما ولو لم يبذل فى سبيله أى مجهود كالمياه المعدنية التى تتفجر وحدها من الأرض. ومن ذلك أنه قد يتحد الشيئان فى قيمتهما لاتحاد الرغبة فيهما مع اختلافهما فى المجهود الذى تطلبه إنتاج كل منهما كإردب قمح من أرض تروى بالأمطار أو بنظام الرى الصيفى السهل وإردب قمح من أرض تروى بالساقية أو بالآبار الارتوازية. ومن ذلك أنه قد يختلف الشيئان فى قيمتهما لاختلاف الرغبة فيهما مع اتحادهما فى المجهود الذى تطلبه إنتاج كل منهما؛ فالسمك الذى يخرج فى شبكة الصائد لا يباع جميعه بسعر واحد، بل تختلف قيمته باختلاف نوعه، على الرغم من أن المجهود قد وزع على كمياته بنسب متساوية. ومنها أن قيمة الشىء لا تستقر على حال واحدة بل لا تنفك تتغير تبعًا لتغير الرغبة فيه واختلاف كمية المطلوب منه وكمية المعروض على الرغم من أن المجهود الذى بذل فى إنتاجه أمر ثابت قد فرغ منه وتعلق بالماضى.

واعلم أنه إذا فقدت الأعمال أو قلت بانتقاص العمران تأذن الله برفع الكسب. ألا ترى إلى الأمصار القليلة الساكن كيف يقل الرزق والكسب فيها أو يفقد لقلة الأعمال الإنسانية. وكذلك الأمصار التى يكون عمرانها أكثر يكون أهلها أوسع أحوالا وأشد رفاهية كما قدمناه قبل[١١٨٦]. ومن هذا الباب تقول العامة فى البلاد إذا تناقص عمرانها: إنها قد ذهب رزقها. حتى إن الأنهار والعيون ينقطع جريها فى القفر؛ لما أن فور[١١٨٧] العيون إنما يكون بالإنباط[١١٨٨] والامتراء[١١٨٩] الذى هو بالعمل الإنسانى، كالحال فى ضروع الأنعام. فما لم يكن إنباط ولا امتراء نضبت وغارت[١١٩٠] بالجملة، كما يجف الضرع إذا تُرك امتراؤه. وانظره فى البلاد التى تُعهد فيها العيون لأيام عُمرانها ثم يأتى عليها الخراب كيف تغور[١١٩٠] مياهها جملة كأنها لم تكن. ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[٤٢٠].

٢ـ فصل فى وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه

اعلم أن المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق والسعى فى تحصيله، وهو مَفْعَل[١١٩١] من العيش. كأنه لما كان العيش الذى هو الحياة لا يحصل إلا بهذه جُعلت موضعًا له على طريق المبالغة. ثم إن تحصيل الرزق وكسبه: إما أن يكون بأخذه من يد الغير وانتزاعه بالاقتدار عليه على قانون متعارف ويسمى مغرمًا وجباية.

(١١٨٦) تكلم على ذلك فى الفصل الحادى عشر من الباب الرابع (فصل فى أن تفاضل الأمصار والمدن فى كثر الرَّفه لأهلها ونفَاق الأسواق إنما هو فى تفاضل عمرانها فى الكثرة والقلة). انظر صفحات٨٧١ ـ ٨٧٥.

(١١٨٧) فارت العَيْن والقدْر فَوْرا وفَوَرانا جاشت (من القاموس).

(١١٨٨) «نبط الماءُ ينبِط وينبُط نَبْطا ونبوطًا: نبع، ونبط البئرَ وأنبطها استخرج ماءها» (من القاموس والمصباح).

(١١٨٩) مرى الشىء وامتراه استخرجه.

(١١٩٠) غار الماء غَوْرا ذهب فى الأرض فهو غائر وغَوْر. ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ۝٣٠﴾(آية ٣٠ من سورة تبارك وهى سورة ٦٧). وغَوَّره تغويرا جعله يغور فى الأرض.

(١١٩١) يقصد اسم مكان على وزن مفعل كما يدل عليه ما يلى.

وإما أن يكون من الحيوان الوحشى باقتناصه وأخذه برميه من البر أو البحر ويسمى اصطياداً؛ وإما أن يكون من الحيوان الداجن باستخراج فضوله المنصرفة بين الناس فى منافعهم كاللبن من الأنعام والحرير من دوده والعسل من نحله؛ أو يكون من النبات فى الزرع والشجر بالقيام عليه وإعداده لاستخراج ثمرته، ويسمى هذا كله فلحًا؛ وإما أن يكون الكسب من الأعمال الإنسانية: إما فى مواد معينة وتسمى الصنائع من كتابة ونجارة وخياطة وحياكة وفروسية وأمثال ذلك، أو فى مواد غير معينة وهى جميع الامتهانات والتصرفات؛ وإما أن يكون الكسب من البضائع وإعدادها للأعواض: إما بالتقلب بها فى البلاد، أو احتكارها وارتقاب حوالة[٩٢١] الأسواق فيها، ويسمى هذا تجارة.

فهذه وجوه المعاش وأصنافه وهى معنى ما ذكره المحققون من أهل الأدب والحكمة كالحريرى وغيره، فإنهم قالوا: المعاش إمارة وتجارةٌ وفلاحة وصناعة فأما الإمارة فليست بمذهب طبيعى للمعاش فلا حاجة بنا إلى ذكرها؛ وقد تقدم شىء من أحوال الجبايات السلطانية وأهلها فى الفصل الثانى(١١٩٢). وأما الفلاحة والصناعة والتجارة فهى وجوه طبيعية للمعاش. أما الفلاحة فهى متقدمة عليها كلها بالذات إذ هى بسيطةٌ وطبيعيةٌ فطرية لا تحتاج إلى نظر ولا علم؛ ولهذا تُنسب فى الخليقة إلى آدم أبى البشر، وأنه معلمها والقائم عليها، إشارة إلى أنها أقدم وجوه المعاش وأنسبها إلى الطبيعة. وأما الصنائع فهى ثانيتها ومتأخرة عنها لأنها مركبة وعلمية تَصَرَّفُ فيها الأفكار والأنظار؛ ولهذا لا توجد غالبًا إلا فى أهل الحضر الذى هو متأخر عن البدو وثان عنه؛ ومن هذا المعنى نسبت إلى إدريس الأب الثانى للخليقة، فإنه مستنبطها لمن بعده من البشر بالوحى من الله تعالى. وأما التجارة وإن كانت طبيعية فى الكسب فالأكثر من طرقها ومذاهبها إنما هى تحيلات فى الحصول على ما بين القيمتين فى الشراء والبيع لتحصل فائدة الكسب من تلك الفضلة. ولذلك أباح الشرع فيه المكايسة[٩٢٥](١١٩٣)، لما أنه من باب المقامرة، إلا أنه ليس أخذاً لمال الغير مجانًا، فلهذا اختُص بالمشروعية.

(١١٩٢) صوابه الفصل الثالث (الباب الثالث حسب اصطلاحنا). وقد تكلم على ذلك فى الفصول الفرعية ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٧ من الباب الثالث (انظر صفحة ٧٢٩ وتوابعها). ولعل الفصل الثالث فى التحرير الأول للمقدمة كان الفصل الثانى، ثم تغير وضعه بدون أن يغير ابن خلدون هذه العبارة. انظر نظائر لذلك فى تعليقات ٤٠٢، ٤٤٢، ١١٢٤.

(١١٩٣) فى «ل» و«م» و«دار الكتاب اللبنانى»: «المكاسبة»؛ وهو تحريف. انظر معنى «المكايسة» فى تعليق ٩٢٥.

٣ـ فصل فى أن الخدمة ليست من المعاش الطبيعى

اعلم أن السلطان لابد له من اتخاذ الخدمة فى سائر أبواب الإمارة والملك الذى هو بسبيله، من الجندى والشرطى والكاتب. ويستكفى فى كل باب بمن يعلم غَناء ه[١٤٣] فيه ويتكفل بأرزاقهم من بيت ماله. وهذا كله مندرج فى الإمارة ومعاشها؛ إذ كلهم ينسحب عليهم حكم الإمارة، والملك الأعظم هو ينبوع جداولهم. وأما ما دون ذلك من الخدمة فسببها أن أكثر المترفين يترفع عن مباشرة حاجاته أو يكون عاجزًا عنها لما ربى عليه من خلق التنعم والترف؛ فيتخذ من يتولى ذلك له ويُقْطِعُهُ عليه أجرًا من ماله. وهذه الحالة غير محمودة بحسب الرجولية الطبيعية للإنسان، إِذ الثقة بكل أحد عجز؛ ولأنها تزيد فى الوظائف والخرج وتدل على العجز والخنث[٩٤٨] اللذين ينبغى فى مذاهب الرجولية التنزه عنهما. إلا أن العوائد تقلب طباع الإنسان إلى مألوفها؛ فهو ابن عوائده لا ابن نسبه. ومع ذلك فالخديم الذى يستكفى به ويوثق بَغَنائه[١٤٣] كالمفقود. إذ الخديم القائم بذلك لا يعدو أربع حالات: إما مضطلع بأمره وموثوق فيما يحصل بيده؛ وإما بالعكس فيهما، وهو أن يكون غير مضطلع بأمره ولا موثوق فيما يحصل بيده؛ وإما بالعكس فى إحداهما فقط، مثل أن يكون مضطلعاً غير موثوق أو موثوقًا غير مضطلع. فأما الأول وهو المضطلع الموثوق فلا يمكن أحداً استعماله بوجه؛ إذ هو باضطلاعه وثقته غنى عن أهل الرتب الدنية ومحتقر لمنال الأجر من الخدمة لاقتداره على أكثر من ذلك، فلا يستعمله إلا الأمراء أهل الجاه العريض لعموم الحاجة إلى الجاه. وأما الصنف الثانى وهو من ليس بمضطلع ولا موثوق. فلا ينبغى لعاقل استعماله؛ لأنه يجحف بمخدومه فى الأمرين معًا، فيضيع عليه لعدم الاضطلاع[(١١٩٤)] تارة، ويذهب ماله بالخيانة أخرى، فهو على كل حال كَلٌّ على مولاه[٤١٤ب]. فهذان الصنفان لا يطمع أحد فى استعمالهما. ولم يبق إلا استعمال الصنفين الآخرين: موثوق غير مضطلع؛ ومضطلع غير موثوق. وللناس فى الترجيح بينهما مذهبان، ولكل من الترجيحين وجه. إلا أن المضطلع ولو كان غير موثوق أرجح لأنه يؤمن من تضييعه، ويُحاوَلُ على التحرز عن خيانته جهد الاستطاعة. وأما المضيع ولو كان مأمونًا فضرره بالتضييع أكثر من نفعه. فاعلم ذلك واتخذه قانونًا فى الاستكفاء بالخدمة. والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء.

(١١٩٤) فى جميع النسخ «الاصطناع» وهو تحريف كما يدل على ذلك السياق.

٤ ـ فصل فى أن ابتغاء الأموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعى

اعلم أن كثيراً من ضعفاء العقول فى الأمصار يحرصون على استخراج الأموال من تحت الأرض ويبتغون الكسب من ذلك، ويعتقدون أن أموال الأمم السالفة مختزنة كلها تحت الأرض مختوم عليها كلها بطلاسم سحرية لا يفض خِتامَها[٨٢٧] ذلك إلا من عثر على علمه، واستحضر ما يحله من البخور والدعاء والقُربان. فأهل الأمصار بإفْرِيقية[٤٩ب] يرون أن الإفرنجة الذين كانوا قبل الإسلام بها دفنوا أموالهم كذلك، وأودعوها فى الصحف بالكتاب إلى أن يجدوا السبيل إلى استخراجها. وأهل الأمصار بالمشرق يرون مثل ذلك فى أمم القبط والروم والفرس، ويتناقلون فى ذلك أحاديث تشبه حديث خرافة من انتهاء بعض الطالبين لذلك إلى حفر موضوع المال ممن لم يعرف طِلَّسْمَه ولا خبره، فيجدونه خاليًا أو معموراً بالديدان، أو يشاهد الأموال والجَواهر موضوعة والحرس دونها منتضين سيوفهم، أو تميد به الأرض حتى يظنه خسفًا، أو مثل ذلك من الهَذْر.

ونجد كثيراً من طلبة البربر بالمغرب العاجزين عن المعاش الطبيعى وأسبابه يترقبون إلى أهل الدنيا بالأوراق المتحزمة(١١٩٤ب) الحواشى، إما بخطوط عجمية أو بما ترجم بزعمهم منها من خطوط أهل الدفائن بإعطاء الأمارات عليها فى أماكنها، يبتغون بذلك الرزق منهم بما[٤٤٥] يبعثونهم على الحفر والطلب ويموِّهون عليهم بأنهم إنما حملهم على الاستعانة بهم طلب الجاه فى مثل هذا(١١٩٥) من منال الحكام والعقوبات. وربما تكون عند بعضهم نادرة أو غريبة من الأعمال السحرية يموه بها على تصديق ما بقى من دعواه، وهو بمعزل عن السحر وطرقه، فيولع[٤٨] كثير من ضعفاء العقول بجمع الأيدى على الاحتفار والتستر فيه بظلمات الليل مخافة الرقباء وعيون أهل الدول. فإذا لم يعثروا على شىء ردوا ذلك إلى الجهل بِالطِّلَّسْم الذى ختم به على ذلك المال، يخادعون به أنفسهم عن إخفاق مطامعهم.

(١١٩٤ب) هكذا فى «ل» و«م». وفى «ن» المنحزمة.

(١١٩٥) هكذا فى جميع النسخ، ولعل هنا كلمات ساقطة وتقديرها «حتى يكونوا بمأمن».

والذى يحمل على ذلك فى الغالب زيادة على ضعف العقل إنما هو العجز عن طلب المعاش بالوجوه الطبيعية للكسب من التجارة والفلح والصناعة، فيطلبونه بالوجوه المنحرفة، وعلى غير المجرى الطبيعى من هذا وأمثاله، عجزاً عن السعى فى المكاسب وركوناً إلى تناول الرزق من غير تعب ولا نصب فى تحصيله واكتسابه؛ ولا يعلمون أنهم يوقعون أنفسهم، بابتغاء ذلك من غير وجهه، فى نصب ومتاعب وجهد شديد أشد من الأول، ويعرضون أنفسهم مع ذلك لمنال العقوبات.

وربما يحمل على ذلك فى الأكثر زيادة الترف وعوائده وخروجها عن حد النهاية حتى تقصر عنها وجوه الكسب ومذاهبه، ولا تفى بمطالبها، فإذا عجز عن الكسب بالمجرى الطبيعى لم يجد وليجة [٤٨١] فى نفسه إلا التمنى لوجود المال العظيم دفعة من غير كلفة، ليفى له ذلك بالعوائد التى حصل فى أسرها، فيحرص على ابتغاء ذلك ويسعى فيه جهده. ولهذا فأكثر من تراهم يحرصون على ذلك هم المترفون من أهل الدولة، ومن سكان الأمصار الكثيرة الترف المتسعة الأحوال، مثل مصر وما فى معناها. فنجد الكثير منهم مغرمين بابتغاء ذلك وتحصيله ومساءلة الركبان عن شواذه كما يحرصون على الكيمياء. هكذا بلغنى عن أهل مصر [١١٢٥] فى مفاوضة من يلقونه من طلبة المغاربة؛ لعلهم يعثرون منه على دفين أو كنز ويزيدون على ذلك البحث عن تغوير [١١٩٠] المياه لما [٤٤٥] يرون أن غالب هذه الأموال الدفينة كلها فى مجارى النيل، وأنه أعظم ما يسترد دفيناً أو مختزناً فى تلك الآفاق. ويموه عليهم أصحاب تلك الدفاتر المفتعلة فى الاعتذار عن الوصول إليها بجرية النيل تستراً بذلك من الكذب حتى يحصل على معاشه، فيحرص سامع ذلك منهم على نضوب الماء بالأعمال السحرية لتحصيل مبتغاه من هذه كَلَفاً [١١٩٦] بشأن السحر متوارثاً فى ذلك القطر عن أوليه، فعلومهم السحرية وآثارها باقية بأرضهم فى البرارى وغيرها، وقصة سحرة فرعون شاهدة باختصاصهم بذلك. وقد تناقل أهل المغرب قصيدة ينسبونها إلى حكماء المشرق تعطى فيها كيفية العمل بالتغوير [١١٩٠] بصناعة سحرية حسبما تراه فيها، وهى هذه:

(١١٩٦) هكذا فى جميع النسخ. ولابد أن يكون هنا تحريف وسقط. وتستقيم العبارة بوضعها فى مثل هذه الصيغة: «لتحصيل مبتغاه من هذه، فيزداد كلفا بشأن السحر، والكلف بالسحر أمر متوارث فى ذلك القطر عن أوليه» (أى عن الأولين منه).

يا طالبًا للسرِّ فى التغويرِ | اسمع كلام الصدق من خبير
دع عنك ما قد صنفوا فى كُتْبِهم | من قول بهتان ولفظ غرور
واسمع لصدق مقالتى ونصيحتى | إن كنت ممن لا يرى بالزور
فإذا أردت تغَوُّر البئر التي | حارت لها الأوهام فى التدبير
صور كصورتك التى أوقفتها | والرأس رأس الشبل فى التقوير
ويداه ماسكتان للحبل الذى | في الدلو ينشل من قرار البير
وبصدره هاء كما عاينتها | عدد الطلاق احذر من التكرير
ويطأ على الطاءات غير ملامس | مشي اللبيب الكيس النحرير
ويكون حول الكل خط دائر | تربيعه أولى من التكوير
واذبح عليه الطير والْطخه به | واقصده عقب الذبح بالتبخير
بالسندروس وباللبان وميعة | والقسط والْبسه بثوب حرير
من أحمر أو أصفر لا أزرق | لا أخضر فيه ولا تكدير
ويشده خيطان صوف أبيض | أو أحمر من خالص التحمير
والطالع الأسَدُ الذى قد بينوا | ويكون بدء الشهر غير منير
والبدر متصل بسعد عطارد | فى يوم سبت ساعة التدبير

يعنى أن تكون الطاءات بين قدميه كأنه يمشى عليها. وعندى أن هذه القصيدة من تمويهات المخرقين، فلهم فى ذلك أحوال غريبة واصطلاحات عجيبة، وتنتهى المخرقة[١١٩٧] والكذب بهم إلى أن يسكنوا المنازل المشهورة والدور المعروفة بمثل هذا ويحتفرون ويضعون المطابق فيها والشواهد التى يكتبونها فى صحائف كذبهم. ثم يقصدون ضعفاء العقول بأمثال هذه الصحائف، ويبعثون على اكتراء ذلك المنزل وسكناه ويوهمون أن به دفينًا من المال لا يعبر عن كثرته. ويطالبون بالمال لاشتراء العقاقير والبخورات لحل الطلاسم، ويعدونه بظهور الشواهد التى قد أعدوها هنالك بأنفسهم ومن فعلهم،

(١١٩٧) «التخريق كثرة الكذب والتَخَرُّق خُلِق الكذب» (القاموس).
وقد وردت هاتان الكلمتان على هذه الصورة فى النسخة «التيمورية» وأما فى النسخ المتداولة فقد وردت فيها هاتان الكلمتان من مادة الخزف: «من تمويهات المتخرفين.. وتنتهى التخرفة».

فينبعث لما يراه من ذلك وهو قد خدع ولُبِّس[٤٥٩] عليه من حيث لا يشعر، وبينهم في ذلك اصطلاح في كلامهم يُلَبِّسون[٤٥٩] به عليهم ليخفى عند محاورتهم فيما يتلونه من حفر وبخور وذبح حيوان وأمثال ذلك.

وأما الكلام فى ذلك على الحقيقة فلا أصل له فى علم ولا خبر. واعلم أن الكنوز وإن كانت توجد لكنها فى حكم النادر على وجه الاتفاق لا على وجه القصد إليها، وليس ذلك بأمر تعم به البلوى، حتى يدخر الناس أموالهم تحت الأرض ويختمون عليها بالطلاسم لا فى القديم ولا فى الحديث. والرِّكاز[١٠٩٤] الذى ورد فى الحديث وفرضه الفقهاء وهو دفين الجاهلية إنما يوجد بالعثور والاتفاق، لا بالقصد والطلب. وأيضًا فمن اختزن ماله وختم عليه بالأعمال السحرية فقد بالغ فى إخفائه فكيف ينصب عليه الأدلة والأمارات لمن يبتغيه، ويكتب ذلك فى الصحائف حتى يطلع على ذخيرته أهل الأعصار والآفاق: هذا يناقض قصد الإخفاء. وأيضًا فأفعال العقلاء لابد[٥٧] وأن تكون لغرض مقصود فى الانتفاع؛ ومن اختزن المال فإنه يختزنه لوُلده أو قريبه أو من يؤثره. وأما أن يقصد إخفاءه بالكلية عن كل أحد، وإنما هو للبلاء والهلاك، أو لمن لا يعرفه بالكلية ممن سيأتى من الأمم، فهذا ليس من مقاصد العقلاء بوجه.

وأما قولهم: أين أموال الأمم من قبلنا وما علم فيها من الكثرة والوفور، فاعلم أن الأموال من الذهب والفضة والجواهر والأمتعة إنما هى معادن ومكاسب مثل الحديد والنحاس والرصاص وسائر العقارات والمعادن، والعمران يظهرها بالأعمال الإنسانية ويزيد فيها أو ينقصها. وما يوجد منها بأيدى الناس فهو متناقل متوارث. وربما انتقل من قطر إلى قطر ومن دولة إلى أخرى بحسب أغراضه والعمران الذى يستدعى له. فإن نقص المال فى المغرب وإفريقية فلم ينقص ببلاد الصقالبة والإفرنج، وإن نقص فى مصر والشام فلم ينقص فى الهند والصين. وإنما هى الآلات والمكاسب والعمران يوفرها أو ينقصها. مع أن المعادن يدركها البلاء كما يدرك سائر الموجودات ويسرع إلى اللؤلؤ والجوهر أعظم مما يسرع إلى غيره، وكذا الذهب

والفضة[١١٩٨] والنحاس والحديد والرصاص والقصدير ينالها من البلاء والفناء ما يذهب بأعيانها لأقرب وقت.

وأما ما وقع في مصر من أمر المطالب والكنوز فسببه أن مصر في مَلَكَة ٧٠ القبط[١١٩٩] منذ آلاف أو يزيد من السنين، وكان موتاهم يدفنون بموجودهم من الذهب والفضة والجوهر واللآلئ على مذهب من تقدم من أهل الدول. فلما انقضت دولة القبط[١١٩٩] وملك الفرس بلادهم نقّروا على ذلك في قبورهم وكشفوا عنه فأخذوا من قبورهم مالا يوصف كالأهرام من قبور الملوك وغيرها. وكذا فعل اليونانيون من بعدهم وصارت قبورهم مظنة لذلك لهذا العهد. ويعثر على الدفين فيها في كثير من الأوقات: إما ما يدفنونه من أموالهم؛ أو ما يكرمون به موتاهم في الدفن من أوعية وتوابيت من الذهب والفضة معدة لذلك. فصارت قبور القبط[١١٩٩] منذ آلاف من السنين مظنة لوجود ذلك فيها. فلذلك عنى أهل مصر بالبحث عن المطالب لوجود ذلك فيها واستخراجها؛ حتى إنهم حين ضربت المكوسُ على الأصناف آخِرَ الدولة ضُربت على أهل المطالب، وصدرت ضريبة على من يشتغل بذلك من الحَمقى والمهوسين[١٢٠٠]. فوجد بذلك المتعاطلون من أهل الأطماع الذريعة إلى الكشف عنه والزعم[١٢٠١] باستخراجه. وما حصلوا إلا على الخيبة في جميع مساعيهم، نعوذ بالله من الخسران. فيحتاج من وقع له شيء من هذا الوسواس وابتلى به أن يتعوذ بالله من العجز والكسل في طلب معاشه، كما تعوذ رسول الله ﷺ من ذلك، وينصرف عن طرق الشيطان ووسواسه، ولايشغل نفسه بالمجالات والمكاذب من الحكايات ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

(١١٩٨) هذا غير صحيح فيما يتعلق بالذهب والفضة؛ فإن من أهم خواص هذين المعدنين أنهما غير قابلين للاتحاد مع الهواء أو الماء أو أي جسم آخر. فهما لا يصدآن ولا تتغير خواصهما الكيميائية بتقادم الزمن ولا يفنيان ولا يبيدان بالاستعمال. وقد كانت هذه الخاصية من بين العوامل التي جعلتهما أكثر المواد صلاحية لقياس قيم الأشياء، فاتخذت منهما النقود في الأمم المتحضرة (انظر تفصيل هذا الموضوع في كتابنا «في الاقتصاد السياسي» (الطبعة الخامسة، صفحات ٢٤٩ ـ ٢٥٨).

(١١٩٩) يقصد بالقبط الفراعنة أي قدماء المصريين.

(١٢٠٠) «الهَوَس طرف من الجنون وهو مهَوَّس كمُعَظَّم» (القاموس).

(١٢٠١) هكذا وردت هذه الكلمة في النسخة «التيمورية». وقد وردت في النسخ المتداولة على هذه الصورة: «والذرع». والذَّرَع الطَّمَع والناقة التي يستتر بها رامي الصيد كالذريعة (من القاموس). وكلا المعنيين محتمل في عبارة ابن خلدون، وإن كان المعنى الأول (الطمع) أوضح وأكثر اتساقا مع السياق (وكان الأحسن حينئذ أن يقول: الذرع في استخراجه). وأكثر من هذا كله اتساقًا مع السياق كلمة «الزعم» التي وردت في النسخة الخطية واعتمدناها في المتن.

٥ـ فصل فى أن الجاه مفيد للمال

وذلك أنا نجد صاحب المال والحُظْوَة فى جميع أصناف المعاش أكثر يساراً وثروة من فاقد الجاه. والسبب فى ذلك أن صاحب الجاه مخدوم بالأعمال يُتقرَّبُ بها إليه فى سبيل التزلف والحاجة إلى جاهه. فالناس معينون له بأعمالهم فى جميع حاجاته من ضرورى أو حاجى أو كمالى، فتحصل قيم تلك الأعمال كلها من كسبه. وجميع ما شأنه أن تبذل فيه الأعواض من العمل، يستعمل فيها الناس من غير عوض، فتتوفر قيم تلك الأعمال عليه. فهو بين قيم للأعمال يكتسبها وقيم أخرى تدعوه الضرورة إلى إخراجها فتتوفر عليه. والأعمال لصاحب الجاه كثيرة فتفيد الغنى لأقرب وقت، ويزداد مع الأيام يساراً وثروة. ولهذا المعنى كانت الإمارة أحد أسباب المعاش كما قدمناه. وفاقد الجاه بالكلية ولو كان صاحب مال فلا يكون يساره إلا بمقدار ماله وعلى نسبة سعيه؛ وهؤلاء هم أكثر التجار؛ ولهذا تجد أهل الجاه منهم يكونون أيسر بكثير. ومما يشهد لذلك أنا نجد كثيراً من الفقهاء وأهل الدين والعبادة إذا اشتهروا، وحَسُن الظن بهم، واعتقد الجمهور معاملة الله فى إرفادهم(١٢٠٢)، فأخلص الناس فى إعانتهم على أحوال دنياهم والاعتمال فى مصالحهم، أسرعت إليهم الثروة وأصبحوا مياسير من غير مال مقتنى، إلا ما يحصل لهم من قيم الأعمال التى وقعت المعونة بها من الناس لهم. رأينا من ذلك أعداداً فى الأمصار والمدن وفى البدو، يسعى لهم الناس فى الفلح والتَّجْر(١٢٠٢ب) وكلٌّ قاعد بمنزله لا يبرح من مكانه، فينمو ماله ويعظم كسبه، ويتأثَّلُ [٤٧٥ب] الغنى من غير سعى. ويعجب من لا يفطن لهذا السر فى حال ثروته وأسباب غناه ويساره. والله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب.

(١٢٠٢) الرِّفد: العطاء والصلة ومصدر رَفَده يرفُده أعطاه، والإرفاد الإعانة والإعطاء (من القاموس).

(١٢٠٢ب) التَّجْر التِّجارة، يقال تَجَر تَجْراً من باب قتل (المصباح والقاموس).

وقد وردت هذه الكلمة محرفة بالنون «النجر» فى جميع النسخ المتداولة، ووردت صحيحة بالتاء فى النسخة «التيمورية».

٦ـ فصل فى أن السعادة والكسب إنما يحصل غالبًا لأهل الخضوع والتملق وأن هذا الخلق من أسباب السعادة

قد سلف لنا فيما سبق أن الكسب الذى يستفيده البشر إنما هو قيم أعمالهم(١٢٠٣). ولو قُدِّرَ أحد عُطُلٌ(١٢٠٤) عن العمل جملة لكان فاقد الكسب بالكلية. وعلى قدر عمله وشرفه بين الأعمال وحاجة الناس إليه يكون قدر قيمته وعلى نسبة ذلك نمو كسبه أو نقصانه. وقد بينا آنفا أن الجاه يفيد المال(١٢٠٥) لما يحصل لصاحبه من تقرب الناس إليه بأعمالهم وأموالهم فى دفع المضار وجلب المنافع، وكان ما يتقربون به من عمل أو مال عوضًا عما يحصلون عليه بسبب الجاه من الأغراض فى صالح أو طالح. وتصير تلك الأعمال فى كسبه، وقيمها أموال وثروة له. فيستفيد الغنى واليسار لأقرب وقت. ثم إن الجاه متوزع فى الناس ومترتب فيهم طبقة بعد طبقة: ينتهى فى العلو إلى الملوك الذين ليس فوقهم يد عالية؛ وفى السفل إلى من لا يملك ضرًا ولا نفعًا بين أبناء جنسه؛ وبين ذلك طبقات متعددة: حكمة الله فى خلقه، بما[٤٤٥] ينتظم معاشهم وتتيسر مصالحهم ويتم بقاؤهم؛ لأن النوع الإنسانى لا يتم وجوده وبقاؤه إلا بتعاون أبنائه على مصالحهم؛ لأنه قد تقرر أن الواحد منهم لا يتم وجوده إلا بالتعاون؛ وإنه إن ندر(١٢٠٦) فقد ذلك فى صورة مفروضة لا يصح بقاؤه(١٢٠٦ب).

(١٢٠٣) عرض لذلك فى الفصل الأول من هذا الباب: فصل فى حقيقة الرزق والكسب، وأن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية» (انظر صفحات ٨٣٦-٨٤١ وانظر كذلك تعليق ١١٢٤).

(١٢٠٤) عَطِل كفرح عَطَلا بالتحريك وعطولا وتعطل فهو عاطل وعُطُل، وأصله المرأة إذا لم يكن عليها حلى. فعُطُل فى عبارة ابن خلدون صفة لأحد.

(١٢٠٥) بيّن ذلك فى الفصل السابق لهذا مباشرة.

(١٢٠٦) «نَدرَ الشىء ندورا سقط من بين أشياء فظهر» (القاموس) ويقصد إن حدث فى صورة شاذة أن وجد شخص غير متعاون مع غيره فإنه لا يتم بقاؤه.

(١٢٠٦ب) وردت هذه العبارة محرفة فى جميع النسخ. ففى النسخ المتداولة وردت بهذا النص: «لأن النوع الإنسانى لا يتم وجوده وبقاؤه إلا بتعاون، وإنه وإن ندر فقد ذلك فى صورة مفروضة فلا يصح بقاؤه». وفى النسخة «التيمورية» وردت بهذا النص «لأن النوع الإنسانى لما كان لا يتم وجوده وبقاؤه إلا بتعاون أبنائه على مصالحهم، لأنه قد تقرر أن الواحد منهم لا يتم وجوده إلا بالتعاون، وإنه وإن ندر ذلك فى صورة مفروضة فلا يصح بقاؤه».

ثم إن هذا التعاون لا يحصل إلا بالإكراه عليه لجهلهم فى الأكثر بمصالح النوع، ولما جعل لهم من الاختيار، وأن أفعالهم إنما تصدر بالفكر والروية لا بالطبع، وقد يمتنع(١٢٠٧) من المعاونة فيتعين حمله عليها. فلابد من حامل يكره أبناء النوع على مصالحهم، لتتم الحكمة الإلهية فى بقاء هذا النوع. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾(١٢٠٨)، فقد تبين أن الجاه هو القدرة الحاملة للبشر على التصرف فيمن تحت أيديهم من أبناء جنسهم بالإذن والمنع والتسلط بالقهر والغلبة، ليحملهم على دفع مضارهم وجلب منافعهم فى العدل بأحكام الشرائع والسياسة، وعلى أغراضه فيما سوى ذلك. ولكن الأول مقصود فى العناية الربانية بالذات، والثانى داخل فيها بالعرض كسائر الشرور الداخلة فى القضاء الإلهى؛ لأنه قد لا يتم وجود الخير الكثير إلا بوجود شر يسير من أجل المواد(١٢٠٩)، فلا يفوت الخير بذلك، بل يقع على ما ينطوى عليه من الشر اليسير، وهذا معنى وقوع الظلم فى الخليقة، فتفهم.

ثم إن كل طبقة من طباق أهل العمران من مدينة أو إقليم لها قدرة على من دونها من الطباق، وكل واحد من الطبقة السفلى يستمد بذى الجاه من أهل الطبقة التى فوق؛ ويزداد كسبه تصرفا فيمن تحت يده على قدر ما يستفيد منه. والجاه على ذلك داخل على الناس فى جميع أبواب المعاش، ويتسع ويضيق بحسب الطبقة والطور الذى فيه صاحبه. فإن كان الجاه متسعاً كان الكسب الناشئ عنه كذلك، وإن كان ضيقًا قليلا فمثله. وفاقد الجاه وإن كان له مال فلا يكون يساره إلا بمقدار عمله أو ماله ونسبة سعيه ذاهبًا وآيبًا فى تنميته كأكثر التجار وأهل الفلاحة فى الغالب، وأهل الصنائع كذلك إذا فقدوا الجاه واقتصروا على فوائد صنائعهم، فإنهم يصيرون إلى الفقر والخصاصة[٩٦٤] فى الأكثر، ولا تسرع إليهم ثروة، وإنما يُرَمِّقون العيش ترميقًا(١٢١٠) ويدافعون

(١٢٠٧) الفاعل ضمير يدل عليه ما قبله، أي وقد يمتنع بعض الناس.

(١٢٠٨) آخر آية ٣٢ من سورة الزخرف وهي سورة ٤٣، ونصها ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾.. إلخ.

(١٢٠٩) هكذا في جميع النسخ، وعبارة «من أجل المواد» غير واضحة الدلالة.

(١٢١٠) «هو مُرَمِّق العيش كمعَظَّم ضَيِّقه أو خسيسه، وعيش رمِقٌ يمسك الرمق» (القاموس).

ضرورة الفقر مدافعة. وإذا تقرر ذلك وأن الجاه متفرع وأن السعادة والخير مقترنان بحصوله، علمت أن بذله وإفادته من أعظم النعم وأجلها، وأن باذله من أجلِّ المنعمين وإنما يبذله لمن تحت يديه فيكون بذله بيد عالية وعزة، فيحتاج طالبه ومبتغيه إلى خضوع وتملق كما يسأل أهل العز والملوك، وإلا فيتعذر حصوله. فلذلك قلنا إن الخضوع والتملق من أسباب حصول هذا الجاه المُحَصِّل للسعادة والكسب، وإن أكثر أهل الثروة والسعادة بهذا التملق. ولهذا نجد الكثير ممن يتخلق بالترفع والشمم لا يحصل لهم غرض الجاه فيقتصرون فى التكسب على أعمالهم، ويصيرون إلى الفقر والخصاصة.

واعلم أن هذا الكبر والترفع من الأخلاق المذمومة إنما يحصل لمن توهم الكمال، وأن الناس يحتاجون إلى بضاعته من علم أو صناعة، كالعالم المتبحر فى علمه، أو الكاتب المجيد فى كتابته، أو الشاعر البليغ فى شعره؛ وكل محسن فى صناعته يتوهم أن الناس محتاجون لما بيده، فيحدث له ترفع عليهم بذلك وكذا يتوهم أهل الإنساب، ممن كان فى آبائه ملك أو عالم مشهور أو كامل فى طور، يعتبرون بما رأوه أو سمعوه من حال آبائهم فى المدينة، ويتوهمون أنهم استحقوا مثل ذلك بقرابتهم إليهم ووراثتهم عنهم فهم متمسكون فى الحاضر بالأمر المعدوم. وكذلك أهل الحيلة والبصر والتجارب بالأمور قد يتوهم بعضهم كمالا فى نفسه بذلك واحتياجاً إليه.

وتجد هؤلاء الأصناف كلهم مترفعين لا يخضعون لصاحب الجاه ولا يتملقون لمن هو أعلى منهم، ويستصغرون من سواهم لاعتقادهم الفضل على الناس فيستنكف أحدهم عن الخضوع ولو كان للملك ويعده مذلة وهواناً وسفهاً، ويحاسب الناس فى معاملتهم إياه بمقدار ما يتوهم فى نفسه، ويحقد على من قصر له فى شيء مما يتوهمه من ذلك، وربما يدخل على نفسه الهموم والأحزان من تقصيرهم فيه، ويستمر فى عناء عظيم من إيجاب الحق لنفسه أو إباية الناس له من ذلك. ويحصل له المقت من الناس لما فى طباع البشر من التأله؛ وقل أن يسلم أحد منهم لأحد فى الكمال والترفع عليه، إلا أن يكون ذلك بنوع من القهر والغلبة والاستطالة؛ وهذا كله فى ضمن الجاه. فإذا فقد صاحب هذا الخلق الجاه وهو مفقود له كما تبين لك، مقته الناس بهذا الترفع، ولم يحصل له حظ من إحساسهم، وفقد الجاه لذلك من أهل الطبقة التى هى أعلى منه، لأجل المقت وما يحصل له بذلك من القعود عن تعاهدهم

وغشيان[١١٢٨] منازلهم، ففسد معاشه، وبقى فى خصاصة[٩٦٤] وفقر أو فوق ذلك بقليل، وأما الثروة فلا تحصل له أصلا ومن هذا اشتهر بين الناس أن الكامل فى المعرفة محروم من الحظ، وأنه قد حوسب بما رزق من المعرفة واقتُطِع له ذلك من الحظ؛ وهذا معناه. ومن خلق لشىء يُسِّرَ له. والله المقدر لا رب سواه.

ولقد يقع فى الدول اضطراب فى المراتب من أجل هذا الخُلُق(١٢١١)، ويرتفع فيها كثير من السِّفلة[١١٦٢] وينزل كثير من العِلْية[٩١] بسبب ذلك. وذلك أن الدول إذا بلغت نهايتها من التغلب والاستيلاء انفرد منها منبت الملك بملكهم وسلطانهم، ويئس من سواهم من ذلك، وإنما صاروا فى مراتب دون مرتبة الملك وتحت يد السلطان وكأنهم خَول له. فإذا استمرت الدولة وشمخ الملك تساوى حينئذ فى المنزلة عند السلطان كل من انتمى إلى خدمته وتقرب إليه بنصيحة، واصطنعه السلطان لغَنائه[١٤٣] فى كثير من مهماته. فتجد كثيراً من السوقة يسعى فى التقرب من السلطان بجده ونصحه، ويتزلف إليه بوجوه خدمته، ويستعين على ذلك بعظيم من الخضوع والتملق له ولحاشيته وأهل نسبه، حتى يرسخ قدمه معهم، وينظمه السلطان فى جملته، فيحصل له بذلك حظ عظيم من السعادة، وينتظم فى عدد أهل الدولة. وناشئة الدولة حينئذ من أبناء قومها الذين ذللوا صعابها ومهدوا أكنافها معتزون بما كان لآبائهم فى ذلك من الآثار، تشمخ به نفوسهم على السلطان ويعتدون بآثاره. ويجرون فى مضمار الدالة بسببه. فيمقتهم السلطان لذلك ويباعدهم(١٢١٢)؛ ويميل إلى هؤلاء المصطنعين الذين لا يعتدون بقديم، ولا يذهبون إلى دَالَّة ولا ترفع، إنما دأبهم الخضوع له والتملق والاعتمال فى غرضه متى ذهب إليه، فيتسع جاههم، وتعلو منازلهم، وتنصرف إليهم الوجوه والخواطر، بما يحصل لهم من قبل السلطان والمكانة عنده؛ ويبقى ناشئة الدولة فيما هم فيه من الترفع والاعتداد بالقديم، لا يزيدهم ذلك إلا بعداً من السلطان ومقتًا وإيثاراً لهؤلاء المصطنعين عليهم، إلى أن تنقرض الدولة وهذا أمر طبيعى فى الدولة. ومنه جاء شأن المصطنعين فى الغالب. والله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق لا رب سواه.

(١٢١١) وردت هذه العبارة فى جميع النسخ المتداولة محرفة فى هذه الصيغة. «ولقد يقع فى الدولة أضراب فى المراتب من أهل هذا الخلق». وقد عثرنا عليها صحيحة كما أثبتناه فى النسخة «التيمورية».

(١٢١٢) وردت هذه العبارة فى جميع النسخ المتداولة محرفة تحريفا كبيرا فى هذه الصيغة المجردة من الدلالة: «وناشئة الدولة حينئذ من أبناء قومها الذين ذللوا أضغانهم ومهدوا أكنافهم مغترون بما كان لآبائهم فى ذلك من الآثار، لم تسمح به نفوسهم على السلطان ويعتدون بآثاره، ويجرون فى مضمار الدولة بسببه، فيمقتهم السلطان لذلك ويباعدهم» وقد عثرنا عليها صحيحة كما أثبتناه فى النسخة «التيمورية».

٧ـ فصل فى أن القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة والخطابة والأذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم فى الغالب

والسبب لذلك أن الكسب كما قدمناه قيمة الأعمال[١٢٠٣] وأنها متفاوتة بحسب الحاجة إليها، فإذا كانت الأعمال ضرورية فى العمران عامة البلوى به، كانت قيمتها أعظم وكانت الحاجة إليها أشد. وأهل هذه الصنائع الدينية لا تضطر إليهم عامة الخلق، وإنما يحتاج إلى ما عندهم الخواص ممن أقبل على دينه؛ وإن احتيج إلى الفتيا والقضاء فى الخصومات فليس على وجه الاضطرار والعموم، فيقع الاستغناء عن هؤلاء فى الأكثر. وإنما يهتم بإقامة مراسمهم صاحب الدولة بما له من النظر فى المصالح، فيقسم له حظًا من الرزق على نسبة الحاجة إليهم على النحو الذى قررناه، لا يساويهم بأهل الشوكة ولا بأهل الصنائع، من حيث الدين والمراسم الشرعية، ولكنه يقسم بحسب عموم الحاجة وضرورة أهل العمران، فلا يصح فى قسمهم إلا القليل، وهم أيضًا لشرف بضائعهم أعزة على الخلق وعند نفوسهم، فلا يخضعون لأهل الجاه حتى ينالوا منه حظًا يستدرون به الرزق، بل[٢٤٤] ولا تفرغ أوقاتهم لذلك، لما هم فيه من الشغل بهذه الصنائع الشريفة المشتملة على أعمال الفكر والبدن، بل[٢٤٤] ولا سعهم ابتذال أنفسهم لأهل الدنيا لشرف صنائعهم، فهم بمعزل عن ذلك. فلذلك تعظم ثروتهم فى الغالب ولقد باحثت بعض الفضلاء فأنكر ذلك علىّ، فوقع دى أوراق مخرّقة[(١٢١٣)] من حسابات الدواوين بدار المأمون تشتمل على كثير ن الدخل والخرج، وكان فيما طالعت فيه أوراق القضاة والأئمة والمؤذنين قفته عليه، وعلم منه صحة ما قلته ورجع إليه، وقضينا العجب من أسرار الله خلقه وحكمته فى عوالمه. والله الخالق القادر لا رب سواه.

---

١٢) «التخريق التمزيق والمخرق الممزق» (القاموس) وفي النسخة «التيمورية» «مخرمة» بالميم.

٨- فصل فى أن الفلاحة من معاش المستضعفين وأهل العافية من البدو

وذلك لأنه أصيل فى الطبيعة وبسيط فى منحاه، ولذلك لا تجد ينتحله أحد من أهل الحضر فى الغالب، ولا من المترفين، ويختص منتحله بالمذلة. قال ﷺ، وقد رأى السكّة(١٢١٤) ببعض دور الأنصار: «**ما دخلت هذه دار قوم إلا دخله الذل**»؛ وحمله البخارى على الاستكثار منه وترجم عليه: «باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع أو تجاوز الحد الذى أمر به». والسبب فيه والله أعلم ما يتبعها من المغرم المفضى إلى التحكم واليد العالية، فيكون الغارم ذليلا بائسًا بما[٤٤٥] تتناوله أيدى القهر والاستطالة. قال ﷺ. «**لا تقوم الساعة حتى تعود الزكاة مغرماً**»، إشارة إلى الملك العضوض[٨٩٧] القاهر للناس الذى معه التسلط والجور، ونسيان حقوق الله تعالى فى المتمولات، واعتبار الحقوق كلها مغرمًا للملوك والدول. والله قادر على ما يشاء. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

٩- فصل فى معنى التجارة ومذاهبها وأصنافها

اعلم أن التجارة محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء أيا ما كانت السلعة من دقيق أوزرع أو حيوان أو قماش. وذلك القدر النامى يسمى ربحًا فالمحاول لذلك الربح إما أن يختزن السلعة ويتحين بها حوالة[٩٢١] الأسواق من الرخص إلى الغلاء فيعظم ربحه، وإما بأن ينقله إلى بلد آخَر تنفُقُ[٤٤] فيه تلك السلعة أكثر من بلده الذى اشتراها فيه، فيعظم ربحه ولذلك قال بعض الشيوخ من التجار لطالب الكشف عن حقيقة التجارة: أنا أعلمها لك فى كلمتين: «اشترِ الرخيص وبع الغالى، وقد حصلت التجارة(١٢١٥)»، إشارة منه بذلك إلى المعنى الذى قررناه. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب سواه.

(١٢١٤) السكّة حديدة الفدّان وهو المحراث (القاموس).

(١٢١٥) هكذا وردت هذه العبارة فى النسخة «التيمورية» وهى أصح تركيبا من العبارة التى وردت فى جميع النسخ المتداولة وهى: «اشتراء الرخيص وبيع الغالى فقد حصلت التجارة».

١٠ - فصل فى أى أصناف الناس يحترف بالتجارة وأيهم ينبغى له اجتناب حرفها

قد قدمنا أن معنى التجارة تنمية المال بشراء البضائع ومحاولة بيعها بأغلى من ثمن الشراء، إما بانتظار حوالَة[٩٢١] الأسواق أو نقلها إلى بلد هى فيه أنْفَق[٤٤] وأغلى، أو بيعها بالغلاء على الآجال. وهذا الربح بالنسبة إلى أصل المال يسير إلا أن المال إذا كان كثيراً عظم الربح، لأن القليل فى الكثير كثير، ثم لابد فى محاولة هذه التنمية الذى هو الربح من حصول هذا المال بأيدى الباعة بشراء البضائع وبيعها وتقاضى أثمانها[(١٢١٦)]. وأهل النَّصَفَة[٥٧٢] قليل؛ فلابد من الغش والتطفيف المجحف بالبضائع، ومن المَطْل فى الأثمان المجحف بالربح، كتعطيل المحاولة فى تلك المدة وبها نماؤه، ومن الجحود والإنكار المُسْحِت[(١٢١٧)] لرأس المال إن لم يتقيد بالكتاب والشهادة. وغَنَاء[١٤٣] الحكام فى ذلك قليل، لأن الحكم إنما هو على الظاهر. فيعانى التاجر من ذلك أحوالا صعبة، ولا يكاد يحصل على ذلك التافه من الربح إلا بعظم العناء والمشقة، أو لا يحصل أو يتلاشى رأس ماله. فإن كان جريئًا على الخصومة، بصيراً بالحُسْبان[٧٦٩]، شديد المُماحَكة[(١٢١٨)]، مقدامًا على الحكام، كان ذلك أقرب له إلى النَّصَفَة[٥٧٢] بجراءته منهم ومماحكته؛ وإلا فلابد له من جاه يدَّرِعُ[(١٢١٩)] به، يوقع له الهيبة عند الباعة ويحمل الحكام على إنصافه من معامليه، فيحصل له بذلك النَّصَفَةُ[٥٧٢] فى ماله

(١٢١٦) هكذا وردت هذه العبارة فى النسخة «التيمورية وهى أوضح من العبارة التى وردت فى جميع النسخ المتداولة، وهى. «ثم لا بد فى محاولة هذه التنمية من حصول هذا المال بأيدى الباعة فى شراء البضائع وبيعها ومعاملتهم فى تقاضى أثمانها».

(١٢١٧) «السُّحْت بالضم وبضمتين الحرام، وما خبث من المكاسب، وأسحت اكتسب السحت، وأسحت الشىء استأصله». والمعنى الأخير هو المقصود فى عبارة ابن خلدون أى المستأصل لرأس المال. ومنه قول الفرزدق:

وعضُّ زمانٍ يابن مروان لم يدع ... من المال إلا مُسْحَتًا أو مُجَلَّف.

(١٢١٨) المماحكة اللَّجاج وتماحكا تلاجا وهو مماحك (من القاموس).

(١٢١٩) ادَّرع الرجل لبس درع الحديد كتدرع» (القاموس). والمعنى يتخذه درعا.

طوعًا فى الأول وكرها فى الثانى. وأما من كان فاقدًا للجراءة والإقدام من نفسه فاقد الجاه من الحكام فينبغى له أن يجتنب الاحتراف بالتجارة، لأنه يعرض ماله للضياع والذهاب ويصير مأكلة للباعة، ولا يكاد ينتصف منهم. لأن الغالب فى الناس، وخصوصًا الرعاع والباعة، شرهون إلى ما فى أيدى الناس سواهم، متوثبون عليه؛ ولولا وازع الأحكام لأصبحت أموال الناس نهباً: ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾(١٢٢٠).

١١ - فصل أن خلق التجار نازلة عن خلق الأشراف والملوك

وذلك أن التجار فى غالب أحوالهم إنما يعانون البيع والشراء، ولابد فيه من المكايسة[٩٢٥] ضرورة. فإن اقتصر عليها اقتصرت به على خلقها؛ وهى، أعنى خلق المكايسة، بعيدة عن المروءة التى تتخلق بها الملوك والأشراف. وأما إن استُرذِلَ خُلُقُه بما يتبع ذلك فى أهل الطبقة السفلى منهم، من المماحكة[١٢١٨] والغش والخلابة[١١٤٧] وتعاهد الأيمان الكاذبة على الأثمان ردًا وقبولا، فأجْدِرْ بذلك الخلق أن يكون فى غاية المذلة لما هو معروف. ولذلك تجد أهل الرياسة يتحامون الاحتراف بهذه الحرفة لأجل ما يُكْسَبُ من هذا الخلق. وقد يوجد منهم من يسلم من هذا الخلق ويتحاماه لشرف نفسه وكرم خلاله، إلا أنه فى النادر بين الوجود. والله يهدى من يشاء بفضله وكرمه، وهو رب الأولين والآخرين.

(١٢٢٠) آخر آية ٢٥١ من سورة البقرة وهى السورة الثانية.

١٢ ـ فصل فى نقل التاجر للسلع

التاجر البصير بالتجارة لا ينقل من السلع إلا ما تعم الحاجة إليه من الغنى والفقير والسلطان والسوقة، إذ فى ذلك نَفاَقُ[٤٤] سلعته. وأما إذا اختص نقله بما يحتاج إليه البعض فقط، فقد يتعذر نفاق سلعته حينئذ بإعواز الشراء من ذلك البعض لعارض من العوارض، فتكسد سوقه وتفسد أرباحه. وكذلك إذا نقل السلعة المحتاج إليها فإنما ينقل الوسط من صنفها، فإن العالى من كل صنف من السلع إنما يختص به أهل الثروة وحاشية الدولة وهم الأقل؛ وإنما يكون الناس أسوة فى الحاجة إلى الوسط من كل صنف. فليتحر ذلك جهده ففيه نَفَاق[٤٤] سلعته أو كسادها. وكذلك نقل السلع من البلد البعيد المسافة أو فى شدة الخطر فى الطرقات يكون أكثر فائدة للتجار وأعظم أرباحًا وأكفل بِحوالة[٩٢١] الأسواق، لأن السلعة المنقولة حينئذ تكون قليلة مُعْوِزَةً لبعد مكانها أو شِدة الغَرَر[١٥١] فى طريقها، فيقل حاملوها ويعز وجودها؛ وإذا قلت وعزت غلت أثمانها. وأما إذا كان البلد قريب المسافة والطريق سابل(١٢٢١) بالأمن، فإنه حينئذ يكثر ناقلوها، فتكثر وترخص أثمانها، ولهذا تجد التجار الذين يولعون بالدخول إلى بلاد السودان أرفه الناس وأكثرهم أموالاً، لبعد طريقهم ومشقته، واعتراض المفازة الصعبة المخطرة بالخوف والعطش، لا يوجد فيها الماء إلا فى أماكن معلومة يهتدى إليها أدِلاَّء[٦٦] الركبان، فلا يرتكب خطر هذا الطريق وبعده إلا الأقل من الناس؛ فتجد سلع بلاد السودان قليلة لدينا فتختص بالغلاء؛ وكذلك سلعنا لديهم؛ فتعظم بضائع التجار من تناقلهم، ويسرع إليهم الغنى والثروة من أجل ذلك. وكذلك المسافرون من بلادنا إلى المشرق لبعد الشُّقَّة[٥٥ب] أيضًا. وأما المترددون فى أفق واحد ما بين أمصاره وبلدانه ففائدتهم قليلة وأرباحهم تافهة لكثرة السلع وكثرة ناقليها. و ﴿اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾(١٢٢٢).

(١٢٢١) السابل من الطرق المسلوك، وأسبلت الطريق كثرت سابلتها. هذا وفى جميع النسخ «سابل» بالضم على أن الجملة حال؛ والأصح أن ينصب على أن الجملة معطوفة على ما قبلها فيكون سابلا خبرا لكان المقدرة فى الجملة الثانية المعطوفة

(١٢٢٢) آية ٥٨ من سورة الذاريات، وهى سورة ٥١، ونصها ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.

١٣ ـ فصل فى الاحتكار

ومما اشتهر عند ذوى البصر والتجربة فى الأمصار أن احتكار الزرع لتحين أوقات الغلاء مشئوم وأنه يعود على فائدته(١٢٢٣) بالتلف والخسران. وسببه والله أعلم أن الناس لحاجتهم إلى الأقوات مضطرون إلى ما يبذلون فيها من المال اضطرارًا، فتبقى النفوس متعلقة به، وفى تعلق النفوس بمالها سر كبير فى وباله على من يأخذه مجانًا. ولعله الذى اعتبره الشارع فى أخذ أموال الناس بالباطل. وهذا وإن لم يكن مجانًا فالنفوس متعلقة به، لإعطائه ضرورة من غير سعة فى العذر فهو كالمكره. وما عدا الأقوات والمأكولات من المبيعات لا اضطرار للناس إليها، وإنما يبعثهم عليها التفنن فى الشهوات، فلا يبذلون أموالهم فيها إلا باختيار وحرص، ولا يبقى لهم تعلق بما أعطوه. فلهذا يكون من عرف بالاحتكار تجتمع القوى النفسانية على متابعته لما يأخذه من أموالهم فيفسد ربحه. والله تعالى أعلم.

وسمعت فيما يناسب هذا حكاية ظريفة عن بعض مَشْيَخة[١٩٦٣] المغرب. أخبرنى شيخنا أبو عبدالله الآبلى[٢٢٣، ٩٥، ١٠٥٩] . قال: حضرت عند القاضى بفاس لعهد السلطان أبى سعيد، وهو الفقيه أبو الحسن المليلى وقد عُرض عليه أن يختار بعض الألقاب المخزنية(١٢٢٤) لجرايته قال، فأطرق مليًا ثم قال لهم: من مكس الخمر فاستُضْحك الحاضرون من أصحابه، وعجبوا، وسألوه عن حكمة ذلك فقال: إذا كانت الجبايات كلها حرامًا فأختار منها مالا تتابعه نفس معطيه، والخمر قلْ أن يبذل فيها أحد ماله إلا وهو طرب مسرور بوجدانه غير آسف عليه، ولا متعلقة به نفسه. وهذه ملاحظة غريبة. والله سبحانه وتعالى يعلم ما تكن الصدور(١٢٢٥).

(١٢٢٣) هكذا فى جميع النسخ، ولعل كلمة «فائدته» محرفة عن «صاحبه».

(١٢٢٤) هكذا فى جميع النسخ، ويظهر أن هذا كان تعبيرا اصطلاحيا متعارفا عليه فى عصرهم. والمعنى يختار بعض أبواب الدخل ليأخذ منها مرتبه.

(١٢٢٥) لم يتكلم ابن خلدون على الاحتكار من ناحيتيه الاقتصادية والاجتماعية، ومجال القول فيهما ذو سعة كبيرة، ويتسق مع موضوع بحثه فى هذا الباب، وإنما تكلم عليه من ناحية تعلق نفوس المشترين بما يبذلونه من أثمان باهظة فى المواد المحتكرة، وأثر هذا التعلق فيما يكسبه المحتكر. وهذه ناحية غريبة كل الغرابة عن الموضوع وعن اتجاهات البحث، وتقوم على المعتقدات المتصلة بالتشاؤم وتعلق النفوس بأموالها.. وما إلى ذلك.

١٤ـ فصل فى أن رخص الأسعار مضر بالمحترفين بالرخيص

وذلك أن الكسب والمعاش كما قدمناه إنما هو بالصنائع أو التجارة؛ والتجارة هى شراء البضائع والسلع وادخارها يتحين بها حِوالة[٩٢١] الأسواق بالزيادة فى أثمانها ويسمى ربحا، ويحصل منه الكسب والمعاش للمحترفين بالتجارة دائمًا، فإذا استديم الرخص فى سلعة أو عَرْض[(١٢٢٦)] من مأكول أو ملبوس أو متمول على الجملة، ولم يحصل للتاجر حوالة[٩٢١] الأسواق فسد الربح والنماء بطول تلك المدة، وكسدت سوق ذلك الصنف، فقعد التجار عن السعى فيها، وفسدت رءوس أموالهم.

واعتبر ذلك أولاً بالزرع فإنه إذا استديم رخصه يفسد به حال المحترفين بسائر أطواره من الفلح والزراعة لقلة الربح فيه وندارته[(١٢٢٧)] أو فقده، فيفقدون النماء فى أموالهم أو يجدونه على قلة، ويعودون بالإنفاق على رءوس أموالهم وتفسد أحوالهم ويصيرون إلى الفقر والخصاصة[٩٦٤]، ويتبع ذلك فساد حال المحترفين أيضاً بالطحن والخبز وسائر ما يتعلق بالزراعة من الحرث إلى صيرورته مأكولا. وكذا يفسد حال الجند إذا كانت أرزاقهم من السلطان على أهل الفلح زرعًا، فإنها تقل جبايتها من ذلك ويعجِزون عن إقامة الجندية التى هم بسببها ومطالبون بها ومتقطعون لها، فتفسد أحوالهم.

وكذا إذا استديم الرخص فى السكر أو العسل فسد جميع ما يتعلق به وقعد المحترفون عن التجارة فيه. وكذا الملبوسات إذا استديم فيها الرخص.

فإذن الرخص المفرط يجحف بمعاش المحترفين بذلك الصنف الرخيص؛ وكذا الغلاء المفرط أيضاً، وإنما معاش الناس وكسبهم فى المتوسط من ذلك

(١٢٢٦) العَرْض بالسكون المتاع، والجمع عُرُوض مثل فَلْس وفلوس، ومنه عروض التجارة (من المصباح).

(١٢٢٧) «ندر الشىء ندوراً من باب قعد والاسم النَّدْرة بفتح النون، والضم لغة، ويقال لا يكون ذلك إلا نادراً وفى النَّدْرة أى فيما بين الأيام» (من المصباح). وهذا ولم ترد فى المعجمات كلمة «النَّدارة» التى استخدمها ابن خلدون.

وسرعة حوالة[921] الأسواق. وعلم ذلك يرجع إلى العوائد المتقررة بين أهل العمران. وإنما يُحمدُ الرخص فى الزرع من بين المبيعات لعموم الحاجة إليه، واضطرار الناس إلى الأقوات من بين الغنى والفقير. والعالة من الخلق هم الأكثر فى العمران. فيعم الرفق بذلك ويرجح جانب القوت على جانب التجارة فى هذا الصنف الخاص. والله الرزاق ذو القوة المتين[1222]. والله سبحانه وتعالى رب العرش العظيم.

١٥ـ فصل فى أن خلق التجار نازلة عن خلق الرؤساء وبعيدة من المروءة

قد قدمنا فى الفصل قبله[(1227ب)] أن التاجر مدفوع إلى معاناة البيع والشراء وجلب الفوائد والأرباح، ولابد فى ذلك من المكايسة[925] والمماحكة[1218] والتحذلق وممارسة الخصومات واللَّجاج، وهى عوارض هذه الحرفة. وهذه الأوصاف نقص من الزكاء[279(1228)] والمروءة وتجرح فيها؛ لأن الأفعال لابد من عود آثارها على النفس، فأفعال الخير تعود بآثار الخير والزكاء[1228]، وأفعال الشر والسفسفة تعود بضد ذلك، فتتمكن وترسخ إن سبقت وتكررت، وتنقص خلال الخير إن تأخرت عنها، بما يتطبع من آثارها المذمومة فى النفس، شأن الملكات الناشئة عن الأفعال.

وتتفاوت هذه الآثار بتفاوت أصناف التجار فى أطوارهم. فمن كان منهم سافل الطور محالفًا لأشرار الباعة أهل الغش والخِلابة[1147] والفجور فى الأثمان إقرارًا وإنكارًا، كانت رداءة تلك الخلق عنده أشد، وغلبت عليه السفسفة، وبعد عن المروءة واكتسابها بالجملة. وإلا فلابد له من تأثير المكايسة[925] والمماحكة[1218] فى مروءته. وفقدان ذلك منهم فى الجملة، ووجود الصنف الثانى منهم الذى

(١٢٢٧ب) يقصد الفصل الحادى عشر، ولعل الفصل الحادى عشر كان سابقا لهذا الفصل مباشرة فى الترتيب الأول للمقدمة، ثم غير ابن خلدون ترتيب الفصول بدون أن يغير هذه العبارة (انظر أمثلة أخرى لذلك فى تعليقى ٤٠٢، ٤٠٣).

(١٢٢٨) فى جميع النسخ «الذكاء» بالذال وهو تحريف كما لا يخفى، انظر معنى الزكاء بالزاى فى تعليق ٢٧٩.

قدمناه فى الفصل قبله(١٢٢٨ب) أنهم يَدَّرِعون١٢١٩ بالجاه ويُعَوَّض لهم من مباشرة ذلك، فهم نادر وأقل من النادر. وذلك أن يكون المال قد يوجد عنده دفعة بنوع غريب أو ورثه عن أحد من أهل بيته، فحصلت له ثروة تعينه على الاتصال بأهل الدولة وتكسبه ظهوراً وشهرة بين أهل عصره، فيرتفع عن مباشرة ذلك بنفسه، ويدفعه إلى من يقوم له به من وكلائه وحشمه، ويسهل له الحكام النَّصَفة٥٧٢ فى حقوقهم بما يؤنسونه من بره وإتحافه فيبعدونه عن تلك الخلق بالبعد عن معاناة الأفعال المقتضية لها كما مر، فتكون مروءتهم أرسخ وأبعد عن تلك المحاجاة. إلا ما يسرى من آثار تلك الأفعال من وراء الحجاب، فإنهم يضطرون إلى مشارفة أحوال أولئك الوكلاء ووفاقهم أو خلافهم فيما يأتون أو يذورن من ذلك؛ إلا أنه قليل ولا يكاد يظهر أثره. ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾١٠٩٦.

١٦- فصل فى أن الصنائع لابد لها من المعلم(١٢٢٨ ب)

اعلم أن الصناعة هى ملكة فى أمرٍ عمليٍّ فكرى، وبكونه عمليا هو جسمانى محسوس. والأحوال الجسمانية المحسوسة فنقلها(١٢٢٨جـ) بالمباشرة أوعب لها وأكمل. لأن المباشرة فى الأحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة، والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى، حتى ترسخ صورته؛ وعلى نسبة الأصل تكون الملكة. ونقل المعاينة أوعب وأتم من نقل الخبر والعلم؛ فالملكة الحاصلة عنه أكمل وأرسخ من الملكة الحاصلة عن الخبر. وعلى قدر جودة التعليم وملكة المعلم يكون حذق المتعلم فى الصناعة وحصول ملكته.

ثم إن الصنائع منها البسيط ومنها المركب، والبسيط هو الذى يختص بالضروريات، والمركب هو الذى يكون للكماليات. والمتقدم منها فى التعليم هو البسيط لبساطته أولا ولأنه مختص بالضرورى الذى تتوفر٦٠ الدواعى على نقله؛ فيكون سابقًا فى التعليم ويكون تعليمه لذلك ناقصا. ولايزال الفكر يخرج

(١٢٢٨ أ) انظر ص ٨٥٥ .

(١٢٢٨ب) فى «ل» و«م» لابد لها من العلم، وهو تحريف.

(١٢٢٨جـ) الأصح حذف الفاء، وكثيرا ما يزيدها ابن خلدون فى مثل هذا التركيب.

أصنافها ومركباتها من القوة إلى الفعل بالاستنباط شيئًا فشيئًا على التدريج حتى تكمل. ولا يحصل ذلك دفعة وإنما يحصل فى أزمان وأجيال؛ إذ خروج الأشياء من القوة إلى الفعل لا يكون دفعة لاسيما فى الأمور الصناعية، فلابد له إذن من زمان. ولهذا تجد الصنائع فى الأمصار الصغيرة ناقصة، ولا يوجد منها إلا البسيط. فإذا تزايدت حضارتها ودعت أمور الترف فيها إلى استعمال الصنائع، خرجت من القوة إلى الفعل(١٢٢٨د).

وتنقسم الصنائع أيضاً: إلى ما يختص بأمر المعاش ضروريا كان أو غير ضرورى؛ وإلى ما يختص بالأفكار التى هى خاصية الإنسان من العلوم والصنائع والسياسة(١٢٢٩). ومن الأول الحياكة والجزارة والنجارة والحدادة وأمثالها؛ ومن الثانى الوِراقةُ، وهى معاناة الكتب بالانتساخ والتجليد، والغناء والشعر وتعليم العلم وأمثال ذلك؛ ومن الثالث الجندية وأمثالها. والله أعلم.

١٧ـ فصل فى أن الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضرى وكثرته

والسبب فى ذلك أن الناس مالم يُستوف العمران الحضرى وتتمدن المدينة إنما همهم فى الضرورى من المعاش، وهو تحصيل الأقوات من الحنطة وغيرها. فإذا تمدنت المدينة وتزايد فيها الأعمال ووفت بالضرورى وزادت عليه، صُرِفَ الزائد حينئذ إلى الكمالات من المعاش. ثم إن الصنائع والعلوم إنما هى للإنسان من حيث فكره الذى يتميز به عن الحيوانات، والقوت له من حيث الحيوانية والغذائية، فهو مقدم لضروريته على العلوم والصنائع. وهى متأخرة عن الضرورى. وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنق فيها حينئذ، واستجادة ما يطلب منها بحيث تتوفر ٦٠

(١٢٢٨د) ورد فى النسخة «التيمورية» بعد هذه العبارة جملة «والله أعلم» وختم بها الفصل. فالفقرة التالية تزيد بها النسخ المتداولة على هذه النسخة الخطية.

(١٢٢٩) سقط هنا كلمتان، وتقدير العبارة بعد وضعهما: «وإلى ما يختص بالسياسة»، لأنه هنا بصدد صنف ثالث كما سيبينه فى الجملة التالية.

دواعي الترف والثروة. وأما العمران البدوى أو القليل فلا يحتاج من الصنائع إلا البسيط، خاصة المستعمل فى الضروريات من نجّار أو حداد أو خياط أو حائك أو جزار. وإذا وجدت هذه بعد فلا توجد فيه(١٢٣٠) كاملة ولا مستجادة، وإنما يوجد منها بمقدار الضرورة، إذ هى كلها وسائل إلى غيرها وليست مقصودة لذاتها.

وإذا زخر بحر العمران وطلبت فيه الكمالات، كان من جملتها التأنق فى الصنائع واستجادتها، فكملت بجميع متمماتها وتزايدت صنائع أخرى معها مما تدعو إليه عوائد الترف وأحواله من جزار ودباغ وخراز(١٢٣١) وصائغ وأمثال ذلك وقد تنتهى هذه الأصناف إذا استبحر[١١٣١ب] العمران إلى أن يوجد منها كثير من الكمالات، والتأنق فيها فى الغاية، وتكون من وجوه المعاش فى المصر لمنتحلها، بل تكون فائدتها من أعظم فوائد الأعمال، لما يدعو إليه الترف فى المدينة مثل الدهّان(١٢٣٢) والصفّار(١٢٣٣) والحمّامى(١٢٣٤) والطباخ والسفّاح(١٢٣٥) والهرّاس(١٢٣٦) ومعلم الغناء والرقص وقرع الطبول على التوقيع، ومثل الوراقين الذين يعانون صناعة انتساخ الكتب وتجليدها وتصحيحها، فإن هذه الصناعة إنما يدعو إليها الترف فى المدينة من الاشتغال بالأمور الفكرية وأمثال ذلك. وقد تخرج عن الحد إذا كان العمران خارجًا عن الحد، كما بلغنا عن أهل مصر[١١٣٥] أن فيهم من يعلم الطيور العجم والحُمُر الإنسية، ويتخيل أشياء من العجائب

(١٢٣٠) أى فى العمران البدوى.

(١٢٣١) الخَرَّاز صانع الأحذية، والخِرازة حرفته. خرز الخفَّ يخرُزه بضم الراء وكسرها (من القاموس).

(١٢٣٢) الدهَّان الذى يبيع الدهن ويشتغل بصناعته. ولعله يقصد الذى يدهن حوائط البيوت.

(١٢٣٣) الصفَّار الذى يشتغل بصناعة الصُّفْر وهو صنف من النحاس.

(١٢٣٤) الحمَّامى الذى يتعهد الحمامات ويزاول صناعتها.

(١٢٣٥) هكذا فى جميع النسخ المتداولة. وفى النسخة «التيمورية» «السفاج» وكلتا الكلمتين لا معنى لها هنا. ويظهر أن الكلمة محرفة عن «الصباغ» وهو الذى يصبغ الثياب، أو عن «السقاء» وهو الذى ينقل الماء إلى المنازل.

(١٢٣٦) «الهَرْس الدق العنيف، والهرَّاس متخذه، وهرس الهراس الهريسة، من باب قتل، دقها والمهراس الهاوون وحجر مستطيل ينقر ويدق فيه ويتوضأ فيه، وقد استعير للخشبة التى يدق فيها الحب، فقيل لها مهراس على التشبيه بالمهراس من الحجر أو الصفر الذى يهرس فيه الحبوب وغيرها (من القاموس والمصباح).

بإيهام قلب الأعيان، وتعليم الحُداء[١٢٣٧] والرقص والمشى على الخيوط فى الهواء، ورفع الأثقال من الحيوان والحجارة، وغير ذلك من الصنائع التى لا توجد عندنا بالمغرب، لأن عمران أمصاره لم يبلغ عمران مصر والقاهرة، أدام الله عمرانها بالمسلمين.

١٨ - فصل فى أن رسوخ الصنائع فى الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها

والسبب فى ذلك ظاهر وهو أن هذه كلها عوائد للعمران وألوان[١٢٣٨] والعوائد إنما ترسخ بكثرة التكرار وطول الأمد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ فى الأجيال؛ وإذا استحكمت الصبغة عسر نزعها. ولهذا نجد فى الأمصار التى كانت استبحرت[١٢٣١ب] فى الحضارة لما تراجع عمرانها وتناقص بقيت فيها آثار من هذه الصنائع ليست فى غيرها من الأمصار المستحدثة العمران، ولو بلغت مبالغها فى الوفور والكثرة. وما ذاك إلا لأن أحوال تلك القديمة العمران مستحكمة راسخة بطول الأحقاب وتداول الأحوال وتكررها؛ وهذه لم تبلغ الغاية بعد.

وهذا كالحال فى الأندلس لهذا العهد: فإنا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة فى جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها، كالمبانى والطبخ وأصناف الغناء واللهو من الآلات والأوتار والرقص وتنضيد الفرش فى القصور، وحسن الترتيب والأوضاع فى البناء، وصوغ الآنية من المعادن والخزف وجمع المواعين، وإقامة الولائم والأعراس، وسائر الصنائع التى يدعو إليها الترف وعوائده. فنجدهم أقْوَمَ عليها وأبصر بها، ونجد صنائعها مستحكمة لديهم. فهم على حصة موفورة من ذلك، وحظ متميز بين جميع الأمصار، وإن كان عمرانها قد تناقص، والكثير منه لا يساوى عمران غيرها

(١٢٣٧) أصل الحدْو الغناء للإبل فى سوقها، يقال حدوت الإبل أحدوها حدْوًا وحُدَاءً بالضم: حثثتها على السير بالحداء مثل غراب، وهو الغناء وحدوته على كذا بعثته عليه (المصباح والصحاح).

(١٢٣٨) هكذا فى النسخة «التيمورية». وقد وردت هذه الكلمة محرفة إلى «الأون» فى «ل» و«م» وإلى «الوأم» فى «دار الكتاب اللبنانى».

من بلاد العُدْوَة. وما ذاك إلا لما قدمناه من رسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة الأموية، وما قبلها من دولة القوط، وما بعدها من دولة الطوائف إلى هلم جرا. فبلغت الحضارة فيها مبلغًا لم تبلغه فى قطر، إلا ما ينقل عن العراق والشام ومصر أيضًا، لطول آماد الدول فيها، فاستحكمت فيها الصنائع وكملت جميع أصنافها على الاستجادة والتنميق، وبقيت صبغتها ثابتة فى ذلك العمران، لا تفارقه إلى أن ينتقص بالكلية، حال الصبغ إذا رسخ فى الثوب.

وكذا أيضًا حال تونس فيما حصل فيها بالحضارة من الدول الصنهاجية[٥٠] والموحدين[٩٣٦] من بعدهم، وما استكمل لها فى ذلك من الصنائع فى سائر الأحوال؛ وإن كان ذلك دون الأندلس[١١] إلا أنه متضاعف برسوم منها تنقل إليها من مصر لقرب المسافة بينهما، وتردد المسافرين من قطرها إلى قطر مصر فى كل سنة وربما سكن أهلها هناك عصوراً، فينقلون من عوائد ترفهم ومحكم صنائعها ما يقع لديهم موقع الاستحسان. فصارت أحوالها فى ذلك متشابهة من أحوال مصر لما ذكرناه ومن أحوال الأندلس لما[٥٨١] أن أكثر ساكنها من شرق الأندلس حين الجلاء لعهد المائة السابعة ورسخ فيها من ذلك أحوال. وإن كان عمرانها ليس بمناسب لذلك لهذا العهد[١١] إلا أن الصبغة إذا استحكمت فقليلا ما تحول إلا بزوال محلها.

وكذا نجد بالقيروان ومراكش وقلعة ابن حماد أثرًا باقيًا من ذلك؛ وإن كانت هذه كلها اليوم خرابًا أو فى حكم الخراب. ولا يتفطن لها إلا البصير من الناس فيجد من هذه الصنائع آثاراً تدله على ما كان بها. كأثر الخط الممحو فى الكتاب. والله الخلاق العليم.

١٩ـ فصل فى أن الصنائع إنما تستجاد وتكثر إذا كثر طالبها

والسبب فى ذلك ظاهر، وهو أن الإنسان لا يسمح بعمله أن يقع مَجَّانًا لأنه كسبه ومنه معاشه، إذ لا فائدة له فى جميع عمره فى شيء مما سواه؛ فلا يصرفه إلا فيما له قيمة فى مصره ليعود عليه بالنفع. وإن كانت الصناعة مطلوبة وتوجّه إليها النَّفَاقُ[٤٤] كانت حينئذ الصناعة بمثابة السلعة التى تنفُق[٤٤] سوقها وتجلب للبيع، فتجتهد الناس فى المدينة لتعلم تلك الصناعة ليكون منها معاشهم. وإذا لم تكن الصناعة مطلوبة لم تَنْفُقْ[٤٤] سوقُها، ولا يوجه قصد إلى تعلمها، فاختصت بالترك وفقدت للإهمال. ولهذا يقال عن علىّ رضى الله عنه: «قيمة كل امرئ ما يحسن»، بمعنى أن صناعته هى قيمته أى قيمة عمله الذى هو معاشه. وأيضًا فهنا سر آخر وهو أن الصنائع وإجادتها لدولة، فهى التى تُنْفِق[٤٤] سوقَها وتوجِّهُ الطلبات إليها، وما لم تطلبه الدولة وإنما يطلبها غيرها من أهل المصر فليس على نسبتها؛ لأن الدولة هى السوق[١١٣٨ب] الأعظم. وفيها نَفَاق[٤٤] كل شيء، والقليل والكثير فيها على نسبة واحدة، فما نفق منها كان أكثريًا ضرورة. والسوقة وإن طلبوا الصناعة فليس طلبهم بعام، ولا سوقهم بنافقة[٤٤] والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء.

٢٠ـ فصل فى أن الأمصار إذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع

وذلك لما بينا أن الصنائع إنما تستجاد إذا احتيج إليها وكثر طلبها؛ وإذا ضعف أحوال المصر وأخذ فى الهَرَم بانتقاض عمرانه وقلة ساكنه تناقص فيه الترف، ورجعوا إلى الاقتصار على الضرورى من أحوالهم، فتقل الصنائع التى كانت من توابع الترف؛ لأن صاحبها حينئذ لا يصح له بها معاشه، فيفر إلى غيرها أو يموت، ولا يكون خلف منه، فيذهب رسم تلك الصنائع جملة، كما

يذهب النقاشون والصواغ والكتاب والنساخ وأمثالهم من الصنائع لحاجات الترف. ولاتزال الصناعات فى التناقص مازال المصر فى التناقص إلى أن تضمحل. والله الخلاق العليم سبحانه وتعالى.

٢١ - فصل فى أن العرب[٣٥٩] أبعد الناس عن الصنائع

والسبب فى ذلك أنهم أعرق فى البدو وأبعد عن العمران الحضرى، وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها. والعجم من أهل المشرق وأمم النصرانية عُدْوَةَ البحر الرومى[١٧٣] أقوَمُ الناس عليها؛ لأنهم أعرق فى العمران الحضرى وأبعد عن البدو وعمرانه: حتى إن الإبل التى أعانت العرب على التوحش فى القفر والإعراق فى البدو مفقودة لديهم بالجملة ومفقودة مراعيها والرمال المهيئة لنَتَاجِها[٣٥٢] ولهذا نجد أوطان العرب وما ملكوه فى الإسلام قليل الصنائع بالجملة حتى تجلب إليه من قطر آخر. وانظر بلاد العجم من الصين والهند وأرض الترك وأمم النصرانية كيف استكثرت فيهم الصنائع واستجلبها الأمم من عندهم.

وعجم المغرب من البربر مثل العرب فى ذلك لرسوخهم فى البداوة منذ أحقاب من السنين. ويشهد لك بذلك قلة الأمصار بقطرهم كما قدمناه. فالصنائع بالمغرب لذلك قليلة وغير مستحكمة، إلا ما كان من صناعة الصوف؛ من نسجه، والجلد فى خرزه[١٢٣١] ودبغه. فإنهم لما استحضروا بلغوا فيها المبالغ لعموم البلوى بها، وكون هذين أغلب السلع فى قطرهم لما هم عليه من البداوة.

وأما المشرق فقد رسخت الصنائع فيه منذ مُلك الأمم الأقدمين من الفرس والنبط والقبط وبنى إسرائيل ويونان والروم أحقاباً متطاولة. فرسخت فيهم أحوال الحضارة ومن جملتها الصنائع كما قدمناه، فلم يمح رسمها.

وأما اليمن والبحران وعُمَان والجزيرة، وإن ملكه العرب[١١] إلا أنهم تداولوا ملكه آلافا من السنين فى أمم كثيرين منهم، واختطوا أمصاره ومدنه، وبلغوا الغاية من الحضارة والترف، مثل عاد وثمود والعمالقة وحمير من بعدهم والتبابعة والأذواء، فطال أمد الملك والحضارة واستحكمت صبغتها وتوفرت[٩٠] الصنائع ورسخت، فلم تبل ببلى الدولة كما قدمناه، فبقيت مستجدة حتى الآن،

واختصت بذلك الوطن كصناعة الوَشْى[١٢٣٩] والعَصْب[١٢٤٠] وما يستجاد من حوك الثياب والحرير فيها. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

٢٢ـ فصل فيمن حصلت له ملكة فى صناعة فقل[١٢٢٨] أن يجيد بعدها ملكة فى أخرى

ومثل ذلك الخياط إذا أجاد ملكة الخياطة وأحكمها ورسخت فى نفسه فلا يجيد من بعدها ملكة النجارة أو البناء، إلا أن تكون الأولى لم تستحكم بعد ولم ترسخ صبغتها. والسبب فى ذلك أن الملكات صفات للنفس وألوان فلا تزدحم دفعة. ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعداداً لحصولها. فإذا تلونت النفس بالملكة الأخرى وخرجت عن الفطرة ضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة، فكان قبولها للملكة الأخرى أضعف. وهذا بيِّنٌ يشهد له الوجود. فقل أن تجد صاحب صناعة يُحْكمها ثم يحكم من بعدها أخرى ويكون فيهما معًا على رتبة واحدة من الإجادة. حتى أهل العلم الذين ملكتهم فكرية فهم بهذه المثابة. ومن حصل منهم على ملكة علم من العلوم وأجادها فى الغاية فقل أن يجيد ملكة علم آخر على نسبته؛ بل يكون مقصراً فيه إن طلبه، إلا فى الأقل النادر من الأحوال. ومبنى سببه على ماذكرناه من الاستعداد وتلونه بلون الملكة الحاصلة فى النفس. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب سواه.

(١٢٣٩) «الوَشى: نقش الثوب» (القاموس).

(١٢٤٠) العَصب: بُرْد من برود اليمن على نسج خاص (من الصحاح).

٢٣ - فصل فى الإشارة إلى أمهات الصنائع

اعلم أن الصنائع فى النوع الإنسانى كثيرة لكثرة الأعمال المتداولة فى العمران، فهى بحيث تشذ عن الحصر ولا يأخذها العد. إلا أن منها ما هو ضرورى فى العمران أو شريف بالموضوع فنخصها بالذكر ونترك ما سواه. فأما الضرورى فالفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والحياكة. وأما الشريفة بالموضوع فكالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب. فأما التوليد فإنها ضرورية فى العمران وعامة البلوى إذ بها تحصل حياة المولود وتتم غالبًا، وموضوعها مع ذلك المولودون وأمهاتهم. وأما الطب فهو حفظ الصحة للإنسان ودفع المرض عنه، ويتفرع عن علم الطبيعة، وموضوعه مع ذلك بدن الإنسان. وأما الكتابة وما يتبعها من الوراقة فهى حافظة على الإنسان حاجته ومقيدة لها عن النسيان، ومبلغة ضمائر النفس إلى البعيد الغائب، ومخلدة نتائج الأفكار والعلوم فى الصحف، ورافعة رتب الوجود للمعانى. وأما الغناء فهو نسَب الأصوات ومظهر جمالها للأسماع وكل هذه الصنائع الثلاث(١٢٤١) داعٍ إلى مخالطة الملوك الأعاظم فى خلواتهم ومجالس أنسهم، فلها بذلك شرف ليس لغيرها. وما سوى ذلك من الصنائع فتابعة وممتهنة فى الغالب. وقد يختلف ذلك باختلاف الأغراض والدواعى. والله أعلم بالصواب.

٢٤ - فصل فى صناعة الفلاحة

هذه الصناعة ثمرتها اتخاذ الأقوات والحبوب بالقيام على إثارة الأرض لها وازدراعها، وعلاج نباتها، وتعهده بالسقى والتنمية إلى بلوغ غايته، ثم حصاد سنبله واستخراج حبه من غلافه، وإحكام الأعمال لذلك، وتحصيل أسبابه ودواعيه. وهى أقدم الصنائع لما أنها مُحَصِّلَة للقوت المكمل لحياة الإنسان غالبًا،

(١٢٤١) يقصد الصنائع الثلاث الأخيرة وهى: الطب ويدخل فيه التوليد؛ والكتابة وتتبعها الوراقة، والغناء.

إذ يمكن وجوده من دون جميع الأشياء إلا من دون القوت. ولهذا اختصت هذه الصناعة بالبدو. وإذ قدمنا أنه أقدم من الحضر وسابق عليه[١٢٤٢]،فكانت هذه الصناعة لذلك بدوية لا يقوم عليها الحضر ولا يعرفونها، لأن أحوالهم كلها ثانية على البداوة، فصنائعهم ثانية عن صنائعها وتابعة لها. والله سبحانه وتعالى مقيم العباد فيما أراد.

٢٥ـ فصل فى صناعة البناء

هذه الصناعة أول صنائع العمران الحضرى وأقدمها، وهى معرفة العمل فى اتخاذ البيوت والمنازل للكنِّ[١٢٤٢ب] والمأوى للأبدان فى المدن. وذلك أن الإنسان لما جبل عليه من الفكر فى عواقب أحواله لابد أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى من الحر والبرد، كاتخاذ البيوت المكتنفة بالسقف والحيطان من سائر جهاتها. والبشر مختلف فى هذه الجبلة الفكرية، فمنهم المعتدلون فيها يتخذون ذلك باعتدال كأهالى الثانى والثالث والرابع والخامس والسادس[١٢٤٣] وأما أهل البدو فبعيدون عن اتخاذ ذلك لقصور أفكارهم عن إدراك الصنائع البشرية فيبادرون للغيران والكهوف المعدة من غير علاج.

ثم المعتدلون المتخذون للمأوى قد يتكاثرون فى البسيط الواحد، بحيث يتناكرون ولا يتعارفون، فيخشون طروق بعضهم بعضًا، فيحتاجون إلى حفظ مجتمعهم بإدارة ماء أو أسوار تحوطهم، ويصير جميعًا مدينة واحدة ومصرًا واحدًا، ويحوطهم الحكام من داخل يدفع بعضهم عن بعض؛ وقد يحتاجون إلى الانتصاف ويتخذون المعاقل والحصون لهم ولمن تحت أيديهم مثل الملوك ومن فى معناهم من الأمراء وكبار القبائل فى المدن، كل مدينة على ما يتعارفون ويصطلحون عليه، ويتناسب مزاج هوائهم واختلاف أحوالهم فى الغنى والفقر.

وكذا حال أهل المدينة الواحدة، فمنهم من يتخذ القصور والمصانع العظيمة

(١٢٤٢) تقدم ذلك فى الفصل الثالث من الباب الثانى صفحتى ٤٧٣، ٤٧٤.

(١٢٤٢ب) فى «ن»: للسكن.

(١٢٤٣) يقصد أهالى الأقاليم الثانى إلى السادس، وهى التى تقدم ذكرها فى المقدمة الثانية من الباب الأول (انظر صفحات ٢٦٨-٢٩١).

الساحة المشتملة على عدة الدور والبيوت والغرف الكبيرة لكثرة وُلْده وحشمه وعياله وتابعه، ويؤسس جدرانها بالحجارة ويلحم بينها بالكلْس(١٢٤٤) ويعالى عليها بالأصبغة والجِص، ويبالغ فى ذلك بالتنجيد[٣٧٥] والتنميق إظهارًا للبسطة بالعناية فى شأن المأوى. ويهيئ مع ذلك الأسراب والمطامير للاختزان لأقواته، والاصطبلات لربط مُقْرَباته(١٢٤٥) إذا كان من أهل الجنود وكثرة التابع والحاشية كالأمراء ومن فى معناهم. ومنهم من يبنى الدويرة والبُيَيْت(١٢٤٦) لنفسه وسكنه وولده لا يبتغى ما وراء ذلك، لقصور حاله عنه واقتصاره على الكن الطبيعى للبشر. وبين ذلك مراتب غير منحصرة.

وقد يحتاج لهذه الصناعة أيضًا عند تأسيس الملوك وأهل الدول المدنَ العظيمة والهياكل المرتفعة، ويبالغون فى إتقان الأوضاع وعلو الأجرام مع الإحكام لتبلغ الصناعة مبالغها. وهذه الصناعة هى التى تحصل الدواعى لذلك.

وأكثر ما تكون هذه الصناعة فى الأقاليم المعتدلة من الرابع[١٢٤٣] وماحواليه، إذ الأقاليم المنحرفة لا بناء فيها، وإنما يتخذون البيوت حظائر من القصب والطين (ويأوون إلى الكهوف والغيران)(١٢٤٦ب).

وأهل هذه الصناعة القائمون عليها متفاوتون: فمنهم البصير الماهر؛ ومنهم القاصر. ثم هى تتنوع أنواعا كثيرة. فمنها البناء بالحجارة المُنَجَّدَة[٣٥٧] يقام بها الجدران ملصقًا بعضها إلى بعض بالطين والكلس[١٢٤٤] الذى يعقد معها ويلتحم كأنها جسم واحد. ومنها البناء بالتراب خاصةً يُتَّخذ لها لوحان من الخشب مقدران طولا وعرضًا باختلاف العادات فى التقدير، وأوسطه أربع أذرع، فى ذراعين، فينصبان على أساس، وقد بوعد ما بينهما بما يراه صاحب البناء فى عرض الأساس، ويوصل بينهما بأذرعٍ من الخشب يربط عليها بالحبال والجدر،

(١٢٤٤) الكِلس بالكسر: الصاروج وهو النُّورة وأخلاطها. وقد كلست الحائط طليتها بالكلس. ويستخدم كذلك ملاطا.

(١٢٤٥) «المُقْرَبَة: الفرس التى تُدْنى وتُقْرب وتكرم ولا تترك وهو مقرب، أو يُفْعل ذلك بالإناث لئلا يقرعها فحل لئيم، ومن الإبل التى حزمت للركوب» (القاموس).

(١٢٤٦) وردت هذه الكلمة محرفة فى النسخ المتداولة. ففى «ل» و«م» و«ن»: «البيوت». وفى النسخة «التيمورية»: «البيويب».

(١٢٤٦ب) هكذا فى النسخة «التيمورية». وقد حرفت هذه الجملة فى النسخ المتداولة إلى هذه الصيغة الغريبة: «وإنما يوجد فى الأقاليم المعتدلة له».

ويسند الجهتان الباقيتان من ذلك الخلاء بينهما بلوحين آخرين صغيرين، ثم يوضع فيه التراب مخلطا بالكلس[١٢٤٤]، ويركز بالمراكز المعدة حتى ينعم ركزه وتختلط أجزاؤه، ثم يزاد التراب ثانيًا وثالثًا إلى أن يمتلئ ذلك الخلاء بين اللوحين، وقد تداخلت أجزاء الكلس والتراب وصارت جسما واحداً. ثم يعاد نصب اللوحين على الصورة، ويركز كذلك إلى أن يتم وينظم الألواح كلها سطراً من فوق سطر إلى أن ينتظم الحائط كله ملتحما كأنه قطعة واحدة. ويسمى الطابية وصانعه الطوّاب.

ومن صنائع البناء أيضاً أن تُجَلل الحيطان بالكِلس[١٢٤٤] بعد أن يحل بالماء ويخمر أسبوعا أو أسبوعين على قدر ما يعتدل مزاجه عن إفراط النارية المفسدة للإلحام، فإذا تم له ما يرضاه من ذلك علاه من فوق الحائط وذلك إلى أن يلتحم.

ومن صنائع البناء عمل السقف بأن يُمَد الخُشبُ المحكمة النجارة أو الساذجة على حائطى البيت، ومن فوقها الألواح كذلك موصلة بالدساتر[١٢٤٧]، ويصب عليها التراب والكِلْس[١٢٤٤]، ويبسط بالمراكز حتى تتداخل أجزاؤها وتلتحم ويعالى عليها الكلس كما يعالى على الحائط.

ومن صناعة البناء ما يرجع إلى التنميق والتزيين كما يُصنع من فوق الحيطان الأشكال المجسمة من الجِصّ يخمر بالماء ثم يرجع جسداً وفيه بقية البلل، فيشكل على التناسب تخريماً بمثاقب الحديد إلى أن يبقى له رونقا ورواء. وربما عولى على الحيطان أيضاً بقطع الرخام والآجر والخزف أو بالصدف أو السَّبَج[١٢٤٨]، يفصل أجزاء متجانسة أو مختلفة، وتوضع فى الكِلْس على نسب وأوضاع مقدرة عندهم يبدو به الحائط للعِيَان كأنه قطع الرياض المَنمنمة[١٢٤٨ب]، إلى غير ذلك من بناء الجباب والصهاريج ليسح الماء بعد أن تعد فى البيوت قصاع الرخام القَوْراء[٨٤٦] المحكمة الخرط بالفوهات فى وسطها لنبع الماء الجارى إلى الصهريج، ويجلب إليه من خارج القنوات المفضية إلى البيوت. وأمثال ذلك من أنواع البناء.

(١٢٤٧) هكذا فى بعض النسخ، وفى نسخ أخر بالدسائر. وكلتا الكلمتين محرفة على ما يظهر لى. ولعل صوابها «بالدسائر» وهو واحد «الدُّسُر» وهى المسامير؛ قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ (آية ١٢ من سورة القمر وهى سورة ٥٤). أو لعل «الدسائر» جمع لكلمة «الدسر»، فتكون جمعا للجمع.

(١٢٤٨) السَّبَج خرز معروف الواحدة سبجة مثل قصب وقصبة (المصباح). وفى النسخة «التيمورية»: «الرِّبج» وهو الدرهم الصغير الخفيف (من القاموس) وفى «ن»: «بالسيج»، وهى تحريف.

(١٢٤٨ب) من نمنمه إذا زخرفه وزينه.

وتختلف الصناع في جميع ذلك باختلاف الحذق والبصر؛ ويعظم عمران المدينة ويتسع فيكثرون. وربما يرجع الحكام إلى نظر هؤلاء فيما هم أبصر به من أحوال البناء. وذلك أن الناس في المدن لكثرة الازدحام والعمران يتشاحون(١٢٤٨ج) حتى في الفضاء والهواء للأعلى والأسفل، ومن الانتفاع بظاهر البناء مما يتوقع معه حصول الضرر في الحيطان فيمنع جاره من ذلك، إلا ما كان له فيه حق، ويختلفون أيضًا في استحقاق الطرق والمنافذ للمياه الجارية والفضلات المسربة في القنوات. وربما يدعي بعضهم حق بعض في حائطه أو علوه أو قناته لتضايق الجوار، أو يدَّعي بعضهم على جاره اختلال حائطه خشية سقوطه، ويحتاج إلى الحكم عليه بهدمه ودفع ضرره عن جاره عند من يراه، أو يحتاج إلى قسمة دار أو عَرْصة(١٢٤٩) بين شريكين، بحيث لا يقع معها فساد في الدار ولا إهمال لمنفعتها وأمثال ذلك، ويخفى جميع ذلك إلا على أهل البصر العارفين بالبناء وأحواله، المستدلين عليها بالمعاقد والقمط ومراكز الخشب وميل الحيطان واعتدالها وقسم المساكن على نسبة أوضاعها ومنافعها، وتسريب المياه في القنوات مجلوبة ومرفوعة بحيث لا تضر بما مرت عليه من البيوت والحيطان وغير ذلك؛ فلهم بهذا كله البصر والخبرة التي ليست لغيرهم. وهم مع ذلك يختلفون بالجودة والقصور في الأجيال باعتبار الدول وقوتها. فإنا قدمنا أن الصنائع وكمالها إنما هو بكمال الحضارة، وكثرتها بكثرة الطلب لها(١٢٤٩ب).

فلذلك عندما تكون الدولة بدوية في أول أمرها تفتقر في أمر البناء إلى غير قطرها، كما وقع للوليد بن عبدالملك حين أجمع على بناء مسجد المدينة والقدس ومسجده بالشام، فبعث إلى ملك الروم بالقسطنطينية في الفَعَلَة المهرة في البناء فبعث إليه من حصَّل له غرضه من تلك المساجد.

وقد يعرف صاحب هذه الصناعة أشياء من الهندسة مثل تسوية الحيطان بالوزن وإجراء المياه بأخذ الارتفاع، وأمثال ذلك، فيحتاج إلى البصر بشيء من مسائله. وكذلك في جر الأثقال بالهندام[١٠٩١]، فإن الأجرام العظيمة إذا شيدت

(١٢٤٨ج) تشاحّ القوم بالتضعيف: إذا شح بعضهم علي بعض من الشح وهو البخل (من المصباح).

(١٢٤٩) العَرْصة ساحة الدار وهى القطعة الواسعة التى ليس فيها بناء، أو كل بقعة ليس فيها بناء، والجمع عِراص وعَرْصات.

(١٢٤٩ب) انظر الفصلين ١٨، ١٩ من هذا الباب صفحات ٨٦٣-٨٦٥.

بالحجارة الكبيرة تعجز قُدَرُ الفعلة عن رفعها إلى مكانها من الحائط، فيُتحيل لذلك بمضاعفة الحبل بإدخاله فى المعالق[٩٤] من أثقاب مقدرة على نسب هندسية تُصَيِّر الثقيل عند معاناة الرفع خفيفا فيتم المراد من ذلك بغير كلفة، وهذا إنما يتم بأصول هندسية معروفة متداولة بين البشر. وبمثلها كان بناء الهياكل الماثلة لهذا العهد حسب الناس أنها من بناء الجاهلية وأن أبدانهم كانت على نسبتها فى العظم الجسمانى وليس كذلك، وإنما تم لهم ذلك بالحيل الهندسية كما ذكرناه[(١٢٤٩ج)]. فتفهم ذلك، والله يخلق ما يشاء سبحانه.

٢٦ـ فصل فى صناعة النجارة

هذه الصناعة من ضروريات العمران، ومادتها الخشب. وذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل للآدمى فى كل مُكوَّنٍ من المكونات منافع تكمل بها ضروراته أو حاجاته[٤٣٩ب]. وكان منها الشجر فإن له فيه من المنافع مالا ينحصر مما هو معروف لكل أحد. ومن منافعها اتخاذها خشباً إذا يبست. وأول منافعه أن يكون وقوداً لنيران فى معاشهم وعصيّاً للاتكاء والذود وغيرهما من ضرورياتهم، ودعائم لما يخشى ميله من أثقالهم. ثم بعد ذلك منافع أخرى لأهل البدو والحضر فأما أهل البدو فيتخذون منها العُمُد والأوتاد لخيامهم، والحُدوج[(١٢٥٠)] لظعائنهم[٨٢٨]، والرماح والقِسِيَّ والسهام لسلاحهم؛ وأما أهل الحضر فالسقفَ لبيوتهم والأغلاقَ[(١٢٥١)] لأبوابهم والكراسى لجلوسهم. وكل واحدة من هذه فالخشبة مادة لها، ولا تصير إلى الصورة الخاصة بها إلا بالصناعة.

والصناعة المتكفلة بذلك المحصلة لكل واحد من صورها هى النجارة على اختلاف رتبها. فيحتاج صاحبها إلى تفصيل الخشب أولاً إما بخشب أصغر منه أو ألواح. ثم يركب تلك الفصائل بحسب الصور المطلوبة. وهو فى كل ذلك

(١٢٤٩ج) انظر صفحتى ٧٨٨-, ٧٨٩
(١٢٥٠) الحدْج: مركب للنساء كالمحَفَّة، وجمعه حُدوج وأحداج» (القاموس).
(١٢٥١) الغَلَق والمغلاق: هو ما يغلق به الباب وجمعه أغلاق (من القاموس).

يحاول بصنعته إعداد تلك الفصائل بالانتظام إلى أن تصير أعضاء لذلك الشكل المخصوص. والقائم على هذه الصناعة هو النجار. وهو ضرورى فى العمران. ثم إذا عظمت الحضارة، وجاء الترف، وتأنق الناس فيما يتخذونه من كل صنف من سقف أو باب أو كرسى أو ماعون، حدث التأنق فى صناعة ذلك واستجادته بغرائب من الصناعة كمالية ليست من الضرورى فى شىء، مثل التخطيط فى الأبواب والكراسى، ومثل تهيئة القطع من الخشب بصناعة الخرط يُحْكم بريها وتشكيلها، ثم تؤلف على نسب مقدرة وتلحم بالدساتر[١٢٤٧] فتبدو لرأى العين ملتحمة، وقد أخذ منها اختلاف الأشكال على تناسب يُصْنَعُ هذا فى كل شىء يتخذ من الخشب فيجىء آنَقَ ما يكون وكذلك فى جميع ما يحتاج إليه من الآلات المتخذة من الخشب من أى نوع كان.

وكذلك قد يحتاج إلى هذه الصناعة فى إنشاء المراكب البحرية ذات الألواح والدُّسُر[١٢٤٧]، وهى أجرام هندسية صنعت على قالب الحوت واعتبار سبحه فى الماء بقوادمه وكلْكله[(١٢٥٢)]، ليكون ذلك الشكل أعون لها فى مصادمة الماء، وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التى للسمك تحريك الرياح، وربما أعينت بحركة المجاذيف[(١٢٥٢ب)] كما فى الأساطيل.

وهذه الصناعة من أصلها محتاج إلى أصل كبير من الهندسة فى جميع أصنافها؛ لأن إخراج الصور من القوة إلى الفعل على وجه الإحكام محتاج إلى معرفة التناسب فى المقادير، إما عمومًا أو خصوصًا. وتناسب المقادير لابد فيه من الرجوع إلى المهندس.

ولهذا كان أئمة الهندسة اليونانيون كلهم أئمة فى هذه الصناعة؛ فكان أوقليدس صاحب كتاب الأصول فى الهندسة نجارًا وبها كان يعرف، وكذلك أبلونيوس صاحب كتاب المخروطات وميلاوش وغيرهم. وفيما يقال: إن معلم هذه الصناعة فى الخليقة هو نوح عليه السلام، وبها أنشأ سفينة النجاة التى كانت بها معجزته عند الطوفان. وهذا الخبر وإن كان ممكنًا[١١]، أعنى كونه نجارًا، إلا أن كونه أول من علمها أو تعلمها لا يقوم دليل من النقل عليه لبعد الآماد. وإنما معناه والله أعلم، الإشارة إلى قدم النجارة؛ لأنه لم يصح حكاية

(١٢٥٢) الكلكل: الصدر.

(١٢٥٢ب) المِجْذاف ما تُجْذَف به السفينة، بالذال والدال، وجمعه مجاذيف (من الصحاح).

عنها قبل خبر نوح عليه السلام، فجعل كأنه أول من تعلمها. فتفهم أسرار الصنائع فى الخليقة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

٢٧ - فصل فى صناعة الحياكة والخياطة

هاتان الصناعتان ضروريتان فى العمران لما يحتاج إليه البشر من الرَّفْه٥٠٧ فالأولى لنسج الغزل من الصوف والكتان والقطن إسداء فى الطول وإلحاماً(١٢٥٢جـ) فى العرض، (وإحكاما)(١٢٥٣) لذلك النسج بالالتحام الشديد فيتم منها قطع مقدرة؛ فمنها الأكسية من الصوف للاشتمال(١٢٥٤)، ومنها الثياب من القطن والكتان للباس. والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات على اختلاف الأشكال والعوائد. تفصل أولا بالمقراض(١٢٥٥) قطعاً مناسبة للأعضاء البدنية، ثم تلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلا أو تنبيتاً أو تفسحًا على حسب نوع الصناعة.

وهذه الثانية مختصة بالعمران الحضرى؛ لما أن أهل البدو يستغنون عنها، وإنما يشتملون١٢٥٤ الأثواب اشتمالا؛ وأنما تفصيل الثياب وتقديرها وإلحامها بالخياطة للباس من مذاهب الحضارة وفنونها. وتفهم هذا فى سر تحريم المخيط فى الحج لما أن مشروعية الحج مشتملة على نبذ العلائق الدنيوية كلها والرجوع إلى الله تعالى كما خلقنا أول مرة، حتى لا يعلق العبد قلبه بشىء من عوائد ترفه، لا طيبًا ولا نساء ولاّ مخيطًا ولا خفا، ولا يعرض لصيد ولا لشىء من عوائده التى تلونت بها نفسه وخلقه، مع أنه يفقدها بالموت ضرورة، وإنما يجىء كأنه وارد إلى المحشر ضارعًا بقلبه مخلصًا لربه؛ وكان جزاؤه إن تم له إخلاصه فى ذلك أن يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه. سبحانك ما أرفقك بعبادك وأرحمك بهم فى طلب هدايتهم إليك.

(١٢٥٢جـ) أسدى الثوب: نسج سداه وهو ما مُدّ منه، وألحمه نسج لحمته وهى الخيوط المؤلفة لعرضه.

(١٢٥٣) هذه الكلمة ساقطة من جميع النسخ المتداولة، وقد وجدناها مثبتة فى النسخة «التيمورية» وبدونها لا يستقيم المعنى.

(١٢٥٤) اشتمل بالثوب: أداره على جسده كله حتى لا تخرج منه يده.

(١٢٥٥) المقراض: المقص.

وهاتان الصنعتان قديمتان فى الخليقة لما أن الدفء ضرورى للبشر فى العمران المعتدل. وأما المنحرف إلى الحر فلا يحتاج أهله إلى دفء. ولهذا يبلغنا عن أهل الإقليم الأول[١٢٤٣] من السودان أنهم عراة فى الغالب. ولقدم هذه الصنائع ينسبها العامة إلى إدريس عليه السلام، وهو أقدم الأنبياء. وربما ينسبونها إلى هرمس[١٢٥٦]. وقد يقال: إن هرمس هو إدريس. والله سبحانه وتعالى هو الخلاق العليم.

٢٨ - فصل فى صناعة التوليد

وهى صناعة يعرف بها العمل فى استخراج المولود الآدمى من بطن أمه من الرفق فى إخراجه من رحمها وتهيئة أسباب ذلك، ثم ما يصلحه بعد الخروج على ما نذكر. وهى مختصة بالنساء فى غالب الأمر، لما أنهن الظاهرات بعضهن على عورات بعض. وتسمى القائمة على ذلك منهن القابلة. استعير فيها معنى الإعطاء والقبول، كأن النُّفَساء[١٢٥٦ب] تعطيها الجنين وكأنها تقبله.

وذلك أن الجنين إذا استكمل خلقه فى الرحم وأطوارَه وبلغ إلى غايته والمدة التى قدر الله لمكثه، وهى تسعة أشهر فى الغالب، فيطلب الخروج بما جعل الله فى المولود من النزوع لذلك، ويضيق عليه المنفذ فيعسر، وربما مزق بعض جوانب الفرج بالضغط، وربما تَقَطَّع بعض ما كان فى الأغشية من الالتصاق والالتحام بالرحم. وهذه كلها آلام يشتد لها الوجع وهو معنى الطلْق، فتكون القابلة معينة فى ذلك بعض الشىء بغمز الظهر والوركين وما يحاذى الرحم من الأسافل، تساوق بذلك فعل الدافعة فى إخراج الجنين، وتسهيل ما يصعب منه بما يمكنها، وعلى ما تهتدى إلى معرفة عسره. ثم إذا خرج الجنين بقيت بينه وبين الرحم

(١٢٥٦) هرمس Hermès (هكذا اسمه عند اليونان، ويسميه الرومان مركور Mercure، ويسميه العرب عطارد) من آلهة اليونان والرومان. يعتقدون أنه ابن كبير آلهتهم زوس (جوبيتير). وهو رسول زوس ووحيه الأمين إلى الآلهة والخلق. وهو كذلك إله الخطابة والبيان والتجارة.. ووظائف أخرى. (انظر كتابنا «فى غرائب النظم والتقاليد والعادات» الجزء الأول. صفحة ٤٣). ولعل ابن خلدون يقصد شخصا آخر.

(١٢٥٦ب) النُّفَساء: المرأة فى حالة النفاس بعد الولادة.

الوصلة حيث كان يتغذى منها متصلة من سرته بمعاه، وتلك الوصلة عضو فضلى لتغذية المولود خاصة، فتقطعها القابلة من حيث لا تتعدى مكان الفضلة ولا تضر بمعاه ولا برحم أمه، ثم تدمل مكان الجراحة منه بالكى أو بما تراه من وجوه الاندمال. ثم إن الجنين عند خروجه فى ذلك المنفذ الضيق، وهو رطب العظام سهل الانعطاف والانثناء، فربما تتغير أشكال أعضائه وأوضاعها لقرب التكوين ورطوبة المواد، فتتناوله القابلة بالغمز والإصلاح، حتى يرجع كل عضو إلى شكله الطبيعى ووضعه المقدر له، ويرتد خلقه سويًا. ثم بعد ذلك تراجع النُّفَساء وتحاذيها بالغمز والملاينة لخروج أغشية الجنين، لأنها ربما تتأخر عن خروجه قليلاً، ويخشى عند ذلك أن تراجع الماسكة حالها الطبيعية قبل استكمال خروج الأغشية، وهى فضلات فتعفن ويسرى عفنها إلى الرحم فيقع الهلاك، فتحاذر القابلة هذا وتحاول فى إعانة الدفع إلى أن تخرج تلك الأغشية إن كانت قد تأخرت، ثم ترجع إلى المولود فتُمَرِّخ(١٢٥٧) أعضاءه بالأدهان والذَّرُورات(١٢٥٨) القابضة لتشده، وتجفف رطوبات الرحم، وتُحَنِّكه(١٢٥٩) لرفع لهاته وتُسْعطه(١٢٦٠) لاستفراغ نُطُوف(١٢٦١) دماغه وتغرغره باللَّعُوق(١٢٦٢) لدفع السُّدَد(١٢٦٣) مَن معاه وتجويفها عن الالتصاق. ثم تداوى النُّفَساء(١٢٥٦ب) بعد ذلك من الوهن الذى أصابها بالطلق، وما لحق رحمها من ألم الانفصال، إذ المولود إن يكن عضواً طبيعيًا فحالة التكوين فى الرحم صيرته بالالتحام كالعضو المتصل، فلذلك كان فى انفصاله ألم يقرب من ألم القطع. وتداوى مع ذلك ما يلحق الفرج من ألم من جراحة التمزيق عند الضغط فى الخروج. وهذه كلها أدواء نجد هؤلاء القوابل أبصر بدوائها. وكذلك ما يعرض للمولود مدة الرضاع من أدواء فى بدنه إلى حين الفِصال(١٢٦٤) نجدهن أبصر بها

(١٢٥٧) «مرخ الجسم: دهنه بالمروخ، وهو ما يُمرَخ به البدن من دهن وغيره، كمرَّخه» (القاموس).

(١٢٥٨) جمع ذَرور وهو ما يُذر فى العين ونحوها من مساحيق (من القاموس). والذرور كذلك نوع خاص من الطيب قال الزمخشرى: هو فتات قصيب الطيب وهو قصب يؤتى به من الهند (من المصباح).

(١٢٥٩) «حَنَّكه تحنيكا دلك حنكه» (القاموس).

(١٢٦٠) «سعطه الدواءَ وأسعطه إياه: أدخله فى أنفه، والسَّعوط كل دواء يُسْعط مما له حرارة أو يدنى من الأنف ليجد ريحه وحرَّه، ويسمى كذلك النَّشوق» (من القاموس).

(١٢٦١) جمع نَطَف وهو العيب والشر والفساد (من القاموس).

(١٢٦٢) «اللَّعوق كصبور ما يلعق» (القاموس).

(١٢٦٣) السُّدَّة بالضم: باب الدار والفتحة والجمع سُدَد مثل غرفة وغرف (من الصحاح والقاموس) والمقصود فتحات أمعائه، أى لمنع فتحات أمعائه وتجاويفها من الانسداد.

(١٢٦٤) «فصلت المرأة رضيعها: فطمته والاسم: الفِصال بالكسر» (المصباح). انظر كذلك تعليق رقم٣٦٢.

من الطبيب الماهر. وما ذاك إلا لأن بدن الإنسان فى تلك الحالة إنما هو بدن إنسانى بالقوة فقط، فإذا جاوز الفصال صار بدنًا إنسانيًا بالفعل، فكانت حاجته حينئذ إلى الطبيب أشدّ فهذه الصناعة ـ كما تراه ـ ضرورية فى العمران للنوع الإنسانى لا يتم كون أشخاصه فى الغالب دونها.

وقد يعرض لبعض أشخاص النوع الاستغناء عن هذه الصناعة: إما بخلق الله ذلك لهم معجزة وخرقًا للعادة كما فى حق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم؛ أو بإلهام وهداية يلهم لها المولود ويُفطر عليها، فيتم وجودهم من دون هذه الصناعة. فأما شأن المعجزة من ذلك فقد وقع كثيرا. ومنه ما روى أن النبى ﷺ ولد مسرورًا(١٢٦٥) مختونًا واضعًا يديه على الأرض شاخصًا ببصره إلى السماء. وكذلك شأن عيسى فى المهد وغير ذلك. وأما شأن الإلهام فلا ينكر: وإذا كانت الحيوانات العُجْم تختص بغرائب من الإلهامات كالنحل وغيرها(١٢٦٦)، فما ظنك بالإنسان المفضل عليها وخصوصًا بمن اختص بكرامة الله(١٢٦٦ب)، ثم الإلهام العام للمولودين فى الإقبال على الثدى أوضح شاهد على وجود الإلهام العام لهم، فشأن العناية الإلهية أعظم من أن يحاط به. ومن هنا يفهم بطلان رأى الفارابى وحكام الأندلس فيما احتجوا به لعدم انقراض الأنواع، واستحالة انقطاع المكونات، وخصوصًا فى النوع الإنسانى. وقالوا لو انقطعت أشخاصه لاستحال وجودها بعد ذلك، لتوقفه على هذه الصناعة التى لا يتم كون الإنسان إلا بها، إذ لو قدرنا مولوداً دون هذه الصناعة وكفالتها إلى حين الفصال[٣٦٢] لم يتم بقاؤه أصلا. ووجود الصنائع دون الفكر ممتنع لأنها ثمرته وتابعة له. وتكلف ابن سينا فى الرد على هذا الرأى لمخالفته إياه، وذهابه إلى إمكان انقطاع الأنواع، وخراب عالم التكوين، ثم عوده ثانيًا لاقتضاءات فلكية وأوضاع غريبة تندر فى الأحقاب بزعمه، فتقتضى تخمير طينة مناسبة لمزاجه بحرارة مناسبة فيتم كونه إنسانًا، ثم يُقيَّض له حيوان يُخلق فيه إلهام لتربيته والحنو عليه، إلى أن يتم وجوده وفصاله[٣٦٣]. وأطنب فى بيان ذلك فى الرسالة التى سماها رسالة

(١٢٦٥) «سرَّ الصبىَّ: قطع سرَّه وقد سُرَّ الصبىُّ بالبناء للمجهول أى قُطِع سُرُّه فهوه مسرور أى مقطوع السُّرِّ» (من الصحاح).

(١٢٦٦) إشارة إلى قوله تعالى: : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ...﴾ الآيات (آية ٦٨ وتوابعها من سورة النحل وهى سورة ١٦).

(١٢٦٦ب) يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ﴾ (آية ٧٠ من سورة الإسراء، وهى سورة ١٧).

حى بن يقظان[١٢٦٧]. وهذا الاستدلال غير صحيح، وإن كنا نوافقه على انقطاع الأنواع، ولكن من غير ما استدل به؛ فإن دليله مبنى على إسناد الأفعال إلى العلة الموجِبة[١٢٦٨]، ودليل القول بالفاعل المختار[١٢٦٩] يرد عليه. ولا واسطة، على القول بالفاعل المختار، بين الأفعال والقدرة القديمة.

ولا حاجة إلى هذا التكلف. ثم لو سلمناه جدلا فغاية ما ينبنى عليه اطراد وجود هذا الشخص بخلق الإلهام لتربيته فى الحيوان الأعجم. وما الضرورة الداعية لذلك؟ وإذا كان الإلهام يُخلق فى الحيوان الأعجم فما المانع من خلقه للمولود نفسه كما قررناه أولا؟ وخلق الإلهام فى شخص لمصالح نفسه أقرب من خلقه فيه لمصالح غيره. فكلا المذهبين[١٢٧٠] شاهدان على أنفسهما بالبطلان فى مناحيهما لما قررته لك. والله تعالى أعلم.

٢٩ـ فصل فى صناعة الطب وأنها محتاج إليها فى الحواضر والأمصار دون البادية

هذه الصناعة ضرورية فى المدن والأمصار لما عرف من فائدتها، فإن ثمرتها حفظ الصحة للأصحاء، ودفع المرض عن المرضى بالمداواة حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم. واعلم أن أصل الأمراض كلها إنما هو من الأغذية، كما قال ﷺ فى الحديث الجامع للطب وهو قوله: «المعدة بيت الداء، والحِمْية رأس الدواء، وأصل كل داء البَـرْدة»[١٢٧١]. فأما قوله: «المعدة بيت الداء» فهو ظاهر. وأما قوله: «الحِمْـية رأس الدواء» فالحمية الجوع وهو الاحتماء من

(١٢٦٧) لابن سينا رسالة اسمها قصة حى بن يقظان: طبعت بمطبعة ليدن، وهى غير الكتاب المشهور «حى بن يقظان» لابن طفيل.

(١٢٦٨) أى إن الأفعال لا توجد إلا بعلة توجب وجودها.

(١٢٦٩) وهو الله تعالى الذى لا يحتاج إلى علة تتوسط بين إرادته وبين خلقه للأشياء.

(١٢٧٠) يقصد مذهب الفارابى فى عدم انقراض الأنواع ومذهب ابن سينا فى إمكان انقراضها وعودها ثانيا على الأوضاع الغريبة التى افترضها.

(١٢٧١) البَرْدة بسكون الراء وفتحها: التُّخَمة ـ هذا، والحديث المذكور حديث موضوع وقد أخذه الواضعون من كلام الحارث بن كَلَدة طبيب العرب كما حققه علماء الحديث.

الطعام، والمعنى أن الجوع هو الدواء العظيم الذى هو أصل الأدوية. وأما قوله: «أصل كل داء البَرْدة» فمعنى البرْدة إدخال الطعام على الطعام فى المعدة قبل أن يتم هضم الأول.

وشرح هذا أن الله سبحانه خلق الإنسان وحفظ حياته بالغذاء يستعمله بالأكل، وينفذ فيه القوى الهاضمة والغاذية إلى أن يصير دمًا ملائمًا لأجزاء البدن من اللحم والعظم، ثم تأخذه النامية فينقلب لحمًا وعظمًا. ومعنى الهضم طبخ الغذاء بالحرارة الغريزية طورًا بعد طور حتى يصير جزءًا بالفعل من البدن. وتفسيره أن الغذاء إذا حصل فى الفم ولاكته الأشداق أثرت فيه حرارة الفم طبخًا يسيرًا وقلبت مزاجه بعض الشىء كما تراه فى اللقمة إذا تناولتها طعامًا، ثم أجدتها مضغًا، فترى مزاجها غير مزاج الطعام، ثم يحصل فى المعدة فتطبخه حرارة المعدة إلى أن يصير كيموسًا وهو صفو ذلك المطبوخ، وترسله إلى الكبد، وترسل مارسب منه فى المعى ثُفْلًا[١٢٧١ب] ينفذ إلى المخرجين. ثم تطبخ حرارة الكبد ذلك الكيموس إلى أن يصير دمًا بيطًا وتطفو عليه رغوة من الطبخ هى الصفراء، وترسب منه أجزاء يابسة هى السواد، ويقصر الحار الغريزى بعض الشىء عن طبخ الغليظ منه فهو البلغم. ثم ترسلها الكبد كلها فى العروق والجداول ويأخذها طبخ الحار الغريزى هناك، فيكون عن الدم الخالص بخار رطب يمد الروح الحيوانى، وتأخذ النامية مأخذها فى الدم فيكون لحمًا، ثم غليظه عظامًا، ثم يرسل البدن ما يفضل عن حاجاته من ذلك فضلات مختلفة من العرق واللعاب والمخاط والدمع. هذه صورة الغذاء وخروجه من القوة إلى الفعل لحمًا[١٢٧٢].

(١٢٧١ب) «الثُّفْل مثل قُفل: حُثالة الشىء وهو الثخين الذى يبقى أسفل الصافى» (المصباح).

(١٢٧٢) تمثل الحقائق السابق ذكرها ما وصل إليه العلم بعناصر الجهاز الهضمى وإفرازاته ووظائفه فى العالم العربى فى عصر ابن خلدون. وغنى عن البيان أن البحوث العلمية التى جرت بعد ذلك عدلت كثيرا من هذه المعلومات، وكشفت عن خطأ كثير منها، وأضافت إليها حقائق جديدة. ويضيق المقام عن بيان هذه الأمور. على أنها أصبحت الآن من الأمور المعروفة حتى للمبتدئين من المتعلمين - ومن الأمور التى يبدو فيها خطأ المعلومات التى كانت سائدة فى هذا الصدد ما ذكره ابن خلدون عن مضغ الطعام وأن حرارة الفم هى التى تؤثر فيه، والحقيقة أن الذى يؤثر فيه هو مادة اللعابين التى تمتزج به، وماذكره عن هضم الطعام فى المعدة وأن حرارة المعدة هى التى تؤثر فى هضمه، والحقيقة أن الذى يؤثر فيه يتمثل فى الإفرازات التى تفرزها المعدة. ومثل هذا يقال فى جميع ما سيذكره من حقائق تتعلق بتدبير الصحة أو بالطب أو بعلم وظائف الأعضاء.

ثم إن أصل الأمراض ومعظمها هى الحميات. وسببها أن الحار الغريزى قد يضعف عن تمام النضج فى طبخه فى كل طور من هذه، فيبقى ذلك الغذاء دون نضج، وسببه غالبًا كثرة الغذاء فى المعدة حتى يكون أغلب على الحار الغريزى، أو إدخال الطعام إلى المعدة قبل أن تستوفى طبخ الأول، فيستقل به الحار الغريزى ويترك الأول بحاله، أو يتوزع عليهما فيقصر عن تمام الطبخ والنضج، وترسله المعدة كذلك إلى الكبد، فلا تقوى حرارة الكبد أيضًا على انضاجه، وربما بقى فى الكبد من الغذاء الأول فضلة غير ناضجة، وترسل الكبد جميع ذلك إلى العروق غير ناضج كما هو. فإذا أخذ البدن حاجته الملائمة أرسله مع الفضلات الأخرى من العرق والدمع واللعاب إن اقتدر على ذلك. وربما يعجز عن الكثير منه، فيبقى فى العروق والكبد والمعدة، وتتزايد مع الأيام. وكل ذى رطوبة من المتزجات إذا لم يأخذه الطبخ والنضج يعفن، فيتعفن ذلك الغذاء غير الناضج وهو المسمى بالخلط، وكل متعفن ففيه حرارة غريبة وتلك هى المسماة فى بدن الإنسان بالحمى. واختبر ذلك بالطعام إذا ترك حتى يتعفن وفى الزبل إذا تعفن أيضًا كيف تنبعث فيه الحرارة وتأخذ مأخذها. فهذا معنى الحميات فى الأبدان، وهى رأس الأمراض وأصلها كما وقع فى الحديث[١٢٧١].

وهذه الحميات علاجها بقطع الغذاء عن المريض أسابيع معلومة، ثم بتناوله الأغذية الملائمة حتى يتم برؤه. وذلك فى حال الصحة علاج فى التحفظ من هذا المرض وأصله كما وقع فى الحديث[١٢٧١]. وقد يكون ذلك العفن فى عضو مخصوص فيتولد عنه مرض فى ذلك العضو، ويحدث جراحات[١٢٧٢ب] فى البدن إما فى الأعضاء الرئيسية أو فى غيرها. وقد يمرض العضو ويحدث عنه مرض القوى الموجودة له. هذه كلها جِماع[١٢٧٣] الأمراض؛ وأصلُها فى الغالب من الأغذية؛ وهذا كله مرفوع إلى الطبيب.

ووقوع هذه الأمراض من أهل الحضر والأمصار أكثر، لخصب عيشهم، وكثرة مآكلهم، وقلة اقتصارهم على نوع واحد من الأغذية، وعدم توقيتهم لتناولها. وكثيرا ما يخلطون بالأغذية من التوابل والبقول والفواكه رطبا ويابسًا فى سبيل العلاج بالطبخ، ولا يقتصرون فى ذلك على نوع أو أنواع، فربما

(١٢٧٢ب) هكذا فى جميع النسخ، ولعلها «خُرَاجات» جمع خُراج كغراب.

(١٢٧٣) «جِمَاع الشىء بالكسر: جمعه، يقال جِمَاع الخباء أخبية، والخمر جِمَاع الإثم (الصحاح).

عددنا في اليوم الواحد من ألوان الطبخ أربعين نوعًا من النبات والحيوان، فيصير للغذاء مزاج غريب. وربما يكون غريبًا عن ملاءمة البدن وأجزائه. ثم إن الأهوية في الأمصار تفسد بمخالطة الأبخرة العفنة من كثرة الفضلات، والأهوية منشطة للأرواح ومقوية بنشاطها الأثر الحار الغريزي في الهضم. ثم الرياضة مفقودة لأهل الأمصار إذ هم في الغالب وادعون ساكنون لا تأخذ منهم الرياضة شيئًا، ولا تؤثر فيهم أثرا. فكان وقوع الأمراض كثيراً في المدن والأمصار، وعلى قدر وقوعه كانت حاجتهم إلى هذه الصناعة.

وأما أهل البدو فمأكولهم قليل في الغالب، والجوع أغلب عليهم لقلة الحبوب، حتى صار لهم ذلك عادة، وربما يظن أنها جبلّة لاستمرارها. ثم الأدْم[٢٤٧] قليلة لديهم أو مفقودة بالجملة. وعلاج الطبخ بالتوابل والفواكه إنما يدعو إليه ترف الحضارة الذين هم بمعزل عنه، فيتناولون أغذيتهم بسيطة بعيدة عما يخالطها، ويَقْرُب[١٢٧٣ب] مزاجها من ملاءمة البدن. وأما أهويتهم فقليلة العفن لقلة الرطوبات والعفونات إن كانوا آهلين[١٢٧٤] أو لاختلاف الأهوية إن كانوا ظواعن. ثم إن الرياضة موجودة فيهم لكثرة الحركة في ركض الخيل أو الصيد أو طلب الحاجات لمهنة أنفسهم في حاجاتهم. فيحسن بذلك كله الهضم ويجود ويفقد إدخال الطعام على الطعام، فتكون أمزجتهم أصلح وأبعد من الأمراض، فتقل حاجتهم إلى الطب. ولهذا لا يوجد الطبيب في البادية بوجه. وما ذاك إلا للاستغناء عنه؛ إذ لو احتيج إليه لوجد، لأنه يكون له بذلك في البدو معاش يدعوه إلى سكناه. سنة الله التي قد خلت في عباده، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

(١٢٧٣ب) كان الأولى أن يقول: فيقرب مزاجها من ملاء مة البدن»؛ وذلك أن بساطتها وبعدها عما يخالطها كل ذلك يجعل مزاجها قريبا من ملاء مة البدن.

(١٢٧٤) أهَل المكان أهُولا من باب قعد: عمر بأهله فهو آهل، وقرية آهلة عامرة. وقد أطلق ابن خلدون الوصف على الأفراد أنفسهم، فيقصد بالآهلين المقيمين. والظاعن المسافر من ظَعَن ظَعْنًا من باب نفع.

٣٠ـ فصل فى أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية

وهو رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما فى النفس؛ فهو ثانى رتبة من الدلالة اللغوية. وهو صناعة شريفة إذ الكتابة من خواص الإنسان التى يميز بها عن الحيوان. وأيضا فهى تُطْلِع على ما فى الضمائر وتتأدَّى بها الأغراض إلى البلد البعيد، فتُقضى الحاجاتُ، وقد دُفعت مئونةُ المباشرة لها، ويُطَّلع بها على العلوم والمعارف وصحف الأولين، وما كتبوه من علومهم وأخبارهم. فهى شريفة بهذه الوجوه والمنافع.

وخروجها فى الإنسان من القوة إلى الفعل إنما يكون بالتعليم. وعلى قدر الاجتماع والعمران والتناغى[٢٤٦] فى الكمالات والطلب لذلك تكون جودة الخط فى المدينة، إذ هو من جملة الصنائع، وقد قدمنا أن هذا شأنها وأنها تابعة للعمران ولهذا نجد أكثر البدو أميين لا يكتبون ولا يقرء ون. ومن قرأ منهم أو كتب فيكون الخط قاصرا وقراءته غير نافذة. ونجد تعليم الخط فى الأمصار الخارج عمرانها عن الحد أبلغ وأحسن وأسهل طريقًا، لاستحكام الصنعة فيها، كما يحكى لنا عن مصر لهذا العهد[١١٢٥]، وأن بها معلمين منتصبين لتعليم الخط يلقون على المتعلم قوانين وأحكامًا فى وضع كل حرف، ويزيدون إلى ذلك المباشرة بتعليم وضعه، فتعتضد لديه رتبة العلم والحس فى التعليم، وتأتى ملكته على أتم الوجوه. وإنما أتى هذا من كمال الصنائع ووفورها بكثرة العمران وانفساح الأعمال.

(وليس الشأن فى تعليم الخط بالأندلس والمغرب كذلك فى تعلم كل حرف بانفراده على قوانين يلقيها المعلم للمتعلم؛ وإنما يتعلم بمحاكاة الخط فى كتابة الكلمات جملة[١٢٧٥] ويكون ذلك من المتعلم

(١٢٧٥) من هذا يتبين أن الطريقة الحديثة التى تتبع الآن فى تعليم الهجاء، والتى يسميها علماء التربية، طريقة «الجشتالت» أو طريقة الكلمات والجمل، وهى التى تقتضى بأن يبدأ فى الهجاء برسم الكلمات والجمل كانت متبعة منذ عهد بعيد فى المغرب والأندلس، وهى أمثل طريقة من الوجهة التربوية لمسايرتها للواقع من جهة ولطبيعة العقل الإنسانى من جهة أخرى. فالواقع أن الكلمة هى التى لها =

ومطالعة المعلم له إلى أن تحصل له الإجادة، وتتمكن فى بنائه [١٢٧٥ب] الملكة فيسمى مجيداً)[١٢٧٦].

وقد كان الخط العربى بالغًا مبالغه من الإحكام والإتقان والجودة فى دولة التبابعة لِمَا بلغت من الحضارة والترف، وهو المسمى بالخط الحِمْيَرى. وانتقل منها إلى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نسباء التبابعة فى العصبية والمجددين لملك العرب بأرض العراق. ولم يكن الخط عندهم من الإجادة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين، وكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك. ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش فيما ذكر. ويقال: إن الذى تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية ويقال حرب بن أمية، وأخذها من أسلم بن سدرة، وهو قول ممكن، وأقرب ممن ذهب إلى أنهم تعلموها من إياد أهل العراق لقول شاعرهم:

قوم لهم ساحة العراق إذا ... ساروا جميعًا والخط والقلم

وهو قول بعيد لأن إياداً وإن نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا على شأنهم من البداوة؛ والخط من الصنائع الحضرية. وإنما معنى قول الشاعر أنهم أقرب إلى الخط والقلم من غيرهم من العرب، لقربهم من ساحة الأمصار وضواحيها. فالقول بأن أهل الحجاز إنما لقنوها من الحيرة ولقنها أهل الحيرة من التبابعة وحمير هو الأليق من الأقوال.

(ورأيت فى كتاب التكملة لابن الأبار عند التعريف بابن فروخ القيروانى الفاسى الأندلسى، من أصحاب مالك رضى الله عنه واسمه عبدالله بن فروخ عن عبدالرحمن بن زياد بن أنعم عن أبيه، قال: قلت لعبد الله بن عباس: يا معشر قريش خبرونى عن هذا الكتاب[١٢٧٧] العربى، هل كنتم تكتبونه قبل أن

= مدلول فى ذهن الطفل؛ أما الحرف فلا مدلول له. والعقل الإنسانى ينتقل بطبيعته من إدراك الكل إلى إدراك أجزائه (جشتالت) لا العكس - ومن هذا يتبين خطأ ابن خلدون فى تفضيله لطريقة المصريين فى عهده، وهى الطريقة التى تبدأ بالحروف فى تعليم الهجاء (انظر مؤلفاتنا: «عوامل التربية» صفحتى ٢١٤، ٢١٥؛ و«أصول التربية ونظام التعليم» صفحتى ١٢٣، ١٢٤؛ و«مواد الدراسة» صفحة ٣٣).

(١٢٧٥ب) هكذا فى الأصل؛ ويظهر أنها محرفة عن «بنانه» بالنون؛ لأن ملكة الخط ترسخ فى أصابع اليد.

(١٢٧٦) الموضوع بين هذين القوسين ( ) تزيد به طبعة باريس على الطبعات المتداولة (انظر صفحة ٣٢٩ من الجزء الثانى من طبعة كاترمير). وهو كذلك مثبت فى النسخة «التيمورية».

(١٢٧٧) مصدر كتب يكتب كَتْباً وكتابا، أى خبرونى عن هذه الكتابة العربية، أى الرسم العربى.

يبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم، تجمعون منه ما اجتمع وتفرقون منه ما افترق مثل الألف واللام والنون؟ قال: نعم. قلت: وممن اتخذتموه؟ قال: عن حرب ابن أمية. قلت: وممن أخذه حرب؟ قال :من عبدالله بن جدعان. قلت :وممن أخذه عبدالله بن جدعان؟ قال: من أهل الأنبار. قلت: وممن أخذه الأنبار؟ قال: من طارئ طرأ عليهم من أهل اليمن. قلت: وممن أخذه ذلك الطارئ؟ قال من الخلجان بن قاسم كاتب الوحى لهود النبى صلى الله عليه وسلم وهو الذى يقول:

أفى كل عام سُنَّة تحدثونها ... ورأى على غير الطريق يعيَّرُ

وللمْوت خير من حياة تسبُّنا ... بها جُرْهُمٌ فيمن يُسَبّ وحِمْيرُ(١٢٧٨)

انتهى ما نقله ابن الأبار فى كتاب «التكملة» وزاد فى آخره حدثنى بذلك أبو بكير بن أبى حميرة فى كتابه عن أبى بحر بن العاصى عن أبى الوليد الوقشى عن أبى عمر الطلمنكى بن أبى عبدالله بن مفرح، ومن خطه نقلته عن أبى سعيد بن يونس عن محمد بن موسى بن النعمان عن يحيى بن محمد بن خشيش بن عمر بن أيوب المغافرى التونسى عن بهلول بن عبيدة التجيبى(١٢٧٨ب) عن عبدالله بن فروخ. انتهى(١٢٧٩)).

وكان لحمْيرَ كتابة تسمى المسند حروفها منفصلة، وكانوا يمنعون من تعلمها إلا بإذنهم. ومن حمير تعلمت مصرُ الكتابة العربية، إلا أنهم لم يكونوا مجيدين لها شأن الصنائع إذا وقعت بالبدو، فلا تكون محكمة المذاهب ولا مائلة إلى الإتقان والتنميق، لبون ما بين البدو والصناعة، واستغناء البدو عنها فى الأكثر. فكانت كتابة العرب بدوية مثل كتابتهم أو قريباً من كتابتهم لهذا العهد، أو نقول إن كتابتهم لهذا العهد أحسن صناعة، لأن هؤلاء أقرب إلى الحضارة ومخالطة الأمصار والدول. وأما مضر فكانوا أعرق فى البدو وأبعد عن الحضر من أهل اليمن وأهل العراق وأهل الشام ومصر. فكان الخط العربى لأول الإسلام غير

(١٢٧٨) لا يخفى ما فى هذه الأسطورة من اختلاق. فعاد قوم هود كان لسانهم يختلف كل الاختلاف عن اللسان العربى القرشى، وأسلوب البيتين الركيكين المضطربين يدل هو نفسه على أنهما من صنع المحدثين فى العصر الإسلامى.

(١٢٧٨ب) هكذا فى النسخة «التيمورية». وفى طبعة باريس «الحمى».

(١٢٧٩) المحصور بين هذين القوسين (   ) تزيد به طبعة باريس على الطبعات المتداولة (انظر صفحتى ٣٤٠، ٣٤١ من الجزء الثانى من طبعة كاترمير) - وهو كذلك مثبت فى النسخة «التيمورية».

بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة، ولا إلى التوسط، لمكان العرب من البداوة والتوحش وبُعدهم عن الصنائع[١٢٨٠].

(١٢٨٠) بعض ما ذكره ابن خلدون عن أصل الخط العربى صحيح، وكثير منه غير صحيح. وتحرير القول فى هذا الموضوع نوجزه فيما يلى:

اجتاز الرسم العربى خمس مراحل:

١ ـ فأقدم رسم وصلت إلينا اللغة العربية مدونة به كان مشتقا من خط المسند (الرسم اليمنى القديم)، كما تدل على ذلك آثار اللغة العربية البائدة، وخاصة ثلاثة أنواع من النقوش وهى النقوش اللحيانية والنقوش الثمودية والنقوش الصفوية. وخط المسند، أو الخط الحميرى كما يسميه ابن خلدون، مشتق من الرسم الفينيقى، ويشبهه من عدة وجوه. ولكنه يمتاز عنه بجمال التنسيق والأشكال الهندسية المنظمة التى يتألف منها كثير من حروفه. ويرسم متفرق الحروف.

٢ ـ ثم أخذ الرسم النبطى، وهو نوع من أنواع الرسم الآرامى يمتاز بأن معظم حروفه تتصل بما قبلها، يتغلب فى تدوين اللغة العربية على هذا الرسم القديم، وينتقص من مناطق نفوذه ومواطن استخدامه شيئا فشيئا حتى قضى عليه ـ وأقدم أثر عربى وصل إلينا بعد هذا التطور «هو نقش النِّمارة».

٣ ـ ثم ظهر فى كتابة اللغة العربية نوع ثالث من الرسم مشتق من الرسم النبطى السابق، وممثل للرسم العربى فى أقدم أدواره. وبهذا النوع من الرسم دون نقشا زَبَد وحوران. وكلاهما لا يجد من يعرف الرسم العربى الحالى كبير عناء فى قراءته، وخاصة نقش حوران فإنه قريب جدا من الرسم الحالى.

٤ ـ ثم تأثر الرسم العربى بالرسم السريانى ودخلت فيه إصلاحات كثيرة منذ القرن السابع الميلادى، فتحول إلى رسم سريع تدون به المكاتبات العادية لا النقوش الأثرية وحدها كما كان شأن الرسم السابق، ودخل فيه نظام الإعجام للتمييز بين الحروف المتحدة الصورة المختلفة النطق (ب ت ث، ج ح خ، د ذ، ر ز، س ش، ص ض... إلخ) ـ ولكنه ظل طوال هذه المرحلة مقتصراً على الرمز إلى الأصوات الساكنة ومجردا من علامة للتمييز بين الحرف المشدد والمخفف.

٥ ـ ثم أدخل فى الرسم العربى نظام الرمز إلى أصوات المد الطويلة، واستخدم فى ذلك ثلاثة أحرف وضعت فى الأصل للرمز إلى ثلاثة أصوات وسط بين أصوات المد والأصوات الساكنة، وهى الهمزة والياء والواو. فأصبحت هذه الحروف مزدوجة الاستخدام: ترمز أحيانا إلى ما وضعت فى الأصل للرمز إليه (أكتب، يكتب، وعد)؛ وترمز أحيانا إلى أصوات المد الطويلة (كاتب. دليل، ملوك) ـ وأدخل فيه كذلك نظام الحركات، وهى علامات تشير إلى تحرك الحرف بصوت مد قصير وإلى خلوه من الحركة وإلى تشديده (الفتحة، الكسرة، الضمة، السكون، الشدة).

وأقدم أثر إسلامى وصل إلينا متضمنا بعض مظاهر من الإصلاحات التى أدخلت على الرسم العربى فى المرحلتين الأخيرتين (٤، ٥) هو حجر كشف فى مصر ومحفوظ فى دار الآثار العربية فى القاهرة وتدل عباراته على أنه كان نُصُبًا على قبر رجل يدعى عبدالرحمن بن خير أو جبر أو جابر أو جبير الحجرى أو الحجازى ويرجع تاريخه إلى سنة ٣١ للهجرة: (بسم الله الرحمن الرحيم هذا القبر لعبد الرحمن بن خير الحجرى اللهم اغفر له وأدخله فى رحمة منك.. إلخ).

غير أنه يظهر أن إصلاحات هذه المرحلة والمرحلة السابقة لم تكن قد كملت فى العهد الذى رسم فيه المصحف العثمانى، أو لم يكن استخدامها قد انتشر حينئذ كل الانتشار، أو لم يكن الصحابة ممن رسموا المصحف على علم تام بها (وإلى هذا الاحتمال يميل ابن خلدون فى الفقرة التالية للفقرة التى نعلق عليها)، أو أنهم قد تحرجوا من إدخالها فى رسم القرآن، فجاءت المصاحف العثمانية مجردة من الإعجام والشكل، وجاءت فيها كلمات كثيرة مجردة من حروف المد الطويلة، ورسمت فيها حروف كثيرة فى صور مضطربة غير صحيحة.

(انظر تفصيل هذا الموضوع وما يتصل به فى صفحات ٢٤٦ ـ ٢٦٦ من الطبعة الخامسة من كتابنا «فقه اللغة»).

وانظر ما وقع لأجل ذلك فى رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم، وكانت غير مستحكمة فى الإجادة، فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها. ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركا بما رسمه أصحاب رسول الله ﷺ، وخير الخلق من بعده المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه كما يقتفى لهذا العهد خط ولى أو عالم تبركا ويتبع رسمه خطأ أو صوابًا، وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه، فاتُّبِع ذلك وأُثْبت رسما ونبه العلماء بالرسم على مواضعه.

ولا تلتفتن فى ذلك إلى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط، وأن ما يتخيل من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ليس كما يتخيل بل لكلها وجه. ويقولون فى مثل زيادة الألف فى لا أذبحنه[١٢٨١]: إنه تنبيه على أن الذبح لم يقع، وفى زيادة الياء فى بأييد[١٢٨٢] إنه تنبيه على كمال القدرة الربانية، وأمثال ذلك مما لا أصل له إلا التحكم المحض. وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم أن فى ذلك تنزيها للصحابة عن توهم النقص فى قلة إجادة الخط، وحسبوا أن الخط كمال فنزهوهم عن نقصه، ونسبوا إليهم الكمال بإجادته، وطلبوا تعليل ما خالف الإجادة من رسمه. وذلك ليس بصحيح. واعلم أن الخط ليس بكمال فى حقهم؛ إذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية كما رأيته فيما مر؛ والكمال فى الصنائع إضافى وليس بكمال مطلق؛ إذ لا يعود نقصه على الذات فى الدين ولا فى الخلال؛ وإنما يعود على أسباب المعاش وبحسب العمران والتعاون عليه لأجل دلالته على ما فى النفوس. وقد كان ﷺ أميًّا وكان ذلك كمالا فى حقه، وبالنسبة إلى مقامه لشرفه وتنزهه عن الصنائع العملية التى هى أسباب المعاش والعمران كلها؛ وليست الأمية كمالا فى حقنا نحن إذ هو منقطع إلى ربه، ونحن متعاونون على الحياة الدنيا، شأن الصنائع كلها؛ حتى العلوم الاصطلاحية؛ فإن الكمال فى حقه هو تنزهه عنها جملة بخلافنا.

(١٢٨١) فى قوله تعالى حكاية عن سليمان: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ۝٢٠ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝٢١﴾ (آيتى ٢٠، ٢١ من سورة النمل، وهى سورة ٢٧). وترسم هذه الآية الأخيرة فى المصحف العثمانى على هذه الصورة: ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَاْذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾

(١٢٨٢) فى قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (آية ٤٧ من سورة الذاريات وهى سورة ٥١). وترسم هذه الآية فى المصحف العثمانى على هذه الصورة ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ويقولون فى تعليلها إن زيادة المبنى تدل على كمال المعنى.

ثم لما جاء الملك للعرب وفتحوا الأمصار وملكوا الممالك ونزلوا البصرة والكوفة، واحتاجت الدولة إلى الكتابة استعملوا الخط وطلبوا صناعته وتعلمه وتداولوه، فترقت الإجادة فيه، واستحكم وبلغ فى الكوفة والبصرة رتبة من الإتقان؛ إلا أنها كانت دون الغاية. والخط الكوفى معروف الرسم لهذا العهد.

ثم انتشر العرب فى الأقطار والممالك؛ وافتتحوا إفريقية والأندلس واختط بنو العباس بغداد وترقت الخطوط فيها إلى الغاية لما استبحرت[١١٣١ب] فى العمران وكانت دار الإسلام ومركز الدولة العربية (وخالفت أوضاع الخط ببغداد أوضاعه فى الكوفة، فى الميل إلى إجادة الرسوم وجمال الرونق وحسن الرواء، واستحكمت هذه المخالفة فى الأعصار إلى أن رفع رايتها ببغداد علىّ بن مقلة الوزير، ثم تلاه فى ذلك علىّ بن هلال الكاتب الشهير بابن البواب. ووقف سند تعليمها فى المائة الثالثة وما بعدها، وبعدت رسوم الخط البغدادى وأوضاعه عن الكوفة، حتى انتهت إلى المباينة. ثم ازدادت المخالفة بعد تلك العصور بتفنن الجهابذة فى إحكام رسومه وأوضاعه، حتى انتهت إلى المتأخرين مثل ياقوت والولى على العجمى؛ ووقف سند تعليم الخط عليهم؛ وانتقل ذلك إلى مصر، وخالفت طريقة العراق بعض الشىء، ولقنها العجم هناك، فظهرت مخالفة لخط أهل مصر أو مباينة)[١٢٨٣].

وكان الخط البغدادى معروف الرسم. وتبعه الإفريقى المعروف رسمه القديم لهذا العهد. ويقرب من أوضاع الخط المشرقى. وتحيز ملك الأندلس بالأمويين فتميزوا بأحوالهم من الحضارة والصنائع والخطوط، فتميز صنف خطهم الأندلسى كما هو معروف الرسم لهذا العهد.

وطما بحر العمران والحضارة فى الدول الإسلامية فى كل قطر، وعظم الملك، ونَفَقت[٤٤] أسواق العلوم وانتسخت الكتب وأجيد كَتْبُها[١٢٧٧] وتجليدها، وملئت بها القصور والخزائن الملوكية بما لا كِفاء[٩٦١] له وتنافس أهل الأقطار فى ذلك وتناغوا[٢٤٦] فيه.

ثم لما انحل نظام الدولة الإسلامية وتناقصت تناقص ذلك أجمع ودَرَست[١٤٧] معالم بغداد بدروس الخلافة، فانتقل شأنها من الخط والكتابة

(١٢٨٣) المحصور بين هذين القوسين (   ) تزيد به طبعة باريس عن النسخ المتداولة (انظر ص٣٤٤ من الجزء الثانى من طبعة كاترمير). وهو كذلك مثبت فى النسخة «التيمورية».

بل[٢٤٤] والعلم إلى مصر والقاهرة، فلم تزل أسواقه بها نافقة[٤٤] لهذا العهد، وله بها معلمون يرسمون للمتعلم الحروف بقوانين فى وضعها وأشكالها متعارفة بينهم، فلا يلبث المتعلم أن يحكم أشكال تلك الحروف على تلك الأوضاع وقد لقنها حسا، وحذق فيها دربة وكتاباً، وأخذها قوانين علمية، فتجيء أحسن ما يكون.

وأما أهل الأندلس فافترقوا فى الأقطار عند تلاشى ملك العرب بها ومن خلفهم من البربر، وتغلبت عليهم أمم النصرانية فانتشروا فى عُدوة المغرب وإفريقية، [٤٦ب] من لدن الدولة اللمتونية إلى هذا العهد، وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع، وتعلقوا بأذيال الدولة، فغلب خطهم على الخط الإفريقى وعفا[١٤٦] عليه، ونسى خط القيروان والمهدية بنسيان عوائدهما وصنائعهما، وصارت خطوط أهل إفريقية كلها على الرسم الأندلسى بتونس وما إليها، لتوفر أهل الأندلس بها عند الجالية من شرق الأندلس. وبقى منه رسم ببلاد الجريد[١٦] الذين لم يخالطوا كُتَّاب الأندلس ولا تمرسوا بجوارهم، إنما كانوا يفدون على دار الملك بتونس، فصار خط أهل إفريقية من أحسن خطوط أهل الأندلس. حتى إذا تقلص ظل الدولة المُوَحِّدية[٩٣٦] بعض الشىء، وتراجع أمر الحضارة والترف بتراجع العمران، نقص حينئذ حال الخط وفسدت رسومه، وجُهل فيه وجه التعليم بفساد الحضارة وتناقص العمران. وبقيت فيه آثار الخط الأندلسى تشهد بما كان لهم من ذلك، لما قدمناه من أن الصنائع إذا رسخت بالحضارة فيعسر محوها.[(١٢٨٣ب)] وحصل فى دولة بنى مَرِين[٧٨٠] من بعد ذلك بالمغرب الأقصى لون من الخط الأندلسى، لقرب جوارهم وسقوط من خرج منهم إلى فاس قريباً، واستعمالهم إياهم سائر الدولة.[(١٢٨٣ج)] ونسى عهد الخط فيما بَعُد عن سُدَّة الملك وداره كأنه لم يعرف، فصارت الخطوط بإفريقية والمغربين مائلة إلى الرداء بعيدة عن الجودة، وصارت الكتب إذا انتسخت فلا فائدة تحصل

(١٢٨٣ب) تقدم ذلك فى الفصل الثامن عشر من هذا الباب (فصل فى أن رسوخ الصنائع فى الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها) (انظر صفحة ٩٣٨ وتوابعها).

(١٢٨٣ج) هكذا فى جميع النسخ، والعبارة ركيكة. ويظهر أن معناها أنه قد انتقل إلى المغرب فى عهد دولة بنى مرين لون من الخط الأندلسى لمجاورة المغرب الأقصى للأندلس ولهجرة كثير من الأندلسيين إلى فاس، ولاستخدام بنى مرين لهؤلاء المهاجرين فى بعض الوظائف طوال مدة دولتهم.

لمتصفحها منها إلا العناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الأشكال الخطية عن الجودة، حتى لا تكاد تقرأ إلا بعد عسر، ووقع فيه ماوقع فى سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول. والله أعلم[١٢٨٣د].

[وللأستاذ أبى الحسن على بن هلال الكاتب البغدادى الشهير بابن البواب قصيدة من بحر البسيط[١٢٨٤] على رَوِىِّ الراء يذكر فيها صناعة الخط وموادها من أحسن ما كتب فى ذلك، رأيت إثباتها فى هذا الكتاب من هذا الباب لينتفع بها من يريد تعلم هذه الصناعة، وأولها:

يا من يريد إجادة التحرير ... ويروم حسن الخط والتصوير
إن كان عزمك في الكتابة صادقًا ... فارغب إلى مولاك فى التيسير
أعْدِد من الأقلام كل مُثَقَّف[١٢٨٥] ... صلب يصوغ صناعة التحبير
وإذا عمدت لبريه[١٢٨٦] فَتَوَخَّه ... عند القياس بأوسط التقدير
انظر إلى طرفيه فاجعل بَرْيَه ... من جانب التدقيق والتخصير
واجعل لِجِلْفَته[١٢٨٧] قَوَاما[١٢٨٨] عادلا ... يخلو عن التطويل والتقصير
والشق وسِّطه ليبقى بريه ... من جانبيه مشاكل التقدير
حتي إذا أتقنت ذلك كله ... إتقان طَبٍّ[١٢٨٩] بالمراد خبير
فاصرف لرأى القَطِّ[١٢٨٩ب] عزمَك ... فالقَطُّ فيه جملة التدبير

(١٢٨٣د) فى النسخة «التيمورية»: «والله يحكم لا مُعَقِّب لحكمه» (آية ٤١ من سورة الرعد)، بدلا من: «والله اعلم».

(١٢٨٤) أجزاء بحر البسيط هى مُسْتَفْعِلُنْ فاعِلن أربع مرات؛ والقصيدة الآتية ليست من هذا البحر، بل هى من بحر الكامل وأجزاؤه مُتَفاعِلن ست مرات.

(١٢٨٥) ثقّف الشىء تثقيفا: سوّاه وأقام المعوج منه (من القاموس والمصباح).

(١٢٨٦) برى السهم والقلم يبريه وابتراه: نحته (من القاموس).

(١٢٨٧) «الجِلْفة بكسر الجيم وفتحها من القلم: ما بين مبراه إلى سِنَّته، ومنه قول عبدالحميد الكاتب لسَلْم بن قتيبة وقد رآه يكتب رديئا: «إن كنت تحب أن يجود خطك فَأطِلْ جِلْفَتك وأسمنها وحَرِّفْ قطتك وأيمنْها» (القاموس).

(١٢٨٨) قامة الإنسان والشىء وقَوامه بالفتح، والقَوام كذلك: العدل والاعتدال؛ يقال هو حسن القوام أى القامة أو الاعتدال. (من المصباح والقاموس).

(١٢٨٩) «الطَّبُّ بالفتح: الماهر الحاذق بعمله كالطبيب» (القاموس).

(١٢٨٩ب) قطَّ القلمَ قطًا من باب قتل: قطع رأسه عَرْضا فى بَرْيه.

لا تطمعنْ في أن أبوح بسِرِّه ... إني أضن بسره المستور
لكنَّ جملة ما أقول بأنه ... ما بين تحريف إلى التدوير
وألقْ(١٢٩٠) دواتك بالدخان(١٢٩٠ب) مُدَبِّراً ... بالخل أو بالحِصْرِم(١٢٩١) المعصور
وأضف إليه مَغْرةً(١٢٩٢) قد صُوِّلت(١٢٩٣) ... مع أصفر الزرنيخ والكافور
حتي إذا ماخُمِّرت فاعمد إلى الـ ... ـورق النقى الناعم المخبور
فاكبسه بعد القطع بالمعصار(١٢٩٤) كي ... ينأى عن التشعيث والتغيير
ثم اجعل التمثيل(١٢٩٥) دأبك صابرا ... ما أدرك المأمولَ مثلُ صبور
ابدأ به في اللوح منتضيًا له ... عزما تجرده عن التشمير
لا تخجلنَّ من الرديء تخطه ... في أول التمثيل(١٢٩٥) والتسطير
فالأمر يصعب ثم يرجع هيِّناً ... ولَرُبَّ سَهْل جاء بعد عسير
حتى إذا أدركت ما أملته ... أضحيت رب مسرة وحبور
فاشكر إلهك واتَّبع رضوانه ... إن الإله يجيب كل شكور
وارغب لكفك أن تخط بنانها ... خيرًا تخلفه بدار غرور
فجميع فعل المرء يلقاه غدا ... عند التقاء كتابه المنشور]

(واعلم أن الخط بيان عن القول والكلام، كما أن القول والكلام بيان عما في النفس والضمير من المعاني. فلابد لكل منهما أن يكون واضح الدلالة.

قال الله تعالى: «خَلَقَ الإنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)»(١٢٩٦). وهو يشتمل على بيان الأدلة كلها. فالخط المجَوَّد كمالُه أن تكون دلالته واضحة بإبانة حروفه

(١٢٩٠) لاق الدواة يليقُها لَيْقةً ولَيْقاً وألاقها. جعل لها لِيقةً والليقة: الصوفة أو الخرقة توضع في الدواة ويصب عليها المداد ويضغط عليها بالقلم فيبتل بالمداد فيكتب به (من القاموس).

(١٢٩٠ب) المادة السوداء التي تتكون من الدخان، وكان يصنع منها المداد.

(١٢٩١) الحصْرِم بكسر الحاء والراء: أول العنب مادام أخضر (القاموس).

(١٢٩٢) المَغْرَة بسكون الغين وفتحها: طين أحمر (القاموس).

(١٢٩٣) التصويل إخراج الشيء بالماء (أي إذابته في الماء)، وحنطة مُصَوَّلة (القاموس).

(١٢٩٤) المِعْصَار الذي يجعل فيه الشيء فيعصر (القاموس).

(١٢٩٥) يقصد بالتمثيل تجربة القلم بكتابة أي شيء به ليرى مبلغ صلاحيته.

(١٢٩٦) الآيتان ٣، ٤ من سورة الرحمن وهي سورة ٥٥ .

المتواضَعة، وإجادة وضعها ورسمها، كل واحد على حدة متميزة عن الآخر، إلا ما اصطلح عليه الكُتَّاب فى إيصال حروف الكلمة الواحدة بعضها ببعض، سوى حروف اصطلحوا على قطعها مثل الألف المتقدمة فى الكلمة وكذا الراء والزاى والدال والذال وغيرها، بخلاف ما إذا كانت متأخرة وهكذا إلى آخرها).

[ثم إن المتأخرين من الكتاب اصطلحوا على وصل كلمات بعضها ببعض وحذف حروف معروفة عندهم، لا يعرفها إلا أهل مصطلحهم، فتستعجم على غيرهم. وهؤلاء كتاب دواوين السلطان وسجلات القضاة، كأنهم انفردوا بهذا الاصطلاح عن غيرهم، لكثرة موارد الكتابة عليهم، وشهرة كتابتهم، وإحاطة كثير ممن دونهم بمصطلحهم. فإن كتبوا ذلك لمن لا خبرة له بمصطلحهم فينبغى أن يعدلوا عن ذلك إلى البيان ما استطاعوا، وإلا كان بمثابة الخط الأعجمى، لأنها بمنزلة واحدة فى عدم التواضع عليه. وليس يعذر فى هذا القدر إلا كُتَّاب الأعمال السلطانية فى الأموال والجيوش؛ لأنهم مطالبون بكتمان ذلك عن الناس؛ فإنه من الأسرار السلطانية التى يجب إخفاؤها. فيبالغون فى رسم اصطلاح خاص بهم يصير بمثابة المُعَمَّى. وهو الاصطلاح على العبارة عن الحروف بكلمات من أسماء الطيب والفواكه والطيور أو الأزاهر ووضع أشكال أخرى غير أشكال الحروف المتعارفة يصطلح عليها المتخاطبون لتأدية ما فى ضمائرهم بالكتابة(١٢٩٧) وربما وضع الكتاب للعثور على ذلك. وإن لم يضعوه أولا قوانين بمقاييس(١٢٩٨) استخرجوها لذلك بمداركهم ويسمونها فك المُعَمَّى(١٢٩٩). وللناس فى ذلك دواوين مشهورة ـ والله العليم الحكيم(١٣٠٠)].

(١٢٩٧) هو ما نسميه الآن «الشَّفْرة».

(١٢٩٨) هكذا فى الأصل، وفى الجملة تحريف؛ واستقامتها أن يقال: «وتضمن هذا الكتاب قوانين بمقاييس، ويسمونها فكَّ المُعَمَّى».

(١٢٩٩) هو ما نسميه الآن «الشَّفْرة».

(١٣٠٠) جميع المحصور بين هذه الأقواس (   ) من قوله: «وللأستاذ أبى الحسن بن هلال» إلى آخر الفصل، تزيد به طبعة باريس على الطبعات المتداولة (انظر صفحتى ٣٤٦، ٣٤٧ من الجزء الثانى من طبعة كاترمير)، وهو كذلك مثبت فى النسخة «التيمورية».

٣١ - فصل فى صناعة الوراقة

كانت العناية قديمًا بالدواوين العلمية والسجلات فى نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط. وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة. وقد ذهب ذلك لهذا العهد بذهاب الدولة وتناقص العمران بعد أن كان منه فى الملة الإسلامية بحر زاخر بالعراق والأندلس. إذ هو كله من توابع العمران واتساع نطاق الدولة ونَفاق[٤٤] أسواق ذلك لديهما، فكثرت التآليف العلمية والدواوين، وحرص الناس على تناقلهما فى الآفاق والأعصار فانتسخت وجلدت، وجاءت صناعة الورَّاقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين، واختصت بالأمصار العظيمة العمران.

وكانت السجلات أولا لانتساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانية والإقطاعات والصكوك فى الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد، لكثرة الرّفْه[٥٠٧] وقلة التآليف صدر الملة كما نذكره، وقلة الرسائل السلطانية والصكوك مع ذلك، فاقتصروا على الكتاب فى الرَّقِّ تشريفاً للمكتوبات وميلا بها إلى الصحة والإتقان. ثم طما بحر التآليف والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرَّقُّ على ذلك. فأشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغَد، وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه، واتخذه الناس من بعده صحفًا لمكتوباتهم السلطانية والعلمية، وبلغت الإجادة فى صناعته ما شاءت.

ثم وقفت عناية أهل العلوم وهمم أهل الدول على ضبط الدواوين العلمية وتصحيحها بالرواية المسندة إلى مؤلفيها وواضعيها، لأنه الشأن الأهم من التصحيح والضبط. فبذلك تسند الأقوال إلى قائلها والفُتيا إلى الحاكم بها المجتهد فى طريق استنباطها. وما لم يكن تصحيح المتون بإسنادها إلى مدونها، فلا يصح إسناد قول لهم ولا فُتيا وهكذا كان شأن أهل العلم وحملته فى العصور والأجيال والآفاق؛ حتى لقد قصرت فائدة الصناعة الحديثية فى الرواية على هذه فقط؛ إذ ثمرتها الكبرى، من معرفة صحيح الأحاديث وحسنها ومسندها ومرسلها ومقطوعها وموقوفها من موضوعها،

قد ذهبت[١٣٠١]، وتمخضت زُبْدَة فى تلك الأمهات المتلقاة بالقبول عند الأمة[١٣٠٢]، وصار القصد إلى ذلك لغوا من العمل، ولم تبق ثمرة الرواية والاشتغال بها إلا فى تصحيح تلك الأمهات الحديثية وسواها من كتب الفقه للفتيا وغير ذلك من الدواوين والتآليف العلمية واتصال سندها بمؤلفيها، ليصح النقل عنهم والإسناد إليهم.

وكانت هذه الرسوم بالمشرق والأندلس معبَّدَةَ الطرق واضحة المسالك ولهذا نجد الدواوين المنتسخة لذلك العهد فى أقطارهم على غاية من الإتقان والإحكام والصحة. ومنها لهذا العهد بأيدى الناس فى العالم أصول عتيقة تشهد ببلوغ الغاية لهم فى ذلك. وأهل الآفاق يتناقلونها إلى الآن ويشدون عليها يد الضَّنانة[١٣٠٣]. ولقد ذهبت هذه الرسوم لهذا العهد جملة المغرب وأهله لانقطاع صناعة الخط والضبط والرواية منه بانتقاص عمرانه وبداوة أهله، وصارت الأمهات والدواوين تنسخ بالخطوط اليدوية، ينسخها طلبة البربر صحائف مستعجمة برداءة الخط وكثرة الفساد والتصحيف، فتستغلق على متصفحها ولا يحصل منها فائدة إلا فى الأقل النادر، وأيضًا فقد دخل الخلل من ذلك فى الفُتيا فإن غالب الأقوال المعزوة غير مروية عن أئمة المذهب، وإنما تتلقى من تلك الدواوين على ما هى عليه. وتبع ذلك أيضًا ما يتصدى إليه بعض أئمتهم من التآليف، لقلة بصرهم بصناعته، وعدم الصنائع الوافية بمقاصده. ولم يبق من هذا الرسم بالأندلس إلا أثارة[١٣٠٤] خفية بالامِّحاء وهى على الاضمحلال. فقد كاد العلم ينقطع بالكلية من المغرب. والله غالب على أمره.

(١٣٠١) الحديث الموضوع هو المكذوب المفترى على الرسول عليه السلام، ويعرف الوضع بإقرار الوضاع ولو ضمنا، وبقرائن يدركها علماء الحديث: منها ما يؤخذ من حال الراوى؛ ومنها ما يؤخذ من المروى كأن يكون مناقضا لنص القرآن أو السنة المتواترة أو الإجماع القطعى أو صريح العقل. وينقسم ما عداه أقساما كثيرة أشار ابن خلدون إلى بعضها فى الفصل الخاص بعلوم الحديث (الفصل الثانى عشر من الباب السادس بحسب ترتيبنا) وسنشرح المصطلحات التى ذكرها ابن خلدون هنا وهناك فى تعليقاتنا على فصل الحديث (انظر تعليقات ١٣٤٦ب، ١٣٤٦ج، ١٣٤٧، ١٣٤٧ب).

(١٣٠٢) يقصد كتب الحديث المعتمدة كالبخارى ومسلم، وهى التى سيتكلم عليها فى فصل الحديث (الفصل الثانى عشر من الباب السادس بحسب ترتيبنا).

(١٣٠٣) ضنَّ بالشىء يَضِنّ من باب تعب ضنًا وضنَّة وضَنانة بالفتح: بخل، فهو ضنين؛ ومن باب ضرب لغة (المصباح).

(١٣٠٤) الأثارة البقية من العلم تؤثر (القاموس) ومنه قوله تعالى: ﴿ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آية ٤ من سورة الأحقاف وهى سورة ٤٦).

ويبلغنا لهذا العهد أن صناعة الرواية قائمة بالمشرق[١١٢٥]، وتصحيح الدواوين لمن يرومه بذلك سهل على مبتغيه، لنَفَاق[٤٤] أسواق العلوم والصنائع كما نذكرهُ بعد إلا أن الخط الذى بقى من الإجادة فى الانتساخ هنالك إنما هو للعجم وفى خطوطهم. وأما النسخ بمصر ففسد كما فسد بالمغرب وأشد. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

٣٢ـ فصل فى صناعة الغناء

هذه الصناعة هى تلحين الأشعار الموزونة بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة يوقع على كل صوت منها توقيعًا عند قطعه فيكون نغمة، ثم تؤلف تلك النغم بعضها إلى بعض على نسب متعارفة، فيلذ سماعها لأجل ذلك التناسب، وما يحدث عنه من الكيفية فى تلك الأصوات. وذلك أنه تبين فى علم الموسيقى أن الأصوات تتناسب فيكون: صوت؛ نصف صوت؛ وربع آخر؛ وخُمْس آخر؛ وجزءًا من أحد عشر من آخر. واختلاف هذه النسب عند تأديتها إلى السمع يخرجها من البساطة إلى التركيب. وليس كل تركيب منها ملذوذًا عند السماع، بل للملذوذ تراكيب خاصة هى التى حصرها أهل علم الموسيقى، وتكلموا عليها كما هو مذكور فى موضعه. وقد يساوق ذلك التلحين فى النغمات الغنائية بتقطيع أصوات أخرى من الجمادات إما بالقرع أو بالنفخ فى الآلات تتخذ لذلك، فترى لها لذة عند السماع. فمنها لهذا العهد أصناف. منها ما يسمونه الشبَّابة، وهى قصبة جوفاء بأبخاش فى جوانبها معدودة ينفخ فيها فتُصَوِّت ويخرج الصوت من جوفها على سدادة من تلك الأبخاش، ويقطع الصوت بوضع الأصابع من اليدين جميعًا على تلك الأبخاش وضعًا متعارفًا، حتى تحدث النسب بين الأصوات فيه، وتتصل كذلك متناسبة فيلتذ السمع بإدراكها للتناسب الذى ذكرناه. ومن جنس هذه الآلة المزمار الذى يسمى الزلامى وهو شكل القصبة منحوتة الجانبين من الخشب، جوفاء من غير تدوير لأجل ائتلافها من قطْعتين منفردتين كذلك بأبخاش معدودة، ينفخ فيها بقصبة صغيرة توصل فينفذ النفخ بواسطتها إليها، وتصَوِّت بنغمة حادة يجرى فيها من تقطيع الأصوات من تلك الأبخاش بالأصابع مثل مايجرى فى الشَّبَّابة.

ومن أحسن آلات الزمر لهذا العهد البوق. وهو بوقٌ من نحاس أجوف فى مقدار الذراع يتسع إلى أن يكون انفراج مخرجه فى مقدار دون الكف فى شكل بَرْى القلم، وينفخ فيه بقصبة صغيرة تؤدى الريح من الفم إليه، فيخرج الصوت ثخينًا دويّا، وفيه أبخاش أيضاً معدودة، وتُقطع نغمة منها كذلك بالأصابع على التناسب، فيكون ملذوذًا. ومنها آلات الأوتار وهى جوفاء كلها، إما على شكل قطعة من الكرة مثل البربط والرباب، أو على شكل مربع كالقانون توضع الأوتار على بسائطها مشدودة فى رأسها إلى دُسُرٍ[١٢٣٧] جائلة ليتأتى شد الأوتار ورخوها عند الحاجة إليه بإدارتها. ثم تقرع الأوتار إما بعود أو بوتر مشدود بين طرفى قوس يمر عليها بعد أن يطلى بالشمع والكندر، ويقطع الصوت فيه بتخفيف اليد فى إمراره أو نقله من وتر إلى وتر. واليد اليسرى مع ذلك فى جميع آلات الأوتار توقع بأصابعها على أطراف الأوتار فيما يقرع أو يحك بالوتر، فتحدث الأصوات متناسبة ملذوذة. وقد يكون القرع فى الطسوت بالقضبان أو فى الأعواد بعضها ببعض على توقيع متناسب يحدث عنه التلذذ بالمسموع.

ولنبين لك السبب فى اللذة الناشئة عن الغناء. وذلك أن اللذة كما تقرر فى موضعه هى إدراك الملائم، والمحسوس إنما تدرك منه كَيْفيَّةٌ، فإذا كانت مناسبة للمدرِك وملائمة كانت ملذوذة، وإذا كانت منافية له منافرة كانت مؤلمة.

فالملائم من الطعوم ما ناسبت كيفيته حاسة الذوق فى مزاجها، وكذا الملائم من الملموسات، وفى الروائح ما ناسب مزاج الروح القلبى البخارى لأنه المدرِك، وإليه تؤديه الحاسة. ولهذا كانت الرياحين والأزهار العطريات أحسن رائحة وأشد ملاءمة للرواح لغلبة الحرارة فيها التى هى مزاج الروح القلبى وأما المرئيات والمسموعات فالملائم فيها تناسب الأوضاع فى أشكالها وكيفاتها، فهو أنسب عند النفس وأشد ملاءمة لها. فإذا كان المرئى متّناسباً فى أشكاله وتخاطيطه التى له بحسب مادته بحيث لا يخرج عما تقتضيه مادته الخاصة من كمال المناسبة والوضع، وذلك هو معنى الجمال والحسن فى كل مدرك، كان ذلك حينئذ مناسباً للنفس المدركة، فتلتذ بإدراك ملائمها. ولهذا تجد العاشقين المستهترين فى المحبة يعبرون عن غاية محبتهم وعشقهم بامتزاج أرواحهم بروح المحبوب. وفى هذا سر تفهمه إن كنت من أهله، وهو

اتحاد المبدأ وأن كل ما سواك إذا نظرته وتأملته رأيت بينك وبينه اتحاداً فى البداية، يشهد لك به اتحادكما فى الكون. ومعناه من وجه آخر أن الوجود يشرك بين الموجودات كما تقوله الحكماء فتود أن تمتزج بما شاهدت فيه الكمال لتتحد به، بل تروم النفس حينئذ الخروج عن الوهم إلى الحقيقة التى هى اتحاد المبدأ والكون. ولما كان أنسب الأشياء إلى الإنسان وأقربها إلى أن يدرك الكمال تناسب موضوعها هو شكله الإنسانى فكان إدراكه للجمال والحسن فى تخاطيطه وأصواته من المدارك التى هى أقرب إلى فطرته، فيلهج كل إنسان بالحسن من المرئى أو المسموع بمقتضى الفطرة.

والحسن فى المسموع أن تكون الأصوات متناسبة لا متنافرة. وذلك أن الأصوات لها كيفيات من الهمس والجهر والرخاوة والشدة والقلقلة والضغط وغير ذلك، والتناسب فيها هو الذى يوجب لها الحسن، فأولا ألا يخرج من الصوت إلى ضده[١٣٠٤ب] دفعة بل بتدريج، ثم يرجع كذلك، وهكذا إلى المثل[١٣٠٤ج]، بل لابد من توسط المغُاير بين الصوتين. وتأمل هذا من افتتاح أهل اللسان التراكيب من الحروف المتنافرة أو المتقاربة المخارج، فإنه من بابه. وثانيًا تناسبها فى الأجزاء كما مر أول الباب، فيخرج من الصوت إلى نصفه أو ثلثه أو جزء من كذا منه، على حسب ما يكون التنقل مناسباً على ما حصره أهل الصناعة. فإذا كانت الأصوات على تناسب فى الكيفيات كما ذكره أهل تلك الصناعة كانت ملائمة ملذوذة، ومن هذا التناسب ما يكون بسيطًا ويكون الكثير من الناس مطبوعًا عليه لا يحتاجون فيه إلى تعليم ولا صناعة، كما نجد المطبوعين على الموازين الشعرية وتوقيع الرقص وأمثال ذلك. وتسمى العامة هذه القابلية بالمضمار.

وكثير من القراء بهذه المثابة يقرءون القرآن فيجيدون فى تلاحين أصواتهم كأنها المزامير فيطربون بحسن مساقهم وتناسب نغماتهم. ومن هذا التناسب ما يحدث بالتركيب. وليس كل الناس يستوى فى معرفته ولا كل الطباع توافق صاحبها فى العمل به إذا علم. وهذا هو التلحين الذى

(١٣٠٤ب) فى جميع النسخ «إلى مده» وهو تحريف.

(١٣٠٤ج) أى وهكذا لا يخرج الصوت إلى مماثله دفعة بل لابد من توسط المغاير بين الصوتين المتماثلين.

يتكفل به علم الموسيقى كما نشرحه بعد عند ذكر العلوم وقد أنكر مالك رحمه الله تعالى القراءة بالتلحين، وأجازها الشافعى رضى الله تعالى عنه(١٣٠٤د) وليس المراد تلحين الموسيقى الصناعى فإنه لا ينبغى أن يُخْتَلَف فى حظره، إذ صناعة الغناء مباينة للقرآن بكل وجه. لأن القراءة والأداء تحتاج إلى مقدار من الصوت لتعيين أداء الحروف من حيث اتباع الحركات فى موضعها ومقدار المد عند من يطلقه أو يقصره وأمثال ذلك والتلحين أيضاً يتعين له مقدار من الصوت لا يتم إلا به من أجل التناسب الذى قلناه فى حقيقة التلحين؛ واعتبار أحدهما قد يخل بالآخر إذا تعارضا، وتقديم الرواية متعين من تغيير الرواية المنقولة فى القرآن(١٣٠٥) فلا يمكن اجتماع التلحين والأداء المعتبر فى القرآن بوجه. وإنما مرادهم التلحين البسيط الذى يهتدى إليه صاحب المضمار بطبعه كما قدمناه. فيردد أصواته ترديداً على نسب يدركها العالم بالغناء وغيره. ولا ينبغى ذلك بوجه كما قاله مالك. هذا هو محل الخلاف.

والظاهر تنزيه القرآن عن هذا كله كما ذهب إليه الإمام رحمه الله تعالى. لأن القرآن محل خشوع بذكر الموت وما بعده، وليس مقام التلذذ بإدراك الحسن من الأصوات. وهكذا كانت قراءة الصحابة رضى الله عنهم كما فى أخبارهم.

(١٣٠٤د) يعتمد الذين يجيزون الغناء على حديث لأبى هريرة رواه البخارى بنصين وسندين: (أحدهما) حدثنا يحيى بن بكير.. عن أبى هريرة رضى الله عنه كان يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لم يأذن الله لشىء ما أذن للنبى ﷺ يتغنى بالقرآن»؛ (والآخر) حدثنا على بن عبدالله.. عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «ما أذن الله لشىء ما أذن للنبى ﷺ أن يتغنى بالقرآن».

وأما الذين لا يجيزون التغنى، فيقولون إن كلمة «التغنى» فى هذا الحديث معناها الجهر بالقرآن أو الاستغناء به عن غيره. والبخارى نفسه قد اتبع النصين السابقين بما يفيد هذا التأويل، فقال بعد أن أورد النص الأول: «وقال صاحب له يريد يجهر به»؛ وقال بعد أن أورد النص الثانى: «قال سفيان تفسيره يُستغنى به». وعَنْوَنَ البابَ بما يفيد أنه يؤيد تفسير التغنى بالاستغناء بالقرآن عن غيره، فقال: «باب من لم يتغن بالقرآن، وقوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ (آية ٥١ من سورة العنكبوت، وهى سورة ٢٩).

انظر الجزء الثالث من صحيح البخارى صفحة ١٤٣ (المطبعة البهية سنة ١٣٤٣).

(١٣٠٥) العبارة ركيكة، والمقصود أنه حينما يقتضى التلحين الغنائى تغيير الرواية المنقولة بشأن تلاوة القرآن وأداء حروفه فإنه يتعين تقديم الرواية على مقتضيات التلحين.

وأما قوله ﷺ: «لقد أوتى مزمارًا من مزامير آل داود»[١٣٠٦] فليس المراد به الترديد والتلحين، إنما معناه حسن الصوت وأداء القراءة والإبانة فى مخارج الحروف والنطق بها.

وإذ قد ذكرنا معنى الغناء فاعلم أنه يحدث فى العمران إذا توفر[٦٠] وتجاوز حد الضرورى إلى الحاجى[٤٣٩ب] ثم إلى الكمالى وتفننوا فتحدث هذه الصناعة لأنه لا يستدعيها إلا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره؛ فلا يطلبها إلا الفارغون عن سائر أحوالهم تفننًا فى مذاهب الملذوذات.

وكان فى سلطان العجم قبل الملة منها بحر زاخر فى أمصارهم ومدنهم وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون به؛ حتى لقد كان لملوك الفرس اهتمام بأهل هذه الصناعة، ولهم مكان فى دولتهم، وكانوا يحضرون مشاهدهم ومجامعهم ويغنون فيها وهذا شأن العجم لهذا العهد فى كل أفق من آفاقهم، ومملكة من ممالكهم.

وأما العرب فكان لهم أولا فن الشعر يؤلفون فيه الكلام أجزاء متساوية على تناسب بينها فى عدة حروفها المتحركة والساكنة، ويفصلون الكلام فى تلك الأجزاء تفصيلا يكون كل جزء منها مستقلا بالإفادة لا ينعطف على الآخر، ويسمونه البيت، بتلائم الطبع بالتجزئة أولاً، ثم بتناسب الأجزاء فى المقاطع والمبادئ، ثم بتأدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليها. فلهجوا به، فامتاز من بين كلامهم بحظ من الشرف ليس لغيره لأجل اختصاصه بهذا التناسب. وجعلوه ديوانًا لأخبارهم وحكمهم وشرفهم ومحكًّا لقرائحهم فى إصابة المعانى وإجادة الأساليب واستمروا على ذلك. وهذا التناسب الذى من أجل الأجزاء والمتحرك والساكن من الحروف قطرة من بحر من تناسب الأصوات كما هو معروف فى كتب الموسيقى. إلا أنهم لم يشعروا بما سواه، لأنهم حينئذ لم ينتحلوا علمًا ولا عرفوا صناعة، وكانت البداوة أغلب نحلهم. ثم تغنى الحُداةُ[١٢٣٧] منهم فى حُداء[١٢٣٧] إبلهم، والفتيان فى فضاء خلواتهم فرجَّعوا الأصوات وترنموا، وكانوا يسمون الترنم إذا كان بالشعر غناء، وإذا كان بالتهليل أو نوع

(١٣٠٦) يشير بذلك إلى حديث البخارى فى باب حسن الصوت بالقراءة وهو: حدثنا محمد بن خلف أبو بكر.. عن أبى موسى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال له: «يا أبا موسى لقد أوتيت مزمارا من مزامير داود». انظر الجزء الثالث من صحيح البخارى ص ١٤٥ (المطبعة البهية سنة ١٣٤٣).

القراءة تغيراً بالغين المعجمة والباء الموحدة. وعللها أبو إسحق الزَّجَّاج بأنها تذكر بالعابر وهو الباقى، أى بأحوال الآخرة. وربما ناسبوا فى غنائهم بين النغمات مناسبة بسيطة كما ذكره ابن رشيق آخر كتاب العمدة وغيره، وكان يسمونه السِّناد. وكان أكثر ما يكون منهم فى الخفيف(١٣٠٧) الذى يرقص عليه ويمشى بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحلوم. وكانوا يسمون هذا الهَزَج. وهذا البسيط كله من التلاحين هو من أوائلها. ولا يبعد أن تتفطن له الطباع من غير تعليم شأن البسائط كلها من الصنائع. ولم يزل هذا شأن العرب فى بداوتهم وجاهليتهم.

فلما جاء الإسلام واستولوا على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم وغلبوهم عليه وكانوا من البداوة والغضاضة[٤٩٩ب] على الحال التى عرفت لهم مع غضارة[٤٠٤ب] الدين وشدته فى ترك أحوال الفراغ، وما ليس بنافع فى دين ولا معاش، فهجروا ذلك شيئا ما، ولم يكن الملذوذ عندهم إلا ترجيع القراءة والترنم بالشعر الذى هو دينهم ومذهبهم. فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرَّفه[٥٠٧] بما حصل لهم من غنائم لأمم صاروا إلى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ. وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا إلى الحجاز وصاروا موالى للعرب، وغنوا جميعًا بالعيدان والطنابير والمعازف والزمامير، وسمع العرب تلحينهم للأصوات فلحنوا عليها أشعارهم وظهر بالمدينة نشيط الفارسى وطويس وسائب جاثر مولى عبيد الله بن جعفر، فسمعوا شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه وطار لهم ذكر. ثم أخذ عنهم معبد وطبقته وابن سريج وأنظاره. ومازالت صناعة الغناء تتدرج إلى أن كملت أيام بنى العباس عند إبراهيم بن المهدى وإبراهيم الموصلى وابنه إسحق وابنه حماد. وكان من ذلك فى دولتهم ببغداد ما تبعه الحديث بعده به وبمجالسه لهذا العهد. وأمعنوا فى اللهو واللعب واتخذت آلات الرقص فى الملبس والقضبان والأشعار التى يترنم بها عليه، وجعل صنفًا وحده. واتخذت آلات أخرى للرقص تسمى بالكرج، وهى تماثيل خيل مسرجة من الخشب، معلقة بأطراف أقبية يلبسها النسوان، ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكرون ويفرون ويثاقفون(١٣٠٨)، وأمثال ذلك من اللعب المعد للولائم

(١٣٠٧) هو بحر من بحور الشعر وأجزاؤه فاعلاتن مُسْتَفْعِ لُنْ فاعلاتن مرتين.

(١٣٠٨) ثَقِفْتُ الرجل فى الحرب من باب تعب أدركته، وثَقِفْتُه ظفرت به، وتثاقفا حاول كل منهما أن يدرك الآخر ويظفر به.

والأعراس وأيام الأعياد ومجالس الفراغ واللهو. وكثر ذلك ببغداد وأمصار العراق وانتشر منها إلى غيرها. وكان للموصليين غلام اسمه زرياب أخذ عنهم الغناء فأجاد فصرفوه إلى المغرب غيرة منه فلحق بالحكم بن هاشم بن عبدالرحمن الداخل أمير الأندلس، فبالغ فى تكرمته، وركب للقائه وأسنى له الجوائز والإقطاعات والجرايات، وأحله من دولته وندمائه بمكان، فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف، وطما منها بإشبيلية بحر زاخر، وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها إلى بلاد العُدْوَة بإفريقية والمغرب، وانقسم على أمصارها، وبها الآن منها صَبابةٌ على تراجع عمرانها وتناقص دولها.

وهذه الصناعة آخر ما يحصل فى العمران من الصنائع لأنها كمالية فى غير وظيفة من الوظائف، إلا وظيفة الفراغ والفرح، وهى أيضًا أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه. والله أعلم.

٣٣ـ فصل فى أن الصنائع تكسب صاحبها عقلا وخصوصا الكتابة والحساب

قد ذكرنا فى الكتاب[١٣٠٩]. أن النفس الناطقة للإنسان إنما توجد فيه بالقوة، وأن خروجها من القوة إلى الفعل إنما هو بتجدد العلوم والإدراكات عن المحسوسات أولاً، ثم ما يكتسب بعدها بالقوة النظرية إلى أن يصير إدراكا بالفعل وعقلا محضا، فتكون ذاتًا روحانية وتستكمل حينئذ وجودها. فوجب لذلك أن يكون كل نوع من العلم والنظر يفيدها عقلا فريدا. والصنائع أبدًا يحصل عنها وعن ملكتها قانون علمى مستفاد من تلك الملكة. فلهذا كانت الحُنْكَة فى التجربة تفيد عقلا، والملكات الصناعية تفيد عقلا، والحضارة الكاملة تفيد عقلا، لأنها مجتمعة من صنائع فى شأن تدبير المنزل، ومعاشرة أبناء الجنس، وتحصيل الآداب فى مخالطتهم، ثم القيام بأمور الدين واعتبار آدابها وشرائطها، وهذه كلها قوانين تنتظم علومًا فيحصل منها زيادة عقل.

(١٣٠٩) أشار إلى ذلك فى الفصل السادس عشر من هذا الباب (انظر ص ٨٦٠ وتوابعها) وسيعرض لذلك فى عدة فصول من الباب السادس.

والكتابة من بين الصنائع أكثر إفادة لذلك، لأنها تشتمل على العلوم والأنظار بخلاف الصنائع. وبيانه أن فى الكتابة انتقالا من الحروف الخطية إلى الكلمات اللفظية فى الخيال، ومن الكلمات اللفظية فى الخيال إلى المعانى التى فى النفس، وذلك دائمًا. فيحصل لها ملكة الانتقال من الأدلة إلى المدلولات وهو معنى النظر العقلى الذى يكسب العلوم المجهولة، فيكسب بذلك ملكة من التعقل تكون زيادة عقل ويحصل به قوة فطنة وكَيْسٍ فى الأمور لما تعود من ذلك الانتقال. ولذلك قال كسرى فى كُتَّابه لما رآهم بتلك الفطنة والكيس، فقال «ديوانة» أى شياطين وجنون. قالوا وذلك أصل اشتقاق الديوان لأهل الكتابة. ويلحق بذلك الحساب؛ فإن فى صناعة الحساب نوع تصرف فى العدد بالضم والتفريق، يحتاج فيه إلى استدلال كثير، فيبقى متعوداً للاستدلال والنظر. وهو معنى العقل. والله أعلم.

(تعقيب)

* (صفحة ٤٩٢ السطر الخامس قبل الأخير) يقصد بكلمة «الحساب» العدد؛ ويدل عليه قوله فيما بعد: «وإلا فقد يدثر البيت من دون الأربعة». ويمكن أن تكون الكلمة محرفة عن «الحسب»؛ ويدل عليه قوله فيما بعد: «وقد اعتمدت الأربعة فى نهاية الحسب...».

* (صفحة ٤٩٣ السطر الرابع) فى جميع النسخ «عزيف الغوانى» وهو تحريف وصوابه «عويف القوافى». وقد ذكر له صاحب الأغانى صوتًا فى بيتين، ثم قال: «الشعر لعويف القوافى الفزارى»، ثم أخذ يترجم له فقال: «هو عويف ابن معاوية بن عقبة بن حصن بن حذيفة بن بدر.... بن فزاره... بن قيس بن عيلان (صوابه قيس عيلان) بن مضر بن نزار. وهو شاعر مقل من شعراء الدولة الأموية من ساكنى الكوفة. وبيته أحد البيوتات المقدمة الفاخرة فى العرب... وقال ابن الكلبى قال كسرى للنعمان (إلى آخر النص الذى ذكره ابن خلدون مع تغيير يسير)».

* (صفحة ٥٢٧ السطر الثالث قبل الأخير) علق ابن الأزرق فى كتابه «بدائع السلك فى نظام الملك» على ما ذكره ابن خلدون فى هذا الفصل فى صدد دولة الموحدين وأنها تناهز لهذا العهد مائتين وسبعين سنة، فقال: «إن هذا يتناقض مع ما قرره فى الفصل الرابع عشر من هذا الباب من أن عمر الدولة لا يتجاوز مائة وعشرين سنة». غير أنه يلاحظ أن ابن خلدون لم يطلق هذا الحكم، بل قال: «وأما أعمار الدول. وإن كانت تختلف بحسب القرانات، إلا أن الدولة فى الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال» (أى مائة وعشرين سنة). ومهما يكن فإن آراء ابن خلدون فى هذا الموضوع وماشاكله لا تصدق إلا على طائفة من الدول التى شهدها أو وصلت إليه أخبارها (انظر صفحتى ٢٢٧، ٢٢٨ من الجزء الأول والتعليق رقم ٣٨٩ب).

هذا، وقد ولد القاضى ابن الأزرق سنة ٨٣٢هـ أى بعد وفاة ابن خلدون بنحو أربع وعشرين سنة، وتوفى سنة ٨٩٦هـ، ويحمل كتابه هذا عنوان «بدائع السلك فى

نظام الملك» أو «بدائع السلوك فى نظام الملوك». ومنذ عهد قريب طبع هذا المخطوط مع بعض تعليقات للتعريف بما ورد فيه من أسماء مؤلفات وأعلام.

ومعظم ما فى هذا الكتاب منقول عن القسم السياسى من مقدمة ابن خلدون، إما بالنص من غير تعديل أو مع تعديل يسير، وإما بالمعنى. والمسائل التى لم ينقلها عن ابن خلدون قد نقلها عن مؤلفات سابقة، وخاصة عن مؤلفات ابن حزم وأبى بكر بن العربى والطرطوشى والغزالى.

ويختلف كتابه هذا عن مقدمة ابن خلدون اختلافًا جوهريا من وجوه كثيرة، يرجع أهمها إلى الأمرين الآتيين:

(١) كتاب ابن الأزرق مقصور على شئون السياسة والملك، على حين أن مقدمة ابن خلدون تعالج جميع شئون الاجتماع الإنسانى. فشئون السياسة والملك ليست إلا بابًا واحداً من أبواب المقدمة (انظر صفحات ١٧٥-١٨٤ من تمهيدنا للمقدمة).

(٢) تختلف أغراض المؤلف فى دراسته لشئون السياسة والملك التى اقتصر عليها عن أغراض ابن خلدون فى دراسته لهذه الشئون اختلافًا كبيراً. فالأغراض التى قصد إليها المؤلف لا تخرج عن غرضين: أحدهما وصف الأحوال السياسية على ما كانت عليه وما هى عليه؛ والآخر بيان ما ينبغى اتخاذه بصددها وخاصة من جهة نظر الإسلام. وهو فى كلا الغرضين مجرد ناقل عن غيره وليس له رأى مبتكر ولا أصيل. وأما الغرض الأساسى لابن خلدون فى دراسته لشئون السياسة والملك فيتمثل فى الكشف عن السنن الكونية والقوانين العامة التى تحكم هذه الظواهر والبحث عن العوامل المؤثرة فى نشأتها وتطورها واختلافها باختلاف الأزمنة والأمكنة. وهكذا كان غرضه فى دراسته لجميع الشئون الأخرى من مظاهر الاجتماع الإنسانى - وهو إذا عرض لوصف الظواهر وبيان ما كانت عليه وما هى عليه فإنه لا يعرض لذلك لمجرد الوصف التاريخى، وإنما يعرض له ليكون مادة للتأمل والبحث عن الأسباب والمسببات وربط المقدسات بنتائجها اللازمة، وليس من أغراض ابن خلدون بيان ما ينبغى أن يكون، ولا يعرض لذلك إلا نادراً وبحسب المناسبات.

***

فابن الأزرق مجرد مؤرخ ومقرر لما ينبغى أن يكون. وهو فى هذا كله عالة على غيره. وابن خلدون عالم يتأمل فى حركة الظواهر ليستخلص منها بثاقب نظره القوانين المشرفة على هذه الحركة. واتجاهه هذا اتجاه أصيل لم يسبقه أحد إليه. بل لم يستطع أحد أن يتابعه فيه فى مدى القرون الثلاثة التالية له.

وابن الأزرق لم يعرض إلا لنوع واحد من أنواع الظواهر الاجتماعية وهو الخاص بشئون السياسة والملك. وأما ابن خلدون فقد عرض لمعظم أنواع هذه الظواهر (انظر كلمة عن ابن الأزرق وكتابه فى صفحة ٢٣٧ من تمهيدنا للمقدمة).

(صفحة ٥٤٤ تعليق ٥١٣) «إياكم وخضراء الدمن... إلخ»، الصحيح أن هذا أثر عربى وليس حديثًا نبويًا.

ص ٥٤٨ السطر الرابع، «وفى تاريخ ابن الرقيق». ـ المشهور أن اسمه «الرقيق» بدون «ابن»، وهو مؤلف «تاريخ إفريقية والمغرب». وقد عثر على قسم مخطوط من هذا الكتاب، وطبع هذا القسم سنة ١٩٦٨ بتحقيق الأستاذ منجى الكعبى التونسى. وقد ذكره ابن خلدون كذلك تحت اسم «ابن الرقيق» فى صفحة ٢٨٤ من الجزء الأول وفى صفحة ٧٦٨ من الجزء الثانى، وفى صفحة ١١٥٢ من الجزء الثالث.

(صفحة ٥٨١ تعليق ٦٢٨) روى الإمام البخارى هذا الحديث بروايتين، وكلتاهما عن عمر بن الخطاب، لأن هذا الحديث غريب لم يروى إلا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه:

(إحداهما) «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه». وهذا هو أول حديث فى صحيح البخارى، وقد صدر به «باب بدء الوحى».

(والرواية الأخرى) «الأعمال بالنية، ولكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه». وقد أورد البخارى هذه الرواية الأخيرة فى باب «ما جاء إن الأعمال بالنية». وما ذكره ابن خلدون متفق مع نص هذه الرواية الأخيرة.

* (صفحة ٧٣٧ السطور ٤-١٢، ١٣، ١٤، ١٩، وصفحة ٧٣٨ السطر الخامس) عاصم بن أبى النجود (بفتح النون) هو أحد القراء السبعة، وله رواة كثيرون اعتمد منهم ابن مجاهد راويين: أحدهما حفص الكوفى «وروايته هى قراءة عاصم عن عبدالله بن جيب السلمى (بضم السين وفتح اللام) عن عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وزيد بن ثابت وأُبَىّ ابن كعب عن النبى عليه السلام؛ والآخر هو شعبة (بضم الشين) بن عياش الكوفى، وروايته هى قراءة عاصم عن زِرٍّ بن حُبَيْش (بكسر الزاى وضم الحاء) عن عبدالله بن مسعود عن النبى عليه السلام. ورواية حفص هى التى تقرأ بها أهل مصر وكثير من البلاد الإسلامية الأخرى.

وأما الأعمش فهو أحد القراء الأربعة بعد العشرة، وهو كوفى. وقراءته معدودة من القراءات الشاذة، ولكنه ثقة فى الحديث، فالإمام البخارى نفسه يروى عنه.

* (ص ٨٠١، ٨٠٢ الفصل التاسع) انظر فى بيان ما يقصده ابن خلدون من كلمة العرب فى هذا الفصل ما ذكرناه فى صفحات ٢٣٦، ٢٤١، ٢٤٢ من الجزء الأول فى القسم الخاص بتمهيدنا للمقدمة. وانظر فى بيان ما يقصده ابن خلدون من كلمة العرب فى هذا الفصل وفى فصول أخرى صفحات ٢٣٤-٢٤٢ من الجزء الأول من هذه الطبعة.

* (ص٨٥٦ تعليق ١٢٢٨حـ) قد تجىء الفاء فى الخبر للدلالة على السببية، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (آية ٢٧٤ من سورة البقرة)، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (آية ٥٧ من سورة الحج). - ولكن الخبر فى عبارة ابن خلدون ليس فيه معنى السببية.

فهرس
بموضوعات الجزء الثانى [1]

(الموضوع) (الصفحة)

الباب الثانى
فى العمران البدوى والأمم الوحشية والقبائل
وما يعرض فى ذلك من الأحوال وفيه فصول وتمهيدات

(١) سنقتصر هنا على فهرس مجمل لأبواب هذا الجزء وفصوله، مرجئين الفهرسين اللذين أشرنا إليهما فى التمهيد إلى نهاية الطبعة الثالثة للجزء الأخير من المقدمة.

الباب الثالث:
فى الدول العربية والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض فى ذلك كله من الأحوال، وفيه قواعد ومتممات

(١) هذا الفصل هو أحد الفصول التى تزيد بها طبعة باريس عن الطبعات المتداولة فى العالم العربى.

الباب الرابع:
فى البلدان والأمصار وسائر العمران
وما يعرض فى ذلك كله من الأحوال وفيه سوابق ولواحق

الباب الخامس:
فى المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع
وما يعرض فى ذلك كله من الأحوال، وفيه مسائل

(تنبيه)

انتهى الباب الخامس من مقدمة ابن خلدون. ويليه الباب السادس، وهو أول الجزء الثالث من طبعة دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

(تم بحمد الله وجميل توفيقه طبع الجزء الثاني من كتاب «مقدمة ابن خلدون» تأليف العلامة عبدالرحمن بن خلدون، وشرح وتعليق الأستاذ الكبير الدكتور على عبدالواحد وافى، بدار نهضة مصر) .

مقدمة ابن خلدون